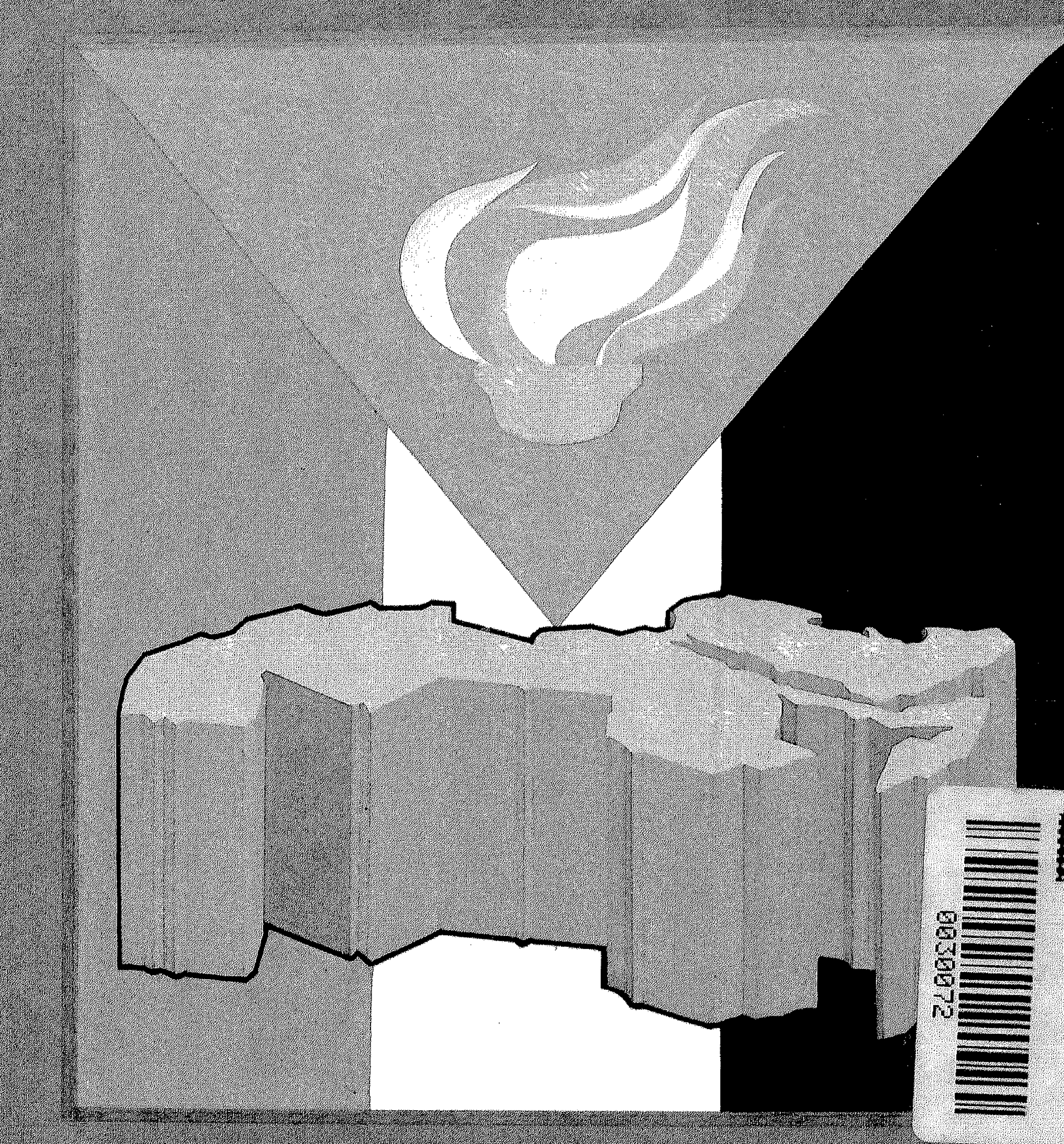
العماد
صطفى طلاس

الثورة العربية الكبرى



كلمة الناشر

منذ إعلان الثورة العربية الكبرى، في العاشر من حزيران سنة ١٩١٦، وحتى يومنا هذا، تَلْقَى تلك الثورة، من العَنَتِ والظُلم والجحود، ما تنوء بحمله رواسي الجبال...

وللمرة الأولى في التاريخ العربي المعاصر، ينبري قائدٌ عسكري، في سَمْت العلماء، وثياب المؤرخين، منتضياً سيفَ الحقّ، رافعاً رايةَ الوفاء، ويتصدّى لهذا الموضوع الخطير، مُحاولاً إنصافَ الثورة العربية الكبرى، ممّن ظلمها، وظلم قادتَها، فَوَضَعَهَا في مَكانها الصحيح، من حركة القومية العربية... فكانت من تلك المحاولة، هذا الكتابُ القيّمُ، الذي أعاد فيه المؤلّف، كتابة تاريخ الثورة العربية الكبرى، بأمانة المؤرّخ مع إيمان المناضل، ودقّة العالم مع جرأة الثائر...

وقد عكفت دار طلاس، على هذا السِّفْر، فسخَّرَتْ له كلَّ ما في وُسْعها، من طاقات بشرية وفنية كي تخْرجه للناس، في أوضح صورة، وأبهى حُلّة... تبتغي من وراء ذلك، بعضَ الأجر عند الله، عَبْر مساهمتها في إعادة الحق إلى نصابه، وكلَّ الرضى عند القرّاء الكرام. واللهُ من وراء القصد...

دار طلاس



دمشق ـــ أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

الثورة العربية الكبرى

الطبعة الرابعة
١٩٨٧

العماد

مصطفى طلاس

الثورة العربية الكبرى



كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ *

---

* سورة آل عمران ، الآية ١١٠



« الرسول العربي »

---

* كان هذا الحديث يتردد باستمرار على لسان قائد الثورة العربية الكبرى الحسين بن علي. وكان الحسين يزيد عليه ويقول: اذا عزت العرب عز الاسلام.

قسم الثورة العربية الكبرى

«أقسم بالله العظيم أن ننتظر حين تنتظر، وأن نسير حين تسير، وأن لا ندين للترك بطاعة، وأن نحسن معاملة كل من يتكلم العربية، وأن نجعل الاستقلال فوق حياتنا وأهلينا وأموالنا.*»

* مذكرات لورنس أعمدة الحكمة السبعة (ج ٢ - ص ١١٠)

الإهداء

إلى الحسين بن عليّ، الذي أطلق الرّصاصة الأولى
في سماء مكّة معلناً بداية الثورة العربيّة الكبرى ضدّ
الأتراك الغزاة الذين دنّسوا ترابنا الوطنيّ
باحتلالهم البغيض.. أُقدّم هذا الكتاب عسى أن
تجد فيه روحه الطاهرة بعض الوفاء والعرفان
بالجميل من بعد هذا الجحود الطويل.

المقدمة

شغفت بالثورة العربية الكبرى منذ نعومة أظفاري ، وأنا كطفل عربي تهزني النخوة العربية وتستثيرني الحمّية الوطنية وتستهويني البطولات العسكرية ... ولقد تجمعت كل هذه المناقب والسجايا الحبيبة على نفس كل انسان ، في الثورة العربية الكبرى التي فجرها الحسين إبن علي في صيف ١٩١٦ عندما أطلق الرصاصة الاولى في سماء مكة المكرمة ، معلنا بداية الجهاد والنضال المسلح ضد الاتراك العثمانيين الذين وطئوا ترابنا العربي باحتلال بغيض امتد أربعة قرون ..

ثمة حافز آخر حبب إليّ هذه الثورة المجيدة ، هو ما تحلى به قائدها « شريف مكة » من خلق كريم ومن مزايا ومناقب تعيدنا الى أيام الشموخ .. الى فجر الاسلام عندما أعلن الرسول العربي في مكة الدعوة الاسلامية مؤذنا بميلاد عهد جديد اهتزت له الدنيا في مشرق الارض ومغربها .. وكانت الثورة الاسلامية .. وكانت وحدة الامة العربية .. على يد رسول الله وخلفائه من بعده .. ولذلك فلا غرو اذا استبشر العرب الخير كله في ثورة الحسين بن علي لان الانطلاقة جاءت من مكان عزيز على قلوب العرب ... ومن رجل حبيب الى قلوب العرب يعود بأصله العريق ومحتده العظيم الى الدوحة الهاشمية الشريفة ، الى هاشم ، اول من ثرد الثريد وهشمه لاهل الحرم .. وهذه دلالة قاطعة على الكرم .. ورجل هذه سجيته لا يمكن الا أن يحوز على كل المناقب التي تشكل القاسم المشترك للاخلاق العربية التي يعتبر الكرم في مقدمتها دونما شك ...

وعندما انتسبت الى حزب البعث العربي الاشتراكي في ربيع عام ١٩٤٧ كان أول ما لفت نظري في دستور الحزب أن علم (البعث) هو علم الثورة العربية الكبرى ولذلك فقد ازداد تقديري لهذه الثورة التي تعبر عن بداية عصر الانطلاق وتحرير أمتنا العظيمة ... من الاحتلال التركي الذي كاد أن يقضي على كل القيم العربية متسترا بجلباب الخلافة الاسلامية ..

وتتالت الايام . . وقرأت كثيرا مما كتب عن هذه الثورة وكانت الغصة تملأ صدري لسببين :

الاول : ان الدول الاستعمارية ، ولا سيما انكلترا وفرنسا قد غدرت بالثورة العربية وقائدها منذ الايام الاولى للثورة ، وقامت بتنفيذ مخططاتها السرية التي كانت بالطبع تتناقض كليا مع مصلحة الامة العربية ، وسعت الدولتان الى تحجيم الثورة عن طريق تقنين شديد للسلاح وضغط على اندفاع قادتها وعدم الاعتراف بعروبة الثورة والتأكيد على طابع الثورة الحجازي والبدوي والسعي بشتى الوسائل لقصر دور الثورة على حرب عصابات محدودة وذلك بغية الحيلولة دون تحقيق انتصارات هامة تعزز ثقة العرب بأنفسهم وتؤكد قدرتهم على تحقيق مطامحهم القومية . لذلك ما تكاد الفرحة الكبرى تملأ نفس المرء في بداية الثورة وانتصاراتها الاولى حتى تتحول الى ألم ممض وحقد عميق ، عندما يلمس الانسان غدر الحلفاء بحليفهم . . كلما تتابعت مسيرة الثورة .

الثاني : الجحود الذي لقيته هذه الثورة منذ قيامها وحتى الوقت الحاضر . وما من حركة ثورية في التاريخ العربي لقيت تجنيا وظلما وتبايناً وتناقضاً في الآراء والاحكام مثل ما لقيته هذه الثورة .

فقد نفر منها اخواننا عرب الجناح الافريقي ، الرازحون تحت السيطرة الاستعمارية الانكليزية والفرنسية والايطالية . ورفضوها عفويا ، بتأثير ظروفهم ، دون أن يقدروا ظروف أخوانهم عرب الجناح الآسيوي ، الرازحين تحت السيطرة التركية الطورانية . ونفرت منها الشعوب الاسلامية الرازحة تحت السيطرة الاستعمارية الانكليزية والفرنسية والروسية للاسباب السابقة نفسها . وكان تعاطف هؤلاء جميعا مع تركيا كرهاً بالحلفاء لا حباً بها ولم يقدروا ظروف عرب المشرق ولا

ظروف قائد الثورة الحسين بن علي حين دفعه ظلم الاتراك وسعيهم للقضاء على الوجود العربي الى التعاون مع الحلفاء وكان شأنه في ذلك شأن الغريق الذي يتعلق بأفعى . وأساء أكثر من كتب عن الثورة العربية فهم الظروف الموضوعية التي رافقت قيامها ولهذا أساؤوا تقديرها .

فمن كتب عنها من غير العرب انما كتب متأثرا بمواقف بلده ومصالحه وفي ضوء ما عثر عليه مما يسمى « وثائق » . وللوثائق عامة ووثائق الثورة العربية خاصة حديث ذو شجون !!

أما موقف الكتاب العرب فهو اكثر غرابة وايلاما ، فبدلا من ان يفهموا ـ وهم أكثر قدرة على ذلك من غيرهم ـ الظروف الموضوعية التي عايشتها الثورة العربية وعاشها زعماؤها ، وهي ظروف ندر مثيلها في التعقيد والصعوبة ـ وبدلا من أن يأخذوا مصادرهم من أفواه رجالاتها ، وبعضهم كان ما يزال حياً الى وقت قريب ، ودماء أبطالها وشهدائها لما تجف بعد . . بدلا من هذا كله تأثروا بغباء أو عن قصد بوثائق كتبها من كان يتآمر على الثورة .

وأسقط كثير من الكتاب العرب ، ظروفهم وظروف عصرهم وانتماءاتهم الفكرية والسياسية ، على هذه الثورة وقادتها فحكموا عليها وعليهم من خلال مقاييس ومنطلقات لو طبقت على غيرها من الثورات الكبرى التي عرفها عصرنا والعصر الذي سبقه ، لهزلت هذه الثورات ونبشت قبور زعمائها وحطمت تماثيلهم التي تمجدها شعوبهم . فلو طبقنا ـ على سبيل المثال ـ مقاييس الماركسيين في حكمهم على الحسين إبن علي ورفاقه ، على لينين لخرجنا بنتيجة أن لينين ليس سوى عميل للالمان متآمر على الشعب الروسي وذلك حين وقّع على معاهدة بريست ليتوفسك التي وصفت « أنها اذلال لا مثيل له في التاريخ الحديث » حيث تنازل فيها عن مساحات تبلغ في سعتها مساحة النمسا والمجر وتركيا معا .

في حين ان الحسين لم يتنازل عن شبر واحد واكتفى بارجاء البحث في وضع بعض المناطق ـ التي كانت ما تزال خاضعة للاتراك ـ الى ما بعد الحرب تاركا بذلك للثوار حسم الموضوع .

وقصّر الكثيرون في الكتابة عن الثورة العربية أو ايفائها حقها متأثرين بما توهموه من « فشل الثورة » . والحق أن الثورة لم تفشل بل نجحت ورفرفت راياتها المنتصرة على مكة ودمشق وبيروت وحلب وغيرها من الحواضر ، ووضعت أسس أول حكومة عصرية في دمشق . لقد هزمت اعداءها الظاهرين في ميادين القتال ولكن حلفاءها الظاهرين الغادرين طعنوها من الظهر . لقد هزمت جيوش الثورة في معركة الغدر ، ولكن رايتها لم تنكس بل انتقلت من يد ثائر في جبال اللاذقية الى يد ثائر في جبل الزاوية ثم جبل العرب والغوطة وها هي ما تزال مرفوعة على يد ثوار البعث العربي . وأخذ البعض على الثورة وقادتها غياب المضمون الاجتماعي والاقتصادي ونعتوها بالبعد عن التقدمية وفاتهم أن الظلم التركي كان يسحق العربي غنيا وفقيرا وان المعركة آنذاك كانت معركة وجود عربي أو لا وجود . لقد كانت الثورة العربية ثورة وطنية وما تزال الوطنية أسمى مراحل التقدمية .

واليوم وقد تبنى قطرنا مشروع اعادة كتابة تاريخ العرب ، ومصر العربية تهتم بمشروع كتابة تاريخ الثورة المصرية بدءا من ثورة ١٩١٩ . والجمهورية الجزائرية تمضي في مشروع توثيق الثورة الجزائرية وكتابة تاريخها ، وجدت أنه لا بد لنا من أن نعيد النظر فيما كتب عن الثورة العربية كأول وأكبر ثورة قومية رفعت شعار الوحدة العربية والدولة العربية القوية والى أن يتم ذلك وجدت في نفسي الرغبة والتصميم على الاسهام في هذا الموضوع لادفع الظلم وأمنع التجني . . .

وقد لقيت رغبتي ترحيبا وتشجيعا « من رفاقي في الحزب وعلى رأسهم الرفيق المناضل حافظ الاسد الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي » ومن جلالة الملك حسين بن طلال والفريق الاول زيد بن شاكر القائد العام للجيش العربي الاردني اللذين تفضلا بتزويدي بما في حوزة المملكة من وثائق ومصادر لا غنى عنها .

ولقد اطلعت في سبيل انجاز هذه المهمة الصعبة على كثير من الوثائق والمراجع التاريخية التي يجد القارىء ثبتاً لها في نهاية الكتاب ، ولا بد لي من الاعتراف بأن أوضح ما قرأت من كتابات عن الثورة العربية الكبرى ما كتبه قادتها ومن أبرزهم المغفور له الملك عبد الله إبن الحسين . وبفضل ذلك عشت أحداث الثورة العربية بحقائقها وحرارتها .

وأخيرا ، لقد أسهم في مساعدتي على انجاز هذا المؤلف عدد من الاساتذة والباحثين ، وفي مقدمتهم : الدكتور محمد خير فارس والدكتور جوزيف حجار والاستاذ نخلة كلاس والعقيد بسام اسخيطة والعميد مروان ديب والفنان عبد القادر النائب والمهندس هاني لطف ، وقد رأيت من المناسب أن أطبع ثلاثمائة نسخة من هذا الكتاب وقمت بتوزيعها على أكثر من مائة مؤرخ وسياسي وكاتب وأديب ، اخترتهم من كافة الاقطار العربية وطلبت منهم أن يوافوني بملاحظاتهم على هذا الكتاب ، حتى أتداركها في الطبعة النهائية ، وجاءت الرسائل في معظمها ـ ان لم نقل جميعها ـ ايجابية ومشجعة . وتولى تدقيق الملاحظات ومراجعة الرسائل الدكتور جوزيف حجار والعقيد بسام اسخيطة فلهما شكري الجزيل .

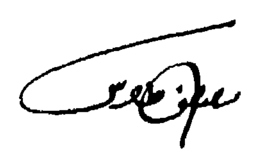
ولقد تأثرت بكل جوارحي بالرد الجميل لجلالة الملك حسين ابن

طلال[1] وبالتقريظ الذي لا أستحقه من شاعر الشام شفيق جبري والمؤرخ الكبير الدكتور قسطنطين زريق . كما أنني شعرت براحة الضمير عندما كنت أطالع الرسائل الواردة . لأن كافة الذين خاطبتهم كانوا يؤكدون لي في كتبهم أن ما أقدمت عليه يعتبر وضعا للامور في نصابها الصحيح وانصافا للرجال الأفذاذ الذين شقوا لنا بداية الطريق نحو الوحدة والحرية .

فاليهم جميعا أوجه شكري ومحبتي .

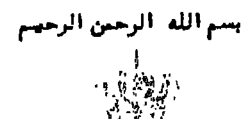
ماذا أقول عن الأستاذ سليمان موسى . لقد كانت كتبه ورسائله افضل عون لي ومصدراً ثَـرّاً عن ثورة العرب الأولى في القرن العشرين .

هذه باختصار قصتي مع الثورة العربية الكبرى . . وأرجو أن يكون التوفيق حليفي في انصاف هؤلاء الرجال الذين رفعوا راية القومية العربية في أحلك الظروف معلنين بداية نهاية الليل الطويل . . ليل الغزو التركي البغيض الذي أوقف مسيرة أمتنا الحضارية تلك الحقبة الطويلة من الزمن والله من وراء القصد .



(١) انظر النص الكامل للرسالة بعد المقدمة مباشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم



سيادة الأخ العماد الركن مصطفى طلاس المحترم

أبعث لسيادتكم بتحياتي وتقديري وصادق مودتي ، وبعد :

لقد اطلعت بامعان على مؤلفكم القومي والتاريخي (الثورة العربية الكبرى) ولمست فيه دقة الالتزام بالامانة التاريخية في سرد الوقائع والاحداث وتحليلها مع احساس تاريخي صادق وشعور قومي مخلص .

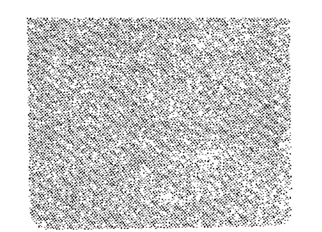
ان مؤلفكم قد جاء اضافة قيمة للمكتبة العربية وصورة واضحة لأهداف ومنجزات تلك الثورة القومية المباركة ، والتضحيات الجسام التي تحملها قادتها في ذلك المنعطف التاريخي لتحقيق أهداف الامة العربية في الوحدة والحرية والعدالة والمساواة .

وانني اذ أهنئكم على هذا الانجاز الخير ، لأتمنى أن يكون نشره ووضعه في متناول أجيالنا العربية ، فاتحة عقلانية لمتابعة المسيرة العربية الواحدة وتحقيق أهدافها . وقد صدرت التعليمات للمختصين في هذا المجال لدراسة المؤلف وتزويدكم بملاحظاتهم استكمالا لجهودكم في بلوغ الغاية المرجوة .

مع أطيب تمنياتي لكم بدوام التوفيق وموفور الصحة والسعادة، وشكري وتقديري للأخت الكريمة أم فراس على جهودها الخيرة بالوقوف الى جانبكم في انجاز هذه المهمة التاريخية .

عمان في ٢٦ محرم سنة ١٣٩٨ هجرية .

الموافق ٥ كانون ثاني سنة ١٩٧٨ ميلادية .



الفصل الأول

دراسة جيوبوليتيكية لمسرح العمليات الحربية

للثورة العربية الكبرى

تعتبر بلاد الشام رأس جسر
يصل أوربا بآسيا ومن
هنا تأتي أهميتها الاستراتيجية
على المستوى العالمي

« المؤلف »

١ ـ جغرافية مسرح العمليات الحربية

يتألف مسرح العمليات الحربية للثورة العربية الكبرى من شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام . ونعني ببلاد الشام الدول التالية في وضعها السياسي الحالي : فلسطين والاردن ولبنان وسورية .

تشكل شبه الجزيرة العربية مع بلاد الشام كتلة برية متصلة لا تتخللها عوائق طبيعية هامة وهي منفتحة بعضها على بعض ، من البحر المتوسط الى البحر الأحمر والبحر

الهندي ، كما يكمل بعضها بعضاً ، فالصحاري والبوادي والسهول والجبال تمتد في ذلك البر الفسيح مكونة كتلة طبيعية متجانسة . واذا كنا سنضطر الى تقسيم هذا المسرح المتكامل الى قسمين : شمالي وجنوبي فما ذلك الا لأننا في بحث جيوبوليتيكي . ولا بد لنا من أخذ التقسيمات السياسية الراهنة بعين الاعتبار تسهيلا للدراسة والبحث . وقد وقعت هذه المنطقة تحت وطأة العوامل الجيولوجية المتشابهة وأحدثت فيها التغيرات نفسها .

* نظرة جغرافية تاريخية *

كانت هذه المنطقة غزيرة المطر كثيرة العشب والأشجار ، تتخلل الأنهار كثيرا من أرجائها وتمتلىء بالغابات الكثيفة الوارفة الظلال كما ذكر العالم كايتاني «Caetani» [1] : « كانت بلاد العرب في العصر الجليدي الأخير جنة مليئة بالأشجار والانهار ، وبقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة[2] » . فعندما كانت الثلوج تغطي معظم المناطق الأوروبية ، وشمالي آسيا ، كانت جزيرة العرب ذات جو معتدل وأمطار غزيرة وأشجار وزروع ، ثم أخذ الجو يتغير في بلاد العرب ففقد رطوبته ، وسارت البلاد سيراً مستمراً وبطيئاً نحو الجفاف منذ أكثر من أربع عشر ألف سنة . ولدينا شواهد على ذلك من كتاب العهد القديم (التوراة) ومن النصوص المصرية القديمة ، ومن نصوص المؤرخ هيرودوت[3] والعالم بطليموس[4] ، ومن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية القوية الاسناد[5] .

فقد ورد في نصوص التوراة في سفر الخروج ، الاصحاح الثالث في الفقرتين ٧ ـ ٨ وسفر التثنية الحادي عشر الفقرة ٣٠ في الدلالة على مفهوم « العربة » انه الأرض الجيدة ذات الأمطار والعيون والانهار ، الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً .[6]

---

(١) ليون كايتاني مستشرق ومؤرخ ايطالي (١٨٩٦ ـ ١٩٣٥) . اشرف على نشرة الحوليات الاسلامية في عشرة مجلدات ، وله دراسات حول نشأة الاسلام وما قبله .

(٢) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (ج ١ ، بغداد ١٩٥١ ص ١٧٣ الذي ادرج فيه هذا النص من كايتاني .

(٣) هيرودوت مؤرخ يوناني (٤٨٩ ـ ٤٢٥) قبل الميلاد عاش حتى الحروب البليبونيزية . وصفه شيشرون بأبي التاريخ . وهو أول مؤرخ بحث في فلسفة التاريخ .

(٤) بطليموس عالم فلكي وجغرافي اغريقي لا يعلم تاريخ ولادته وتوفي عام ١٦١ م .

(٥) راجع جواد علي ص ٩٧ .

(٦) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد عام ١٩٧٠ ص ١٧٢) .

كما ورد في النصوص المصرية القديمة ذكر لوجود أخشاب ضخمة في شبه الجزيرة العربية الجزء الشمالي منها وان المنطقة بين « العلا » و« معون » أي « معان » حاليا التي هي أراضي دولة ثمود القديمة ، كانت ممتلئة بمناطق الغابات المكتظة بالأشجار . ووصفوا وجود أشجار البهار والتوابل[1] ، كما ورد في نصوص هيرودوت الذي زار بلاد العرب بنفسه ، وسمى فيها نهرا عظيما اسمه « كورس » يصب في البحر الأحمر . وذكر بطليموس اسم نهر « لار » الذي ينبع من نجران ليصب في الخليج العربي .

وقد ورد في أكثر من أربعين آية كريمة في القرآن الكريم أحاديث عن أقوام في الجزيرة العربية أصحاب مياه وجنان وعمران وقوة وآثار : مثل قوم عاد وثمود (وهم من العرب البائدة) سورة الأعراف الآية ٦٩ .

وقوم ثمود في شمالي شبه الجزيرة وجنوبي بلاد الشام ورثة عاد (سورة الأعراف الآيات ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧) . وما ورد في سورة الأنعام الآية - ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ مَكَّنّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ .

وما ورد في الحديث الشريف في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا » . فكلمة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا تدل على أنها كانت كذلك في الزمن القديم . كما أورد الامام أحمد في المسند هذا الحديث .

بعد أن حل الجفاف مكان النضارة حدثت خمس هجرات ، كما يقول علماء الانثروبولوجيا ، انتشرت[2] في بلاد الشام وبين النهرين وغيرها .

تقع شبه الجزيرة في الجنوب الغربي من قارة آسيا بين الفرات وجبال طوروس والبحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي فهي بذلك تشمل بلاد الشام بالاضافة الى مناطقها الحالية .

ولكن العرب منذ جاهليتهم أطلقوا على شبه الجزيرة اسم الجزيرة لاحاطتها بالماء من كل الجهات اذ أن الدجلة والفرات يحدانها . اننا لن نخالف في دراستنا ، هذا

---

(١) جواد علي ص ١٨٩ .

(٢) راجع كتاب الدكتور عبد المنعم بليغ ، الارض والناس في الوطن العربي (ص ٣٢) القاهرة : عام ١٩٧٣) .

الاصطلاح الجغرافي الحديث الذي يخرج بلاد الشام وسيناء من حدود شبه الجزيرة الجغرافية ، وسنتحدث عن بلاد الشام في قسم خاص .

تميل الهضبة العربية الضخمة الى الانحدار من الغرب الى الشرق[1] . وقد نتج عن التشقق في الركيزة الصخرية الغربية ارتفاع جبلي يمتد من الشمال الى الجنوب على طول البحر الأحمر ، وقد ارتدت هذه السلسلة الجبلية المسماة بجبال الحجاز قليلا الى الوراء تاركة السبيل لسهل تهامة الساحلي المنخفض انخفاضا لا يتجاوز عرضه الخمسين كيلو متراً .

عند الاتجاه جنوبا نجد عسير واليمن كما نجد الصخور البركانية وخليج عدن حيث تهطل الأمطار بغزارة ، وحيث تمتد الخضرة (التي تجعل من عدن جنات تتوزع . . .) فيها الغابات الإستوائية والمدارية والجبلية على حد سواء .

على امتداد المحيط الهندي وخليج عدن يضيق السهل الساحلي محاذيا في أقصى الغرب للمرتفعات اليمنية . والى الشرق في حضرموت وعمان يجاوز هضبات كلسية عالية كثيرة التشقق تنتشر عليها تلال مكسوة بالغابات .

وفي الجنوب الشرقي ، ترتفع سلسلة جبلية على طول خليج عُمان وراء ساحل خصب نسبيا ، وتمتد على طول الخليج العربي مساحات شاسعة من الرمال والمستنقعات المالحة التي تحتوي في جوفها العميق على بحيرات من البترول .

أما في الداخل ، فتمتد الصحاري الرملية والصخرية وتتوزع فيها الواحات في الاحساء ونجد والحجاز ، وكانت الحجاز ممرا استراتيجيا للقوافل يجعله فريد الطراز حيث كانت المدن الكبرى ، مثل المدينة (يثرب) ، وواحات مزدهرة انقلبت الى محطات للقوافل وللتجارة الناجحة ، ورحلتا الشتاء والصيف مثال ناصع على ما كان يقوم به أهالي مكة من نشاط تجاري على هذا المحور . يمكن التنويه ايضاً بالأسواق الموسمية التي كانت تقام في مراكز عديدة من الجزيرة .

وتضيع المنحدرات الجبلية في اليمن وعُمان في الغرب كما في الشرق ، وكذلك منحدرات الهضاب الكلسية العالية في حضرموت والمهرة في الصحراء الفسيحة اللانهائية التي تدعى في الجنوب ، الربع الخالي لخلوها من الماء والنبات والحياة . وهي كغابات الأمازون ما زال مجهولها أكثر من معلومها ، وتدعى في الشمال بالنفوذ الكبرى متصلة

---

(١) راجع كتابنا « الرسول العربي وفن الحرب » عام ١٩٧٢ ، نشر الادارة السياسية في الجمهورية العربية السورية ـ ص ٢٥ .

بصحراء الشام وباديتها التي يتصل بها لسانان رمليان متجهان هما : النفوذ الصغرى في الغرب والدهناء في الشرق ، اللذان يحتضنان هضاب نجد الصخرية الفريدة .

وقرب السواحل نجد عدداً كبيراً من الجزر المنتشرة في الشرق والغرب أهمها في البحر الأحمر فرَسان وقمران وبريم وجزيرة سوقطرة في البحر الهندي وجزر كوريا موريا وجزيرة مزيراح على شاطىء عُمان(1) .

ولشبه الجزيرة مركز هام في المواصلات العالمية فهي طريق الهند والشرق الاقصى ، واوستراليا ، ومفتاح الخليج العربي ، والبحر الاحمر . وهي بذلك تشرف على أهم طريق بحرية عالمية وأقصرها ، تربط أوستراليا وآسيا بالغرب ، لذلك قامت على أطرافها مراكز استراتيجية وتجارية عظيمة مثل باب المندب وعدن ومضيق هرمز والكويت وغيرها ..وهي صلة الوصل بين افريقيا وآسيا في آن واحد .

طول الجزيرة العربية من خليج العقبة الى بحر العرب نحو ٢٢٤٠ كم وعرضها من أضيق نقطة في الشمال من البحر الأحمر الى الخليج العربي نحو ١٢٠٠ كم ولكن هذا العرض يصل الى أقصاه بين خليج عُمان وجنوبي البحر الأحمر حيث يبلغ ١٩٢٠ كم .

تبلغ مساحتها على هذا الأساس ٣,٢١٥,٤٨٥ كم٢ ، ثلثها من الصحاري الرملية ويقطنها أكثر من ١٤ مليون نسمة فهي أكبر شبه جزيرة في العالم(2) .

١ ـ السواحل

تطل سواحل شبه الجزيرة على البحر الأحمر وبحر العرب من المحيط الهندي ـ والخليج العربي ويلي هذه السواحل سهول يطلق عليها اسم «تهامة» ومعناها اللغوي ركود الريح .

يمتد ساحل البحر الأحمر من العقبة في الشمال وينتهي في رأس تربة الواقع في أقصى نقطة على الساحل اليمني . وأهم خليج فيه هو خليج العقبة ويبلغ طوله من العقبة الى رأس محمد ١٦٠ كم وعرضه ١١ ـ ١٢ كم ويطل عليه الساحل الفلسطيني المحتل بطول ١٠,٥ كم وتقع فيه جزيرتا « تيران » و « صنافير » .

ويجاور ساحلَ البحر الأحمر عددٌ من الجزر المرجانية والبركانية . وأهم الموانىء في هذا الساحل : العقبة ، جدة ، والحديدة وغيرها .

---

(1) جان جاك بيربي . ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز ، جزيرة العرب بيروت ١٩٧١ .

(2) الدكتور فيليب حتى ورفاقه تاريخ العرب (مطول) دار الكشاف ، بيروت ١٩٥١ .

تمتد على هذا الساحل سهول تضيق وتتسع بين ٦٠ ـ ٧٥ كم ، وفي بعض الأماكن تنعدم لوجود الهضاب مباشرة على الساحل . وتنبت فيها انواع الأشجار والخضار .

أما الساحل الجنوبي : ساحل البحر العربي ، وهو جزء من المحيط الهندي في آن واحد ، فيقوم فيه خليج عدن ، وخليج قمر ، ورأس فرتك ، ورأس مدركة ، ورأس الحد ، وجزيرة مصيرة ، وكوريا موريا وجزيرة سوقطرة وغيرها . وتسمى تهامة الواقعة فيه باسم تهامة عدن وتهامة حضرموت ، وتهامة مهرة ، وتهامة عُمان .

تتجاذب هذا السهل الخصوبة والجدب ويغلب عليه المناخ الاستوائي ، وقلة الامطار ، بينما تكثر في حضرموت اودية المياة ومزارع الحبوب وتهب عليها رياح السموم . اما تهامة مهرة فهي رملية جرداء ، بينما تكثر في سهول عُمان اشجار النخيل والموز والرمان ، رغم انها من اشد مناطق شبه الجزيرة حرارة .

أما الساحل الشرقي : فهو يمتد من مضيق هرمز الى الكويت في الشمال ويقع عليه خليج سلوة ورأس التنورة ، ورأس المشعاب ، ورأس ركن ، ورأس أبو عبّود ، وجزر البحرين وجزيرة تاروت وجزيرة فيلكه وجزيرة حوار وغيرها . وتمتد فيه سلسلة من السهول لا يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠ م عن سطح البحر ويصل عرضها أحيانا الى ١٥٠ كم . مناخها حار ورطب وأمطارها قليلة ، تنتشر فيها بعض المستنقعات . تنخفض أرض الاحساء تدريجيا نحو الخليج وتكثر فيها الموانىء والخلجان والآبار العذبة القريبة من سطح الأرض ، حيث تروي حقول الأرز والتمر والحبوب كما تقع تحته بحيرات النفط الغنية .

٣ ـ المناطق الجبلية

ترتفع على مقربة من الساحل الغربي والجنوبي سلسلة جبال تعرف باسم جبال السراة ، وهي امتداد لسلسلة جبال الشام المطلة على البادية وتمتد من مدين[1] في شمالي الحجاز الى جنوبي اليمن . وتدعى بأسماء المناطق التي تمر بها : سراة الحجاز وسراة عسير ، وسراة اليمن وهي جبال بركانية ورسوبية ، وقد انطفأ آخر بركان فيها عام ١٢٥٦ م شرقي المدينة المنورة وقد وصلت حممه الى مشارف المدينة[2] ، وأعلى ارتفاع فيها هو ٣٧٦٠ م ويُدعى قمّة النبي شعيب وكانت هذه الجبال في القديم مكتظة بالأشجار ، ولكن معظمها الآن شديد الجدب والقحل . أما ما يهمنا منها فهو هذه الممرات

---

(١) تطلق على المنطقة الممتدة من معان الى العقبة وهي محاذية للساحل .

(٢) الدكتور جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٥٠ .

الاستراتيجية التي تصل بين الداخل والساحل والموانىء كممر وادي العقيق ، الذي يبدأ أوله من جبل الطائف ويتصل في شمالي المدينة مع وادي الحمض ، وممر وادي القرى الذي يصل بين العلا والمدينة المنورة وهو طريق استراتيجي قديم كانت تسلكه القوافل القادمة من الشام الى اليمن وبالعكس . وقد سمي باسم وادي القرى لكثرة المدن التي تمتد في هذا الوادي . ونزل به الرسول العربي الكريم في طريقه الى تبوك وفيه مات القائد العربي العظيم موسى بن نصير اللخمي فاتح الأندلس(١) . تنخفض الحرارة في هذه الجبال شتاء وتزداد البرودة مع الارتفاع بينما تزداد فيها الحرارة صيفا ولكن رطوبة البحر تعدل مناخها .

كما تقل الأمطار في جبال الحجاز وتغزر في سراة اليمن .

٣ ـ المنطقة الداخلية

تشمل هذه المنطقة هضبة نجد والصحاري .

تشمل هضبة نجد ، وتعني لغة « المرتفع من الأرض » ، المنطقة الوسطى من جزيرة العرب ، وتنحدر انحدارا تدريجيا نحو الشرق والشمال ، وتمتد من صحراء النفوذ في الشمال الى « الربع الخالي » في الجنوب ومن حدود الاحساء شرقا الى حدود الحجاز وعسير غربا وهي مرتفعات رسوبية مؤلفة من حجارة كلسية وأخرى رملية ، ويبلغ الإرتفاع الوسطي لهذه الهضبة الواسعة ٧٦٢ م ، أمطارها قليلة وتنتشر فيها بعض الأودية والواحات الخصبة التي تزرع فيها الفواكه والحبوب ومناخها جاف ومعتدل على العموم .

أما الصحاري ، فتتكون من الدهناء والنفوذ الصغرى والنفوذ الكبرى ومن الربع الخالي الواقع بين نجد وحضرموت وبين اليمن ومهرة وعُمان ، طولها نحو ١٢٠٠ كم وعرضها ٦٤٠ كم ، وتبلغ مساحتها نحو ٦٤٧,٥٠٠ كم٢ . وهي أكبر منطقة رملية في العالم لا تزال مجهولة ولم تكتشف بكاملها حتى الآن . وقد يمتد الزمن بين مطرتين عشر سنوات . وقد عثر فيها على كميات هائلة من الذهب . تعيش فيها قبائل عربية شديدة المراس مثل : قبائل آل مرة ، وآل كثير ، والعوامر ، والمناصير(٢) . تقل فيها المياه ، وتعيش فيها الأعشاب الصحراوية والأشواك .

أما صحراء الدهناء : أو النفوذ الصغرى(٣) ، فتقع بين الاحساء ونجد بعرض ٣٥ ـ ٩٠ كم ويخترقها طريق استراتيجي يصل العراق بنجد والاحساء وعُمان . وهي

---

(١) مصطفى مراد الدباغ جزيرة العرب ج ١ ص ١٩ منشورات دار الطليعة ـ بيروت عام ١٩٧٢ .

(٢) فؤاد حمزة قلب الجزيرة العربية ، ص ٣٥ ـ القاهرة ١٩٢٣ .

(٣) وتعني كلمة النفوذ الرمال الكثيفة أو التي نفذ الماء منها .

أرض صخرية تغطيها طبقة كثيفة من الكثبان الرملية ، ارتفاعها ٤٦٠ م عن سطح البحر ، وتكثر فيها المراعي خلافا لصحراء الربع الخالي .

أما صحراء النفوذ الكبرى : فهي الصحراء التي تقع شمالي حائل حتى الجوف وتمتد زهاء ٢٥٠ كم وفيها واحة تيماء وتبلغ مساحتها ٥٦٩٨٠ كم² تمتد بين باديتي الشام والعراق وهي امتداد لصحراء النفوذ الصغرى . كما أنها هضبة رملية قاحلة ترتفع ٧٦٢ م عن سطح البحر . وتكثر فيها الرمال المتحركة . وفي أطرافها بعض الآبار . وليس في شبه الجزيرة أنهار ، لأن مياه الأمطار تغور في الارض فتتجمع في طبقات لا تنفذ منها ، والزرع قليل لا يفي بحاجات السكان ، كما لا يوجد فيها بحيرات . وهذه حالة فريدة من الناحية العسكرية فليس في الجزيرة موانع مائية ، انما موانع من بحار الرمل الكثيفة يصعب اجتيازها حتى بأفضل أنواع الأعتدة القتالية المعروفة حتى الآن .

* بلاد الشام *

تعتبر بلاد الشام امتدادا للجزيرة العربية وهي تشتمل على الجزء الشمالي من مسرح العمليات الحربية للثورة العربية الكبرى . تتناوب فيها الأراضي المنخفضة والمرتفعة ، يحاذي بعضها بعضا ، وتتجه من الشمال الى الجنوب . ونميز فيها خمس مناطق طولانية تمتد بين البحر المتوسط والبادية :

فالسهل الساحلي : يمتد على ساحل البحر المتوسط من شبه جزيرة سيناء الى خليج اسكندرون . وهو يضم سهلا ممتدا من الشمال الى الجنوب يتسع في الشمال ويضيق في الوسط ويعود الى الاتساع في الجنوب ، وفي القسم الذي يحاذي لبنان ، لا يزيد عرض هذا السهل على ٦,٥ كم بينما يبلغ عرضه في عسقلان ٣٢ كم . وفي بعض الأحيان يكون الارتفاع من السهل الساحلي مفاجئا ، حتى أنه يلفت النظر . ففي شمالي بيروت يلي السهل الساحلي الذي يبلغ عرضه ١,٥ كم تلال ترتفع ٧٦٠ م على بعد ٦,٥ كم من البحر . وعند مصب نهر الكلب تصل المرتفعات الجبلية الى البحر فتعطي المكان موقعا استراتيجيا خاصا يحول دون القوات الغازية . من الشمال الى الجنوب وبالعكس كذلك في الكرمل يحول الرأس الجبلي دون وجود أي سهل تاركا ممرا لا يزيد عن ١٨٠ م على الساحل وهكذا يتحول الى الداخل ذلك الطريق الدولي العظيم الذي كان في العصور القديمة يبدأ بمصر متابعاً الساحل نحو الشمال. والسهل خصب جدا في جميع أجزائه ، وهو من أكثر السواحل استقامة في العالم فلا يوجد فيه خليج بحري عميق ما عدا خليج الاسكندرون ، فالموانىء حتى مصر كانت موانىء اصطناعية غير طبيعية .

وتشرف السلسلة الغربية : على ساحل الشام فتبدأ بالأمانوس شمالا حتى جبل سيناء المرتفع في الجنوب ، وأهم أجزائها لبنان الغربي ، هذه السلسلة الجبلية هي ثاني المناطق الطولانية وتشكل أولا حاجزا للمواصلات بين البحر وبين ما يقع وراءه في الشرق ، لا يمكن اختراقه الا عند خليج اسكندرون حيث يجري الاتصال عن طريق الجسر السوري بسهولة ما بين النهرين وعند برزخ السويس حيث يتم الاتصال بالبحر الأحمر أو مع الصحراء العربية ، برغم وجود ممرين هما ممر وادي نهر الكلب شمالي بيروت وعند تصدع مرج ابن عامر شمالي عكا وحيفا .

والأمانوس هو التواء فرعي يمتد من جبال طوروس التي تفصل الشام عن آسيا الصغرى باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة جبال الشام . ويحيط الأمانوس بخليج اسكندرون ويرتفع الى ١٤٠٠ م عن سطح البحر . ويشق نهر العاصي طريقه الى البحر في الطرف الجنوبي من الأمانوس . وتعبر هذا الجبل طرق تمتد الى انطاكية وحلب والممر الرئيسي المعروف بمضيق بيلان الذي اشتهر في القديم بأنه « باب سورية » كما ورد لدى بعض المؤرخين بانه « باب كيليكية » .

وتستمر السلسلة الغربية جنوبي مصب العاصي في جبل الأقرع الذي يرتفع الى ١٤٨٠ م وتمر بجوار اللاذقية ثم تتابع سيرها الى النهر الكبير الجنوبي . وتتضمن أودية عميقة متعددة ووعرة ومرتفعات شديدة الانحدار كما ينتشر فيها عدد من القلاع والحصون التي بنيت في عهود مختلفة . ويزداد الارتفاع في جبال لبنان التي تمتد من النهر الكبير حتى القاسمية شمالي حوران . ويأتي اسم لبنان من كلمة « لابن » بمعنى البياض في اللغة السامية لكثرة الثلوج . وأعلى قممه القرنة السوداء : ٣٠٨٨ م . ويقول زيموفن[1] : ان العصر الجليدي وصل نيويورك وأمريكا وشمالي أوروبا ولكنه لم يصل الى سورية وهذا هو سبب وجود الانسان الأول فيها .

وتضم جبال لبنان معاقل حصينة كانت ملاذاً لأبنائها المدافعين ضد الغزوات وتستمر سلسلة سورية الغربية جنوبي انهدام القاسمية في هضاب ومرتفعات الجليل الأعلى ، حيث ترتفع قمة جبل جرمق قرب صفد وهي أعلى قمة في فلسطين . ويقطع هذه السلسلة مرج ابن عامر الذي يجتاز فلسطين بأكملها فاصلا تلال الجليل عن مرتفعات السامرة . وتمتد هذه السلسلة حتى صحراء النقب .

ثم يأتي بعد هذه السلسلة ، الى الداخل ، الانهدام الذي يبدأ عند المنعطف الغربي

---

(١) زيموفن « جيولوجية لبنان » . باريس ـ عام ١٩٢٦ ـ ص ٢١ .

للعاصي في سهل العمق على امتداد العاصي ، ثم يستمر الى سهل البقاع بين سلسلتي لبنان ، وجنوبا في وادي الغور الذي يشمل الحولة وبحيرة طبريا حتى البحر الميت . ومنه يمر بطريق وادي عربة حتى خليج العقبة . ولذلك سمي هذا الانهدام « بقبو العالم الحقيقي »[1] الفريد في العالم . وهذه المنطقة كانت مسرحا للزلازل الكثيرة التي أتت على مدن كبيرة .

اما السلسلة الشرقية : فتبدأ من جنوبي حمص موازية لسلسلة لبنان الغربية على طول وارتفاع واحد ثم تنحدر من حرمون بسرعة نحو هضبة حوران والجولان ومن هناك تستمر في شرقي الأردن في تلال جلعاد وهضبة مؤاب وجبل سعير جنوبي البحر الميت .

تقسم هضبة بردى وواديه سلسلة لبنان الشرقي الى قسمين : شمالي وجنوبي حيث جبل حرمون الذي تعرف قمته حاليا باسم جبل الشيخ لأن الثلوج تكلل هامته في معظم أيام السنة وهو من أعلى جبال بلاد الشام وأكثرها جلالة ومهابة وأهمية من الناحية الاستراتيجية . وتمر سكة حديد دمشق الزبداني ببيروت من هذه السلسلة . يرفد نهر بردى مدينة دمشق المسماة بالفيحاء لرائحتها الذكية المتصاعدة من أزاهير غوطتها حيث يتفرع بردى الى سبعة فروع .

أما هضبة حوران : البركانية والبازلتية ومنطقة اللجاة ذات الحجارة السوداء ، فقد كانت ملجأ للقبائل المتمردة لوعورتها وصعوبة الوصول اليها . ثم جبل حوران أو جبل العرب ، ويقوم على تخوم بادية الشام . وتنتج أراضي حوران القمح وقد كانت مزدهرة أيام العرب والرومان والبيزنطيين ولا تزال كما كانت منتجة للحبوب بأنواعها . وتمتد أراضي حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقي في صحراء الحماد لتندمج فيها ، كما تعتبر هضبة الجولان ومنطقة عجلون الاردنية جزءاً منها . وكانت متصرفية حوران أيام الثورة العربية الكبرى تضم الجولان واللجاة وجبل العرب وعجلون وحوران الصغرى .

تتدرج هضاب شمالي شرقي حوران وشرقي الأردن نحو منطقة السهوب ، والحرات والرمال وتلتقي أخيرا بالأراضي القاحلة التي تشكل **بادية الشام** وهذه المنطقة هي الخامسة والأخيرة في تضاريس سورية . وهي صخرية وجيرية في غالبها وتقل فيها الصخور ، وهذه البادية تتجه نحو الصحراء العربية الكبرى وتفصل الشام عن العراق ، وتشكل الخليج الصحراوي الذي يقع بين الطرفين الشرقي والغربي للهلال الخصيب . وتسمى الصحراء التي تحيط بالطرف الشمالي الشرقي والقريبة الى العراق ببادية الجزيرة أو بادية ما بين النهرين (دجلة والفرات) أما في قسمها الجنوبي الغربي فتعرف

---

(١) الدكتور فيليب حتي تاريخ سورية ولبنان (الترجمة العربية) ، دار الثقافة لبنان عام ١٩٥٨ ـ ص ٤٨ .

(بالشامية) . يكسو سطح القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام ـ وهي ما يسمى بالحماد ـ العشب في الربيع . وتؤلف البادية الشامية العراقية مثلثا كبيرا ترتكز قاعدته على خليج العقبة في الغرب ، وخليج الكويت في الشرق . بينما تصل قمته الى شمالي حلب ويبلغ عرض هذه البادية في أوسع مناطقها ١٢٨٨ كم . وكان سكانها الرحل يتعاملون مع المدن المجاورة ، ويعملون وسطاء وأدلاء وشركاء في تربية الأغنام ، وكانوا يشكلون احتياطيا دائما بالنسبة للسكان الحضر يرفدونهم بدم جديد .

٢ ـ طرق المواصلات

كان أهم خط استراتيجي في الجزيرة كلها ابان الثورة العربية الكبرى خط الحديد الحجازي الذي يصل المدينة المنورة بدمشق والذي يتصل بحلب والموصل وتركيا وأوربا عن طريق خط الحديد القاري وتشكل هذه الخطوط شبكة للمواصلات الحديدية قاعدتها اسطنبول نفسها . وسنقدم فيما يلي لمحة موجزة عن هذا الخط :

في أواخر القرن التاسع عشر ، فكرت السلطة العثمانية بايجاد وسيلة نقل لتسهيل سفر الحجاج المسلمين الى الديار المقدسة ، وتوفير الراحة والأمان لهم ، ولأسباب سياسية وعسكرية ، لتسهيل مرور القوات حين اللزوم . وبعد الدراسات الجارية بهذا الشأن ، تقرر تمديد خط حديدي يربط دمشق بالمدينة المنورة كمرحلة أولى ، ثم بمكة المكرمة كمرحلة ثانية ، وبعد ذلك يجري تمديده الى بلاد اليمن ، وقد بوشر بتمديد هذا الخط في عام ١٩٠١ بعرض (١,٠٥) مترا ، بالأموال التي تبرع بها المسلمون في مختلف أنحاء العالم الاسلامي وبالأموال التي تبرعت بها الدولة العثمانية ، واحتفل بافتتاح الخط الحديدي الذي يصل دمشق بالمدينة المنورة والذي أطلق عليه اسم « الخط الحديدي الحجازي » بتاريخ ٣١ آب سنة ١٩٠٨ وذلك بتسيير أول قطار عليه ، وكان يتألف هذا الخط وقتذاك من الأقسام التالية :

القسم	الطول
ـ قسم دمشق ـ المدينة المنورة	ويبلغ طوله ١٣٠٨ كم
ـ قسم درعا ـ حيفا	ويبلغ طوله ١٦٢ كم
ـ قسم بلد الشيخ (قبيل حيفا) ـ عكا	ويبلغ طوله ١٧ كم
ـ قسم قم غرز ـ بصرى	ويبلغ طوله ٣٣ كم
	المجموع ١٥٢٠ كم

وقد أصدر السلطان العثماني ارادة سنية باعطاء هذا الخط صفة الوقف الاسلامي .

واستمر استثمار هذا الخط حتى اندلاع نار الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ ،

فتعرض خلال هذه الحرب ، نتيجة لقيام الثورة العربية الكبرى في الحجاز ، الى أعمال تخريب عديدة في مختلف أقسامه ، وقد أسهمت انكلترة وفرنسا اسهاما كبيرا في التوسع بوقوع هذه الأعمال والتشجيع على القيام بها - بالرغم من أن الموقف العسكري لم يكن يتطلب كل ذلك - ، هادفتين ، من جراء هذه العمليات ، الى حرمان البلاد العربية من هذا الشريان الحيوي الذي يربط بينها ، والى قطع اتصال الأقطار العربية بعضها ببعض لتكريس التجزئة والفرقة بين أقاليم الأمة العربية الواحدة .

لم يكن الخط الحديدي الحجازي الشبكة الوحيدة في الجزيرة العربية والأقطار الشامية ، بل كان هناك شبكة أخرى ذات أهمية كبيرة أيضا ، وأقصد بذلك شبكة الخطوط الحديدية السورية التي تمتد الى اسطنبول ، ففي أواخر القرن التاسع عشر أيضا كانت قد صدرت ارادة سنية من السلطان العثماني بمنح شركة فرنسية امتياز تمديد خطوط حديدية في القطر العربي السوري ، فتألفت شركة باسم « شركة سكة حديد شام - حماه وتمديداتها » وقد قامت هذه الشركة عقب ذلك بتمديد خط حديدي من دمشق الى رياق في لبنان فبيروت بعرض (١,٠٥) مترا وبطول ١٥٠ كيلومترا تقريبا ، وخط حديدي من الميدان بدمشق الى المزيريب في القسم الجنوبي من سورية ، وقد ألغي هذا الخط الأخير بعد تمديد الخط الحديدي الحجازي من دمشق الى درعا ، كما جرى تمديد خط حديدي بعرض (١,٤٣٥) مترا من رياق الى حمص فحماه فحلب فالأراضي التركية ، ومن حمص الى طرابلس في القطر اللبناني .

وتبلغ أطوال شبكة الخطوط الحديدية الممتدة في سورية ومن حلب الى اسطنبول كما يلي :

- قسم دمشق - رياق - بيروت	١٥٠ كم العرض ١٠٥٠ مم
- قسم رياق - حمص - حلب	٣٣٣ كم العرض ١٤٣٥ مم
- قسم حمص - العكاري - طرابلس	٩٧ كم العرض ١٤٣٥ مم
- قسم حلب - اسطنبول	١٥٤٣ كم العرض ١٤٣٥ مم

تم انشاء خط حديد الحجاز عام ١٩٠٨ كما ذكرنا وكانت نيّة الحكومة التركية تتجه الى مدّه مسافة ٤٢٠ كم أخرى ليصل الى مكّة . ولكن القبائل البدوية هناك ما لبثت أن رفعت راية العصيان[1] عندما ذهب كاظم باشا رئيس لجنة السكة الحديد لتفقد طريق

(١) لا شك ان السبب الرئيسي الذي دفع القبائل العربية للاحتجاج على تمديد الخط الحديدي الى مكة كان اقتصاديا بحتا لان نقل الحجاج بواسطة الجمال كان يعتبر الوسيلة الاساسية لكسب الرزق عند الكثيرين من البدو المقيمين في الجزيرة العربية والبادية الشامية .

المدينة ـ مكة المزمع انشاؤه فهاجمه مسلحو البدو وقتلوا مائة من أتباعه ، ففرّ ونجا بجلده الى المدينة وبقيت المواد اللازمة لتمديد هذا الخط مخزونة في مستودعات المدينة بصورة جيدة حتى عام ١٩١٦ وهذا ما أتاح لفكري باشا ـ الى حد ما ـ اصلاح سكة حديد الحجاز ابان الثورة كلما تخربت[1] . وكانت ترابط في المدينة ، حسب رأي الجنرال بريمون كتيبة تركية مؤلفة من ٨٠٠ عسكري لاصلاح السكك الحديدية . وظل الخط الحديدي الحجازي بين معان ومدورة حطاماً نتيجة لتخريبه من قبل الثوار العرب حتى نهاية الحرب ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا[2] .

أما العربات التي كانت تسير على قضبان السكك الحديدية قبيل نشوب الثورة العربية الكبرى ، فعددها لا يتجاوز ٣٠ ـ ٥٠ قاطرة صالحة للاستعمال ولم يكن هناك غير ١٨٠ عربة للركاب . وكل قطار يجر خلفه ١٣ ـ ١٥ عربة فقط . وعلى كل قطار أن يجر أربعة خزانات مياه اضافية من أجل امداد المحطات ونقاط الحراسة . وكان الخطر الأعظم الذي يهدد سير هذا الخط يكمن في ندرة الوقود . فالقاطرات تعمل بالحطب الذي يؤتى به من الشمال[3] أو بقطع أشجار السمط الصحراوية . وقد بلغ العجز في تأمين الوقود لدى فخري باشا درجة حملته على أن يشرع في هدم منازل المدينة لاشعال أخشابها وتسيير القطار بها .

هذا هو الخط الحديدي الذي كان عرضة للكثير من الهجمات طوال فترة الثورة العربية الكبرى . .

٣ ـ السمات الاستراتيجية للجزيرة العربية

ان المساحة الهائلة للجزيرة العربية التي تزيد عن مساحة الولايات المتحدة الامريكية تعطينا صورة مادية عن مدى السمة المكانية التي يمكن الافادة منها في الاعتبارات الاستراتيجية الخاصة في زمن الثورة العربية الكبرى . فهي تمنحها العمق الاستراتيجي ، بالاضافة الى إتساع الجبهة ، عدا البحار المحيطة بها (البحر الاحمر ، بحر العرب ، البحر الهندي والبحر المتوسط ، والخليج العربي) فهي :

١ ـ تستفيد من سلسلة الجبال المحيطة كالسوار بالجزيرة في شواطئها كافة ، وتجعل

---

(١) راجع كتاب كليد سدني سميث العهد الذهبي ، اوكسفورد ١٩٦٢ لندن ص ٧٩ .

(٢) راجع كتاب روبرت جيريفيز لورنس والعرب لندن ١٩٥٦ ص ٥٠ .

(٣) راجع لورنس أعمدة الحكمة السبعة ص ٥٦٢ .

النفوذ الى داخلها محدودا بالممرات الاجبارية الرئيسية كما جرى في غزو أبرهة الحبشي للجزيرة .

٢ ـ تستفيد من اتساع الرقعة في اعادة حشد القوى ، وتعبئة الاحتياطات وتوجيهها نحو المنطقة المحتلة ولو تمكن العدو من احتلال جزء من الارض .

٣ ـ ان وقوع الجزيرة العربية على هذه البحار الاربعة يحول حيلولة تامة ، دون حصارها بحرياً ، حتى على أعتى الاساطيل وأكثرها كفاءة . وهي تستطيع على كل حال الاعتماد على بلاد الشام والعراق .

٤ ـ ان قلة طرق المواصلات والسكك الحديدية في المنطقة تجعل الغازي في وضع لا يحسد عليه لذلك اكتفت بريطانيا في الزمن القديم باحتلال السلطنات البحرية الخليجية والمطلة على بحر العرب حتى يمكن لاساطيلها الحربية أن ترسو دون غيرها ، حتى قبل اكتشاف البترول فيها . وكان الغزاة الاجانب يتخوفون دوماً من هذه الجزيرة الغامضة ، وقد تجنبها الاسكندر ، والمغول والفرس والروم البيزنطيون ، والصليبيون لمناعتها ولو أنهم ألموا بأطرافها الشمالية وبسواحلها المتوسطية .

٥ ـ ان مناخها القاسي المتقلب يجعل الحياة في الوسط الجنوبي صعبة ، وفي الاخص ، لقلة المياه ولغلبة المناخ الصحراوي الحار الجاف في النهار والبارد في الليل ، في أكثر أرجاء الجزيرة .

٦ ـ كان للعقبة ، ومعان والمدينة ومكة ودمشق ، دور كبير في جميع الاعمال الحربية التي وقعت في الجزيرة العربية وبلاد الشام ابان الثورة العربية الكبرى ، وكانت هذه المدن مدناً استراتيجية في الحركات العسكرية كافة ، ولا سيا العقبة التي كانت تلفت نظر بريطانيا وتستحوذ على اهتمامها لموقعها الاستراتيجي كموقع حاكم يؤثر تأثيراً مباشراً على سلامة الطريق البري الى الخليج العربي فالهند . كما أنها تتحكم بالطريق البرية الى الحجاز وفلسطين وسورية وتطل على صحراء سيناء ويستند اليها خط الدفاع الأول عن قناة السويس الذي يمتد من غزة الى بير السبع . والعقبة تسيطر مباشرة على طرق الاقتراب الرئيسية في شبه الجزيرة العربية وطريق الحج بصورة خاصة ، كما تسيطر على الطرق المؤدية الى الشام خلال منخفض العرابة والبحر الميت ، ووادي الاردن وتطل على الطريق الذي ينحدر جنوباً الى بلاد العرب .

كما كان لكل من درعا والطفيله دور هام من الناحية الاستراتيجية في الثورة العربية الكبرى ولا سيا بعد مد الخط الحديدي الحجازي الذي يمر بدرعا وعمّان ومعان وينتهي في

المدينة المنوّرة . وكانت شبكة حديد معان ـ العقبة التي تربط العقبة بسكة حديد الحجاز جزءاً من الاستراتيجية الجديدة التي اعتمدتها ا لحكومة التركية للسيطرة على مصر .

٧ ـ وأخيراً لا بد لنا من الاشارة الى أن هناك ميّزة سلبية للجزيرة العربية من الناحية الاستراتيجية ، وهي ضعف الطاقة البشرية[١] فيها بالنسبة للمساحة الكبيرة التي تشغلها ، والمعروف أن الموارد البشرية تقوم بدور هام وأساسي في مجهود الدولة الحربي وبدون السكان لا نستطيع تأمين العدد اللازم من المقاتلين اضافة الى أن كل مقاتل في الجبهة يحتاج من ٨ ـ ١٠ عناصر يقومون بخدمته لاستمراره في الحرب .

***

(١) في احصاء تقديري جرى عام ١٩٠٨ بلغ عدد سكان الدولة العثمانية في ولاياتها الشرقية ٢٢ مليون منهم ١٠,٥ مليون يقطنون في الجزيرة العربية وبلاد الشام .

الفصل الثاني

الجذور التاريخية

للثورة العربية الكبرى

« الدين لله ...
والوطن للجميع »

فيصل بن الحسين

بلغ تدهور الأوضاع في البلاد العربية منحناه الادنى في أواخر القرن الثامن عشر . ثم بدأت الحالة تتغير في الوقت الذي بدأت فيه بوادر اليقظة بالظهور ، وقبل أن نتبين عوامل اليقظة ونتتبع تطور مراحلها لا بد لنا من تبيّن عوامل الضعف وحالة الوطن العربي منذ أن انتزع الحكم من العرب .

يمكننا أن نوجز عوامل الضعف التي طرأت عبر القرون الطويلة على الوطن العربي بما يلي :

١ ـ **تحكم العناصر الدخيلة** على الأمة العربية من فرس ومماليك وأتراك ، فقد رافق تسلط هذه العناصر على مقدرات البلاد « تفكك الدولة وتجزّؤ الوطن العربي واضطراب وفوضى اقتصادية واجتماعية وتلا هذا كله جمود ثقافي »، ونتيجة لذلك تزعزعت ثقة العرب بأنفسهم وتضعضعت قواهم المعنوية .

٢ ـ **الغزوات الصليبية** التي هبت على الشرق العربي ، اثرت تأثيرا كبيراً على البنية الاقتصادية والدينية والثقافية والاجتماعية البلاد العربية ، التي وصلت اليها وتحكمت فيها مجرية بها تحولات كثيرة ، وناشرة روح التعصب الذميم الذي لم تكن تعرفه المنطقة .

٣ ـ **الغزوات المغولية** التي هبت على الوطن العربي كإعصار مدمر زعزع أسس الدولة العربية الثقافية والاقتصادية ، وان لم يكن بين الغزوتين الصليبية والمغولية توافق زمني بل كان هناك توافق سياسي . فقد حدث في القرن الثالث عشر اتصال بين الطرفين لتوحيد جهودهما ضد الأمة العربية .

قلبت الغزوات المغولية السهول المخصبة الى بوادٍ يسرح فيها الرعاة ، والمدن العظيمة الى أنقاض ومقابر ينتشر فيها الخراب ، والمكتبات العامرة الى رماد أسود لوّث مياه أنهارنا العظيمة وعكّر صفاءها . .

٤ ـ **تحول الطرق التجارية** وحركة تجارة المواد الأولية كالذهب والفضة والخشب والفراء والتوابل ، عن البلاد العربية الى الطرق القارية مرورا بايران عبر بر الاناضول الى امارة كييف ، ثم أوروبا الوسطى والغربية ، اثر سيطرة الاقتصاد الاوروبي ولا سيما الجمهوريات التجارية الناهضة مثل البندقية وبيزا وجنوا ، والمدن القارية الاخرى مثل استراسبورغ وباريس ولشبونة التي سيطرت اساطيلها الاستعمارية على الاقتصاد العربي في مصر والمشرق العربي وبسطت سيطرتها على موانىء البحر الاحمر الى البحر الهندي الى مراكز التجارة العالمية في الشرق الاقصى .

وهكذا تحولت الطرق التجارية الدولية عن البلاد العربية الى رأس الرجاء الصالح . وكان هذا التحول ، ضربة اقتصادية خطيرة ، سبّبت للبلاد العربية شللا ماديا من جهة ، وأضعفت روابط الاتصال مع أوروبا الناهضة آنذاك من جهة أخرى ، ولاسيا عبر البحر المتوسط الذي كان يعتبر بحرا داخليا ، وبدأ العرب في المشرق العربي باجتياز عتبة عصورهم المظلمة . ومما زاد في تأثير هذه العوامل ، أنها حدثت في فترات متعاقبة شلت مجمل الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في هذه المنطقة الى قرون كثيرة وكأن هناك منظما يحركها في اتجاهات شتى لتحطيم الكيان العربي ، حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك .

٥ ـ **الغزو العثماني** عندما حدث الغزو العثماني في أوائل القرن السادس عشر ، كانت نهضة أوروبا قد بدأت بينما كانت البلاد العربية في غاية الضعف . وفي هذه الظروف كان من الممكن أن يكون الغزو العثماني حدثاً انقلابياً خطيراً في تاريخ هذه

الأمة ، فلأول مرة ، منذ عدة قرون من التجزئة والانقسام ، يلتمّ شمل الأمة العربية (باستثناء مراكش وبعض المناطق النائية في الجزيرة العربية) في ظل دولة واحدة كانت من الناحيتين السياسية والحربية احدى دول العالم الكبرى ، ولكن هذا الغزو ما لبث أن تحوّل الى كارثة جديدة عملت مع الكوارث السابقة في الاجهاز على ما تبقى من حيوية في الأمة العربية . فوحدة البلاد العربية التي هي الميزة الوحيدة للغزو العثماني كانت اسمية . واضافة الى ذلك فلأول مرة في تاريخ العرب تنتقل عاصمة الخلافة الى خارج بلادهم وتصبح لغة الدولة الرسمية لغة غير لغتهم . وأخطر من هذا ان الدولة لم تكن تسعى لانعاش البلاد أو تتدخل لمعالجة أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية بل كانت اداة استهلاك فحسب . لقد جمد العثمانيون لفترة قصيرة حالة الضعف ، ولكنهم ما لبثوا أن أسهموا في دفع حركة التدهور دفعاً قوياً ، وفي آن واحد عزلوا البلاد العربية عن أوروبا التي كانت قد بدأت تسير في طريق التقدم .

مبدء الانبعاث العربي

يتفق المؤرخون الغربيون على اعتبار مطلع القرن التاسع عشر بداية الانبعاث العربي الحديث . فيعزون نقطة انطلاقه الى حملة بونابرت على مصر . انما هناك عوامل اخرى يجدر الانتباه اليها ، ظهرت بوادرها خلال القرن الثامن عشر على مسرح المشرق العربي ، وادت جميعها في اتجاهها الأساسي الى خلق مناخ سياسي واجتماعي هيأ المنطقة للإنفتاح للشعور بالهوية العربية القومية والطموح الى الاستقلال الذاتي . فهذه العوامل هي داخلية في اصلها وفي مجمل تطورها ولو انها اتصلت اتصالا وثيقا بالحالة السياسية العامة التي خضعت لها السلطة العثمانية ـ حاكمة البلاد ـ في صراعها الطويل والمنهك ضد القوى المعادية لها في الغرب الاوروبي أو الشرق الفارسي .

١ ـ حكم آل العظم في ولاية سوريا وفي بلاد الشام ١٧٢٥ـ١٧٨٣

سيطر آل العظم على مصير البلاد رسميا منذ ولاية اسماعيل باشا على الشام سنة ١٧٢٥ وحتى أواخر القرن الثامن عشر « ١٧٨٣ » تاريخ وفاة محمد باشا العظم ، بصورة تكاد تكون غير منقطعة . وقد ازدهرت البلاد أيام حكمهم ازدهارا تجاريا وعمرانيا وحضاريا ، وما زالت مدينة دمشق ومدن شامية أخرى شاهدة على ما وصلوا اليه من حضارة . وكانت ولاية سليمان باشا « ١٧٣٤ ـ ١٧٣٨ ـ و ١٧٤٠ ـ ١٧٤٣ » ولا سيما ولاية أسعد باشا « ١٧٤٣ ـ ١٧٥٧ » في دمشق وولاية أبناء الاسرة الآخرين في حلب وصيدا وطرابلس خلال القرن دليلاً على نفوذهم في الاستانة وتشعب مصالحهم في البلاد الشامية ، فخلقت هذه الادارة حالة غير معهودة وغير مألوفة من الاستقرار الحكومي ذي

الطابع العربي الاصيل . مما أدى الى انتعاش القوى المحلية وتبلور فكرة اللا مركزية في اطار الحكم العثماني .

٢ ـ حركة ظاهر عمر الزيداني في الجليل وسواحل سوريا الجنوبية ١٧٤٤ ـ ١٧٧٥

بدأ هذا الشيخ العربي حياته السياسية كملتزم في مدينة صيدا ، وتوسع نفوذه منذ الاربعينات على مقاطعات نابلس (١٧٤٤) وصفد وعكا . فبدأ يناهض الحكم العثماني وولاة الشام ويسعى الى توطيد حكمه الذاتي في سوريا الجنوبية . فلعب دورا سياسيا محليا هاما في جميع المجالات حتى اواسط السبعينات ، فعارض الامتيازات التجارية الاجنبية (ولا سيما الفرنسية منها) • وشكّل حزب العرب مجسّما مطامحهم اللاشعورية او اللاواعية حيال حزب الباشاوات او الولاة الاتراك ، وتفاوض مع الروس لا بل تعاون معهم وحاربهم حين حاولوا ان يجعلوا في بيروت قاعدة لهم ولليونان في حربهم ضد العثمانيين واستولى بذاته على المدينة مدة من الزمن . ثم تحالف مع علي بك الكبير والي مصر عند حملته على بلاد الشام ١٧٧١ ـ ١٧٧٢ الى أن أفل نجمه في اواسط السبعينات (١٧٧٥) وقتل بعد ان استرجع الاتراك نفوذهم في المنطقة ، وكان الشيخ الظاهر لا يخفي مطامعه في توطيد حكمه العربي الذاتي مناهضا السلطة العثمانية بالتعاون مع القوى المصرية المتمردة او مع القوى الاجنبية .

٣ ـ حركة علي بيك الكبير في مصر وسياسته التوسعيّة في الجزيرة العربيّة وبلاد الشام ١٧٥٧ ـ ١٧٧٢

لمع نجم المملوك علي الكبير في مصر بعد ان اصبح شيخ البلد في القاهرة سنة ١٧٥٧ وبدأت سلطته الشخصية تترسخ في الولاية المصرية رغم المصاعب الجمة والمؤامرات الداخلية التي كانت تشل الادارة العليا في ولاية مصر . فعندما وطد سلطته سنة ١٧٦٦ أوكل الى صهره محمد أبو الذهب قيادة جيوشه ، فاستولى على المدن المقدسة في شبه الجزيرة العربية واشرف على التجارة المحلية وعلى تجارة البحر الاحمر الدولية وصك العملات باسمه سنة ١٧٦٨ . وحاول الاستيلاء على بلاد الشام سنة ١٧٧٠ متحالفا مع الشيخ ضاهر العمر ليؤسس دولة عربية توحد بين مصر والحجاز وسوريا وتسيطر على اهم الطرق التجارية والاستراتيجية بين الغرب الاوروبي والبحر المتوسط الشرقي ، باب الشرق الآسيوي . وقد استطاع الاتراك ان يجذبوا اليهم صهره محمد ابو الذهب بينما كانت جيوشه المنتصرة تتأهب لدخول مدينة دمشق سنة ١٧٧١ . واذ دبّ الخلاف بين علي الكبير ومحمد ابي الذهب تمكن الاتراك من توريط الجانبين ودحرهم بمعاونة عملائهم ولا سيما

الانكليز منهم ، وعلاوة على الاتراك فقد لعبت السياسة الاوروبية دورا حقيقيا ، ولو أنه كان خفيا في السياسة الشرقية لم تحلل عناصرها حتى اليوم تحليلا علميا وثائقيا كاملا .

٤ - حركة الوهابيين في شبه الجزيرة العربيّة ولاسيما في الحجاز ونجد ١٧٤٥ - ١٨١٨

الحركة الوهابية : كان العرب في حالة تأخر روحي ومادي . فالاسلام كان الحافز الرئيسي في دفع العرب الى بناء دولتهم الأولى وحضارتهم العظيمة ، وكان المسلمون في القرن الثامن عشر قد ابتعدوا عن روح الاسلام الاصيلة وتفشت فيهم البدع والمعتقدات الغريبة التي حولت الاسلام في أذهانهم من حافز على العمل الى حافز على التواكل والكسل . وقد ظهرت الوهابية في اواسط القرن الثامن عشر ونادت ألا سبيل الى نهضة العرب الا باصلاح الدين والعودة بالاسلام الى ما كان عليه أيام الرسول العربي . ومعنى هذه الدعوة هو أن تعود قيادة المسلمين الى أيدي العرب ، كما كان الحال من قبل ، وفي هذا تقويض السلطة التي يقوم عليها حكم السلاطين العثمانيين من جذورها ، يضاف الى ذلك أن سيطرة الوهابيين على مكة والمدينة وما أدت اليه من بث الدعوة الوهابية بين الحجاج القادمين من الولايات العربية الخاضعة للسيطرة العثمانية ، دل على أن السلطان العثماني ليس جديرا بلقب حامي الحرمين الشريفين فخفت هيبته في نظر الناس .

لم تكن هذه الحركات المحلية لتنشأ في المشرق العربي لولا ان السلطة العثمانية لم تمر طوال القرن الثامن عشر في سلسلة ازمات داخلية ودولية اضعفت قواها ودحرتها اندحارا واسعا على جميع الجبهات الاوروبية في البلقان وشمالي البحر الاسود على حدودها مع الامبراطورية النمساوية ولا سيما مع الامبراطورية الروسية .

٥ - حملة نابليون بونابرت على مصر

أما حملة نابليون : فأهميتها لا تكمن في كونها احتكاكا جديدا أو هاما بين أوروبا المستعمرة والمشرق العربي ، ذلك ان نابليون جاء بعلماء فرنسيين من ذوي الاختصاصات المنوعة العصرية استطاعوا اقامة بدايات لحكم عصري مشرقي لم تعهده البلاد العربية ابان الحكم العثماني . وكان نابليون يمثل أول ثورة عالمية هي الثورة الفرنسية التي هزت العروش الاوروبية وادخلت افكار المساواة والحرية والعدالة لتحرير الطبقات الشعبية وظلت هذه الحكومة نموذجا تبناه محمد علي فيما بعد . اتبع نابليون في حكومته اسلوبا لم تألفه هذه البلاد ، باعتماده على العناصر البشرية والاقتصادية والفكرية في البلاد العربية التي حكمها وأصبح ذلك فيما بعد من مطالب الحركة القومية الاساسية فقد اشرك ممثلين عن الأهالي في ادارة شؤون البلاد .

أوجد نابليون مكتبات عامة ومختبرات طبية دعا المصريين الى زيارتها وأذاع أفكاراً ثورية خطيرة في نشرات طبعت في مصر ووزعت على الاهلين[1] .

ولعل من أهم نتائج الحملة بروز الشعب كقوة جديدة . فقد أحس الشعب العربي في مصر بوجوده خلال تفرده في النضال ضد الفرنسيين ، والانكليز من بعدهم لا سيما بعد هزيمة الاتراك والمماليك وفرارهم . وبرز من صفوفه زعماء شعبيون عقدوا العزم وأصدقوا النية على ألاّ يسمحوا لحكم اجنبي باستعمارهم حتى ولو كان هذا الحكم فرنسيا لا سيما وان مصر بقيت بمعزل عن الغزوات الغربية منذ الفتح العربي الاسلامي . ولا أن يسمحوا بعودة مظالم الأتراك والمماليك ، وقد نجح هؤلاء الزعماء في فرض محمد علي واليا على مصر . فقد ألبسوه شارات الولاية وطالبوا السلطان بالموافقة وقاموا بمحاولات كثيرة في هذا المنحى . ورضخ السلطان آخر الأمر حيث نص مرسوم التولية : « أنها تمت بناء على رغبة الشعب . . » . لقد هزت هذه الحركة الجمود وتركت بذرة في أرض تمتاز بقابلية انبات طيبة رغم جفاف الحكم العثماني .

٦ ـ محمد علي[2] : كانت سياسة محمد علي أوسع محاولة عرفها تاريخ العرب الحديث في اقامة بناء دولة عصرية . وقد استفاد محمد علي من تجارب الخلفاء العثمانيين في تكوين « الجيش الجديد » أو (النظام الجديد) المقتبس من النظام الفرنسي العسكري ايام نابليون ، فأعاد تنظيم أجهزة الدولة على أسس حديثة وساعده في هذه المهمة الكبيرة عدد من العلماء الفرنسيين الذين بقوا في مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية ، كما استفاد من ضباط نابليون واعوانه الذين شردهم انتصار الجيوش الحليفة بعد معركة « واترلو » ، وعلى

---

(١) جاء في مقدمة احداها : « من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على أساس الحرية والساري عسكر الكبير بونابرته » أي أن نابليون قدم الشعب على القائد . . وجاء في النشرة : « ان جميع الناس متساوون عند الله . وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية . فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها » .

(٢) محمد علي باشا الكبير ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩ . هو ابن ابراهيم آغا بن علي ، مؤسس آخر دولة ملكية في مصر . الباني الاصل ، مستعرب ولد في قولة اليونانية من أعمال الدولة العثمانية ذلك الحين . احترف تجارة الدخان فأثرى ، وكان اميا فتعلم القراءة في سن الخامسة والاربعين . قدم مصر وعين وكيلا لرئيس قوة من ٣٠٠ رجل لرد الغزاة الفرنسيين عن مصر . وشارك في حرب ابي قير عام ١٧٩٩ . وانتصر في معركة فريزر ضد الانجليز فكانت نقطة تحول في حياته . أباد آخر المماليك في مذبحة القلعة عام ١٨١١ ، وانتصر على الوهابيين في الجزيرة عام ١٨١٩ ثم فتح السودان ١٨٢١ وانتصر في معركة نزيب الفاصلة عام ١٨٣٩ واستلم امرة الاسطول العثماني فصارت أبواب اسطنبول مفتوحة امامه فجزعت انجلترا وروسيا فضغطوا عليه فوقع معاهدة لندن عام ١٨٤١ وبذلك أصبح حكم مصر له ولذريته . قام باصلاحات كبيرة في الجيش والصناعة والاقتصاد والامن . انتزع الاراضي من الفلاحين بحيث أصبحت أراضي مصر كلها ملكا له ولعائلته ، وارهق الفلاحين بالضرائب . مات في الاسكندرية في ٢ آب ١٨٤٩ .

الرغم من أن مفهوم محمد علي عن الدولة كان بصورة اولية مفهوما فرديا وان حكومته كانت من طراز حكومات المستبدين المستنيرين[1] وان الغرض من الاصلاحات الواسعة التي قام بها ، انما كانت توطيدا لنفوذه وسلطانه لا خدمة للشعب ، فقد نجح في احداث تبدلات هامة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . واتجه ابنه ابراهيم الى احداث مثل هذه التبدلات في سورية .

ان أعظم المكاسب التي نجمت عن سياسة محمد علي وابراهيم الاصلاحية هو الانقلاب في التعليم ولا سيما ما يتعلق بالنظام العسكري الجديد ، فبدلا من الكتاتيب وحلقات المساجد جعلت المدارس الحديثة القائمة على مناهج تتضمن تعليم العلوم الحديثة في جوانب شتى ، وقد نجم عن هذا قيام حركة ترجمة وتأليف واسعة شملت مجالات متعددة وخاصة بعد تأسيسه لمطبعة بولاق . وقد ادى بدوره الى تطور ملحوظ في اللغة العربية قد يصل الى حد ما الى التطور الذي حققته عند بداية حركة الترجمة والتأليف في القرن الثاني للهجرة . وهناك جانب آخر من أعمال محمد علي ينبغي ألا يهمل ، وهو رغبته في انشاء امبراطورية عربية تحل محل الخلافة العثمانية وتمتد حدودها الى الحدود التي تقف عندها اللغة العربية كما أعلن ابراهيم نجله الاكبر ، إلا أن هذه المحاولة لم تنجح لاسباب عديدة : لان مضمونها القومي كان ضعيفا سواء لدى محمد علي الألباني الأصل ، أو لعدم نضوج الوعي القومي لدى الشعب العربي وللمعارضة التي لقيها هذا المشروع من أقطاب السياسة الاوروبية في ذلك الحين ، ولهذا لم تثر هذه الفكرة الا حماسة فاترة في أوساط محدودة ، وظل الولاء للسلطان المتستر بالخلافة الاسلامية أقوى أثراً .

تشكل هذه الاحداث على اختلاف نزعاتها وخصائصها بداية انطلاق الحركة القومية .

عوامل نشوء الحركة القومية

العوامل التي ساعدت على نشوء الحركة القومية ورسمت لها خطوطاً عديدة كثيرة ومن أهمها :

أولا : استعادة الوطن العربي لمكانته السياسية والاقتصادية :

رأينا أن اكتشاف رأس الرجاء الصالح قد حول الطرق التجارية وحول معها أنظار أوروبا عن البلاد العربية ، ولهذا فتر اهتمام أوروبا وضعفت صلاتها بها وكان الاحتكاك تجاريا وهامشيا ، ولكن أوروبا ، ولا سيما انكلترا وفرنسا بدأت منذ أواسط القرن الثامن

(1) Despote Eclairé

عشر تدرك أن قيمة رأس الرجاء الصالح لا تعادل قيمة الطرق القديمة المارة في البلاد العربية . فقد تبينت انكلترا أن طريق البحر الأحمر او طريق الفرات قبل افتتاح قناة السويس يختصر مدة السفر من لندن الى كلكتا الى شهرين بدلا من خمسة أشهر عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد بذلت انكلترا مساعي لدى زعماء المماليك في كل من مصر والعراق ولاسيا بعد ظهور علي بك الكبير في القاهرة وسليمان باشا الجليلي في بغداد[1] لاعادة استخدام هذه الطرق . ثم جاءت حملة نابليون بونابرت التي رغبت في استخدام مصر قاعدة لتهديد انكلترا أو طردها من الهند ، فأحدثت تحولا في سياسة أوروبا في البحر المتوسط وأصبحت البلاد العربية تحتل مكانة هامة في السياسة الاستعمارية الاوروبية ، ثم بعد ظهور محمد علي وشق قناة السويس اصبحت البلاد العربية الاسيو ـ أفريقية تحتل قلب المواصلات العالمية بين اوروبا وافريقيا وآسيا وبهذا استقطبت أنظار أوروبا والعالم من وادي النيل والبحر الاحمر الى وادي الفرات والخليج .

ثانيا : الضغط الاستعماري الاوروبي ،وهو نتيجة للعامل الاول .

فما كادت أوروبا تدرك ما للبلاد العربية من شأن خطير ، حتى شرعت تعد العدة لغزوها والسيطرة عليها ، وحتى بدأ الصراع الاستعماري بين الدول الأوروبية وأخذ الضغط الاستعماري يزداد حدة مع ظهور نتائج الانقلاب الصناعي في أوروبا وازدياد قوتها العسكرية والمالية وفشل سياسة الدولة العثمانية . وبدأت البلاد العربية الافريقية تسقط تباعا في قبضة الاستعمار الأوروبي ، ولم يكد يطل مطلع القرن العشرين حتى لم يكن قد بقي خارج القبضة الاستعمارية سوى القسم العربي الآسيوي . أما ما نجم عن ذلك ، فهو ان كل ضغط يولد رد فعل ، فالصراع الفرنسي ـ الانكليزي على مصر في بداية القرن التاسع عشر ولد النهضة المصرية على يد محمد علي . وسقوط الجزائر ولد النهضة في تونس ومراكش ، وسقوط تونس عجل في قيام ثورة عرابي المناوئة للاستعمار . وسقوط القسم العربي الافريقي في براثن الاستعمار نشط الحركة القومية في بلاد الشام والعراق . وهناك ظاهرة خطيرة ميزت الحركة القومية العربية قبيل الحرب العالمية الأولى ، وهي أن القسم العربي الأفريقي كان تحت نير الاستعمار الأوروبي بينما بقي القسم العربي الآسيوي تحت النير العثماني وهذا ولّد اتجاهين في هذه الحركة : اتجاه القسم العربي الأفريقي كان مناوأة للاستعمار الأوروبي ومحاولة التحرر بالاعتماد على الدولة العثمانية ، وعلى ما لهذه الدولة من حقوق في معظم بلاد هذا القسم ، بينما كان اتجاه القسم العربي الآسيوي التحرر من

---

(1) ١٧٤٠ ـ ١٧٩٦ م هو سليمان باشا بن أمين بن حسين الجليلي الموصلي . من وجوه العراق . ولي الموصل عام ١٧٧٢ م ونقل الى كركوك ثم ولاية سيواس فالموصل فبغداد ثم لزم بيته الى أن توفي .

النير التركي ولو بمساعدة الدول الأوروبية . (وهذا ما حدث عقب سياسة التتريك) .

ثالثا : التأثر بالافكار الغربية والحركات القـومية : واقصـد بالافـكار الغربية (التأثر بالافكار الثورية في الغرب) الا وهي : المساواة والعدالة وبعدها مبـدأ القوميات الذي ساد كرد فعل للثورة الفرنسية في منتصف القرن التاسع عشر ، ثم الحرية وهي من أهم شعارات الثورة الفرنسية وكانت وراء ابرز الاحداث الأوروبية . لهذا كان القرن التاسع عشر عصر الحركات الدستورية والقومية كما وصفه معظم المؤرخين . وقد تم التأثر بهذه الأفكار عن طريق حملة نابليون والتجار الأوروبيين والبعثات العلمية التي أرسلها محمد علي وحركة الترجمة التي نشطت عقب ذلك والبعثات التبشيرية التي اخذت تغزو البلاد . وكان التأثير حتـى أواخـر القـرن التاسـع عشر يكاد يقتصر على الأفـكار الدستورية ، ونجد ذلك واضحاً لدى معظم المفكرين الذين كرهوا الاستبداد وحاربوه .

نجده لدى رفاعة رافع الطهطاوي[1] الذي كان في باريس عند قيام ثورة ١٨٣٠ ، وقام بترجمة الدستور الفرنسي قبل الثورة وبعدها ، كما نجد هذه الافكار لدى مفـكري الثورة العرابية[2] كعبد الله النديم[3] ومفكري الجامعة الاسلامية كجمال الدين الافغاني[4]

---

(1) ١٨٠١ - ١٨٧٣ شيخ المترجمين المصريين ولد في طهطا ، ونشأ فقيرا وتخرج من الازهر . ارسل في بعثة الى فرنسا ثم عاد [illegible] مل في الترجمة ثم مديرا لمدرسة الالسن . اصدر جريدة الوقائع المصرية . ألف كتاب « تخليص الابريز في تلخيص [illegible] بر » وهو متأثر بالجبرتي كثيرا .

(2) ثورة عرابي هي ثورة قام بها احمد عرابي في عام ١٨٨٢ متزعما ثورة الجيش المصري للقضاء على النفوذ الاجنبي في البلاد وقاد الجيش ضد قوات بريطانيا التي اعتدت على مصر ولكن تسرب الخيانة الى صفوف الجيش ادى الى هزيمته فقدم الى محكمة عسكرية حكمت عليه بالاعدام ثم نفي الى سيلان ثم عاد بعد ١٩ عاما الى مصر وتوفي في القاهرة عام ١٩١١ .

(3) ١٨٤٣ - ١٨٩٦ . كاتب وشاعر وخطيب وصحفي ، ووطني مصري ولد بالاسكندرية . كان موظفا بالبرق ثم عمل في تنظيم الجمعيات الخيرية التعليمية لتكون ستارا لعمله الوطني . اصدر « التنكيت والتبكيت » ثم « اللطائف » . وشارك في الثورة العرابية بقلمه ولسانه . اختفى بعد فشلها ثم عثر عليه ونفي ثم عفي عنه فأصدر مجلة « الاستاذ » ثم نفي الى الاستانة حيث توفاه الله . كان خطيبا مفوها ، ووطنيا كبيرا . جمع شعره في كتاب « سلافة النديم » وهو شعر متكلف .

(4) محمد بن صفدر الحسيني جمال الدين الافغاني ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م ولد في سعد آباد بأفغانستان ونشأ بكابل وتلقى العلوم وبرع في الرياضيات . وسافر للهند وحج ثم رحل الى الاستانة ونفي منها فذهب الى مصر عام ١٨٧١ م . تتلمذ عليه محمد عبده ثم أخذ يكتب في جريدة مصر باسم « مظهر بن وضاح » فنفي لآرائه الاصلاحية عندئذ رحل الى حيدر آباد ثم الى باريس وأنشأ فيها مع محمد عبده « العروة الوثقى » . ثم سافر الى ايران وحرض على خلع الشاه . ثم ذهب الى لندن وقد عاد للأستانة حيث توفي بالسرطان ونقل الى بلاد الافغان . وكان يتقن سبع لغات . وكان كاتبا وخطيبا ومعلما اجتماعيا ودينيا . له كتاب « تاريخ الافغان » و « الرد على الدهريين »

ومحمد عبده[1] ونجدها لدى أديب اسحق[2] ومصطفى كامل[3] وعبد الرحمن الكواكبي[4] وغيرهم كثر .

ولعل الحاح هؤلاء المفكرين على فكرة الحرية كان رداً على تيار الاستبداد السائد آنذاك وبصورة خاصة الاستبداد الحميدي[5] . فقد تحدث هؤلاء المفكرون عن الحرية والدستور وحقوق الانسان بروح ثورية . يقول أديب اسحق : « ان الحرية هي التقيد بقوانين يشترك الشعب في وضعها عن طريق ممثليه » ويقول الكواكبي : « ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها » ان عنف الاستبداد الحميدي جعل النضال ضده أهم واجب . « فلا وطن في حالة الاستبداد » كما يشير أديب اسحق . ولهذا نجد الاحرار العرب يعملون كأحرار الترك أو معهم على انشاء جمعيات تهدف الى القضاء على الاستبداد ، كالجمعية

---

(١) محمد عبده ١٨٤٥ - ١٩٠٥ من مؤسسي النهضة المصرية الحديثة ، وكبار الدعاة الى التجديد والاصلاح في العالم الاسلامي . ولد في محافظة البحيرة . ثم قصد الازهر . التقى بالافغاني عام ١٨٧٢ وتأثر به كثيرا . وتوجه نحو الصحافة . درس في الازهر ودار العلوم ثم عزل لنشره الآراء الاصلاحية . ثم ترأس تحرير جريدة « الوقائع المصرية » فاصبحت جريدة الرأي الحر . شارك في الثورة العرابية وابعد بعد فشلها عن مصر ونشر مع جمال الدين الافغاني « العروة الوثقى » لمحاربة الاستعمار وتغذية الروح الوطنية ثم أصبح مفتيا للديار المصرية حتى وفاته . كانت تقوم تعاليمه على ثلاث نقاط :

١ - العودة بالاسلام الى اصوله الاولى من تحرر واجتهاد .
٢ - النهوض باللغة العربية واحيائها .
٣ - احترام حقوق الشعوب في الحرية .

(٢) ١٨٥٦ - ١٨٨٥ صحفي وأديب وسياسي ولد بدمشق وحرر جريدة التقدم البيروتية ثم اصدر جريدة مصر مع الافغاني . له ترجمات كثيرة من الادب الفرنسي . مفكر وسياسي وطني حر توفي في بيروت .

(٣) ١٨٧٤ - ١٩٠٨ سياسي وثائر مصري ، ولد بالقاهرة ، وتخرج من مدرسة الحقوق . انصرف للدعوة للحركة الوطنية بالخطابة والمؤتمرات والصحافة . سافر لاوروبا وفرنسا مطالبا بالاستقلال الوطني . انشأ صحيفة « اللواء » بالعربية والانكليزية والفرنسية . ثم كون الحزب الوطني عام ١٩٠٧ حتى توفي .

(٤) عبد الرحمن الكواكبي كاتب عربي من زعماء الاصلاح . ولد في حلب وانشأ جريدة الشهباء ثم الاعتدال ثم هاجر الى مصر لتعطيل الجريدتين من قبل الاتراك واتصل بالافغاني ومحمد عبده وقام برحلات واسعة في انحاء العالم . كتب كتاب « طبائع الاستبداد » و« ام القرى » وهو يشبه روسو في كتاب العقد الاجتماعي .

(٥) نسبة الى السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨) وقد حكم من عام ١٨٧٦ - ١٩٠٩ . تسلم العرش بعد مراد الذي عزل بسبب جنونه ، وقبل بدستور مدحت باشا وما لبث أن الغاه . خاض حروباً كثيرة . وكان عهده مليئاً بالدسائس والفتن . أكره على إلغاء الدستور ثانية ثم عزل عام ١٩٠٩ وسجن حتى توفي .

الاصلاحية التركية العربية التي أسسها أمين أرسلان[١] وجمعية الشورى العثمانية التي ساهم في تأسيسها رفيق العظم[٢] ورشيد رضا[٣] .

وبزوال الاستبداد الحميدي تحتل الأفكار العربية القومية مركز الصدارة وتظهر هذه الأفكار في أنظمة وشعارات الجمعيات العربية ، وشعاراتها القومية ، بل في أسماء بعض الجمعيات نفسها كجمعية « العربية الفتاة[٤] » .

أما التأثر بالحركات القومية فكان واضحا : منها الثورات القومية في البلقان واليونان ، ومنها في ارمينيا . واخيرا في الحركة الصهيونية وبدء نشأتها . وكان احتكاك العرب بهذه الحركات جميعها مباشراً وقوياً . فقد اشترك عدد من الضباط والجنود العرب في الحروب البلقانية واليونانية وترك هذا الاحتكاك أثره فيهم كما يظهر في الجمعية القحطانية وجمعية العهد التي ألفها الضباط العرب عام ١٩٠٩ .

رابعا : الاحياء الادبي والتاريخي : وهو أهم ثمار النهضة العلمية التي بدأها محمد علي في مصر وابراهيم[٥] في سورية ، وأسهمت فيها الارساليات التبشيرية الاميركية

---

(١) أمين مجيد ارسلان مجهول تاريخ الولادة وتوفي عام ١٩٤٣ . أديب من رجال السياسة . ولد في الشويفات بلبنان وتعلم في اليسوعية وسافر الى باريس فأصدر جريدة « كشف النقاب » بالعربية واصدر مع خليل غانم جريدة « تركيا الفتاة » بالعربية والفرنسية . عينه السلطان عبد الحميد قنصلا في بروكسل واستقال بعد الدستور فعين في الارجنتين وتوفي ببونس ايريس . له كتاب « حقوق الملل ومعاهدات الدول » . وله كتب في نابليون .

(٢) رفيق بن خليل العظم ١٨٦٧ - ١٩٢٥ . عالم بحاث من رجال النهضة الفكرية في سورية . ولد في دمشق ثم زار مصر واستقر فيها عام ١٣١٦ هـ . اشترك في كثير من الجمعيات الاصلاحية ونشر بحوثا قيمة . صنف كتاب « أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة » و« الجامعة الاسلامية وأوروبا » وتوفي في القاهرة . وهو من مؤسسي « جمعية الشورى العثمانية » مع السيد رشيد رضا .

(٣) محمد رشيد رضا ١٨٦٥ - ١٩٣٥ . عالم ديني ومصلح اسلامي واجتماعي . ولد في القلمون (طرابلس) اللبنانية وتعلم فيها . رحل الى مصر عام ١٨٩٧ واتصل بمحمد عبده . اصدر مجلة « المنار » لبث آرائه الاصلاحية رجع الى دمشق عقب اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ . ثم عاد الى مصر لانشاء مدرسة الدعوة والارشاد . انتخب رئيسا للمؤتمر السوري أثناء حكم فيصل ثم رحل الى مصر مع دخول الفرنسيين الى سورية . توفي إثر حادث في القاهرة . له كتاب « تفسير القرآن » ويقع في ١٢ مجلدا .

(٤) وقد شاع كثيرا استخدام القوميين لكلمة فتاة في أوروبا في تسمية جمعياتهم : (كايطاليا الفتاة ، بولونيا الفتاة ، ايرلندا الفتاة الخ .) وان قراءة الخطب التي القيت في مؤتمر باريس (وهو المؤتمر الذي ضم ممثلين عن مختلف الجمعيات العربية) والمناقشات التي دارت فيه تعطينا فكرة عن مدى التأثر بهذه الافكار . .

(٥) ابراهيم باشا ١٧٨٩ - ١٨٤٨ قائد مصري . والابن الاكبر لمحمد علي . عينه ابوه قائدا للحملة المصرية ضد الوهابيين في الجزيرة العربية ١٨١٦ - ١٨١٩ . ثم عين قائدا للجيش المصري ضد الثوار اليونانيين فأخضعهم عام ١٨٢٨ . فتح فلسطين والشام وعبر طوروس حتى وصل كوتاهية عام ١٨٣٣ وانتصر على الاتراك في معركة نزيب عام ١٨٣٩ . عين نائبا لمحمد علي ولكنه توفي قبله بسنة .

والأوروبية والجمعيات الأهلية ، وقد ظهرت حركة الاحياء في وقت بدأت فيه نار التعصب الطائفي تتقد بتحريض العثمانيين والاجانب ، وبسبب « جاهلية رجال الدين وجهل الجماهير » ، كما يقول الكواكبي ، واتجهت حركة الاحياء الى دراسة التراث العربي ، واعادة طبعه والاعتزاز به والحث على حقيقة واحدة وهي أن هذا التراث كان نتيجة اسهام العرب كلهم . وفي آن واحد أعلن رواد هذه الحركة كاليازجي[1] والبستاني[2] ، الحرب على الجهل والتعصب ، ودعوا الى الاتحاد الوطني على أساس « حب الوطن من الايمان » . ويقول الكواكبي : « أيها العرب المسلمون ، ان انكر المنكرات ، بعد الكفر ، هو الظلم فانهوا عن المنكر ان كنتم مؤمنين ، وأنتم أيها العرب غير المسلمين ادعوكم الى تناسي الاحقاد ، وأجلكم على الا تهتدوا الى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه امم اميركا قد هداها العلم للاتحاد الوطني دون الديني فما بالنا نحن لا نفكر في أن نتبع احدى تلك الطرائق فيقول علماؤنا لمثيري الشحناء من الاعاجم والأجانب بيننا : دعونا يا هؤلاء نحن نذير شأننا دعونا نجتمع على كلمات سواء ، ألا وهي : وليحيا الوطن ولنحيا طلقاء أعزاء[3] » . نبهت حركة الاحياءالى أهمية الدور الذي قام به العرب في التاريخ والى عظمة الادب العربي واللغة العربية وانساقت الى مقارنات بين دور الاتراك التاريخي ووضع لغتهم وانتهت المقارنة الى أن على العرب أن يستعيدوا دورهم القيادي وذهب الكواكبي وغيره من المفكرين الى الدعوة لخلافة عربية .

كانت هذه الحركة أكثر تأثيراً من الناحية القومية في العرب من الافكار الغربية ، والهام فيها أنها لم تكن فردية ، وانما تبنتها جمعيات علمية وأدبية ضمت المسلمين والنصارى ، وكان من الطبيعي ان تنقلب هذه الجمعيات الادبية الى جمعيات سياسية . ففي أحضان الجمعيات الادبية ظهر شعار الاتحاد الوطني والدفاع عن حق اللغة العربية في أن تكون اللغة الرسمية في البلاد العربية ، وفي الجمعيات ألقيت اول قصيدة ثورية ألقاها

---

(١) ناصيف اليازجي ١٨٠٠ - ١٨٧١ . عالم لغوي وشاعر عربي . ولد في كفر شيما في لبنان وتوفي في بيروت . عمل كاتبا للامير بشير الشهابي ثم انقطع للتأليف . من كتبه « مجمع البحرين » و « الجوهر الفرد في الصرف » و « طوق الحمامة » في النحو .

(٢) بطرس البستاني ١٨١٩ - ١٨٨٣ . عالم لغوي وأديب عربي . ولد في قرية الدبية اللبنانية في أسرة من العلماء والادباء ورجال الدين . مارس التعليم ، وترجم مع البعثات الامريكية الدينية وساهم في ترجمة بعض الكتب الدينية . اصدر صحيفة « نفير سورية » و « الجنان » و « الجنة » . واصبح زعيم الحركة الادبية الشامية . له كتاب « محيط المحيط » و « دائرة المعارف » وترجم الكتاب المقدس .

(٣) راجع كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي . طبعة حلب . ص ٢٦ .

ابراهيم اليازجي[1] تغنى فيها بامجاد العرب وعظمة التراث العربي وهاجم الحكم العثماني ودعا الى اتحاد العرب لرفع النير العثماني ومطلعها :

تنبهـوا واسـتفيقـوا أيهـا العـرب فقط طمى السيل حتى غاصت الركب[2]

وعن هذه الجمعيات صدرت اولى النشرات الثوريه[3] الداعية الى التحرر من نير الأتراك وعلى الرغم من الاستبداد الحميدي ومن سيادة روح الجامعة الاسلامية التي تبنى عبد الحميد شكلها الظاهري ، فقد مهدت حركة الاحياء للنشاط القومي الذي ظهر بعد زوال العهد الحميدي .

خامسا : سياسة التتريك : بينما كان الوعي القومي ينمو لدى العرب ، كان الوعي القومي ينمو لدى فئة من الاتراك واذا كانت فكرة القومية لدى الشعوب المستعبدة تهدف الى الاستقلال ، فانها لدى الشعوب الحاكمة المستبدة تدعو الى زيادة التسلط ، فقد كانت القومية التركية منذ اواسط القرن التاسع عشر رد فعل على مؤثرات الثقافة الغربية وانتفاضات شعوب البلقان القومية ضد العثمانيين وازدياد الخطر الاجنبي على الدولة العثمانية . كما كانت تهدف الى حماية ما تبقى من خطر الاستعمار الاوروبي ومن خطر الانتفاضات القومية ، ووجد الزعماء الاتراك ان السبيل الصحيح الى ذلك هو اولا في حركة اسلامية عالمية بقيادة السلطان عبد الحميد وبزعامة جمال الدين الافغاني ورفاقه محمد عبده واديب اسحق وغيرهم . ثم ما لبثوا أن فكروا في مرحلة أخرى هي : صهر الشعوب العثمانية في بوتقة تركية وتوطيد سلطة الدولة المركزية .

كانت هذه الحركة الثانية تعني في المفهوم العربي ، محاولة القضاء على اللغة العربية وطمس التاريخ العربي وابعاد العرب عن المراكز الحساسة في الدولة . وقد رافق هذه المحاولات استفزازات مثيرة للشعور القومي العربي ، كطلب استبدال اسماء الخلفاء الراشدين باسماء جنكيز خان وهولاكو ، ومقارنة جنكيز خان بالرسول العربي الكريم .

إن انقلاب الحركة القومية العربية من حركة اصلاحية تدعو الى استقلال ذاتي ، الى حركة ثورية تشهر السلاح في سبيل الاستقلال التام ، كان ولا شك نتيجة لسياسة التتريك

---

(١) ولد عام ١٨٤٧ وتوفي عام ١٩٠٦ . لغوي وصحافي وشاعر اصدر مجلة الطبيب ثم نزح الى مصر وله عدة مؤلفات ادبية وصحفية .

(٢) وقد ورد هذا البيت في رواية اخرى على النحو التالي :
تنبهـوا واسـتفيقـوا أيهـا العـرب فقـد طمى الخـطب حتـى غاصـت الركـب

(٣) جورج انطونيوس ، يقظة العرب . الترجمة العربية ـ لبنان ١٩٧٠

التي كانت من العوامل الفعالة في هذا الانقلاب كما سنرى .

تطور الحركة القومية في الامبراطورية العثمانية الى الحرب العالمية الأولى

كي نسير قدر الامكان ، واعتمادا على الوثائق الثابتة المتوفرة الآن لدينا عن أبعاد الحركة القومية العربية في تلك الفترة ، يجدر بنا أن نلقي نظرة ولو خاطفة الى اصولها منذ اعلان وتعطيل الدستور العثماني عام ١٨٧٧ والى بعض عواملها ومظاهرها المتميزة في اطار حركة المقاومة الوطنية والمطالبة بالاصلاحات خلال الحكم الحميدي وحتى الانقلاب الدستوري (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) ثم نتطرق الى تحليل أهم عناصر السياسة العثمانية عقب ثورة ١٩٠٨ حيال قضية القوميات في الدولة والقومية العربية بنوع أخص . وفي هذا التحليل السريع وتمشيا مع أهم الاحداث والازمات التي مر بها الحكم العثماني حتى دخوله معترك الحرب الكونية تأخذ الحركة القومية العربيةمكانها الحقيقي في تضاعيف هذه الفترة التاريخية العصيبة وتظهر في أشكالها المختلفة من خلال جمعياتها العلنية والسرية ، ومن خلال أعمال واقوال أهم الشخصيات الداعية لها والمنضوية تحت لوائها الى أن تتبلور المواقف وتتهيأ الظروف الداخلية والخارجية للمنعطف التاريخي الفاصل ، اذ تبدأ الثورة العربية الكبرى بقيادة الامير حسين شريف مكة المكرمة بكسر عصا الطاعة على السلطنة العثمانية واعلان الاستقلال الذاتي والسيادة القومية في دولة عربية كبرى طمحت الى توحيد مصير جميع الناطقين بالضاد ابتداء من شبه الجزيرة العربية وحتى البحر المتوسط والى الخليج العربي ، حيث ظهرت ونضجت حركة « الاصلاح والإئتلاف » في المعارضة اللا مركزية منذ الثورة الدستورية عام ١٩٠٨ .

المرحلة الأولى : من تعطيل الدستور وحتى اعادة اعلانه ١٨٧٧-١٩٠٨ أو العصر الحميدي

بدأ السلطان عبد الحميد حكمه بتعطيل الدستور وبابعاد ونفي زعمائه امثال مدحت باشا (ابي الدستور) وضياء الخالدي مبعوث القدس وخليل غانم مبعوث بيروت . وكانت فكرة القومية العربية قد بدأت تظهر على الصعيد الادبي دون أن تتعداه بعد الى صعيد العمل السياسي . وكان مركزها ومحور أعمالها في سوريا ومدينة بيروت خصوصا ، حيث المعاهد العلمية العالية وحيث تجمعت نخبة ممتازة من المفكرين ارتبطت ثقافتها بالحضارة الغربية وبمثلها العليا الديموقراطية وقد بدأت بوادر التعايش لا بل والتضامن الفكري والاجتماعي بين أفراد تلك النخبة المستنيرة على أساس قاسم مشترك هو

« العروبة » ضمن جمعيات سرية اتخذت مظهر وطابع العمل الادبي ، وكانت ممارسات وأهداف الجمعيات الماسونية تربط رجالاتها بدعاة حركة العلمنة والتحرر الديموقراطي في الغرب[1] . ومن أعمال هذه الجمعيات السرية الاكثر انطباعا مبادرة لصق المناشير العدائية للاتراك في بعض المدن السورية كما في بيروت ودمشق وصيدا والتي طالبت بالاستقلال وبالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية للبلاد ونددت بمظالم الادارة التركية كما دعت الى الوحدة الوطنية والى « العصبية القومية » . وظهرت معظم هذه المناشير « الثورية » أثناء ولاية مدحت باشا على سوريا بعد ابعاده عن الاستانة (١٨٧٨ ـ ١٨٨٠) وقد اسهبت التقارير الديبلوماسية الفرنسية والانكليزية في توضيح بعض الملابسات التي اكتنفت ورافقت بدء هذه الحركة العربية . وقد المحت الى دورالجمعيات « الوطنية السورية » وتكلمت عن « مؤامرة عربية » ضد الحكم التركي لصالح الامير عبد القادر الجزائري أو لصالح مدحت باشا أو بمؤازرة بعض القبائل العربية وبالتعاون مع المهدي لطرد الاتراك من البلاد واعلان الاستقلال الذاتي . وان دلت هذه المناشير الوطنية وهذه التقارير الديبلوماسية على شيء فإنما تدل على شدة الاضطراب والطغيان الذي كانت تعاني منه بلاد الشام والى يقظة قناصل الدول الغربية في تتبع هذه المبادرات والاشاعات وفي اعطائها الطابع الثوري وهو ما ينسجم مع اطماع حكوماتهم في أضعاف السلطة المحلية وفي تهيئة الجو والافكار في سبيل التوسع الاستعماري[2] .

---

(١) أنيس الخوري المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٦٠ ص ١٥ ـ ٤١ : الاتجاه القومي ـ تضارب النزعات الادبية في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني .

منشورات العيد المئوي للجامعة الاميركية في بيروت = الفكر العربي في مائة سنة ـ بيروت ١٩٦٧ ص ١ ـ ٢٢ و ٢٣ ـ ٨١ .

زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ـ مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ـ بيروت ١٩٦٨ ص ٤٦ ـ ٧١ .

توفيق علي برو : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ ص ١٩ ـ ٥١ و ٦٠ ـ ٧٢ .

د . ذوقان قرقوط : الماسونية العربية في مجلة « قضايا عربية » ١٩٧٥ العدد ٩ ـ ص ١١ ـ ٣٠ .

(٢) زين نور الدين زين : المرجع السابق ـ ص ١٩٧ ـ الحاشية ٢١ وص ٦٨ وهناك بين أيدينا وثائق ديبلوماسية عديدة لم تنشر بعد ـ ويكفي هنا الاشارة اليها ريثما يتاح لنا نشرها ودراستها . راجع أيضا دراسة الاستاذ الالماني FRITZ STEFFOT : في مجلة

Eine Bewegung Unter Den Notabelu Syriens 1977 - 1978 Zeitschrift Der Deutschen Morgenlaüdischen Fesellschof 1969 Supplementa I - XVII - Deutscher Grientalistentag - Vortröge Teil 2, s. 631 - 649.

وكانت ردة فعل السلطان عبد الحميد بديهية كاسحة وقطعية . اذ أنه طبق مبادىء الحكم الاستبدادي المطلق والسلطة المركزية القاسية مع ما يتبع ذلك من تنفيذ هذه السياسة الداخلية ومن خنق لكل مظاهر الحرية الفكرية وممارسات الليبرالية الاجتماعية السائدة حينذاك في الغرب . وكان الحكم البوليسي وما ابتكره وطبقه من صنوف القمع والارهاب والاغراق في البوسفور وما روجه من مبادىء الجامعة العثمانية ومن تعاليم واهداف الوحدة الاسلامية . وقد حاول عبد الحميد مع مستشاريه العرب السوريين أمثال عزت العابد وابي الهدى الصيادي والاخوان ملحمة ان يستقطب التيار العربي والاسلامي المحافظ ، وان يوحد جهود اتباعه ويوجهها الى مجابهة التوسع العربي في شتى مظاهره . واستطاع ان يجعل من حركة اليقظة الاسلامية ومن الجامعة الاسلامية سلاحا سياسيا ضد مناوئيه المعارضين باسم الاصلاح والحرية . وكان لدعوة هؤلاء المعارضين رواد النهضة الدينية والاجتماعية بين العرب كمحمد عبده والكواكبي ومحمد رشيد رضا ناهيك عن بقية العرب الاحرار اللاجئين الى مصر واصحاب الصحف العربية الكبرى ، الاثر السياسي غير المباشر على سياسة عبد الحميد التعسفية . ولذا اضطروا للهرب الى مصر والى المدن الاوروبية الكبرى والى المهجر الاميريكي كديار أمن وكمركز تجمع لشن حملة المعارضة الفكرية على الحكم التركي . والتقى في أحزاب المعارضة ، العرب والاتراك على السواء . ومن أشهر هؤلاء الاحرار الهاربين من الظلم الحميدي مصطفى فاضل باشا ومراد بك الداغستاني واسماعيل بك كمال الالباني والداماد محمود والد البرنس صباح الدين والاديبان ضياء باشا ونامق كمال مع احمد رضا وخليل غانم وضياء الخالدي والامير امين ارسلان وغيرهم ممن جاء ذكرهم سابقا او بقيت أعمالهم وكتاباتهم دون الخلود والشهرة الناصعة . وقد انشأ هؤلاء صحافة طليقة حرة مثلت اسمى مظاهر العمل الادبي والسياسي والفكري الاجتماعي مثل **الاهرام والمقطم والهلال والمنار ومشوريت** .
من الجمعيات السرية التي تأسست خلال هذه الفترة الأولى من المعارضة الاصلاحية العربية ـ التركية في خارج الولايات العثمانية نذكر منها جمعية الشورى العثمانية التي جمعت العرب وغيرهم من القوميات المعارضة بعيد عام ١٨٩٧ . وكانت غايتها الاصلاح بمعناه العام وقد تزعمها الامير امين ارسلان وشاركه في تأسيسها محمد رفيق العظم والشيخ محمد رشيد رضا . وعمل فيها اعضاء من العرب والترك والارمن والجركس[1] .

---

(١) توفيق علي برو = العرب والترك المرجع المذكور سابقاً ص ٤٦ ـ ٥١ و ٦٥ ـ ٧٣ William L. Ochsenwolil
اعادة النظر في الوثائق الديلوماسية كمصدر في ـ صحيفة الشرق الاوسط ١٩٦٨ ـ العدد ٢٢ ـ الصفحة ٧٣ ـ ٨٧ .
وزين نور الدين زين : المرجع المذكور ص ٦٩ ـ ٧٢ .

وقبل أن نتابع الحديث عن هذه المعارضة الاصلاحية يجدر بنا التنويه السريع بمشروع خط الحديد الحجازي الذي نفذ بأموال المسلمين رعايا الدولة التركية وغيرها من الدول الآسيوية . وجاءت أهداف هذا الخط الدينية العسكرية واضحة ملموسة . أما الاهداف السياسية غير المعلنة فهي ربط الولايات العربية القريبة والبعيدة حتى النائية مباشرة بالعاصمة عن طريق دمشق وبلاد الشام لتسهيل عمل ومراقبة الادارة المركزية ولضمانة الاشراف السريع على هذه الولايات العربية . وقد تنبه امراء الجزيرة العربية ورؤساء قبائلها الى هذه الاهداف الخفية وسعوا الى منع امتداد الخط ضمن أراضيهم للمحافظة على امتيازاتهم وعلى مصالحهم خلال فترة الحج[1] .

ومن المظاهر الاخرى لسياسة عبد الحميد الداخلية والمركزية ربط جميع الولايات العربية بالخطوط السلكية . ومنها بالاخص خط الاستانة ـ المدينة المنورة بواسطة دمشق . وقد نفذ خط المكالمة الهاتفية بين العاصمة والحجاز منذ أوائل عام ١٩٠١ بينما كانت تزهى عاصمة ولاية الشام بأبنية ادارية جديدة لم تعهد مثلها في الماضي كالمستشفى الوطني والسرايا الكبرى وتجديد بناء الجامع الاموي الاثري . وكانت هذه المشاريع العمرانية وما رافقها من مد خطوط للكهرباء ولمياه عين الفيجة ومن تشجيع التجارة وتوسيع شبكة المصارف المالية تهدف كلها الى استمالة الرأي العام المحلي غير العابىء بالافكار الاصلاحية ذات الابعاد السياسية الخفية[2] .

أما المعارضة الاصلاحية ، فقد حاولت في أوائل عام ١٩٠٢ ان تجمع قواها وأن توحّد أهدافها . وبعد اتصالات تمهيدية بين الداماد وابنه البرنس صباح الدين ، وبين الزعيم الالباني اسماعيل كمال بك ، وبين بقية زعماء المعارضة ، فقد عُقد مؤتمر باريس

---

(١) تاريخ الاقتصاد في الشرق الاوسط الصفحة ٢٥١ ـ ٢٥٤ ش . عيساوي والمراجع الغربية التي يثبتها ، وراجع ايضا Arkody Jerusalimsky بالترجمة الانكليزية : الامبريالية الالمانية ، ماضيها وحاضرها . طبعة موسكو ١٩٦٩ ص ٢٣ .

وأيضا Jacob M. Laudou اليهودي في دراسته : الخط الحديدي الحجازي والحجيج المسلم .

قضية الدعاية السياسية العثمانية ـ Detroit عام ١٩٧١ وأيضا مقالة W.L. Ochsenwold : مناهضة المركزية السياسية في جنوبي الاردن والحجاز في أعوام ١٩٠٠ ـ ١٩١٤ ـ في العالم الاسلامي ١٩٧٣ ـ الصفحات ٢٩٧ ـ ٣٠٦ .

وهذه المقالة مأخوذة عن اطروحته التي قدمها في جامعة شيكاغو عام ١٩٧١ وعنوانها : الخط الحديدي الحجازي : دراسة في الاستقلال والقدرة السياسية العثمانية .

(٢) CONSUL Richards ولاية سوريا ـ في صحيفة الشرق الاوسط ١٩٦٨ الصفحات ٧٥ ـ ٧٦ .

الأول في ٢ شباط . وتبين للحال أن ثمة تيارين أساسيين يتنازعان قوى هذه المعارضة حول **القضية القومية** ، أي حول علاقات العنصر التركي الحاكم، مع بقية القوميات والشعوب التابعة ، مثل العرب والارمن والاروام والاكراد والبلغار والالبان . فبينما نادى الامير صباح الدين ، ونوابُ القوميات غير التركية ، باللامركزية الادارية، وبالمساواة التامة بين الاعراق والاديان دونما تمييز ، وحتى بالاستقلال الذاتي ضمن الرابطة أو الجامعة العثمانية ، اعتنق أحمد رضا زعيم القوميين الاتراك ، مبدأ المركزية المطلقة ، وجاهر بضرورة استمرار التفوق العنصري التركي في دوائر الدولة والوزارات عند اعادة تطبيق احكام الدستور المعطّل . وسوف تنبثق عن هذا التيار العنصري التركي **جمعية الاتحاد والترقي** التي ستطالب بصهر جميع القوميات ـ ومنها القومية العربية ـ في الدولة العثمانية المركزية . وخلال مؤتمر باريس هذا لم يُمثِّل التيارَ العنصري التركي الا العددُ القليل من المجتمعين ، اما ممثلو بقية القوميات فقد دعموا موقف الأمير صباح الدين ومبادئه اللامركزية ودعوا الى التعاون مع الدول الاوروبية بغية التخلص من الاستبداد الحميدي ، وتنفيذ الاصلاحات الاساسية في الدولة . أما ممثلو العرب فانهم لم يظهروا ـ على ما يبدو ـ حينئذ على مسرح المؤتمر ، ولا تشير الدراسات والوثائق المعروفة حتى الآن إلى نزعتهم الاساسية سوى انهم كانوا يؤيدون الاصلاح الدستوري . ولكننا نعلم من صورة تاريخهم العام في هذه الفترة انهم كانوا ينزعون الى اتجاهين ، الأول يحبذ التعاون الوثيق مع الحكم القائم ويشاركه في توطيد الادارة المركزية ، وقد اتينا على ذكر اسماء بعضهم ، يضاف اليهم اسماء شفيق الكوراني ، والشيخ ظاهر الطرابلسي ، الذي يجنح الى المعارضة الصريحة حتى التطرف ويجعل من الصحافة منبراً حراً ومن الجمعيات السرية اداة فاعلة للتوعية القومية[1] .

وكان لمؤتمر المعارضة هذا في باريس ، الأثرُ الكبير في تاريخ الدولة العثمانية الحديث ، ولا سيما بعد الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ ، اذ ظهرت حينئذ النزعتان على مسرح العمل السياسي العلني ، وتبلورت ملامحهما في توجيه الحكم وفي الممارسة الحزبية وأصبحتا محور الحياة السياسية العامة طيلة هذه المرحلة الجديدة وحتى دخول الحرب . وعلى أثر هذا المؤتمر وانبثاقا منه تأسست **جمعية التشبث الشخصي واللامركزية الادارية** التي استوحت برنامج عملها السياسي من مبادىء الامير صباح الدين . وقد

---

(١) B. Lewis : بروز تركيا الحديثة ـ الصفحات ١٩٨ ـ ١٩٩ . والبرت حوراني = الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣١٧ . وأيضا E.E. Romsour : الاتراك الشباب ـ مقدمة ثورة عام ١٩٠٨ ـ Princeton ، عام ١٩٥٧ الصفحات ٦٥ ـ ٦٩ . وأيضا ساطع الحصري = البلاد العربية والدولة العثمانية ـ مصر ١٩٥٧ ـ ص ١٠٦ وزين نور الدين زين = نشوء القومية العربية ـ المذكور ـ سابقا ـ ص ٧٣ و ص ٢٠١ الحاشية ١٤٨ .

انضم الى هذه الجمعية في هذه الفترة اعلام من المفكرين والسياسيين في مصر وبلاد الشام امثال الشيخ محمد رشيد رضا والدكتور شبلي الشميل ورفيق العظم في القاهرة . أما في دمشق وبلاد الشام فكان من اعضائها البارزين الشيخ طاهر الجزائري ومن تبعه في حلقاته الثقافية الشهيرة ، والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي ، ومن نهج نهجهم في العمل الاجتماعي والثقافي ، أمثال شكري العسلي وحقي العظم وفارس الخوري ، الذين سوف يلعبون دوراً بارزاً في الحركة القومية والاصلاحية . وقد سعت هذه الجمعية في اطار الأوضاع الراهنة الى بثّ افكارها الاصلاحية على أساس الحكم اللامركزي وتوسيع المأذونية في الولايات العربية . وقد بدأت الحركة في توضيح مقوماتها الاساسية ، لا سيما بعد أن وضع عبد الرحمن الكواكبي ، الاسس لرابطة اسلامية ، تعتمد على العنصر العربي وتجعل من الخليفة العربي والقرشي ، محور الانبعاث الديني ، بينما يصبح النظام اللامركزي ، نقطة انطلاق للسياسة القومية في الولايات العربية . وكانت مقالات الكواكبي في المنار والتي جمعت في كتابه « **ام القرى** » مع كتابه الآخر (**طبائع الاستبداد**) من الم الصفحات واسطعها ، تلك الصفحات التي فتحت آفاقاً جديدة للمشتغلين بهذه القضايا القومية . وفي هذه المسيرة الجديدة بدأ عبد الحميد الزهراوي جهاده في سبيل القضية العربية . فكتب مقالات جريئة ، لا بل استفزازية في **المنار** وفي **المقطم** ،حول موضوع الخلافة ومواضيع الفقه والتصوف ، كان لها الاثر البليغ في اثارة بعض القضايا الحساسة . اذ قال بوجوب فتح باب الاجتهاد في سبيل التجديد الفكري . وافسحت هذه المقالات المجال لجدال عنيف في الصحف المصرية بين الاتراك والعرب ، وبين من دعوا الى بثّ الروح العربية والاسلامية الاصيلة (السلفية) ، ومن ظلوا رازحين تحت سيطرة التقاليد الموروثة ، على علاتها وابتعادها عن الاصالة (١٩٠٢ - ١٩٠٤) . بينما كانت الانظار تتجه الى شبه الجزيرة العربية ولا سيما الى اليمن حيث كانت الاضطرابات السياسية تبشر بالثورة العتيدة على الحكم العثماني[١] .

ففي هذا الجوّ الفكري والسياسي المكفهرّ والمتأزّم ، تأخذ دعوةُ نجيب عازوري الى الاستقلال العربي أبعادها التاريخية . فقد كان هذا الكاتب العربي الماروني الاصل ، موظفاً ادارياً كبيراً في متصرفية القدس ، فنشر في باريس عام ١٩٠٥ كتابه الشهير « **يقظة**

---

(١) توفيق علي برو = العرب والاتراك - المذكور سابقا ص ٥٥ - ٦٠ و ٧٢ - ٧٧ وأيضا مقالة : الاسلام والقومية العربية بقلم مارسيل كولومب المنشور في مجلة : المجلة التاريخية - العدد الثامن لعام ١٩٦٠ - الصفحات ٩٣ - ٩٤ .
وقد نشر الدكتور محمد عمارة : الاعمال الكاملة للكواكبي - بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٧٤ .
ولا نرى فائدة من ادراج مقالاتS.G. Haim التي نقدت اصالة فكر الكواكبي القومي . وراجع مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا - المجلد ٦ ص ٩٥٥ .

الامة العربية في آسيا التركية » ، واصدر بعدئذ في باريس أيضا وباللغة الفرنسية « **الاستقلال العربي** »(١٩٠٦ - ١٩٠٨) حيث درس محلّلا الاوضاع الراهنة في منطقة المشرق العربي ، وتطرق الى موضوع القوميات الحديثة العربية ، والصهيونية ، التي تتنازع على السيطرة ، معلنا ضرورة قيام دولة عربية مستقلة ، تمتد ضمن الحدود الطبيعية من وادي الفرات الى ترعة السويس ، ومن البحر الابيض المتوسط الى اليمن وعُمَان والبحر العربي الهندي . وكانت دعوته القومية العربية امتدادا وتجسيدا لمبادىء الامير صباح الدين في اللامركزية ، ولافكار عبد الرحمن الكواكبي في الخلافة الدينية العربية . ولم يتوقف عازوري عند هذه الدراسة ذات الابعاد في مستقبل وتحقيق القومية العربية ، بل سعى الى العمل السياسي ، إذ أسّس في باريس جمعيةً دعاها « **رابطة الوطن العربي** »نشرت من وقت الى آخر نداءات نارية ملتهبة ، الى العرب في الدولة العثمانية ، والى شعوب اميركا واوروبا ، تدعوهم فيها الى مناصرة قضية الاستقلال العربي المنشود . وقد دعم هذه الحركة « الملحمية » موظف فرنسي كبير يدعى اوجين يونغ E. Young كان قد شغل منصب الحاكم العام في الهند الصينية ، والذي نشر كتابا ، قلما يذكر اليوم ذا العنوان والمضمون المثيرين : « **الدول حيال الثورة العربية** (١٩٠٦) » . وقد تُشكّل حركةُ عازوري ويونغ ، عملا غريبا مشبوها وهامشيا في تاريخ المسيرة القومية المحلية والواقعية في نظر البعض . ولكنها تعطي الدليل القاطع على أهمية وبُعد ومقومات « نظرية » الوطن العربي في أول مراحل تكوينها في العصر الحديث[1] ، وهذا ما يهمنا من الامر .

وفي الواقع كانت ثمة دلائل كثيرة تشير الى قلق ، لا بل الى هياج وروح ثورية بين القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية وفي بلاد الشام . ففي الحجاز بدأت القبائل القاطنة على امتداد الخط الحديدي تشعر بشدة وطأة الادارة المركزية ، وبحرمانها من احدى الموارد الهامة من الرزق الموسمي ، أثناء عبور قوافل الحج . وكانت الدولة قد دعمت عمال هذا الخط بعدد كبير من الجنود النظاميين قُدّر بخمسة آلاف ، ولكنهم عجزوا عن القيام بأعمال الحراسة لمعارضة البدو لهم . ويأخذ منذ عام (١٩٠٤ - ١٩٠٦) شعورُ التضامن بين القبائل العربية مظهرا عمليا جديدا ، يُشكّل بادرةً ملموسة وناجحة للعمل السياسي في

---

(١) N . Azoury = يقظة الأمة العربية في آسيا التركية - باريس - ١٩٠٥ E. Young = الدول حيال الثورة العربية - باريس - ١٩٠٦ راجع نص نداءات رابطة الوطن العربي في مجموعة Etton Rossi وثائق عن اصل وتطور المسألة العربية (١٨٧٥ - ١٩٤٤) - روما ، ١٩٤٤ ص ٢ - ٦ وص XIII

وفي اطار تاريخ وديبلوماسية المشكلة الشرقية - راجع كتاب R. Pinon = أوروبا والامبراطورية العثمانية . باريس - ١٩١٣ الصفحة ٣٧٨

المستقبل ، فما إن ثارت القبائل في اليمن ، حتى هاجت في الحجاز عشائر أخرى كثيرة ، وتبعتها في ثورتها القبائلُ المتنقلة في القطاع الجنوبي من بلاد الشام ، ما بين البلقاء والبحر الميت الى غزة . وكان لهذا التضامن بين القبائل العربية اثره الفعّال على الحاميات العربية التابعة للجيش النظامي التركي ، رفضت بعضها ان تحارب الاشقاء العرب في البادية وفي المناطق الاخرى ، لا بل وقد قيل إن عددا كبيرا من القوات العربية النظامية قد انضم الى القبائل الثائرة بكامل سلاحها ومؤونتها . وظلت الحالة على هذا التوتر الى أن قامت الثورة الدستورية عام ١٩٠٨[١] .

المرحلة الثانية : من الثورة الدستورية وحتى الحرب الكونية الأولى (١٩٠٨ - ١٩١٤)

١ - التجربة الدستورية : تموز ١٩٠٨ - نيسان ١٩٠٩

توخى انقلاب تركيا الفتاة أهدافا دستورية و« ثورية » ، تمتُّ بشعاراتها الى الثورة الفرنسية ، أي أن ضباط الانقلاب وعدوا باعادة تطبيق الدستور المعطل منذ عام ١٨٧٧ ، وبتأمين مبادىء الحرية والعدالة والمساواة لجميع المواطنين أفرادا وجماعات دون تمييز في العرق أو الدين ، ولذا عمّت الفرحةُ جميع طبقات وفئات الشعب ، واستبشروا بمستقبل أفضل[٢] . وذهب بعض الذين هربوا الى مصر من مظالم عبد الحميد ، امثال الدكتور شبلي الشميل وجلال الدين عارف وغيرهم ممن عرفوا بالمواقف القومية اللامركزية ، يضحون بها من أجل ضمان الوحدة العثمانية وتمكين جمعية الاتحاد والترقي من تنفيذ برنامجها الدستوري والديموقراطي ، وكانوا في غمرة ونشوة الفرح[٣] . وتألفت أول جمعية عربية - تركية سياسية عقب الانقلاب باسم جمعية **« الاخاء العربي - العثماني »** شُكّلت في ٥ آب ١٩٠٨ وظلت تعمل حتى ردّة الرجعية في ١٣ نيسان ١٩٠٩ ، وقد انضم اليها خيرة رجال المناطق والولايات العربية مندفعين بشعور الولاء الفطري للرابطة

---

(١) توفيق علي برو = العرب والترك - المذكور سابقا - ص ٤٦ وأيضا E. Young في كتابه المذكور الدول حيال الثورة العربية ص ١٩ - ٢٠ و٦٣ - ٦٥ .

(٢) انيس الخوري المقدسي = الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث - المذكور سابقا - ص ٤٢ - ٧٥ .

(٣) E. Young = في كتابه المذكور سابقا - المجلد الاول ص ٢٥ الاهرام ١٩٠٩ - تاريخ ٣ آب العدد ٩٤١٦ ومجلة مراسلات الشرق الجزء الاول العدد الثالث ص ٦٣ - ٦٧ ساطع الحصري = نشوء الفكرة القومية بيروت ١٩٥٦ ص ١٩٤ - ١٩٦ سليمان البستاني = عبرة وذكرى - القاهرة ١٩١٨ - ص ٩٨ . الشيخ محمد رشيد رضا = مجلة المنار - المجلد ١٢ ص ٩١٥ .

وراجع ايضا صدى آخر للانقلاب في الرأي العام التركي في دراسة خيرية قاسمية = الحكومة العربية في دمشق - مصر ١٩٧١ ص ١٨ وحاشية ٢ .

العثمانية دون التفكير في البدء بالمصير الوطني العربي . ولكن فقدان التجانس الفكري والترابط القومي بين اعضاء هذه الجمعية أدّى الى ميوعة في المبادىء ، والى تفكك في وحدة العمل السياسي . وعندها برز « **حزب الاحرار** » السياسي الى الوجود في شهر ايلول ١٩٠٨ ، وهو الحزب الذي نادى بمبادىء الامير صباح الدين ونجيب عازوري في تنفيذ السياسة اللامركزية ، وبمعارضة المواقف المتصلبة لجمعية الاتحاد والترقي الداعية الى السلطة المركزية والى سياسة التتريك ، وقد تنبه بعض القوميين العرب الى ضرورة الانكماش الوطني وعدم الانصياع اللاشعوري في مماشاة الاتراك اعتباطيا ، والقبول بما يدعون اليه من تفوق عنصرهم العرقي ومن السيطرة الفعلية على الادارات العامة والمركزية في الدولة . وكان بعضُ المراقبين قد تعقّبوا منذ أوائل عهد الثورة ، هذه النزعة التركية العنصرية المتطرفة حيال بقية القوميات ولا سيما حيال العرب ، إذ أبعد الموظفون العرب بأكثريتهم ، عن وزارتي الخارجية والداخلية ، وأبعد الضباط العرب عن العاصمة أو عن ولاياتهم الاصلية ، وفُرض استعمال اللغة التركية في المرافعات القضائية والمراسلات الرسمية والادارية ، حتى دوائر الجمارك سُمح فيها باللغة الفرنسية دون اللغة العربية ، وفي العرائض المرفوعة من النواب العرب الى مجلس المبعوثان . كل ذلك تحت شعار إنماء الروح القومية العثمانية ، وإزالة الفوارق العرقية والدينية . وكان عدد نواب الولايات العربية قد بلغ ٦٥ نائبا منهم ٥٠ عربيا من اصل ٢٧٥ وهو عدد لا يستهان به دستوريا في العمل البرلماني ، لا بل قد شكّل النواب العرب أكبر مجموعة قومية بين النواب العثمانيين في أول دورة لمجلس المبعوثان . ولكن بقي تأثيرهم الفعلي على هذا المجلس محدودا ، لأسباب عديدة ، ولم يحصلوا الا على مركز واحد في مجلس الوزراء هو وزارة الاوقاف . . . ولم تكن طموحاتهم القومية والسياسية على ما يبدو تتعدى تلك المناصب الشرفية في العاصمة[1] . وعندما حاولت « **الجمعية السورية** » المؤسسة في باريس في كانون الثاني ١٩٠٩ حسب مبادىء اللامركزية ، ان تثير مشكلة الاستقلال الاداري في بلاد الشام تعرّض بعضُ مؤسّسيها وبالأخصّ نخلة ورشيد المطران ـ وهم من مهاجري

---

(١) توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور سابقا ـ ص ٨٤ ، ٩٤ ـ ٩٧ ، وص ١٠٠ ـ ١١٠ وبعض المصادر التي يذكرها ، خصوصا :

مراسلات الشرق ـ الجزء الخامس العدد الأول الصفحة ٥٨ ، والعدد الرابع الصفحة ١٧٧ .

مراسلات الشرق ـ الجزء الثاني ـ العدد الرابع ـ ص ٢١٨ ، والعدد السابع الصفحة ٢٠٥ ـ ٢٠٨ .

مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا = مجلد ٢١ ص ٨٦٥ . راجع أيضا دراسة فيروز أحمد = الاتراك الشباب : جمعية الاتحاد والترقي في السياسة التركية ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ اكسفورد ١٩٧٠ .

وبخصوص الوضع في سوريا راجع تقارير القنصل Devey المقالة : ولاية سوريا ، المنشورة في مجلة : صحيفة الشرق الاوسط ١٩٦٨ ـ الصفحة ٨٠ ـ ٨١ .

بعلبك ، الى حملة عارمة من الاستنكار من جهات واطراف مختلفة في العاصمة ، من قبل النواب العرب وفي بلاد الشام ذاتها ، ومن قبل شخصيات مرموقة عُرفت سابقا بمواقفها العدائية للتطرف التركي ، امثال شكري غانم وشبلي الشميل وحقي العظم . وكأن الجميع خشي من تبعات هذه الدعوة ، فاعتبرت انزلاقا مشبوها قد يؤدي الى الانفصال والاستقلال ، معرِّضاً الوحدة العثمانية الى الخطر . . . وكانت هذه الدعوة قد بُثّت في الفترة التي اشتد فيها الصراع بين الصدر الاعظم كامل باشا ، وهو اول من شكل وزارة دستورية بعد الانقلاب ، وجمعية « الاتحاد والترقي » حول ضرورة تنفيذ سياسة الاعتدال العنصري والمساواة في الدولة[1] . واذ سقطت وزارة كامل باشا في أوائل شباط ١٩٠٩ تبين للمراقبين وكأن الدستور قد عطل من جديد ، وكأن جمعية الاتحاد والترقي قد عادت الى مبادىء العهد الحميدي ، في التحدي العنصري ، وفي الاستئثار بالسيطرة ، ضاربةً بعرض الحائط الأهدافَ الدستورية التي قامت الثورة من أجلها . وكان لهذا الانقلاب الابيض أثرُه المبين بين القوى المتصارعة على الحكم ، أي بين العناصر الاتحادية والعناصر الائتلافية الداعية الى الاصلاح الجذري ، وبكلمة صريحة بين جمعية الاتحاد والترقي وحزب الاحرار . وقد تغلبت جمعية الاتحاد والترقي على حزب الاحرار، رغم ما لاقاه هذا الحزب من دلائل الثقة وتصاعد النفوذ على الصعيد الشعبي . أما النواب العرب فانهم ظلوا بمجموعهم ملتزمين بالرابطة العثمانية دون معارضة تُذكر ، مهما الصق بهم من التهم ، لا سيا فيما يخص نزعتهم العميقة الى استرداد الخلافة العربية ، ولما تفاقمت نقمة القوى المحافظة ولا سيما بين صفوف المنتمين الى **جمعية « الامة المحمدية »** التي طالبت بتطبيق الشرع الاسلامي تطبيقا كاملا ، قامت الفتنة بين السابع والثالث عشر من نيسان ١٩٠٩ ، محاولةً ان تعيد الحكم الفعلي الى السلطان عبد الحميد ، فكانت أيام سوداء ، أيام محنة قاسية ومجازر في العاصمة وفي مدن كثيرة ولا سيما في شمالي بلاد الشام . أما على صعيد مجلس المبعوثان فقد فرّ زعماء الاتحاديين أعضاء **جمعية « الاتحاد والترقي »** الى ضاحية سان ستيفانو ، وتجمّعوا فيها تحت قيادة محمود شوكت للزحف على الآستانة . بينما تم انتخاب الزعيم الالباني كمال بك لرئاسة مجلس المبعوثان ، واندمجت جميع القوى المعارضة في كتلة جديدة اطلقت على نفسها اسم **جمعية الاتحاد العثماني** . وكان النواب العرب يماشون الاكثرية الرابحة كعادتهم . وعندما احبط الضباط الاتحاديون الفتنة

(١) توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور ص ٩١ ـ ٩٣ والمصادر الاصلية ـ خاصة مراسلات الشرق ـ الجزء الثاني ـ العدد : ٨، ٩، ١٠ الاهرام في ١٨ كانون الثاني ١٩١١ عدد ٩٣٧٤ . والمؤيد في ١٧ كانون الثاني ١٩٠٩ عدد ٥٦٦٧ .

ودراسة : G. Samné = سوريا ـ طبعة باريس عام ١٩٢٠ ص ٥٧ .

خلعوا عبد الحميد ونصبوا مكانه اخاه محمد رشاد (محمد الخامس) ، واعلنوا الاحكام العرفية للقضاء على زعماء المعارضة لتنفيذ برنامجهم الاتحادي[1] .

٢ ـ تسلّط الاتحاديين وبوادر المعارضة الوطنية العربية (حزيران ١٩٠٩ ـ شباط ١٩١١)

تجلت مظاهر هذا التسلط في نواحٍ عديدة اعطت لهذه الفترة طابعا ، أشبه بالعهد القسري الحميدي ، ولكن تحت ستار الشرعية الدستورية . واذ تسلم حسين حلمي باشا الصدارة العظمى توسم العرب بحكمه خيرا لما عرف به من تفهم عميق لقضاياهم ومصالحهم . ولم تدم وزارته أكثر من نصف سنة استطاع خلالها ، أن يصدر قانون الجمعيات (٧ تموز ١٩٠٩) الذي حظر قيام الجمعيات والاحزاب ذات الاهداف السياسية والتسميات القومية ، وأن يُعدّل بعض مواد الدستور (آب ١٩٠٩). وأن يُخمد في العراق نيران ثورة كادت ان تمتد الى أقطار عربية اخرى ، (اصلاحات الفريق ناظم باشا . آب ـ كانون الأول ١٩٠٩)[2] .

وفي هذا الجو من الكبت والتشديد المركزي ، أخذت المعارضة العربية اشكالا جديدة من العمل السياسي ، كان جُلّه خارج مجلس المبعوثان الرسمي ، وداخل منظمات أو مؤسسات ، اتسمت بطابع السرية أو التستر بأهداف ثقافية واجتماعية عامة . أما **حزب الاحرار** المعارض فقد تعايش مع الوضع الجديد ، وعدّل اسمه وبرنامجه فأصبح « **حزب المعتدلين الاحرار** » او « **الحزب الحر المعتدل** » ، ابتداء من ٢١ تشرين الثاني ١٩٠٩ . وانتمى الى هذا الحزب بعض النواب العرب القلائل أمثال رشدي الشمعة مبعوث دمشق ، ونافع الجابري مبعوث حلب ، وطالب النقيب مبعوث البصرة . وقد

---

(١) عبد العزيز محمد عوض = الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤ ـ مصر ١٩٦٩ ص ٤٨ راجع أيضا تقارير القنصل البريطاني Devey في دمشق ـ في مقالة : ولاية سوريا ـ في مجلة صحيفة الشرق الاوسط ١٩٦٨ ص ٨١ ـ ٨٢ .

وتقرير السفارة البريطانية في العاصمة = الوثائق البريطانية ـ الجزء الخامس العدد الاول رقم ٢١٨ ص ٥٤٢ ـ ٥٥٢ وتقرير السفارة الالمانية في العاصمة = السياسة اللبقة . . الجزء السابع عشر العدد الاول رقم ٩٥٧٥ ص ٣ ودراسة توفيق علي برو ـ في كتابه المذكور والذي يعتمد على المصادر الفرنسية ص ١٢٥ ـ وعلى الاهرام اعداد ١٥ ، ١٦ و١٧ آذار ١٩٠٩ .

وأخيرا محمد كرد علي ـ خطط الشام ـ الجزء الثاني ص ١٢٠ وساطع الحصري = البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٠ ـ ١١٣ .

(٢) توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور ص ١٣٣ ـ ١٣٩ و٢٠٣ و٣٠٨ .

وفيما يخص سوريا تقرير القنصل البريطاني Devey ـ ولاية سوريا في مجلة صحيفة الشرق الاوسط ١٩٦٨ ص ٨٢ .

دخل هؤلاء النواب هذا الحزب بعد أن يئسوا من تأسيس كتلة برلمانية عربية تضم شملهم ، وتجمع كلمتهم في سبيل المصلحة العربية ، وبعد أن تعذر تأليف حزب عربي مستقل قادر على لعب دور فعال بين العنصر التركي المتشدد وبقية القوميات المعارضة[1] .

أما أول جمعية سرية عربية معروفة في تلك الفترة ، فهي « **الجمعية القحطانية** » ، التي تأسست في أواخر عام ١٩٠٩ . وكان من بين اعضائها الاوائل عبد الكريم قاسم الخليل ، والامير عادل ارسلان ، والدكتور عزت الجندي ، ومحمد كرد علي ، والامير عارف الشهابي ، وعلي النشاشيبي ، وكلهم من بلاد الشام ، وكثيرون غيرهم من الضباط . وسوف ينتمي هؤلاء الاعضاء الى جمعيات سرية أو علنية أخرى لتوسيع نطاق الفكرة الوطنية وتعميم فائدتها . ومن أهدافها الخفية مجابهة التيار العنصري التركي بتيار قومي عربي ينازعه السيطرة على الدولة وعلى مؤسساتها في الولايات العربية . وكان الترك يقظين حيال أية حركة أو بادرة قد تساعد العرب على التضامن القومي . واخبر حينئذ القنصل البريطاني في دمشق والمدعو ديفي Devey حكومته ، بأن رئيس تحرير جريدة « القبس » الشامية محمد كرد علي ، قد أعفي عنه بعد أن أُتهم بالسعي الى اقامة خلافة عربية[2] .

وبعد ان استقالت وزارة حسين حلمي باشا لاعتراض أكثرية النواب على منح الشركة الانكليزية « لنش » امتياز المواصلات النهرية في العراق (١٥ كانون الثاني ١٩١٠) ، خلفتها وزارة حقي بك وكانت أشدَّ تصلبا للمبادىء المركزية التركية ، وأصبح من دعائمها محمد شوكت في وزارة الحربية ، وطلعت بك في الداخلية . فأخذت بسياسة القسر والتتريك الفاضح ودعمت جميع المنظمات ، التي هدفت الى تعميق شعور العنصر التركي بين الاوساط الشعبية وبقية الطبقات الاجتماعية . وقد تنبّه بعضُ المثقفين ورجال السياسة العرب الى الاخطار المحدقة بمستقبل تراثهم وبلادهم بعد أن خابت آمالهم في الاتحاديين ، وبعد أن ألفت الحكومة « **جمعية الاخاء العربي العثماني** » . فأسس أحد اعضاء الجمعية القحطانية اللامعين عبد الكريم قاسم الخليل مع بعض رفاقه الوطنيين « **المنتدى الادبي** » في ٨ شباط ١٩١٠ ، وكانت أهدافه العلنية ، علميةً وأدبية واجتماعية على غرار بعض المؤسسات الثقافية التي اقامها منظمو الحركة العنصرية -

---

(١) توفيق علي برو - العرب والترك - المذكور ص ٢٦١ . وجريدة الاهرام - في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٠٩ عدد ٩٦٤١ .

(٢) امين سعيد = الثورة العربية الكبرى - المجلد الاول ص ١٠ - احمد عزت الاعظمي = القضية العربية - الجزء ٣ ص ٣٥ - الامير مصطفى الشهابي = محاضرات عن القومية العربية - القاهرة ١٩٦٥ ص ٦٩ وتقرير القنصل البريطاني Devey - في المقالة المذكورة وفي المجلة المذكورة سابقا ص ٨٣ .

التركية ـ الطورانية . وهكذا انشئت لاول مرة في التاريخ العربي الحديث ، مؤسسة ذات أهداف قومية في قلب العاصمة العثمانية . وضم المنتدى الادبي بين أعضائه المؤسسين وفي أول هيئة ادارية ، رجالا أدّوا فيما بعد للقضية القومية العربية خدمات جلى في ميادين السياسة العامة والممارسة الحربية . ودعا المنتدى في برنامجه الرسمي وفي عمله الحثيث الى وحدة الصف العربي بين مختلف هيئاته ومذاهبه ، معلنا ولاءه للرابطة العثمانية ، ومهيّئا في الوقت ذاته الكوادر الوطنية لتتسلم مسؤ ولياتها عندما تسنح الظروف الملائمة . وقد لاحق جمال باشا « السفاح » خلال الحرب اعضاء هذا المنتدى ، وحكم عليهم بالاعدام[1] .

وفي هذه الظروف ، تنشب ثورة اليمن العارمة والشديدة التعقيد لتلقي على الوضع المتأزّم بين العرب والترك ، أسبابا جديدة للتنافر والتهجم الصحفي (شباط ١٩١٠) . وقد تخللت هذه الثورة مضاعفات وملابسات كثيرة . وزادتها تعقيدا الاضطراباتُ الامنية التي حدثت في مقاطعات عربية اخرى ، ولا سيما في العراق ونجد وحوران . مما جعل القادة الاتحاديين والاتراك يزدادون تحاملا على النوايا القومية العربية وتصلبا ازاء المطاليب العادلة . واذا بالحرب الصحفية والاعلامية بين العرب والاتراك تأخذ ألوانا من الشدة والتعصب (آذار ـ ايلول ١٩١٠) أدّت من جهة ، الى التحقير بتاريخ وبكرامة العرب ، دون ان يتدخل وزير الداخلية طلعت باشا للحد من تطور الامور ، وحَدَت من جهة أخرى بالصحافيين العرب ، في باريس وفي مصر ، الى اظهار مدى الاجحاف اللاحق بالحقوق وبالمصالح القومية العربية ، والى التلويح بفكرة الاستقلال الذاتي ، كنتيجة حتمية للمبادىء اللامركزية . ويلعب شكري غانم في هذه الفترة الدقيقة دورا حاسما ، سواء من خلال مسرحيته « عنتر » ، التي عُرضت باللغة الفرنسية الشعرية الجيدة على أهم مسرح في باريس ، فألهبت حماسة المشتغلين والمهتمين بالقضية العربية ، أو من خلال مقالة نشرها في جريدة « الزمن » الباريسية Le Temps ،حيث بيّن بوضوح مدى هذا الاجحاف وتبعاته الوخيمة على مصير الولايات العربية . وتأخذ هذه الحملة الصحفية أبعادها الحقيقية عندما توضع في اطارها الاقليمي الاوسع . اذ وصلت وقتئذ الازمة

---

(١) المقالات المغفلة الاسم والتي نشرت في مجلة العالم الاسلامي ـ سنة ١٩١٣ ـ العدد الثاني عشر تحت العناوين التالية : مذاهب وبرامج الاحزاب السياسية العثمانية ص ١٥١ ـ ١٦٤ . الجامعة الاسلامية والجامعة التركية ص ١٧٩ ـ ٢٢٠ حول سقوط وزارة حسين حلمي باشا وتعيين وزارة حقي بك ـ توفيق علي برو في كتابه المذكور ص ١٧٦ ـ ١٨٧ .
وساطع الحصري ـ نشوء الفكرة القومية ـ المذكور ص ٢٠٢ حول تأسيس المنتدى ، راجع ملاحظة خيرية قاسمية ـ الحكومة العربية في دمشق ـ ص ١٦ .
حاشية ٢ ، واحمد عزت الاعظمي « القضية العربية » ج ٢ ص ٧ ـ ١٤ .
الاهرام في ١٣ تموز ١٩١١ عدد ١٠٣٤ ، والمؤ يد في ١٧ شباط ١٩١٠ عدد ٥٩٩١ .

الطائفية في مصر ، بين الاقباط والاكثرية المسلمة ، الى أوجها خلال مؤتمر اسيوط وبعد اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالي القبطي (آذار ١٩١٠) . فلا عجب والحالة هذه ان تناهض هذه الافكار فئةٌ من المثقفين قليلة ، ولا شك أنها دأبت طيلة هذه الفترة العصيبة في الدفاع عن السياسة التركية ، التي ربطت مصير الاسلام مع وحدة الرابطة العثمانية . وفي تقرير وضعه قنصل بريطانيا في دمشق بتاريخ ١٢ تموز ١٩١٠ ، يتحدث الى وزارته في لندن عن « الحساسية » العربية بين وجهاء المدينة ، وقد آلمهم عنفوان العنصر التركي . أما الصحافة في مصر فانها ركزت على الجو السياسي المتوتر في بلاد الشام من جراء المضايقات الادارية وإرتفاع الاسعار[1] . وفي اطار بوادر هذا الصراع السياسي بين المتطرفين الاتراك من الاتحاديين ، الساعين الى تحقيق مبدأ الانصهار الاجتماعي والثقافي من خلال التتريك ، وبين المعارضين الوطنيين العرب ، يأخذ الكتابُ الذي نشره في ذلك العام جميل معلوف حول **تركيا الجديدة وحقوق الانسان** (١٩١٠) ، أهميةً كبيرة في التاريخ القومي الحديث ، وهو كتاب قلما تنبه الى مضمونه ، والى نهجه الجديد ، مؤرخو هذه الفترة . بسبب قد يكون أن المؤلف نشر بحثه في ساو باولو - البرازيل . وكان جميل المعلوف من رواد المناضلين العرب ومن مقاومي الاستبداد العنصري التركي (١٨٧٩ - ١٩٥١) ، وكان قد أصدر في نيويورك جريدة الايام ما بين ١٨٩٧ و١٩٠٨ ، وهي أول صحيفة سياسية مصورة في تاريخ الصحافة العربية اشتملت على ثماني صفحات ، وكان اهتمامه بالتاريخ التركي كبيرا عميقا . وقد تساءل عن أسباب انحطاط الشرق ، وعن الفوضى التي تتسم بها محاولات النهوض به فتُفرغة من قيمه التراثية وتُفقده قوة اندفاعه الاصيلة . وكان لهذا الكتاب آنئذ اثره الفعال بين المهتمين بالحركة القومية ، ولم يعد يُذكر إسمُه كوفاء لحقّه في تطوير الفكر الوطني ، بين الرعيل الاول من الاصلاحيين العرب[2] .

وتنتهي هذه الفترة الثانية من تاريخ الحركة القومية العربية ، باستقالة طلعت بك من وزارة الداخلية (١١ شباط ١٩١١) ، لتشبّثه المطلق بتطبيق سياسته العنصرية ، ولمعارضته لكل حل للثورة اليمنية التي تعطي لهذا القطر العربي حقوقه من اللامركزية

---

(١) K.T. Khairallah مسالة الشرق والمناطق العربية المحررة - باريس ١٩١٩ ص ٤٠ - ٥٢ .
D. Behrens- Abouseif الاقباط في المجتمع المصري - فريبرج ١٩٧٢ ص ٧٠ - ٧٢ ; K. Michil الاقباط والمسلمون في ظل السيادة البريطانية - لندن ١٩١١ ص ٣٦ ; M. Colomb الاسلام والقومية في المجلة التاريخية ١٩٦٠ - ص ٩٦ - توفيق علي برو = في كتابه المذكور ص ١٤٨ ، ١٦٤ ، ٢٠٩ - ٢١٧ .
البرت حوراني = الفكر العربي في عصر النهضة - ص ٣٤٠ - ٣٤٣ .

(٢) يوسف اسعد داغر : مصادر الدراسة الادبية - بيروت ١٩٦٧ - ص ٧١٦ - ٧١٩ .

التقليدية ، وقد تمتع بها منذ القدم . فخلفه في الوزارة خليل بك رئيس جمعية الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثان[1] .

٣ ـ التنظيم الخفي للمعارضة الاصلاحية العربية وبدء صراعها العلني ضد العنصر التركي (شباط ١٩١١ ـ حزيران ١٩١٣)

يتخلل تاريخ هذه الفترة ثغرات وملابسات كثيرة ولاسيما في مصادره المحلية من مذكرات رجالات العرب ومن دراسات مؤرخيها . ولعل تقارير المراقبين الديبلوماسيين الاجانب تعطي مفتاح بعض اسرارها عند نشرها وتنسيقها وتحليل مضمونها . وهذا ما ندعو اليه الباحثين المهتمين بهذه الناحية من تاريخنا القومي الحديث .

لقد روى بعض المؤرخين ان الازمة المستعصية بين العرب والترك حملت بعض النواب العرب ، وفي طليعتهم طالب النقيب مبعوث بصرى ، وعبد الكريم الخليل رئيس « **المنتدى العربي** » ، الى الاتصال ببعض امراء الجزيرة العربية لطلب العون ، وقد رأوا فيهم البديل الوحيد للسيطرة العنصرية التركية . وتختلف هذه الرواية في تاريخها وأهميتها حسب اختلاف المصادر ، فمن قائل ان طالب النقيب وعدداً كبيراً من النواب العرب قد اتجهوا آنئذ (شباط ١٩١١) الى الشريف حسين امير مكة لمبايعته ، اذ اعلنوا له أنهم مستعدون للقيام الى جانبه اذا رضي ان يخلع النير العثماني الذي اثقل كواهل العرب . . . ومن قائل بأن الشباب العربي المناضل تحت ستار « **المنتدى الادبي** » ، قد اتصل حينئذ بالامام يحيى أمير اليمن ، وبالامير ابن السعود في نجد ، أما الشيخ محمد رشيد رضا صاحب **المنار** ، فقد توصل الى حد اليقين في تلك الظروف بأن الرابطة العربية ـ العثمانية المؤسّسة على وحدة الدين الاسلامي ، سوف لا يكتب لها أن تعيش أمداً طويلاً . ولذا فقد أنشأ في مصر بعد ان قام برحلة اطلاع وتحقيق في الاستانة ، جمعية سرية سماها **جمعية الجامعة العربية** ، وذلك في أوائل عام ١٩١١ . وقد سعى الى ربط مصير العرب جميعهم ، وتوحيد شمل امراء الجزيرة العربية ، للتعاون المثمر في سبيل العمران والدفاع عن الاقطار العربية ، ولايجاد صيغة صلة وثيقة بين مختلف المنظمات السياسية العربية العاملة في هذه الميادين . واذ طرح هذه المسألة على أمراء الجزيرة ، الامام يحيى بن حميد الدين ، والامام عبد العزيز سعود ، والسيد محمد علي الادريسي ، أجيب بأن هؤلاء جميعهم مجندون مناصرون . فوضع الشيخ رشيد رضا نصاً واضحاً للقسم الذي يؤديه من وافق على هذه الاهداف القومية العربية . وكان من بين مؤيديه الشيخ علي يوسف صاحب

---

(١) توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور ـ ص ٢٣٥ .

جريدة **المؤيد** ورفيق العظم . وسوف يتصل الشيخ رضا بالامير عبد الله أحد انجال الشريف حسين امير مكة عند مروره في مصر عام ١٩١٤ . ويصبح الأمير عبد الله عضواً في هذه الجمعية التي قلّ أن تكلم عنها المؤرخون ووضعوها في اطارها التاريخي الكامل[١] .

أما على الصعيد السياسي العلني ، فقد أثيرت القضية العربية لأول مرة في مجلس المبعوثان في ١١ آذار ١٩١١ ، اذ عرض شكري العسلي مبعوثُ دمشق ، بعضَ مقوماتها في خطاب جمع بين الصراحة والجرأة ، وطالب فيه بحقوق العرب بالمساواة في جميع ميادين الوظيفة العامة والمراكز الادارية والسياسية العليا ، لا سيما وان العنصر العربي يكاد يساوي نصف سكان الدولة ، ان لم يزد على هذه النسبة . وكانت ردّةُ فعل الاتراك شديدة على هذا العرض ، اذ اتهموا العرب بالسعي وراء الوظائف . أما بعض الزملاء النواب العرب وبعض الوجهاء الآخرين من حلفاء الاتحاديين فقد حاولوا الإغضاء عن اهمية هذه القضية مُدّعين ان الاهم يقوم في المطالبة بالإصلاح العام في الدولة دون التطرق الى المسائل الخاصة . وعلى أثر هذه المجابهة الخطابية سرت اشاعات حول ضرورة وكيفية تأليف كتلة برلمانية عربية ، وحول تأسيس حزب وطني عربي دون أن تأتي المساعي المبذولة بنتائج حاسمة . أما القضية القومية الثانية التي طرحت في تلك الفترة أمام مجلس المبعوثان فهي قضية **الهجرة اليهودية الى فلسطين** . اذ أثارها مبعوث القدس روحي الخالدي ، وبيّن خطورة هذه الظاهرة التي تعتمد ، على سياسة بعيدة المدى ، وعلى برنامج عنصري توسعي يناهض الروح الوطنية العربية ؛ ويخشى أن يغلبها على أمرها ان لم تتخذ الحكومة الاجراءات الضرورية لمنع ازدياد المهاجرين اليهود القادمين من البلاد الاوروبية . وقد أيّدالرأي العام العربي في بلاد الشام طرح هذه القضايا المصيرية . فأصبحت الحركة القومية العربية مسألة ذات خطورة بالغة في نظر الحكومة الاتحادية ، وقد تؤدي اذا أهملت الى انفصال الولايات العربية عن الرابطة العثمانية . أما العرب أنفسُهم ، فقد حاولوا ان يعيدوا الاطمئنان الى رجال العهد ، من حيث ولاؤهم العثماني ، مدّعين بأن المسألة داخلية بحتة وبأنها لا تتخطى حدود المطالبة بالحقوق الشرعية المهضومة (آذار ـ نيسان

---

(١) M. Colomb : الاسلام والقومية في المجلة التاريخية المذكور ص ٩٦ ـ ٩٧ . L.T. Kairallah مسألة الشرق والمناطق العربية المحررة المذكور ص ٣٢ ـ ٣٣ ET. Rossi = وثائق عن اصل وتطور المسألة العربية المذكور . ص ٩ .

توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور ـ ص ٢٣١ و ٢٩١ احمد عزت الاعظمي = القضية العربية ـ المذكور ج ٢ ص ٥ ـ ٨ وجريدة المؤيد في ١٣ شباط ١٩١١ عدد ٦٢٨٩ .

أسعد داغر = ثورة العرب القاهرة ١٩١٦ ـ ص ٧٨ .

أمين سعيد = الثورة العربية الكبرى = المذكور م ١ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

١٩١١)[1] . وفي هذه الظروف المتأزمة تأسست « **جمعية الفتاة** » او « **العربية الفتاة** »السرية في باريس ، وضمّت نخبة من الطلاب العرب الجامعيين القادمين من بلاد الشام ، الذين يلعبون دورا حاسما في توسيع مفهوم القضية العربية القومية ، وفي عرضها على الرأي العام الغربي قبل الحرب الكونية الاولى وبعدها . لم تتوخَّ هذه الجمعية مباشرة الاهداف الاستقلالية ، بالرغم من أنها سعت بالواقع الى تحقيقها بطريقة تدريجية . وكان جُلُّ همّها آنذاك ، اعطاء الحقوق القومية والمقام السياسي للعنصر العربي ، أسوةً بالعنصر التركي في الهيئات المركزية ، بحيث تكون احدى الركائز الاساسية التي يقوم عليها الائتلاف القومي في الدولة العثمانية . ونذكر من أعضائها المؤسسين البارزين : عوني عبد الهادي وجميل مردم ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وتوفيق الناطور ، ويمكن القول هنا أنه مع تأسيس جمعية العربية الفتاة ، دخلت القضية القومية العربية طوراً جديداً من تاريخ الدولة العثمانية الحديث ، إذ أصبحت هذه القضية مشكلة قومية أساسية ، طرحت عناصرها وملابساتها على غرار المشاكل القومية الأخرى في تلك الحقبة من تاريخ شعوب أوروبا العام ، كالتي تعاني منها الامبراطورية النمساوية ـ المجرية ، والامبراطورية الروسية القيصرية . ونكتفي هنا بالاشارة الى هذه الظاهرة الهامة من تاريخ العرب الحديث ، دون التعرض الى ما يحيط بها من معطيات كثيرة ، يجب بحثها على ضوء الوثائق التاريخية المعاصرة ـ الشرقية العربية ـ التركية والغربية الاوروبية الاميريكية : فمنها القضية الوطنية اللبنانية في اطار القضية السورية العامة التي طرحت في الصحافة الفرنسية والمصرية ، وشكلت موضوعا هاما من اهتمام الديبلوماسية الغربية ، ومنها القضية الالبانية التي طرحت جلية على بساط البحث وأخذت معالمها تتوضح بقرب حلها في اتجاه الاستقلال الذاتي [2] .

---

(١) توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦ و ٢٩٥ الحاشية ـ ويجدر الرجوع الى الصحف التالية :
الاهرام : ١٥ أيار ١٩١١ عدد ١٠٠٨٨ و ٢٥ أيار ١٩١١ عدد ١٠٩١ و ١٥ آذار ١٩١١ عدد ١٠٠٧٩ و ٢٦ نيسان ١٩١١ عدد ١٠٠٦٥ .
والمؤيد : في ٨ نيسان ١٩١١ عدد ٦٣٣٤ وفيه خلاصة خطاب شكري العسلي و ١٥ نيسان ١٩١١ عدد ٦٣٤٠ و ٢٦ نيسان ١٩١١ عدد ٦٣٤٩ و ٨ آذار ١٩١١ عدد ٦٣٠٩ و ٧ أيار ١٩١١ عدد ٦٣٥٨ .

(٢) أمين سعيد ـ الثورة العربية الكبرى ـ ج ١ ص ٩ .
زين نور الدين زين ـ نشوء القومية العربية ـ ص ٨١ ـ ٨٦ ، ص ٩١ ـ ٩٢ .
خيرية قاسمية ـ الحكومة العربية في دمشق ـ ص ١٩ حاشية ٣ . توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور ص ٣١٩ .
المنار في ٤ تموز ١٩١٣ ـ المجلد ١٦ ج ٧ ص ٥٤٧ .
وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ـ الكرسي البابوي ـ سلسلة جديدة ـ المارونيون رقم ٣ (٦٠) الملف ١٨٩ ، ١٩٠ حول الحالة الداخلية في تركيا : الوثائق الديبلوماسية البلجيكية رقم ٣ ـ ٤ العدد ١١٦ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩ . وحول القضية الالبانية ـ الوثائق البلجيكية نفسها العدد ١٢٥ صفحة ٣٥ .

وبينما كانت أزمة العلاقات التركية ـ العربية ، تتأرجح بين مدّ وجزر على الصعيدين البرلماني والصحافي ، اذ بالحرب الايطالية ـ التركية في طرابلس الغرب ، تدفع النواب العرب الى المزيد من الجرأة في المطالبة بالاصلاح اللامركزي ، وفي معارضة مبادىء الاتحاديين (ايلول ١٩١١ ـ تشرين الأول ١٩١٢) . وقد اتضح حينئذ للعرب ، أن الدولة العثمانية قد تتخلى عن الولايات العربية ، كما تخلت فعليا عن طرابلس الغرب لاسباب خارجية وداخلية ، وفي سبيل الدفاع عن المصالح التركية العنصرية لا سيما وان مطامع بعض الدول الاوروبية في بلاد الشام ، كانت تساوي لا بل تزيد على مطامع ايطاليا في الولايات الليبية . واذ بالرأي العام بين الضباط العرب يتحمس للقضية الطرابلسية ، بقيادة عزيز بك المصري كما أن الفئة الوطنية من المبعوثين العرب في الاستانة ، قد اعتنقت مبادىء « **حزب الحرية والائتلاف** » الذي أسس في ٨ تشرين الثاني ١٩١١ على أثر الاعتداء الايطالي .

وقد انضم الى هذا الحزب المعارض الجديد ، جميع الذين كانوا يناهضون سراً أو علانية سياسة الاتحاديين ، ونذكر من بين أعضائه العرب البارزين ، عبد الحميد الزهراوي مبعوث حماه ، وسعيد الحسيني مبعوث القدس ، وشكري العسلي مبعوث دمشق . وقد انتمى اليه نواب عرب آخرون ، عُرفوا سابقا بعطفهم على مبادىء جمعية الاتحاد والترقي المركزية ، أمثال أمين أرسلان مبعوث اللاذقية ، وكامل الاسعد مبعوث بيروت ، وسعد الدين مبعوث حوران ، وصبحي علي مبعوث بغداد . وقد دعم هذا الاتجاه القومي المعارض الرأي العام بين الاوساط الشعبية في دمشق وبيروت ، لا سيما بعد أن دمّرت المدفعية البحرية الايطالية مدينة بيروت على سبيل الضغط والتشفي . وقد اشار الى هذه الظاهرة الشعبية تقرير القنصل البريطاني في دمشق في ١ نيسان ١٩١٢[1] .

أما المبادىء الاساسية التي اعتمدها « **حزب الحرية والائتلاف** » المعارض ، فانها تجسد الفكرة اللامركزية ، في مختلف ميادين السياسة والادارة المحلية ، مع الحفاظ

---

(١) Francesco Malgeri = الحرب الليبية ـ روما ـ ١٩٧٠ حسب المصادر الايطالية J.C. Allain = بوادر النزاع الايطالي ـ التركي ـ ١٩١١ ـ ١٩١٢ حسب المصادر الفرنسية في مجلة التاريخ الحديث والمعاصر ، ١٩٧١ ، ص ١٠٦ ـ ١١٥ .

Feiherr Marschall Von Biberstein E. Lindow ص ١٦١ ـ ١٧٨ حسب المصادر الالمانية .

ساطع الحصري ـ نشوء الفكرة القومية ـ المذكور ص ٢٠٥ ـ وعن المؤلف نفسه = البلاد العربية والدولة العثمانية ـ المذكور ص ١١٨ .

مجلة العالم الاسلامي عدد (٥) شباط ١٩١٢ ـ ص ٣١٤ .

توفيق علي برو = العرب والترك ـ المذكور ص ٣٠١ ، ٣٢٨ ، ٣٦٧ .

وتقرير القنصل البريطاني Devey في مقالة : ولاية سوريا ـ المذكور ص ٨٤ ـ ٨٥ .

على الرابطة العثمانية ، التي تطالب بضمان الحرية والمساواة لكل عنصر قومي ، في مختلف نشاطاته الاجتماعية والثقافية ، لكنها ترفض مبدأ الوحدة والرابطة الاسلامية ، لكونها تمزق عرى العنصر القومي العربي في بلاد الشام . ويُمثّل هذا الموقفُ ظاهرةً جديدة على صعيد تبلور المبادئ الفكرية السياسية ، ولو أنه شكّل دائماً أساس التعايش العملي بين مختلف المذاهب والطوائف في البلاد . كما طالب الحزب بالإدارة اللامركزية . ليس فقط تطبيقا لمبدأ توسيع المأذونية للوالي وحسب ، ولكن طبقا للميزات الخاصة لكل ولاية حسب ظروفها واحوالها المحلية . وهنا تأخذ مجالس الولايات أهميتها من حيث انتخابها وصلاحياتها ، ومن حيث تجاوبها مع المقتضيات المحلية ومع الوالي ممثل الحكومة المركزية . وانطلاقا من هذا التركيز على المعطيات والظروف المحلية ، طالب الحزب الجديد بالاعتناء باللغة المحلية وحدها في المدارس الابتدائية ، وان يؤدي الجندي خدمته العسكرية ضمن حدود ولاية منشئه . فكل هذه المبادىء كرست بالواقع نهج التمهيد للاستقلال الذاتي . وقد اعتنقها بعض النواب العرب لتلاؤمها مع مطاليبهم القومية الاساسية وكبديل لخطوة أخرى تعذر تحقيقها لاسباب عديدة ، ألا وهي تأليف حزب أو كتلة ذات صبغة قومية عربية للدفاع عن هذه الاهداف . وهذا ما يفسر الى حد بعيد ، صعوبة تطور وتقدم الحركة القومية العربية ، خلال هذه المرحلة العصيبة من احتضار الامبراطورية العثمانية . وقد شعر حزب الاتحاديين آنذاك بخطورة الموقف الداخلي ، بعد نجاح النزعة القومية التي دعا اليها « حزب الحرية والائتلاف » . فعقد مؤتمره السنوي في مدينة سالونيك في كانون الاول ١٩١١ وقرر دعم فكرة الرابطة الاسلامية على غرار الرابطة العثمانية ، ليس فقط في ولايات الدولة وحسب ، انما أيضا في جميع الاقطار الاسلامية من الامبراطورية الروسية الى الهند والشرق الاقصى . وكان لهذا القرار صبغته السياسية السافرة ولا سيما لما كانت تعرف به **جمعية الاتحاد والترقي** من المبادىء العلمانية ومن الاتصال والانحياز الماسوني[١] .

وأما على الصعيد البرلماني ، فقد تحول الصراع الحزبي بين الاتحاديين والمعارضة الائتلافية ، الى مجابهة حادّة مصيرية في أوائل عام ١٩١٢ ، وبالاخص عند المناقشة العنيفة حول تبديل بعض مواد الدستور . وقد أدى هذا الى حلّ مجلس المبعوثان في ٢٥ كانون الثاني ، على ان يعاد انتخاب اعضائه في مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر . وفي هذه الظروف الحرجة اخذت **القضية اللبنانية** انعطافا جديدا ، وقد استوحى القائمون على عرضها

---

(١) زين نور الدين زين = نشوء القومية العربية ـ المذكور ـ ص ٨٤ ـ ٨٧ حيث يذكر تأسيس جمعية باسم التقدم الاسلامي في جنيف في شباط ١٩١٣ .

في البطريركية المارونية ، خطوطا عريضة من تاريخ الائتلافيين ، واخذوا في تطبيقها عمليا في سبيل مصلحتهم المحلية أي في سبيل الاستقلال الذاتي اللبناني . فأرسلت مذكرة خاصة الى السفارة الفرنسية في الآستانة في ٥ آذار أردفت بأخرى مكملة لها في ٢٦ منه ، وهما تعرضان مختلف المطاليب التي تؤول الى تحقيق وضمان هذا الاستقلال الذاتي . ومن هذه الوثائق الديبلوماسية الدفينة حتى اليوم ، تتضح للمؤرخ الباحث أهمية الاستطلاع في خزائن الوزارات الاوروبية المعنية بالمشاكل الشرقية(١) .

وجرت انتخابات مجلس المبعوثان العثماني في الموعد المعين . وكان طابعها السافر « التدخل القسري والتزوير » من قبل الاتحاديين من جمعية الاتحاد والترقي . ففاز هؤلاء واعوانهم في الولايات العربية ، بأكثرية ساحقة تؤيد المبادىء المركزية ونهج التتريك . أما في بلاد الشام فقد فضح حقي العظم ، أحدُ العاملين البارزين في الميدان السياسي ، هذه الممارسات التعسفية في كتاب نشره عقب هذه الانتخابات عنوانه : « **حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وفلسطين وسوريا** » . ونجح الاتحاديون في دمشق ، أمثال محمد باشا العظم وعبد الرحمن بك يوسف وسليم الكزبري ، وفي حماه فاز أيضا خالد البرازي ، وفي بيروت كامل الاسعد ، وفي عكا أسعد الشقير . وفشل مرشحو الائتلافيين أمثال شفيق بك المؤيد العظم وشكري العسلي ورشدي الشمعة .

واتت ردة الفعل لمثل هذه الاساليب والنتائج سريعة في الاوساط العسكرية والشعبية القومية - أما الضباط فانهم لجأوا الى الجبال في مكدونيا وشكلوا « **عصبة ضباط الانقاذ** » مطالبين بتشكيل حكومة من غير النواب الاتحاديين . ودعمت موقفهم وعصيانهم حاميات كثيرة في مختلف المقاطعات . أما القوميون العرب فانهم قاموا باتصالات واسعة ولا سيما مع امراء القبائل العربية ، واجتمعوا سرا في مؤتمر دعوه **بالمؤتمر القحطاني** اصدر في أواخر شهر تموز ١٩١٢ منشورا لخصت فيه **مطاليب المؤتمر القحطاني الاساسية** . ويشكل هذا المنشور نداء حماسيا وجه الى الامراء والى أفراد **الامة العربية** ذات الكيان الحي والحقوق الشرعية . ويُعدُّ أيضا بمثابة النداء الثوري ذي الاهداف الوطنية الصريحة ، اذ يعلن الحرب الدستورية على الفئة التركية الحاكمة

---

(١) توفيق علي برو = العرب والترك المذكور ص ٢٧٠ - ٢٧٥ والمصادر الصحفية الاهرام في ٢٥ و ٢٩ كانون الثاني ١٩١٢ عدد ١٠٣١ و ١٠٣٤ - ومراسلات الشرق عدد ١٩١٢/١٢/١ حول القضية اللبنانية المارونية راجع وثائق وزارة الخارجية الفرنسية .

الكرسي البابوي - سلسلة جديدة - المارونيون رقم ٤ (٦١) . ملف ٨٤ - ٨٥ و ٨٧٨٨ ومراسلات الشرق تاريخ ١٩١٣/٢/١ ص ١٢٠ وراجع دراسة Selim Abou ازدواجية اللغة العربية - الفرنسية في لبنان ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

والمسيطرة ، ويطالب باسقاط الحكومة ، وبحل المجلس المزور ، وبالمشاركة العربية في وضع الدستور وفي ادارة الحكم . وفي نداء ثوري آخر اذيع في هذه الفترة واتخذه بعدئذ جمال باشا السفاح ذريعة لمحاكمة ولإعدام زعماء الفكرة القومية العربية ، دعا العرب الى التخلص من النير العثماني ، لان برنامج الاصلاح اللامركزي لم يعد يُعنىً بمقتضيات النهضة القومية ، ولان الهدف أصبح تأسيس دولة عربية مستقلة . وقد استعملت لاول مرة ، حسب علمنا في هذا النداء كلمة **الفدائي** في تاريخ الثورة العربية ، اذ جاء في ختام النداء ما يلي : . . . « أيها العرب ان **جماعة الفدائيين** قد اقسمت اليمين أن تقتل كل من يقاتل العرب »[1] .

وفي هذه الظروف الخارجية والداخلية المضطربة ، سقطت وزارة سعيد باشا ، وخلفتها وزارة كامل باشا الذي كان يعضده أحمد مختار باشا الغازي . وهي ذات لون حيادي ، وتكاد تميل الى الفكرة الائتلافية تجاه المطامع المركزية العنصرية التي إتسمت بها الوزارة السابقة . وقد حاولت مدة عهدها القصير (٩ تموز ١٩١٢ ـ ٢٣ كانون الثاني ١٩١٣) ان تحل الازمات العصيبة التي سبّبتها سياسة الاتحاديين المتخاذلة حيال التوسع والهجوم الايطالي في طرابلس الغرب ، والمتشددة حيال مطاليب القوميات غير التركية داخل الامبراطورية العثمانية . ولكنها لم تكد تنتهي من توقيع معاهدة صلح تضمن للدولة المتهاونة كرامتها الوطنية في علاقتها مع ايطاليا ، حتى نشبت الحروب البلقانية التي انهكت الجيش التركي رغم تدريبه وعتاده الالماني[2] .

أما في الحقل الداخلي ، فقد نشطت المنظمات السرية العربية ، وسعت كلها الى استدراج أكبر عدد ممكن من الضباط ومن المثقفين ، والى ضمهم الى صفوفها لاهداف قومية متماثلة . وكان لمؤتمر الاحزاب القومية المصرية المنعقد في جنيف بين ٢٢ و ٢٩ ايلول

---

(١) توفيق علي برو = العرب والترك المذكور ص ٣٧٨ ـ ٣٩٥ . وراجع أيضا زيادة المستزيد ـ خيرية قاسمية ـ الحكومة العربية في دمشق ـ المذكور ص ٢٦ والحاشية ١ و ٢ مع مراجعها وص ١٩ حاشية ٣ وص ٢٢ حاشية ١ .
النصوص في K.T. Kheirallah : المناطق العربية المحررة المذكور ص ٣٥ ـ ٣٦ ET. Rossi = وثائق عن أصل وتطور المسألة العربية المذكور . ص ٦ ـ ٩ .

(٢) مراسلات الشرق تاريخ ١/٨/١٩١٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ وتاريخ ١٥/٨/١٩١٢ ص ١٧١ .
الاهرام في ٢٥ و ٢٧/٧/١٩١٢ عدد ١٠٤٥٨ و ١٠٤٥٩ وفي ٦/٨/١٩١٢ عدد ١٠٤٦٨ وفي ٢/١٠/١٩١٢ عدد ١٠٥١٥ .
فيما يخص نهاية حرب ايطاليا مع تركيا ومعاهدة لوزان راجع : الوثائق الديبلوماسية الفرنسية السلسلة الثالثة المجلد الخامس العدد ١٦٨ ص ١٧٣ .
تلخيص هذه المصادر في كتاب توفيق علي برو = العرب والترك المذكور ص ٣٨٥ ـ ٣٩٢ و ٤١٦ .

١٩١٢ أثره الفعال في هذه الحركة[1] . ومن أهم هذه المنظمات العربية السرية **جمعية العلم الاخضر** التي تأسست في العاصمة في أواخر ايلول ١٩١٢ من قبل عدد من كبار المثقفين ، وضمت كثيرا من طلاب المدارس العالية المدنية والعسكرية ، والتي هدفت الى تقوية الروابط الوطنية بين اعضائها . وقد اصدرت مجلة ثقافية بعنوان « **لسان العرب** » ، لتدل على وحدة اللغة كأساس للوحدة الوطنية العربية . وكان لاحمد عزت الأعظمي مؤلف كتاب « **القضية العربية** » دور كبير في تنسيق العمل بين اعضائها وفي ادارة مجلتها . ومما تجدر ملاحظته هنا اتجاه اعضائها باتجاه شبه الجزيرة العربية وبالاخص أميري نجد واليمن ، ابن السعود والامام يحيى[2] .

وقد تنبهت الحكومة العثمانية الى الاخطار المرافقة لتطور الحركة القومية العربية ، لا سيما بعد أن بدأت الحكومة الفرنسية بالاهتمام علناً **بالقضية السورية ـ اللبنانية** وبالتكلم صراحة عن مصالحها الخاصة في هذه البلاد الشرقية ، متخذة بعض المبادرات الديبلوماسية الواضحة المرمى ، ومساندة اللجان اللبنانية في الجبل وفي الخارج ، التي سعت وقتئذ الى ضمان استقلال ذاتي اوسع لمتصرفية جبل لبنان . وفي هذا الجو المتأزم سرت اشاعات حول امكانية احتلال فرنسا للساحل السوري . . . (تشرين الاول ـ كانون الاول ١٩١٢)[3] .

ففي هذه الظروف المعقدة ، تأسس في مصر **حزب اللامركزية الاداري العثماني** في نهاية كانون الاول ١٩١٢ بمعرفة الحكومة العثمانية . وهذا دليل واضح على تأييدها لمبادئه الاساسية . وقد ضم هذا الحزب المعارض للاحتلال الاجنبي ، عددا من كبار السوريين المشتغلين بتوطيد أركان القومية العربية ، أمثال الشيخ محمد رشيد رضا ورفيق العظم والدكتور شبلي الشميل واسكندر عمون والدكتور عزت الجندي وداوود بركات . وجاء في بيان تأسيس الحزب أنه يسعى لحماية الامبراطورية العثمانية من الاخطار الخارجية ومن المنازعات الداخلية مع الاخلاص للعرش . ودعمت مبادىء هذا الحزب حملة صحفية واسعة ساهمت فيها بالاخص مجلة « **المنار** » وجريدة « **الاهرام** »وكانت

---

(١) Hugo Luike : في مجلة العالم الاسلامي الجزء الثاني (١٩١٤) ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

(٢) أحمد عزة الاعظمي = القضية العربية ـ ج ٣ ص ٣٥ .

(٣) أمين سعيد = الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ١٤٠ .
اللجنة اللبنانية في باريس = مذكرات حول مسألة لبنان ـ باريس ١٩١٢ مراسلات الشرق تاريخ ١/ ١/ ١٩١٣ ص ٤٦٤ وتاريخ ١/ ١١/ ١٩١٣ ص ١ ـ ٢ .

الرابطة العثمانية ، تجمع من جديد كل نزعة استقلالية أو ثورية وجميع المهتمين بقضايا الاصلاح الداخلي وبالادارة اللامركزية حسب مبادىء الامير صباح الدين الاساسية . وهي التي وجهت ورافقت هذه الحركة الاصلاحية منذ أوائل عهدها في بدء القرن العشرين . وخشيت الديبلوماسية الفرنسية اليقظة على مصالحها وعلى امتيازاتها في سوريا ، من أن يكون للحكومة المصرية ذات النزعة الانكليزية ، يد خفية في تسيير هذا الحزب . واذ بالوثائق الفرنسية غير المنشورة ، تطلعنا على احاديث جرت في أوائل عام ١٩١٣ بين الممثل الفرنسي في القاهرة وعزت باشا العابد بهذا الشأن . وقد اكد هذا الاخير للديبلوماسي الفرنسي عدم تعاطف زعماء هذا الحزب اللامركزي مع اطماع خديوي مصر في ضم سوريا الى بلاده ، وذلك لسبب رئيسي ألا وهو : « أن السوريين يعتبرون أنفسهم بمنزلة أرقى من عامة المصريين وهم من جراء ذلك لا يفكرون في الوصاية المصرية . . »[1] .

واذ سقطت وزارة كامل باشا واحمد مختار باشا الكبرى في ٢٣ كانون الثاني ١٩١٣ ، تألفت وزارة اتحادية برئاسة محمود شوكت باشا ، ضمت عددا من اعضاء **جمعية الاتحاد والترقي** المتطرفين ، أمثال أنور وطلعت وجمال ، وقد عهد الى ثلاثة من اليهود بمقاعد وزارية بينما أبعد عنها العنصر العربي . وقد سعت هذه الوزارة الى تطبيق برنامج التتريك مع مراعاة شعور القوميين العرب بطرائق شتى ، منها التصريحات المحذرة ، ومنها السماح بتشكيل جمعيات اصلاحية في كل ولاية ، مع السعي لبث عوامل التفرقة والانقسام بين اعضائها ، ومنها الاغراء بوظائف أو بمراكز شرفية والضرب على وتر الرابطة الاسلامية . ورافقت هذه السياسة الخادعة ممارسات قسرية وارهابية حيال القومية العربية ، من قبل المنظمات البوليسية السرية التي طغت وسبقت في أساليبها المبتكرة ما

---

(١) توفيق علي برو: العرب والترك المذكور ص ٤٣٤ ـ ٤٤٤ . زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية المذكور ص ٩٣ ـ ٩٤ .

البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة المذكور ص ٣٣٧ عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ٣٤ .

والمصادر الصحفية الاهرام ١٢/ ١٢ و ١٧/ ١٢/ ١٩١٣ عدد ١٠٥٧٥ و ١٠٥٧٨ . المنار مجلد ١٦ ص ٢٢٦ .
والوثائق الديبلوماسية الفرنسية : الكرسي البابوي ـ سلسلة جديدة ـ بطريركية الروم الارثوذوكس الجزء الثاني (٧١) ملف ٩٠ ـ ٩١ .

E. Young = الثورة العربية الجزء الاول ص ٦١ وET. Rossi = وثائق عن أصل وتطور المسألة العربية المذكور ص ١٠ .

ابتدعه العهد الحميدي السابق[1] .

وفي هذا الاطار السياسي العام تألفت « **الجمعية العمومية الاصلاحية** » في بيروت من جميع المذاهب والطوائف، ووضعت لائحتها الاصلاحية في ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ . أما في دمشق فقد تعرقلت أعمال الحركة الاصلاحية لانقسام اعضائها الى فئتين : فئة الاتحاديين التي ضمت عددا من الاعيان القدامى ، وفئة الائتلافيين التي جمعت نخبة من الشباب « المتنورين » . وفي العراق اتسمت حركة الاصلاح بصراع سافر بين القوميين بقيادة طالب النقيب زعيم البصرة وبين رجالات الحكومة . وكان للحكومة الاتحادية برنامجها الخاص بالاصلاح.وافصحت عنه في **قانون الولايات** الجديد الذي جاء كبديل يناقض ما هدفت اليه الجمعيات الاصلاحية العربية ولا سيما فيما يتعلق بصلاحيات الوالي ازاء مجلس الولاية ، وهي صلاحيات تستمد فاعليتها من الحكومة المركزية المتسلطة والرامية الى اضعاف القوى السياسية المحلية (شباط ١٩١٣)[2] .

وثبت من جراء ذلك للزعماء الائتلافيين العرب المناهضين لسياسة التتريك ، أنه لا بد من القيام بمبادرة اعلامية ، تهدف الى عرض قضيتهم امام الرأي العام الغربي ، والى تنسيق جهودهم ، بمعزل عن الضغوط المحلية ، لا سيما وان الصحافة الاوروبية ، والفرنسية منها بنوع أخص بدأت تهتم مباشرة بقضيتهم مُركّزة على أهمية دور سوريا في هذا النضال القومي ، وعلى أهميتها في ميزان القوى الشرقية ، نظرا لغنى مواردها ولمؤهلات رجالاتها ولمركزها الاستراتيجي المتميز كمفتاح للقارة الاسيوية ، وبابها الغربي الرئيسي المطل على البحر الابيض المتوسط . وقد تهيأت ظروف داخلية وخارجية ساعدت

---

(١) عبد العزيز محمد عوض = الادارة العثمانية في بلاد سوريا ـ المذكور ص ٣١ و ٥٠ ـ ٥١ .
البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ـ المذكور ص ـ ٣٣٦ .
توفيق علي برو = العرب والترك ـ ص ٤٦٠ و ٤٦٧ .
وقد اهتمت الديبلوماسية الالمانية كثيرا بهذا التغيير في الوزارة لارتباط محمود شوكت باشا بالسياسة الالمانية بينما كان كامل باشا يميل بالاحرى الى بريطانية ـ راجع المصادر الالمانية .
السياسة اللبقة . . . الجزء ٣٨ العدد ١٥٤٩٩ ص ١٩٦ .
وفيما يخص الحالة في سوريا ـ راجع مراسلات القنصل البريطاني في دمشق Devey = ولاية سوريا المذكور في مجلة : صحيفة الشرق الاوسط ١٩٦٨ ص ٨٥ ـ ٨٦ .
المصادر الصحافية = الاهرام في ١٩١٣/٢/٤ عدد ١٠٦١٨ مراسلات الشرق في ١٩١٣/٢/١ ص ١٣٣ .

(٢) توفيق علي برو : العرب والترك ص ٤٤٥ و ٤٦٢ و ٤٧٩ ـ ٤٨٨ .
زين نور الدين زين = نشوء القومية العربية ـ ص ٩٨ مع مصادره حول دور الدكتور عبد الرحمن شهبندر ـ راجع ET. Rossi وثائق عن اصل وتطور المسالة العربية المذكور ص ٤٥ ومجلة العالم الاسلامي الجزء الاول (١٩١٣) ص ١٣١ .

على ابراز أهمية هذه القضية القومية العربية ، منها الحركة القومية الارمنية التي شكلت احدى المشاكل الرئيسية بين الحركات القومية في الدولة ، والتي اهتم لها آنذاك الرأي العام الغربي مع الديبلوماسية العالمية ، وبالاخص روسيا والمانيا ، ومنها الحروب البلقانية التي كادت ان تقضي على الامبراطورية العثمانية ، بعد أن اثارت ازمة حادة في الاوساط السياسية العالمية في الاشهر الاولى من عام ١٩١٣ . لا سيما بعد أن عزم البلغار على احتلال العاصمة ، إثر استيلائهم على مدينة ادرنة المحصنة وآخر معقل للجيوش العثمانية في ٣١ آذار ١٩١٣ ، ومنها الازمة المحلية المصطنعة حول ملكية بعض الاراضي في البقاع الواقعة بين ولاية سوريا ومتصرفية جبل لبنان ، اذ رفعت بلدية زحلة وبلديات المتصرفية لائحة اعتراض إلى الدول العظمى المسؤولة عن مصير جبل لبنان الى « محكمة الرأي العام الاوروبي » . وقد اضطربت الحالة الداخلية في الاستانة اضطراباً عميقاً أدى الى نزاع شديد بين مختلف التيارات المتعارضة في « **حزب الاتحاد والترقي** » وجاء مصرع رئيس الوزارة محمود شوكت باشا في ١١ حزيران ١٩١٣ لينذر بسوء العاقبة ، بعد أن افتتح مؤتمر باريس اعماله لدراسة الوضع المالي في الدولة العثمانية (٤ حزيران - ٣٠ ايلول ١٩١٣) . وقد اتاحت هذه الظروف المباشرة للعناصر الاصلاحية العربية ، أن تهيىء أول مؤتمر عربي سياسي على الصعيد الدولي في العصر الحديث ، الذي عقد في باريس بين ١٧ و ٢٣ حزيران ١٩١٣ ، والذي شكّل مرحلة هامة في تاريخ العلاقات التركية العربية قبيل اندلاع الحرب الكونية الاولى[1] .

٤ - ظهور الحركة القوميّة العربيّة على المسرح الدولي : مؤتمر باريس العربي ١٧ - ٢٣ حزيران ١٩١٣ ونتائجه حتى ١٩١٤ :

عقد هذا المؤتمر خارج الدولة العثمانية ، نظرا للاحكام العرفية التي كانت تمنع حرية الاجتماعات العامة ولا سيما السياسية منها . وعقد في باريس نظرا للتعاطف الفكري

---

(١) راجع سلسلة مقالات نشرت وقتئذ في مجلة آسيا الفرنسية سنة ١٩١٣ من شهر كانون الثاني الى تشرين الاول - اهمها : L. De Contenson = المسألة السورية ص ١٦٤ - ١٧٦ . L. De Contenson = الاصلاحات في سوريا ص ٢٢٣ - ٢٢٩ R. De Coix الدول - فرنسا وتركيا الآسيوية ص ٢٠٥ - ٢٠٩

عبد العزيز محمد عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية ص ٧٥ - ٧٦ حول القضية الارمنية في تلك الظروف - راجع تقرير السفير الالماني في الاستانة في ٢٤ شباط ١٩١٣ :

السياسة اللبقة . . . ، الجزء ٣٨ العدد ١٥٢٨٧ ص ١٠ - ١٥ والعدد ١٥٣١٦ ص ٥٢ - ٥٤ والعدد ١٥٣٢١ ص ٦٤ . حول مؤتمر باريس الدولي لدراسة الوضع المالي في تركيا راجع تقرير الديبلوماسية الالمانية .

السياسة اللبقة . . . الجزء ٣٧ العدد ١٥٢٣٨ ص ٨٤٦ ، حول مصرع محمود شوكت باشا والحالة المضطربة في العاصمة راجع G.W.F. Hallgarten = الامبريالية قبل عام ١٩١٤ - ميونيخ ، ١٩٥٣ ، الجزء الثاني ص ٤٣٠ - ٤٣١ M. Poleologue = في وزارة الخارجية - عشية الاعصار - صحيفة عام ١٩١٣ - ١٩١٤ - باريس ١٩٤٧ ، ص ١٥٠ - ١٥٣ .

والاصلاحي بين الاعضاء الداعين الى المؤتمر ، وبين الاتجاهات اللامركزية السائدة آنئذ في العاصمة الفرنسية ، حيث كان يدرس او يسكن رجالات الاصلاح . وكان جلهم من بلاد الشام أو من الذين راقبوا عن كثب ، سواء في المدارس الفرنسية أو الاميريكية في الشرق أو في الجامعات الغربية ، المثل العليا الليبرالية التي تبشر بالحرية وترسيخ شعور التحرر من كل طغيان طبقي أو عنصري ، كما نادت به الثورة الفرنسية ، وكما كانت تحاول ممارستها المؤسسات الجمهورية في فرنسا(١) .

كانت الحركات الاصلاحية في ولايات بيروت ودمشق والعراق ، قد هيأت الجو والنفوس لهذا المؤتمر، وتدعمها الجمعيات السرية العربية العاملة في الاستانة وباريس وبلاد المهجر الامريكي . وهدف منظمو المؤتمر الى بسط وايضاح امور قد تبدو متناقضة لاول وهلة ، ولكنها بالحقيقة مترابطة متناسقة . فقد ارادوا ان يؤكدوا ، ان ثمة امة عربية تتميز عن الشعوب الاخرى المتعايشة في ظل الراية العثمانية والخلافة الاسلامية ، وان هذه الامة تنفرد عن غيرها بتاريخها وحضارتها وبمركزها ، وانها ذات ثقل دولي واقليمي خاص ، وهي تشكل قوة واقعية لا يجوز العبث بمقدراتها ، كما تؤلف قومية كباقي القوميات ، بمميزاتها الخاصة ، ولا فرق فيها بين المسلم والمسيحي على اختلاف الملل والفرق بينهم ، لانهم جميعا عرب قبل أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين ، ولان الدين لله تمارس عبادته وطقوسه في الجوامع والكنائس ، اما خارج اماكن العبادة هذه ، فالوطن الواحد ، وروح الوطنية الواحدة ، هي التي تميز العربي عن غيره من بقية القوميات في الدولة ، ومن بين هذه القوميات العنصر التركي . وانطلاقا من هذه الاعتبارات الاساسية

---

(١) ان الدراسات عديدة حول هذا المؤتمر قد تنطلق اجمالا من المراجع نفسها . وربما يدرس المؤتمر من جديد اعتمادا على الاصول الديبلوماسية الوثيقة الموجودة في خزائن وزارات الخارجية في أوروبا والولايات المتحدة ، تجدر الاشارة الى الدراسات التالية :

K. T. Khairallah = مسألة الشرق والمناطق العربية المحررة المذكور ص ٤٧ .

M. Colomb = الاسلام والقومية العربية المذكور ، في المجلة التاريخية - ١٩٦٠ ، ص ٢٢٣ .

ET. Rossi = وثائق عن أصل وتطور المسألة العربية المذكور ص ١١ - ١٢ .

توفيق علي برو = العرب والترك . . . ص ٥١١ - ٥٢٦ . زين نور الدين زين - نشوء القومية العربية . . ص ٩٩ - ١٠٠ .

خيرية قاسمية = الحكومة العربية في دمشق . . ص - ٢١ حاشية ٣ .

عبد العزيز محمد عوض = الادارة العثمانية في ولاية سورية - ص ٥٣ - س . التكريتي = المؤتمر العربي الاول في باريس في مجلة الاقلام - ١٩٦٧ عدد ١١ ص ٦١ - ٧٢ .

البرت حوراني = الفكر العربي في عصر النهضة - ص ٣٣٨ - ٣٤٠

ساطع الحصري = البلاد العربية والدولة العثمانية - ص ١٣٣ - ومحاضرات في نشوء القومية العربية . . ص ٢١٤ - ٢٢٠ .

سعيد أمين = الثورة العربية الكبرى - ج آ ص ٣٣ - ٣٤ .

ساهم المسلم والمسيحي في المؤتمر على قدم المساواة . وبتأكيده على تمييز خصائص القومية العربية ، فان المؤتمر لم يطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية ، انما دعا الحكومة الى مجاراة حركة الاصلاح ، أي الى الاعتراف بحقوق الامة العربية ، والى تطبيق برنامج الاصلاحات الضرورية ، والتي تتمثل اولا واصلا في مبدأ المشاركة السياسية والادارية والثقافية ليس فقط على الصعيد المحلي في الولايات العربية انما أيضا في الادارة المركزية ، والمؤسسات العامة في العاصمة ، فاللامركزية المحلية ذات الطابع العربي الاصيل ستقوي من فعاليات الدولة على الصعيد المركزي عوضاً من أن تضعفها ، كما أن المشاركة المركزية ستهيء الفرص للعرب في مناصرة الدولة بدلا من ان تحرجهم في الانعطاف مع المعارضة ، والى الاتجاه نحو الغرب لطلب العون من دولة طامعة في تقسيم الامبراطورية ، وفي تقوية القوميات المحلية الى حد الانفصال . فالحركة الاصلاحية العربية لا تشكل والحالة هذه خطرا على السلطنة العثمانية ، انما بالعكس تساعدها على الدفاع عن كيانها ووحدتها وسيادتها . وقد يعتبر هذا المؤتمر كأول برلمان للحركة القومية الاصلاحية العربية على الصعيد الدولي ، اذ ضم مندوبين عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، وعن الجمعيات الاصلاحية في بلاد الشام والعراق ، وعن الجمعيات السرية الاخرى في المهجر الاوروبي والاميريكي . كما تعتبر مقرراته بمثابة الخطوط العريضة لبرنامج سياسي عام ، يبتعد عن الاغراض الحزبية الخاصة ، ويناهض التدخل الاجنبي . وقد برزت هذه النواحي من خلال المحاضرات التي القيت ، ومن خلال مناقشة مواضيعها ومن المقررات التي اتخذت . ودلت كلها على المستوى الفكري السياسي العالي ، وعلى روح المسؤولية النيرة . ولئن ظهرت بعض الخلافات فانها لم تمس الاتفاق الجوهري بين الاعضاء ، رغم التباين بينهم من حيث المنشأ والدين والوضع الاجتماعي . أما مواضيع البحث فقد تركزت حول النقاط التالية : **تربية الامة الاساسية** (عبد الحميد الزهراوي) . **وحقوق العرب في المملكة العثمانية** (عبد الغني العريسي) . **وحفظ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية** (ندرة مطران) . **والاصلاح على قاعدة اللامركزية** (اسكندر عمون) ، وظهرت آنذاك بوضوح الهوة التي بدأت تتعمق بين المنادين بالجامعة الاسلامية والعاملين لتقويتها في اطار السلطنة العثمانية، وبين الداعين للجامعة أو القومية العربية مع الولاء المشروط للرابطة العثمانية . وقد أعطى مبدأ التضامن في المصير بين العرب ـ مسلمين ومسيحيين على السواء ـ الاولوية في العمل السياسي على مبدأ الاتحاد في المصير بين العرب والاتراك المسلمين . فجاءت مقررات المؤتمر خير دليل على هذا الاتجاه السياسي ، الذي كتب له النجاح مع قيام الثورة العربية الكبرى وانهيار الحكم العثماني في البلاد العربية . وتبلور هذا الاتجاه في مطاليب أساسية تبدو بديهية لاتفاقها وطبيعة التيار الاصلاحي منذ بداية دعوته وعمله . ومن هذه المقررات :

١ ـ وجوب تنفيذ الاصلاحات بسرعة .

٢ ـ صيانة حقوق العرب السياسية التي تتلخص في حق المشاركة الفعلية على صعيد الادارة المركزية .

٣ ـ ضرورة تطبيق الادارة اللامركزية في الولايات العربية ، مع تحقيق بعض المطاليب الخاصة لولاية بيروت من حيث توسيع صلاحيات المجالس العمومية وتعيين مستشارين اجانب .

٤ ـ اعتبار اللغة العربية كلغة رسمية في مجلس النواب العثماني وفي مجالس الولايات العربية .

٥ ـ اقامة الخدمة العسكرية في الولايات العربية الا في ظروف استثنائية .

٦ ـ دعم مطاليب متصرفية جبل لبنان والحركة القومية الارمنية الداعية الى الاصلاح اللامركزي .

وإذا رفضت الحكومة العثمانية الاستجابة لهذه المطاليب ، فإن المؤتمر يطالب الاعضاء برفض أي منصب حكومي الا بموافقة الجمعية التي ينتمون اليها ، كما أنّ عليهم التمسّك بهذه القرارات كبرنامج سياسي يعملون على تنفيذه . ولم ينس اعضاء المؤتمر فضل مساهمة المهاجرين العرب في نجاح عملهم ، فقدموا لهم الشكر وابلغوهم التقدير لعواطف انتمائهم الوطني .

وكان من الطبيعي ان تظهر معارضة العناصر الموالية للحكم العثماني . وكان ينتمي هؤلاء عادة لطبقة الاعيان والوجهاء المتنفذين ذات التأثير العميق على عامة الشعب . فجندتهم الحكومة الاتحادية لدعم سياستها ولبثٍّ دعايتها . وقد عاب هؤلاء على دعاة الإصلاح عامة وعلى أعضاء مؤتمر باريس خاصة ، بأنهم يستمدون وحي مطاليبهم من الغرب ، ويستعينون بقواه الاستعمارية لتنفيذ مخططاته في سبيل الانفصال . وقد عزز ادعاء الحكومة هذا ما قامت به بعض العناصر اللبنانية في الشرق وفي المهجر ولا سيما « **جمعية النهضة اللبنانية** » من الدعوة الى الاستقلال الذاتي ، مدعومة من الدبلوماسية الفرنسية بواسطة قنصلها العام في بيروت .

ومهما يكن من امر ، فان المؤتمر في باريس لم يشكل حادثا طارئا وحسب ، في تاريخ تطور وتصاعد عمل الحركة القومية العربية قبل الحرب الكونية الاولى ، بل انه اضحى مرحلة ذات أهمية كبيرة ، ليس فقط لما عرض وناقش من الافكار والاتجاهات

السياسية ، بل وبالاخص للأثر الذي تركه في النفوس المتعطشة الى المشاركة في الاصلاحات ، وللنتائج التي تمخض عنها على صعيد الدولة العثمانية وحزب الاتحاد والترقي ، وعلى صعيد القوى السياسية العربية المحلية المتمثلة في الجمعيات السرية ، وفي الصحافة والمؤسسات الوطنية الاخرى ، وعلى صعيد الديبلوماسية الاوروبية التي بدأت جديا بتهيئة مخططات تقسيم الدولة العثمانية ، بعد ان تبين لها عجزها البنيوي في الدفاع عن نفسها دفاعاً فعالاً ، وفي تهيئة عناصر نهضتها وانتعاشها ، وفي مجاراة النظم الليبرالية المتبعة في الدول الحديثة ، وفي امكانية صهر مختلف القوميات في بوتقة الوحدة الوطنية .

وتعطي الوثائق الديبلوماسية المعاصرة صورة تكاد تكون واضحة ودقيقة المعالم ، عن كل هذه المعطيات ، وليس في وسعنا ان نحلل عناصرها في هذه اللمحة السريعة . وريثما تتهيأ ظروف اخرى لدراستها مطولا مع الرجوع الى الوثائق الاكيدة لدعمها وايضاحها ، يكفي أن نشير الى بعض ما يتصل مباشرة بصلب موضوعنا ضمن الاطار الخاص ، الذي تابعنا فيه مراحل تطور العلاقات العربية ـ التركية ، اي على الصعيد المحلي فقط .

فبينما كان مؤتمر باريس العربي يهيىء ويناقش موضوعاته الاساسية في الاصلاح اللامركزي ، اخذ الذين يعارضون هذا الاتجاه يوحدون صفوفهم للدفاع عن الاوضاع الاتحادية الراهنة ، وقد برزت هذه المعارضة على أوجه عديدة :

فعلى الصعيد الرسمي اهتمت الحكومة بقلق بالغ لهذه النزعة الاصلاحية المنظمة ، وخشيت من تطورها الى حد المطالبة بالاستقلال ، لا سيما بعد أن تبينت لها علاقات هذه النزعة مع بعض الاوساط الاوروبية ، فأسرعت الحكومة وارسلت الى باريس من يفاوض زعماء المؤتمر ، لاستمالتهم بالوعود الخلابة ان لم يكن بالوعيد المبطن . فجاء مدحت شكري بك أمين سر اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي مع وفد حزبي ، وتوصل الى اقناع عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي بالرجوع معه الى العاصمة العثمانية ، وبقبول تسوية سياسية تتعهد الحكومة بموجبها بتنفيذ برنامج الاصلاح بصورة مرحلية ، مع مراعاة الظروف الراهنة ورأي اكثرية سكان الامبراطورية الذين تجمعهم الوحدة الاسلامية . ولما وقعت الحكومة معاهدة بوخارست في ١٠ آب ١٩١٣ مع الدول البلقانية ، صفا لها الجو الخارجي لمتابعة سياستها الداخلية في مساندة الائتلافيين العرب ، وتوسيع شقة الخلاف في صفوف الاصلاحيين . ودعم هذه السياسة من وعود التسوية ، والتسويف في التنفيذ ، رجالات العهد من أعيان العرب أمثال : سليمان البستاني والشريف حيدر باشا والشريف جعفر باشا والشيخ عبد العزيز جاويش . وتم الاتفاق

السري على مواد للتسوية اعتبرها عبد الكريم الخليل ومن شد أزره كافية لتوحيد صفوف العرب والاتراك تأييداً للدولة ومناصرة لكفاحها ضد اعدائها في الخارج .

واذ أخذت الحكومة تماطل في تطبيق بنود التسوية التي وعدت بها ، نشر رفيق بك العظم احد اعضاء المعارضة الاصلاحية مواد هذه التسوية السرية ، مما أدى الى تأزم العلاقات من جديد ، ومن كسر وحدة صف الاصلاحيين العرب ، لا سيما بعد أن قبل عبدالكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم بعض المناصب الحكومية ، وبعد أن اجريت بعض التعديلات الطفيفة والهامشية على قانون ادارة الولايات (أواخر عام ١٩١٣) . وساهمت سياسة الترضية الشكلية هذه في دعم موقف الحكومة وفي كسب انصار في صفوف الشعب . وقد قنع الاعيان التقليديون بالوضع الراهن ووقفوا موقف الاعتدال والتريث دون التطرف . وعندما جرت الانتخابات النيابية (أواخر عام ١٩١٣) بقيادة حزب الاتحاد والترقي نال مرشحو الحكومة في الولايات العربية وغيرها الاكثرية الساحقة في مجلس المبعوثان . واضطرت المعارضة الاصلاحية الى متابعة كفاحها في صفوف الجمعيات السرية وعلى صفحات الجرائد . ولم يتطرق طبعا هؤلاء النواب خلال اعمال المجلس الى المواضيع القومية الاصلاحية الجوهرية بل اقتصروا على مناقشة امور تتعلق بالادارة المحلية فقط ، مثل امور القضاء والتعليم والمواصلات .

أما على الصعيد الحزبي أو الفردي فقد ادى مؤتمر باريس في مواقفه الاصلاحية وملابساته السياسية ، الى توضيح بعض الاتجاهات بين الزعماء . وبينما كان الاصلاحيون يعقدون مؤتمرهم في باريس ، أسس الائتلافيون في دمشق حزباً سموه « **حزب الاصلاح الحقيقي** » جمع تحت لوائه بعض الوجهاء والاعيان ، أمثال محمد فوزي باشا العظم وعبد الرحمن يوسف والامير شكيب ارسلان ، وغيرهم ممن كانوا ينهجون نهج الائتلاف السياسي في العاصمة[1] . وقد عابوا على الاصلاحيين عقد مؤتمرهم في باريس ونعتوهم بالعمالة للاجانب وبالخيانة للقومية العثمانية وبالقضاء على الخلافة الاسلامية ، مشوهين سمعتهم بين صفوف العامة . وساندوا سياسة التساهل والتعاون التي قبل بها عبد الكريم الخليل واعوانه . وبعد ان نشر عبد الحميد الزهراوي رسالته الشهيرة الموجهة الى الشيخ رشيد رضا ضد موقف زملائه القدامى الاصلاحيين ، منتقدا تصلبهم الفكري والفوضى الاعتباطية في تصرفاتهم السياسية . . . شن خصومه حملة صحفية عنيفة ، على صفحات الجرائد في مصر والمهجر ، وتنادوا لمتابعة النضال السري بين المثقفين والضباط . واذ تعرض الخليل والزهراوي وبقية الائتلافيين الى هذه المهاجمة اللاذعة ، اتهموا بالسعي

(١) سعيد امين = الثورة العربية الكبرى ج آ ـ ص ٥٢ ـ ٥٣ .

الرخيص وراء مناصب الحكومة ، وبالتخلي عن المصلحة القومية العليا . واذ تعذرت متابعة الحوار مع السلطات العثمانية توجه بعض المعارضين الاصلاحيين الى الدول الاوروبية الكبرى ، ورفعوا إليها مذكرة مستفيضة شرحوا فيها أهم مطاليب الحركة القومية الاصلاحية في بلاد الشام[1] وتأسست « **جمعية العهد** » السرية في ٢٨ تشرين الاول ١٩١٣ لعب الضابط عزيز المصري دوراً كبيراً[2] في تكوينها . وبقيت هذه الجمعية تقوم بمهامها التثقيفية القومية حتى بعد اعتقاله في ٩ شباط ١٩١٤ والافراج عنه ، رغم الحكم عليه بالاعدام في ١ نيسان ١٩١٤ على أثر مظاهرة احتجاج شعبية وتدخل الديبلوماسية الاوروبية . وعلى أثر نجاح مرشحي الائتلاف الحكومي في مجلس المبعوثان ، توسعت حركة الموالاة للحكومة بين صفوف الشعب ، لا سيما بعد ان ابعدت السلطات عددا كبيرا من الضباط العرب عن ثكناتهم في بلاد الشام ، الى مناطق نائية في بر الاناضول وبقية الولايات العثمانية . ومن جراء هذه السياسة التعسفية نضجت فكرة القومية العربية في صفوف المثقفين . فكان لمقالات عمر فاخوري حول **الجنسية العربية** وحول **عوامل النهضة العربية** ، مع دراسات مصطفى الغلاييني حول الموضوع ذاته ، وكلها ظهرت في جريدة « **المفيد** » لصاحبها عبدالغني العريسي ، كان لها أثر كبير في توضيح وتعميق **فكرة الاصلاح** بمعناها القومي[3] .

واذ وضحت الافكار وتركزت معالمها وأهدافها ، بدت وكأنها النقيض والبديل للقومية التركية ـ الطورانية ، التي سعى الى تكوينها والى بث مبادئها بعض المتطرفين من مثقفي النهضة التركية ، ومن دعاة سياسة التتريك في بوتقة العنصرية التركية . واذا ذكر عادة اسم الفيلسوف ضياء جو كلب ، فقلما ذكر اسم دعاة آخرين كانوا من أصل يهودي كأرثور للي ديفيدز وارمينيوس فاميري وليون كاحصون ، او كانوا من اصل مسيحي يوناني

---

(١) E. Young = الثورة العربية ـ باريس ـ ١٩٠٦ ـ الجزء الاول ـ ٧٠ ـ ٧٣ .
ET. Rossi = وثائق عن اصل وتطور المسألة العربية ص ١٣ ـ ١٥ وقلما حلل هذا النص المؤرخون العرب . . .

(٢) امين سعيد = الثورة العربية الكبرى ـ ج ١ ـ ص ٤٦ .
راجع ايضا توفيق علي برو = العرب والترك ـ ص ٥٥٧ ـ ٥٦٥ ـ مناقشة آراء بعض الكتاب العرب حول برنامج وابعاد جمعية العهد السرية .

(٣) زين نور الدين زين = نشوء القومية العربية ـ ص ١٥٥ والمراجع التي يعطيها المؤلف .
ظهرت مقالات عمر فاخوري والشيخ غلاييني وعبد الحميد الزهراوي في الاعداد التالية من جريدة المفيد في ٨/ ٩/ ١٩١٣ عدد ١٣٧٠ وفي ١٠/ ٩/ ١٩١٣ عدد ١٣٧٢ وفي ٤/ ١١/ ١٩١٣ عدد ١٤١٩ وفي ١٨/ ٩/ ١٩١٣ عدد ١٣٧٠ و ١٣٧٩
اما مقالات الغلاييني فأنها جمعت في كتاب صدر بعنوان عظة الناشئين .
راجع بهذا الخصوص توفيق علي برو = العرب والترك ص ٥٩١ ـ ٥٩٤ .

كأحمد وفيق باشا ،أو بولوني كمصطفى جلال الدين باشا . وكل هؤلاء وغيرهم من اتباعهم دعوا الى الابتعاد عن مناهل الثقافة والحضارة التركية الشرقية ـ العربية والاسلامية ، والى العودة الى مصادر العرق واللغة التركية الاصلية البعيدة عن الاصل السامي ولا سيما عن العرب والفرس . . . [1] .

وقلما فطن المثقفون الى تأثير الحركة الفكرية التركية في تطور العلاقات بين القومية العربية والقومية التركية . وكان لا بد لهاتين القوميتين المتعارضتين من أن تتصارعا في حلبة التنازع للوجود والارتقاء والنهضة الوطنية في هذه المرحلة الاخيرة من حياة الامبراطورية العثمانية . لا سيما وان القومية الارمنية تركزت آنذاك على عوامل أخرى في سبيل الاصلاح والاستقلال الذاتي . ولم تكن القومية الكردية قد وصلت بعد الى مستوى النضوج والشعور بالذات .

ولم تكتف المعارضة الاصلاحية في تعميق جذورها الفكرية وفي متابعة حملتها الصحفية ، بل حاولت ان تقوم بعمل اعلامي ثوري حقيقي اقتصر على توزيع المناشير الداعية الى الانتفاضة . وكان « **للجمعية القحطانية** » التي تأسست في أواخر عام ١٩١٣ في مصر اليد الطولى في هذا المضمار [2] .

وحيال تفاقم هذه المعارضة الفكرية والصحفية اتخذت حكومة الاتحاد والترقي قرارات هامة في ٢٤ كانون الاولى ١٩١٤ ندرج بعضها لأهميتها [3] :

١ ـ اقصاء الضباط العرب من العاصمة الى الولايات التركية البعيدة .

٢ ـ اسناد قيادة القطعات العسكرية في الولايات العربية الى ضباط اتراك ، وابعاد الضباط العرب منها .

٣ ـ تطبيق السياسة العنصرية التركية بسرعة أكبر .

٤ ـ تكليف أحمد جمال باشا بإعداد برنامج هذا التتريك .

٥ ـ تطويق الحركة الاصلاحية المعارضة في أهم المدن التي ظهرت فيها .

---

(١) دزموند ستيوارت = تاريخ الشرق الاوسط الحديث (معبد جانوس) ـ الترجمة العربية بيروت ١٩٧٤ ـ ص ١٨٤ ـ ١٨٦ .

(٢) امين سعيد = الثورة العربية الكبرى = جـ ١ ـ ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣) امين سعيد = الثورة العربية الكبرى = جـ ١ ـ ص ٤٧ .
ET. Rossi = وثائق عن اصل وتطور المسألة العربية المذكور ص ١٥ ـ ١٦ .

٦ ـ الغاء الاحزاب العربية كلها ومراقبة العناصر الاصلاحية مراقبة شديدة ومقاومة الدعاية الى الانفصال .

٧ ـ ابعاد العرب الاصلاحيين من العاصمة واستمالة من يمكن استمالته منهم .

٨ ـ تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في الولايات العربية وزيادة عدد اعضائها .

وظلت هذه المقررات سرية ونفذت بالتدريج وبمهارة فائقة ، بحيث كاد القوميون العرب الاصلاحيون لا يشعرون بوجودها وبعواقبها ، على فاعلية حركتهم التحررية ، ولو أنها تنافت مع الالتزامات التي قطعتها حكومة الاتحاديين . وعندما دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا وحلفائها بدا الواقع في جوانبه الظاهرة ، وكأنه متراص الصفوف ومتماسك في ولاء العرب للسلطة القائمة رغم ما طرأ عليه في الماضي وفي القريب من أزمات حادة كادت تؤدي الى فك أواصر الوحدة والرابطة العثمانية .

***

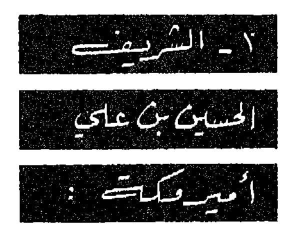
الفصل الثالث

الأحداث التي سبقت

الثورة العربية الكبرى

ان التماس اسباب الثورة في زندقة الاتراك او فساد مذهب الاتحاديين او بطلان خلافتهم بعيد عن الحقيقة ، ان الامر لا يعدو ان هناك وطنا عربيا يحتله الاتراك وعلينا واجب تحريره -١-

عبد الله بن الحسين



لا يخفى على القراء ما كان يتمتع به الاشراف[٢] من منزلة عالية في التاريخ العربي والاسلامي ، ذلك لانهم ينتمون الى اسرة النبي محمّد وأحفاده ، وهم من قبيلة قريش

---

(١) أعمدة الحكمة السبعة : ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) الشبراوي « الاتحاف في حب الاشراف » عام ١٨١٣ مطبعة بولاق القاهرة ـ ودائرة المعارف الاسلامية ج ١٣ ص ٢٦٦ ـ ٢٨٢ ـ الطبعة العربية .

ذات المكانة الرفيعة في التاريخ ، وينتمون إلى الأسرة الهاشمية ، نسبةً الى هاشم الجد الأعلى للنبي محمد . وقد حظيت هذه الأسرة بمقام رفيع وبمنزلة اجتماعية وسياسية محترمة ، خلال قرون طويلة . ولم تعتر هذه المكانة أيةُ تغييرات أو تبديلات على مكانتها السابقة خلال مختلف العصور . وعندما استطاع القادة العسكريون من غير العرب ، أن يتولوا مقاليد الأمور التي ضعفت عليها قبضة الخلفاء العباسيين ، في القرن التاسع الميلادي ، عادت السلطة في الحجاز وأقطار الجزيرة الأخرى الى أمرائها التقليديين ، وتولى الحكم في الحجاز واليمن أمراء من الاسرة الهاشمية ، وقد ظلت مقاليد الحكم في أيديهم منذ ذلك الحين وحتى عدة قرون[١] .

وكما بيّنا سابقا فقد بقيت هذه المناطق بحاجة الى مساعدات شتى ، تأتيها من مختلف الاقطار الاسلامية عن طريق الحج ، وهبات الامراء والخلفاء سواء في بغداد أو في بقية العواصم الاسلامية .

ومن هنا كان امراء الحجاز على الرغم من رغبتهم في الاستقلال ، مضطرين للاعتراف بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين في بغداد ، وذكر أسمائهم أثناء أداء الصلاة ، لكي تصل الى بلادهم عاما بعد عام الهبات المختلفة ولا سيما الحبوب[٢] .

وفي عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) سقطت مصر وسوريا تحت السيطرة العثمانية على يد السلطان سليم[٣] ، الذي أرسل من اقنع شريف مكة بركات[٤] بالاعتراف بامارته مقابل الدعاء له في الكعبة . وكانت هذه الرسالة الودية المبطنة بالتهديد ، كافيةً لان تدفع بركات ليستجيب لدعوة السلطان ، فارسل ابنه (أبو نُمَيّ)[٥] معترفا بولائه . فاقره السلطان على

---

(١) سليمان موسى : « الحركة العربية » دار النهار للنشر - بيروت - ١٩٧٠ - ص ٤٣ .

(٢) راجع صفحة ١٧ - ٤٠ من هذا الكتاب حول جغرافية الجزيرة العربية .

(٣) السلطان سليم الاول ١٤٦٧ - ١٥٢٠ سلطان تركيا من ١٥١٢ الى ١٥٢١ خلع اباه بايزيد الثاني وقتل اخوته واجلس نفسه على العرش . ضم ديار بكر وكردستان الى ملكه عام ١٥١٤ . انتصر على السلطان قنصوه الغوري في مرج بن دابق (١٥١٦) واحتل سورية ثم تقدم الى مصر وهزم طومان باي ١٥١٧ ونزل له الخليفة العباسي محمد المتوكل عبد الله عن الخلافة فأصبح خليفة للمسلمين ، وورث خلفاؤه هذا اللقب ثم منح مكة والمدينة ومات وهو يتأهب لغزو رودس . وكان اداريا قديرا وقائدا جريئا بطاشا .

(٤) هو الشريف بركات بن محمد . حكم من سنة ٩٠٣هـ الى سنة ٩٣١هـ (١٤٩٧ - ١٥٢٥ م) ، سادت في زمنه فتن ودسائس داخلية ثم عم السلام . كان لاعترافه بالسيادة العثمانية انه لم تحدث في الحجاز ثورة مفاجئة . وبعد ان توفي خلفه ابنه ابو نمي .

(٥) أبو نمي محمد الثاني شريف مكة حكم من عام ٩٣١هـ الى عام ٩٧٤هـ (١٥٢٥ - ١٥٦٦ م) بالفعل وحكم بالاسم من عام ٩٧٤هـ لان ابنه حسن كان الحاكم الفعلي خلال الثمانية عشر عاما وقد اتسعت املاك هذين الشريفين اتساعاً عظيماً . أبو نمي هو جد جميع الاشراف الذين حكموا مكة بعده .

الامارة . وهكذا تمتع أمير مكة كأسلافه ، بما أصبح يقدمه الخليفة من هدايا وصدقات ومواد غذائية طيلة العام وخاصة أثناء الحج . وهو الذي اضاف في الدعاء للسلطان عبارة « خادم الحرمين الشريفين » .

وبقيت بلاد الحجاز تتمتع بالاستقلال الداخلي التام مع الاعتراف بالسيادة العثمانية . وكان كبار الاشراف ينتخبون اميرهم ، فيُقرّ السلطان تعيينه . وعندما بدأت الخلافات تنشب بين الاشراف ، أفسح المجال للتدخل الفعلي للسلطان ، فأخذ يفرض موظفيه الاتراك على المدن الرئيسية في الحجاز ، داعما اياهم بحاميات عسكرية تركية تُرسل من العاصمة ، وبذلك استطاع السلطان ان يهيمن على المدن الداخلية في الحجاز . ومهد الطريق للسيطرة على اليمن . وكان بين امراء مكة واليمن صلات ووشائج قربى .

وخلال القرن الثامن عشر وبينما كان يزداد نفوذ الموظفين الاتراك ، كانت سلطة الشريف تتأرجح بين القوة والضعف ، حسب شخصية الشريف .

وكان نجم الوهابيين[1] قد بدأ يسطع في قلب الجزيرة العربية ، في منتصف القرن الثامن عشر ، فقد غزا الوهابيون العراق عام ١٧٩٩ وهدموا كربلاء في عام ١٨٠٣ ، وتقدموا الى المدينة ثم توسعوا الى بلاد الشام وطمعوا في الاستيلاء عليها مع العراق . وكان محمد علي والي مصر يطمح أيضاً الى الاستيلاء على بلاد الشام والحجاز أيضاً . فخشي السلطان العثماني من سلطتهم التوسعية ، فاوعز الى محمد علي والي مصر بكسر شوكةالوهابيين ،فقام بحملتين ضدهم في الحجاز ، بدأت الاولى عام ١٨١١ وانتهت عام ١٨١٥ ، وبدأت الحملة الثانية عام ١٨١٦ وانتهت عام ١٨١٨ بالانتصار على عبد الله إبن سعود واسره في القاهرة الى نهاية حكم محمد علي باشا الكبير . وقد ابقى محمد علي حامية عسكرية مصرية كبيرة في الحجاز حتى عام ١٨٤٠ ، عندما اضطر الى الانسحاب من سورية ، وحلت محلها قوات عثمانية واسترجع الهاشميون سلطتهم على الحجاز .

---

(١) الوهابيون هم اتباع طائفة الوهابية نسبة الى محمد بن عبد الوهاب ابن سليمان التميمي النجدي (١٧٠٣ - ١٧٩٢) الذي ولد ونشأ في العينية بنجد ورحل مرتين الى الحجار وزار الشام ودخل البصرة واوذي بها وعاد الى نجد فسكن حريملاء . وكان أبوه قاضيا فيها . ثم بدأ دعوته السلفية الى التوحيد الخالص ونبذ البدع ، وتحطيم ما علق بالاسلام من أوهام . وارتاح أمير العينية عثمان بن حمد بن معمر الى دعوته فناصره ، ثم خذله . فقصد الدرعية بنجد عام ١٧٤٤ فتلقاه اميرها محمد بن سعود بالاكرام وقبل دعوته وآزره من بعده ابنه عبد العزيز ثم سعود بن عبد العزيز وقاتلوا من خالفه .

وانتشر امرهم حتى وصلوا المزيريب في الشام عام ١٧٣٠ - واستولوا على جزء من اليمن ومكة والمدينة والحجاز وقد تأثر بهذه الدعوة رجال الاصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وقد اطلق الوهابيون على حركتهم اسم « اخوان من اطاع الله » . ولكن اسم « الوهابيين » غلب عليهم عن طريق خصومهم . وكانت وفاته في الدرعية واحفاده اليوم يعرفون في الحجاز ببيت « الشيخ » له كتب كثيرة في المذهب .

وبقي محمد عون[1] محتفظا بسلطته على الحجاز ومحاولا استرجاع نفوذ اسلافه في تلك المناطق .

وبعد أن استعاد السعوديون بعض قوتهم في نجد والقصيم ، زحف الشريف محمد عون عليهم ، وثبّت سلطان العثمانيين عليها ، مما اضطر الامير السعودي الى أن يعلن تبعيته للسلطان ، وان يدفع خراجا سنويا الى خزينة الدولة قدره عشرة آلاف ريال . وشجع محمد عون على قيام امارة آل الرشيد ، وقاد جيشاً عثمانياً الى عسير واليمن واضطر الثائرين الى اعلان الطاعة للدولة .

وقد خشي العثمانيون كعادتهم في الادارة من سلطة الشريف المتزايدة ، فخلعوه ونفوه الى العاصمة عام ١٨٥١ ، حيث ولد حفيده الحسين من ابنه علي عام ١٨٥٣ . أدى ذلك الى تقرير السلطة المركزية في الحجاز على يد الولاة العثمانيين مباشرة دون الاستعانة بالاشراف . وكان ذلك نتيجة لاتجاه الدولة العثمانية لتوطيد سلطتها المركزية والقضاء على القوى المحلية . وبعد فتح قناة السويس في ١٨٦٩ . زادت قدرة العثمانيين على تعزيز قواتهم في جزيرة العرب عن طريق البحر ، فأخذوا يجلبون المزيد من الجنود ، ويوطّدون سلطانهم ، ويشحذون روح التنافس بين الاشراف ، لتبقى لهم اليدُ العليا والنفوذ الاول عملا بسياسة : (فرّق ، تسد)[2] .

في عام ١٨٨٢ ، كما ذكر الشيخ محمد ناصيف وهو من كبار علماء الحجاز ، عُيّن الشريفُ عون الرفيق [3] عم الحسين أميرا على مكة ، وكان رجلاً سيىء الادارة ظالماً غريب الأطوار ، وسرعان ما اختلف مع الوالي ، فاستصدر أمراً من السلطان بعزله . ودفع سوءُ إدارة عونِ الرفيق عدداً من كبار رجال الدين في الحجاز ، الى أن يشكوه للسلطان عبد الحميد ، فبادر الشريف الى وضع بعضهم في السجن ونفى بعضاً آخر . وارسلت الحكومة لجنة تحقيق برئاسة أحمد راتب باشا ، ولكن الشريف رشا رئيس اللجنة بستة آلاف جنيه

---

(١) محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن (١٧٩٠ ـ ١٨٥٨) : شريف حسني ، من امراء مكة . ولد ونشأ فيها ، وسكن مصر مدة ، فسعى له واليها محمد علي باشا لدى الحكومة العثمانية فعين لامارة مكة عام ١٨٢٧ بعد أن نزعها من فرع الاشراف ذوي زيد وعاد اليها فاستمر الى سنة ١٨٥٠ ـ ١٨٥١ وعزل بسبب خلافه مع المصريين فتوجه الى القاهرة والآستانة فأقام الى سنة ١٨٥١ وبقيت الحجاز بلا أمير الى أن صدر مرسوم سلطاني باعادته الى الامارة فانتقل اليها واستمر الى أن توفي فيها وهو جد ذوي عون من الاشراف الهاشميين .

(٢) راجع كتاب سليمان موسى السابق ذكره ص ٤٥ .

(٣) عون الرفيق « باشا » بن محمد بن عبد المعين بن عون ١٨٤١ ـ ١٩٠٥ : شريف حسني من امراء مكة . ولد فيها ، وناب في امارتها عن اخيه الشريف حسين ثم توجه الى الاستانة عام ١٨٧٧ ولقب فيها بالوزارة وولي مكة سنة ١٨٨١ بعد انفصال الشريف عبد المطلب ابن غالب عنها فعاد اليها وخلاله الجو فتصرف بشؤونها تصرف المستقل المالك وكان جبارا خافه الناس وامتد سلطانه الى ان توفي في الطائف .

ذهباً ، فكتب تقريراً يؤيد فيه وجهة نظره ويُبرّئه مما اتهم به . ولم يلبث أن عُينّ والياً مكان الوالي المعزول .

كان الشريف حسين أول من صدر الأمر بابعاده عن الحجاز ، فقد استنكر المظالم التي ناءت تحت وطأتها كواهل الناس . وكان الموظفون الاتراك يشتركون مع رجال الشريف عون الرفيق في ايقاع تلك المظالم . وفترت العلاقات بين الشريف حسين وبين عمه واختلفا . وأُتهم بالتحريض على ارسال الشكاوى الى السلطان ، فتلقى ذات يوم مذكرة من الوالي يبلغه فيها أن السلطان يطلب اليه الشخوص الى العاصمة ، ولم يكن هناك بد من تلبية الدعوة فغادر الحجاز في عام ١٨٩٣ ، ولم تلبث أوامر النفي أن صدرت بحق الرجال الآخرين ، من كبار رجال الدين كما ذكرنا فيما سبق .

كان الشريف حسين عند نفيه الى استانبول ، في الاربعين من عمره ، ولم يطق السكوت على الظلم والابتزاز ، فاحتج على ذلك وعارضه ، بالرغم من ان عمَّه كان يشارك في هذا الظلم ، ويسكت عليه . وفي السنة التالية ، لحق به اولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل .

أقام الحسين في العاصمة العثمانية مدة ستة عشر عاماً . وعلى الرغم من أن السلطان عبد الحميد قال له أنه انما استدعاه لينشئه ويرجو منه أن يخدم الدولة ويخدمه ، وعلى الرغم من أنه عينه عضواً في شورى الدولة ، فان اقامته هناك كانت « اقامة جبر واكراه[1] » . وكانت « نفياً وتغريباً بناء على معارضته سياسة الظلم والتعسف بالحجاز ، وأخذ الأموال الطائلة من الحجاج بوسائل شتى ، تلك السياسة التي اختطها ولاة الحجاز والامير عون الرفيق »[2] .

وذكر المؤرخ سليمان موسى في كتابه « الحركة العربية » ، نبذة عن تاريخ اقامة الحسين في استانبول ، التي نطلق عليها اسم « النفي الذهبي » ، نوردها حرفيا كما جاءت في الكتاب المذكور .

« انصرف الحسين الى العناية بأولاده والاشراف على تعليمهم . وكانت زوجته قد توفيت ، قبل نفيه بأربع سنوات ، فاتخذ في العاصمة زوجة ثانية من عائلة تركية مرموقة أنجبت له ابنه الرابع زيداً وثلاث بنات »[3] .

كان الحسين رجلاً عميق الغور شديد التكتم والحذر قليل البوح بآرائه الشخصية . وكان واقفاً على الاساليب السائدة في عصر السلطان عبد الحميد . ومع أن منزله في

(١و٢) مذكرات الملك عبد الله ص ٢٨ ـ منشورات الرائد ـ عمان .

(٣) سليمان موسى . الحركة العربية ص ٤٦ .

استانبول كان « مأوى أحرار الناس من العثمانيين ومتظلمة العرب للمذاكرة فيما هم فيه »[1] ، الا أن السلطان لم يجد عليه مأخذاً طوال السنوات التي قضاها هناك . ثم ان الحسين كان ، بطبعه ، ورعاً شديد التدين والتقوى ، حسن السيرة مستقيماً مترفعاً عن الدنايا ، ولهذا كان دائماً محاطاً بتقدير كبار رجال العاصمة واحترامهم ، سواء منهم العرب أو الأتراك . ولم يعرف عنه الا الرزانة وقوة الشخصية وشدة الغيرة على الدولة والاسلام . وكان الرأي السائد أنه رجل متقدم في السن لا ينطوي صدره على مطامح شخصية .

وهكذا مضت الأعوام الستة عشر ، وجاء الانقلاب ، وأعلن الدستور ، وبلغ رجال العهد الجديد ان شريف مكة علي (ابن عم الحسين) تباطأ في اعلان الدستور ، وتلكأ الوالي أيضاً في ذلك . فصدر الأمر بعزلهما وتعيين الشريف عبد الاله عم الشريف المعزول في المنصب الشاغر . وكان الشريف عبد الاله يقيم في استانبول ، وهو شيخ متقدم في العمر ضعيف البنية انهكت جسمه الأمراض . فلم يلبث أن توفي وهو يستعد للسفر الى الحجاز .

عندئذ سعى حزب الاتحاد والترقي لتنصيب الشريف علي حيدر من فرع الاشراف ذوي زيد ، وهو الفرع المنافس للاشراف من ذوي عون الذي ينتمي اليه الشريف حسين[2] .

شعر الأمير عبد الله بن الحسين بأن الفرصة اصبحت مواتية لتسليم والده امارة مكة لأنه صاحب الحق الأكبر في هذا المنصب . . . فبدأ أولا باقناع والده بتولي هذه المسؤولية ، وتمكن من تحقيق رغبته بعد جهد . . . وقبل الشريف حسين بتسطير مذكرة بهذا الصدد الى السلطان عبد الحميد عن طريق الصدر الاعظم[3] كامل باشا[4] .

---

(١) الملك عبد الله . مجلة الهلال ـ القاهرة عدد نيسان ١٩٣٩ .

(٢) سليمان موسى ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٣) الصدر الاعظم أي « عين الاعيان » . هو لقب حمله رئيس الوزراء مد عهد سليمان القانوني في الدولة العثمانية ، ويسمى ايضا صدر عالي ، وصاحب دولت . وآصف اعظم وكان يتلقى مع هذا اللقب خاتما ذهبيامرسوماً عليه ختم السلطان ، ويختم به الاوامر السلطانية فيصبح وكيل السلطان في الشؤون المدنية والعسكرية . وكان يرئس الديوان ويعقد الاجتماعات الشهرية ، ويستقبل كبار الموظفين . له ثمانية من الحرس ، و ١٢ جوادا مطهما وسفينة لها ١٣ زوج من المجاذيف . وكان زمن الحرب يتحول الى قائد عام فيدعى سردار اكرم وهو يحمل علم النبي (سنجق شريف) وهو الذي يختار الوزراء وكبار الموظفين .

(٤) كامل باشا قبرصلي بن صالح آغا عادلي (١٨٣٣ ـ ١٩١٣) كان مستشارا للسلطان ثم عين واليا لحلب حيث لعب دورا سياسيا هاما ضد الانكليز ثم عين وزيرا للمعارف وناظرا للاوقاف . ثم عين صدرا أعظم في عام ١٨٨٤ مكان سعيد باشا بأمر من السلطان عبد الحميد وقد أبقاه في هذا المنصب ٦ سنوات وشهرا واعاده مرة ثانية صدرا أعظم في ١٨٩٥ ثم عزله ثانية وعينه واليا لازمير ثم اعيد صدرا اعظم للمرة الثالثة بعد اعلان الدستور وفي عهده جرى أول انتخاب لمجلس المبعوثان . ثم استقال بناء على طلب جمعية الاتحاد والترقي ثم عاد الى بلده لافكوشاه حتى وافته ميته .

أخذ الأمير عبد الله المذكرة بنفسه وذهب بها الى الصدر الأعظم ودفعها اليه . . . ولما قرأها قال للأمير : « أقبل أنامل والدك وأطلب اليك أن تبلغه بأن حقه لا يضيع ان شاء الله » فشكره الأمير عبد الله وخرج . . . ولكنه لم يطمئن كل الاطمئنان . فعمد الى تسطير ثلاث برقيات الى السلطان عبد الحميد يقول فيها : « نظراً لشغور مقام الامارة الجليلة بمكة المكرمة ، ولكوني صاحب الحقّ ، فانني أنتظر من الأعطاف السنية السلطانية عدم حرماني حقي وتعييني في مقام آبائي » ، وكان في نيته أن يرسل من هذه البرقية ثلاث نسخ الى السلطان عبد الحميد . . . واحدة بواسطة الصدر الاعظم . . . وواحدة بواسطة شيخ الاسلام ، وواحدة بواسطة رئيس كتاب القصر السلطاني . . وكانت هذه الحركة بمبادهة الأمير عبد الله ، وكانت غايته ضمان وصول أحد النصوص الى السلطان عبد الحميد[1] .

عاد الامير عبد الله الى الدار لينقل لوالده الشريف حسين جواب الصدر الاعظم . . . كما اقترح عليه ضرورة الابراق الى السلطان عبد الحميد بهذا المعنى ، واخذ توقيعه على البرقيات التي كتبها . . وفي تلك الليلة ، وبعد ان قام الامير عبد الله بارسال البرقيات . . وردت برقية من رئيس كتاب القصر السلطاني يقول فيها : « إن حضور الشريف حسين ابن علي يوم غد ، في الساعة الثالثة زوالي ، مرغوب فيه لدى جلالة السلطان »[2] .

وفي الموعد المحدد توجه الشريف حسين بن علي الى القصر السلطاني ، وعُيّن أميراً على مكة ، وكان هذا التعيين الذي تم من قبل السلطان عبد الحميد[3] ، من أسباب الخلاف الرئيسية بين الشريف حسين وبين كل حكومة اتحادية . . وقد صدر مع الأمر

---

(١) راجع مذكرات الملك عبد الله ص ٣٠ حيث يعطي نص المذكرة العربية التي رفعها الى الصدر الاعظم كاملة .

(٢) ص ٣٢ المذكرات .

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨) . سلطان تركيا من ١٨٧٦ الى ١٩٠٩ . كان حزب تركيا الفتاة قد خلع عبد العزيز ونصب مكانه مراد الخامس اخا عبد الحميد ولكنه نزل عن العرش بحجة جنونه واعتلى عبد الحميد الثاني مكانه . قبل دستور مدحت باشا ولكنه ما لبث ان الغاه . حكم البلاد حكما قاسيا . كثرت فيه العيوب واختلت موازين الامور . واقصى مدحت باشا ثم سعى الى قتله. كان عهده طافحاً بالحروب ، فحارب صربية ١٨٧٦ ، وروسيا ١٨٧٧ - ١٨٧٨ وانهى القتال بعقد معاهدة سان استيفانو التي عدلها مؤتمر برلين ١٨٧٨ . حارب اليونان ١٨٩٧ . حدثت مذابح الارمن ١٨٩٤ - ١٨٩٦ التي قتل فيها عدد كبير من زعماء الارمن . تقرب من المانيا وعين كثيرين من الضباط لتدريب الجيش العثماني واعادة تنظيمه . حصل منه الالمان على امتيار سكة حديد بغداد ، ثار عليه في عام ١٩٠٨ الضباط الشبان المنضمون الى حزب تركية الفتاة واكرهوه على منح دستور للبلاد ١٩٠٨ ثم خلعوه عام ١٩٠٩ حين لمسوا نواياه السيئة وقد احتفظ به سجينا في سالونيك قرب ازمير .

السلطاني بتعيين الشريف حسين أميراً على مكة ، أمر سلطاني آخر باسناد رتبة الوزارة اليه ، وهذا ما عزز سلطة الشريف وقوّى مكانته[٢] .

بعد اسبوعين ، تجهز الشريف حسين بن علي أمير مكة للسفر على متن الباخرة « طنطا » ، وهي احدى بواخر الشركة الخديوية آنذاك . وفي يوم سفره قابل السلطان عبد الحميد مودعاً ، واجتمع به على انفراد زهاء ساعة ونصف الساعة . . . وخلال المقابلة قال السلطان عبد الحميد للشريف حسين « أسأل الله أن يجازي من حال بيني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية ، وانني لست بالأمين على الدولة والملك من هذه الفئة المتغلبة » . فأجابه الشريف حسين : (إن لذاتكم الملوكية في البلاد العربية الفئة التي اذا تحيزتم لها كان لكم ما تريدون من حفظ الدولة والملك . . . ومتى شعرتم جلالتكم بذلك فأول بلد من بلدان العرب يقوم بالواجب المفروض هو الحجاز ، وأن النبي (ص) قال : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ، ولو فعلتم جلالتكم ذلك جلبتم آل بيتكم معكم ، لجبيت لكم الأموال ولأخضعت رقاب العصاة ، لانكم تكونون حين ذاك فوق متناول ايديهم) . . . وقد تأثر السلطان عبد الحميد من هذا الموقف النبيل واغرورقت عيناه بالدموع وأجاب : « أشكرك . . أشكرك ، بارك الله فيك . . ولكن الوقت لم يحن . . » ثم قلده وسام الافتخار المرصع بيده وودعه . . .

ولدى وصول الشريف حسين الى الباخرة ، حضر الصدر الأعظم كامل باشا مودعاً ومقدماً اليه مذكرة يقول فيها :

« ان الخطة المباركة الحجازية مربوطة رأساً بمقام الخلافة العظمى ، وانه لا يسري عليها بمناسبة الدستور الجديد ، ما يخالف الحقوق المقدسة القائمة بين الامارة الشريفة والسدة السلطانية . وان اعتماد الحضرة الملوكية والباب العالي على ذاكرتكم الهاشمية ، مما لا يحتاج الى تأكيد ، فقوموا بواجباتكم السامية على أساس التعامل القديم ، وفقكم الله للخير »[٢] .

وكانت هذه المذكرة أول صراع على السلطة بين السلطان عبد الحميد ، وقادة حزب الاتحاد والترقي ، مما دعا هؤلاء الى التفتيش عن الدفاتر القديمة لتركيز مقام الخلافة والسلطة ، وتدعيمها على حساب استقلال الولايات العربية الذاتي عموماً ، واستقلال امارة مكة على وجه الخصوص .

---

(١) من الجدير بالذكر ان الاتحاديين لم يقبضوا على زمام السلطة مباشرة بعد الانقلاب وقد ظل السلطان عبد الحميد والصدر الاعظم يتمتعان بالنفوذ الاقوى الى أن خلع السلطان عبد الحميد .

(٢) مذكرات الملك عبد الله ص ٤١ ـ ٤٢ .

وفي الاسبوع الأول من ذي القعدة سنة ١٣٢٨ هـ وصل الشريف حسين الى جدة ، فأقبلت السنابك الشراعية نحو السفينة وفيها مئات الرجال من شرفاء وعظماء ، ومشايخ القبائل العربية ، وأخذوا يدخلو ن الى حجرة الشريف حسين وكلهم دامع العين من الفرح والسرور . ولقي الشريف حسين في طريقه من جدة الى مكة ترحيباً عاماً واستقبالاً حافلاً . وزحفت اليه الوفود في مكة من كل جهة ، يسلّمون عليه ويباركون له بالمنصب الجديد ، وبعودة الامور الى اصولها[١] .

وكان بين وفود التهنئة وفد حزب الاتحاد والترقي الذي سلم على الأمير بجدة ، اذ تكلم رئيس الوفد عبد الله قاسم قائلاً : « جئنا نرحب بالأمير الدستوري » الذي يُؤمَّل من سيادته أن يضرب صفحاً عن الأصول الادارية القديمة ، وعن الظلم الذي كان يرتكبه الشريف عون الرفيق والشريف علي ، تبعاً للادارة المستبدة وارضاء للسلطان . وان البلاد اذ تحيي سيادة الأمير ، فانها تحيي فيه الأمير الذي عرف روح العصر والتجدد المطلوب للعمل ، تحت الدستور الذي هو نبراس السلامة »[٢] .

ولقد كان جواب سمو الأمير حسين بن علي حاسماً في هذا الموضوع ، اذ قال : « لقد حظيت بمقام أسلافي وآبائي على الشريطة التي بايع بها الشريف أبو نمي السلطان سليم الأول ، وإن هذه بلاد الله لا تقوم فيها غير شريعة الله المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي حريصة على الاحتفاظ بحقها . فليذهب كل منكم ليشتغل فيما يخصه ، المأمور في وظيفته ، والتاجر في تجارته والصانع في حرفته ، واياكم من قال وقيل وما يقولون ، فهذه بلاد الله ليست بملك لأحد ، وأن السلطان الآمر بالدستور ، الذي تذكره ، والذي أمر بأن يعمل في بلاده ، يفتخر هو وأسلافه بأنهم خدام الحرمين الشريفين وليس الخادم بالملك . دستور بلاد الله . هو شريعة الله وسنة نبيّه[٣] » .

فخرجوا يتعثرون ، وكتبوا الى الاستانة والى مراكزهم يقولون : بعث عبد الحميد برجل جلس على مقام أسلافه ، لا يعبأ بأحد ولا يُقرّ بدستور ولا بتجديد . وفي الواقع ، لقد بدأت الحرب غير المعلنة بين الشريف حسين وبين حزب الاتحاد والترقي منذ تلك اللحظة[٤] . والحقّ أن الصدام بين الشريف والأتراك كان أمراً لا يمكن تجنُّبه . فقد تركت سني النفي الطويلة وما رافقها من رقابة شديدة فرضت عليه ، في نفس الشريف مرارة ازاء الاتراك وشعوراً بعدم الثقة فيهم ، وعوّدته على التزام الحذر الشديد في تعامله معهم . كما ان ثقته بنفسه وإدراكه شأن المنصب الخطير الذي تسلمه ، وتصميمه على التمسك

(١و٢) المذكرات ص ٤٥ ـ ٥١ .

(٣و٤) الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ص ٦٠ ـ ٦١ .

بامتيازات هذا المنصب التاريخية ، التي جاهد اسلافه طيلة قرون لتأكيدها وصيانتها رغم كل المصاعب التي واجهتهم ، كل هذا جعله شديد الحساسية ، سريع التحرك ، ازاء كل تصرف تركي يمسّ من قريب او بعيد هذه الامتيازات التاريخية .

وكان الأتراك مصممين على تطبيق سياستهم المركزية على الحجاز مهما كلفهم ذلك . وكانت هذه السياسة قد برزت في منتصف القرن التاسع عشر ، كما كان للاتحاديين مفهوم خاص في طرائق تحقيقها التي تقوم على التنكر لحقوق القوميات غير التركية ، ورفض كل نزوع لديها لأي نوع من الاستقلال ، وربط الولايات وحكام الولايات ، بالمركز التركي ربطاً وثيقاً ، لا يترك لأي حاكم تركي او غير تركي ايّ قَدْرٍ من حرية التصرف . الا بمقدار ما يخدم الاهداف التي اعلن عنها الاتحاديون والتي عرفت باسم « التتريك » ومع ذلك فقد تجنب الطرفان التسرع بالصدام المباشر ، وسلكا سياسة الترقب والحذر والمداراة ، ريثما تتوفر لكل منهما الوسيلة الكفيلة بتحقيق ما يسعيان اليه .

منذ تسلم الشريف حسين امارة الحجاز ، وحتى قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ ، تتالت جملة أحداث أكدت للشريف أنه لا سبيل لاستمرار التعاون مع الأتراك .

وفي أواخر ١٩٠٨ وصل خط سكة الحديد الى المدينة المنورة ، واتجهت نية الحكومة الى مواصلة تمديده حتى يبلغ مكة عن طريق جده . ولكن الشريف عارض ذلك ، محتجاً بأن تمديد الخط الى مكة ، يقضي على أسباب المعيشة لعدد كبير من سكان الحجاز ، بدوهم وحضرهم ، الذين اعتادوا أن يؤجّروا الجمال لنقل الحجاج وأمتعتهم بين المدينتين المقدستين في الذهاب والاياب ، وأعلن ان قطع أسباب معيشة أولئك الناس ، سوف يدفعهم الى شق عصا الطاعة على الحكومة ، التي تقضي مصلحتها العليا بأن يستتب الأمن في الحجاز .

وفي عام ١٩٠٩ تعاون الشريف حسين مع الأتراك ضد الشريف الادريسي[١] ، الذي كان ثائراً في عسير ضد السلطة العثمانية . وقد بينت غزوة عسير للشريف أن تغلب العرب على الترك أمر ليس عسيراً ، حيث تمكنت قوة صغيرة للادريسي أقل عدة وعدداً من الأتراك ، من تكبيد الترك خسائر فادحة ، ولم يستطع الأتراك التغلب على هذه القوة الا بمساعدة الشريف ورجاله . كما بيّنت هذه الغزوةُ ، من جهة أخرى مدى ما يكنّه الترك من حقد على العرب .

---

(١) السيد محمد الادريسي : ينتمي الى العرب المغاربة الذين جاؤوا الى مكة للحج في اواخر القرن الثامن عشر ، كان طموحه يتجاوز شبه الجزيرة العربية ، درس في الجامعة الأزهرية بمصر وأقام مع زعيم السنوسيين في برقة وعندما عاد الى موطنه أقام حكماً اداريا في جبال عسير . وفي عام ١٩٠٩ ثار على الاتراك وسارع الى نجدة الامام يحيى في ثورته باليمن .

وهنا ، لا بد من الاشارة الى أن السلطات التركية كانت تجند العرب في صفوفها ، لمقاتلة أبناء جنسهم من العرب ، تحت راية الأتراك ، على اعتبار أن السلطان هو خليفة المسلمين . . وكان الولاةُ يضطرون لقيادة مثل هذه الحملات ، بحجة أنها حملات تأديبية للعصاة الخارجين على القانون وعلى قيادات الولايات العربية المحلية . . وقد أدرك الشريف حسين ، بعد حملة عسير ، الخطأ الذي ارتكبه بمساهمته مع الأتراك في محاربته أبناء قومه ، وكانت الفظائع التي ارتكبها الجيش التركي بحق السكان المدنيين من العرب ، عاملاً أساسياً في تغيير الخط السياسي الذي كان الشريف حسين يسير عليه . . فعندما شاهد ما يصنعه الأتراك ، من تمثيل في جثث القتلى اليمنيين ، قطع بينه وبين نفسه آخر حبل يربطه بالسلطات التركية ، وقال بعفوية صادقة وهو في ميدان المعركة : « ليس من هؤلاء خيرٌ للعرب » . وقد أسهم الأمير عبد الله في ذلك ، اذ كان يعرض عليه الجثث التي شواها الأتراك بالنار . . كما كانت تعرض عليه الجثث التي أدخل الأتراك أعمدة الخيام في أدبارها حتى خرجت من حلوقها ، كما عرض عليه ستة رؤوس قطعت عن أجسادها ، وقد وضع العضو التناسلي لكل رجل منهم في فمه . . كل هذه الأعمال اللاأخلاقية والوحشية من قبل الأتراك ، جعلت الشريف حسين بن علي ينفر منهم ، لان حقدهم المتأصل على العرب كان يكشف عن خبايا نفوسهم . . . وأن الموضوع لم يكن تأديب الخارجين على القانون ، بقدر ما كان حقداً عنصرياً أعمى على الأمة العربية وابنائها . . .

وحين عاد الشريف من هذه الغزوة الى الطائف ، علم أن الشريف ناصر بن محسن ـ أحد ذوي غالب ـ قد أشاع أن الشريف قد هزم وقتل . وفوجىء الشريف حسين بوجود الشريف ناصر الى جانب الوالي التركي في استقباله فأمر بطرده ، ولكن الوالي اعتبر هذا العمل تحقيراً للسلطان ، وساندت الحكومة التركية الشريف ناصر وطالبت الشريف حسين بتقديم الترضية اللازمة ، ولكن الشريف حسين رفض ذلك بإباء وحزم ، وحين وصلته برقية الصدر الأعظم التي يقول فيها : « ان الباب العالي لا يستطيع غضَّ النظر عن كسر الرغبة السنية التي تبلغتموها بالبرقية السابقة والتي نؤيدها بهذه مؤكدين انتظار جلالة السلطان النتيجة » . اجاب الشريف على الفور : « إني بعد ولي العهد في المكانة ، ولا اظن ان الرغبة السنّية تقصد الحطّ من شأن هذا المركز القديم . والباب العالي الذي لا يستطيع غضَّ النظر عن نفوذ الذات السنّية ، كيف يُوجِّه هذه التهمة الشائنة إلى رجل لم ينفض بعد غبار السفر عن رجله في مجد السلطان ؟ وان الباب العالي حر في ما يجب ان يفعله[1] » وحدثت قطيعة بين الشريف والباب العالي استمرت شهراً ثم تراجعت الدولة

(١) انظر كتابه حول هذه الحادثة « الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين » ص ٨٧ ـ ٨٨ .

عن موقفها مضطرة واعتذرت للشريف .

وخلال هذه المرحلة ، أظهر الحسين بن علي من قوة الشكيمة ، أكثر مما كانت تتوقعه منه السلطات التركية حين اختارته لهذا المنصب الرفيع ، فقد باشر فور عودته الى الحجاز ، باسترداد حقوق منصب الشريف التي فرّط بها أسلافُه . . وفرض سلطته الادارية وهيبة الحكم على منطقة الحجاز . .

وفي ربيع ١٩١٣ ، أصدر الاتحاديون قانوناً جديداً للولايات يقضي ، من جملة ما يقضي ، بتنفيذ أحكام التجنيد الاجباري . وقد عارض الشريف في تطبيق هذا القانون ، محتجاً بأن الحجاز بلد مقدس له مكانة خاصة ووضع ممتاز ، ولا يجوز أن يُطبق فيه ما يطبق على غيره من أقطار الدولة الأخرى .

واستمر الأخذ والرد بين الشريف وحكومة الاتحاديين حتى أوائل ١٩١٤ ، عندما صممت الحكومة على انتهاج سياسة الحزم في الحجاز . (بعد أن اتبعت سياسة القوة والشدة تجاه الاصلاحيين في بيروت والبصرة ودمشق والمدن العربية الأخرى) . وكان بدء العمل بالسياسة الجديدة تعيين والٍ جديد هو العميد وهيب بك .

كان وهيب بك ضابط ركن من أصل الباني ، يؤمن بمبادىء حزب الاتحاد والترقي إيماناً تاماً ، وتدفعه حماسة الشباب الى معالجة الامور بالحزم والعزم والصلابة . وقد جمعت له الحكومة بين سلطة الوالي وسلطة القائد العام للقوات العسكرية في الحجاز ، لتكون في يده السلطتان ، الادارية والتنفيذية . كما أن الحكومة عزّزت قواتها العسكرية في الحجاز بسبع كتائب مشاة أرسلتها مع وهيب بطريق البحر ، فبلغ ميناء جدة مع التعزيزات في شهر كانون الثاني ١٩١٤ . ولا بد من الاشارة الى أن تعزيز القوات العثمانية في الحجاز كان لهدفين :

الهدف الاول : سياسي ، والغاية منه فرض السياسة التركية على الشريف حسين .

الهدف الثاني : استراتيجي ، والغاية منه تعزيز مركز الاتراك العسكري في الجزيرة العربية .

جاء وهيب بك كما يقول الملك عبد الله في مذكراته « متنمراً » . وما كاد يصل حتى أظهر تشدّداً في اجراءاته وتصرفاته ، وأخذ يشجع شراذم الاتحاديين في الحجاز ، وأكثرهم من المجاورين[1] . وطلب أن تناط جميع الاحكام الداخلية في البلاد بالحكومة وأن لا تكون

---

(١) المجاورون : هم الحجاج الذين يفدون الى مكة ويمكثون هناك ، يدفعهم الى ذلك الشعور الديني ظاهرياً ، ولكن الكسب والارتزاق هو الحافز الاول ومعظم هؤلاء يكونون عادة من غير الاقطار العربية ولذلك يكون ولاؤهم دائماً للغرباء عن الامة العربية .

للشريف علاقة بها . وأخذ يتدخل في شؤون البدو وخلافاتهم ، وكانت من صميم صلاحيات الشريف . ثم أذاع أنه ما جاء الا لتطبيق قانون الولايات على الحجاز ، ولتمديد خط السكة من المدينة الى مكة ، وانه اذا مانع الشريف الحالي في تنفيذ هاتين المسألتين ، فالشريف علي حيدر مستعد للتنفيذ . وعندما بلغ القبائلَ العربية هذا الامرُ هاجت وماجت . وقد بدأ الهياج على الطريق بين جدة ومكة ، اذ أخذ الجمّالةُ ، الذين كانوا يعملون على نقل البضائع والمواد الغذائية من ميناء جدة الى مكة ، زهاء أربعة آلاف حمْل جمل من جدّة ، ولم يوصلوها الى أصحابها في مكة . فهاج تجار مكة والأهلون ، وهرعوا الى الشريف ، فأرسل رجاله الى قبائل البدو التي يعمل ابناؤها عادة في نقل البضائع على طريق جدة ـ مكة ، وأقنعهم بضرورة اعادة الأحمال المفقودة فأعادوها ، الا القليل . وقد قام الشريف بذلك ، على الرغم من أنه كان قد اعتكف في منزله ، وتوقف عن النظر في القضايا ، بعد أن أبلغ الحكومة في استانبول ، بأنه لا يتحمل مسؤولية ما يحدث في الحجاز . وأرسل وهيب بك الى التجار يقول لهم ، إن الحكومة مسؤولة عن الأمن ويجب عليهم أن يلجأوا اليه في المستقبل . ثم طلب من أهل مكة وجدة الدخول في سلك الجندية فامتنعوا . وطلب الجنودَ غيَر النظاميين الذين كانوا يخدمون مع الشريف ، لكي يقومَ جنودُه بتدريبهم على الاصول العسكرية النظامية ، ولكن هؤلاء رفضوا التحول عن أسلوب الخدمة التقليدي الذي ألفوه . وهكذا ظل طريق جدّة مغلقاً لا تسمح القبائل بالسير عليه . ثم قام رجال القبائل بنهب قافلة لتاجر هندي ثم قتلوه ، ونجا مدير الطائف التركي ـ وكان مسافراً مع القافلة ـ من القتل بصعوبة . وسطا عدد من الاشقياء على زورق محمل بالأرز والحبوب في ميناء جدة ونهبوا ما فيه وحطموه . ونتج عن ذلك أن الوالي اتهم الشريف بتدبير هذا الهياج . ولكن أعيان مكة ورجال الدين فيها ، قاموا يبرقون للحكومة المركزية احتجاجاً على الوالي وشكوى من تصرفاته . وتأزّم الموقفُ ، فقطع البدو خطوط البرق بين جدة ومكة وصادروا البريد . ورأى وهيب أن الوضع أصبح خطيراً ينذر بانفجار أشد ، فذهب الى الشريف يعتذر، ولكن الشريف أبى قبول الاعتذار . وخرج من جدة عدد من الجنود الأغرار يقصدون مكة ، فهاجمهم البدو وقتلوا خمسة منهم وفرَّ الباقون ، وساد الاضطراب في بلدة جدة وضواحيها . ورافق ذلك ارتفاع الأسعار في مكة . ثم قام الشريف فأرسل ابنه فيصل الى جدة لردع البدو وبث الاطمئنان في نفوس الأهلين .

استمرت الأزمة زهاء اسبوعين ، حاول وهيب خلالها أن يفتح طريق جدة ـ مكة بالقوة ، ولكن قبائل البدو هاجمت القوة التركية ومعها الدفتر دار[1] وقائد رجال الدرك ،

---

(١) أكبر موظف مالي في الولاية .

وحاصرتها على الطريق كما حاصرت النقاط العسكرية بين جدة ومكة . وامتنع سكان الاودية المحيطة بمكة عن جلب الخضار والفواكه والسمن والاغنام اليها . وتجمهر أهل مكة حول دار الحكومة ، ينادون بعدم تغيير امتيازات الحجاز ، وعدم تمديد خط سكة الحديد . وفي أثناء ذلك جاء الشريف الى الوالي ، فهتفت الجماهير تأييداً له ، ودخل الأمير على الوالي وقال له : « ها أنت ترى رغبة الشعب الحجازي في التمسك بحقوقه القديمة ، وبالشروط التي بويع بها السلطان سليم الأول بالخلافة ، فان أحببت عدم اعتبار هذا ، وكانت في يدك أوامر من الدولة بتطبيق قانون الولايات على هذه البلاد وسلخ امتيازاتها ، فأرنا هذه الأوامر التي لم تأتني عنها من الباب العالي أية اشارة . واذا كان المقصود هو اجراء تبديل في الامارة ، فهذا أنا سأبقى هنا الى حين قدوم الباخرة التي سأسافر عليها من جدة ، لئلا يقع ما تسند تبعاته اليَّ . »[1] .

ولم تنفرج الأزمةُ الا بورود برقية جوابية من الصدر الأعظم للشريف ، تؤكد عدمَ الاخلال بحقوق الامارة وبامتيازات الحجاز ، وان الحكومة لا تُلحّ في الوقت الحاضر على مد الخط الحديدي . ولم تلبث الأحوال أن هدأت بعد أن تليت البرقية في المسجد وأحيط الناس علماً بمضمونها .

٢ ـ الموقف السياسي العسكري قبيل الحرب العالمية الأولى :

ما كاد كتشنر[2] يغادر ميناء دوفر في انكلترا ، حيث كان يقضي اجازته ، متجهاً الى مقر عمله إثر سماعه نبأ نشوب الحرب العظمى في شهر آب ١٩١٤ ، حتى استدعي من قبل رئيس الوزراء الذي عينه وزيرا للحربية ، فما كان عليه الا أن يواجه مهمة اعادة بناء القوات المسلحة البريطانية باسلوب جديد يختلف عن الاسلوب السابق[3] .

وكان خطر النفوذ الديبلوماسي الالماني في تركية ، وطرائق مقاومة هذه المخاطر ، تشغل حيزا من تفكيره الذي كان مستغرقا كل الاستغراق في انجاز ما أوكل اليه من مهام .

---

(١) راجع مذكرات الملك عبد الله ص ١٠٦ .

(٢) كتشنر : ايرل هوراشيو هربرت كتشنر : ١٨٥٠ ـ ١٩١٧ قائد عسكري وسياسي بريطاني استعماري ، خدم في الجيش الفرنسي وفي فلسطين وقبرص ومصر وعين حاكما للسودان الشرقي ثم سردارا في الجيش المصري عام ١٨٩٢ ثم رئيسا لهيئة اركان الجيش البريطاني في حرب البوير ثم عين قائدا عاما للقوات البريطانية في الهند . بعد ذلك رقي الى رتبة فيلدمارشال وعين قنصلا عاما في مصر وحاكما فعليا لها حتى عام ١٩١٤ ثم عين وزيرا للحربية البريطانية . ارسل عام ١٩١٦ الى روسيا لتنظيم جيشها ولكنه غرق مع الطرادة التي كانت تقله في ظروف غامضة عام ١٩١٧ .

(٣) راجع سليمان موسى ـ الحركة العربية ص ١٤١ .

وكانت جمعية الاتحاد والترقي التي يشرف عليها الحزب الحاكم تدعي بأن تركيا تقف على الحياد .

هذه السياسة الحيادية لم تكن لتطمئن بال كتشنر . لذا رأى في هذه السياسة مجازفة كبيرة ، مما دفعه الى اقناع مجلس الوزراء بالموافقة على تنفيذ اقتراح ستورز[1] في منتصف ايلول ، وقد أدّت الصراحة التي تحدث بها الامير عبد الله الى ستورز ، بعد عودته الى مصر بدون رئيسه ، أقول ، أدّت الى تفهمه نتائج تذمر العرب[2] ، والى محاولته الاستفادة من تلك المشاورات التي كانت تتاح له فرصة اجرائها ، بصفته مستشاراً شرقياً ـ مع كثير من الزعماء العرب المقيمين في مصر . وهنا يوجه رسالة شخصية الى كتشنر يذكر فيها ما معناه : « هل لك أن تفوضني في التأكد من عبد الله عن الاتجاه الذي سيسير فيه العرب اذا دخلت تركيا الحرب : اذ أن من الواضح أن انحيازهم الى جانبنا ـ فضلا عن الاعتبارات الكبرى ـ سيقوي من موقفنا العسكري[3] » .

وعلى الفور أبرق كتشنر الى ستورز بموافقته على الاقتراح وتبنيه له ، ووافاه بالتعليمات التي تتفق مع طلبه ، وطلب منه الاستفهام من الامير عبد الله عن موقف أبيه (شريف مكة) في حال قبول تركيا دخول الحرب الى جانب ألمانيا ، ما اذا كان سيقف الى جانب تركيا أم أنه سيحالف بريطانيا ضدها . وكانت هذه التعليمات في الاسبوع الأخير من شهر أيلول عام ١٩١٤ ، أي قبل اعلان الحرب على تركيا بستة أسابيع .

وفي منتصف تشرين الاول ، أرسل ستورز رسولا مصريا أمينا « علي أفندي البزار » بشكل سري الى الحجاز ، استطاع أن يتسلل الى مجلس الامير عبد الله دون أن يلفت الانظار ، وبلّغه الرسالة وعاد الى القاهرة قبل نهاية الشهر ، حاملا معه جوابا كتابيا من الامير عبد الله[4] .

وفي الوقت الذي كان يبحث فيه الشريف حسين عن فرصة ، ليؤكد فيها سلطانه على الحجاز حتى ولو عصى الاتراك ، وصلت رسالة كتشنر التي وضعته في موقف حرج جدا ، وقد كان هذا قبل الحرب التي لم تكن تركيا تتوقع نشوبها بهذا الشكل الذي اجبرت فيه على خوضها ، ببضعة أشهر .

---

(١) ستورز : هو الكاتب الشرقي في دار القنصل العام البريطاني في مصر وفق ما جاء في مذكرات الملك عبد الله الصفحة ١١٨ .

(٢) راجع مذكرات الملك عبد الله ص ٩٨ ـ ١٠١ .

(٣) راجع رونالد ستورز ـ في كتابه : مشرقيات ـ لندن ١٩٣٧ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٤) راجع مذكرات الملك عبد الله ص ١٣٨ لقراءة نص رسالة ستورز .

وهنا تكبر المشكلة ويتفاقم الخطر ، ففي البدء كانت أوجه النزاع بين تركيا والشريف محصورة بالحجاز ، أما الآن وفي الوقت الذي أصبح احتمال اشتراك تركيا في الحرب ، وشيكَ الوقوع ، فقد أصبح النزاعُ متسعا وشاملا ، إذ أنه لم يعد بين الحجاز والدولة العثمانية فحسب بل بينها وبين الولايات العربية كلها .

واذا كانت تركيا ستضطر حقا الى خوض غمار الحرب ، أفليس من المحتمل أن يتيح انهماكُها فيها الفرصةَ للعرب ، تلك الفرصة التي انتظروها طويلاً ؟

هذه الظروف وضعت العرب في مفترق طريقين : إما الوقوف الى جانب تركيا في محنتها وكسب رضاها وعرفانها بالجميل ، وإما الثورة عليها ، فما هو الطريق الذي سيسلكه العرب[1] ؟ .

وتجلى الجواب على هذا السؤال في موقف الشريف حسين ، الذي قرر ارسال مبعوثين الى كبار الحكام العرب ، للاطلاع على حقيقة الشعور الوطني ، ومدى الاستعداد للثورة ، في نفس الوقت شجع كتشنر ـ بحدود ـ لابقاء الصلة بينهما . ثم كتب رسالة الى ستورز وعليها توقيع عبد الله الذي يظهر فيها رغبته في الوصول الى تفاهم مع بريطانيا العظمى[2] . في الوقت الذي لم يستطع ان يغير فيه موقفه الحيادي الذي يفرضه عليه مركزه الديني .

وتعمّد ذكر الحجاز وحده في رسالته ، وتجنب ربط البلاد العربية الأخرى بشيء ، وألمح الى أنه يستطيع كسب اتباعه القريبين الى جانبه ، في الثورة ضد تركيا في حال الاضطرار ، على شرط أن تتعهد انجلتره بتقديم مساعدة فعالة له . وفي نهاية تشرين الاول ١٩١٤ تلقى ستورز رسالة شريف مكة فأبرق نصها الى لندن مباشرة ، وقد أبلغ كتشنر نصَّها ، في الوقت نفسه الذي استلم فيه رسالة من صديقه القديم السير جون ماكسويل ، الذي كان حينئذ قائداً للقوات البريطانية في مصر ، وكان قد بعثها في ١٦ تشرين الاول ١٩١٤ من القاهرة ، ينصحه فيها بقوله : « . . . انني لا أعرف ما هي

---

(١) كان للملك حسين اتجاه استقلالي حتى قبل الحرب العالمية الاولى والدليل على ذلك ما جاء عن طريق المؤرخين العرب من أن بعض المبعوثين العرب الى استنبول مثل طالب النقيب وشكري العسلي وشفيق المؤيد العظم قد راسلوه وبايعوه عندما اراد ترؤس الحملة ضد الاتراك هذه الحملة التي سترفع عنهم نير الاستعمار التركي وقد ورد نص رسالة موجهة منهم الى الشريف حسين في مجموعة روسي حول اصول وتطور القضية العربية ـ طبع روما ـ ٤/٤/١٩١٩ من ص ٩ الى ١٠ (كما تكلم عن ذلك ايضا احمد عزت الاعظمي في مؤلفة « القضية العربية » المجلد الثاني ص ٥ ـ ٨ راجع حول هذا الموضوع . توفيق علي برو : العرب والترك . . ص ٢٣١ وص ٢٩١ ـ ٢٩٣ .

(٢) راجع النص في ارشيف وزارة الخارجية الانكليزية (F. O 371-237) ص ٨ .

سياسة وزارة الخارجية ، ولكنني أعتقد أنه يجب التقرب الى العرب المحيطين بمكة واليمن ، وتأليبهم على الأتراك »[1] وقد كان لهذه النصيحة وزن كبير بسبب عمل ماكسويل مدة طويلة في الشرق . وفي ٣١ تشرين الاول عام ١٩١٤ أبرق كتشنر الى دار الاعتماد البريطانية في القاهرة ، بنص رسالة لكي ترسل الى الامير عبد الله جوابا على رسالته ، وقد استهلها باعلان نبأ دخول تركية الحرب ، وكان ما تضمنته الرسالة وعداً قاطعاً للحسين ، بأن الحكومة البريطانية ـ في حال وقوفه هو واتباعه الى جانب انكلتره ضد تركية ـ تضمن له بقاءه في منصب شريف مكة ، واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، ووعدته بأنها ستحميه من كل اعتداء خارجي ، وبأنها ستساعد العرب عامة لنيل حريتهم ، شرط وقوفهم في صف انكلترا ، وتضمنت خاتمةُ الرسالة تلميحاً يشير الى الشريف بأن يطمئن الى اعتراف انكلترة به في حال مبايعته بالخلافة[2] .

ووصلت هذه الرسالة الى الامير عبد الله في ١٦ تشرين الثاني ١٩١٤ ، وهو وقت حرج كما سنرى بعد قليل ، ومضمون هذه الرسالة بعث الرضا والطمأنينة في نفس الشريف ـ لانها قدمت الضمانات الكافية التي طلبها ، بالنسبة لموضوع الحجاز ، وفي نفس الوقت بعث الامل في نفوس العرب في الولايات العربية الاخرى ، الامل في التحرر القومي رغم أن كلمات الرسالة جاءت ـ عن قصد ـ عامةً ، وقد غُررٍ عبدُ الله بما ورد فيها من ذكر « حرية العرب »[3] .

وفهم الشريف حسين من عبارات كتشنر ـ الذي كان مشهوراً حينئذ في بلاد الشرق الاوسط أكثر من أيٍّ انكليزي آخر ، كما كانت كلمته مقبولة دون تشكك ـ أقول فهم الشريف بأنها دعوة الى جميع العرب ، للقيام بالثورة التي بدأ الشريف حسين يوجه جهده الى تحقيقها .

عندئذ ارسل الامير عبد الله بتوجيه من والده جوابا وصل في اوائل شهر كانون الاول ١٩١٤ ـ الى القاهرة ، متعهداً فيه بشكل صريح وقاطع قبول الشريف حسين بتحالف سري مع انكلتره ، مع تأكيده على عدم مقدرته المجاهرة بعداء الاتراك قبل انهاء الامور

---

(١) سليمان موسى ـ ص ١٤٤ .

(٢) راجع مراسلات ستورز في ارشيف وزارة الخارجية البريطانية . F. O. 371-238.

(٣) جاء في رسالة ستورز التي نشرها سليمان موسى في المراسلات التاريخية : « فلو استحسن الشريف سيادتكم توصيل بشائر شروق شمس حرية الشعوب المطلقة لكافة اتباعكم وحاسبيكم في جميع الاقطار والبلدان او بالاحرى في جميع انحاء المعمورة » (المراسلات التاريخية ١٩١٤ ـ ١٩١٨ (الثورة العربية الكبرى) ص ٧٨ .

واتمامها ، وقد طلب امهاله بعض الوقت لتبين جميع الاحتمالات ، وتجهيز نفسه للثورة كما وعد ستورز بالكتابة له ثانية .

كان هذا الجواب نهاية الفصل الاول من التنسيق العربي الإنكليزي .

أما بداية الفصل الثاني فكانت بعد ذلك بثمانية أشهر ، أي في شهر تموز التالي عقب انتهاء الحسين من استشاراته ومباحثاته مع الزعماء العرب[1] . وقد بدأ هذا الفصل بمذكرة من الشريف الى السير هنري مكماهون وكانت المذكرةَ الاولى من المذكرات الدبلوماسية الهامة ، التي أصبحت تعرف باسم مراسلات حسين ـ مكماهون .

وأما بالنسبة لقضية آمال العرب القومية ، فلا بد أن تقحم في فلك السياسة الاوروبية بمجرد انضمام الدولة العثمانية الى جانب الدول المركزية ، وقد برز العرب ، وأصبح موقفُهم موضعَ اهتمام الحلفاء المباشر ، وخاصة بريطانية التي هُدّدت مصالحها بسيطرة تركيا على بلاد الشام ، هذه المصالحُ التي تركزت في نقاط حيوية ، منها : قناة السويس ، ورأس خليج العرب باعتبارهما الطريقين الأساسيين للوصول الأمين الى الهند ، درة التاج البريطاني ، ولحقول الزيت الكبيرة التابعة للشركة الانكليزية ـ الايرانية ، وامارة الكويت ذات المركز الاستراتيجي الهامّ للانطلاق الى العراق .

لقد كان ساحل البحر الاحمر الطويل ، يتيح كثيرا من القواعد الخفية للاتراك ، هذه القواعد كانت تستعمل في بثّ الالغام او ارسال الرسل منها الى مصر والسودان ، وما وراءهما من بلاد افريقية ، ليوزعوا الاسلحة ويثيروا السخط ، وكان هذا يشكل خطراً قائماً في شبه الجزيرة العربية ، خطرا لا يمكن اغفاله .

أما عدن ، فقد كانت مهددة من قبل الحامية التركية المتمركزة في اليمن ، والمؤلفة من فرقتين قويتين .

من الناحية السياسية فقد كان اعلان الجهاد ، الذي كان يدعو اليه الخليفة السلطان كافيا لان يحيل الحجاز ـ في حال موافقة الشريف حسين ـ الى اتون تتأجج فيه نار الدعاية ، وتندلع فيه لتستفز البلاد العربية لا بل والشعوب الاسلامية الكثيرة غير العربية التي تخضع لحكم الحلفاء ، أو المتاخمة لمناطق نفوذهم .

وأما أشد هذه المخاطر خطرا فهي « الدعوة الى الجهاد » ، اذ كان من المحتم ، في حال انضمام تركية الى الدول المركزية ، اثارة العالم الاسلامي على الحلفاء .

---

(١) المراسلات التاريخية ١٩١٤ ـ ١٩١٨ الثورة العربية الكبرى ، ونشر سليمان موسى ، المجلد الاولى ص ٢٨ ـ ٢٩ وكان الانكليز قد احتلوا البصرة في ذلك الوقت من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٤ كما سيجيء فيما بعد .

وبالتـالي اعـلان السلطـان بصفتـه الخليفـة والامـام الاعظـم ـ أن تركية ، الدولـة الاسلامية الاولى ، والمقر الرئيسي للخلافـة ، تحـارب دولا نصرانية ، ترمـي الى تدمـير تركيا ، كما تهدِّدُ الاماكن المقدسة وتحيقها بالخطر ، وعلى المسلمين ان يدافعوا عن قدسية دينهم ومقدساتهم . وان انضواءهم تحت راية الدين ـ كما حصل بالنسبة لثورة المهدي في السودان ودفاع كل من تونس ومراكش وطرابلس تحت راية الدين ـ ضد التغلغل الاوروبي ـ هو اقوى دافع يخلصهم من الدول الاوروبية ، كما انه لا يزال يحتفظ بقوته القديمة على اثارة النفوس ، حتى لو كان النجاح جزئياً ، اذ لا يجب ان تتجاهل انكلترا نحو سبعين مليونا من المسلمين في الهند ، وستة عشر مليونا في مصر والسودان ، كما انه خطرٌ كفيل بأن يهدد الحلفاء ويعرضهم لاخطار شديدة .

كما لا يجب أن تتجاهل فرنسا عشرين مليونا في أفريقية ، وكذلك في روسيا داخل حدودها .

أما أشـدُّ الأخطار هولاً ، فكان ذاك الخطر الذي كانت مصر معرضة له . كان أمر الثورات المحلية في حال نجاح الدعوة الى الجهاد أمرا محتملا ، وهو أمر مقدر في أسـوأ الاحوال ، وكان قيامُ الثورات في الحـدود الشمالية الغـربية للهنـد ، اذا ما أثـارت بلادَ الافغان ، من الامور التي تشكل خطرا ، ولكن أشد الاخطار المحيقة بالدول الاوروبية هو مصر ، اذ أن قيام هذه الثورات سيثير الخطر الكامن في وجه بريطـانية او فرنسـة او روسية ، وسبب هذا أن الخطر الذي كان يهدد مصر كانت له نتائج متعددة مخيفة ، فاغلاق قناة السويس يقلق بريطانيا ويصيبها بالشلل ، والعجز في مركز من مراكزها الحيوية .

وهنا قسم العالم العربي الى منطقتين متمايزتين :

١ ـ المنطقة الاولى : نطاق خارجي يتألف من البلاد التي تسكنها شعوب متعددة غير عربية .

٢ ـ والمنطقة الثـانية : دائـرة داخلية تتـألف من بلاد عربية ، تُعتبـر مصرُ مركزَهـا الجغرافي .

ولا يمكن القيام بهجوم بري على قناة السويس ، الا من خلال مناطق يقطنها العرب ، ومن الوسائل التي يمكن اللجوء اليها لتفادي هذا الخطر ، استمالـةُ العـرب الى صفـوف الحلفاء ، وهذا ما كان يدور في بال كتشنر عندما بعث برسالته الى الشريـف . وهنا دخلت القضية العربية تلقائيا في نطاق السياسة الاوروبية بعد اشتراك تركيا في الحرب ، وقد بيّن انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » بايجـازه المعـروف هذه اللحظـة التـاريخية الهامـة ، نقتبسها منه :

« صدر قرار الحكومة التركية بالتعبئة العامة في اليوم الثاني من شهر آب في ١٩١٤ ، وبدأت باتخاد اجراءات معادية للحلفاء ، تحت ستار قرار اعلان حيادها ، وقد أدّت هذه الاجراءات الى قلق بالغ في القاهرة ، التي كانت بلاد الشام من أهم الاقطار المحيطة بها من الناحية الحربية ، اذ أن حاميتها كانت تتألف من فيلقين في كل منها ثلاث فرق عسكرية ، أو أربع ، ويبلغ مجموعها في الاحوال العادية ما بين ستين وسبعين[١] الف رجل ، وعند اشتراك تركيا في الحرب ، تألف من هذه الفرق جيش عرف باسم الجيش الرابع الذي كان مقر قيادته دمشق ، وكان الهدف الرئيسي منه القيام بهجوم على مصر .

وقد اخبرت وزارة الخارجية البريطانية من قبل دار الاعتماد البريطاني في القاهرة ، أن بعض الفرق تتجمع سراً قرب الحدود المصرية .

وكانت بعض الفرق تتحرك ، كما كانت ترسل الاسلحة والنقود الذهبية لتسليح قبائل البدو في جنوبي بلاد الشام وسيناء ، وطيلة شهر تشرين الاول ، والسفارة البريطانية تبرق بتقارير حول هذه التحركات المقلقة ، وحول مد القبائل بالمعونة المالية للهجوم على مصر ، ونشاط الوعاظ الستمائة الذين كانوا مجتمعين في حلب ، لينتشروا منها الى جميع انحاء بلاد الشام ومصر ، بغية تأليب السكان المسلمين على بريطانيا .

وقد وصلت الى الشام جماعة من الضباط الالمان بقيادة العقيد كربس فون كريسنشتاين ، وتسلموا مراكز معينة في هيئة اركان الجيش الرابع ، كما وصلت جماعة من سلاح المهندسين وبدأوا يعملون في جنوب الشام في الطرق والسكك الحديدية المتجهة الى الحدود المصرية .

وقد شرع الجيش الثاني عشر التركي ـ الذي كان يشمل فرقة جميع أفرادها تقريباً من العرب ـ بالانتقال من الموصل الى حلب ، وقلقت بريطانيا كثيرا بسبب المناشير التي كانت توزع في بلاد الشام ، والتي تحضّ الجنود المسلمين في قوات الحلفاء على الثورة ، دفاعاً عن الاسلام ، فأبرقت في ٢٢ تشرين الأول ببرقية تتضمن : أن منشوراً عنيفاً جدا قد وزّع على الناس ، وأن بضعة آلاف من نسخ هذا المنشور في سبيلها الى أن تهرب الى مصر عن طريق الشام .

أما السنوسي[٢] على الحدود الغربية لمصر ، فقد كان يعلن صداقته لبريطانية ، مع

---

(١) كان عدد الحامية البريطانية بمصر في وقت السلم اقل من ستة آلاف رجل وكان عدد الجيش المصري يقارب ثلاثة عشر ألفا اكثرهم كانوا معسكرين في السودان (راجع انطونيوس يقظة العرب ـ دار العلم للملايين ط ٤ ـ ١٩٧٤ ـ ص ٢١٦ ـ ٢١٧) .

(٢) احمد شريف السنوسي : ولد عام ١٨٨٠ وهو شيخ الطريقة السنوسية من سنة ١٩٠١ الى سنة ١٩٢٥ .

العلم أن علاقاته وثيقة بالاتراك وبسلطان دارفور ، الـذي كان يقـود جموعـا غفـيرة من المسلمين المتحمسين ، وكان ذا نفوذ بين الزعماء المسلمين على حدود مصر والسـودان ، وبسبب الأعداد الكبيرة من الاسلحة والعتاد التي كان يملكها ، فكان ما يزال منصرفا الى محاربة الايطاليين ، وقد نجح في صدّهم ، وحصرهم في شريط ضيق على الساحل ، حيث استقروا هناك يحمون أنفسهم بمعونة مدافعهم البحرية ، وقد وافتـه ـ وبسرعـة ـ رسـل الأتراك يعرضون عليه المال والمنصب واللقب ، ويبلغونه طلب الخليفة باعـلان الجهـاد باسمه . وكان كل ذلك ينطوي على خطر متوقع يصيب مصر .

ووصل الشريف حسين الى حد من السيطرة ، يتيح له ـ لو أراد ـ أن يحشد جيشا كبيرا يشارك في الهجوم على مصر ، أما بالنسبة للاتراك في شبه الجزيرة العربية ، فقد كان لهم حامية مؤلفة من أربع فرق موزعة على الحجاز وعسير واليمن .

وكما قلنا ، فان الشريف حسين كان تحت يده جيش كبير ، وكان في مقدرته أن يجند أربعين ألفا من الجنود المسلّحين بالبنادق من بين رجال القبائل . ولم يكن للاتـراك أية سلطة عليهم بدون مساعدة الشريف حسين ، وقد كانـت القبائـل شديدة الشكيمـة ، صعبة المراس ، بحيث كانت الحامية التركية المتمركزة في الحجاز وعسير ، والمؤلفـة من فرقتين لا تجرؤ على المخاطرة في الخروج والتوغل في البلاد الا نادرا ، كما كانت في اكثر الاحيان تبقى محصورة في داخل أسوار حصونها ومراكزها .

وكان لا بد للاتراك من ضمان تعاون الشريف حسين معهم ، لكي يُعبّئوا هذه القوى القليلة ، ولكي يستطيعوا بمؤازرته اطلاق حاميتهم المعزولة ، من عقالها واستخدامها ، ولتسليح عدد كبير من رجال القبائل لكي ينضموا الى قوات الحملة على قناة السويس .

الى جانب السنوسي كان هناك الادريسي الذي كانت قيمته العسكرية محصـورة في نطاق محلي .

وكان يتيح له موقفه أن يهدد الاتراك من المؤخرة ، اذا ما هاجموا عدن ، وكان يفيد الحلفاء في الساحل ، اذ يستطيع أن يحول دون استخدام ساحل عسـير الطـويل قاعـدة معادية للحلفاء ، الى جانب عرقلته للمواصلات التركية بين الحجاز واليمن .

كان الهجوم على عدن متوقعا ، ومما يزيد في فرص نجاح الهجوم، مجرد موافقة الامام عليه ، اذ كان موقف الامام ذا أثر رئيسي في عدن . وكانت الحامية التركية هناك مؤلفة من فرقتين ، تتكوّنان من قوات أكثرها ذات تدريب قوي ومراس شديد ، وتختلف عن حامية الحجاز في أنها على صلات مودة واضحة مع السكان .

هذا بالنسبة لليمن وعدن ، أما بالنسبة للمناطق المجاورة للخليج العربي ، والتي كان يحكمها كل من ابن سعيد وابن الرشيد ، السيدين الحاكمين فعلا في الجزء الغربي من شبه الجزيرة ، واللذين كانا متحررين من أسر الموظفين الاتراك والحاميات التركية ، ولكنها غير متحررين من الحزازات والضغائن التي تتحكم في موقف كل منهما . وبمشاعر الكراهية والعداوة للاتراك .

بينما استعان حكام شمّر آلُ الرشيد بالاتراك ، فأدى ذلك الى تحالف بين الفريقين ، وبالتالي لم يقم أحدهما باعلان نقضه ، ولهذا فانه من المفروض ـ في حال نشوب الحرب أن ينضم ابن الرشيد حتما الى جانب الاتراك[1] .

لقد تجلى اعلان الدولة للجهاد في الشهر الاول من اشتراك تركية في الحرب بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : حينما اصدر شيخ الاسلام في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٤ ، فتوى أعلن فيها ذلك الرئيسُ الروحي صاحبُ أرفع منصب ديني في الدولة العثمانية ، أنه فرضُ عينٍ على جميع المسلمين في العالم ، ومن بينهم الذين يعيشون تحت حكم بريطانية وفرنسة وروسية ، أن يتّحدوا لمقاومة هذه الدول الثلاث عدوّة الاسلام ، وأن يحاربوها ويحاربوا حلفاءها وأن يمتنعوا ـ مهما تكن الحال ، حتى لو تعرضوا لعقوبة الاعدام ـ عن مساعدة دول الحلفاء في هجومها على الدولة العثمانية والدول الحامية لها وهي ألمانية والنمسة والمجر[2] .

المرحلة الثانية : بدأت حين أعلن السلطان بلاغا للجيش والاسطول في اليوم الحادي عشر من الشهر نفسه ، حضّ فيه على الحرب من أجل تحرير المسلمين المستعبدين ، ومن أجل الدفاع عن الدولة المهددة ، وأخيرا جاءت :

المرحلة الثالثة : في اليوم الثالث والعشرين حينما صدر بيان للعالم الاسلامي ، وقعه شيخ الاسلام وثمانية وعشرون عالماً من ذوي المناصب الدينية الكبيرة . وكان البيان مصدرا باذن السلطان بنشره . ونص الاذن : « إنا نأمر بأن يوزع هذا البيان على جميع الاقطار الاسلامية » .

وقد أهاب البيان بجميع المسلمين في العالم ـ سواء أكانوا من رعايا دول الحلفاء أم لم

---

(١) راجع جورج انطونيوس . يقظة العرب ـ دار العلم للملايين ص ٢١٧ . ٢٢٠ .

(٢) راجع مذكرات الملك عبد الله بما يخص فتوى الدعوة الى الجهاد ص ١٤٢ ـ ١٤٧ .

يكونوا ـ أن يطيعوا كتاب الله وأوامره ، كما فسرتها الفتوى الشريفة ، وأن يشتركوا في الدفاع عن الاسلام والاماكن المقدسة .

هل كان هذا كل شيء ! كلا . . . اذ أعقب البيانات الثلاثة الرسمية هذه ، سيلٌ من أنواع الكتابة المختلفة لتأييدها ، نشراتٌ دورية ، ونشراتٌ في كتيبات وكراريس ، وجميع أنواع المطبوعات ، وقد صيغت بشكل خاص للتأثير في الجماهير التي تعتنق الاسلام ، والتي كان مؤلفوها من الالمان ومن الاتراك ، وقد كتبت بجميع لغات العالم الاسلامي ، وانتشرت منها ملايين النسخ في انحاء الدولة العثمانية ، وهُرِّبت الى مصر والسودان والهند وايران وافغانستان وماوراءها . كانت جميع هذه المناشير مجمعة على أن الاسلام معرض للخطر ، بسبب أطماع دول الحلفاء ، وأن الجهاد في سبيل الدفاع عن الاسلام ، انما هو فرضٌ أمَرَ الله به كلَّ مؤمن ، فلا يجوز له أن يتهرب منه ، ولكن النشرات كانت تختلف اختلافاً كبيراً في اسلوبها وفي مضمونها . فكان بعضُها يحضُّ جموع الجنود على الفرار من جيوش الحلفاء ، وبعضها يدعو الى القتل والاغتيال ، وغيرها من الاعتداءات الفردية . وأيدت هذه الكتابات ، بالبعثات ، لتزيد من تأثيرها على النفوس ومن حرارتها ، وكان الرسل من جميع الفئات : من الوعاظ المتجولين والعلماء ، والفقهاء ، والمحرضين ، والمستشرقين الالمان ، يرحلون الى جميع الجهات التي يستطيعون الوصول اليها . وتسلل بعضهم الى مصر والسودان والبلاد الافريقية الاخرى التي تحت تحكم حكم الحلفاء .

كان الهدفُ الرئيسي لهؤلاء ، الدعوةَ الى الجهاد واستمالةَ الشعوب الاسلامية من غير الاتراك الى تلبية هذه الدعوة ، كالهنود والافغان والايرانيين ، وكان الهدف الرئيسي من استمالة العرب أنهم كانوا يحتلون رقعة جغرافية واسعة ، تمكنهم من مضايقة الحلفاء ، بينما ينحصر الفلاحون الاتراك ذوو الطاعة والتدين العميق في رقعة من الاناضول ، لهذا دعي العرب الى الجهاد بقوة ونشاط ، وأُشعروا بهذا الواجب العظيم المقدس ألا وهو الدفاع عن الاماكن المقدسة .

وصل عرض كتشنر بالدعوة الى الجهاد ، الى الشريف حسين في ٣١ تشرين الاول عام ١٩١٤ ، في الوقت الذي كان يمضي فيه الشريف في طريقه بحرص وحذر . وقد جعله هذا العرض أقرب الى التحالف مع بريطانيا ، وعصيان الدولة العثمانية ، واعلان الثورة العربية ، والمضي في السير الى جانب تركيا ، ولكن كما قلنا فقد كان يسير ببطء وحذر جعله يمهل القيام بهذه الخطوة لان الوقت لم يحن بعد ، ولا بد من التمهيد أولا باجراء مباحثات لا بد منها ، مع العرب القوميين في الشام ، والعراق ، ومع جيرانه في جزيرة العرب ، ليعرف مدى التأييد الذي يستطيع الاعتماد عليه .

وكانت الحيطة اللازمة للمحافظة على سرية الاتصالات ، وبالتالي بعدُ المسافات ، يتطلبان شهورا طويلة لوضع الخطط .

استمرّ هذا السير البطيء ، لازمه ضغطُ الدولة العثمانية لتحصل على تأييد الشريف في الدعوة الى الجهاد ، ومؤازرته الايجابية ، فكانت الرسائل والبرقيات تتوالى عليه من القسطنطينية ، من الصدر الأعظم ومن انور وطلعت وغيرهم من كبار الشخصيات، كما حثّه جمال « القائد العام للجيش الرابع في الشام » على أن يدعو الى الجهاد دعوة صريحة عامة ، وأن يبعث براية الرسول الى دمشق ، وأن يحشد جيشاً من قبائل الحجاز .

وكان الحسين أدهى وأمهر من أن يتلاعب به الاتراك ، وتمّثل دهاؤه وذكاؤه وحنكته ، في ردوده على مطالبتهم له بتأييد الدعوة الى الجهاد ، اذ كانت هذه الردود حماسية تكتسي حللا من النثر المليء بالاطناب والغموض .

ولقد ورد في رسائله ، أنه سيؤيد الدعوة الى الجهاد بكل قلبه ، متمنياً أن تكلل بالنجاح ، أما الموافقة والتأييد العلني فأمر يخشاه ، ولا سبيل اليه لانه يخشى انتقام الاعداء وشرهم ، لان الاسطول البريطاني مسيطر على البحر الاحمر ومدينة جدة ، وسواحل الحجاز الطويلة كلها تحت رحمته ، ولا بد أن تنتقم انكلترا في حال دخوله في حملة الاعلان ، ولا بد أن تحاصر موانيء الحجاز وأن تقذفها بالقنابل ، وبهذه الحالة ستنقطع المؤن عن طريق البحر ، ويقع السكان في أزمة الطعام التي لا بد وأن تتحول الى مجاعة ، قد تؤدي الى ثورة القبائل ، ولا بد ان السلطان بحكمته مقدر لهذا الامر .

ورغم الضغط الشديد من قبل الاتراك ، لم يقم الحسين بأية خطوة نحو الدعوة الى الجهاد ، غير أنه كان يوافق على طلبات الاتراك ليرضيهم ، وكان شديد الحماسة بموافقته ، وهنا اضطر الاتراك على الرضوخ لادعائه . ولكنه كان من حين الى حين يقترح تعديلات لهذه الطلبات التي لم تخطر لهم على بال ، فاقترح اخراج راية الرسول ، وهي عبارة عن قطعة من القماش عرفت بهذا الاسم ـ أمر باخراجها في موكب رائع ، وبارسالها في احتفال مهيب الى دمشق ، ليتبرك بها الجيش الذي كان يوشك أن يغزو مصر .

وأقدم على خطوات تكفل حشد جيش من المجاهدين من قبائل الحجاز ، وأرسل أبناءه ليشرفوا على هذا التجنيد ، وليكون وجودهم دليلا على اهتمامه بالامر ، واتخذ في الوقت نفسه مبعوثين في الخفاء ، يحملون رسائل منه الى الادريسي والامام يحيى وابن سعود وابن الرشيد ليسبر غورهم ، وليعرف موقفهم من الاتراك ، وليوضح لهم سبب امتناعه عن تأييد الدعوة الى الجهاد .

ومن كانون الثاني الى آذار عام ١٩١٥ كان الحسين يتلقى تشجيعاً خفياً من مصدر بريطاني آخر هو السير ريجينالدونجت[1] الحاكم العام للسودان ، والـذي كان قد قضى ثلاثين عاماً في حكومة السودان ، واكتسب معرفة وثيقة بالسياسة الاسلامية المحلية المعقدة ، ودفع ونجت على عهدته الشخصية السيد علي الميرغني[2] الذي كان له مقام ديني كبير بين العرب في السودان ـ الى أن يبعث برسالة ودية غير مقيدة بأي تعهد الى الشريف حسين ، وكان قد كتبها باسلوب يحثه فيه على أن يعلن سياسته ، وأجاب الشريف حسين على هذه الرسالة التي عرف مصدرها ، اجابة ودية ، وصريحة بعض الصراحة ، متحدثاً فيها عن أمله في الخلاص من الاستبداد التركي ، وعن معارضيه في ذلك ، وأجابه السيد علي باقتراح ايجابي يقول فيه : أنه صديق القائد العام المصري، ويطلب منه أن يخبره عن الطريقة التي يستطيع بها القائدُ العام أن يساعده ، وسيسعى بما لديه من دالّة عليه لكي يجيبه القائد على طلبه .

كان الحسين لم يبدأ بمشاوراته عندما وصله هذا الاقتراح ، الذي كان سابقاً لأوانه ، وأجابه اجابة فيها تحفظ ، وأضاف في ذيل الرسالة أنه يسره أن يتلقى مثل هذه الاقتراحات التي قد يقدمها « صديقه » ، وردّ عليه السيد علي قائلا : لو أن الحسين أوضح ما يريد لربما استطاع هذا الصديق أن يزوده بالمال والسلاح والذخائر .

ولم يمض الحسين في توضيح رغباته ، ولكن رسله وصلوا بعد ذلك ببضعة أسابيع في شهر نيسان ، ليعرفوا من ونجت الموارد المتوفرة في السودان ، على الرغم من أن هذه المراسلات لم تصل الى نتيجة حاسمة ولكنها شجعت الشريف حسين تشجيعاً كبيراً .

وقد أظهرت له أن سياسته تلقى تأييداً من زعيم المسلمين في السودان ، ولما كان هذا يعمل بوحي من ونجت ، كما قدر الحسين من قبل ، فان ذلك قوّى ثقته في اخلاص بريطانيا وفي عزمها على محالفته .

كانت تركيا تبغي من وراء دعوتها الى الجهاد ، إضرامَ النار في العالم العربي وتهييجه ، وقد أثارت أعذارُ الشريف حسين غضبَ الاتراك ، رغم أنها كانت مفحمة ، مما أدى الى تفكيرهم بعزله ، علىَ أن يخلفه أمير آخر لمكة يكون أسلس قياداً منه ، وصدرت

---

(١) السير فرنسيس ريجينالدونجت (١٨٨١ ـ ١٩٥٣) جنرال بريطاني وحامل رتبة سردار في مصر خلف كتشنر كحاكم عام للسودان عام ١٨٨٨ وكسر دار للجيش المصري حتى عام ١٩١٦ وانهى خدمته العسكرية كمفوض سام في مصر عام ١٩١٦ الى عام ١٩١٩ ، ومنح لقب سير عام ١٩٢٠ .

(٢) علي الميرغني . زعيم طائفة الختمية في السودان . تلقى علومه في مصر ثم نشط في نشر دعوة الختمية . عمل على الوحدة مع مصر وانهاء الحكم البريطاني في السودان .

الأوامر الى « وهيب بك » والي الحجاز ، ليمهد السبيل سراً لاعتقاله بحيث لا يثير ثائرة القبائل ، وفي نفس الوقت وجهت اليه دعوة تفيض بالرقة لزيارة دمشق لكي يتباحث مع جمال باشا .

وكان الاتراك يبذلون جهداً كبيراً لاقناع العرب ، بأن الشريف يؤيد الدعوة الى الجهاد ، وكانت الأوامر تقضي باعلان هذه الكذبة دون تحرج أو تحفظ في مساجد بلاد الشام والعراق ، جمعةً بعد أخرى ، وتكررت البيانات التي تتضمن هذا ، وحسبنا مثل واحد لتوضيح البيان الذي نشرته صحيفة « الاتحاد العثماني » التي تصدر في بيروت في عددها المؤرخ بـ ٢٩ كانون الاول وهذا نصه :

« لقد نشرنا أمس نقلا عن مصادر رسمية أن الامير عبد الله ابن شريف مكة قد تطوع للعمل في سبيل الجهاد ومعه فرقة كبيرة من رجال القبائل الحجازية . وبوسعنا الآن أن نؤكد ان شريف مكة قد اعلن الجهاد في جميع انحاء الحجاز ملبياً بذلك رغبة الخليفة ، وان القبائل تستجيب من كل ناحية لهذه الدعوة باسلحتها الكاملة »

هكذا امتلأت الصحف في تلك الفترة بمثل هذا التزوير ، وهذه البيانات الكاذبة ، كما لفقت قصة تقول بأن الشريف قد قبل أن يزور دمشق « ليتباحث مع أحمد جمال وليعرب عن اخلاصه للدولة العلية » . ولكن الحسين كان قد عاش في القسطنطينية زمناً طويلا جعله يعرف دون أي ارتياب ما يمكن أن تخبئه له زيارة دمشق .

ونفس الوسائل اتبعت في العراق ؛ اذ أمر رجال الدين باصدار نشرات تحضّ على الدعوة الى الجهاد ، وأقيمت المراسم الدينية وعرضت فيها آثار باقية في أضرحة النجف وكربلاء لاثارة حماسة الناس مثل : السيف الذي كان منذ ثلاثة عشر قرناً سيف الشهيد حسين بن علي أمير المؤمنين ، والعلم الذي يقال إنه راية العباس عم النبي ، واستخدمت صحيفة « صدى الاسلام » التي تصدر في بغداد وسائل لنشر مثل هذه البيانات مع غيرها من الصحف . كذلك تم نفس الامر في بلاد الشام . وأرسلت الهدايا الى الحكام العرب في شبه الجزيرة العربية .

وأثمرت المباحثات التي أجريت مع ابن الرشيد الذي كان تواقاً الى التحالف مع الاتراك - على الاقل - ليضمن تأييدهم له على ابن سعود الذي كان يخافه ويخشاه ، نفس الشيء كان مع الامام يحيى الذي كان يعرب بكل وسيلة عن عزمه على البقاء حليفاً للاتراك ، وأما الادريسي فلم يكن ثمة أي أمل في استمالته نحو الأتراك ، ولهذا السبب اغفلوا شأنه ، وكذلك كان الشيخ مبارك بن الصباح حاكم الكويت الذي ربطته معاهدة

منذ عام ١٨٦٩ مع بريطانية . والذي ما إن اشتركت تركية في الحرب حتى أبرم مع بريطانية حلفاً عسكرياً .

أما بالنسبة لابن سعود فلم يستطيعوا أن ينالوا منه وعداً واضحاً ، وكانت حجته أنه يخاف من احتمال مهاجمة بريطانيا للساحل الذي يقع تحت حكمه على خليج العرب ، ولكن الحقيقة غير هذا ، اذ أنه كان متحالفاً مع الهند ويجري اتصالات كثيرة معها . وقد استصوب رأي الشريف برفضه للجهاد واثنى على موقفه .

اذن نخلص من هذا كله ، الى أن الحكام الخمسة الذين يحكمون الجزيرة العربية كانوا يختلفون من حيث تحالفهم وأهواؤهم .

فابن الرشيد والامام يحيى آزرا تركية مؤازرة فعالة ، وأما الشريف وابن سعود والادريسي فقد مالوا الى ما عرضته بريطانية عليهم ، وأخذوا ينتظرون أن تتحول هذه العروض بحيث تتجسد في روابط وثيقة قبل أن يعلنوا الثورة .

وكما سعت تركيا الى نشر دعوتها في آسيا ، كذلك سعت الى نشر دعوتها في أفريقيا والاقطار العربية ، وطاف الاتراك في انحاء النيل ، وتسلل الرسل خفية الى السودان ومصر يحضون على الثورة .

وترأس اخو انور باشا بعثةً توجهت الى السنوسي ببرقة، حاملةً معها الهدايا وواعدة اياه بالجاه والمنصب .

ولم يعرف مدى تغلغل الرسل في أوساط افريقية ، ولكن آثار جهودهم اكتشفت فيما بعد في السودان وفي الغرب وحتى دارفور .

وفي شهر كانون الاول عام ١٩١٤ أرسلت راية النبي الى المدينة ، وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٤ نشر بلاغ في بلاد الشام فحواه : أنه نتيجة لاعلان الجهاد الاكبر ، جرى احتفال مهيب عند قبر الرسول ، شهده عشرون ألفاً من المؤمنين ، وقد خرجت راية النبي بموكب يليق بها تمهيداً لنقلها الى دمشق لكي تبارك الجيش الباسل ، وفاز عميد آل الرسول وأكبرهم سناً السيد علوي بافقيه وابناؤه الثلاثة بشرف نقل الراية ، وبعث برقية الى جمال باشا تصدرت الصحف في ذلك الوقت وهذا نصها :

« بالرغم من أني تجاوزت السبعين ، وتلبية لما فرضه الله من الجهاد ، فاني أقدم ومعي أبنائي الثلاثة لنجاهد في سبيل الله عز وجل ، حاملاً باحدى يدي راية الرسول المشرفة ، وباليد الأخرى كتاب الله الذي فرض الجهاد على المؤمنين كافة . ان هتافات عشرين ألفاً

من المسلمين ودعواتهم ترن في أذني وأنا أتوجه الى دمشق ، وملء نفسي الاخلاص والرغبة في أن أموت شهيداً لاعلاء كلمة الله . ان أرض الحجاز ومن فيها من القبائل جميعاً قد لبت نداء خليفتنا المعظم »[1] .

في ١٥ كانون الاول ١٩١٤ وصلت الراية التي كان في استقبالها ، جمال باشا وهيئة اركان حربه ، والوالي وأعضاء مجلسه ، وكبار ذوي المكانـة الدينية ، ومندوبون عن بقية أنحاء بلاد الشام ، وجمهور غفير من الاعيان وأهالي المدينة . وقد استقبلت بكل مظاهر الحفاوة والتبجيل والتعظيم ، وأقيمت لها المراسم حيث رفعت الراية على المنصة ، وأدى حرس الشرف المؤلف من كبار ضباط الجيش التحية برفع أسلحتهم ، كما أدى جمال باشا التحية ثم ركع وقبل طرفها ، بينما كان الجمهور يهتف « الله أكبر » ، ثم سار الموكب وقد اشتركت فيه وحدات عسكرية من مختلف الاسلحة بموسيقاها ، وخصص مكان بارز في الموكب لجماعة قليلة من الجنود المجهولين ، قيل عنهم أنهم هاربون من الجيش المصري . ونقلت الراية الى القدس وهي اقدس مدينة عند المسلمين بعد مكةّ باحتفال مماثل ، واخذوا قسطاً من الراحة ، كما صلوا صلاة الجمعة في نابلس .

وفي ٢٠ كانون الاول وصلت الراية الى بيت المقدس ، وأقيم لاستقبالها حفل كبير في الساحة الواسعة المحيطة بقبة الصخرة ، برئاسة جمال باشا . وكانت خاتمة الاحتفال صلاة في المسجـد الاقصى ، ووضعـت الـراية بشـكل مؤقـت ريثما يزحف الجيش على مصر للجهاد .

وعظم السيد العلوي بعد وفاته ، التي كانت بعد هذا كله بثلاثة أيام ، فانتشر الوعاظ يشيدون بموته ويعتبرونه قدوة يجب أن تحتذى .

كان الهدف من هذا كله ، وخاصة موكب الراية ، هو التأثير على النفوس وإثارتها ، كما أحيط هذا بمظاهر أخرى متعددة ليظهر الرمز بمظهر الصادر عن مكة ، ولكن هل أغفل المراد من هذا ؟ . . .

كلا . . . فالخدعة لم تنطل الا على عدد قليل من الناس ، وأما الآخرون فقد بدأوا يتساءلون[2] : لماذا لم يحضر الشريف الموكب اذا كان قد أيد الدعوة ؟ واذا كان قد شغله شاغل فلماذا لم يرسل أحد أبنائه ؟ . . . وبلغ الشك بالناس انهم شكوا في أن تكون هذه الراية هي راية الرسول ، بل هي قطعة من القماش الذي يزين قبر الرسول .

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ج ١ - ص - ١١٢ .

(٢) كتاب « العصر الاموي » تأليف ناصيف أبو زيد (دمشق ١٩٢٣) .

لم توصل الرايةُ الاتراكَ الى هدفهم ، ولكن قيمتها التاريخية تأتي من أنها توضح الامل الكبير الذي كان الاتراك (ومن ورائهم الالمان) يعلّقونه على نجاح الدعوة الى الجهاد في الاقطار العربية . . .

٣ ـ الاتصَال بالزعمَاء الوَطنيين في الشَام وَالعرَاق :

كان الشريف حسين يدرس ويتبصر بالظروف والاحتمالات والاحداث التي تدور حوله ، عندما وصله ـ فوزي البكري ـ وهو شاب من أسرة شامية شهيرة ، جُنّد حديثاً في الجيش التركي وتقلد منصباً شرفياً في حرس الشريف ، وكان هذا المنصب قد منحوه له منحة ومكافأة ، كان فوزي هذا رسولا قد ضُمّ الى أعضاء « العربية الفتاة » وحلف اليمين ، ولهذا أرسل من قبل الجمعية التي أصبحت مدينةُ دمشق مقرها ، وكان يحمل رسالة شفهية الى الحسين وفحواها : أن الزعماء الوطنيين في الشام والعراق ومن بينهم كبار الضباط العرب في الجيش التركي ، يميلون الى الثورة للحصول على استقلال العرب ، فهل يوافق الشريف على قيادة هذه الثورة ؟ واذا وافق على ذلك ، فهل يستقبل وفداً من الجمعية في مكة ، أو يرسل الى دمشق مندوبين عنه يثق بهم للاتفاق على مراحل التنفيذ ؟ .

لقد كانت تربط الحسين بعطا باشا عميد أسرة البكري ، صداقةٌ قديمة ، ولهذا وافق الاتراكُ دون تردد أو مشقة على هذا التعيين اذ كانوا حريصين على ملاطفة الشريف وارضائه .

لم يجب الشريف الرسول فوزي ، وهو الرجل الغريب الذي كان قد وصل مكة في الاسبوع الاخير من كانون الثاني ١٩١٥ ـ بشيء ، ولم ينبس بسؤال ، لانه كان أشد حذراً من أن يفصح عن تأييده أمام هذا الرجل الغريب ، واكتفى بالتطلع من النافذة كأنه لم يسمع شيئاً ، رغم أن المجال الذي كان يبحث عنه وكان ضالته المنشودة هو نفس المجال الذي فتحته الرسالة .

كما قلنا فان الحسين كان شديد الحذر ، وكان لا بد له من الانتظار ريثما تظهر نتائج المباحثات التي كان يقوم بها حينئذ ، لا سيما وأنه قد لاحظ أن ثمة تغيراً ملموساً في موقف الوالي وهيب بك منه ، وظن الشريف بما لديه من الاسباب ـ أنه لا بد أن هذا التغير جاء بسبب أوامر تلقاها وهيب بك ، أوامر غامضة لا يعرف كنهها . لهذا بث عيونه ليرصدوا هذا الوالي ، وقد استطاع أحد رجاله أن يأتي بحقيبة كان فقدها الوالي في أوائل شباط ، بينما كان مسافراً الى المدينة ، وقد تفحص الشريف ما في هذه الحقيبة ، فوجد فيها وثائق تتضمن الدليل على مؤامرة تستهدف حياته دُبّرت من قبل جهات رسمية .

وهنا تحرك الحسين فأبرق الى الصدر الأعظم يخبره بأن لديه امـوراً خطـيرة يبغـي عرضها ، واستأذنه بالسماح له بايفاد أحد أبنائه الى القسطنطينية ليعرضها نيابـة عنـه ، وعندها وافق الاتراك على طلبه ، ووجه الشريف ابنه فيصلا ليؤدي هذه المهمة ، بعد أن قضى معه ساعات طويلة يلقنه فيها بعض التعليمات ويوصيه . وكان الهدف الظاهر هو أن يعرض فيصل على الصدر الأعظم مؤامرة الوالي الذي يتهمه الحسين بتدبيرها ، وأوصاه أن يوضح اتهامه شفهياً وأن يدعمه .

أما السبب الرئيسي والحقيقي ، فهو الاتصال بالزعماء العرب في دمشق ، ومعرفة موقفهم من عروض انكلتره ، ومدى تحمسهم لها واستعدادهم لتنفيذها .

كان أحمد جمال باشا العضو البارز في جمعية الاتحاد والترقي ووزير الحربية في الوزارة العثمانية ، هو الرجل التركي المسيطر على دمشق ، والرجل الكفؤ الذي يستطيع أن يقود الحملة على مصر لتحريرها ، خاصة وأنه منح من السلطات بحكم القانون العسكري ، ما أصبح بمقتضاه رئيساً للحكومة في بلاد الشام وقائداً عاماً للجيش وكان قد وصل في مطلع شهر كانون الاول واتخذ دمشق مقراً لقيادته .

كان أحمد جمال باشا[1] رجلاً معروفاً من اتباع الدعوة الاسلامية ، يخالف الداعي الى الوحدة الطورانية ويجاهر ، عن اخلاص ، بايمانه بمزايا القـومية العثمانية المبنية على التضامن الإسلامي وبمستقبلها ، ولكنه لم يكن من أعضاء « تركية الفتاة » الذين يمثلون جمعية الاتحاد والترقي ويحملون طابعها .

كان رجـلاً تافهـاً مشهـوراً بكراهيتـه للالمان ، ولكنـه مقابـل ذلك كان يحـب الفرنسيين ، ويتضح هذا في خطبه الاولى وفي بلاغاته للجيش ، ولكن مقدرته العسكرية لم تكن قد ظهرت بعد ، غير أنه لا يعد من أولئك الضباط المبدعين ، بل كان ذا ادراك عادي ولكنه اداري ماهر ونشيط وسياسي لين ، يخُدع بسهولة ويثور بسرعة ، وعندما يثور يخرج عن طوره ولا يتورع عن القيام بأي شيء .

اتبع جمال باشا في بادىء الامر سياسة المداورة وكسب العرب في صف تركية ، وهذا أدى الى أن يترك وقعاً حسناً في نفوس الاهـالي واستطـاع أن يسـتميل المسلمـين ، وأن

---

(١) احمد جمال باشا : قائد عسكري وسياسي عثماني (١٨٧٣ - ١٩٢٢) انتسب الى جمعية الاتحاد والترقي مع أنور باشا وطلعت باشا وأصبح من زعمائها . عين وزيرا للاشغال العامة عام ١٩١٣ ثم قائدا للبحرية العثمانية عام ١٩١٤ ، ثم عين قائداً للجيش الرابع في سورية ١٩١٥ - ١٩١٧ ، وقاد حملة فاشلة على قناة السويس سمي ، بالسفاح لشدة سفكه لدماء العرب . بعد الحرب العالمية الأولى ارسل الى افغانستان على رأس بعثة عسكرية واغتيل في طريقه الى تركية في تفليس عام ١٩٢٢ .

يكسبهم الى جانبه ، وأن يشاركوه فعاله في الجهاد . فعمل على زرع الطمأنينة وانتزاع المخاوف من نفوسهم ، وكان يبذل جهده ليستفيد أقصى ما تمكنه الاستفادة من الدعوة الى الجهاد ، ولذلك ـ وهذا شيء طبيعي ـ اتجه الى مكة لتأييده وأرسل هو وأنور باشا رسائل الى شريف مكة تدل على رغبة شديدة من كليهما في استمالة الحسين وتأييده ، وتدل على الصبر والجهد اللذين كانا في نفسيهما . وعثر الجنود الاتراك الذين هاجموا القنصليتين الفرنسيتين في كل من بيروت ودمشق على أوراق ووثائق تدين أشخاصاً عرباً ـ في نظر الأتراك ـ وتضعهم في صف الخائنين ، ولكن جمال باشا الذي كان يحاول اتباع سياسة يكسب فيها ، دون أن يثير النقمة في النفوس ، اكتفى بابلاغ الشريف بهذا ، واحتفاظه بهذه الاوراق في أدراجه الخاصة وحصر جهده في التفكير للقيام بحملة على مصر وغزوها .

وكانت بريطانية تعلن في ذلك الوقت أن مصر تحت حمايتها . وفي نفس الوقت أعلن ماكسويل في بلاغاته التي اصدرها بمقتضى الاحكام العرفية انتهاء سيادة تركية الاسمية على مصر . وخلع الخديوي عباس الثاني ، وارتقاء الامير حسين كامل العرش خلفاً له ومنحه لقب سلطان مصر .

وفي ليل الثاني من شباط عام ١٩١٥ بدأ جمال باشا ـ الذي كان يعرف أن جيشه غير كافـ ، ولكن كان يأمل أن يثور الاهالي لان نفوسهم كانت تحمل الحقد للبريطانيين ، وكانت العلاقة غير ودية ـ هجومه على القناة ، ولكن هل نجح جمال باشا بحملته ؟ وهل نجحت توقعاته ؟ . . .

كلا لم تنجح الخطة بل صدت ، وظلت مصر هادئة ساكنة ، وهنا كان لا بد له من العودة الى دمشق ، فسحب القسم الأكبر من جيشه بعد أن ترك قوات ضئيلة في سيناء لكي تقوم بين الفينة والفينة بمناوشات تؤثر على بريطانيا وتقلقها .

وأخذ يبرر اخفاق حملته ، ويعلن أن هذه مجرد عملية استطلاع بالقوة[1] وفي الوقت المناسب سيقوم بالهجوم الحقيقي .

أقام فيصل في دمشق أربعة اسابيع بعد ان وصل اليها في السادس والعشرين من شهر آذار ، حيث توجه بعد ذلك الى القسطنطينية .

وقد استقبل جمال باشا فيصلا بالترحيب الشديد وبالاهتمام ودعاه للاقامة في مقر القيادة العامة ، ولكن فيصلا اعتذر بحجة انه وعد آل البكري بأن يكون ضيفهم .

---

١) الاستطلاع بالقوة : احدى الطرائق الاساسية في الاستطلاع وأكثرها فعالية لكونها تساعد على تحصيل اكثر المعلومات وثوقا عن العدو الموجود على تماس مباشر . (راجع المعجم المختصر للتعابير والمصطلحات العسكرية ص : ٢١) طبع هيئة التدريب .

وخلال اقامته في دمشق اطلع على اسرار الحركة العربية القومية ، وكان الزوار يتدفقون على آل البكري في الايام الاولى من زيارته ، ثم بدأت المباحثات السياسية الدقيقة بعد ان انتهوا من استقبال الزوار .

لقاء فيصل مع أعضاء جمعية «العربية الفتاة»

وقد بدأت هذه الاجتماعات مع اعضاء جمعية (العربية الفتاة) ، الذين ترددوا في بادىء الامر في التصريح عما تختلج به نفوسهم ، لان هذا اللقاء كان اللقاء الاول بينهم وبين فيصل ، وكان الجميع يتحدثون بحذر وتحفظ الى ان كشف فيصل بعض الشيء عن دخيلة نفسه .

وقد غير هذا التصريح بدلالته مجرى الحديث تغييراً جوهرياً . ومن خلال الحديث اتضح للطرفين أن هناك وحدة تجمعهم ، مما دفع اعضاء الجمعية الى ان يشرحوا لفيصل الدوافع التي دفعتهم لكي يمضوا في طريقهم ، وقد وافقت اللجنة العليا لجمعية العربية الفتاة التي عقدت قبل مجيء فيصل ببضعة شهور على القرار التالي :

« نتيجة لاشتراك تركية في الحرب ، اصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لمخاطر شديدة ، لذلك يجب بذل الجهود لضمان حريتها واستقلالها . كما تقرر انه اذا تحققت ان للدول الاوروبية مطامع في هذه البلاد ، فان الجمعية ملزمة بأن تعمل الى جانب تركية لكي تقاوم التدخل الاجنبي مهما تكن صورته » .

بعد هذا الشعور من قبل اعضاء جمعية « العربية الفتاة » ، فان اتجاه فيصل اصبح اقرب الى نفوسهم بعد الاحساس باكتشاف هذا الاساس المشترك بين اتجاهيهما المختلفين ، ولهذا سادت بينهم روح المودة والتفاهم ، وكشف الاعضاء لفيصل عن اسرار الجمعية بعد ان حلف اليمين ، وبعد ذلك اجتمع ببعض اعضاء جمعية « العهد » المنظمة السرية التي تضم ضباط الجيش . وقد حصل هذا اللقاء بتدبير من احد الاعضاء الذي ينتسب الى كلتا الجمعيتين ، وقد اكتشف ان موقف الجمعيتين متطابق ، فكلتاهما ترغبان بالانفصال عن الاتراك ، ولكن هذه الرغبة كانت مكبوحة بالخوف من مطامع فرنسا وبريطانيا وايطاليا وروسيا .

كان هناك مسوغ كبير لوجود تلك المخاوف من الاطماع الاوروبية ، ففرنسا افصحت عن حقوقها في بلاد الشام التي كانت روسيا تنافسها فيها منافسة قوية .

ولكن الغريب ان كلاً من فرنسا وروسيا نسيتا احقادهما وتعاونتا على القيام بنشاط

ظاهر في الشام ، فافتتحت المدارس الجديدة بالاستعانة بالاهالي ، واسست الشركات وازداد التدخل في الشؤ ون الدينية زيادة مطردة .

واكدت الدولتان ان الهدف من هذا النشاط هدف ثقافي واقتصادي فقط ، ولكن الناس كانوا يعتقدون ـ وهم محقون في ذلك ـ ان النشاط يرمي الى اهداف سياسية كذلك .

في هذه الفترة من عام ١٩١٢ بدأ النفور يزداد ، بين جمعية الاتحاد والترقي وزعماء العرب ، واصبح شغل الناس الشاغل هو التحدث عن المطامع الاوروبية في بلاد الشام . وكانت الدول الاوروبية تراقب كل هذا وترغب بمزيد من النفور ، الذي تراقب باهتمام آثاره ونتائجه .

ولم تكن فرنسا لترتاح الى نوايا انكلترا بل كانت ترتاب بها ، كما كانت روسية تحسد فرنسا .

لم تكن بلاد الشام وحدها هي محط انظار الغرب ، بل كانت ايطاليا ترمي ـ ومنذ زمن ـ الى تحقيق خطة خاصة بها في عسير واليمن ، لتضمن وجود منطقة نفوذ لها وقاعدة متينة على شواطىء البحر الاحمر الشرقية . وقد تمكنت بريطانية ـ بعقد معاهدات مع شيوخ العرب ، عن طريق السياسة التي انتهجتها ـ من فرض حمايتها على عدة مشيخات على شواطىء شبه الجزيرة العربية . ومنذ زمن قريب جداً نشب خلاف على حدود عدن لفت انظار الناس بقوة ، وكان من نتيجته ان اضطرت تركية الى الاعتراف بالحماية البريطانية على تسع من الامارات الصغيرة في مداخل عدن .

هذه المطامع المتعددة ، كان لها آثار تجمعت خلال السنوات التي تلت الاحتلال الايطالي لليبية ، ودفعت الزعماء العرب الوطنيين الى الحذر الشديد .

وقد ولَّد هذا الحكمُ الاجنبي الخوفَ في النفوس ، هذا الخوف الذي كان له أثر مقيت بين الناس جميعاً ، حتى بين أولئك المتعصبين ضد اوروبة والذين يؤلفون الكثرة من بين اولئك العاملين في ميدان السياسة .

أرسل عزيز علي المصري من مقر عزلته في مصر ، رسالة حاسمة الى زعماء « جمعية العهد » ، عندما أصبح واضحاً له أن تركيا توشك أن تشترك في الحرب ، ويخبرهم في هذه الرسالة بألا يقوموا ـ مهما تكن الدوافع ـ بأي عمل عدائي ضد تركية ، لان اشتراك تركيا في الحرب ، يعرض ولاياتها في هذه الحالة للغزو الاجنبي ، وعليهم لا بل من واجبهم الوقوف الى جانب تركيا الى أن ينالوا ضمانات قاطعة تحميهم من الاطماع الاوروبية . وكان زعماء جمعية « العربية الفتاة » قد اتخذوا القرار الذي أشرنا اليه ، مستقلين عن جمعية

« العهد » . وكان يوافق هذا القرار في جوهره على ما تضمنته رسالة عزيز علي المصري . وبهذا تم الاتفاق بين أعضاء الجمعيتين على رأي واحد ، وأصبح همهم الاساسي هو اغتنام المناسبات والفرص التي تسنح لهم ، والتي تتيحها لهم الحرب ، لكي ينالوا ضمانات قوية تتيح استقلال العرب في المستقبل وتسلم به ، ولم يكونوا على علم في ذلك الوقت بالمراسلات القائمة بين الحسين وكتشنر .

كانت هذه النقطة مدار تفكير الجمعيتين ، في الوقت الذي وصل فيه فيصل الى دمشق ، وأصبح عضواً في احدى الجمعيتين ، ثم بالاخرى بعد أن حلف اليمين ، وقد أعجب فيصل اعجاباً شديداً بتنظيم جمعية « العهد » ، التي كان زعماؤها يملكون القدرة على اشعال نار الثورة في صفوف الجيش عندما يشاؤ ون ذلك ، لان العرب كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة في الجيش العثماني الموجود في بلاد الشام . وكان قوادهم ـ ومعظمهم اعضاء في الجمعية ـ على استعداد تام لتلبية نداء أولئك ، كما كانوا على أتم الاستعداد للزحف مع جنودهم . وقد ذكر جمال باشا في مذكراته[1] التي نشرت بعد الحرب : « لو نشبت الثورة بسبب المؤامرات الاجنبية لكنا عاجزين عن قمعها ، ولفقدت الحكومة جميع مناطقها العربية » .

ولكن الزعماء كانوا يخشون القيام بهذا ، خوفاً من أن تحل سيادة محل السيادة التي يريدون القيام ضدها . وكان فيصل يؤمن ايماناً عميقاً بالجمعيتين ويخلص لهما ، وقد أطلع أعضاءها على عرض كتشنر ، وأخبرهم بخطة والده التي تعتمد على الحذر والحرص ، ثم تركهم ليتدبروا الامر في ضوء هذه المعلومات التي وضعها أمامهم ، ثم ذهب الى القسطنطينية لينفذ الجزء الظاهر من مهمته ، وقد وصل اليها في الثالث والعشرين من شهر نيسان من العام نفسه .

فيصل في القسطنطينية

أستقبل فيصل استقبالاً باهراً ، يفيض بالحفاوة والتقدير البالغين ، وقد مكث في القسطنطينية زهاء شهر ، أتيحت له خلال هذا الشهر فرصة واسعة لعرض شكوى والده ، وأجرى مباحثات عديدة مع الامير سعيد حليم الصدر الاعظم وطلعت وزير الداخلية وأنور باشا وزير الحربية ، كما مثُل بين يدي السلطان مرتين ، وعندما عرض ما عنده أصغى له الجميع بكثير من الرعاية والتعاطف ، ولكنهم أجابوه بأن العلاج بين يدي والده نفسه . ولو أن الشريف جاهر علناً بتأييده لدعوة الجهاد ، لسهل اصلاح الموقف في الحجاز لمصلحته ولاستطاع الاطمئنان الى أنه لا بد أن ينال كل ما يرضيه .

---

(١) جمال باشا : « مذكرات سياسي تركي » ترجمة ستوك ، لندن ١٩٣٩ .

وكتب الصدر الأعظم وأنور وطلعت رسائل الى الشريف ، تتضمن هذا المعنى ، وكان أشد هذه الرسائل مبالغة ، هي رسالة أنور المؤرخة في الثامن من شهر أيار ، اذ أنه أطنب في شرح الموقف في الدردنيل ، وغالى في أهمية انتصار النمسة وألمانية في موقعة دوناتيز في الجبهة الفرنسية ، وأكد قيمة المظهر الديني لهذه الحرب ، وأهاب بالحسين أن يؤازر هذا المظهر بتأييده لدعوة الجهاد .

فيصل في دمشق

في الثالث والعشرين من آذار عاد فيصل الى دمشق ، فوجد أن العمل في الجمعيتين يسير حثيثاً ، وأن زملاءه في جمعيتي « العهد » و « العربية الفتاة » قد اتفقوا على خطة العمل في غيابه ، وقد وضعوا ميثاقاً يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانية على تركية ، كما اتفقوا على أن يحمل فيصل هذا الميثاق الى والده في مكة ويطلب منه أن يعرف من الحكومة البريطانيةما إذاكانت تقبل هذه الشروط أساساً للعمل المشترك . وقد دعتنا أهمية هذا الميثاق الى ايراد نصه كاملاً :

« اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية : شمالاً ـ خط مرسين ـ أضنه الى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالاً ، ثم على امتداد خط بيريجيك ـ أورفه ـ ماردين ـ ميدات ـ جزيرة ابن عمرو ـ العمادية الى حدود ايران شرقاً ـ على امتداد حدود ايران الى خليج العرب جنوباً . جنوباً ـ المحيط الهندي باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو .

غرباً ـ على امتداد البحر الاحمر ثم البحر الابيض المتوسط الى مرسين .

الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للاجانب بمقتضى الامتيازات الاجنبية .

عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة .

تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية » .

كانت هذه الشروط التي كان يتمسك بها الزعماء العرب ، ويسعون لتحقيقها لكي يقوموا بثورة عربية يعلنها شريف مكة ، ويبذلوا أقصى جهدهم لمؤازرة قضية الحلفاء .

لقد كان لميثاق دمشق أهمية وقيمة كبيرة جداً لما تضمنه من شروط ، وتأتي أهميته وقيمته أيضاً في أن الشريف حسين قد استخدم نصوصه بعد ذلك في شهر تموز عندما استأنف مباحثاته مع بريطانية .

صيغت هذه الوثيقة بألفاظ قليلة بالقدر الذي يؤدي المعنى المقصود لانها كانت يجب أن تظل سرية .

بالاضافة الى ذلك فقد صيغت في صورة تعبير موجز ، يتضمن نقطتين أساسيتين هما : استقلال العرب ، والتحالف مع انكلترا .

بالاضافة الى ذلك فقد جاءت قيمتها الكبرى ، من حيث هي وثيقة تاريخية ـ توضح لنا موقف العرب تجاه الدول الغربية الكبرى ، وكان الهدف الرئيسي هو الاستقلال ، استقلالاً مضموناً ومحصناً من أي تدخل أجنبي ، حتى ما كان يعرف باسم الامتيازات الاجنبية ، والعرب يرحبون بالتحالف مع بريطانيا اذا كانت هذه مستعدة لان تعترف للعرب بهذا الاستقلال . ولكن فيصلاً كان يعرب في أثناء المحادثات التي أجراها بعد عودته الى دمشق ، عن شكوكه في نوايا بريطانيا ، وفي مدى قبول الحلفاء لهذه الشروط ، وكان يرتاب في هذه النوايا ارتياباً عميقاً ، رغم أنه كان يرى أن هذه الشروط ، هي أقل ما يمكن المطالبة به في سبيل قيام العرب بالثورة ، وقد وعد بأن يتجه بسرعة الى مكة ليعرضها على والده ويطلب موافقته عليها .

وتعهد ستة من الزعماء العرب الرئيسيين ، بعد أن أقسموا يمين الولاء ، بأن يعتبروا الشريف حسين هو ممثل الشعب العربي ، وبأن تهب الفرق العربية المرابطة في بلاد الشام ، لتحقيق الشروط الواردة في ميثاق دمشق ، اذا ما اتفقت بريطانية مع الشريف ، وكتأكيد لهذا العهد أعطى الشيخ بدر الدين الحسيني ، أكبر علماء دمشق ، خاتمه الى فيصل لكي يسلمه الى الشريف حسين كرمز لثقة أهل الشام به .

ولم ينتظرهم الزمن الذي كان يسير ، فسبقهم وسبقتهم الاحداث ، وأمر الاتراك الفرق العربية المرابطة في الشام بالتوجه الى غاليبولي ، وهنا خاف العرب من القيام بنقل فرق أخرى أيضاً . ولم يستطع فيصل السفر لأنه كان يريد أن يقابل جمال باشا الذي كان قد ذهب الى سورية الجنوبية للقيام بدورة تفتيشية .

لم يستطع فيصل الانتظار فسافر اليه في القدس ، واستأذن في العودة الى دمشق ، ثم استقل قطاراً الى المدينة بعد أن أخذ الميثاق معه ، هذا الميثاق الذي كتبه بخط صغير جداً وخاط عليه بطانة حذائه .

وفي العشرين من شهر حزيران ، وصل فيصل الى مكة وقدم لوالده تقريراً مفصلاً عن مهمته ، وشرح له كيف تحول الى الموافقة على فكرة الثورة اذا وافق على هذه الشروط . وأخذ الشريف يسأل ابنه ـ وقد كان شديداً صارماً مع أبنائه ـ أسئلة دقيقة أجاب عنها

فيصل الذي كان كلما تذكر تلك الايام يقول : « كان ذلك الاسبوع من أقسى ما مر بي في حياتي » .

ولتفادي مخاطر الدعوة الى الجهاد في تلك الاثناء بذلت السلطات البريطانية كل ما في وسعها في مصر .

وكان السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني رونالد ستورز ، ومدير المخابرات العسكرية في القاهرة المقدم ج . ف كلايتون ، هما الرجلين القائمين بالجهود الرئيسية في بداية الامر .

في كانون الثاني **١٩١٥** تسلم هنري مكماهون عملـه « كمنـدوب سام » في مصر والسودان ، في الوقت الذي كان السودان تحت حكم ريجنالدو نجت الذي كانت الخرطوم مقر عمله . هؤلاء الرجال الاربعة حملوا العبء الاكبر من هذا العمل الشاق .

كان عزيز علي المصري عالماً في الدين ، وسياسياً ومصلحاً واسع الشهرة ، وداعية متحمساً الى نهضة المسلمين والعرب ، وقد قام ومعه السيد رشيد رضا بمباحثات مع ستورز وكلايتون دارت حول موضوع رسائل الحسين ـ كتشنر ، كما حاولت اقناع العـرب بأن مستقبلهم هو رهن تحالفهم مع بريطانيا .

واتسع نطاق المباحثات مع مرور الايام ، حتى أنه لم يكد يبقى صاحب اتجاه معين أو نزعة خاصة الا طلب منه رأيه أو تطوع بإبدائه ، غير أن هذه المباحثات لم تنته الى أية نتيجة ولم تصل الى اتفاق ، ذلك لان كلا من عزيز علي المصري ورشيد رضا[1] ـ اللذين كان لهما نفوذ واسع يستطيعان أن يوجها به اتباعهما في الشام والعراق ـ قد طالبا بضمانات تكفل استقلال العرب ، ونظرا الى هذه الضمانات على أنها شرط لا بد منه لكي يدعـوا العرب الى القيام بالثورات .

ولكن لم يوجد هناك أحد في موقف يتيح له تقديم الضمانات المطلوبة .

كانت محاولات بريطانية دون جدوى ، وقد أكدت المباحثات هذا الشيء ، ونبهت السلطات البريطانية الى أن محاولاتها لاكتساب العرب من غير تقديم عهود قاطعة لا فائدة ولا جدوى من ورائها ، وهذا بالذات تأكد للسير ريجنالدو نجت عندما اجتمع مع السيد

---

(١) محمد رشيد رضا : ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ ـ عالم ومصلح ديني ولد في طرابلس الشام ورحل الى مصر عام ١٨٩٧ وأصبح من تلاميذ محمد عبده ، اصدر مجلة المنار . رحل الى دمشق في اعقاب اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وانتخب رئيسا للمؤتمر السوري في عهد الملك فيصل . غادر سورية مع قدوم الفرنسيين عام ١٩٢٠ وعاد الى مصر . توفي إثر حادث القاهرة ، له كتاب في تفسير القرآن يتألف من ١٢ مجلداً .

علي الميرغني ، وبعض المسلمين البارزين في السودان ، وقد رأى من خلال وجهة نظرهم أنه لن يتحقق لهم شيء ، ما لم يسرعوا باصدار بيان يشتمل على ضمانات محددة تكفل مستقبل البلاد العربية ومصير الخلافة ، ونقل ونجحت كل هذا الى مجلس الوزراء البريطاني ، وأيده كتشنر في آرائه ، وهنا فوض مجلس الوزراء مكماهون في اصدار بيان عام ، يتفق مع مقترحات ونجت ، وهي تهدىء بعض الشيء من مخاوف المسلمين اكثر من تحقيق آمال العرب السياسية ، وقد تضمن هذا البيان ، أن بريطانية العظمى تتعهد بأن ينص أحد بنود معاهدة الصلح على الاعتراف بشبه الجزيرة العربية دولة مستقلة ذات سيادة تامة على اماكن المسلمين المقدسة ، كما أشار البيان الى أن الحكومة البريطانية على استعداد للترحيب بقيام خلافة عربية .

وفي أوائل شهر حزيران ، نشر البيان وطبع في منشورات وزعت منها أعداد كبيرة في جميع أنحاء مصر والسودان ، وهُرِّب بعضها الى الشام ، والقت الطائرات نسخاً منها على مدن : ينبع ، رابغ ، وجدة .

وكما هو معروف فقد أصدر كتشنر في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الاول ١٩١٤ تعهدات ، وعد فيها الشريف بحماية الجزيرة العربية ، من أي اعتداء ، ولكن البيان الذي أصدرته الحكومة البريطانية قطع شوطاً أبعد مما وصل اليه كتشنر ، لأنه زاد على ذلك بأن اعترف بقيام دولة مستقلة في جزيرة العرب ، وبتأمين سلامتها ، ولكنه أغفل مطلب العرب الاساسي ، ألا وهو أن يشمل هذا التعهد بلاد الشام والعراق كما شمل شبه الجزيرة العربية ، وهذا أدى الى فتور هذه المباحثات التي بدأها ستورز وكلايتون في الخريف ، ثم توقفت فجأة حينما أقبل الصيف .

كانت دلهي لا لندن هي التي تسير الامور،تمسك بزمام السياسة في عدن ومداخلها وفي خليج العرب ، ولهذا نرى أن الهند بذلت نشاطاً كبيراً في مجالها لانها كانت تعتبر أن شبه الجزيرة العربية تابعة لمجال نشاطها .

ودلهي هي التي أشرفت على الاعمال الحربية التي انتهت باحتلال البصرة في تشرين الثاني ١٩١٤ . وبدأ الهنود بالتودد والتقرب من العرب ، ففي قرب نهاية تلك السنة أوفد النقيب ج . ر . شكسبير أحد الموظفين السياسيين في حكومة الهند ، الى ابن سعود ، ليسعى الى اكتساب مؤازرته للحلفاء في قضيتهم . ولم يكن ابن سعود ميالاً الى الاتراك ليحتاج من يستميله عنهم .

ما كادت تركية تشترك في الحرب ، حتى أرسل عزيز علي المصري رسولاً الى ابن سعود (وهو أحد أعضاء جمعية العهد) وقد أراد من هذا أن ينال تأييد ابن سعود ـ الذي

أحسن استقبال الموفد - في قضيتهم ، وكان الرسول قد وصل في نفس الوقت الذي كانت فيه الدعوة للجهاد تحرج مركزه بوصفه زعيماً للوهابيين وسيكون محرجاً أكثر بكثير اذا أيد شريف مكة الدعوة وتغاضى هو عنها .

وفي كانون الثاني ١٩١٥ وصلت رسل الحسين الى مقر ابن سعود الذي كان يعقد اجتماعات مع شكسبير ، وكان الحسين يود سبر غور ابن سعود من وراء ارسال هؤلاء الرسل .

كان ابن سعود يؤيد الشريف حسين تأييداً كبيراً ، ويطمئنه بأن تركيا لن تصل الى ما تريده من نجد ، ولن تلقى اي تأييد اومعونة ، وفي نفس الوقت أجاب شكسبير إجابة ودية على مطالبه ، وما كادت سنة ١٩١٥ تنصرم حتى كان ابن سعود قد عقد معاهدة تحالف مع نائب الملك في الهند ، كما عقدت الهند اتفاقاً مع الادريسي عام ١٩١٥ في شهر نيسان ، وكان هناك تشابه كبير بين اتفاق الادريسي ومعاهدة ابن سعود ، اذ انحصر كلاهما بالشؤون المحلية وحدها دون الاشارة الى موضوعات عامة تتصل بحركة العرب القومية ، لأن كلاً من الادريسي وابن سعود غير قادر على تقديم أية معونة سواء أكانت عسكرية أو معنوية في الحرب ضد تركية .

وتأتي أهمية هذين الاتفاقين من نتائجهما السلبية : حيث قطعا الأمل في أي تحالف بين هذين الزعيمين وتركيا . وكان هذا الأمل ضعيفاً في أحسن الاحتمالات ، كما أنهما ضمنا مساعدة ابن سعود في الحيلولة دون وصول المؤن والامدادات الى الاعداء ، عن طريق خليج العرب ، واصبح من المستحيل ان يستخدم الاتراك سواحل عسير قاعدة معادية لسفن الحلفاء في البحر الاحمر .

٤ - بداية الحوار مع انكلترة لفهم موقفها من الثورة العربية الكبرى

كان في مقدمة النواب العرب في البرلمان العثماني . . الأمير عبدالله[1] النجل الثاني

---

(١) عبدالله بن الحسين بن علي بن محمد الحسني الهاشمي من آل عون (١٨٨٢ - ١٩٥١) ولد بمكة وتلقى علومه في الآستانة أيام إقامة الشريف حسين فيها وعاد مع ابيه الى الحجاز عام ١٩٠٨ وسمي نائبا عن مكة في مجلس النواب العثماني عام ١٩٠٩ . شارك مشاركة فعالة في الثورة العربية الكبرى كما سنرى في بعض صفحات هذا الكتاب وعين بعد الحرب وكيلا لوزارة الخارجية واستقال عام ١٩٢٠ . دخل عمان عام ١٩٢١ وعين أميراً لامارة شرقي الاردن وسمي ملكا عام ١٩٤٦ واغتيل عام ١٩٥١ في المسجد الاقصى في القدس . له عدة مؤلفات : « ما رأيت وما سمعت » و « عامان في عمان » و « ملوك المسلمين » و « تاريخ نجد الحديث » و « مذكراتي » الذي ترجم الى عدة لغات . وقد نشرت مؤلفاته الكاملة في عمان منذ عدة اعوام .

لشريف مكة . وكان هذا الشاب الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره ذلك الحين شخصاً بارزاً في الدوائر السياسية . وكان منذ صباه يمتاز عن ذوي قرباه بشخصيته المستقلة واعتزازه بنسبه وحماسته الفائقة لاظهار فضل بني قومه . وقد اتاحت له اقامته الطويلة في القسطنطينية - في أثناء احتجاز الشريف حسين بن علي هناك - أن يجيد اللغة التركية وأن يتعرف على علّية القوم وعلى طبائعهم ، فجعله ذلك أقرب الى الحضارة منه الى البداوة ، دون أن يؤثر ذلك في انتمائه القومي واعتزازه بعروبته وأصالته . . وكان ميله الطبيعي لمزاورة الشؤون السياسية القبلية ، وحماسته لاعلاء شأن اسرته سبباً أساسياً في اختيار والده له للأمور الصعبة التي تحتاج الى الثقة والحنكة . . وبكلمة واحدة كان الممثل الشخصي والرسول الأمين لو الده .

ولم يكن الشريف حسين مخطئاً في هذا الاختيار ، لأن الامير عبدالله كان أليق لممارسة المهام الكبيرة من أخيه الأكبر علي[1] - الرقيق الخجول - ومن أخيه الأصغر فيصل[2] ، الذي كان حتى ذلك الحين يبحث عن المجد في أعمال البطولة العسكرية . . وكان الجانب العسكري في الحياة هو همه الأول دونما شك ، وقد وصل الى نتيجة لا بأس بها في هذا المضمار ابان العمليات العسكرية التي كان يقودها أو يشرف عليها .

اذن كان عبدالله أشهر الأخوة الثلاثة وأحبهم الى الناس . وكانت جاذبيته الشخصية . . من أهم مزاياه . . وكان شغفُه بالشعر العربي من جملة الأسباب التي حبّبت به رفاقه العاملين في القضية العربية . وكان يقرأ ويحفظ كثيراً منه ، وكان احساسه بمواطن الروعة في الأدب العربي يجعل حديثه خصباً فياضاً ممتعاً . . ويضفي على تفكيره طابع الحكمة حتى في تلك السن المبكرة .

وعندما كان الأمير عبدالله بن الحسين ، خارج الحجاز ، أفاد من جميع الفرص التي

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن محمد عبد المعين بن عون الهاشمي الحسني (١٨٨١ - ١٩٣٥) كان اكبر اولاد الحسين وآخر من سمي ملكاً على الحجاز من الهاشميين . ولد بمكة واقام زمناً في الاستانة مع والده . عاد الى مكة عام ١٩٠٨ عندما عين الشريف حسين والده شريفاً لمكة ، شارك بنشاط في الاعمال العسكرية في الثورة العربية الكبرى . عينه والده رئيسا لمجلس الوكلاء بمكة وشؤون القبائل . بويع بعد والده ملكاً لنجد عام ١٩٢٤ ولكنه تنازل عن العرش عام ١٩٢٥ وانصرف الى بغداد وبقي في ضيافة اخيه فيصل الى ان وافته منيته .

(٢) فيصل بن الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون الهاشمي الحسني (١٨٨٣ - ١٩٣٣)ولد بالطائف وترعرع في خيام بني عتيبة في بادية الحجاز ورحل مع والده للآستانة وعاد معه . اختير نائبا عن مدينة جدة في مجلس النواب العثماني سنة ١٩١٣ . انتسب لجمعية « العربية الفتاة » تولى قيادة الجيش الشمالي ثم عُينّ قائداً عاماً للجيش العربي في فلسطين . دخل سوريا عام ١٩١٨ في اعقاب جلاء الاتراك . مثل والده في مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩٢٠ . نودي به ملكا على سوريا ورحل عن سورية بعد دخول الفرنسيين ثم رشح لعرش العراق ونودي به ملكا للعراق عام ١٩٢١ . توفي في سويسرا في مدينة برن .

سنحت له بصفته ابن الشريف ، وساعده الأيمن ، ونائب مكة في المجلس النيابي ، فبذل قصارى جهده ليستفيد من منصبه ونفوذه لدى الباب العالي لتدعيم مركز والده في الحجاز . . وكما نعلم فقد كان مركزه قلقاً آنئذ في ربيع عام ١٩١٤ . . وقد ارتاب الأتحاديون في سلوكه . . وكانوا يعتقدون أنه هو الذي يحرض والده الشريف على التصلب في مواقفه ثم يلتمس له المعاذير ، ولذلك حاولوا أن يستميلوه بالهبات والمناصب . .

فعرضوا عليه أن يتولى احدى الوزارات ثم عرضوا عليه أن يكون والياً على اليمن . . ولكنه أحس بالشرك الذي ينصب له . . فاعتذر عن القبول وحافظ على استقلاليته . .

وكان الأمير عبدالله كوالده تماماً ـ ومن شابه أباه فما ظلم ـ ميالاً الى اختبار قوته مع الأتراك ، وكان كل منهما يطمح الى أن ينال الحجاز استقلاله الذاتي ، وأن يؤدّي ذلك مع الزمن الى حصول البلاد العربية الرازحة تحت الاحتلال التركي على استقلالها كذلك . وكان الفرق الرئيسي بين ما يريده الأب والابن فرقاً بسيطاً يتعلق في التكتيك وليس في الاستراتيجية . . فقد كان الحسين بن علي في غاية الحذر الى أن يحين الوقت المناسب ليجازف بكل شيء باندفاع وجرأة . أما عبد الله فقد كان قليل الصبر واثقاً بنفسه وعلى استعداد للمغامرة دائماً . ومن هذا المنطلق وجد في نفسه الشجاعة الأدبية لكي يتصل بالانجليز ليسبر غورهم ويعلم حقيقة موقفهم اذا ركب الاتحاديون رأسهم . . ووقعت المجابهة بين العرب والترك .

ولما كان الأمير عبدالله قد عقد أواصر الصداقة مع الخديوي عباس حلمي الثاني في ١٩٠٩ ـ عندما قام الخديوي بأداء فريضة الحج ورافقه الأمير في أثناء اقامته في الحجاز ـ فقد اعتاد أن يمر بالقاهرة في غدوه الى استانبول ورواحه منها ، فيقضي في ربوعها أياماً ، بانتظار سفر الباخرة وينزل في أثناء ذلك ضيفاً على الخديوي .

وحدث في ربيع ١٩١٢ ، أن الأمير عبدالله زار القاهرة بينما كان في طريق عودته من استنبول الى الحجاز ، وحلّ ضيفاً على الخديوي في قصر عابدين . وذات يوم جاء اللورد كتشنر يزور الخديوي في مكتبه بسراي القبّة ، وكان الأمير عنده ، فتمّ التعارف بينه وبين كتشنر . وبعد عبارات المجاملة والتعارف استأذن الأمير وخرج . ولكن اللورد كتشنر لم يلبث أن لحق بالأمير الى قصر عابدين زائراً ـ يرافقه سكرتيره الشرقي السيد رونالد ستورز . فاستقبله الأمير وهو يخشى أن تؤثر الزيارة في سياسة والده مع الأتراك . وبعد أن جلس اللورد قال مخاطباً الأمير : « انني أود أن أبلغك رضى الحكومة البريطانية عن استتباب الأمن في الحجاز ، والترتيبات المعمول بها لرفاهية الحجاج ، وتأمين راحتهم منذ

أن تولى والدك الشريف حسين منصب امارة مكة » . فشكره الأمير وقال : إنه سيبلغ هذا لأبيه[1] .

وبعد أن انصرف كتشنر ذهب الأمير لزيارة المندوب السامي العثماني وأخبره بما حدث . وطلب منه أن يبلغ الباب العالي في استانبول الخبر كيلا يكون هنالك مجال للتأويل ، ثم استأذن منه برد الزيارة . وبعد يومين قام الأمير بزيارة اللورد كتشنر في الوكالة البريطانية ، فأبدى كتشنر اهتماماً ملحوظاً بشؤ ون الحجاز ، وسأل عن نظام ادارته وعن العلاقات بين الوالي والشريف ، ومدى محاولات الموظفين الأتراك التدخل في المسائل الدينية . ولم يشعر الأمير أنه يملك الحرية للاجابة بتوسع كافٍ على أسئلة اللورد النفّاذة ، الا أنه حاول أن يعطيه فكرة عامة عن الوضع في الحجاز . وقد ترك كتشنر انطباعاً طيباً في نفس الأمير الذي أعجب بشخصيته القوية ، ولكن لم يكن للحديث الذي دار بينهما أي طابع سياسي خاص[2] .

مرت سنتان على هذه المقابلة ، ظل الأمير عبدالله خلالها يزور القاهرة في طريقه الى استانبول وعودته منها ، وكان يجتمع في أثناء زيارته بالسيد ستورز الذي كان يحسن اللغة العربية ، ويشارك الأمير اعجابه بالادب العربي القديم ، ولعبة الشطرنج . وأخيراً جاء يوم قام فيه الأمير بزيارة اللورد كتشنر زيارة ذات هدف سياسي .

تمت تلك الزيارة يوم ٥ شباط ١٩١٤ . بعد أن ذرّ قرن الخلاف بين الشريف حسين والاتحاديين وجاء وهيب الى الحجاز . والرسالة التالية التي بعث بها اللورد كتشنر الى السير ادوار جراي وزير خارجية بريطانية ، والتي كتبت في اليوم التالي للزيارة (٦ شباط) تعطينا فكرة واضحة عماّ دار في ذلك الاجتماع :

« يقيم الآن في القاهرة ، في زيارة قصيرة ، الشريف عبد الله ابن شريف مكة ، وقد جاء لزيارتي يوم أمس » .

« لقد طلب مني أن أبعث اليكم بتحيات والده ،وقال أن الأحوال في الحجاز لا تسير كما يجب أن تسير ، بسبب ما حدث مؤخراً من تعيين والٍ تركي جديد يجمع في يده بين الصلاحيات المدنية والعسكرية ، بالاضافة الى أنه لا يتعاطف مع الشعب ، ولا يقوم بتصريف أعماله بالتعاون الوثيق مع أبيه ، سواء في تصريف الشؤ ون الداخلية للأراضي المقدسة ، أو فيما يتعلق برفاهية وأمن الحجاج المسلمين القادمين من جميع أرجاء العالم ،

---

(١) المؤلفات الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ـ ص ٩٠ .

(٢) سليمان موسى : المراسلات التاريخية للثورة العربية الكبرى رقم ـ ٤ ـ ص ١٢ ـ ١٤ .

وهو ما كان من صميم مسؤوليات أبيه أمير مكة منذ أمد طويل » .

« وقد رغب الّي أن أسألكم ، عما اذا كنتم ـ في حالة بلوغ هذا الخلاف مرحلة الحرج ، وفيما اذا حاولت الحكومة التركية أن تعزل أباه عن منصب إمارة الأماكن المقدسة الوراثي ـ سوف تستعملون مساعيكم الحميدة مع الباب العالي لمنع تنفيذ تلك المحاولة . وقد أوضح الشريف عبد الله أن أباه كان دائماً يفعل كل ما في وسعه لمساعدة الحجاج الهنود المسلمين الذين توثقت أواصر الصداقة بينه وبين كثيرين منهم . ثم صرّح بعزم ثابت أنه في حالة اقدام الحكومة التركية بالفعل ، على عزل والده ، فان قبائل الحجاز سوف تقاتل دون الشريف ، وسوف يترتب على ذلك قيام حالة حرب ضد القوات العسكرية التركية . وقد عبّر عن أمله أنه اذا ما نشأت ظروف كتلك الظروف ، فإن الحكومة البريطانية لن تسمح للتعزيزات بالمرور بحراً بقصد منع العرب من ممارسة الحقوق التي تمتعوا بها منذ أقدم الأزمان في بلادهم وأراضيهم حول الأماكن المقدسة » .

« وأبدى الأمير رغبته أيضاً في أن تبقى ملاحظاته هذه سراً مصوناً وأن لا يعرف عنها أي شيء بحال من الأحوال في استانبول ، وسألني كذلك عما اذا كنتم ستبعثون الى أبيه برسالة ما . وكان جوابي انني أعتقد أن من غير المحتمل أن تبعثوا برسالة ما[1] » .

وبالتمعن بنص التقرير الذي بعث به الأمير عبد الله لأبيه في ٧ شباط ١٩١٤ بعد يومين من اجتماعه بكتشنر ، وهو يؤيد في مجمله تقرير كتشنر . نرى أن الأمير كان في طريقة الى استانبول لكي يبلغ المسؤولين فيها ، شكوى أبيه من تصرفات الوالي الجديد وهيب ، وأنه كان مفوضاً من قبل أبيه ببحث الموقف مع الخديوي عباس ، ومع اللورد كتشنر أيضاً . وقد شجع الخديوي ، الأمير على زيارة اللورد كتشنر وقام مرافق الخديوي بترتيب الاجتماع . وجاء في تقرير الأمير :

« . . . ذهبت اليه « كتشنر » فقابلني بأحسن قبول ، وسألني عن الحالة بالحجاز أجبته بأنكم اعلم بها من كل احد . . . وباحثته في الموضوع على حسب التعليمات التي تلقيتها من وليّ النعم بمكة حرفياً ، وزدت عليها ما استنتجته من الامر الكريم الذي تلقيته اخيراً عمّا فعله الوالي الجديد . فأجابني في الحال أنه سيبرق ببرقية وبدون تأخير ، يبين فيها بأنه يجب على انجلترا عدم المساعدة على تغيير حالة الحجاز واميرها . واضاف عليها

---

(١) سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ٦ ـ ص ـ ١٧ ـ ١٨ ، وهو مأخوذ عن الوثائق البريطانية عن أسباب الحرب موضوع بين الامور السرية برقم ٢٢ ، الجزء العاشر ـ القسم الثاني ـ ص ٨٢٧ .

بأننا لا نريد التدخل في حقوق احد ، ولكن حيث ان الحجاز محل حج رعايانا فينبغي ان نلاحظه[1] » .

ويمضي الأمير في تقريره فيقول ان اللورد كتشنر ردّ له الزيارة يوم ٧ شباط ١٩١٤ ومعه سكرتيره رونالد ستورز ، وقال له أنه كتب لمرجعه بما ذكره له الأمير ، فأوضح له الأمير أن الشريف ما يزال على ولائه للسلطان ولكن السلطان أصبح دون سلطة فعلية . فاذا حاول الاتحاديون الذين اغتصبوا سلطة السلطان أن يعتدوا على حقوق الشريف ، « فلا سبيل عن الدفاع » . وأجاب كتشنر بأنه لا يعتقد ان الاتحاديين يجرؤون على الاعتداء على الشريف . وخرج كتشنر ، ولكن لم يلبث ستورز أن عاد يقول للأمير « آياً ما أردتم من الخدمات سنقوم بها حسب رغبتكم وشرّفونا للوكالة حتى نتحادث في الموضوع »[2] .

وكان الخديوي عباس[3] يعاضد الشريف في مساعيه ، آملاً أن يقوّي نفوذه الشخصي في بلاد العرب ويتزعم اتحاداً عربياً ضد الأتراك . فقد جاء في تقرير الأمير عبد الله ذاته : « أن الخديوي استدعى يوم ٦ شباط ١٩١٤ اسماعيل حقي السكرتير الأول للمندوب السامي العثماني وطلب منه أن يحذّر حكومته ، من مغبة اتخاذ أي اجراء مخالف لرغبات الشريف في الحجاز ، وأنه لا يسعه السكوت على ذلك . وقال أنه لن يسمح لعبد الله بالسفر الا اذا قدّمت الحكومة تأكيدات مقنعة بحسن نيتها » . وكان اسماعيل حقي قد زار الأمير مرتين على إثر زيارة الأمير لكتشنر كي يؤكد حسن نية الاتحاديين تجاه الشريف ، ثم أبرق لحكومته بما أنبأه به الخديوي .

وفي تقرير ثانٍ بتاريخ ١٦ شباط ١٩١٤ من الامير عبد الله لوالده ، نراه يقول ان اسماعيل حقي تلقى من الصدارة في استانبول برقية جوابية ابلغ للخديوي نصّها التالي ، بحضوره هو :

« منير باشا أجريَ تقاعده حسب المقررات العسكرية الأخيرة ، والوالي تبدل لتوحيد الوظيفة حتى تسهل الأمور الادارية كما تكرر الطلب بذلك من الامارة الجليلة . حضرة الأمير

---

(١) الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ـ ص ٩١ .

(٢) المؤلفات الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ـ ص ـ ٩١.

(٣) الخديوى عباس الثاني (١٨٧٤ ـ ١٩٤٤) حكم مصر من (١٨٩٢ ـ ١٩١٤) الابن الاكبر للخديوي توفيق . كان طموحاً. وحاول مقاومة الاحتلال البريطاني . خلعه الانكليز اثناء وجوده في الآستانة في كانون الاول عام ١٩١٤ بعد فرض حمايتهم على مصر . عاش بعد ذلك في المنفى في سويسرا الى أن مات .

الحالي اعتماد الدولة عليه وأمنيتها منه لم يحصل فيها أدنى تغيير ، وتبديله لم يتصور ولن يتصور . وأوضحوا هذا لعبد الله بك[1] » .

ولكن الخديوي حضّ الأمير على عدم الثقة بالاتحاديين وبما يقولونه . أما عن الانكليز فقد قال لعبد الله : « أنا لا آمنهم في بلادي ولكن آمنهم في البلاد العربية وخصوصاً في جهتكم ، لأنهم لا يتصور أن يحتلوا بلادكم بسبب خوفهم من غضب رعاياهم من المسلمين ، ولذلك هم يخدموننا بلا خوف منهم . وقد أسسّنا معهم الأساس فينبغي لنا أن نتشبث في قطع الكلام وأخذ القول اللازم منهم » . وهكذا أقنع الخديوي عبد الله بأن يتصل بستورز ويعرض عليه أمرين :

١ ـ اذا اضطرنا الاتحاديون للدفاع عن بلادنا ، فأنتم تمنعونهم من ضرب سواحلنا وانزال العساكر فيها وتفتحون لنا طريق ميناء السودان للمخابرات والمناقلات .

٢ ـ مقابل ذلك نسهل لكم التجارة ونرجحكم على كل الدول .

وطبقا لنصيحة الخديوي اتصل عبد الله هاتفياً بستورز ، فجاءه هذا على الفور . وعندما عرض عليه عبد الله ما اقترحه الخديوي قال ستورز :

ـ نعم هذه فكرتي التي أسعى اليها منذ عشر سنوات ، ولكن ماذا نفعل اذا قال الترك : عليكم اعادة الأمن ؟

وأجاب عبد الله :

« لا تظن أنت ولا حكومتك ، أن مراجعتنا هذه ناشئة عن حاجتنا اليكم ، ولكننا أحببنا احاطتكم علماً بالموقف لعلمنا باهتمامكم الناشىء عن كثرة عدد رعاياكم المسلمين ، ونحن خشينا اذا لم نخبركم ان تتخذوا من ذلك وسيلة للاعتراض والتدخل . ان الحجاز قادر على دفع الترك بقوته الحالية. ولا تظنوا أننا سنضطر للخضوع ، حتى لو حاصرنا الترك وحاربتمونا معهم . إننا سادة بلادنا وسنخرج منها كل ذي تابعية أجنبية » .

وكان جواب ستورز : « ان تعهدكم بالمحافظة على الأمن في البلاد يكفي . ثم قال انه لا بد له من عرض الأمر على اللورد كتشنر » .

ومن الواضح أن عبد الله بن الحسين سأل ستورز في هذه المقابلة ذاتها ، عما اذا كانت الحكومة البريطانية تستطيع أن تبيع والده إثني عشر مدفعاً رشاشاً أو نصف هذا العدد ،

---

(١) منير باشا : هو قائد القوات العسكرية في الحجاز والوالي بالوكالة . وهذا التقرير مأخوذ عن سليمان موسى : المراسلات التاريخية ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ عدد ٩ ـ ص ـ ٢١ .

على الأقل ، من أجل أن يتمكن الشريف من مقاومته اجراءات الاتحاديين المحتملة بقوة السلاح[1] .

غادر الأمير عبد الله القاهرة الى استانبول بعد أيام قليلة من هذه المقابلات ، دون أن يحصل على جواب شاف من كتشنر . ويبدو أن الأمير ـ أو الخديوي ـ عبّر عن خشيته مما قد يدبره له الاتحاديون عند وصوله ـ أي الأمير ـ الى تركيا . فكتب كتشنر رسالة للسفير البريطاني في استانبول يقول فيها « متى احتاج الأمير عبد الله الباخرة الحربية المخصصة للسفير البريطاني فاجعلوها تحت أمره » . وسلّم ستورز هذه الرسالة للأمير . وقال له : « ان فيتز موريس ترجمان السفارة البريطانية في الآستانة سيأتي لمقابلتك في أزمير ولتسلم هذا الكتاب منك وسيضع باخرة تحت تصرفك لتبحر بها اذا شئت . وأرجو أن تعلم أنه اذا دافع سمو الشريف عن حقوقه بالحجاز ، فالحكومة البريطانية ليس لها أي حق بالتدخل في شؤون داخلية لدولة صديقة ، ولا ترضى أبداً بدوام أية حركات تسببها تركيا ضد السلام السائد الآن في بلاد الحج » .

وسافر الأمير الى استانبول ، وبحث مع الصدر الأعظم والوزراء في الخلاف القائم بين أبيه والحكومات العثمانية على تمديد خط سكة الحديد من المدينة الى مكة ، كما بحث تصرفات وهيب الوالي الجديد ، تلك التصرفات التي اشتمّ الشريف منها روح العداء والمكيدة .

وبعد أن قضى الأمير عبد الله في استانبول نحو شهرين ، غادرها في منتصف شهر نيسان ، يحمل تطمينات الحكومة تجاه والده ،وعروضها بشأن تمديد سكّة الحديد الى مكة . وفي طريق عودته ، قضى اياماً في القاهرة ، ضيفاً على الخديوي عباس حلمي ، واتصل خلال ذلك بستورز ، وبحث معه موضوع مساعدة الانكليز للشريف ، اذا ما تردى الموقف بينه وبين الاتحاديين . وأجاب ستورز بناء على تعليمات كتشنر « أن عرب الحجاز يجب أن لا ينتظروا منّا أي تشجيع ، وأن مصالحنا الوحيدة في الجزيرة العربية هي سلامة الحجاج الهنود وراحتهم » .

ولم يجتمع الأمير بكتشنر هذه المرة ، ولا بدّ من أن يكون ذلك قد نشأ عن نصيحة السفير البريطاني في استانبول ، من أن اجتماعات كهذه لا تسر الباب العالي ، ولا سيما بعد أن خاضت الصحف التركية في موضوع المقابلات السابقة ، وتساءلت عمّا يمكن أن يكون قد دار خلالها من أحاديث .

---

(١) المؤلفات الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ـ ص ـ ٩٩ .

هكذا جرت الاتصالات الأولى بين الشريف حسين والانكليز ، وكان الدافع اليها ، ما ظهر من سوء نيّة الاتحاديين تجاه الشريف، وخشيته من أن يعمدوا الى عزله بالقوة . أي أن اهتمامات الشريف حتى ذلك الحين كانت مقتصرة على الاحتفاظ بما حقق للحجاز من استقلال داخلي . ومع أن رد الفعل البريطاني كان سلبياً ، الا أنه لم يكن رفضاً قطعياً جافاً ، بل ترك الباب مفتوحاً لاتصالات أخرى في المستقبل . وتكمن أهمية الاتصالات ، التي تمت في شباط ونيسان ، في أنها فتحت أذهان الانكليز على احتمال وقوع صراع علني بين الشعبين العربي والتركي ، والى ما يمكن أن يحمله ذلك الصراع المتوقع ، من امكانات للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط .

وما دامت الحكومة البريطانية تعلم أن أنظار الدول الكبرى تتركز على ما تبقى من أقطار الدولة العثمانية ، وان معاضدتها للشريف في قيامه بالتمرد على حكومة السلطان ، قد تجرّ الى نزاع علني مع الدول الكبرى ، فقد اعتذر كتشنر للأمير عبد الله دون أن يغلق باب الأمل كلياً في وجهه .

وتظهر قيمة هذه المحادثات في أن محاولات الأمير عبد الله للتقرب من انكلترة ، صادف حدوثها في الوقت نفسه الذي كانت تجول فيه أفكار معينة في خاطر كتشنر . فمع أنه كان يمثل بريطانية في القاهرة ، وعمله الرئيسي ينحصر في نطاق مصر والسودان ، غير ان نظره كان يمتد الى ما وراء مجاله المباشر ، اذ أن حملاته الحربية على السودان ، ومدة عمله قائداً عاماً في الهند ، وما أتيح له هناك من معرفة وثيقة بمشكلات الحدود الشمالية الغربية وافغانستان ـ كل ذلك أتاح له فرصة الاتصال المباشر بقوى المسلمين النضالية ، ونمّى في نفسه احساساً عميقاً بما للرابطة الدينية من شأن كبير . وكان خلال السنوات الثلاث التي قضاها في القاهرة لا يفتأ يرقب ـ باهتمام وقلق ـ القسطنطينية مقر الخلافة . وكان يتابع نمو النفوذ الالماني ، ويدرك ما ينذر به امتداد سكة حديد بغداد من شؤم ، ويشغل باله ما كان يتضمنه ذلك من تهديد لمركز بريطانية العظمى في الخليج العربي وفي الهند . ولم يكتم عن العدد القليل من اصدقائه الحميمين ، اعتقاده في أن الدبلوماسية البريطانية قد ارتكبت خطأ لا يغتفر ، بسماحها لالمانية باحتلال مكان الصدارة السياسية والحربية في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، وأصبح شغله الشاغل التفكير في هذه المشكلة وفي الطريقة التي يقاوم بها هذا الخطر . وخطرت بباله عدة حلول : أحدهما يتصل بجزء من سورية الجنوبية يمتد على وجه التقريب ، من خليج حيفا ، عكا على البحر الابيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الأحمر ، واحتمال اقتطاع هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية تدريجياً مع الزمن ، والعمل على وضعه تحت الحماية البريطانية ، وبذلك يمكن أن يمتد نطاق النفوذ البريطاني دون انقطاع من مصر حتى الخليج العربي . ومنها أيضاً ،

احتمال تشجيع الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية على تكوين دولة واحدة ، أو مجموعة من الدول ، مستقلة استقلالاً داخلياً وترتبط ببريطانية العظمى برباط الصداقة ، وتشمل المنطقة الممتدة من شواطىء البحر الأبيض المتوسط غرباً الى حدود ايران شرقاً ، وبذلك تصبح سداً انجليزياً - عربياً ، يوقف المدّ التركي - الألماني . « ومعنى ذلك أن كتشنر قد وصل - عن طريق تفكيره المستقل - الى رؤية الاحتمالات التي كان يفكر فيها الزعماء العرب الوطنيون » . وبينما كان يمعن في التفكير ، ويقلب وجوه النظر بتصوراته وأفكاره ، اتصل به الأمير عبد الله وزوده بمادة جديدة للتفكير . وكان عبد الله نفسه عضواً في احدى الجمعيات السرية[١] وكان مطلعاً على مشاعر عرب الشام المعادية للترك وذلك خلال مرافقة قافلة الحج الشامي الى دمشق ١٩٠٩ ، وكان مؤمناً بفوائد التفاهم الانجليزي - العربي متحمساً له .

٥ - مراسلات الحسين مكماهون :

تعتبر مراسلات الحسين مكماهون من أهم الأحداث التي سبقت الثورة العربية الكبرى ، ونظراً للأهمية التاريخية لهذه المراسلات فقد رأيت من الأفضل أن أخصص لها فصلاً مستقلاً[١] .

***

---

(١) يذكر الملك عبد الله ان البوليس التركي اقتحم الباخرة التي كانت تقله الى استنبول وألقى القبض على عدة رجال من الأرمن كانوا يعملون وقادين في السفينة بينما هم فدائيون أرسلهم حزب الحرية والإئتلاف من مصر للفتك بأنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا . وان القلق ساوره (أي عبد الله) آنذاك لما كان له من يد مع هذا الحزب في هذه المسألة .
« الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين »
(ص ١٠٤)

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .

الفصل الرابع

مراسلات الحسين - مكماهون

لقد أخذ الانكليز منّا عهداً في
القتال وأتممنا على العهد ، وقطعوا لنا
عهداً بالاستقلال والوحدة العربية
ولكنهم ويا للأسف نقضوا العهد

« الحسين بن علي (١) »

منذ عام ١٩٣٩ ومنذ أن أقدمت الحكومة البريطانية على نشر مراسلات الحسين - مكماهون[٢] ، أصبحت هذه المراسلات معروفة ، خاصة بعد أن قامت بدراستها[٣] . وهي تعتبر أكثر المراسلات السياسية شهرة واثارة للجدل في تاريخ العرب الحديث ، كذلك أقدمت الحكومة البريطانية على نشر تقرير اللجنة العربية البريطانية .

وقد أدى كشف بعض الوثائق والبيانات الجديدة التي كشف النقاب عنها منذ حين ،

---

(١) امين الريحاني - ملوك العرب - ج ١ - ص ٣١ . بيروت عام ١٩٥١ .

(٢) CND-5957 مراسلات الحسين - مكماهون هي مراسلات تمت بين السير مكماهون والشريف حسين في مكة . لندن ١٩٣٩ .

(٣) CND-5974 تقرير من اللجنة المعينة لبحث المراسلات بين السير مكماهون وشريف مكة - لندن ١٩٣٩ - الوثائق . وقد أوردنا نص هذه المراسلات حرفيا في ملحق هذا الكتاب .

الى القاء مزيد من الضوء على الظروف التي أحاطت بها ، وعلى نقطة أخرى هامة هي : كيف فهم المسؤ ولون البريطانيون مضمون هذه الرسائل يوم ذاك ؟ كذلك يهمنا أن نفهم في هذه المرحلة التاريخية ، ما كان يجول في نفس شريف مكة عندما أرسل مذكرته الاولى في تموز ١٩١٥ الى المندوب السامي البريطاني في القاهرة .

ولو تمعنا في أحداث تلك الفترة لرأينا أن الجوع والفاقة في الحجاز - وبالرغم من خطورتهما - لم يكونا من الاسباب التي دفعت الشريف حسين الى فتح باب المراسلات مع بريطانيا .

وقد استطاعت رسالتا اللورد كتشنر ، ومنشورات الحكومة البريطانية الرسمية ، ورسائل علي الميرغني ، أن تقنع الشريف حسين بأن الحجاز بعيد عن أخطار الحملات العسكرية من قبل الحلفاء ، وبعيد كذلك عن الوقوع تحت الاحتلال الاجنبي فيما لو لحقت الهزيمة بالاتراك وحلفائهم .

أما في عام ١٩١٥ فقد أصبح الشريف حسين أقوى سلطاناً من الوالي التركي ، خاصة بعد نقل وهيب بك وتعيين الفريق غالب باشا ، - وهو رجل طيب القلب مسالم - مكانه ، كما امتد نفوذ الشريف وعظم في تلك الآونة .

وقد روى محمد عريفان الذي حمل مذكرة الشريف الى القاهرة أن الأمير عبد الله طلب منه أن يؤكد « لستورز » أننا الآن لسنا تحت أمر الاتراك ولكن الاتراك تحت أمرنا[1] .

وعندما اتجه القوميون العرب في سورية الى الشريف حسين ، وبايعوه بالزعامة وألقوا على كاهله مسؤ ولية قيادة العرب نحو الوحدة والاستقلال ، هذين الهدفين اللذين ما كان العرب ليستطيعوا أن يحققوهما دون معاضدة خارجية ، أقول : ان هذا كله أثقل حمل الشريف وحمّله ، ليس فقط همّ الحجاز ، بل همّ الاقطار العربية كلها الى الشرق من الحدود المصرية .

هذه المتاعب والهموم ، جعلت رأي الشريف يستقر الى جانب رأي أبنائه ورأي زعماء القوميين العرب في سورية ، على التفاوض مع بريطانيا للحصول على الدعم الدولي والمعونة المادية التي لم يكن للعرب غنى عنها .

وقد يسأل سائل : ما سبب وقوع الاختيار على بريطانيا ؟ والجواب : هو أن هذا

---

(١) أقوال ابن عريفان كما سجلها ستورز في ١٨ آب عام ١٩١٥ .
P. R. O, F. O, 882 / 19

الاختيار كان أمراً طبيعياً لان بريطانيا هي الدولة الاكثر حضوراً في المنطقة ، فهي موجودة في مصر والسودان وعدن والخليج والبصرة ، وسمعتها عند العرب طيبة خلافاً لفرنسا التي كان لحكمها في الجزائر والمغرب سمعة سيئة ، ولروسيا التي عرفت بعدائها للاسلام ، بالاضافة الى انتفاء الرابطة بين فرنسا وروسيا من جهة ، وبلاد العرب من جهة أخرى . ان العرب ظنوا بأن النصر في الحرب سيكون من نصيب بريطانيا وحلفائها لما كانوا يرونه من ضعف الدولة العثمانية الشديد الى جانب فقرها ، ومن قوة بريطانيا وحضورها في المنطقة ، لذلك يجب على العرب أن يتحركوا لا أن يقفوا مكتوفي الايدي يودعون حاكماً يأفل نجمه ويستقبلون سيداً جديداً منتصراً ، وكان الشريف حسين يعتقد أن عليه أن يتحرك ، وأن يجري اتصالات جدية مع حكومة بريطانيا ، لان الانتظار يؤدي الى كارثة ، هذا بالرغم من دفاع بريطانيا عن مصر ، واستيلاء الاتراك على سلطنة لحج في أوائل تموز ١٩١٥ وتهديدهم عدن ذاتها ، وحملة غاليبولي وحملة العراق اللتين لم تحققا انتصارات باهرة .

كان هذا التفكير لا يبرح ذهن الشريف على الاقل لسبر غور بريطانيا ومعرفة نواياها الحقيقية نحو العرب معرفة الثقة والاستيقان .

سبب آخر دفع الشريف حسين الى ارسال مذكرته الاولى ، وجعل صبره ينفذ في الانتظار ، هو حملة الاعتقالات والارهاب التي قام بها جمال باشا في سورية منذ شهر نيسان ١٩١٥ . كذلك اقتناع السوريين بأن الاتحاديين يضمرون الشر كل الشر للعرب ، وبأنهم قادرون على القيام بثورة ناجحة في سورية بالتعاون مع الحجاز .

وكتبت الرسالة الاولى في الطائف ، وسلمها الشريف بحضور أبنائه الأربعة الى رجل يثق به كل الثقة وهو الشيخ محمد بن عريفان من قبيلة حرب ، وقد اختاره الشريف لانه كثير السفر حيث ينقل البضائع والحبوب بين السودان والحجاز على أسس تجارية ، وهذا يبعد الشبهة عنه . أما الرسالة فقد خُطّت بيد الأمير عبد الله ولم يحمّلها توقيعاً أو تاريخاً ، وانما أُرفقت برسالة شخصية من الأمير عبد الله الى المستر رونالد ستورز وهي الأخرى لا تحمل توقيعاً ولكنها مؤرخة في ٢ رمضان ١٣٣٣ الموافق ١٤ تموز ١٩١٥ .

المذكرة :

اشارت الرسالة التي أرسلها الأمير عبد الله الى أن المذكرة تتضمن الشروط المقترحة بشأن القضية العربية ، وأن الشعب بأجمعه يميل الى بريطانيا بحكم المصالح المشتركة . وحث الأمير صديقه ستورز على أن يبذل كل ما في وسعه كي تقبل الحكومة البريطانية الشروط العربية ، ثم طلب أن يكف الانكليز عن القاء المناشير واذاعة الشائعات ، لان

موقف العرب أصبح الآن محدداً ، كما طلب أن يتاح المجال للحكومة المصرية كي ترسل كعادتها هبة الحبوب التي اعتادت ارسالها في السابق الى أهل المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، قائلاً : « ان ارسال هبات السنة الحالية والسنة السابقة سيكون له أثر فعال في توطيد المصالح المشتركة » وعندما سلم الأمير عبد الله الرسالتين الى ابن عريفان قال له : « قل لستورز أن كلمتنا هي كلمة شرف وسوف ننفذها حتى ولو كلفنا ذلك حياتنا » .

وتنبع أهمية المذكرة ، التي بُنيت على أسس ميثاق القوميين العرب في دمشق ، من طبيعة مرونتها الديبلوماسية من جهة ، ومن حيث كونها الأساس الذي بدأت به المفاوضات بين الجانبين العربي والبريطاني من جهة أخرى . وجاءت المذكرة وفق الشروط التي أبدى العرب فيها استعدادهم للإتفاق على أساسها مع بريطانيا . ويجب علينا أن نلاحظ التعديلات التي طرأت على بنود الرسالة ، اذا أردنا اعطاء الحكم الصحيح والعادل على المراسلات كلها ، سواء ما تعلق بالحدود أو بالامتيازات والتنازلات ، وهكذا بعث الشريف الرسالة التي كتبها باسم العرب والامة العربية الى الحكومة البريطانية ، متخذاً صفة الناطق باسم العرب والمعبر عن أمانيهم . وسنعرض ملخصاً للشروط التي جاءت ضمن المذكرة لعقد اتفاق بين العرب وبريطانيا .

رغم أن العرب كانوا يفضلون مساعدة بريطانيا دون غيرها ، ويشعرون أن مصلحة بريطانيا تكمن في مساعدتهم ، الا أنهم كانوا قد قرروا أن يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وهذا ما دفعهم الى وضع هذه الشروط الاساسية التالية لعقد الاتفاق بين الطرفين مع تأجيل المسائل الثانوية لمفاوضات تجري في المستقبل :

١ ـ تعترف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية التي يحدها : شمالاً ، خط مرسين ـ أضنة الموازي لخط ٣٧° الذي تقع عليه بيريجيك ـ أورفه ـ ماردين ـ ميدات ـ جزيرة ابن عمرو ـ عمادية حتى حدود فارس ، وشرقاً حدود فارس الى خليج البصرة ، وجنوباً المحيط الهندي (باستثناء عدن التي ستحتفظ بوضعها الحالي) وغرباً البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط حتى مرسين . وتوافق بريطانيا على اعلان خلافة عربية .

٢ ـ تعترف حكومة الشريف حسين العربية ، بأفضلية بريطانيا في جميع المشاريع الاقتصادية في البلاد العربية ، اذا كانت شروط المشاريع متساوية .

٣ ـ يقوم الفريقان المتعاقدان بتبادل التعاون الى أقصى حد لمجابهة أية قوة أجنبية يمكن أن تهاجم أحد الفريقين ولا يعقد الصلح دون موافقة الفريقين .

٤ ـ يتشاور الفريقان اذا دخل أحدهما في نزاع مسلح مع طرف ثالث .

٥ ـ تعترف بريطانيا بالغاء الامتيازات الاجنبية في البلاد العربية وعليها أن تساعد حكومة الشريف على دعوة مؤتمر دولي لتصديق ذلك الالغاء .

وطلبت المذكرة الجواب على هذه الاقتراحات خلال ثلاثين يوماً .

وقالت المذكرة أن الشعب العربي سيحتفظ لنفسه بحرية العمل اذا لم يتلق جواباً خلال هذه المدة .

كانت هذه هي الرسالة التي حملها الشيخ محمد عريفان من الطائف ووصل بها عن طريق السودان الى الاسكندرية في ١٨ آب .

وكان رأي الرسميين الانكليز في مصر أن مذكرة الشريف تضمنت نقطتين أساسيتين :

١ ـ اقتراح الشريف عقد معاهدة مع بريطانيا العظمى .

٢ ـ اعتبار الشريف نفسه ناطقاً باسم العرب الخاضعين للسلطة العثمانية والذين يقطنون أساساً في شبه الجزيرة وسورية والعراق وبأن الخليفة هو الحاكم لهذه الاقطار[١] .
وقد دلت الملحوظات التي كتبها رونالد ستورز تعليقاً على المذكرة ، بأن الرسميين لم يحملوا مذكرة الشريف محمل الجد الكافي . كما أشار ستورز الى أن هناك تشابهاً تاماً بين ما اقترحه الشريف وبين الآراء التي طرحها الشيخ رشيد رضا . وأبدى رأيه بأن الشريف وضع شروطه الخاصة ولم يفوضه بذلك أصحاب الحل والربط الآخرون في بلاد العرب ،

وبأن الشريف يعرف أنه يطالب بأكثر مما يحق له أن يطالب به ، أو يأمل في تحقيقه أو يملك القوة على توقعه ،وقال ستورز :« أخيراً إن الشريف مثله مثل أبناء دينه الآخرين ـ يُحتمل أن يعدل في لهجته عندما تسقط استنبول[٢] »،ووافقت وزارة الخارجية البريطانية على برقية مكماهون التي أبرق بها في ٢٢ آب ، وقد اقترح فيها أن يرسل له جواب ترحيب بما قاله الشريف ، من توافق المصالح بين بريطانيا والعرب ، ويؤكد على ما جاء في رسالة اللورد كتشنر ، ويقول له ان مسألة بحث الحدود سابقة لأوانها .

وهنا بعث مكماهون الى الشريف برسالته الجوابية المؤرخة في ٣٠ آب ١٩١٥ وقد استهل رسالته بحشد مجموعة من الالقاب الطنانة وعبارات التمجيد والتبجيل .

---

(١) مجموعة الوثائق التاريخية حول اندلاع نار الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا عام ١٩١٤ ـ المكتب العربي في القاهرة ص ـ ١١٥ .

(٢) ملحوظة ستورز على رسالة الشريف الاولى بتاريخ ١٩ آب ١٩١٥ .

أما بعد فقد تضمنت الرسالة شكر الشريف على عواطفه نحو بريطانيا ، وتأكيد أقوال اللورد كتشنر حول رغبة بريطانيا « في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند اعلانها » ، ولم يمس مكماهون النقطة الرئيسية والمهمة بالنسبة للشريف بل دار حولها كالثعلب « بأسلوب بريطاني ثعلباني » ، فبحثُ الحدود سابق لأوانه لأن الحرب ما تزال قائمة ، وما تزال أغلب المناطق « موضوعُ البحث » تحت الاحتلال التركي . وزيادة في التملص من النقطة الاساسية ، قال مكماهون بأن بعض العرب ما يزالون يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع الاتراك والالمان . وأبدى استعداده لارسال الحبوب والهبات المقررة من مصر عندما يحدد الشريف مكان تسليمها .

وفهم العرب موقف بريطانيا من الرسالة الاولى ، لانها كانت تنم عن هذا ، وبريطانيا ليست مستعدة لتجاوز التصريحات العامة التي صدرت من قبل حول عطفها على العرب ومودتها للمسلمين ، وكان ظن مكماهون أن الشريف حسين لا يمثل سوى الحجاز ، وهذا الظن دفعه الى ظنٍ آخر وهو أنه من المحتمل أن يرضى الشريف بتأجيل مسألة حدود البلاد العربية ، لذلك لا بد أنه دهش عندما تلقى رسالة الشريف الثانية والمؤرخة بـ ٩ أيلول ١٩١٥ .

الرسالة الثانية :

إستهلها الشريف بالاعراب عما لمسه في جواب مكماهون من « الغموض وآثار الفتور والتردد في مادتنا الجوهرية » وهي مسألة الحدود . وأدرك الشريف أن مكماهون لم يفطن إلى الأهمية التي يعيرها العرب لقضية الحدود ، فأوضح له أن الحدود التي طلبها في مذكرته ليست منوطة بشخص واحد بعينه يمكن البحث معه في شأنها وترضيته بعد انتهاء الحرب ، بل تتعلق بـ « أقوامنا » الذين يرون أن حياتهم الجديدة التي يطمحون إليها « مربوطة بتلك الحدود والتخوم » .

وقد رأى العرب بحث أمر حدود دولتهم العتيدة ، مع بريطانيا « محل ثقتهم واعتمادهم » ، وهم يعتقدون أن اتحاد مصالحهم بمصلحة بريطانيا جدير بأن يحفزها على معاضدتهم ومساعدتهم في تأسيس حياتهم المقبلة ، كما أنهم يطلبون البت في هذه المسألة ، حتى لا يصطدموا في المستقبل بمعارضة بريطانيا أو حلفائها ، بالاضافة إلى أنهم اقتصروا في مطالبهم على الأقطار المأهولة بهم . وأراد الشريف أن يُفهم مكماهون أن طعم الخلافة الذي طرحه ـ وهو يعتقد أن بريقه سيخلب بصر الشريف ـ ليس هو الطعم الذي يبحث عنه هو وقومه بقوله « والله يرحم الخلافة ويحسن عزاء المسلمين فيها » .

وكرر مرة ثانية القول أن طلبه بالنسبة للحدود المقترحة ليس مطلباً شخصياً من قبله ، بل هي مطالب شعبه ، مطالب قومه الذين يؤمنون ويصرون على أنها « من الضروريات الحياتية والاقتصادية » . ثم ألح على ما ذكره مكماهون وهو أن : بعض العرب يتعاطفون مع تركيا ويساندون الأتراك ، وقال إن هذا لا يبرر « الفتور والتردد اللذين لاحظهما في جوابه » ، وعاد ليؤكد ثالثة أن الحدود المطلوبة « هي حياتنا المادية والمعنوية والأدبية » . وأعلن الشريف أن جميع العرب ـ حتى أولئك الذين يقولون أنهم وضعوا أنفسهم تحت أوامر الأتراك والألمان ـ ينتظرون نتيجة هذه المباحثات ، وهذا لكي لا يجعل مجالاً للشك في نفس مكماهون بأن المطالب التي قدمها الشريف هي مطالب الشعب العربي .

وبيّن الشريف أخيراً الطريقة التي يمكن اتباعها لإرسال الحبوب العائدة للأوقاف الإسلامية « والتي هي من الأوقاف الخاصة ولا علاقة لها بالسياسة » . وقال بأن إرسال هذه الحبوب سيكون برهاناً على ما أعلنته الحكومة البريطانية من أن عداءها موجه إلى حزب الاتحاد والترقي وليس إلى المسلمين ، وقال أيضاً : « إنه من الطبيعي أن البلاد عندما تعلن استقلالها سواء وافقتم على مطالبها أو لا ، فإنها سوف تخبركم بذلك »[1] .

في اليوم التالي لوصول رسول الشريف حسين إلى القاهرة ، يوم ١٧ تشرين الأول أبرق مكماهون خلاصة الرسالة إلى وزارة الخارجية وتلاها بأخرى ذكر فيها بأن الشريف تأثر كثيراً لأن الانكليز يمنعون الحجاج من اداء فريضة الحج ولم يوقفوا إرسال المحمل ، والمسؤولون عن الضائقة التي يعانيها أهل الحجاز هم الأتراك وحدهم .

« وقد استشاط الشريف حسين غضباً للأنباء التي بلغته عن قيام الأتراك بشنق ١٥ وجيهاً عربياً في حمص وحماه . . . فاستدعى الأتراك ابنه الثالث فيصلاً ليساعدهم في سورية ، وقد ذهب إلى هناك على شرط صريح وواضح ، وهو : أن تكون له حرية الاتصال بجميع الزعماء العرب في سورية »[2] .

في هذا الوقت ، حدث تطور مهم من جراء المعلومات التي أدلى بها الملازم الأول محمد شريف الفاروقي ، الذي قطع خط النار في غاليبولي وسلم نفسه للقوات البريطانية في ٣ أيلول ١٩١٥ ، طالباً أن يعتبر ضيفاً لا أسيراً وأن ينقل إلى مصر كي يدلي بما لديه من معلومات سياسية مهمة ، وكان مما قاله : هو أن الشريف يدعي بتمثيله العرب ، وأن هناك حركة قومية منظمة في صفوف المثقفين والضباط العرب ، وكان أن استجاب الانكليز

---

(١) ملحق رسالة الشريف في P.R.O ,F.O 882/19

(٢) برقية مكماهون رقم ٦٢٦ بتاريخ ٢٠/ ١٠/ ١٩١٥ . P.R.O, F.O 141/467

إلى طلب محمد شريف ، فنقلوه إلى مصر حيث قابل العقيد كلايتون ، وعقد معه عدة اجتماعات كتب عنها مذكرة طويلة بتاريخ ١١ تشرين الأول . كذلك تحدث عن جمعيتي « العربية الفتاة » و« العهد » وتنظيماتهما ، كما قال إن أعضاء هاتين الجمعيتين أقسموا اليمين « على أنهم سوف يحققون هدفهم وينشئون خلافة عربية في شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق مهما كان الثمن . وتحت أية ظروف مضحين في سبيل ذلك بكل جهودهم وبكل ما يملكون ، ومضحين بحياتهم إذا اقتضى الأمر » .

وكانت جمعية « العربية الفتاة » ذات قوة كبيرة ونفوذ عظيم في جميع أنحاء الأقطار العثمانية كما قال الفاروقي .

ورغم أن الالمان والأتراك كانوا يعلمون أن الجناح العسكري ، (العهد) كان يقف موقفاً سلبياً منهم ، إلا أنهم لم يجرؤوا على قمع نشاطه ، وقد قرر أعضاء الجمعية أنهم لا يستطيعون التريث أكثر مما تريثوا (كما قال الفاروقي) ، ولهذا فقد عقدوا العزم على أن يعرضوا على انكلترا تعاونهم الفعال مقابل تعهدها بمعاضدتهم في سعيهم إلى تحقيق الاستقلال .

وقال كلايتون في مذكرته أن مقترحات الشريف تشبه مقترحات الفاروقي ، وأن الجواب الذي وصله والذي فيه شيء من التملص ، أثار الشكوك في ذهنه ، مما دفعه إلى الرد بسرعة غير عادية معبراً عن دهشته لتردد السلطات البريطانية في بحث مسألة الحدود ، كما أشار كلايتون في مذكرته إلى ضرورة حصول بريطانيا على صداقة الرأي العام الإسلامي ، وأن « الجهاد » لم يحقق الغاية التي أرادها الأتراك نتيجة لموقف العرب السلبي منه .

كما أشار إلى أن إعطاء جواب ملائم على المقترحات العربية قد يضمن صداقتهم على الأقل ، وأن الجمعية العربية سوف تعمل على توسيع عمليات الشريف في الحجاز حتى تمتد إلى سورية وفلسطين وإلى بغداد والموصل[1] . « وما من شك في أن موقف الشريف هو موقف أكثرية الشعوب العربية » .

ويمكننا أن نعتبر أن الآراء التي عزيت للفاروقي كان لها تأثيرها في صياغة التأكيدات التي أعطيت للشريف .

وفي ١٢ تشرين الأول بعث مكماهون نسخة من إفادة الفاروقي إلى وزارة الخارجية ،

---

(١) نجد الاجزاء الاساسية في مذكرة كلايتون في P.R.O, F.O 311 / 6237 ص ٣٠ ـ ٣١

كذلك أرسل العميد ماكسويل مذكرة كلايتون المتعلقة بالفاروقي إلى اللورد كتشنر قائلاً أن « المسألة ذات أهمية كبيرة وتتطلب المعالجة في الحال » .

وتضمنت البرقية التي أبرق بها ماكسويل إلى كتشنر في ١٦ تشرين الأول « أن مكماهون بعث إلى وزارة الخارجية مقترحات العرب المقدمة بواسطة شريف مكة » ، في الوقت الذي لم يؤكد فيه على وجود جمعية عربية ذات نفوذ تعمل في الجيش التركي . وقد حذر من أن عدم الاتفاق مع العرب سيؤدي إلى انضمامهم إلى جانب الأتراك ، وهذا « سوف يزيد زيادة مادية مصاعبنا في العراق والجزيرة العربية ومع السنوسي أيضاً ويجعل غزو مصر أكثر يسراً » .

كما حث ماكسويل على ضرورة التوصل إلى اتفاق عاجل مع العرب حتى تضم الجمعية العربية جهودها ضد الأتراك والاتحاديين في وقت واحد .

بالاضافة إلى هذا فقد أبدى ماكسويل رأيه في عهد التعميات الغامضة الذي ولى وانقضى ، كما نصح بالاقتراب من وجهة النظر العربية والضغط على الفرنسيين كي يتساهلوا .

ثم عاد للتحذير من إضاعة الوقت إذ « من المحتمل أن يتحد الإسلام ضدنا إلا إذا قدمنا اقتراحاً محدداً ومقبولاً لشريف مكة في الحال[1] .

كانت برقية كتشنر التي بعث بها في اليوم التالي إلى ماكسويل تتضمن : « أن الحكومة مهتمة إلى أقصى حد بمعالجة المسألة العربية بصورة تكون مرضية للعرب . أرجو أن تخبرني برقياً ماذا تريدون وأن تبحث الموضوع مع مكماهون »[2] .

وفي ١٨ تشرين الأول أبرق مكماهون بخلاصة رسالة الشريف المؤرخة في ١٩ أيلول إلى وزارة الخارجية .

وفي نفس اليوم أرسل برقية شخصية إلى السير أدوارد جراي وزير الخارجية ، وقد ذكر في هذه الرسالة ما أفاده الفاروقي في محادثات أخرى معه وهي بأن القوميين العرب يقفون على مفترق الطرق .

وبأن ألمانيا وعدتهم بتحقيق جميع مطاليبهم ، وأنهم سوف يلقون بثقلهم إلى جانب ألمانيا إذا لم نعطهم في الحال تأكيداً مرضياً لهم .

---

(١) P.R.O, F.O 882/13

(٢) P.R.O, F.O 882/13 البرقية رقم W.08784 في ١٧/ ١٠/ ١٩١٥

وكان تأكيد مكماهون على ما جاء في برقية ماكسويل . وذلك أنه يحتمل وقوف جميع مسلمي الشرق ضد الحلفاء في حال انحياز العرب إلى جانب ألمانيا ، بينما يكون العكس في حال تعاونهم الفعال هذا التعاون الذي لا بد وأن يؤدي إلى تسهيل سير الحملة العسكرية في العراق وسورية . .

وقد أرسل جراي وزير الخارجية البريطانية في ٢٠ تشرين الأول بالبرقية التالية :

« إنك مخول بإعطاء تأكيدات ودية ، ضمن الخطوط التي اقترحتها في برقيتك الشخصية بتاريخ ١٨ تشرين الأول ، مع التحفظ المقترح فيما يتعلق بحلفائنا ، ولكي نحصل على موافقة العرب ، فيجب - إلا إذا كان ذلك ضرورياً - أن لا تشتمل التأكيدات ، على الشرط القائل بأن على العرب أن يعترفوا بأولوية المصالح البريطانية ، وبأن عليهم أن يعملوا تحت إرشاد بريطانيا . . . الخ . إن شرطاً كهذا يمكن أن يعطي في فرنسا انطباعاً بأننا لا نرمي إلى تأمين المصالح العربية فحسب بل أيضاً لتوطيد مصالحنا ذاتها في سورية على حساب الفرنسيين . أما بشأن الأماكن المقدسة في الحجاز والعراق ، فلا توجد أية مصاعب في هذه الناحية ، ويمكنك أن تتكلم حولها دون تحفظ . ولكن التحفظ العام الذي نقترحه ضروري إلى أقصى حد ، وخاصة فيما يتعلق بالحدود الشمالية الشرقية (العراق)، بالنظر إلى المصالح الخاصة في منطقة بغداد والمنطقة التي استولينا عليها فعلاً ، فإن المنطقة المقترح إخضاعها للنفوذ البريطاني - أي ولاية البصرة بالذات - بحاجة إلى توسيع . إن هذا بدون شك لن يضر مصالحنا مع الزعماء العرب »[1] .

« إن إعطاء تأكيد يؤدي إلى الحيلولة دون إنحياز العرب إلى صفوف أعدائنا هو الأمر الأكثر أهمية ، وبما أن المسألة مستعجلة ، والوقت لا يتيح بحث صيغة اتفاق كاملة ، فإنني يجب أن أترك المجال لحسن تقديرك في هذا الموضوع . وإذا لم يكن التأكيد المطلوب أكثر دقة وتحديداً ، وفي هذه الحال يمكنك إعطاءه ، فإن أبسط خطة يمكن اتباعها هي إعطاء تأكيد باستقلال العرب ، كما يمكن أن تضيف إليه أنهم إذا أرسلوا مندوبيهم فإننا سنباشر في الحال بحث مسألة الحدود ، وعليك أن تحيط السردار علماً بكل ما يجري » .

وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ بعث مكماهون برسالة إلى الشريف حسين على أساس هذه البرقية وهي دون شك أهم حلقة في سلسلة مراسلات الحسين - مكماهون وقد بدأ مكماهون رسالته بقوله :

« إن ما لاحظه الشريف من فتور وتردد حول مسألة الحدود لم يكن مقصوداً ، وأنه

---

(١) نص البرقية رقم ٧٩٦ في P.R.O, F.O 371/6237. F.O 141/1461

بناء على اهتمام الشريف سارع في ابلاغ حكومة بريطـانيا العظمـى ، وهـو بالنيابـة عن حكومته يبلغ الشريف التصريحات التالية :

إن ولايتي مرسين واسكندرونة وأجـزاء من بلاد الشـام الواقعـة في الجهـة الغـربية لولايات ، دمشق الشام وحمص وحماه وحلب ، لا يمكن أن يقال أنها عربية محضة . وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب فنحن نقبل تلك الحدود .

وأما ما يخص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود ، حيث بريطـانيا العظمـى مطلقـة التصرف على أن لا يمس مصالح حليفتها فرنسا ، فإني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي :

١ ـ إنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب ، وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

٢ ـ إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة ضد أي اعتداء خارجي وتعتـرف بوجوب منع التعدي عليها .

٣ ـ وعندما تسمح الظروف ، تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة .

٤ ـ هذا ومن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها ، وأن المستشارين والموظفـين الأوروبيين اللازمـين لتشكيل هيئـة إدارية قومية يكونون من الانكليز .

٥ ـ أما بخصوص ولايتي بغداد والبصرة ، فإن العرب يعترفون بأن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك ، تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة .

وعزز مكماهـون هذا التصريح بقولـه أنـه يرى فيه برهانـاً على رغبـة بريطـانيا في الاستجابة لرغبات أصدقائها العرب ، وبأنه من المأمول أن يتم التوصل إلى عقد « محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلـة طرد الأتـراك من بلاد العـرب وتحـرير الشعوب العربية من نير الأتراك » .

واختتم الرسالة بقوله ، أنه طلب من الرسول محمد بن عريفان أن يبلـغ الشريف « بعض المسائل المفيدة التي تحتل الدرجة الثانية بالنسبة لأهميتها » .

ويجب أن نقرأ رسالة مكماهون التي بعث بها إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٦ تشرين الأول ١٩١٥ حول موضوع رسالته إلى الشريف حسين ، كما يجب أن نتفهمها لندرك تلك المراوغة التي راوغها مكماهون .

أورد مكماهون في رسالته : « أنه أعطى تصريحاً قاطعاً بأن بريطانيا العظمى سوف تعترف بمبدأ الاستقلال العربي في المناطق ذات العروبة المحض » وأنه استسنى بصورة قاطعة مرسين والاسكندرونة « وتلك المناطق الواقعة على الشواطىء الشمالية السورية التي لا يمكن القول أنها عربية وهي المناطق التي فهمت أنه اعترف بمصالح فرنسا فيها » .

ويقول مكماهون أنه في الوقت الذي اعترف فيه بأن « دمشق وحماه وحمص وحلب داخلة ضمن نطاق الأقطار العربية » . فقد حاول أن يأخذ حذره مما قد تدعيه فرنسا حول هذه الأماكن عن طريق تعديل عام مفاده « أن بريطانيا العظمى تستطيع فقط أن تعطي تأكيدات تتعلق بالأراضي التي تستطيع أن تكون فيهـا مطلقـة التصرف على أن لا تمس مصالح حليفتها فرنسا » .

وانتهى مكماهون إلى القول بأن رسول الشريف ، محمـد بن عريفـان أبلـغ شفهياً بمضمون الرسالة التي حملها « كي يسهل على الشريف فهمها » كما أعطيت له تأكيدات شفهية أخرى تتضمن التعاطف والتعاضد[1] .

وإذا أمعنا النظر في النقاط التالية التي تضمنتها رسالة مكماهون إلى الشريف تجلت لنا مرواغة ومقاصد مكماهون :

١ ـ ان كلمة « ولاية » لم ترد في رسالة مكماهون بمعنى المنطقة الادارية التي كان يطلقها العثمانيون على « ولايات » دولتهـم ، بل وردت بمعنـى « نـاحية » أو « جهـة » أو « منطقة » . فلم تكن في الدولة العثمانية ولاية مرسين ولا ولاية اسكندرونة ، ولا ولاية دمشق ، ولا ولاية حمص ، ولا ولاية حماه . ان مرسين ميناء يقع في « ولاية أضنة » . أما دمشق وحمص وحماه فهي مدن كبيرة من « ولاية سورية » . واسكندرونة ميناء في ولاية حلب . حقاً كانت هناك « ولاية حلب » ولكن رسالة مكماهون لم تقصـد هذا المعنـى بدليل ان الاجزاء الواقعة الى الغرب من ولاية حلب ، هي سواحل البحر لأن ولاية حلب كانت تضم الجزء الشمالي من الساحل السوري . المقصود إذاً ـ وهذا ما فهمه الشريف ـ

---

(١) رسالة مكماهون الى وزارة الخارجية رقم ١٣١ /P.R.O, F.O 371/6237

استثناء الأراضي الواقعة على الشاطىء السوري الشمالي ، غربي المدن الأربع الكبيرة : دمشق وحمص وحماه وحلب ، أي المنطقة الساحلية الممتدة من صور الى الاسكندرونة .

٢ ـ لقد وافق مكماهون على الاعتراف باستقلال العرب ضمن الحدود التي طلبها شريف مكة في مذكرته الأولى ، مع استثناء مناطق معينة حرص على أن يشير اليها ويُعيّنها . وكل ما لم يستثنه مكماهون بالتحديد الواضح يبقى بطبيعة الحال ضمن المناطق التي اعترفت بريطانيا العظمى بأنها عربية ومستقلة .

٣ ـ استثنت بريطانيا مناطق في الجزء الشمالي ـ الغربي من سورية بسبب « مصالح حليفتها فرنسا » ، زاعمةً ان تلك المناطق « لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية محض » . وهذا هو ما فهمه الشريف بدقة .

٤ ـ سورية ـ أو بلاد الشام ـ في ذلك الحين كانت تعني تلك المنطقة الجغرافية والتاريخية التي تمتد من جبال طوروس شمالاً الى شبه جزيرة سيناء جنوباً ، وكانت تضم جزءاً من ولاية حلب وولاية بيروت وولاية سورية وسنجق لبنان وسنجق القدس ، وهي المنطقة ذاتها التي قسمت نتيجة لتسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى ، الى سورية (بما في ذلك سنجق اسكندرونة الذي أعطته فرنسا لتركيا سنة ١٩٣٨) ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن .

٥ ـ ان رسائل مكماهون كتبت في الأصل باللغة الانكليزية ثم ترجمت الى العربية ، والنص الانكليزي الذي ترجمت عنه كلمة « ولاية » هو« District » أي أن المعنى المقصود أصلاً بهذه الكلمة لا ينصرف الى التقسيمات الادارية العثمانية .

٦ ـ تحمل رسالة مكماهون الى وزارة الخارجية المتعلقة برسالته الجوابية الى الشريف ، الدليل القاطع على ان المناطق المستثناة هي مرسين والاسكندرونة (أي هذان الميناءان ذاتهما) والمناطق الساحلية في شمالي سورية ، وانه خشي أن تمتد مطامع فرنسا الى أجزاء أخرى ، فاحتاط لذلك بقوله ان التأكيدات تشمل فقط الأجزاء التي تكون فيها بريطانيا « مطلقة التصرف على أن لا تمس مصالح حليفتها فرنسا » .

٧ ـ مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه ، وبدون التعرض للمعاهدات المعقودة مع بعض رؤساء العرب ، فان بريطانيا تعترف باستقلال العرب « في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة » .

علينا أن نلاحظ أن الشريف كان يجهل أمر التوقيع على معاهدة بريطانيا مع الادريسي (نيسان ١٩١٥) . ولم تكن المعاهدة مع ابن السعود قد وقعت بعد (٢٦ كانون الأول

١٩١٥) . ونكاد نجزم أن الشريف كان يومذاك يعتقد أن المعاهدات المشار إليها تقتصر على الكويت والبحرين وبعض المشيخات الأخرى في خليج البصرة . ومن الواضح أن حكومة الهند لم تعرض على ابن السعود عقد معاهدة معه ، إلا لكي تُفوّت على الشريف فرصة المطالبة في المستقبل بادخال تلك المنطقة ضمن الأقاليم التامة الاستقلال .

٨ ـ يستعين العرب بنصائح بريطانيا ويقبلون مساعداتها وارشاداتها ويقتصرون على المستشارين والموظفين الانكليز .

٩ ـ فيما يتعلق بولايتي بغداد والبصرة ، يعترف العرب بأن مصالح بريطانيا « تستلزم اتخاذ تدابير ادارية مخصوصة لحمايتهما من الاعتداء الاجنبي ، وزيادة خير سكانهما ، وحماية مصالحهما الاقتصادية المتبادلة » . ونفهم من هذا أن بريطانيا لم تستثن ولايتي بغداد والبصرة من منطقة الاستقلال العربي . ولكن التدابير المخصوصة التي أشار اليها مكماهون ، تجعل ذلك الاستقلال كلاماً لا معنى له ، وتظهر التناقض الفظيع الذي حاول مكماهون أن يغطيه بالعبارات المطاطة .

وصلت رسالة مكماهون الى مكة المكرمة بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٥ فلم يلبث الشريف أن أجاب عليها برسالته المؤرخة في ٥ تشرين الثاني . وقد تضمن جواب الشريف النقاط التالية :

١ ـ التخلي عن « ادخال ولايتي مرسين وأضنة في أقسام المملكة العربية » . أما بشأن « ولايتي حلب وبيروت وساحلهما فهما ولايتان عربيتان محضاً » . وبما أن الشريف فهم من تحفظات مكماهون أن مصالح فرنسا المشار اليها تنحصر في جبل لبنان (وأكثر سكانه مسيحيون) فقد مضى الى القول بأنه « لا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فانهما أبناء جد واحد » . أي أن الشريف رفض فكرة التخلي عن حلب وبيروت وساحلهما ، ورفض الاعتراف بمصالح فرنسا فيهما ، وكرر طلبه الأساسي بأن تكونا ضمن المنطقة العربية المستقلة لأن جميع سكانهما عرب ، رغم أن دين بعضهم هو المسيحية . لاحظ هنا أن الشريف استعمل كلمة « ولايات » بمعنى « جهات » و « نواحي » .

٢ ـ أصرّ الشريف على أن الولايات العراقية عربية خالصة العروبة ، ولكنه بناء على ما أورده مكماهون من ضرورة حمايتها من الاعتداء الاجنبي ، ولصيانة « تلك الحقوق الممتزجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد » ، قال انه يمكن أن يرضى بأن تبقى الجهات التي كانت القوات البريطانية تحتلها يومذاك (أي ولاية البصرة بوجه التقريب) تحت الاحتلال البريطاني « الى مدة يسيرة » . واشترط الشريف أن يكون ذلك الاحتلال لقاء مبلغ مناسب من المال تحتاج المملكة العربية العتيدة اليه لتوطيد دعائمها . وهنا قال

الشريف أنه يحترم اتفاقات بريطانيا « مع مشايخ تلك الجهات » ، أي جهات البصرة فحسب .

٣ ـ استوضح الشريف عمّا اذا كان يحتمل أن تعقد بريطانيا العظمى الصلح مع الاعداء دون علم العرب وطلب أن لا تتخلى بريطانيا عن العرب .

٤ ـ وافق الشريف على أن يستعين العرب بالموظفين والمستشارين الانكليز ولكنه اشترط على أن لا يتدخل هؤلاء في الشؤون الداخلية أي أن يكونوا مستشارين فقط لا غير .

٥ ـ إذا قبلت هذه الشروط فإن العرب سيلقون بثقلهم الى جانب بريطانيا العظمى .

ولم تجد التأكيدات التي أعطاها مكماهون في رسالته المؤرخة بـ ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ بشأن ولايتي البصرة وبغداد قبولاً لدى وزارة الهند .

وأرسلت وزارة الخارجية في ٥ تشرين الثاني بنص احتجاج شديد اللهجة من وزير الهند الى مكماهون مؤداه أن :

« التأكيدات التي تمضي الى أبعد مما فكرت فيه وزارة الهند ، والعرب غير محبوبين لدى أهل الهند الذين يعتبرون العراق مكافأة لهم على اتعابهم . والمعلومات التي تملكها وزارة الهند تقول أن الشريف شخص لا يؤ به له .

وأن العرب غير متحدين وأنه لا محل للآمال المعقودة على قيام ثورة في الجيش وفي جهات أخرى . ويقال أن الزعيمين الصديقين ابن سعود والادريسي هما ضد الشريف ، بينما الزعماء الأصدقاء للشريف مثل ابن الرشيد يميلون الى الاتراك[1] » .

وكان محمد بن عريفان قد وصل في هذه الاثناء الى السودان ثم الى القاهرة ، وقد أفاد أنه التقى بالأمير عبد الله في مكة ، فسلمه رسالة مكماهون ، وأوصل الرسالة التي كان يحملها اليه شفوياً ، في الوقت الذي عاد فيه عبد الله لتوه من نجد ، يصحبه عدد من زعماء القبائل الذين أقنعهم بالانفصال عن حملة ابن الرشيد التي كانت متجهة نحو العراق لمقاومة الانكليز .

وعلم ابن عريفان من الأمير عبد الله أن الضابط الالماني اوبنهايم خرج من المدينة المنورة مطروداً بعد أن وصل اليها .

وحدث حادث في هذه الاثناء كاد أن يؤدي الى افتضاح سرّ المخابرات الجارية بين

---

(1) P.R.O, F.O 882-12

الشريف والانكليز .

إذ وصلت في شهر تشرين الاول ١٩١٥ سفينة حربية بريطانية الى مرسى طوال بين جدة ورابغ ورست هناك .

وأبلغ قائدُ السفينة شيخَ البلدة الذي أتى مستوضحاً عن سبب مجيئه ، فقال بأنه ينوي احتلال ذلك الموقع بناء على ترتيب مسبق مع ابن عريفان وما كان من هذا الشيخ إلا أن اتجه الى الشريف حسين مبلغاً إياه ما سمعه ، في الوقت الذي قام فيه البدو بتفتيش منزل ابن عريفان في قرية « كاظمة » ، ثم وصل النبأ الى أسماع المسؤولين الاتراك فأثار شكوكهم ودفعهم الى تشديد المراقبة على الشواطىء . وعلى الأثر طلب الشريف أن لا يتكرر هذا الحادث البالغ الخطورة[1] .

كان يقضي ترتيب تنقلات ابن عريفان ، بأن يبحر هذا الى ميناء بور سودان من شاطىء الحجاز ، حيث يسلم رسالته هناك فتترجم من قبل الانكليز ترجمة أولية ثم يبرقون بمضمونها الى ونجت في الخرطوم ومكماهون في القاهرة . بينما يواصل ابن عريفان رحلته بالباخرة متنقلاً بين الاسكندرية والقاهرة حيث يقيم المندوب السامي بالقاهرة لذلك كان ونجت على صلة تامة بسير المحادثات .

وأبحر مكماهون في تشرين الثاني من عام ١٩١٥ الى جزيرة مدروس ، بهدف الاجتماع باللورد كتشنر للاشتراك في المباحثات التي كانت تجري لترتيب انسحاب القوات البريطانية من غاليبولي. وكان هذا سبباً في التأخير بالرد على رسالة الشريف لان مكماهون لم يتمكن من إرسال ملاحظاته وآرائه حول الرسالة الى وزارة الخارجية إلا بعد عودته من رحلته .

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩١٥ أي في هذه الاثناء أرسل ونجت رسالة خاصة الى كلايتون يعلق فيها على رسالة الشريف .

وعلى احتجاج حكومة الهند حول ولايتي البصرة وبغداد . وتضمن رأي ونجت حول الرسالة أن : « رسالة الشريف مهمة الى أقصى حد وتعطي البرهان القاطع على أنه ليس بالشخص الذي لا يؤبه له بأي حال من الأحوال . بل إنه رجل دولة ديبلوماسي » .

ويتابع ونجت تعليقه على الرسالة بأن حجج الشريف المتعلقة بالعراق « بارعة الى حد بعيد وتبدو لي بأنها وسيلة ممتازة للخروج من المأزق » . وقصده من ذلك هو اقتراح

---

(١) تقرير الرسول (ج) عن رحلته الثانية من السودان الى مكة P.R. O. F. O 882-12 ، وبرقية حاكم السودان العام الى كلايتون بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩١٥ .

الشريف بقيام بريطانيا بدفع مبلغ من المال له مقابل احتلال ولاية البصرة مدة من الزمن .

وإن بريطانيا ستكون في حِلّ من وعودها في حال إنشاء العرب لدولتهم ، أما إذا أصبحت الدولة حقيقة واقعة « فإننا نملك التأمينات الكافية للإمساك بزمامها » ، وأن بريطانيا تستطيع أن تقيم حواجز تَحول بفعالية دون أن تصبح تلك الدولة الخطر المخيف الذي تخشاه حكومة الهند ، وكان ونجت يُعبّر دائماً عن أمله في قبول الحكومة البريطانية لطلبات الشريف لأنه سيكون لها تأثير في المستقبل[1] .

في ٣٠ تشرين الثاني بعث مكماهون بعد أن عاد من زيارته الى ميدان الدردنيل ببرقية مطولة الى وزارة الخارجية ضمنها آراءه في رسالة الشريف .

كانت رسالة الشريف ـ وفق ما رأى مكماهون ـ مرضية ، من حيث الرغبة في التفاهم المتبادل ضمن شروط معقولة . كذلك فهي تعطي فرصة لإجابة رغبات وزارة الهند فيما يتعلق بالعراق .

وكان مكماهون يرى أنه من المستحيل التوصل الى تفاهم عام مع العرب ، إذا لم يعترف بأن العراق جزء من بلاد العرب ، كما قال بأن وزارة الهند تجاهلت في انتقاداتها أهمية العراق في نظر العرب . كما ناقش إدعاء وزارة الهند القائل بأن الشريف شخص لا أهمية له ، وقال : « على العكس ، إن كل شيء يقدم البرهان على أنه ـ بسبب مركزه ونسبه وشخصيته ـ هو الجهة الوحيدة التي يُحتمل أن تلتقي عندها قضية العرب . وعلاوة على هذا فهو ضد الاتراك الى حد أنه يقف الآن تحت تهديد خطر عظيم من الاتراك على شخصه » .

وكان قول مكماهون دائماً : إن الحركة الحاضرة قومية أكثر منها دينية . « إنه سيكون من الضروري إنشاء أشكال إدارية مختلفة تناسب الاحوال المحلية في الأجزاء المختلفة من الامبراطورية العربية . وفي نظري أن هذا وحده سوف يمنع خلق الدول العربية المتحدة والمستقلة التي على ما يبدو أن سلطات الهند تخشاها »[2] .

---

(1) . P. R. O. F. O. 288/ 12

(٢) « أصبح معلوماً الآن أن المكتب البريطاني في بومباي ، أي حكومة الهند حينذاك ، كان يتبع سياسة تختلف عن المكتب البريطاني في القاهرة ، الذي يتبع وزارة الخارجية في لندن مباشرة ، فالمكتبان كانا يسيران وفق سياسة مستقلة احداهما عن الأخرى ، بل كانت تصرفاتهما في معظم الاحوال متناقضة ، فقد كان همّ المكتب الهندي تأمين المناطق والطرق الموصلة الى الهند ، بغضّ النظر عن المصالح الأخرى ، ولذلك كان رؤساء هذا المكتب يقيمون علاقات الودّ مع حكام الخليج العربي ، ويعقدون معاهدات الحماية مع مبارك امير الكويت وغيره ، كما انهم اتصلوا بابن سعود واشاروا عليه بغزو الاحساء . أما رؤساء مكتب المعتمد البريطاني في القاهرة ، فكان همّهم السويس وعدن وطريق الهند ، وهؤلاء هم الذين تفاوضوا مع الشريف حسين » .

كما ناقش الرأي القائل بأن على العرب أن يسارعوا الى إعلان ثورتهم وقال : إنه يتوجب علينا أن نفعل كل ما في وسعنا للحصول على تعاطف وتعاضد الشعب العربي ، حتى ولو كانت المساعدة التي يقدمها العرب غير فعالة ، فالوضع الخطير الذي يواجهنا في العراق ومصر يجعل حرمان الأتراك من مساعدة العرب أمراً في غاية الأهمية » .

ثم اقترح مكماهون ان يتضمن جوابه الى الشريف :

١ ـ الموافقة على استثناء أضنه ومرسين من الأراضي العربية .

٢ ـ الترحيب بتأكيده أن العرب مصممون على معاملة المسيحيين والمسلمين بالمساواة .

٣ ـ الموافقة على أن ولايتي بيروت وحلب ـ باستثناء بقع من الأرض حول مرعش وعينتاب ـ مأهولتان بالعرب ، ولكن بما أن لحلفائنا الفرنسيين مصالح عديدة فيهما وفي جهات سورية الأخرى ، فمن الضروري عمل ترتيبات خاضعة لحماية تلك المصالح ، واننا لا نستطيع أن نفعل الآن أكثر من أن نؤكد للشريف رغبتنا في التوصل الى تسوية مرضية .

٤ ـ « فيما يتعلق بولايتي بغداد والبصرة ، إنني أوافق على أن نستمر في ادارة الولايات التي يأخذها البريطانيون من الأتراك بقوة السلاح حتى يتم التوصل الى ترتيب مقبول لدى الطرفين بشأنها » . وأضاف يقول : إن العرب والشريف سيرضون ببقاء هاتين الولايتين في ايدينا لعجزهم عن ادارتهما ولكن المطلوب صيغة ترضي المشاعر العربية ، والعرب يرغبون أكثر ما يرغبون في الحصول على تأكيد بأننا سننظر في مسألة تقديم اعانة مالية على طريقة التأخير .

٥ ـ أؤكد للشريف ان بريطانيا العظمى لن توقّع صلحاً لا يكون من جملة بنوده النص على تحرير العرب من حكم الأتراك .

٦ ـ أوافق الشريف على رغبته في عدم الاسراع بإعلان الثورة ، ولكن أحثه على أن يبذل جهوده لمنع العرب من مساعدة العدو .

٧ ـ أخبره بأننا سنقدم له مساعدة مالية واقترح تخصيص ٥٠ ألف جنيهاً لذلك[١] .

كان اعتراف مكماهون بعروبة سكان سورية كلها ، وباشتراط التحفظات بشأن ولايتي حلب وبيروت ، هو لحماية مصالح فرنسا لا لأي سبب أو غرض آخر ، وكان هذا الامر

---

(١) النص الكامل لبرقية مكماهون رقم ٧٣٦ في P R O. F. O 371-6237 ص ٣٣ ـ ٣٤ .

جديراً بالملاحظة على وجه التخصيص في برقية مكماهون هذه .

في ١٠ كانون الاول ١٩١٥ ردت وزارة الخارجية بعد بحث دقيق دام عشرة أيام ببرقية حددت فيها الجواب الذي سيرسله مكماهون الى الشريف . وقد أوضحت البرقية : « أن موقف فرنسا من سورية متصلب للغاية وأملنا ضعيف بالحصول على أي تأكيد يقدم من الفرنسيين ترضية حقيقية للعرب » .

رغم هذا خُولت لمكماهون الصلاحية بالإجابة على آساس القبول بالنقطتين الاولى والثانية من برقيته ، كما بينت له ضرورة استمرار المفاوضات مع الشريف ، أما ما قيل له بشأن النقطة الثالثة فيجب أن يقال للشريف : « أنه بسبب وجود مصالح لجهات أخرى فإن المسألة تحتاج الى بحث دقيق من قبل حكومة جلالته ، وأن رسالة أخرى بشأنها سترسل اليه فيما بعد » . أما بالنسبة للنقطة الرابعة ، فقد قالت وزارة الخارجية أنها تفضل أن يقال للشريف أن بريطانيا « تميل لإعطاء ضمان بمساعدة وحماية المملكة العربية » ، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تستدعي بحثاً أوفى وأدق في مستقبل العراق لا يسمح به الظرف الحاضر .

تضمنت هذه البرقية الموافقة على مجمل النقاط التي طرحها مكماهون ٥ و ٦ و ٧ ولكنها طلبت منه أن يوضح للشريف أن المعاهدات مع الزعماء العرب تشمل شبه الجزيرة العربية وليس أولئك المجاورين للعراق فقط[1] .

بينما جاء رد وزارة الخارجية أكثر غموضاً مما اقترح مكماهون ، وإن ذلك الرد تضمن عبارة « المملكة العربية » التي كان الشريف يعتبر أمر تأسيسها الهدف الرئيسي من مفاوضاته .

وكانت رسالة مكماهون التي أرسلها في ١٣ كانون الاول ١٩١٥ حصيلة للآراء التي قدمها هو لوزارة الخارجية ، وكذلك الآراء التي بعث بها مارك سايكس الى وزارتي الحربية والخارجية ، كل هذه الامور تبلورت بالبرقية التي ردت بها وزارة الخارجية والتي ارسلت في ١٠ كانون الاول وقد سبقت الاشارة اليها .

وقد لاقت موافقة الشريف على إخراج « ولايتي مرسين وأضنة من حدود البلاد العربية » ترحيباً من قبل مكماهون ، وسروراً لتأكيد الشريف بأن الحكومة العربية العتيدة ستعمل بموجب التعاليم الاسلامية « التي تضمن حقوق كل الاديان وامتيازاتها على السواء » .

---

(1) P.R. O, F. O. 371-6237.

كما أبلغ مكماهون الشريف ، بأن بريطانيا تعتبر موافقة « العرب » على المعاهدات التي عقدتها مع الرؤساء العرب الآخرين موافقة تشمل « جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية » .

وكان القصدُ من هذا التوضيح هو الخوف من ادعاء الشريف في المستقبل ، بأنه لم يوافق إلا على المعاهدات التي كان يعلم بأن بريطانيا عقدتها مع بعض الزعماء في خليج البصرة .

وقد راوغ مكماهون كعادته دائماً إذ أنه أجاب ، عندما نوقش بما يتعلق بالتحفظات الخاصة بولايتي حلب وبيروت ، أقول : أجاب إجابة مطاطة ومرنة وقال : بأن الحكومة البريطانية دونت ما قاله الشريف عنها بعناية تامة ، ولكنه استطرد مشيراً الى أن « مصالح حليفتها فرنسا » في الولايتين تستوجب النظر الدقيق في المسألة ، ومع هذا لم يف بوعده ، بل وضع مسألة مخابرة الشريف بشأنها على الرف مرة أخرى .

كذلك فقد أجل مكماهون مسألة البت في أمر المصالح البريطانية المدعاة في ولاية بغداد (مع عدم الاشارة إطلاقاً الى ولاية البصرة ، وكأنه اعتبر ما قاله الشريف بشأنها في رسالته الأخيرة كافياً) . كما أجل البت في أمر المصالح الفرنسية المدعاة في ساحل سورية . وحتى لا يثير شكوك الشريف بما يقوله ، فقد انتقى عباراته بعناية وقال أن بريطانيا : « مستعدة لان تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها الى المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم » .

وكانت حجته للتأجيل هي أن الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها المفاوضات « تستلزم نظراً أدق وأتم » .

وقد وافق الشريف على رغبة مكماهون ، الذي مضى في تطبيق تعليمات وزارة الخارجية ، هذه الرغبة التي تجلت باتخاذ الحذر وعدم الاندفاع في إعلان الثورة قبل أن تتهيأ الاسباب الكفيلة بنجاحها ، وطلب من الشريف أن يبذل جهوده لدى زعماء العرب الآخرين حتى لا يتعاونوا مع الاتراك ، وأن يعمل كل ما في وسعه لجمع « كلمة الشعوب العربية الى غايتنا المشتركة . . . فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لاسعاف عرضنا عندما يجيء وقت العمل ، تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته » . كان القصد واضحاً من هذه العبارة وهو إفهام الشريف حسين ومن يقفون الى جانبه ، على أن هذا الاتفاق الذي يعقدونه بينهم ، قاعدته الأساسية المصالح المتبادلة ، وعلى العرب أن ينفذوا قسطاً من المشاركة تنفيذاً عملياً فعالاً .

وفي النهاية أبلغ مكماهون الشريف ، بأن بريطانيا « لا تنوي إبرام أي صلح إلا إذا

ضمّن شروطه الاساسية : حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الاتراك والالمان » .

إن الرسالة التي أكدت مصالح بريطانيا في ولاية بغداد (مع اعتبار الاعتراف بمصالحها في البصرة أمراً مبتوتاً فيه) ، هي نفسها الرسالة التي أعطت نموذجاً للاسلوب البارع ، وديبلوماسية الكلمة والالفاظ المنتقاة ، التي تغطي كل هذه المتناقضات تحت ستار المرونة والغموض ، فهي ترخي وتشد وتعطي وتأخذ في آن واحد مختبئة خلف قفاز من الحرير الناعم ، إذ أنها كررت ذكر « المملكة العربية » مرتين ، وقبلت تأكيدات الشريف عن « العرب » وأبدت استعداد بريطانيا لاعطاء المملكة العربية « كل الضمانات والمساعدات » وعزمها على أن لا توقع أي صلح ما لم تنص شروطه على « حرية الشعوب العربية » .

بالاضافة الى هذا أكدت مصالح فرنسا في ولايتي بيروت وحلب ، (دون الاشارة الى ولاية سورية وسنجق لبنان وسنجق القدس) . كما توسعت الرسالة بالشرط القائل باعتراف « العرب » بالمعاهدات المعقودة بين بريطانيا وبين الزعماء العرب الآخرين « في حدود المملكة العربية » ، إن الرسالة في حقيقة الامر صدت كثيراً المملكة العربية ، وقصت أجنحتها وقيدتها وشدتها بسلاسل حديدية فنية وحدّت من النمو الطبيعي الذي تحتاج اليه كل دولة ناشئة ، في الوقت الذي كانت تريد أن تُري العرب بأنها حققت آمالهم في الوحدة ، وأعطتهم الكثير مما جعل المثل القائل « وضع السم في الدسم » ينطبق على هذه الرسالة وما حوته انطباقاً كاملاً .

في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٥ تلقى الشريف حسين رسالة من السيد علي الميرغني ، الذي كانت رسائله تلعب دوراً في تزيين مسألة الاتفاق مع بريطانيا ، وتحريض الشريف على الانتفاض على الاتراك ، بينما كانت لا تزال تعزف على وتر الوحدة العربية الموعودة .

في هذا الوقت الذي وصلت فيه الرسالة ، كان الشريف ينتظر وصول جواب مكماهون على رسالته المؤرخة بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩١٥ . وبتاريخ ٢٨ كانون الاول ١٩١٥ أرسل الشريف جواباً لرسالة مكماهون ، وكانت كلماتها تدل على مدى التأثير الذي تركته عبارات الميرغني في نفسه .

ورغم هذا ، ورغم المراوغة ، ظل الشريف متمسكاً بموضوع حدود الدولة العربية ، هذا الموضوع الذي اعتبره أساسياً وليس ثانوياً .

وكرر أن الحدود التي يطالب بها إنما هي الحدود التي يعتقد أهل البلاد أنها حيوية لمستقبلهم ، « وأن المساعدة التي تقصد بريطانيا العظمى أن تقدمها لاصدقائها لا يمكن أن

تكون تامة وفعالة ، إلا إذا اقتنع العرب بأن نيات بريطانيا العظمى متفقة مع مطامحهم للمستقبل ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا حصلوا على الحدود التي يطلبونها . ان المملكة العربية التي تهتم بريطانيا العظمى بتأسيسها (كما يبدو من هذه الرسالة والرسالة التي سبقتها) ، والتي تعرض عليها التشجيع والمعاضدة ، لا تستطيع الحياة دون هذه الحدود الطبيعية . ونحن لا نتصور أن ثروات وخصب تلك البلاد ـ وهي بالحقيقة ليست شيئاً إذا قيست بالممتلكات الغنية التي تحكمها بريطانيا ـ يجب أن تحول بين مكارم بريطانيا العظمى والاستجابة لمطالبنا » .

كان الشريف في غاية التشدد بالنسبة لفرنسا ومصالحها وقد قال : « إنه يستحيل علينا أن نعترف بأية دولة أخرى في مراسلاتنا » . كما قال : « إن العرب هم الذين اختاروه ـ بل أجبروه ـ لكي يتولى أمر مستقبلهم ، لذلك فهو لا يرى سبباً معقولاً للشرط الجديد الذي يطالبه بأن يحصل على إجماع امراء العرب[1] » .

كان علي الميرغني وسيلة من الوسائل التي استفاد منها الانكليز ، واستغلوها لمعرفة ما ينوي أن يقوم به الشريف ، كما كان يساهم بإقناعه بوجهات نظر بريطانيا . رغم أن علي الميرغني كان رجلاً طيب القلب يصدق كل ما يقال له ، وقد يكون ريجنالد ونجت نفسهُ مقتنعاً بأن ما كان يقوله للميرغني هو حقيقة السياسة التي تنوي بريطانيا السير عليها بالنسبة للعرب .

الرسالة الرابعة :

في ١ كانون الثاني ١٩١٦ بعث الشريف حسين برسالته الرابعة الى مكماهون[2]، بدأها بشكر مكماهون وتقديره له لوقوفه ـ عن طريق الفاروقي ـ على أنباء الجمعيات العربية التي كانت تسعى لتحقيق أملها في وحدة العرب وتحقيق حلم « المملكة العربية » ، وقد تبين لمكماهون أن ما عرضه الشريف ليس عاطفة شخصية بل هي « قرارات ورغائب أقوامنا » .

وما الشريف إلا واسطة تبليغ بين الشعب العربي وبريطانيا ، وقد أُلزِمَ إلزاماً بهذه المهمة . وقبل أن يتحول الشريف حسين الى موضوع « الجهات وسواحلها » ، عرّج على مسألة التعويض عن إدارة المنطقة المحتلة في العراق وقال : إن ثقته الكبيرة ببريطانيا تدعه يترك أمر تقدير مبلغ التعويض« لمدارك حكمتها وإنصافها » أما بالنسبة لموضوع « الجهات

---

(١) جواب الشريف : P.R.O. F. O 371-2767 .

(٢) رسالة مكماهون رقم ٢٦ بتاريخ ٧/ ٢/ ١٩١٦ .

وسواحلها » ، فقد قال بأن جميع التعديلات التي يستطيع العرب أن يوافقوا عليها مرّ ذكرها في رسالته السابقة ، وقد تجنب الشريف ما أمكن ، عدم المساس بالتحالف البريطاني ـ الفرنسي ، ولكن كان يرى أن من واجبه أن يؤكد لمكماهون بأنه سيغتنم أول فرصة بعد انتهاء الحرب ، للمطالبة « بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها » . وما هدفه من هذا التشدد إلا صيانة المنافع والمصالح البريطانية أيضاً ، لان جوار فرنسا سيولد مشاكل كثيرة تمنع استقرار الاحوال ، فضلاً عن أن أهالي لبنان لن يقبلوا الانفصال قطعياً عن الدولة العربية ، ثم قال : إنه يريد أن تبقى علاقة العرب ببريطانيا وحدها « بالنظر لما نعتقده ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها » .

واستطرد يقول بتأكيد قاطع : « وعليه يستحيل إمكان أي تساهل يكسب فرنسا أو سواها شبراً من أراضي تلك الجهات » .

وكان الشريف حسين مصمماً على رفع راية الثورة ، وهذا ما أكده في خاتمة رسالته ، كما أشار الى أنه سيعتمد على بريطانيا في إمداد العرب بما يلزم من الاسلحة والذخيرة ومهمات الحرب ، وبالرغم من أن مكماهون رأى أن الشريف سارع لاغتنام فرصة الاقتراح المتعلق بالعراق (مسألة التعويض المالي عن احتلال بريطانيا لولاية البصرة فترة من الزمن) .

فقد عقَّب مكماهون على اشتراطات الشريف بقوله : « إن كل شيء سوف يعتمد ، ليس على مدى تعاون العرب أثناء الحرب ونجاح ذلك التعاون ، بل على طبيعة الظروف التي سوف نجد نحن والعرب أنفسنا فيها عندما تنتهي الحرب). مع أن مكماهون أشار إلى إيقاف المباحثات عند هذا الحد .

كما ذكر مكماهون أن الجماعة العربية[1] كانت تُصر دائماً على صدور تأكيد من بريطانيا بأن العراق جزء من بلاد العرب . خاصة وأنها (أي بريطانيا) اطمأنت الى معاونة العرب الفعالة وتعاطف الشريف معها (كما يقول مكماهون) .

ويساند هذا الرأي الهدوء الذي يسيطر على العرب ، وعدم قيام أي نشاط معادٍ لبريطانيا ، وهذا يؤكد فشل ألمانيا في بث دعاياتها ، كما أشار مكماهون الى شروط الشريف المتعلقة بفرنسا ، قائلاً بأن من الحكمة أن تتجاهل الحكومة البريطانية ذلك .

وقال : إن العرب ينظرون بنفور عميق الى احتمال قيام إدارة فرنسية في أي جزء من

---

(١) ورد هذا التعبير عدة مرات في مخابرات الانكليز Tne Arab Party والمقصود به أعضاء الاحزاب العربية الذين كان يمثلهم في مصر عزيز علي المصري والفاروقي وإلى حد ما أعضاء حزب اللامركزية .

الاراضي العربية[1] .

وقد اقتصرت تعليقات مكماهون حول رسالة الشريف ، على مستقبل العلاقات البريطانية ـ العربية حول العراق ، وهذا ما نلاحظه في هذه الرسالة .

كذلك على مستقبل العلاقات بين العرب وفرنسا فيما يتعلق بسورية الشمالية .

في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٦ أرسل مكماهون رسالة ، كانت جواباً لرسالة الشريف ، أكد فيها أنه لا يشك « في أنكم تعملون لما فيه مصلحة الأمة العربية وأن ليس لكم غاية أخرى البتة » .

كما أبلغ شريف مكة بأنه اطلع على ما جاء في رسالته حول ولاية بغداد (وقد اعتبر موضوع ولاية البصرة منتهياً) ووعده بأن بريطانيا ستنظر في المسألة « بتمام الاهتمام » ولكن عندما تنتهي الحرب .

وقد أعرب مكماهون عن رضاه عما بُحث حول « الاقسام الشمالية » لان الشريف يرغب في تجنب المساس بالتحالف بين بريطانيا وفرنسا وستزداد صداقة بريطانيا وفرنسا متانة بعد نيل النصر . أي أنه أراد من كل هذا ، أن يوحي للشريف أنه لا مجال لان يعتقد بأن بريطانيا يمكن أن تصطدم بفرنسا من أجل المحافظة على المصالح العربية كان يريد قول هذا ولكن بصورة غير مباشرة .

كل هذا أراد مكماهون أن يفهمه للشريف ، بالرغم من أن الحسين أراد أن يقول أن العرب يريدون التعاون مع بريطانيا وحدها ، والاستفادة من مشورتها ، وخدمات رجالها ، ومنحها وحدها جميع الامتيازات التي لا غنى للدولة العربية الناشئة عن منحها لاحدى الدول الكبرى المتقدمة تقنياً وحضارياً ، ووجود دولة ثالثة قد يُشكّل جرثومة للمشاكل والقلاقل وليس من مصلحة العرب أو بريطانيا وجودها .

وهكذا فقد كان مكماهون يطمئن بال الشريف دائماً بعبارات تنم عن الصداقة واشتراك المصالح ، بينما من جهة أخرى يؤجل البت بموضوع العراق ومستقبل القسم الساحلي من سورية الشمالية .

كما رحب مكماهون في رسالته بمساعي الشريف لجمع كلمة القبائل العربية ومنعها من تقديم المساعدة للاعداء وترك له حرية اتخاذ القرار بشأن موعد قيام الثورة .

ونرى أن الشريف في رسالته المؤرخة في ١٨ شباط ١٩١٦ قد ترك جانباً مسألة العراق

---

(١) رسالة مكماهون إلى وزارة الخارجية رقم ١٦ تاريخ ٢٤/ ١/ ١٩١٦ 163/P. R. O, F. O. 7326 صفحة ٣٩ ـ ٤٠ .

والشقة الساحلية من سورية وأجل البت في أمرها . مثله في ذلك مثل مكماهون . ومن المؤكد أن الشريف اعتقد أن بريطانيا قد قبلت بوجهة نظره ، بعد أن أوضح بما لا يدع مجالا للشك تمسكه بمبدأ قيام دولة عربية متحدة حالما تضع الحرب أوزارها . ومن المرجح أنه حسب أن القوات العسكرية البريطانية والفرنسية ستضطر الى خوض المعارك ضد الأتراك والألمان في ميدان العراق وسورية . فليس من المعقول أن يشترط قيام العرب بادارة المناطق التي تجري فيها المعارك بين الجيوش المتحاربة ، وهذا هو التفسير الطبيعي لموافقته على أن تتولى بريطانيا ادارة البصرة ونواحيها ابان الحرب ، وقوله أنه يغض الطرف مؤقتاً عن وجود فرنسا ، ما دامت رحى الحرب دائرة .

ومهما يكن من أمر ، فان الشريف بدوره اعتبر جواب مكماهون مرضياً وأعرب عن « مزيد من الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب » . وبهذه العبارة اختتم الشريف المباحثات السياسية ، وتحول في رسالته الى بحث المسائل الأخرى التي تتعلق بالثورة المجيدة التي كان يعد العدة لها . وما جاء في رسالة الشريف يعطينا فكرة عن مساعيه لاشعال نار الثورة في سورية والحجاز في آن واحد ، فهو يقول : إن اعتسافات الأتراك أدت الى تفريق الضباط والجنود العرب الذين كان فيصل يعتمد عليهم ، وأن فيصلاً ينتظر وصول قوات جديدة الى سورية ، حتى اذا كانت كثرتها من العرب بادر الى اجراء الحركة بواسطتهم . وقال : إن نجله الأكبر علي سيقوم بالحركة في المدينة المنورة متعاوناً مع فيصل ومن جملة مهامه الاستيلاء على خط سكة الحديد . ثم طلب تزويده بنقود وإعداد كميات من المؤ ن في بور سودان لتنقل الى جده عند بدء الثورة .

ونأتي الآن الى آخر الرسائل السياسية التي بعث بها مكماهون الى الشريف قبل اعلان الثورة وهي الرسالة المؤرخة في ١٠ آذار ١٩١٦ ، فقد أعرب مكماهون عن سروره للتدابير الفعلية التي يتخذها الشريف للقيام بالثورة ، وأبلغ الشريف أن الاجراءات قد اتخذت لتحضير ما طلبه من المؤ ن والسلاح في بور سودان كي يتم ارسالها الى الحجاز عند اعلان الحركة . وقال : إن السفن الحربية البريطانية ستضرب بعض المراكز التركية على الشاطىء ، وطلب من الشريف أن يبلغه أية معلومات لديه عمّا يشاع من بث الألغام في البحر ، كما طلب اليه أن يعرقل نشاط ابن الرشيد في ارسال الجمال الى سورية كيلا يستفيد منها الأتراك في الهجوم على القوات البريطانية في مصر . وابلغه أخيراً نبأ الهزيمة التي لحقت بالسنوسي في الواحات الغربية ، وقال إن سقوط أرضروم في أيدي الروس سيكون في « مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل له واياكم » . وقد وردت في هذه الرسالة عبارة دار حولها جدل عنيف فيما بعد بين الشريف والسياسيين الانكليز ، اذ جاء فيها قول مكماهون : « وقد يسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على

جميع مطالبكم » ، فقد اصرّ الشريف على أن هذه العبارة تعني أن بريطانيا وافقت على قبول جميع مطالبه بشأن الدولة العربية المتحدة ضمن الحدود التي طلبها ، بينما اصرّ السياسيون الانكليز على أن هذه العبارة لم يقصد بها الا الطلبات المتعلقة بالاسلحة والمؤن التي وردت في رسالة الشريف السابقة . ومن الواضح أن الشريف أساء فهم المقصود من العبارة التي لم يقصد مكماهون بها أي معنى سياسي .

ان الرسائل العشر التي تبادلها الشريف حسين والسيرهنري مكماهون والتي عرضناها سابقاً، تؤلف ما أصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم «مراسلات الحسين ـ مكماهون». وبعد انتهاء الحرب نشرت الصحف في بريطانيا وفرنسا وبلاد العرب بعضاً منها ، وسمح الملك حسين قبيل وفاته سنة ١٩٣١ لجورج انطونيوس بنسخها ، فنشرها في كتابه « يقظة العرب » ، ولكن الحكومة البريطانية لم تنشرها رسمياً الا في شهر آذار ١٩٣٩ أثناء انعقاد مؤتمر فلسطين في لندن ، بعد الحاح من قبل أعضاء الوفود العربية التي اشتركت في ذلك المؤتمر . وكانت الحكومات البريطانية المتعاقبة تمتنع عن نشر المراسلات بحجة أن نشرها « يخالف المصلحة العامة » .

إن أهمية هذه المراسلات ـ بعد مرور أكثر من خمسين عاماً ـ لا تتعدى حدود الجدل التاريخي . ولولا الأحداث البالغة الخطورة التي وقعت في فلسطين ، لما أشغل السياسيون أذهانهم بتفسير عبارات مكماهون والاختلاف في صحة هذا التفسير أو ذاك . ولكن المرارة التي تمتزج في قلوب العرب وتتصاعد حدتها عاماً بعد عام منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، تذكرهم دائماً وأبداً ببداية المشكلة التي سممت حياتهم . واذا ما ذكر العرب بداية المشكلة برز الى خواطرهم اسم السير هنري مكماهون اللسان الناطق باسم الحكومة البريطانية في المفاوضات التي دارت مع الشريف حسين . وبعد هذه الأعوام الطوال يجد المرء صعوبة كبيرة في أن يفهم كيف أن السير هنري مكماهون لم يكن مدركاً بأن تحفظاته كانت تقتصر فقط على الشقة الشمالية من الساحل السوري : لا سيما اذا رجع الى الرسائل والبرقيات التي تبادلها مع وزارة الخارجية البريطانية والتي تكررت فيها الاشارة الى « الحدود الشمالية ـ الغربية » والى « الشواطىء الشمالية لسورية » . ويكاد يكون من المستحيل أن تجد عربياً واحداً يمكن أن يقتنع أن بريطانيا العظمى ـ بلسان مكماهون ـ لم تتعهد بأن تكون فلسطين ضمن منطقة الاستقلال العربي . وأنها حافظت على عهدها ولم تقلب ظهر المجنّ لأصدقائها العرب الذين وضعوا ثقتهم فيها .

***

الفصل الخامس

الاتفاقات السرّية

كانت حكومات الحلفاء
في أثناء سنوات الحرب
تحوك سياستها الشرقية في
الظلام وتحت ستار من
السرية .
ارنولد توينبي -١-

مقدمة

ليست اتفاقية سايكس ـ بيكو المعقودة بين فرنسا وبريطانية إلا نتيجة احدى المداولات والمفاوضات السرية ، التي تمت خلال الحرب بين الاطراف المتنازعة ولا سيما بين الحلفاء . وقد جرت اتصالات هامة بينهم دار البحث فيها حول مصير المناطق المتنازع عليها ، وعلى ثرواتها في أوروبا وفي المناطق الافرو ـ الآسيوية المستعمرة ، ولا سيما حول مصير الامبراطورية العثمانية ، وقد شكلت هذه حينئذ محور القضايا المتعلقة بما دعي عموماً **بالمشكلة الشرقية** . وسنتطرق في هذا التمهيد السريع الى ما يمت مباشرة الى مستقبل هذه الامبراطورية ولاسيا بمستقبل ولاياتها العربية .

ومما تجدر ملاحظته بادىء ذي بدء ، أنه لم يُرفع الستار كاملاً عن حقيقة وعن أبعاد هذه المفاوضات والاتفاقيات ، لصفتها السرّية وللنواحي العسكرية التي ارتبطت بها ،

---

(١) نص ارنولد توينبي هذا مأخوذ عن « هـ . و . ف تمبرلي » في دراسته عن تاريخ مؤتمر السلام في باريس ـ المجلد السادس ـ ص ١٧٨ ـ لندن سنة ١٩٢٠ .

والتي كثيراً ما شكلت عنصراً هاماً من محتوياتها وفي مراحل الحرب العصبية . لذا فان عدداً كبيراً من الوثائق الخاصة بها ما يزال غير مسموح بعد بدراسته ونشره إلا بعد أن تكون قد انقضت مدة الخمسين عاماً وهي القاعدة الاساسية المتفق عليها في الابحاث التاريخية .

والواقع ان اتصالات سرية ، بدأت بين الدول قبل نشوب الحرب وفي بدء العمليات العسكرية ودامت خلال مراحلها الطويلة وحتى قبيل توقيع الهدنة . ويكفي أن نشير الى بعض الوثائق الثابتة التي تدل بوضوح على هذه الظاهرة . فقد حاول الالمان منذ شهر كانون الاول عام ١٩١٤ ان يتفقوا مع روسيا القيصرية لعقد سلام منفرد معها . أما خلال الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩١٧ و١٩١٨ فقد حاول جميع الاطراف ان يصلوا الى شاطىء السلام بطريقة ثنائية أو جماعية . نذكر منها المراسلات السرية التي تعاقبت بين الرئيس الاميركي ولسون وامبراطور النمسا شارل الاول حول شروط سلام منفرد . أما بين الحلفاء أنفسهم فأن الاتصالات والمفاوضات استمرت طيلة الحرب والى عشية نهايتها .

١ ـ مرحلة بدء الحرب وقضية الخيار بين الاطراف المتنازعة

واجهت هذه القضية دولٌ كثيرة منها ايطاليا ودول البلقان والامبراطورية العثمانية . ولنتوقف قليلاً عند موقف تركيا قبل دخولها الحرب الى جانب المانيا القيصرية . حيث كانت تركيا مرتبطة بمعاهدة سرية مع المانيا ضد روسيا وقعت في ٢ آب ١٩١٤ . ولكنها لم تشترك فعلياً بالحرب الا في أول تشرين الثاني اذ حاولت ان تؤجل قدر المستطاع تنفيذ التزاماتها حيال حليفتها الى أبعد تاريخ ممكن . وهناك أسباب سياسية وعسكرية تفسر هذا التريث في التورط الى جانب المانيا ، منها ما يتصل بمشكلة المضائق وبالدردنيل وبالعاصمة في حال انتصار الروس ، ومنها ما يتصل بقناة السويس وبمنطقة جنوبي سوريا أي فلسطين . وقد حاولت بريطانية جهدها لمنع الحكومة التركية من الاشتراك بالمعارك ضدها رغبة منها في ابعاد القناة عن ميدان الحرب ، واظهرت استعدادها لدفع الثمن ولو باهظاً في سبيل هذا الهدف ، الا وهو حمل الروس على احترام التعهدات الدولية تجاه قضية مضايق الدردنيل والآستانة . وبينما رفض الروس التقيد بهذا الشرط كانت الحكومة التركية على يقين من انتصار الالمان السريع والحاسم .

ولكن عندما فشلت الجيوش الالمانية في معركة المارن في فرنسا ، وخذلت بدورها الجيوش النمساوية في اقتحام المناطق الروسية في الجبهة الشرقية ، حاولت الوزارة التركية اعادة النظر في موقفها الدولي وفي التهرب من التزاماتها حيال المانيا . وكان لنفوذ أنور باشا الأثر الكبير في حمل الوزارة على اتخاذ قرار الاشتراك بالحرب الى جانب المعسكر الالماني .

فإنه قد قطع دابر التردد بين أعضاء الحكومة إذ أمر الأسطول التركي المرابط في البحر الاسود بضرب الموانىء البحرية الروسية في اوديسا وسباستوبول . فأرغمت الحكومة من جراء التبعات الديبلوماسية والعسكرية على اعلان الحرب ضد الروس وحلفائهم في أول تشرين الثاني ١٩١٤[1] .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة تسهم في تبيان الدور الذي لعبته المفاوضات السرية طيلة الحرب لمنع القتال أو ايقافه أو لجر أطراف أخرى اليها أو بالاتفاق على شروط الهدنة والسلام .

٢ ـ مرحلة المجابهة العسكرية وقضية اعادة السلام بين المتحاربين

مهما قيل عن العداوة المتأصلة بين فرنسا والمانيا ، فقد كان لدى الحلفاء عند الطرفين عوامل كثيرة تحملهم على اتباع سياسة مرنة والى الاستعداد الضمني والصريح حيناً . . والتفاوض والمصالحة احياناً كثيرة . هكذا كانت الحالة في النمسا وفي بريطانية وحتى في روسيا ناهيك عن بقية الدول الأخرى لاسباب داخلية وخارجية . وأما في الشرق فقد احتلت مسألة مصير الامبراطورية العثمانية الصدارة في اهتمام الديبلوماسيين والعسكريين معاً .

وفي هذا الاطار تتوضح أبعاد الاتصالات التي جرت منذ أوائل عام ١٩١٤ بين موظفي الحكومة البريطانية في مصر وبين الامير عبد الله ابن الشريف حسين . كما تأخذ المساعي الصهيونية في اكتساب عطف الحكومات المتنازعة أبعادها الحقيقية الرامية الى تنفيذ مشروعهم في فلسطين .

وكانت فرنسا والمانيا قد تباحثتا حول « القضية السورية » منذ أوائل عام ١٩١٤ وتوصلتا الى اتفاق مبدئي في ١٥ شباط ١٩١٤ حول الخطوط الحديدية وحول مناطق النفوذ في شمالي البلاد، بينما أدت المفاوضات الالمانية ـ الانكليزية حول قضية البترول في شمالي سورية وبلاد ما بين النهرين الى اتفاق مبدئي آخر في ١٩ آذار ١٩١٤ . أما ايطاليا فإنها قد حصلت هي أيضاً على منافع أخرى من تركيا في بر الاناضول ومنطقة اضاليا وذلك في الشهر ذاته .

فيبدو والحالة هذه ان الدول الاوروبية الكبرى ، كانت متفقة كلها على الرغم من منازعاتها الوطنية الخاصة على سياسة توسعية حيال المشكلة الشرقية عامة ، وحول مصير أي تقسيم للامبراطورية العثمانية بنوع خاص .

---

(1) G. Pedroncini = Les Nègociations Secrètes Pendant la Grande Guerre Paris 1969. p. 17-18.

ونعلم ان السلطات الانكليزية بدأت في هذه الاثناء تسبر نوايا الأسرة الهاشمية بواسطة الأمير عبد الله عند مروره في مصر خلال تنقلاته بين العاصمة العثمانية وبلاد الحجاز . وعند اندلاع نيران الحرب وقبل مشاركة تركيا في غمارها اتصل ضباط دار الاعتماد في القاهرة بالشريف حسين بتاريخ ٢٤ ايلول ١٩١٤ للتأكد من اتجاهاته في حال دخول تركيا المعركة . وبعد أن انضمت الحكومة العثمانية الى المعسكر الالماني عادت بريطانيا واتصلت بالشريف حسين وتعهدت له بالوقوف الى جانبه وبالمحافظة على بلاده اذا ما ساعد هو بدوره الحلفاء في الحرب[١] .

وتشكل هذه المبادرة البريطانية ، الخطوة الاولى الرسمية في الاتصالات العديدة اللاحقة ، التي جرت بين السلطات في القاهرة وبين الشريف حسين ، والتي هيأت من جهة ، الاتفاقية الثنائية بين فرنسا وانكلترا المعروفة باتفاقية سايكس ـ بيكو ، والتي أدت من جهة أخرى الى المراسلات الرسمية المعروفة بمراسلات مكماهون ـ حسين .

وبينما بدأت الاتصالات المباشرة بين بريطانيا والاسرة الهاشمية فيما يتعلق بالطرف العربي .. سعت الدوائر الصهيونية في بريطانيا الى استمالة عطف رجالات الحكومة واقناعهم بضرورة اعادة تأسيس دولة عبرية في فلسطين . ويلعب السير هربرت صموئيل في هذه المرحلة الاولى دوراً بارزاً . وكان أول يهودي تسلم مناصب وزارية رفيعة في الحكومة وبقي متمسكاً رسمياً بديانته اليهودية . وسيصبح بعد الحرب وفي طور الانتداب البريطاني على فلسطين أول مندوبٍ سام كلف بتنفيذ المشروع الصهيوني .

وكان منذ التاسع من تشرين الثاني عام ١٩١٤ ، أي بعد أيام قلائل من انضمام الحكومة العثمانية الى المعسكر الالماني ، قد اتصل بوزير الخارجية السير ادوار غراي وصارحه بالاهداف الصهيونية حيال المنطقة الجنوبية من سوريا ، أي فلسطين ، نظراً لأهميتها الاستراتيجية ونظراً لمستقبل الامبراطورية البريطانية في المشرق العربي ، وحول قناة السويس . وأوضح له أن على الدولة العبرية العتيدة أن تصبح مركزاً جديداً للتوسع الغربي بحيث تكون قاعدة أمامية للحضارة الغربية وسوراً منيعاً ضد الردة الشرقية البربرية . . . وتطرق السير صموئيل في هذه المناسبة الى مواضيع أخرى تمت الى طموح فرنسا بالاستيلاء على سوريا بكامل أراضيها ، وتمت أيضاً الى حدود الدولة العبرية العتيدة التي يسعى الى ابرازها الى حيز الوجود[١] .

---

(١) سليمان موسى ـ المراسلات التاريخية ـ رقم ١٣ ص ٢٤ ـ ٢٧ .

(١) ر . نيهير برنهايم : « تصريح بلفور » .

R. Neher—Bernheim—la Dèclaration Balfour Paris— 1969— P. 186-189.

وما عتم السير هربرت صموئيل أن اجتمع رسمياً بالسيد وايزمن أحد رواد الحركة الصهيونية السياسية في ١٠ كانون الاول ١٩١٤ وتباحث معه حول هذه القضية وحول المشاريع الكبرى الاقتصادية والعسكرية والثقافية والدينية المرتبطة بها . وتطرق خلال هذا الحديث ، الى موضوع اعادة هيكل سليمان في مدينة القدس كرمز لوحدة الشعب العبري في فلسطين وفي العالم[١] .

ومنذ هذه الشهور الاولى من اعلان الحرب ، بدأت السياسة البريطانية تلعب لعبتها على المسرح العربي والمسرح الصهيوني في الوقت نفسه ، وحاولت أن تنسق هذه اللعبة المزدوجة المشرقية ، مع تعهداتها وارتباطاتها السياسية العليا مع فرنسا حليفتها الرئيسية في الميدان العالمي .

تعتبر اتفاقية سايكس[٢] ـ بيكو[٣] التي تمت بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية من أخطر الاتفاقات وأشدها خبثاً في تاريخ الاستعمار الحديث ، ولذلك فقد أفردت لها هذا الفصل لألقي الأضواء على جوانب كثيرة من هذه الاتفاقية ، ما ظهر منها وما خفي ، حتى يتمكن القراء من متابعة أحداث الثورة العربية الكبرى ، وهم على معرفة تامة بالاتفاقية المشؤومة ، ولكي يدركوا الى أي درجة يمكن أن تنحط الاخلاق في التعامل السياسي بين الدول ، خصوصاً عندما يكون أحد الاطراف قويا . . وحتى لا يفاجأوا عندما يرون التقتير الشديد على الشريف حسين بالأسلحة والذخائر والأموال[٤] . . وأن لا يستغربوا لماذا كانت توضع العراقيل والكوابح في وجه الامير فيصل قائد الجيش الشمالي حتى لا يأخذ دوره الكامل على الساحة الدولية بصورة عامة وفي ميادين القتال وعلى الساحة العربية بصورة خاصة .

كان التنافس الدولي حول الدولة العثمانية حتى أواخر القرن التاسع عشر يكاد ينحصر بروسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا . وكان اهتمام روسيا مركزاً على تركيا الاوروبية

---

(١) المرجع السابق .

(٢) السير مارك سايكس Sykes سياسي له دراسات في المسألة الشرقية ، ورحلات عديدة في الامبراطورية العثمانية . وكان نائبا في المجلس البريطاني ومندوبا ساميا لشؤون الشرق الادنى .

(٣) ف . جورج بيكو Picot كان قنصلا فرنسيا عاما في سورية قبل الحرب العالمية الاولى . وكان مركز السفارة في بيروت . بعدها عين مندوبا ساميا للحكومة الفرنسية لمتابعة شؤون الشرق الادنى ولمفاوضة الحكومة البريطانية على مستقبل البلاد العربية .

(٤) راجع على سبيل المثال ما جاء في المراسلات التاريخية التي نشرها سليمان موسى ، حيث يعطي الشواهد عن هذه الوقائع : رسالة الحسين الى مكماهون في ٢٩/٣/١٩١٦ . عدد ٣٥ ـ ص ٦٤ ـ ٦٦ . ورسالته الى مكماهون في ١٩/٥/١٩١٦ . عدد ٤١ ـ ص٧١ .ورسالة الحسين الى مكماهون في ٢٥/٨/١٩١٦ ص ٨٢ (الحاشية) . ورسالته الى الكولونيل ويلسون في ١١/٩/١٩١٦ عدد ٥٣ ص ٨٣ ـ ٨٤ . ورسالة الامير فيصل الى الملك حسين في ٦/١١/١٩١٦ عدد ٥٨ ص ٩٠ ـ ٩١ . ورسالة الامير فيصل الى ويلسون في ٢٨/٣/١٩١٧ عدد ٦٦ ص ٩٩ .

والمضائق ، بهدف الوصول الى البحار الدافئة المفتوحة ، وكانت تصطدم في تركيا الاوروبية بمقاومة النمسا ومطامعها ، وتصطدم في المضائق بانكلترا وفرنسا بصفة خاصة . وكان اهتمام النمسا متركزاً على تركيا الاوروبية أيضاً . اما انكلترا وفرنسا فكان اهتمامها متركزاً على الولايات العثمانية العربية ، وكانت الهند أساس اهتمام الدولتين بالمشرق العربي . وكانت سياسة روسيا بصورة عامة تقوم على اضعاف الدولة العثمانية لاقتسام ممتلكاتها . أما سياسة النمسا فكانت بصورة عامة تقوم على المحافظة على الوضع الراهن أي المحافظة على وجود الدولة العثمانية وعلى عدم المساس بولاياتها .

وبسبب مخاوف فرنسا وانكلترا من بعضهما ومن وصول روسيا الى البحر المتوسط تبنت الدولتان حتى السبعينات (١٨٧٠) سياسة المحافظة على الوضع الراهن والمحافظة على الامبراطورية العثمانية . يقول الدوق ويللنغتون[١] : « ان الابقاء على الامبراطورية العثمانية ليس لصالح الأتراك بل لصالح أوروبة المسيحية ، كما أنه ليس للحفاظ على السيطرة الاسلامية بل لانقاذ المسيحيين من حرب مدمرة[٢] » .

ولكن افتتاح قناة السويس ، وقيام الاتحاد الالماني ، واشتداد التنافس الاستعماري ، وازدياد ضعف الدولة العثمانية ، عرّض سياسة المحافظة على الوضع الراهن للخطر . فقد اندفعت الجيوش الروسية لتحقيق حلم روسيا التاريخي ووصلت الى أبواب استنبول ولم يمنعها من دخولها الا التهديد البريطاني الحازم . واستغلت انكلترا مساعدتها للدولة العثمانية فحصلت على قبرص سنة ١٨٧٨ ، واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ . واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ ، وضمت النمسا البوسنة والهرسك عام ١٩٠٨ ، وبدت سياسة المحافظة على الوضع الراهن على وشك الانهيار . ولكن اشتداد المنافسات الدولية وبروز المانيا كقوة عسكرية واقتصادية جبارة ودخولها ميدان التوسع الاستعماري متأخرة بعد أن ضاقت رقعة الاماكن ، التي بقيت بمنأى عن الاستعمار ، دعاها الى أن تسعى لوضع يدها على ما تبقى من اماكن قليلة لم تستعمر بعد . ونادت باعادة اقتسام العالم وفق ما تتمتع به كل دولة من قوة عسكرية واقتصادية وبشرية ، ودخلت المانيا ميدان المنافسة ونصبت نفسها حامية للدولة العثمانية التي رحبت بهذا التدخل المنقذ .

وفي سنة ١٩١٠ كتب سفير ألمانيا فون مارشال في استنبول الى المستشار الالماني بتمان هولفك « ان الامبراطورية التركية استطاعت في القرن الماضي ان تحافظ على بقائها ليس

---

(١) الدوق ويللنغتون (١٧٦٩ ـ ١٨٥٢) قائد انكليزي ولد في دبلن . وحارب جيوش نابليون الفرنسية في البرتغال واسبانيا حيث انتصر عليه في مواقع عديدة . وكذلك انتصر على نابليون في موقعة واترلو الشهيرة وقد اطلق عليه لقب « الدوق الحديدي » .

(٢) سيتون واطسن . ر . و : دزرائيلي ، غلادستون والقضية الشرقيه ص ١٥٠ لندن .

بفضل قوتها بل بفضل تضارب مصالح الدول العظمى ، وكان الوارثون المتنافسون على ارث (الرجل المريض[1]) من القوة والعدد بحيث لم يتجرأ وارث واحد بمفرده على أن يلجأ إلى القوة كي يعجل في موت الموروث لينال نصيبه من الأرث »[2] .

يمكن اعتبار اتفاق سايكس - بيكو سنة ١٩١٦ النهاية الرسمية للمسألة الشرقية[3] ، تلك النهاية التي كانت متوقعة منذ بداية القرن العشرين ، حين ظهرت التغيرات الكبرى في السياسة الدولية ، ووضع الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ حداً للصراع الانجلو - فرنسي ، ووضع الاتفاق الانجلو - روسي سنة ١٩٠٧ حداً للصراع بين الدولتين . وكان هذان الاتفاقان اساساً لتحالف الدول الثلاث الذي كان مبعثه الخوف من المانيا . وبقيام الحرب العالمية الاولى وانضمام تركيا الى المانيا ، صار بامكان الدول الثلاث المتحالفة ، الاتفاق على انهاء الوجود العثماني وتقسيم الممتلكات العثمانية . وكانت بريطانيا أكثر اهتماماً بمصير المشرق العربي لأهميته الاستراتيجية بالنسبة للدفاع عن قناة السويس والطرق البرية الى الهند . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر أعلن دزرائيلي[4] بصراحة في مجلس العموم « . . . ولكن في الوقت الذي نحب أن نرى فيه فرنسا تحتفظ بنفوذها في كل من لبنان ومصر بعدل وانصاف ، فانه ينبغي لنا أن نذكر أن علاقتنا بالشرق ليست مجرد قضية شعور وعواطف وتقليد تاريخي (مشيراً الى فرنسا) بل إنها قضية مصالح ضخمة حيوية ملحة يجب علينا أن نحافظ عليها وأن نحتفظ بها . . »[5] وكانت سياسة بريطانيا حتى قيام الحرب العالمية الاولى تقوم على تقوية نفوذها في المشرق العربي ، وتوثيق صلاتها بالعناصر المتنفذة ، ومقاومة النفوذ الفرنسي ، وعلى منع وصول الروس الى البحر المتوسط ، ولكن ضرورات الحرب اجبرتها على تقديم تنازلات لم تكن لتقبل بها من قبل . وعلى الرغم من ذلك لم تقدم هذه التنازلات الا بعد أن حصلت على مصالحها الاهم ، وبعد أن زرعت الالغام في

---

(١) اطلقت هذه التسمية على الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر .

(٢) راجع الوثائق الالمانية الرسمية المعروفة : « بالسياسة الكبرى » . المجلد رقم ٢٧ - الجزء الاول - رقم التقرير ٩٧٨٩ - ص ٢٤٩ - ٢٦٠ .

(٣) يمكن وصف المسألة الشرقية بأنها مجموعة المشاكل السياسية الناجمة عن :
١ - اهمية واتساع وغنى الامبراطورية العثمانية .
٢ - ضعف الامبراطورية منذ تقهقرها السياسي والعسكري من اوروبا منذ اواخر القرن الثامن عشر .
٣ - مطامع الدول الكبرى واختلافها حول مصير الدولة العثمانية . وتعتبر النقطة الثالثة جوهر المسألة الشرقية . وقد عرف وزير خارجية روسيا غورتشاكوف هذه المسألة بقوله : « انها اختلاف الدول الكبرى حول مصير الدولة العثمانية » .

(٤) بنيامين دزرائيلي Disraeli (١٨٠٤ - ١٨٨١) رجل دولة وكاتب قصصي انكليزي . كان من أشهر زعماء حزب المحافظين . تولى الوزارة مرتين . واصبح في عام ١٨٧٦ لوردا بلغت انكلترا في عهده ذروة اتساعها ونفوذها . وهو أول رجل من أصل يهودي يصل الى منصب كبير في بريطانيا .

(٥) سيتون واطسن الكتاب السابق الذكر - ص ٤٩٣ .

المناطق التي تنازلت عنها لحليفتها ، وعلى الأخص بالنسبة لفرنسا . فقد أمنت حرية المرور والمضائق وتجارة الترانزيت وجعلت ذلك منوطاً بلجنة رباعية (روسية ـ انكليزية ـ فرنسية ـ ايطالية) وأبعدت فرنسا عن فلسطين ، ونسفت بوعد بلفور مبدأ تدويلها لصالحها . وحصلت على اعتراف فرنسا بقيام دولة أو اتحاد دول عربية مستقلة سيكون مفيداً لها ومناوئاً لفرنسا .

بدأت المفاوضات حول تقسيم الدولة العثمانية منذ نشوب الحرب ، بمبادرة من روسيا لضمان الحقوق الروسية في البحر الاسود والمضائق . وأبدت روسيا استعدادها للاعتراف بمصالح حليفتيها في باقي الاجزاء الآسيوية العثمانية ، ودخلت ايطاليا طرفاً في المفاوضات حين سعى الحلفاء الى اقناعها بالتخلي عن تحالفها مع المانيا والدخول في الحرب الى جانبهم . وبالرغم من حرص الحلفاء على التفاهم ، فان وجهات النظر كانت مختلفة[1] ، وبدا واضحاً ان سوء التفاهم بين الحلفاء سيكون له تأثير سيء على المجهود الحربي ، فحين فتحت فرنسا وانكلترا جبهة الدردنيل مثلاً ثارت شكوك روسيا ومخاوفها ، وسعت المانيا لاستغلال ذلك ، فعرضت على روسيا صلحاً منفرداً ثمنه استنبول والمضائق ، كما أن فرنسا التي حصلت على موافقة روسيا بجعل كيليكية وسورية ولبنان وفلسطين باستثناء الاماكن المقدسة تحت سلطانها ، لم تكن واثقة من موافقة بريطانيا ، ورأت ان تضعها أمام الامر الواقع ، فاحتلت جزيرة ارواد سنة ١٩١٥ بغية جعلها نقطة انطلاق لغزو سورية متى حان الوقت ، وردت انكلترا باقتراح فتح جبهة حليفة في الاسكندرونة . وكان طبيعياً أن يعتمد نشاط هذه الجبهة أساساً على القوات البريطانية ، اذ لم يكن بامكان فرنسا المشاركة فيها بقوة كبيرة نظراً للوضع القائم في الجبهة الغربية ، وقد فهمت فرنسا أن هذا المشروع يرمي الى وضع يد بريطانيا على سوريا وإبعاد النفوذ الفرنسي ، فعارضت المشروع معارضة شديدة أدت الى إرجائه . ولإزالة هذه الشكوك والمخاوف كان لا بد من الشروع في مفاوضات جدية للوصول الى اتفاقات محددة تبين نصيب كل دولة وبصورة محددة .

بدأت هذه المفاوضات في مطلع عام ١٩١٥ بمذكرات تبادلتها الحكومات المتحالفة الثلاث ، تبين موافقة فرنسا وانكلترا على المطالب الروسية ، وعمدت الدولتان بعد ذلك الى الشروع في مفاوضات ثنائية لتحديد مناطق نفوذ كل منهما وبدأت المفاوضات في لندن بين وزير الخارجية البريطاني وسفير فرنسا في لندن ، ثم انيط وضع الترتيبات النهائية

---

(١) خلال المفاوضات مع روسيا ، وقد باشرتها كل من فرنسا وانكلترا على حدة ، كانت وجهتا نظر الدولتين حول مصير البلاد العربية العثمانية غير متفقة . فقد كانت فرنسا تطالب روسيا بالاعتراف لها بسورية ولبنان وفلسطين وكيليكية ، الامر الذي لا تقبل به بريطانية .

بممثل خبير عن كل من الدولتين ، فمثّل فرنسا قنصلُها السابق في بيروت فرانسوا جورج بيكو ، ومثّل انكلترا مارك سايكس الخبير في شؤ ون الشرق ، والذي اشترك عن كثب في المحادثات السرية بين مكماهون والشريف حسين ، وبعد أن اتفق ممثلا الطرفين توجها الى بطرسبورغ حيث تم التفاهم مع الحكومة الروسية . وقد رافق هذه المفاوضات زمنياً ، وبخاصة في مراحلها الاساسية ، مراسلاتُ الشريف حسين ـ مكماهون . وكان موضوع هذه المفاوضات جميعها يدور حول مصير منطقة واحدة هي المنطقة العربية الآسيوية . ولهذا كان لا بد أن يكون هناك تداخل وان تكون نتائج هذه المفاوضات متقاربة الى حد بعيد ، ان لم تكن متفقة . وقد أطلعت بريطانيا حليفتها فرنسة على الخطوط العامة لمفاوضاتها مع الشريف حسين ، كما اطلعت بصورة غير مباشرة الشريف حسين على اتجاه مفاوضاتها مع فرنسا وذلك عن طريق التحفظات التي وضعتها حول المناطق التي تطالب بها فرنسا ، كمناطق نفوذ لها[1] .

وبالرغم من التحفظات الفرنسية حول مفاوضات حسين ـ مكماهون ، وتحفظات الشريف حسين حول مطالب فرنسا ، فقد نجحت انكلترا بتقريب وجهات النظر ، وتحفظت فرنسا حول انشاء الدولة العربية ، وقال بوانكاريه[2] . . « ان هذه الامبراطورية العربية الكبرى لا توحي اليّ بالاطمئنان ، وأخشى من تأثيرها السيء على مستعمراتنا الافريقية ، وأود ألا أراها تخرج الى حيز الوجود . . . » ، وعارضت فرنسا ضم سورية ولبنان الى هذه الدولة ، ولكنها عادت فقبلت ان تكون ولايات حلب وحماه وحمص ودمشق ، عدا بيروت ، ضمن الدولة العربية شريطة اشراكها فعلياً بمسؤ وليات ادارتها . ورفض الشريف حسين اخراج أي جزء من أجزاء سورية من مجموعة المنطقة العربية التي سيعلن استقلالها . ولكنه أعلن أنه حريص على تجنب كل ما من شأنه ان يعكر صفو

---

(١) كان الملك حسين قد اجتمع مع سايكس وبيكو في جدة في ١٨ ، ١٩/ ٥/ ١٩١٧ بحضور الشريف فيصل وفؤ اد الخطيب مستشاره السياسي الخاص . وقد وصل الينا تقريران عن هذا الاجتماع الاول من سايكس الى نائب ملك انكلترا في مصر ونجت والثاني من ويلسون المعتمد البريطاني في جدة الى كلايتون المستشار السياسي ويقول ولسن : « ان الشريف يعتقد أن سورية كلها ستكون مستقلة وربما باستثناء قطعة من الارض مماثلة للبصرة لانه يعتقد أن العراق كله باستثناء البصرة سيكون مستقلا » . راجع سليمان موسى « المراسلات التاريخية » عدد ٧٥ ص ١٠٦ ـ ١٠٨ وعدد ٧٦ ص ١٠٨ ـ ١١٧ . (وقد زعم الكاتب الصهيوني ايلي خدوري في كتابه « انكلترا والشرق الاوسط » أن سايكس وبيكو قد أبلغا الملك حسين صراحة باتفاقهما . وهذا يخالف الواقع « راجع أيضا سليمان موسى في كتابه الحركة العربية المذكور سابقا ، ص ٣٥٠ ـ ٣٦٤) .

(٢) هو رايموند بوانكاريه Poincaré رجل دولة فرنسي (١٨٦٠ ـ ١٩٣٤) كان يحمل شهادة الدكتوراه في القانون وكان جمهوريا ليبراليا ، عين وزيرا للثقافة ثم للمالية ثم مندوبا ساميا في مراكش . وثق العلاقات مع روسيا القيصرية ومع انكلترا . ثم غدا رئيسا للجمهورية الفرنسية عام ١٩١٣ قاد فرنسا في الحرب العالمية الاولى ثم استقال عام ١٩٢٠ له مذكرات « في خدمة فرنسا » .

الوفاق بين فرنسا وبريطانيا العظمى ، ولذلك سيؤجل البحث في هذا الموضوع ما دامت الحرب قائمة . ولكنه ابلغ مكماهون أنه لا يمكن التنازل لفرنسا أو سواها عن شبر واحد من أراضي تلك الجهات .

ولا بد لنا من ابداء بعض الملاحظات حول هذه المفاوضات ، فهي قد جرت تحت ضغط ظروف الحرب ولهذا لم تكن التنازلات التي تبودلت بين الاطراف ناجمة عن رضى تام ، ولا شك أن زوال هذه الظروف سيدعو هذه الاطراف الى المبادرة باعادة النظر . وهذا ما حدث . ويختلف اتفاق سايكس ـ بيكو عن مفاوضات الشريف حسين ـ مكماهون ، فالاتفاق الاول كان معاهدة صيغت بدقة وحددت بخرائط واضحة ، وعقدت بين حكومتين متكافئتين ، أما المفاوضات الثانية فقد كانت مجرد رسائل متبادلة بين طرفين ولم تنته الى معاهدة أو اتفاقية محددة ، وقد صيغت ، وعلى الاخص النسخة البريطانية منها ، بعبارات غامضة مطاطة تجنبت فيها انكلترا الدقة عن عمد ، ولم تحدد بالخرائط اللازمة ، كما أنها لم تتم بين حكومتين متكافئتين ، فالشريف حسين لم يكن في نظر انكلترا في بداية الامر أكثر من أمير محليّ لا يمُيزه عن غيره من امراء الجزيرة العربية التي تعاقدت معهم بريطانيا ، الا نسبه الشريف ، وموقعُ بلاده الاستراتيجي ، وإشرافُه على الاماكن المقدسة الاسلامية . وحتى حين أصر الشريف حسين أن يفاوض لا بوصفه أمير الحجاز بل باسم الأمة العربية[1] ، كان جواب بريطانيا دغدغةً لأمان لم تكن قانعة بها ولا راغبة فيها . ولهذا لم يكن جوابها ملزماً بشيء محدد . ولذلك حين نادى الحسين بنفسه ملكاً على العرب اكتفت بريطانيا بعد تردد بالاعتراف به ملكاً للحجاز[2] .

ان أهمية اتفاق سايكس ـ بيكو ، انما كانت الاساس ـ مع بعض التعديلات ـ لترتيبات ما بعد الحرب . وبموجب هذا الاتفاق قسمت المنطقة الآسيوية العربية العثمانية (عدا الجزيرة العربية) الى خمس مناطق : منطقة زرقاء (فرنسية) ومنطقة حمراء (بريطانية) يباح فيهما لكل من الدولتين في منطقتهما « انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم المباشر أو غير المباشر بعد الاتفاق مع الدولة أو اتحاد الدول العربية » وتشمل المنطقة الزرقاء الفرنسية سورية الساحلية من الاسكندرونة حتى رأس الناقورة وتضم جبل لبنان وكيليكية وجزءاً من أواسط آسية الصغرى من طرفها الجنوبي الشرقي . أما المنطقة الحمراء البريطانية فقد كانت تشمل جزءاً كبيراً من العراق، من البصرة الى بغداد ، وميناء حيفا

---

(١) كان الشريف حسين قد تلقى بواسطة ابنه فيصل الذي زار دمشق واجتمع الى زعماء الجمعيات تفويضا بالتفاوض باسم الامة العربية على استقلال العرب ضمن حدود حددتها مذكرة وضعها زعماء الجمعيات الوطنية .

(٢) سنتعرض لهذا الموضوع بتفصيل اكثر في الفصل السادس من هذا الكتاب .

وعكا . وهناك منطقتان : (آ) وتشمل المدن الرئيسية في سورية الداخلية ، دمشق وحمص وحماه وحلب والموصل في شمالي العراق . (ب) وتضم ما تبقى من العراق باستثناء الموصل . وفي هاتين المنطقتين أبدت الدولتان استعدادهما للاعتراف بدولة عربية أو اتحاد دول عربية ، ودعم هذه الدولة أو ذلك الاتحاد . وان يكون لفرنسا في المنطقة (آ) وانكلترا في المنطقة (ب) الافضلية من حيث القيام بالمشروعات وتقديم القروض والمستشارين والموظفين الاجانب ، بناء على طلب الدولة العربية أو اتحاد الدول العربية .

والمنطقة الخامسة منطقة سمراء وهي ما تبقى من فلسطين ، واعتبرت منطقة دولية تقام فيها ادارة يتم البت بشكلها بالتشاور مع روسيا ، وبالتالي مع بقية الحلفاء ، ومع ممثلي شريف مكة . (انظر خريطة اتفاق سايكس ـ بيكو) .

واتفقت الدولتان على أن لا تحصلا لنفسيهما أو لأية قوة ثالثة على ممتلكات اقليمية في شبه الجزيرة العربية ، وان لا توافقا على أن تقيم قوة ثالثة قاعدة بحرية على الساحل الشرقي للبحر الاحمر ولا على جزره ، على الا يمنع هذا بريطانية من تعديل الجبهة العدنية بما قد تفرضه الضرورة نتيجة للعدوان التركي . واتفقت الدولتان على بحث اجراءات تقييد توريد الاسلحة الى داخل المناطق العربية . (انظر خريطة اتفاقية سايكس ـ بيكو) .

لا يمكن عزل اتفاق سايكس ـ بيكو عن الترتيبات الأخرى التي تتعلق بمستقبل هذه المنطقة بالرغم من أن هذا الاتفاق يبقى المستند الرسمي الاساسي ، لأن له صفة تعاقد دولي من جهة ، ولأن الترتيبات التي جرت بعد الحرب استندت اليه ، مع تعديلات ساعدت عليها وقائعُ الحرب الأخيرة (وذلك لأن الجيوش البريطانية والعربية قد لعبت الدور الاساسي في تحرير هذه المناطق) وتبدّلُ الظروف الدولية (خروج روسيا من الحرب بعد قيام الثورة الشيوعية ودخول الولايات المتحدة الحرب ، وبروز النفوذ الصهيوني بعد استقالة وزارة اسكويت Asquith وتأليف لويد جورج الوزارة) .

ويمكن اعتبار مراسلات حسين ـ مكماهون ـ التي تكلمنا عنها في الفصل الرابع ـ ثاني وأهم وثيقة شاملة بالنسبة لمستقبل هذه المنطقة ، بالرغم مما تحويه من عناصر ضعف ، أهمها : أنها لم تكن وثيقة دولية من جهة ، وان انكلترة تصرفت في مستقبل مناطق لا تملكها ولا تملك حرية العمل الكافية التي تتيح لها البت في مستقبلها .

وبصرف النظر عن قيمة هاتين الوثيقتين ، فان من الواضح أن الخطوط العامة لذلك الاتفاق ، وهذه المفاوضات فيما يتعلق بالجغرافية السياسية متطابقة الى حد بعيد . وبالرغم من ان انكلترة هي العنصر المشترك بينهما ، الا أنه يبدو من المؤكد ان الطرفين الفرنسي

والعربي كانا ـ كل من جهته ـ على اطلاع على الخطوط العامة للاتفاقية الاخرى ، فقد أطلعت انكلترا فرنسا في بداية المفاوضات على الخطوط العامة لمراسلاتها مع الشريف حسين ، كما أنها في تحفظاتها المذكورة ، تكون قد أطلعت الشريف بصورة غير مباشرة على الخطوط العامة لمباحثاتها مع فرنسا . وبالرغم من أن هذه المراسلات لم تنته إلى اتفاق واضح محدد ، بل تركت تسوية المسائل الهامة إلى ما بعد الحرب ، وبالرغم من أن انكلترا لم تعتمد هذه المراسلات كأساس في تسويات ما بعد الحرب ، وخاصة في مباحثاتها مع العرب ، إلا أنها في خلافها مع فرنسا كانت تشير إليها بوصفها معاهدة فيها شيء من الإلزام للحلفاء ، فقد تمسك لويد جورج بنصوص هذه المراسلات التي لها صفة المعاهدة ، وتعتبر شرحاً لمؤتمر الصلح ، يوضحُ أن الحسين قد دخل الحرب على أساس الالتزامات التي تضمنتها ، وبيّن أن فرنسا قد قبلتها عن طريق بيكو في ٢٣ تشرين الثاني حيث اعترف في اتفاق ١٩١٦ أن منطقة المدن الأربع (دمشق حمص حماه حلب) تقع ضمن الحدود التي وعدت بريطانيا بدعم الاستقلال العربي فيها .

ان أهم ما في هذه المراسلات ، ان بريطانيا نجحت في ان ترسم في اذهان العرب دور الحليف ، وان تنتزع من الشريف حسين اعترافاً بمصالحها السياسية والاقتصادية ، في حين ضمنت معارضة العرب للمصالح الفرنسية ، وبذلك اطمأنت الى أنها قد تنازلت لفرنسا عن مناطق زرعتها بألغام عربية وهذا كفيل بتقوية موقفها وزعزعة موقف فرنسا . ومما سيساعدها في ذلك أن قواتها هي التي لعبت ـ بالاشتراك مع القوات العربية ـ الدور الحاسم في تحرير هذه المناطق من الترك ، في حين كان دور الفرنسيين ثانوياً للغاية ، وسيلقي هذا كلّه ظلّه على العلاقات الانكليزية الفرنسية العربية حتى فترة الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية .

ويعتبر وعد بلفور ٢ تشرين الثاني ١٩١٧[1] ثالث وثيقة صدرت أثناء الحرب تتعلق بمصير هذه المنطقة العربية ، وبالرغم من ان هذه الوثيقة تخص جزءاً من المنطقة العربية الا أن آثارها المرتقبة كانت تتجاوز حدود فلسطين ، ولم تكن هذه الوثيقة معاهدة أو اتفاقاً بين دولتين كاتفاق سايكس ـ بيكو ، وكانت تختلف عن مراسلات حسين ـ مكماهون ، لانها لم تكن تهدف الى ما كانت تهدف اليه هذه المراسلات من عمل عسكري مشترك ذي تأثير في مجرى الحرب ، بالرغم من كل ما يقال حول دور اليهود في جر الولايات المتحدة ـ بما كان لهم من نفوذ فيها ـ الى دخول الحرب . ولم تكن تتضمن التزامات محددة ولم تناقش

---

(١) راجع الدراسة المستفيضة التي نشرتها المؤرخة اليهودية نيهير برنهايم بعنوان تصريح بلفور باريس ١٩٦٩ . وهو قيد الترجمة الى العربية . لخصت فيها للرأي العام الفرنسي دراسات ليونارد شتاين وناحوم سوكولوف حول الصهيونية ووعد بلفور .

مسائل أرضية كما في الوثيقتين السابقتين ، بالرغم من هذا كله فان هذه الوثيقة كانت حبلى بتعديل الاتفاقات السابقة وبتغييرات خطيرة في المنطقة ، كما أن موافقة الدول الكبرى الثلاث انكلترا فرنسا والولايات المتحدة ، أعطتها أهمية فاقت أهمية الوثائق السابقة ، ويعود السبب الرئيسي في اصدار هذا الوعد الى رغبة انكلترا في امتلاك فلسطين لاسباب استراتيجية . ولما كانت فرنسا وروسيا قد حالتا دون ذلك في اتفاق سايكس - بيكو ، فقد رأت قبول العرض الصهيوني الذي يتضمن المساعدة في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود يكون في حماية انكلترا وفي خدمة مصالحها . وكان الصهيونيون قد اعترضوا على اقامة ادارة دولية في فلسطين مهما كان نوعها ، حتى ولو كانت ادارة مشتركة بين فرنسا وبريطانيا وحدهما ، وأعلنوا أنهم سيعملون على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية إذ أيدتهم بريطانيا في تحقيق آمالهم القومية . ولا شك أن بريطانيا لم تكن مرتاحة لما وصلت إليه مع فرنسا في اتفاق سايكس - بيكو ووجدت في المطامع الصهيونية فرصة لإجراء تغيير لصالحها . شجعت بريطانيا الصهيونيين للضغط على فرنسا وايطاليا لاقناعهما بالتنازل عن فكرة تطبيق نظام دولي في فلسطين[1] . وقد نجحت الضغوط الصهيونية في هذا المجال من عام ١٩١٧ ، حيث كان الجو مهيأ لاصدار تصريح بريطاني لصالح الصهاينة في فلسطين ، ولكن هذا التصريح تأخر حتى ٢١ تشرين الثاني بسبب تعديلات أُدخلت على النص الاصلي الذي وضعته مجموعة صهيونية في بريطانيا ، وقد شارك في التعديلات أطراف متعددة صهيونية يهودية في انجلترة وامريكا بالاضافة الى وزارة الخارجية البريطانية والبيت الابيض .

أثار هذا الوعد قلقاً ومخاوف في الجانب العربي ، عملت انكلترا على تطويق آثارها بنجاح كبير وسرعة ، بفضل مهارة الدبلوماسية البريطانية والدبلوماسيين البريطانيين ، وغفلة القادة العرب وقلة امكاناتهم ووقوع معظم الافكار العربية تحت ظل السيطرة العثمانية أو الفرنسية أوالانكليزية أو الايطالية وثقة الملك حسين المطلقة بوعود الانكليز . ولكنها اضطرت بسبب هذه المخاوف الناجمة عن هذا الوعد وعن نشر السوفييت بعد ثورة اوكتوبر لاتفاق سايكس - بيكو[2] الى اصدار تصريحات منفردة أو باشتراك مع حليفتها

---

(١) راجع دراسة سيرجبو مينربي Sergio. I. Minerbi ايطاليا وفلسطين (١٩١٤ - ١٩٢٠) «L'Italie et la Palestine (1914-1920) باريس سنة ١٩٧٠ .

(٢) وقد نشر تروتسكي بعد تعيينه وزيرا للخارجية في الحكومة السوفياتية نص اتفاق سايكس - بيكو كما وجده في الارشيف السري في جريدتي الازفستيا والبرافدا بتاريخ ٢٣/ ١١/ ١٩١٧ . وقد اعلم مراسل جريدة المانشستر غارديان في بتروغراد جريدته بهذا الاتفاق في ٢٦ ، ٢٨/ ١١/ ١٩١٧ . ثم نشرت الجريدة المذكورة النص الكامل لهذا الاتفاق باللغة الانكليزية بعد ترجمته عن الروسية في عددها بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩١٧ . وقد سارع جمال باشا الى اعلام العرب ولا سيما الشريف فيصل بمضمون الاتفاق وعرض عليهم الصلح المنفرد .

فرنسا تناقض اتفاق سايكس ـ بيكو ووعد بلفور[1] ، ولكن هذه التصريحات كانت مسكنات لرد الفعل والهيجانات في وقت ما زالت الحرب فيه قائمة وما زال الحلفاء فيه بحاجة الى تعاون العرب معهم . ولكن لم يكن لها أية قيمة في ترتيبات معاهدة الصلح بعد الحرب .

وفي ضوء ما اتخذ من اجراءات بعد الحرب يمكن اعتبار وعد بلفور جزءاً مكملاً ومعدلاً لاتفاق سايكس ـ بيكو ، وبما أن هذا الوعد يخص فلسطين ، لذا كان لا بد أن ننظر الى مصير فلسطين في ضوء الوثيقتين السابقتين اللتين انفردتا في بحث المسائل الارضية وتحديدها . وفي حين نجد في اتفاق سايكس ـ بيكو تحديداً واضحاً لمصير فلسطين حيث اعتبرت باستثناء جزء من الساحل ، منطقة دولية . فان مراسلات حسين ـ مكماهون لم تتعرض بصراحة لهذا الموضوع ، وقد جرى نقاش حاد وطويل بين الانكليز والعرب حول هذه النقطة استمر حتى ١٩٣٩ .

وتقول وجهة النظر العربية ان فلسطين كانت ضمن المملكة العربية ، لانها تشكل جزءاً من المنطقة التي طالب بها الشريف حسين في رسالته الاولى ، وانها لم تستبعد

---

(١) من هذه التصريحات :

آ ـ التطمينات التي كلف القائد هوجارث من المكتب العربي بنقلها الى الشريف حسين والخاصة بوعد بلفور بتاريخ ١٥/١/١٩١٨ ، وقد جاء فيها أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به الا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية . . ولكن قيمة هذا التصريح ضئيلة لانه تصريح شفوي وان كان قد نجح في تخفيف آثار وعد بلفور . (راجع النص الكامل في كتاب روسي المذكور سابقا ص ٦٤ ـ ٦٧ .

ب ـ « التصريح الموجه للسبعة » ١٦ حزيران ١٩١٨ وهو جواب وزارة الخارجية البريطانية على مذكرة رفعها سبعة زعماء عرب مقيمين في القاهرة تعكس قلقهم ومخاوفهم من وعد بلفور واتفاق سايكس ـ بيكو وتطلعات الشريف حسين فيما يتعلق بشكل الحكومة او الحكومات التي ستقام في البلاد العربية المحررة . وفي هذه المذكرة حددت السياسة البريطانية في المنطقة التي طالب الشريف حسين بأن تكون منطقة الاستقلال العربي المشروع وقد أعلنت بريطانيا تأكيدين مناقضين لاتفاق سايكس ـ بيكو ووعد بلفور وهما :

١ ـ ان بريطانيا كانت وستظل تعمل لتنال تلك البلاد حريتها واستقلالها فضلا عن تحريرها من الحكم التركي .

٢ ـ تعهدت انها لن تقيم في تلك البلاد اي نظام من انظمة الحكم لا يقبله سكانها .

ج ـ في السابع من تشرين الثاني ١٩١٨ قبيل الهدنة بقليل وإثر حادث انزال العلم العربي في بيروت صدر تصريح بريطاني ـ فرنسي حول طبيعة السياسة التي ستتبعها الحكومات في هذه البلاد وهو ينص على تماثل الاهداف الحربية لكلتا الدولتين في الشرق . وهذه الاهداف هي « التحرير التام النهائي للشعوب التي طال اضطهاد الترك لها ، واقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحر والارادة المستقلة للاهالي الوطنيين » .

« ان الدولتين متفقتان في رغبتهما في قيام تلك الحكومات وفي قيامها وفي الاعتراف بها حال قيامها ، واكدت الدولتان في ختام التصريح سلامة واقعهما وانهما لا ترغبان في شيء سوى القيام بدور المرشد المنزه عن الهوى لتكفلا حسن سير الحكومات والادارات التي يختارها الاهالي اختيارا حرا » . راجع روسي ص ٧٠ وانطونيوس ص ٤٣٥ .

بتحفظات مكماهون ، ذلك[1] :

١ ـ لأن هذه التحفظات كانت بخصوص اجزاء من سورية تمتد غرب مناطق دمشق حمص حماه حلب . وان الرجوع الى أية خريطة يظهر أن هذا الاستثناء لا يمس فلسطين اذ لو كانت مقصودة لوجب اضافة مناطق حوران ومعان .

٢ ـ في رسالة مكماهون (١٣ كانون أول ١٩١٥) استخدم في الحديث عن المناطق التي هي موضوع النقاش تعابير « ولايات حلب وبيروت » وفي رسالته (٣٠ كانون الثاني ١٩١٦) استخدم تعبير « المناطق الشمالية » وهذه التعابير لا تمس فلسطين .

٣ ـ وان الاعتبار الاساسي الذي أثاره الانجليز لانفاص مطالب الشريف هو ضرورة مراعاة مطالب فرنسا في حين أنه لم يكن لفرنسا مطالب حول فلسطين .

وتقوم الحجج البريطانية على :

١ ـ أن جملة « أجزاء سورية الممتدة غرب مناطق دمشق حمص حماه حلب تستثني فلسطين . وتركيز هذه الحجة على تفسير ونستون تشرشل أنه ينبغي أن يفهم من تعداد مناطق دمشق حمص حماه أنه يعني الاقليم الذي يشكل أهم جزء من ولاية سورية ، وفلسطين تقع غربي هذه الولاية » .

٢ ـ في فلسطين مصالح مسيحية عديدة ولا يمكن لبريطانية أن تعد المسلمين بفلسطين دون الاتفاق مع المسيحيين .

٣ ـ أن القول ان فرنسا لم يكن لها مطالب في فلسطين غير صحيح .

٤ ـ صرح مكماهون سنة ١٩٣٧ بكل وضوح أنه لم يكن لديه النية في ادخال فلسطين في منطقة الاستقلال العربي ، وايده في ذلك كلايتون مدير الادارة السياسية .

ويرى جان بيير وهو عالم يهودي ان الحجج العربية كانت قوية ، في حين ان الحجة البريطانية الاولى كانت واهية ، والثانية لا تحتاج الى تعليق ، اما الحجة الرابعة فقد رفضها حقوقيون انجليز دُعوا للشهادة أمام اللجنة على أساس ان الوعود التي وردت في المراسلات

---

(١) وقد نجد في المراسلات التاريخية التي نشرها سليمان موسى والتي رجعنا اليها كثيرا في السابق رأي الملك حسين الجازم بما فهمه واعتقده من جراء مفاوضاته مع مكماهون . وقد أرسل رأيه هذا في تقرير الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٨ آب ١٩١٨ . أي قبل احتلال دمشق . بعنوان : « صورة ما تقرر مع بريطانيا العظمى بشأن النهضة (أي الثورة) . عدد ١٧٠ ص ٢١٠ ـ ٢١١ ونجد هذا التقرير في ملف وزارة الخارجية البريطانية . F. O. 882 /13 وقد نشرت الحكومة البريطانية هذا النص في وثائق سياستها الخارجية المجلد ٤ ص ٤١٨ ـ ٤١٩ والمجلد ١٣ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .

منحت من قبل الحكومة البريطانية وليس من قبل مكماهون . والمهم هو نوايا هذه الحكومة وليس نوايا مكماهون وكلايتون . وقد وقف اللورد غراي وزير الخارجية البريطانية آنذاك موقفاً مغايراً لموقف ممثليه في كلمة له في مجلس اللوردات ١٩٢٣ . والحق أنه لو كان في نية الحكومة البريطانية استثناء فلسطين من المناطق التي وعد بها الشريف حسين فلماذا لم يشر اليها ولو بكلمة واحدة[1] .

***

---

(١) انظر النص الكامل لاتفاق سايكس ـ بيكو في ملاحق الكتاب .



الشريف حسين بن علي



باريس ١٩٢٠ .
جورج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا وفيصل وقدور بن غبريط تحسين قدري ، الجنرال وبجان ،
عوني عبد الهادي ، احمد قدري كان فيصل يومذاك رئيسا للمؤتمر العربي لدى مؤتمر السلام .



في القويرة بين العقبة ومعان سنة ١٩١٨
الامير فيصل بن الحسين والى جانبه نسيب البكري ومرافقه فريد الخازن مع اعضاء البعثة العسكرية الفرنسية وفي مقدمتهم الكابتن بيزاني على يمين نسيب البكري : الملازم ليون ليمباشر ، على يسار بيزاني الطبيب المعاون مونشرو ثم الطبيب فورني على الارض الشاويش لربن والملازم فيزين .



دمشق ١٩١٩ .
الصف الامامي من اليمين : الشيخ يوسف خشيرم ، الامير سليم الاطرش ، مرزوق التخيمي (الذي قاد الهجانة في معركة ميسلون) الشريف علي الحارثي القائد عبد الله الدليمي (احد اشقاء جعفر العسكري) .

الصف الثاني : احد الاشراف ، جعفر العسكري ، الامير زيد ، رضا الركابي الشريف ناصر ، فوزي البكري ، الامير عبد الله الجزائري .
الصف الخلفي : الشيخ فرحان بن معجل ، نسيب الاطرش ، نسيب البكري ، حسين الاطرش ، تحسين العسكري ، سامي البكري .



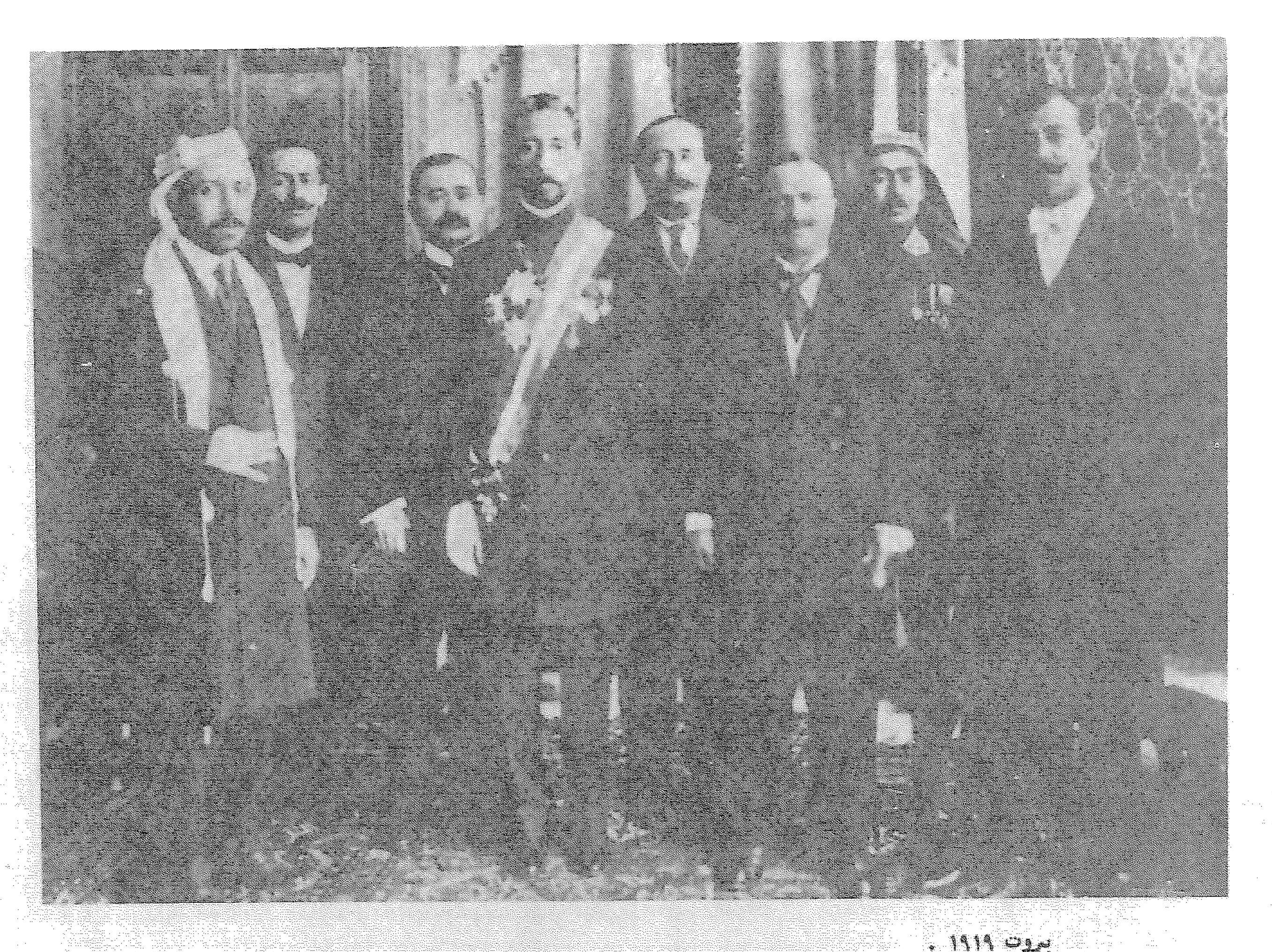
تشرين الاول ١٩١٦ .
الامير عبد الله بن الحسين في جدة بعد استيلائه على الطائف الى اليمين الشيخ سليمان قابل
رئيس البلدية .
الى اليسار السيد احمد باناجه وزير المالية .



الملك فيصل بن الحسين (في ايام الثورة العربية)



الملك عبد الله بن الحسين

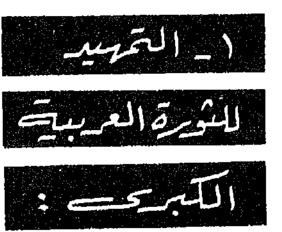


الأمير فيصل بن الحسين ومعه عدد من زعماء سوريا ولبنان من اليمين : نسيب البكري ، تحسين قدري ، عمر الداعوق ، كامل الاسعد احمد قدري ، رفيق التميمي ، الشريف جميل بن ناصر .
بيروت ١٩١٩ .

اعلان الثورة العربية الكبرى
١٠ حزيران عام ١٩١٦

« طاب الموت ...
يا عرب »

فيصل بن الحسين ـ ١ ـ



كانت الخطة الأولية للشريف حسين بن علي ، أن تبدأ الثورة في بلاد الشام والحجاز معاً ، وأن يحدث ذلك في آن واحد مع نزول قوات الحلفاء الى البر في موقع ما قرب الاسكندرونة ، وبذلك يحصر الأتراك بين نارين ، ويشل حركة قواتهم بين حلب ومكة ، ثم ينشر الثورة شرقاً . ويسدد اليهم الضربات في العراق . غير أن الظروف حالت دون

(١) هذه الصيحة أطلقها الامير فيصل بن الحسين عندما كان يتناول طعام الفطور في مزرعة آل البكري بدمشق في ٦/٥/١٩١٦ لدى سماعه أنباء تنفيذ حكم الاعدام من قبل جمال السفاح بأحرار العرب في دمشق وبيروت .

ذلك ، فقد امتنع الحلفاء عن انزال قواتهم في بلاد الشام ، وأدت سياسة جمال باشا في سوريا الى تعذر نشوب الثورة فيها . والأمر الذي لا جدال فيه هو أن رفض الحلفاء لهذه الخطة ، كان بسبب معارضة فرنسا لها ، لأن الحملة ستكون في أغلبها انكليزية ، نظراً لانشغال الجيوش الفرنسية في الجبهة الغربية ، لأن فرنسا تخشى نزول الانكليز في أرض تعتبرها من مناطق نفوذها[1] .

وفي الثاني عشر من شهر شباط ١٩١٥ وصلت مذكرة هنري مكماهون الرابعة الى مكة ، فشرع الشريف في اتخاذ الاجراءات النهائية للثورة .

واشتدت الحاجة الى المبالغة في الحذر ، واقتضاه ذلك مزيداً من الدهاء والحيلة أكثر من ذي قبل . وكانت شكوك الأتراك تتزايد باضطراد ، وفضلاً عن ذلك فقد قوّى انسحابُ الحلفاء من غاليبولي الأمل في قرب استسلام البريطانيين في كوت العمارة من عزائمهم ، فبعثوا من جديد خططهم القديمة التي ترمي الى فتح مصر ، وكانوا يشددون على الحسين لكي يحشد الجنود في الحجاز لهذا الغرض . فكان لا مفر أمامه من أن يرسل فيصلاً مرة أخرى الى دمشق قبل نهاية السنة ، استجابة لطلبات جمال باشا الملحة . وكان همه في هذه المرة أن يحول دون تقديم الأتراك مطالب جديدة ، وأن يواصل اعداداته أمام أبصارهم ، على ألا يندفع في ذلك الى الحد الذي ينبههم ، فينتقمون منه باعتقال ابنه فيصل ، فيعرض بذلك نجاح الثورة في الشام الى الخطر . وأوفد ابنه الأكبر علياً الى المدينة ليراقب الوالي التركي ، ويوجه شيوخ القبائل المجاورة الذين كان لا مناص من اطلاعهم على الأمر . وبقي الأمير عبد الله ملازماً لوالده ليساعده على إعداد خطط الثورة التي كان لا بد من إعدادها في مكة . أما ابنه الرابع الأمير زيد الذي لم يكن قد بلغ مبلغ الرجال ، فقد أدخره ليسند إليه أية مهمة طارئة .

كان الحسين بعد أن أطلعه فيصل على الغليان الشعبي في سورية وعلى قوة الحركة القومية ودقة تنظيمها ، قد بدأ يفرد لسوريا مكاناً بارزاً في خططه . فقد أدرك أن قيام الثورة في سورية والحجاز في آن واحد سيمنح الثورة العربية فرصة كبيرة للنجاح ، ذلك أن سورية ستشغل قوى تركية هامة أو تشلها وتحول دون ارسال امدادات الى الحجاز ، مما سيسهل انتصار الثورة هنا ، ويسمح للشريف بمتابعة زحفه للالتقاء مع ثوار سورية . وكان في الوقت الذي يراسل فيه مكماهون حول مستقبل العرب ، يحاول في اتصالاته مع

---

(١) سليمان موسى . المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ الثورة العربية الكبرى عمان ١٩٧٣ . رقم ٣٨ ص ٦٨ - ٦٩ وكذلك ر . نيهير برنهايم « وعد بلفور » باللغة الفرنسية دار نشر جوليار باريس ١٩٦٩ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

الأتراك ، أن يحثهم على معاملة السوريين معاملة خاصة ، تسمح لزعماء الثورة في سورية بالتحرك في جو من الأمن والحرية ، وأن يهيء لهم مناخاً مناسباً للعمل حين تدق الساعة .

ولكن الأمور تطورت في سورية تطوراً خطيراً أدى في النهاية الى شل عمل الثورة الهام المرتقب فيها ، وقد نجم هذا عن سياسة جمال باشا الارهابية هناك بعد فشل حملته في قناة السويس .

٢ - عهد الارهاب في بلاد الشام :

صرف جمال باشا همه - كما رأينا - الى السعي لاكتساب أهل الشام ، ولا سيما المسلمين منهم ، والى المشاركة مشاركة حماسية من جماع قلوبهم في الحرب العالمية الأولى ، التي أعلن أنها حرب للدفاع عن الاسلام ، حسب مزاعم الأتراك . وكان أول عمل باشره حينما تسلم قيادة الجيش الرابع ، هو تنظيم الحملة على مصر ، ولما كانت الفرق التي تحت إمرته تتألف في أغلبها من العرب ، فقد رأى أن يتجنب القيام بعمل يكون سبباً في تذمرهم . وحينما وصل بلاد الشام لم يكن يعرف الا القليل ، أو بالأحرى لم يكن يعرف شيئاً ، عن وجود الجمعيات القومية السرية(١) ، ولما اطلع على الوثائق التي عثر عليها في القنصلية الفرنسية في بيروت ، عزم على غض النظر عنها . وخاصة ان من بين المنتمين اليها رجالاً ذوي مكانة بارزة. وكانت المحاكمة السياسية الوحيدة التي سمح بها ،هي محاكمة نخلة مطران باشا ، وقد ثبتت عليه تهمة السعي للحصول على تأييد القنصل الفرنسي لفكرة ضم بعلبك الى جبل لبنان ، فحكم عليه بالنفي مدى الحياة وعُرض في شوارع دمشق ، ثم قُتل بعد ذلك وهو في طريقه الى منفاه ، ولم تكن السلطة العثمانية بريئة من دمه(٢) .

وحينما أخفقت الحملة على مصر - وكان السبب الرئيسي في اخفاقها هو سوء تقدير جمال باشا للموقف العسكري - عاد من جبهة سيناء وهو يشعر بالمذلّة والمهانة والانكسار في قرارة نفسه ، وأصبح حاد المزاج عصبياً ، كما هي عادة أوساط القادة العسكريين حينما يصابون بخيبة الامل المريرة . فما كادت تعرض عليه أوراق تتضمن اتهام رجل يدعى يوسف الحايك ، وهو قسيس ماروني من جبل لبنان ، بتبادل رسائل مع السيد ديشانل ، الذي كان حينئذ رئيساً للبرلمان الفرنسي ، رأى فيها جمال باشا دليل خيانة ، فوقّع على

---

(١) امين سعيد . الثورة العربية الكبرى - المجلد الاول - ص ٥٨ وص ٦٦ (كيف وصلت أوراق اللامركزية الى الترك) .

(٢) قتل نخله المطران بالقرب من جرابلس من قبل حراسه الاتراك بينما كان في طريقه الى منفاه في ديار بكر بحجة أنه حاول الهرب . راجع مذكرات جمال باشا ص ٣٣٦ .

حكم الاعدام دون تردد . ونفّـذ الشنق علناً أمام الجمهور في مدينـة دمشـق في الثانـي والعشرين من شهر آذار سنة ١٩١٥[1] .

ثم توالت التقارير بالتدريج ، وكانت تتضمن سرداً للأدلة التي تتزايد شيئاً فشيئاً عن النشاط السرّي للجمعيات القومية : فالجيش مليء بالخلايا الثورية . ولإنكلترا وفرنسة عملاء في البلاد يحرّضون على الثورة ، ومن المتوقع نزول قوات الحلفـاء على شواطـيء الشام ، كما أن بعض الضباط قد تعهدوا بمساعدة الحلفاء حينما ينزلون هناك . وقد أقلقت هذه الأخبار جمال باشا وولّـدت في نفسه دواعي الاهتمام والرغبة في الانتقام .

وفي حزيران ١٩١٥ وهو في تلك الحالة ، طلب منه أنور أن يرسل ببعض الفرق الى جبهة غاليبولي ، فأرسل الفرقة الخامسة والعشرين ، وجميعُ أفرادها من العرب ـ وهي أحد الاركان التي كانت تعتمد عليها منظمة العهد في خطتها للقيام بالثورة ـ وقد صار فيما بعد يقصي الكتائب العربية عن بلاد الشام كلما واتته الفرصة ويستبدل بها كتائب غالبية جنودها من الأتراك[2] .

ثم أخذ يوجه همه الى المنظمات المدنية ، وقرر أن يحاكم المتهمين الذين ورد ذكرهم في الوثائق التي عثر عليها في القنصلية الفرنسية ، فأُلقي القبض على عدد كبير من الناس ، وقُـدموا الى محكمة عسكرية اشتهرت بالشؤوم ـ في عاليه بجبل لبنان ، فاستُـجوبـوا ، وعُـذّبوا وحوكموا ، وصدر الحكم باعدام ثلاثة عشر منهم ، وبالحكم نفسـه غيابياً على خمسة وأربعين آخرين ممن كانوا خارج البلاد أو كانوا قد فروا ، كما حُـكم على عدد غيرهم بالسجن مدداً متفاوتة وبالنفي ، وكانـوا جميعـاً من الرجـال البـارزين ، وبعضهـم من الشخصيات المشهورة في جميع أنحاء العالم العربي .

وقد أرجيء تنفيذ الحكم في اثنين من الثلاثة عشر الذين حضروا المحاكمة واستمعوا الى الحكم الصادر باعدامهم ، أما الباقون فقد نُفّـذ فيهـم الحـكم فجـر اليوم الحـادي والعشرين من شهر آب سنة ١٩١٥ . فنصبت احدى عشرة مشنقـة في الميدان الـرئيسي ببيروت ، الذي سمي فيما بعد بميدان الحرية . وكان عشرة من هؤلاء المناضلين مسلمين ، أما الحادي عشر فكان مسيحياً . ولقد جيء بهم من أنحاء مختلفة من بلاد الشـام : من

---

(١) ادمون رباط « التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري » بيروت ١٩٧٣ منشورات الجامعة اللبنـانية ص ٢٤٩ ـ ٢٥١ باللغة الفرنسية .

(٢) ديزموند استيوارت « تاريخ الشرق الاوسط الحديث معبد جانوس » . ترجمة زهدي جار الله ـ بيروت ـ دار النهار للنشر عام ١٩٧٤ ص ١٩٠ ـ ١٩٢ .

بيروت وبعلبك وحماه ودمشق وجنين ، وكان أكثرهم في ريعان الشباب ، وقد أحسنوا استقبال الموت ، ولاقت كلماتهم الأخيرة ـ التي صدرت عنهم قبل شنقهم ـ من تقدير أمتهم ما جعلها بمثابة رسالة وطنية مثيرة للمشاعر[1] . وكان محمد المحمصاني واحداً منهم ، وهو من المتخرجين النابهين في مدرسة الحقوق بباريس ، وأحد مؤسسي جمعية « العربية الفتاة » ، وعلى الرغم مما تعرض له من تعذيب وما وعدوه به من العفو اذا ما اعترف فانه استشهد دون أن ينطق بحرف واحد عن وجود الجمعية .

أما الشخصان اللذان أرجىء تنفيذ الحكم فيهما فهما : حافظ السعيد (من يافا) ، والشيخ سعيد الكرمي (من طولكرم) ، ثم خُفف الحكم عليهما من الاعدام الى السجن المؤبد بسبب كبر سنهما . وقد مات أولهما في سجنه . ونجا أحد هؤلاء الرجال بمعجزة ، وهو حسن حماد (من نابلس) . ذلك أنه لم يتسلم اشعار استدعائه بسبب تأخر في الاجراءات ، فلم يحضر الجلسة بل ذهب وهو خالي البال ليصرف امور عمله بوصفه رئيساً لدائرة تسجيل الأراضي في بلدته . فحكم عليه غيابياً بالاعدام ، وفي تلك الأثناء وصله اشعار الاستدعاء ، فسافر للمثول أمام المحكمة العسكرية في عاليه . وحينما وصل الى فندق البلدة قرأ بالمصادفة احدى الصحف التي نشرت الحكم عليه . فتناول حقيبة ملابسه ، واستقل القطار الى دمشق واختفى فيها وأطلق لحيته ، وتزوج ابنة الرجل الذي اختبأ عنده ، وأنجب منها طفلين ، وعاد سالماً الى نابلس بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

وهكذا بدأ جمال باشا سياسة البطش والارهاب التي استفحل شرها فيما بعد الى درجة مذهلة .

حين وصل فيصل الى دمشق في بداية عام ١٩١٦ ، صدم بهذه الأنباء الخطيرة ، فقد وجد أن الفرق العربية قد نقلت ونقل معها أكثر اصدقائه من أعضاء « العهد » ، وحلت محلها فرق مؤلفة بغالبيتها من الجنود الأتراك . كما كان قد نفي الى أماكن نائية في الاناضول عدة مئات من الرجال البارزين من البلاد الشامية مع أسرهم ، وكانت قد بدأت تلك المجاعة التي سقط ضحيتها بعد ذلك عدد هائل من الأرواح . وانتشر العوز والفقر بين الناس بسبب ما يطلبه منهم الجيش لتزويده باحتياجاته ، وبسبب هبوط قيمة النقد ونقص الطعام ، فأصبح الشغل الشاغل للسكان أن يقاوموا الجوع . وبالاضافة الى

---

(١) راجع أمين سعيد « الثورة العربية الكبرى » المجلد الاول ص ٨٣ ـ ٩٢ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ حيث جمع أقوال الشهداء قبل رحيلهم الى الرفيق الاعلى . وراجع ادمون رباط في كتابه ـ الوحدة السورية والمستقبل العربي ـ باريس ١٩٢٧ ـ ص ١٠٥ .

هذه المخاوف العامة ، كان قد ألقي القبض على طائفة اخرى ـ أكثر عدداً من سابقتها ـ من وجهاء القوم بتهمة الخيانة العظمى ، وكانوا ينتظرون محاكمتهم في عاليه .

وكان من بينهم أفراد من أشهر الرجال ، وأوسعهم نفوذاً في بلاد الشام ، واستمرت المحاكمة عدة شهور ، واديرت بقسوة متعمدة تتفق مع ما تخللها من اساءة وتعذيب بقصد التهديد . وتدخل الشريف حسين فأرسل البرقيات الى جمال باشا والى الصدر الأعظم والسلطان العثماني وألحّ فيها على وجوب حصر العقاب ـ اذا ما ثبتت التهمة على أحد من المتهمين ـ بالسجن المؤبد . وأضاف متوعداً ومهدداً : « والا فان الدماء سوف تستثير الدماء » . واتصل فيصل بجمال شخصياً وتوسط لديه لتخفيف الأحكام واستعطفه . ولكن تدخلهما لم يجد نفعاً على الاطلاق لأن جمال قرر المضي في مخططه الاجرامي حتى النهاية[1] .

وكان أول الضحايا جوزيف هاني من بيروت ، وقد شنق أمام الجمهور في الخامس من نيسان ١٩١٦ . وبعد شهر شنق أمام الملأ كذلك واحد وعشرون آخرون : سبعة منهم في دمشق ، وأربعة عشر في بيروت . وكان من بينهم عضو مجلس الأعيان عبد الحميد الزهراوي (من حمص) ، وكان قد ترأس المؤتمر العربي في باريس ، وثلاثة مبعوثين من ممثلي دمشق هم : شفيق المؤيد وشكري العسلي ورشدي الشمعة ، وكذلك سليم الجزائري ، وهو ضابط قدير وشجاع في الجيش التركي ، وسيف الدين الخطيب (من حيفا) وكان قاضياً ، والأمير عارف الشهابي (من حاصبيا) وكان محامياً شاباً يبشر بمستقبل زاهر ، وأحمد طبارة (من بيروت) وكان صاحب جريدة وأحد المندوبين في المؤتمر العربي في باريس ، وعلي عمر النشاشيبي (من القدس) ، ومحمد الشنطي (من يافا) ، وجورج حداد (من جبل لبنان) . وكان هؤلاء الثلاثة من الشبان الذين يتمتعون بشهرة واسعة وبمحبة وتقدير الناس لهم ، والأمير عمر الجزائري (من دمشق) وهو من سلالة الأمير عبد القادر الجزائري الشهير .

ولم تعلن الأحكام قبل تنفيذ الشنق . بل دخل السجان ، في ليلة التنفيذ ، قاعة السجن في عاليه وقرأ أسماء واحد وعشرين من المتهمين ، وأمرهم أن يرتدوا ملابسهم ويتبعوه . ونقل الذين تقرر اعدامهم في دمشق اليها بالقطار ، وحينما وصلوها سيقوا الى المرجة[2] ـ وهو الميدان الرئيسي فيها ـ حيث نصبت سبع مشانق . واقتيد الآخرون على

---

(١) راجع ك . شمعون ـ أزمة في الشرق الاوسط ـ باريس ١٩٦٣ دار نشر غاليمار ـ ص ٣٣ ـ ٤٥ .

(٢) احدث تنفيذ حكم الاعدام بالمناضلين ثورة عارمة في نفوس أهل الشام خاصة والامة العربية عامة ، واثر هذه الجريمة الشنعة انطلقت الاغنية الشعبية الشامية التي تقول كلماتها : « زينوا المرجة . . . والمرجة لينا » .

مركبات الى بيروت ، وقد خمنوا مصيرهم فأخذوا يفضون ساعات الظلام بانشاد الاهازيج عن حرية العرب ، وكان النشيد الأكثر ترديداً هو :

نحـــن أبنـاء الألـــى شادوا مجـداً وعــــلا
نســـل قحــطـــان الأبـــى جــد كـــل العـــرب[1]

وكان راكبـو كل مركبة يجاوبون زملاءهم ، وحينما وافى الفجر كان الموكب قد وصل الى ميدان الحرية فتوقف هناك . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم السادس من شهر أيار ١٩١٦ كانت المجزرة قد انتهت ، ولم تمض ساعتان بعد ذلك حتى كان عدد خاص من جريدة « الشرق[2] » يوزع مجاناً ، وقد اشتمل على اعلان التهم والمحاكمات والاحكام والتنفيذ جملة واحدة . ووصفت التهم بأنها خيانة عظمى واشتراك في نشاط يرمي الى فصل سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية ووضعها في دولة مستقلة .

وبالرغم من أن الموت قد أصبح ضيفاً مقيماً في بلاد الشام حيث كانت المجاعة والأوبئة والحرب تعصف بالبلاد وتفتك في الناس فتكاً ذريعاً ، فقد غطت هذه المجزرة على كل ما ألفه الناس ، وزرعت في نفوسهم خوفاً تحوّل بسرعة الى نقمة عارمة وحقد دفين . وكانت جثث هؤلاء الشهداء المعلقة في ساحات دمشق وبيروت أفضل أشكال الدعاية الثورية والدعوة الى الثورة .

كان الأمير فيصل ، في اليوم الـذي تم فيه تنفيذ الحـكم ، مقيماً مع آل البـكري في مزرعتهم بالقابون ، وهي تبعد عن دمشق حوالي خمسة كيلو مترات ، وبينما كان يتناول الفطور مع مضيفيه في الحديقة ، جاءهم رسول وأبلغهم النبأ وقدم اليهم العدد الخاص من جريدة « الشرق » التي تتضمن القصة المقيتة . فقرأها واحد من آل البكري جهراً فأصيب المستمعون بالوجوم ، ودوّت أسماءُ الضحايا الواحدة والعشرين دوياً فاجعاً ، وظلت تتردد في أسماعهم كأنها أنغام مرثية حزينة تنساب في الجو الساكن الذي كان يخيم على صباح ذلك اليوم من أيام الربيع في غوطة دمشق . وانقضت دقائق طويلة في صمت رهيب لا يقطعه سوى دعوات خافتة ، وسوى التأوه والترحم على أرواح الشهداء ، وقرأ أحدهم الفاتحة . ثم قفز فيصل واقفاً كمن أصابه مسّ مفاجىء ، وانتزع الكوفية من على رأسه وقذف بها الى الأرض ، وداسها بعنف ، وصاح : « طاب الموت يا عرب » .

---

(١) أمين سعيد « الثورة العربية الكبرى » المجلد الاول ص ٨٦ .

(٢) صحيفة عربية يومية انشئت سنة ١٩١٥ في دمشق تحت رعاية الحكومة لتحدم سياسة جمال باشا .

٣ - بداية العمل [1] :

كان تنفيذ الحكم في احرار الشآم هو « القشة التي قصمت ظهر البعير، » وكان حافزا للشريف حسين بن علي ليبدأ العمل فورا . وكان من قبل ذلك يبذل اقصى جهده لاستكمال استعداداته ، وخاصة منذ ان اخبره جمال ، في الاسبوع الاول من شهر نيسان ١٩١٦ ، بان قوة مؤلفة من ٣٥٠٠ رجل كانت على وشك الزحف الى الحجاز في طريقها الى اليمن . وكانت هذه القوة ، التي يرئسها ضابط اسمه خيري بك ، تتألف من كتائب منتقاة ومجهزة تجهيزا خاصا ، وكان عليها ان تتعاون مع بعثة المانية حربية يقودها البارون اوتمار فون ستوتزجن . ولم يستسغ الحسين هذه الزيادة في عدد الحامية التركية المرابطة في الجزيرة العربية ، ولذلك كان يسعى لكي يحول دون وصولها .

وكان قد انتهى من تهيئة الجو بين القبائل ، بان أَوْلَىَ زعماءها ثقته واطلعهم على فكرته باعلان الثورة على الاتراك وضمن تعاونهم معه . ومع ذلك فان اغلب رجال القبائل كان تجهيزهم ناقصا ، وكان الحسين يراسل السير هنري مكماهون ليرسل اليه المال والبنادق والعتاد . وطلب ان ترسل هذه الامدادات الى بور سودان ، وتنقل منها - حينما يشير بذلك - بالبحر في قوارب الى مرسى امين على شاطىء الحجاز . وطلب ان تتولى السفن الحربية البريطانية محاصرة موانىء الحجاز ليوجه بذلك ضغطا غير مباشر على التجارة والمواطنين الاخرين الذين لم يحددوا بعد موقفهم من الثورة . وكان يواصل مساعيه لنشوب الاضطرابات في بلاد الشام ، في الوقت نفسه الذي يعلن فيه ثورته في الحجاز ، وكان يحث مكماهون على ان يعد العدة لنزول القوات البريطانية على شاطىء بلاد الشام ، لتقطع اتصال الاتراك بآسية الصغرى او على الاقل لتكون سببا في اشغالهم وتحويل انتباههم [2] .

ولم يؤخذ بنصيحة الشريف في هذا الامر كما ذكرنا ، اذ ان دوائر الحلفاء كانت قد بحثت لاول مرة موضوع نزول قواتها في الاسكندرونة في نهاية سنة ١٩١٤ . ثم بحث

---

(١) جورج انطونيوس . يقظة العرب . دار العلم للملايين ط ٤ عام ١٩٧٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ . الجنرال ليمان فون ساندرس « خمسة اعوام في تركية » ص ١٤٤ - ١٤٦ برلين عام ١٩٢٥ . وفي شهر شباط عام ١٩١٦ قرر القائدان أنور وجمال باشا زيارة المدينة المنورة لتهيئة الحملة (راجع سليمان موسى - المراسلات التاريخية سابقا ص٣٧ - ٣٨) . رسالة الشريف حسين الى جمال باشا . مأخوذة عن وثائق وزارة الخارجية الانكليزية F. O 686/39 حيث يقول : « اما وصول القوات النمساوية والالمانية فسيفتح فصلا جديدا في تاريخ الاسلام » .

(٢) سليمان موسى . المراسلات التاريخية المذكورة سابقا رقم ٢٩ ص ٥١ - ٥٤ . وكذلك الرقم ٣٤ ص ٦٣ - ٦٤ رسالة من الامير علي الى أبيه الشريف حسين من المدينة المنورة بتاريخ ٢٣/٣/١٩١٦ . (مأخوذة عن وثائق وزارة الخارجية الانكليزية F O 882 /19. وكذلك رسالة الشريف حسين الى مكماهون من مكة المكرمة في ١٨ نيسان ١٩١٦ - عدد ٣٩ - ص ٦٨ - ٦٩ مأخوذة عن وثائق وزارة الخارجية الانكليزية F. O. 371 /6237-882/ 19

الامر بعناية وتفصيل اكثر بعد ذلك بعام ـ حينما وصل اللورد كتشنر الى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ـ ليبحث موضوع الجلاء عن غاليبولي. فقد لفت انتباهه حينئذ الى هذه الخطة واقتنع بأنها تؤدي الى قطع المواصلات بين تركية والعراق كما تؤدي الى قطعها بين تركيا والشام ، فارسل الى وزارة الحربية اقتراحاً يوصي بقوة لتنفيذها . ولكن هذا الاقتراح رفض لاسباب عسكرية من جانب ، ومن جانب آخر وهو الاهم ، للاعتراضات السياسية التي تقدمت بها الحكومة الفرنسية ، اذ انها لم تكن لديها قوات احتياطية كافية ولم تستسغ ان تنزل في الشام قوات اخرى غير القوات الفرنسية[1] .

وللامانة والموضوعية فان المنظّرين العسكريين ما زالوا يعتقدون ان الخطة كانت عملية وان تنفيذها كان من المحتمل ان يسبب انهيار الدولة العثمانية . والذي لا جدال فيه أن خطة الحسين بن علي تعتبرتطبيقاً رائعاً لاستراتيجية الهجوم غيرالمباشر ، وهي كما نعلم أفضل أنواع الاستراتيجيات العسكرية إطلاقاً ، ولو نفذت الخطة وفق ما رسمها قائد الثورة العربية الكبرى ، لحسمت الموقف العسكري لصالح القضية العربية في بضع شهور ووفرت الكثير من الدماء والجهد . وسنتعرض لهذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل الاخير من هذا الكتاب عند كلامنا عن « استنتاجات عن الثورة العربية الكبرى » .

ومهما يكن من أمر ، فان نصيحة الشريف لم تقبل ، كما رفض طلبه بالقيام بمظاهرة عسكرية بحرية . وصار يقول في السنوات التالية انه لم يفهم قط الاسباب التي دعت الى رفض نصيحته . ويروي الدكتور جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب أنه في احدى زياراته للشريف حسين في شؤنة نمرين بشرق الاردن في ربيع سنة ١٩٢٤ سمعه يشرح خطته وهو يعود بذاكرته الى الماضي . وكان تناوله للمسألة قائماً على أنها في جوهرها مسألة نفسية ، فكان يذكر في حديثه الاخلاق والقوة المعنوية والحالة النفسية ، باعتبارها عوامل مهمة تختلف من فريق الى فريق ، بينما تعتبر البنادق والقذائف مجرد أشياء ثابتة يشترك فيها الطرفان فيتساويان ، ولذلك يبطل أثرها المرجح . فكان يقول أن الرجل التركي بطبيعته مدافع مستميت ، ولذلك فان مواجهته بالهجوم مواجهة يكون إهداراً للجهد ، ومهما يكن مهاجمه متفوقاً عليه كما حدث في غاليبولي . وان الوحدات التركية تحسن البلاء في الحرب حين تختار ميدان المعركة ، بحيث تكون لها مراكز تعرفها وتستطيع الالتجاء اليها ، ولذلك

---

(١) دزموند استيوارت « تاريخ الشرق الاوسط الحديث » المذكور سابقا ص ١٩٠ ـ ١٩١ وكذلك سليمان موسى ـ المراسلات التاريخية المذكورة سابقا برسالة الامير فيصل الى ابيه الشريف حسين . دمشق بعد ١٦ شباط ١٩١٦ ـ رقم ٣٠ ـ ص ٥٤ ـ ٥٦ .

يجب العمل على جعل طرق مواصلاتهم محفوفة بالمخاطر ، خاصة وان الجندي التركي يتجنب المغامرة ويخشاها ، وهو أسير للعادات التي اعتادها ، وسرعان ما يضطرب حينما يفاجئه أمر لم يكن يتوقعه . فاذا ما اخذته على حين غرة بالهجوم عليه من مؤخرته ، فانك ستقضي عليه . ذلك هو حديث الحسين بن علي الذي لم يكن جندياً محترفاً ، ولكنه بادراكه الواسع كان يفهم نفسية الاتراك كما يفهم نفسية العرب[1] . ومن مزايا خطته أنها كانت مبنية على أسس تلائم أساليب القبائل العربية في القتال ، وفي الوقت نفسه كانت ترمي الى شل حركة الاتراك ، غير أنها لم تنل رضاء كبار الموظفين في القيادة العامة للحلفاء . وبذلك لم يبق امامه من سبيل الا استدعاء ابنه فيصل من الشام .

٤ ـ عودة الأمير فيصل الى الحجاز واعلان الثورة العربية الكبرى :

تلقى الامير فيصل الامر بالعودة الى الحجاز بعد أيام قليلة من حوادث الشنق التي وقعت في السادس من أيار ١٩١٦ . وقد جاءت صيغة هذا الأمر متفقة مع ما اصطلح عليه هو ووالده بحيث تنبئه بقرب نشوب الثورة . فأصبحت المشكلة التي تواجهه الآن هي : كيف يعود الى مكة ؟ وكيف يدبر رحيل حرسه الخاص دون أن يثير شكوك الأتراك وعلى رأسهم جمال السفاح ؟

كان فيصل قد بذل أقصى جهده ليحول دون بطش جمال باشا بالزعماء العرب ، وتدخل الشريف حسين لدى الدولة في استنبول وحثّها على وقف سياسة البطش والارهاب ، وربط قضية اعلان الجهاد وارسال المجاهدين ، باعلان العفو العام عن المحكومين السياسيين ، ومنح سوريا والعراق ادارة لامركزية والاعتراف بحق الشرافة الموروث بمكة . ورفضت الدولة مطالب الشريف وجاء في برقية الصدر الاعظم «ان التحدث في مثل ما بينتموه عن الحرب والعرب ليس من حقوقكم ، وان من بالشام من المجرمين سينالون الجزاء العادل ، وان ما بينتموه لا تكون نتيجته بحقكم سارّة ، وعليه فسوف لا ترون نجلكم فيصل مرة أخرى قبل أن تبعثوا بالمجاهدين الى الجبهة كما وعدتم ، وان لم تنفذوا هذه فالنتيجة بحقكم لا تكون خيراً »[2] ولم يتأثر الشريف حسين

---

(١) سليمان موسى ـ المراسلات التاريخية ـ المذكور سابقا . رسالة الشريف حسين الى مكماهون ـ مكة ١٩ ايار ١٩١٦ ـ رقم ٤١ ـ ص ٧١ مأخوذة من وثائق وزارة الخارجية الانكليزية 461 / F.O 111

(٢) جاء الأمير عبد الله بهذه البرقية الى والده بعد ان حل رموزها وكان الوقت ليلا وهو في الخارجية بمكة وقدمها اليه وهو يحمل الشمعة . . فقال له الشريف حسين : اقرأها . . فقال الامير عبدالله : لا اقرؤها . . عندئذ تناول الشريف حسين النظارة ووضعها على عينيه ، وبعد ان تلاها نظر الى الامير عبدالله وقال : أيهددني ؟ . . سوف نرى، اذا انجلى الغبار افرس تحتك ام حمار

الملك عبد الله بن الحسين ـ الآثار الكاملة ص ١١٤ الدار المتحدة للنشر بيروت ـ ١٩٧٠ .

بهذا التهديد ورد عليهم بما يلي : « ليس ما أقوله سوى النصيحة الأخيرة في برقيتي ، وبها ضمان انحياز العرب الى صفوفكم بقلوبهم . أما ابني فيصل فلم ابعثه اليكم وأنا أعتقد أني أراه مرة أخرى فافعلوا ما شئتم » . وتراجعت الدولة ووعدت بشيء من التساهل بعد وصول المجاهدين ، ولكن الشريف رد بقوله : « ان المجاهدين أصروا على عدم السفر الا اذا حضر فيصل ليأخذهم » ووافقت الدولة على سفر فيصل الى الحجاز .

وكان فيصل بدوره قد نجح في خداع جمال باشا ، فأعلن أنه تلقى أخباراً تنبيء بأن والده قد حشد عدداً كبيراً من الجنود في المدينة ، وأنهم على أهبة التوجه الى دمشق ، وتساءل : ألا يرى الباشا مما يزيد من مهابة وصولهم أن يبعث الشريف بأحد أبنائه على رأس الجيش ؟ . فوقع الباشا في الفخ . . ولم يكتف بمجرد الموافقة على ذلك ، بل كان من رأيه أيضاً أن يكون فيصل نفسه ذلك الابن الذي يقود الجنود نيابة عن الشريف حسين ، وسار فيصل بهذه التمثيلية خطوة أخرى ، فاعترض على ذلك وأشار الى أن له أخوين أكبر سناً منه ويجب أن يكون لهما حق التقدم عليه ، وأن وجودهما في تلك الآونة في الحجاز يمكنهما من أن يصطحبا معهما حاشية من أشراف الحجاز وعلماء الدين . فأجاب جمال بقوله : « ومع ذلك فاني أرجوك أن تذهب وليأت أحد أخويك معك اذا استطاع ، ولكن من الضروري أن تذهب الى المدينة لتستعجل اتمام الامدادات وستصحبك حاشيتك الخاصة[1] .

غادر فيصل دمشق بالقطار يوم ١٦ أيار ١٩١٦ ، وكان معه ثلاثة أو أربعة من كبار الموظفين في الدولة أوفدهم جمال .ولكن لم يكن بمقدوره أن يصطحب رجاله الخمسين ـ وبينهم بعض الاشراف ـ الذين كانوا يقيمون في القابون بمزرعة أصدقائه آل البكري ، خشية أن يثير شكوك جمال . وبعد أن بَلغ المدينة وأقام فيها يومين طلب من صديقه نسيب البكري أن يعود الى دمشق ، وقال له أنه قبل قيام الثورة بثلاثة أيام سيبعث اليه ببرقية يقول فيها « أرسلوا الفرس الشقراء » ، رمزاً الى أن الثورة ستقوم وأن عليه أن يبادر مع رجاله الخمسين الى النجاة بأنفسهم حالما تصل اليهم هذه البرقية[2] . وكان أخوه علي دائم الاتصال بأبيه فعرف ان الثورة توشك أن تنشب ، بل ربما نشبت في وقت قبل الوقت الذي قدره الشريف ، اذ أن القوة الخاصة التي يقودها خيري بك قد وصلت المدينة ، وكان علي

(١) من غرائب الامور ان يزعم جمال باشا في مذكراته انه هو صاحب الفكرة في ارسال الامير فيصل الى الحجاز الا ان نظرة موضوعية على الاحداث ترينا بوضوح كذب المزاعم التي يدعيها جمال باشا لان عودة الامير فيصل الى مكة لا يمكن ابدا ان تكون في مصلحة الاتراك في تلك الظروف الصعبة سيما بعد ان اصبحت الثورة العربية على الابواب وبدأت بشائرها تلوح في آفاق الجزيرة العربية والبلدان الشامية . (راجع مذكرات جمال باشا ص ٣٨٩ . ترجمة احمد شكري عام ١٩٣٣) .

(٢) سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ المذكور سابقا ص ٢٦٨ .

قد تلقى تعليمات تقضي بأن يمنعها من التقدم الى مكة ، مهما كلفه ذلك . وكان على البعثة الالمانية الملحقة بهذه القوة ـ وهي بعثة فون ستوتزنجن ـ ان تغادر القطار في بلدة العلا ، وهي البلدة التي لا يستطيع أن يتعداها غير المسلمين ، واتجهت غرباً الى بلدة الوجه ومنها استطاعت متابعة سيرها على الساحل الى جدة وقنفذة .

وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر تلقى علي تعليمات جديدة من أبيه ، تشعر بأن فيصلاً قد رجع ولم يبق أي سبب لتأجيل التنفيذ زمناً آخر ، ولذلك طلب الشريف من علي أن يحدد اليوم الذي تنشب فيه الثورة في المدينة ويخبر والده به في الوقت المناسب . وكان لابد له كذلك من أن يخبر كبار شيوخ القبائل . فتشاور الاخوان علي وفيصل واتفقا على يوم الاثنين الخامس من شهر حزيران ١٩١٦ . وبعثا برسالة الى والدهما يخبرانه بذلك ويلحان عليه ـ باقتراح من فيصل ـ أن يكرر طلبه بقيام قوات الحلفاء بمظاهرة حربية على الشواطىء الشامية[١] . ثم وجه علي الرسل الى شيوخ القبائل ، بينما أرسل فيصل نسيب البكري الى دمشق على وجه السرعة ليدبر الامر لفرار الحرس الخاص للالتحاق بالثورة[٢] .

هكذا أخذ يوم اعلان الثورة العربية يقترب بسرعة كبيرة ، تدفعه الاحداث الحربية والسياسية . ولم يكن بمقدور الشريف الاستعداد لذلك اليوم الاستعداد الكافي خشية أن يطلع الأتراك على الأمر الذي يتهيأ له فيعملوا على احباطه . لذلك لم يحضر من السلاح الذي أعده الانكليز في بور سودان سوى كمية قليلة من البنادق والعتاد . وكان اعتماد الشريف منصباً على المفاجأة وعلى ولاء القبائل . ولم يجد بداً من الاعتماد على هذين العنصرين في الأيام الأولى ريثما تعلن الثورة جهاراً ، فيبادر الى الاستعانة بما تستطيع حليفته بريطانيا العظمى أن تقدم له من سلاح وعتاد . والواقع ان الثورة العربية فاجأت الأتراك على حين غره[٣] . فأصابهم الذهول والارتباك لأول وهلة . وتبين أنهم لم يكونوا يتوقعون قيامها . وفي هذا دليل على ضعف أجهزة استخباراتهم وقلة كفايتهم من جهة ،

---

(١) وقد يتضح هذا من جواب مكماهون الى الحسين بتاريخ ٢٢/ ٥/ ١٩١٦ من القاهرة (راجع سليمان موسى ـ المراسلات التاريخية ـ المذكور آنفا عدد ٤٣ ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) عندما وصلت البرقية في الموعد المحدد بادر الرجال الخمسون الى مغادرة دمشق مع خيولهم تحت جنح الظلام ومعهم اثنان من آل البكري وعندما اكتشف جمال فرارهم أرسل خلفهم مفارز من الخيالة لتتعقبهم ولكنها لم تستطع اللحاق بهم . اما اولئك الرجال فقد ساروا في البيداء حتى وصلوا الى الجوف الذي كان يحكمه نواف الشعلان ومن هناك توجهوا الى الحجاز حيث انضموا الى قوات فيصل بعد شهرين من قيام الثورة . (راجع : سليمان موسى الحركة العربية ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ الحاشية (١) وما بعدها) وجورج انطونيوس ـ يقظة العرب ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

وعلى حسن تدبير الشريف ومبالغته في الحذر والحرص من جهة أخرى(٢) .

وقد استفاد الشريف من اعلان الثورة في فصل الصيف ، اذ أن الجانب الاكبر من القوات التركية كانت قد غادرت مكة وجوّها الحار - كعادتها كل سنة - الى بلدة الطائف ، وهي مصيف الحجاز على بعد ٧٠ ميلاً الى الشرق . ورافق تلك القوات الوالي والقائد العام الفريق غالب باشا وأركان حربه ولم يبق في مكة سوى قوة ضئيلة نسبياً . واستفاد الشريف من طبيعة الأرض الوعرة في الحجاز وعدم وجود وسائل نقل آلية لدى القوات التركية . فتمكّن رجال البدو من قطع سبل الاتصال بين الحاميات الرئيسية المرابطة في مكة والطائف وجدة والمدينة . ولم يجرؤ أي منها على الخروج الى الجبال الوعرة والأودية العميقة بغية الانضمام الى الحاميات الأخرى . وهكذا استعان الشريف بحرارة الصيف ووعورة أراضي الحجاز وقلة الماء ، ليتمكن رجاله البدو المسلحون بالبنادق من مواجهة تفوق الجنود الأتراك النظاميين بمدافعهم وأسلحتهم الحديثة(٢) .

وعلينا أن نذكر ان الشريف قام بالثورة في وقت لم تكن كفة الحلفاء فيه راجحة . ففي أقرب ميادين الحرب كان الموقف يبدو في مصلحة الأتراك وحلفائهم . فقد استسلم جيش الجنرال تاونسند في كوت العمارة بتاريخ ٢٩ نيسان ١٩١٦(٣) . وفي جنوبي اليمن وقناة السويس كان الأتراك يقفون موقف الهجوم والانكليز يقفون موقف الدفاع . وكان انسحاب الانكليز والفرنسيين من ميدان الدردنيل ، انسحاباً أقرب ما يكون الى الهزيمة ، ما يزال ماثلاً في الأذهان . ولم تكن أنباء المعارك في الميادين الاوروبية تصل بسرعة الى بلاد العرب (لم يكن الراديو قد اخترع يومذاك) . حقاً لقد كانت الجيوش الروسية في ربيع ١٩١٦ قد اجتاحت جانباً من الأناضول واقتربت من حدود البلاد العربية في

---

(١) والجدير بالملاحظة ان الشريف حسين كان يراسل جمال باشا السفاح بخصوص الحملة التي كان يهيؤها ضد قناة السويس . وقد كتب جمال باشا الى الشريف حسين من دمشق في ٢/ ٤/ ١٩١٦ يخبره بإرساله الذخيرة والمال ويتابع قوله « وتحت رايه الخلافة المقدسة ، سأتولى قيادة الجيش الرابع والقوات الالمانية والنمساوية القادمة ايضا للاشتراك في الجهاد . وسوف نبدأ الهجوم العام قريبا » . راجع سليمان موسى - المراسلات التاريخية المذكور سابقا رقم ٣٦ ص٦٦ وكتب ايضا جمال باشا الى الشريف حسين مجددا في ٩/ ٤/ ١٩١٦ من دمشق يعلمه ببدء الحملة على مصر قريبا جدا ويطلب منه ان يبقى فيصل نجله معه في الجيش . (المصدر المذكور رقم ٣٧ . فيجيبه الشريف حسين من مكة معلما اياه ان المبلغ المرسل لا يكفي وانه سيضع تحت تصرفه العدد الكافي من المجاهدين . اما ما يتعلق بالقوات النمساوية والالمانية فيقول : « اما وصولهم فسيفتح فصلا جديدا في تاريخ الاسلام » وينهي رسالته طالبا المحافظة على حقوق الامارة . (سليمان موسى - المصدر السابق رقم ٣٨ - ص ٦٨ - ٦٩) ومن ذلك نستشف ما كان يملكه الشريف حسين من اساليب اخفاء استراتيجيته ، واسترضاء عدوه ليطمئن اليه « والحرب خدعة » كما يقولون .

(٢) سليمان موسى المصدر السابق ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٣) ليمان فون ساندرس : خمسة أعوام في تركيا المذكور سابقا ص ١٦٩

الشمال ، ولكن هذا العامل كان أدعى الى وقوف العرب الى جانب الأتراك ، بالنظر الى الخشية المتأصلة في نفوس الشعبين من قسوة الروس وتعصبهم الديني[١] .

وباعلان الثورة العربية تجاوز معتنقو الفكرة العربية ، لأول مرة في العصر الحديث ، مرحلة النظريات والمثاليات وتأليف الجمعيات السرية والتخطيط للمستقبل في همس وراء الأبواب المغلقة ـ تجاوزوا كل ذلك الى مرحلة العمل الجدي الفعال جهاراً في ميادين الحرب وبقوة السلاح ، وباعلان الثورة يكون العمل السياسي للقوميين العرب ، الذي استمر خلال السنوات الثماني السابقة ، قد بلغ النضج الطبيعي ، وخاصة بما قدموا من ضحايا في المعارك المتواصلة التي خاضوا غمارها طوال تسعة وعشرين شهراً . وقد قدمت الثورة البرهان على ان العرب على استعداد للتضحية ومواجهة الموت في سبيل حرية أوطانهم . ولما كان الهدف واحداً فقد ضمت قوات الثورة أبناء الجزيرة العربية من الحجاز ونجد واليمن وابناء سورية وفلسطين والعراق وقاتل فيها المسيحيون العرب الى جانب المسلمين أبناء جنسهم[٢] .

ويتضح من المراسلات التاريخية التي نشرها سليمان موسى لأول مرة ، أن الاستعدادات لهذه الثورة العربية قامت بين الشريف حسين ونائب الملك في مصر مكماهون في الفترة الواقعة في النصف الثاني من شهر أيار . (عدد ٤٢ ص ٧٢ وعدد ٤١ ص ٧١ وعدد ٤٣ ص ٧٢ ـ ٧٣) وفي هذه الرسالة الاخيرة المرسلة من مكماهون الى الحسين من القاهرة في ٢٢/ ٥/ ١٩١٦ . يعلن نائب الملك للشريف أن الثورة يجب أن تقوم من الحجاز لا من سورية ويشدد على هذا الطلب . وفي ٢٦/ ٥/ ١٩١٦ أرسل الامير علي الى أبيه الشريف حسين رسالة يعلمه فيها أن كل شيء مهيأ لبدء الثورة . ويقول : « سيكون بدء الاعمال يوم الاثنين المقبل ٤ شعبان (٥ حزيران) ويعلمه بالاتصالات التي قام بها مع رؤساء القبائل للهجوم على سكة الحديد وعلى المدينة .

وعند شروق الشمس في اليوم الخامس من حزيران ١٩١٦ ، ركب الاخوان علي وفيصل الى قبر حمزة بن عبد المطلب عم الرسول العربي الكريم (ص) ، حيث احتشد

---

(١) سليمان موسى ـ المراسلات التاريخية ـ المذكور سابقا عدد ٣٩ ص ٦٨ ـ ٦٩ رسالة الشريف حسين الى مكماهون من مكة في ١٨ نيسان ١٩١٦ حيث يقول : « على البريطانيين احتلال الخط الحديدي الذي يصل سوريا بالاناضول لتسهل الحركة على صاحبنا فيصل بسوريا للقيام بمن معه من شيعة البلاد والمملكة الذين ينتظرون « الفرح » ويقول أيضاً : « من هنا استغرابي ترجيح حركة الدردنيل على حركتنا » وهذا يدل على سعة افقه وعلى معرفته بالاستراتيجية الصحيحة الشاملة وراجع ايضا دزموند ستيوارت في كتابه المذكور سابقا ص ١٩٠ ـ ١٩٢ .

(٢) راجع الأثار للملك عبد الله بن الحسين المذكور سابقا ص ٨٧ وامين سعيد ـ الثورة العربية الكبرى ـ المجلد الاول ص ٩١ وراجع سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ المذكور سابقا ص ٢٧٠ .

١٥٠٠ جندي في معسكرهم من الذين جندهم الشريف ، واعلنا ، باسم الشريف حسين أمير مكة ، استقلال العرب عن الحكم التركي . ثم انطلقا يعدو بهما فرساهما ، ومن خلفهما أولئك المجندون ، وانضموا الى رجال البدو في المكان المتفق عليه الى الجنوب الشرقي من المدينة . وعندما وصل الأمير علي الى بئر ماشي ـ وهي طريق مكة وكان ذلك اليوم الثامن من شعبان الموافق ٩ حزيران ١٩١٦ ، كتب الى جمال باشا الانذار التالي :

« ان المطالب العربية المعتدلة قد رفضتها الدولة العثمانية ، وبما أن الجند تهيأ للجهاد سوف لا يرى عليه أن يضحي لغير مسألة العرب والاسلام ، فاذا لم تنفذ الشروط المعروضة من شريف مكة حالاً فلا لزوم لبيان قطع أي علاقة بين الامة العربية والامة التركية ، وأنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة ستكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين » .

وأرسل فخري باشا كتيبة الى المعسكر ليرى ما حدث . فألفت المعسكر خاوياً على عروشه وليس فيه أحد ، فأدرك أنها الثورة وبادر لاتخاذ الاحتياطات اللازمة ، وأنبأ جمال باشا بما حدث وطلب منه ارسال التعزيزات بما أمكن من السرعة[١] .

وبعد مضي ساعات بدىء باقتلاع الخط الحديدي الحجازي في بعض الاماكن بين الشام والمدينة وهوجم .

وفي اليوم التاسع من شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦ أعلنت الثورة العربية في مكة والطائف وجده وينبع والوجه وسائر مدن الحجاز[٢] ، وصدر البيان بذلك من الشريف حسين بن علي في السادس والعشرين من حزيران ١٩١٦ . ونظراً للأهمية التاريخية لهذا البيان ، فقد رأينا أن نقتطف منه بعض العبارات ، التي توضح أسباب الثورة العربية الكبرى .

استهل البيان بأن نوه الى أن أمراء مكة كانوا أول من اعترف من حكام المسلمين وامرائهم بالدولة العثمانية رغبة منهم في « جمع كلمة المسلمين واحكاماً لعرى

(١) سليمان موسى ـ المراسلات التاريخية ـ المذكور سابقا . رسالة من الامير علي الى ابيه الشريف حسين . المدينة المنورة ٢٦/ ٥/ ٩١٦ عدد ٤٤ ص ٧٤ ـ ٧٥ مأخوذة من وثائق وزارة الخارجية الانكليزية F. O. 371 / 6237

(٢) وفي الواقع لقد بدأت الثورة في السادس من حزيران ١٩١٦ . فقد جاء في المراسلات التاريخية المذكورة سابقا نص الرسالة الشفهية التي ارسلها الشريف حسين الى الضباط الانكليز عندما التقى بهم الامير زيد بالقرب من جدة ما يلي : « ابتدأت الثورة بالمدينة المنورة يوم الاثنين الموافق ٤ شعبان أي في ٥ حزيران ١٩١٦ وقد اعلنا الاستملال هناك باسمنا عن يد نجلينا علي وفيصل . ان الاستعجال هذا نشأ عن توارد قوات عسكرية جديدة يزعم ارسالها الى اليمن . . . » الى أن يقول : « فقد تقرر مفاجأة منا للاعداء يوم السبت الموافق ٩ شعبان ١٣٣٤ » (رقم ٤٥ ص ٧٦) . F. O. 882/ 19

جامعتهم »[1] . ونوه باخلاص الشريف حسين للدولة وقتاله في سبيل المحافظة على شرفها ، وأنه بقي على اخلاصه لها الى أن : « نشأت في الدولة جمعية الاتحاد وتوصلت الى القبض على ادارتها وجميع شؤ ونها بقوة الثورة ، فحادوا بها عن صراط الدين ومنهج الشرع القويم ، ومهدوا السبيل للمروق منه واحتقار أئمته ، وسلبوا شوكة السلطان المعظم ما له من حق التصرف الشرعي والقانوني أيضاً[2] .

وندد البيان بموقف الأتراك من العرب فقال : « وأما ما خصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد ، وحاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بابطالها من المدارس ، ومنعها من الدواوين والمحاكم . . ولا يخفي أن قتل اللغة العربية قتل للاسلام نفسه . . وقد مكنتهم فرصة اعلان الاحكام العرفية في البلاد من تنفيذ كل ما يريدون في بلاد العرب ، فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية الذين اشتهروا بغيرتهم على الامة والدولة » .

ومضى البيان يندد بالاتحاديين الى أن قال :

« ولا نسكت لهم بعد على شيء من بغيهم على أحد من أبناء جنسنا ، اذ لم يعد في السكوت مصلحة راجحة لا لدين ولا لدولة ، بل صارت المصلحة الاسلامية والعربية (وهما متلازمتان) في مقاومة هذه الفئة الباغية » .

وهكذا بدأت الثورة العربية الكبرى ، وبدأت الامة العربية الجهاد من جديد ، لتأخذ دورها الحضاري في التاريخ بعد أن كاد الاستعمار التركي يطمس هذه الامة . . وهي « خير أمة أخرجت للناس » . .

٥ - الهجوم على جدّة ومكّة المكرّمة :

أما في مكة وجدة فقد نشبت الثورة في يوم واحد هو يوم السبت ١٠ حزيران ١٩١٦ (٩ شعبان) ١٣٣٤ ، وهذا اليوم هو اليوم الذي اعتبر يوماً رسمياً لقيام الثورة العربية .

---

(١) النص مأخوذ عن امين سعيد - الثورة العربية الكبرى - الجزء الاول - ص ١٤٩ - ١٥٧ . وقد ذكر روسّي في كتابه : « وثائق حول نشوء وتطور الحركة العربية (٥٣ - ٦١) أن الانكليز نشروا نص بيان الثورة المذكور محّرفاً وناقصاً » وقد نشرت مجلة العالم الاسلامي الفرنسية التي كان يرئسها ماسينيون عام ١٩٢١ (ص - ١١) نصا يختلف بعض الاختلاف عن النص الرسمي ، وراجع ايضا دراسة الاب لامانس اليسوعي : « شريف مكة والثورة العربية » في مجلة « الدراسات » الفرنسية عدد ٥ كانون الاول ١٩١٦ - ص ٥٦٣ - ٥٦٦ .

(٢) لابد من التنويه في هذا المجال الى أن غاية الشريف حسين الظاهرة هي التنديد بموقف الاتحاديين من الدين الا أن جوهر القضية عبر عنه الامير عبد الله في أكثر من مناسبة ومنها قوله : « ان التماس أسباب الثورة في زندقة الاتراك أو فساد مذهب الاتحاديين أو بطلان خلافتهم بعيد عن الحقيقة . ان الامر لا يعدو أن هناك وطنا عربيا يحتله الاتراك وعلينا واجب تحريره » . أعمدة الحكمة السبعة : ج ١ ص ١٣٨ .

حينما بدأت الثورة ، كانت الفرقة ٢٢ ترابط في الحجاز وتتألف من الكتائب ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، بالاضافة الى كتيبتين من فرقة عسير (الفرقة ٢١) احداهما في القنفذة والثانية في الليث . وكان مجموع القوات التركية في الحجاز يزيد على ١٢ ألف رجل ، مسلحين بالمدافع والبنادق الحديثة ، ويتولى قيادتهم ضباط مدربون تدريباً جيداً على أساليب الحرب . ففي المدينة كانت قوة الترك تتجاوز أربعة آلاف جندي وضابط بقيادة فخري باشا ، وهو ضابط قوي الشكيمة ماضي العزيمة شديد المراس . وفي الطائف كان الفريق غالب باشا يصطاف مع أركان حربه ومعه قوة تزيد على ٣٥٠٠ ضابط وجندي مع عشرة مدافع . وفي مكة كان عدد القوات التركية يتجاوز ١٢٠٠ ضابط وجندي بقيادة درويش بك ولديها ١٠ مدافع ، بينما كانت قوة جدة تتألف من ٢٦٠٠ جندي وضابط ولديها ٢٠ مدفعاً و ١٥ رشاشاً . هذا بالاضافة الى حاميات ينبع والوجه ومحطات سكة الحديد وبعض المواقع العسكرية الأخرى .

انها قوة فعالة دون شك ، ويزيد من فعاليتها وكبير خطرها ، ذلك الخط الحديدي الذي كان يصلها بسورية ، وبعدها بالعاصمة استانبول ، ويسهل بواسطته نقل الاسلحة والتعزيزات والذخائر والمؤ ن بصورة مأمونة ومنتظمة . ولا شك أن قيام الشريف بالثورة في وجه هذه القوة الكبيرة اعتماداً على البدو وعلى بضع آلاف من المتطوعين الذين نالوا تدريباً بدائياً دون أن يكون لديه ضابط نظامي واحد ، ودون أن يكون لديه من السلاح سوى البنادق العادية ، وأكثرها قديم ومن ذات الطلقة الواحدة أو مما يطلق بملح البارود ـ يعطي البرهان على الجرأة البالغة والعزيمة الصادقة والاستعداد لمواجهة الاخطار المخيفة وأسوأ الاحتمالات .

كانت حامية جدة أول حامية تستسلم للعرب في الحجاز ، فقد بادر أربعة آلاف من رجال القبائل وأكثرهم من قبيلة حرب ، وهم بقيادة الشريف محسن بن منصور (ابن الشريف أحمد منصور أمير قبائل حرب والرئيس الأعلى لشيوخهم) في صباح يوم السبت ١٠ حزيران الى ضرب نطاق الحصار حول الثكنات التركية في أطراف البلدة ، وحالوا بينها وبين الوصول الى مصادر المياه العذبة في وسط البلدة . ولم تستطع الحامية الخروج من ثكناتها لاحتلال البلدة ، كما أنها حاولت الزحف نحو مكة ولكن البدو ردوها على أعقابها . وفي ١٣ حزيران اقتربت ثلاث سفن حربية بريطانية (دوفرين وفوكس وهاردنج) من الشاطىء ، وأصلت ثكنات الترك بقنابل مدافعها ، وبعد ذلك ببضعة أيام جاءت أنباء من القائد التركي في مكة ، بأنه لن يستطيع ارسال امدادات الى الحامية فاضطرت الحامية الى رفع راية التسليم يوم ١٦ حزيران . وبعد هذا استسلمت المواقع التركية على طريق مكة ـ جدة .

أما في مكة فقد بدأ القتال في الفجر الباكر من يوم ١٠ حزيران ، عندما أطل الشريف من إحدى نوافذ قصره وأطلق رصاصة من بندقيته ، فكانت الاعلان الرسمي لبدء الثورة ، والاشارة المتفق عليها بينه وبين رجاله الذين كانوا قد احتشدوا أثناء الليل حول المواقع التركية الأربعة : دار الحكومة (الحميدية) ومركز (باش قرقول) وقلعة جياد وثكنة جرول . وأول عمل قام به رجال الشريف أنهم قطعوا أسلاك الهاتف مع جدة والطائف ثم باشروا الهجوم ، وكان يتولى قيادتهم الأمير زيد والشريف شرف عبد المحسن البركاتي[١] .

ولعل أوفى وصف لسقوط مكة (هو الوصف المنشور في جريدة القبلة التي ظهرت في مكة بعد ذلك بقليل ، في اعدادها الصادرة ما بين ١٥ الى ١٨ شوال سنة ١٣٣٤ (الموافق ١٤ الى ١٧ آب - ١٩١٦) ، وقد رأيت أنه من المناسب أن أقدمها كما وردت[٢] مع تصحيح التعابير العسكرية وفقاً للمفهوم المعاصر قدر الامكان :

« في الساعة التاسعة والدقيقة ١٢ قبل الصبح من ليلة السبت الموافق ٩ شعبان بدأ اطلاق النار بشدة على الثكنات العسكرية في مكة المكرمة (والحميدية) دار الحكومة وحوصرت القوات التركية في حصونها وشرعت قلعة (جياد) المرتفعة فوق جبل منيع هنالك ، مشرف على كافة أحياء مكة ومنازلها ، تطلق القنابل المتوالية على مكامن القوات العربية ومتاريسها وعامة المنازل خصوصاً دار الإمارة الجليلة التي اتخذوها هدفاً لأكثر مقذوفاتهم » .

« وهكذا بقي الفريقان يتبادلان الرصاص ، والقلعة تقذف بالقنابل حتى الساعة الثالثة صباحاً . فاتصل قائد « ثكنة جرول » بدار الامارة الجليلة (تلفونياً) وطلب وقف القتال وارسال سيادة القائمقام للتفاهم على أسباب الحادثة والمذاكرة في حسمها لصيانة الأرواح والدماء ، فأجيب طلبهم وأرسل القائمقام اليهم ، فصرح لهم بأن البلاد قد جاهرت بطلب استقلالها وان المشكلة لا تنحسم الا بخروجهم من الثكنات وتسليمهم كافة الأسلحة لقائد القوات العربية ، فلم يذعنوا لقوله وأصروا على المقاومة والدفاع قدر استطاعتهم . وأمروا قائد القلعة بتشديد قذف القنابل على السكان فخرج سيادته وبلغ جلالة الشريف جوابهم ، فأمر باعادة القتال فكان أشد هولاً مما كان قبل المفاوضة ، واستمر الى أن دخل الليل فخفت وطأته . وبلغ ما أطلق من القنابل في ذلك اليوم مائتين

---

(١) سليمان موسى - الحركة العربية ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) راجع يقظة العرب - جورج انطونيوس ص ٢٩٠ - ٢٩٥ وما بعدها .

وثلاثين قنبلة وما اطلق في كل أيام مدافعتها ما يربو على ألفي قنبلة ، ولكنها بحمد الله تعالى لم تهدم بيتاً واحداً . وقدرت خسارة الترك في هذه الموقعة بمائة وخمسين بين قتيل وجريح ، ولم تخسر القوات العربية فيها سوى ثمانية بين قتيل وجريح » .

« وفي صباح يوم الأحد بعد طلوع الفجر استؤنف القتال ، وعاد اطلاق النار حول كافة مراكز الجند بالرصاص والقنابل . وفي الساعة الخامسة قبل الظهر من ذلك اليوم هاجمت جيوش الشريف مركز « باش قرقول » الكائن حول الصفا واستولوا عليه قسراً وأسروا حاميته » .

«أصبح القتال في يوم الاثنين كما كان في اليومين الماضيين، الا أنه اشتد وعظم أمره حول الحميدية دار الحكومة التي كان وكيل الوالي (هو ضابط عسكري) متحصناً بها، لأن حاميتها تواصل اطلاق الرصاص بشدة من غير تعقل ولا تدبر على كل من يظهر لعينها من أبرياء المارّة حتى الضعفاء والعجزة والنساء والأطفال بالمسجد الحرام. فحملت مجموعة من جنود الشريف حسين عليها حملة صادقة حتى اسقطتها قهراً، وارغمت حاميتها على التسليم. ثم سيقت مع وكيل الوالي ومن كان في معيته من الضباط بغاية الاعتزاز والاحترام الى دار الإمارة ، وانزلوا في القاعة المخصصة للأسرى التي رأوا فيها من طيب المجاملة وحسن المعاملة واكرام المثوى أحسن ما يراه اسرى الحرب في البلاد المتمدنة ، بالرغم مما ارتكبوه من الفظائع المخجلة أثناء قيامهم بالدفاع ، كقتل الابرياء وازهاق نفوس الاطفال والنساء . ولما وصل وكيل الوالي الى دار الامارة مع الاسرى ، وفهم حقيقة الثورة وأسبابها ومقاصدها كتب بخطه كتابين : احدهما الى الثكنة الكبرى والآخر الى القلعة ، يخبرهما بما كان مصيره ومصير حاميته وينصح لهما بالتسليم ، فلم تجُدِ كتابتُه هذه نفعاً ، لأن الثكنة جنحت الى التسويف والمماطلة . والقلعة علقت مصير أمرها على مصير أمر الثكنة ، وطفقت تشدد اطلاق الرصاص والقنابل على الأحياء والمنازل والمسجد الحرام ، حتى تعطلت العبادة فيه تماماً وتعذر على الطائفين والعاكفين والمصلين دخول المسجد والقرب من البيت العتيق لانها كانت تتصيدهم فيه عمداً . ولم تقف وقاحة حاميتها عند هذا الحد ، حتى تجرأت على رمي الكعبة المشرفة « زادها الله اجلالاً ومهابة » بقنبلتين ، وعززوها بثالثة على مقام الخليل ابراهيم ، فهرع الألوف من المسلمين تحت وابل الرصاص وشظايا القنابل المتفجرة ، لاطفاء النار التي أضرمت بأستار الكعبة المشرفة ، معرضين بأرواحهم العزيزة لمخاطر الموت الذي كان ماثلاً أمامهم . وهكذا بقيت الحال على هذا المنوال في الثكنة والقلعة أياماً عديدة ، لأن القوات العربية لم تتمكن من مهاجمة الأتراك ، وهم في منعة حصونهم لعدم وجود معدات حربية لديهم . وجنود الأتراك لا يجرؤ ون على

الخروج من حصونهم بقدر شبر واحد ، حتى وصلت المدافع الوطنية[1] برجالها من جدة ، وأخذت تقذف بالقنابل على القلعة فحطمت جانباً منها اتخذه جنود الشريف حسين سبيلاً اليها وهاجموها بحماسة شديدة ، بين طلقات الرصاص وتحت مقذوفات القنابل واستولوا عليها قهراً بعد قتل ضابطين وجندي من الأتراك . ولم يصب أحد من المهاجمين بأذى في هذه الموقعة المهمة ، ما عدا واحداً منهم جرح في فخذه جرحاً خفيفاً » .

« سقطت (قلعة جياد) في ضحوة يوم الثلاثاء الموافق ٤ رمضان ، على الكيفية التي سبق توضيحها ، واستولى جنود الشريف حسين على مدفعين كبيرين وثلاثة مدافع صغيرة ونحو ثمانية آلاف بندقية مختلفة الأنواع من الطراز القديم والحديث ، وعلى كمية وافرة جداً من البارود والرصاص وذخائر المدافع ، وذلك بعد ثباتها في المدافعة خمسة وعشرين يوماً ارتكبت حاميتها في خلالها (من فظائع قتل الأبرياء ومحاربة المسجد الحرام ومطاردة أهله عنه ورمي البيت العتيق بمقذوفات النار واحراق المنازل بالقنابل المتفجرة وتصيد الناس في الشوارع وحول الكعبةبالرصاص) ما تسود به وجوههم في الغد يوم يحاسبون عليه . فعم لسقوطها البشر والفرح بين عموم الناس ، وتلألأت وجوههم سروراً لسلامتهم من شرورها ، ونجاتهم من أخطارها ، لأنها كانت هي العلة الوحيدة في وقوف حركة بعض أرباب الاشغال وذوي المصالح من العامة المرتزقة ، وسلب راحة السكان التي حولها والحوانيت التي في حيها . أما دُولاب الحركة العمومية في البلاد فما زال ولله الحمد بعد وقوع الحادثة على ما كان عليه قبلها ، اذ لا فوضوية تقطع الناس عن أعمالهم ، ولا اضطراب يكره القوم على مزاولة اشغالهم وترك أسباب معاشهم من ابتداء الحادثة في مكة المكرمة الى انتهائها . وهذا بفضل ما اتخذه جلالة الشريف من التدابير المفيدة والاسباب النافعة التي لم تكن الا أثراً من آثار الحكمة التي يخلو منها عمل من أعماله الصغيرة والكبيرة وعليها أساس هذا المشروع العظيم » .

« وبعد فراغ رجال المدفعية من مهمة اسقاط القلعة واسكات مدافعها ، توجهوا الى (ثكنة جرول) وانضموا الى القوات المحاصرة هنالك ، واحاطوا بها من كل جهاتها وطفقوا يطلقون قنابل المهداد لفتح طريق المهاجمة . وكانت الحامية التركية فيها تخادع جنود الشريف حسين برفع العلم الأبيض وطلب مفاوضة القائد ، كلما حمي عليهم الوطيس واشتدت بهم وطأة النار الحامية ، لتتمكن من الاستراحة في خلالها ، ولتحتاط في تلك

---

(١) وصل محمد شريف الفاروقي قادما من جدة ومعه مدفعان من المدافع التي غنمها العرب فيها وستة من المدفعين الاسرى العرب الذين أقنعهم بمرافقته الى مكة . حيث نصبها في مواجهة القلعة واخذ يطلق قنابله عليها . راجع الحركة العربية ، سليمان موسى ص ٢٧٥ وما بعدها .

البرهة بما تراه ضرورياً لثباتها في داخل الثكنة المنيعة ، حتى اذا تم لهم ما يريدون بدأوا باطلاق النار واستأنفوا القتال ، وهكذا ظلوا يماطلون ويخادعون (وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون) ، وقواد العرب يحاربونهم ولا يعبأون ولا يكترثون بخداعهم ، وقد كان جلالة الشريف حسين يوصي جيوشه جماعات وفرادى بعدم التسرع في امورهم ، وخصوصاً في شأن الهجوم الذي يعرضون به أرواحهم للتلف غير مضطرين اليه ، لأن من أهم مبادئه الحرص الشديد على الأرواح والدماء ، مع العناية بمن يقع في ايديهم من الأسرى وملاطفتهم ومجاراة الضباط الطائشين قدر المستطاع ، وعلى هذا المنوال بقي العرب يحتملون أذى تسويفهم ومماطلتهم وتلاعبهم حتى تحطمت النوافذ وتفتحت السبل ولم يجدوا لهم مناصاً من مهاجمتهم بالسلاح الأبيض الفتاك . وهموا بهم لولا لطف الله بهم ، فرجعوا في تلك الساعة الرهيبة الى رشدهم وآبوا على صوابهم ورضخوا الى التسليم من غير قيد ولا شرط . ونادوا بذلك ورفعوا علم السلام فأجيبوا الى ذلك وما كنا نظن أن في الامكان اجابتهم الى طلبهم حينئذ وقد فات الوقت واشتد حنق القبائل وأخذوا يموجون بعضهم في بعض تحفزاً للهجوم . ولكن سرعة وصول الأمر الى القبائل بالسكون وتذكرهم لما كان يوصيهم به جلالة الشريف لمثل هذه المواقف ، هو الذي أخمد ثائرتهم وخفف من غلوائهم في ذلك المأزق الحرج . فتوقف القتال تماماً ، وخرج فريق من الضباط الأتراك وهم يحملون علماً أبيض إلى وسط المعسكر العربي ، لمقابلة القائد ومفاوضته في شأن التسليم وكيفيته ، فقابلهم بما يليق بهم ، وأكرم مثواهم ، مما جعلهم يعجبون بأدب العرب ومكارم أخلاقهم ، ثم رجعوا الى الثكنة ومعهم عدد من عظماء الاشراف ، وشرعوا يسلمون اليهم الاسلحة والذخائر والمهمات وما كان بالثكنة عدا ما هو خاص بأشخاص الضباط والجنود من النقود والأمتعة (حتى خيولهم الخاصة) كما صدر بذلك الأمر . وعلى هذه الكيفية جرى تسليم الثكنة لقوات الشريف حسين في مساء يوم الأحد الموافق ٩ رمضان بعد دخول الليل وقدِّر ما خسره الأتراك في محاصرتهم بالثكنة وراء متاريسهم فيها ، من رصاص العرب الذين اثبتوا تفوقهم العظيم في اتقان فن الرماية ، بواحدٍ وعشرين قتيلاً وستة وسبعين جريحاً غير خسارتهم الأولى في بداية الحادثة ، ثم سيق الباقون منهم الى الأماكن المعدة لهم بالشهداء وفي بعض المنازل بداخل البلدة وعددهم ثلاثون ضابطاً وألف ومائة وعشرون جندياً . أما الغنائم من أنواع الأسلحة والادوات اللازمة للجيش فكثيرة ، وبسقوط الثكنة قضي على القوات التركية في مكة تماماً واستولت قوات الشريف على كافة مراكز الجند والمخافر ودار الحكومة وكل ما لها من المباني والمؤسسات فيها[1] » .

---

(١) من المفيد العودة ايضا الى رواية الملك عبد الله بن الحسين في الآثار الكاملة المذكور سابقا ص ١٢١ ـ ١٢٤ .

وقد أبدى الشريف حسين خلال الشهر الذي دار فيه القتال في مكة ، شجاعة خارقة ، اذ أنه ثابر على الجلوس في مكتبه يومياً طوال النهار ورداً من الليل ، بينما تنصب نار المدافع والبنادق على القصر وهو ثابت لم يغير مكان جلوسه . وقد دخلت إحدى القنابل غرفته وهو جالس فمرت على قيد شبر منه واخترقت أساس الغرفة وهو لا يعبأ بها . وظلت فرقته الموسيقية تعزف أمام القصر يومياً ، وحدث ان سقطت قنبلة بالقرب من العازفين فانفرط عقدهم وجلين ، ولكن الشريف أمرهم بأن يواصلوا العزف حتى ولو ماتوا كلهم ، فعادوا الى العزف تحت خطر القنابل[1] » .

٦ ـ حصار الطائف :

« عندما تقرر أن يكون التاسع من شعبان (١٠ حزيران ١٩١٦) هو يوم إعلان الثورة العربية الكبرى ، تلقى الأمير عبد الله أمراً من الشريف حسين بالتوجه الى الطائف لكي يقوم بأهم واجب عسكري ، وهو حصار الفرقة التركية النظامية المتواجدة فيها والتي يقودها الوالي التركي والفريق غالب باشا ، وكانت هذه الفرقة العسكرية أقرب القوات العثمانية الى مكة المكرمة ، مركز الثورة العربية الكبرى ، وعاصمة الاسلام ، ومقر الشريف حسين قائد الثورة ، ولذلك فانه من الأهمية بمكان محاصرة هذه القوات ومنعها من الوصول الى مكة مهما كلف الأمر » .

« وصل الأمير عبد الله الى الطائف وليس معه سوى سبعين هجاناً ، اذ أن كل القوات الهاشمية كانت قد ارسلت الى المدينة المنورة مع الأميرين علي وفيصل . وقد قابله الوالي مقابلة عادية ، وأخبره الأمير عبد الله بأنه سيخرج لتأديب قبيلة البقوم ، وان الشريف حسين لم يحدد بعد وقت طلوعه الى الطائف حسب المعتاد . وكان أمير الطائف يومذاك هو شرف بن راجح بن فواز بن ناصر ، يساعده الشريف حسين الجودي أحد شرفاء ذوي جود الله » .

« كان الأمير عبد الله يستند في خطته لمحاصرة الفرقة التركية وأسرها ، على القبائل العربية المحلية كعتيبة وهذيل والنمور والرقعة وثقيف والثبة والصدمة والنفعة ووقدان وثمالة والبقوم وسبيع وأشرافهم .

وفي الإجتماع الذي تم قبيل الثورة بليالٍ ، وحضره كبار الأشراف والشيوخ بعد تمهيد قام به الشريف شرف ، لم يتعب الأمير عبد الله سوى الشريف حمزة الفعر وآخر هو شيخ آل بطنين من آل سعد ، فإنهما أظهرا أشد النفور والخوف من نتائج هذه الثورة حتى كاد أن

(١) راجع جريدة القبلة : الاعداد الصادرة بين ١٥ ـ ١٨ شوال ١٣٣٤ والموافق ١٤ ـ ١٧/١٩١٦ .

يأمر بالقبض عليهما لولا خشية شيوع ما ينبغي كتمانه . وكان الوالي يسكن بقرواء خارج سور الطائف ، وكان يشتكي من مرض الكلية ، فزاره الأمير عبد الله مرتين . وكان قائد الفرقة التركية احمد بيك يزور الامير عبد الله الليلة بعد الليلة . وكان أشد الرجال العسكريين المقدم سليمان بك ، الكثير الاختلاط بالناس والقديم في الحجاز ـ ولعله شعر بشيء مما سيقع ـ وقد قيل للأمير عبد الله أن أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك هذا يقولان : « نكاد نأخذ أسلحتنا بأيدينا حتى نرى الشريف عبد الله فيذهب عنا كل شك كان يساورنا » .

« وفي اليوم الثامن من شعبان ٩ حزيران ١٩١٦ ، عندما كان الأمير عبد الله قد ازمع على الخروج فيه بحجة غزوة البقوم استدعاه الوالي ، وكان لديه الشريف بن راجح والشيخ عبد الله سراج مفتي مكة المكرمة . فقالا له : لا تذهب فاننا نخشى أن يُلقى عليك القبض ، فأجابهم : بل سأذهب . ففي عدم الذهاب ما يخشى عقباه ، وميعاد الثورة لم يحن بعد . وركب اليه ومعه أربعة : الشيخ فاجر بن شليويح أحد فرسان الروقة ، والشيخ هوصان بن عصاي وهو أيضاً من شيوخ تلك العشيرة وأحد الرجال الذين يثق بهم ، وأحد خواصه هوصان بن عفار المقاطي ، وفرج حامل المظلة الملكية ، وتوجه الى دار الوالي بقرواء وتعمد الدخول من الثكنة بالطائف ، مما أدهش الترك والعرب معاً ، حيث قالوا : لو كانت الشوائع حقيقية لما مر بنا على هذا الشكل . ولما أقبل على دار الوالي ، قال الامير عبد الله لفرج : ابق عند الخيل ، وقال لهوصان بن عفار : كن على رأس الدرج ، وقال للشيخين فاجر وهوصان : قوما على باب الغرفة التي أنا بداخلها . فان اراد الأتراك أن يلقوا القبض علينا ، فعليّ أنا القضاء على الوالي في الغرفة وعليكم أنتم القضاء على من يأتيكم من الدرج حتى نخرج ، فقالا : اتكل على الله » .

« ودخل الأمير عبد الله . . وبعد أن رحب به قال له : الى أين تذهب ؟ فأجابه : كما تعلم أُمرت بأن أؤدّب البقوم . فقال الوالي ليس هذا بالوقت المناسب ، فلو أخّرت خروجك الى حين لكان أنسب . وفي البلاد شائعات لا بد أنها لم تخف عليك ، فالناس يقولون أن ثورة ستقع ، وهذا أنت ترى أهل الطائف يرحلون بأمتعتهم وأطفالهم . فقال له : وماذا عليك من رحيلهم ؟ انني ان أخرت الغزو بعد شيوعه لتأكدت المخاوف ، وفي السفر تهدئة الخواطر وسيرجع الناس الى أماكنهم . أما سبب هذه الحوادث فيعود الى أن الناس قالوا عن مصادر تركية أنه سيقع تبديل في الشرافة وان الشريف حيدر بن جابر قادم الى المدينة ، وقد تقوّل بهذا رجال ، منهم سليمان بك ، فقال الوالي مسائلاً نفسه : لم تركت مكة وطلعت الى الطائف ؟ ليتني لم أفعل ! . . فقال له : لا عليك » .

« ثم تناول مصحفاً شريفاً عنده وقال له : هل تعرف هذا ؟ فأجابه : نعم كتاب الله ، كوفي الخط ، وهو مهدى الى والدي مني وقد أهداه الى دولتك . فقال : هل تشك في اسلامي ؟ فقال له : معاذ الله ، أما الظاهر فانك من خيار المسلمين ولا يعلم السرائر الا الله ، فوضع يده على الكتاب وقال : والله إني لمعكم ولست عليكم ، فأصدقني الخبر عن هذه الشوائع . فقال له : شوائع الثورة ؟ قال : نعم ، قال : هي لا تعدو ثلاثة احتمالات : إما انها مكذوبة ، أو أنها عليكم وعلينا ، أو أنها عليكم من الشرافة والناس . . ولو كان هذا الأخير لما حضرت الآن بين يديك وقد تفعل بي ما تشاء . وعندئذ دخل أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك[1] ومالا عليه وهمسا في أذنه كلاماً لم يسمعه الأمير عبد الله ، فانتهرهما فخرجا ـ ونهض الأمير عبد الله مودعاً الوالي وقال : لا تقطع الاتصال بي ، فأجابه : ألست على اتصال بمكة بالتلفون ؟ قال : بلى ، فقال له : في هذا الكفاية وسآمر قائمقام الطائف بأن ينادي بالامان للناس حتى يرجع كل واحد الى بيته ، وفي هذا التكذيب ما يكفي ، فقال : هذا حسن وسأفعل أنا أيضاً » .

« وخرج الأمير عبد الله من عنده فوجد أحمد بك وسليمان بك في الصفة ومعهما حيدر بك متصرف عسير السابق ، فلم يحفلوا به ولم يحفل بهم . وبعد أن استوى ورجاله على ظهور خيلهم ، يمموا وجههم قصر شبرا ، وبها العلم الهاشمي والقوات . ووجد الشريف حسين الجودي على وعد منه عند العكرمية ، فقال له : اذهب الآن الى الوالي وقل انك تلقيت مني أمراً بالمناداة بالأمان ، ثم عد وابعث من يقطع أسلاك الهاتف والبرق من مركز معشي الى السكر ، وامنع كل من يسافر الى مكة بالقوة حتى ولو اضطرك الأمر الى استخدام العنف . ثم تحرك بالقوة الى المركز الهاشمي للحركة ، وهو عند سفح جبل سواقة على يسار الطريق الذاهب الى مكة من ناحية العرفية . وفي تلك الليلة تلقى المذكرة التالية من الوالي غالب باشا :

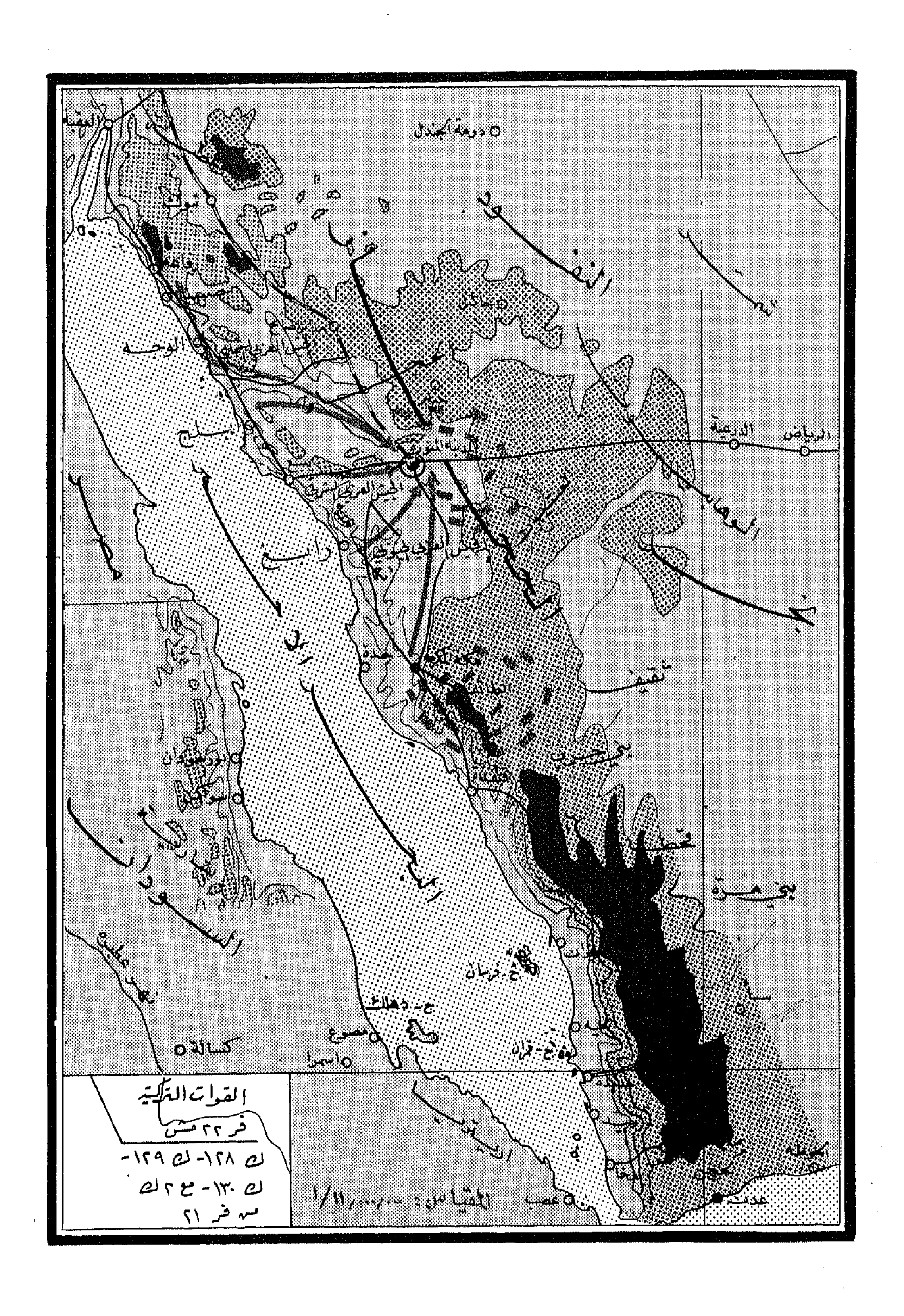
الى صاحب السعادة الشريف عبد الله بك

« بعد توجهكم انقطعت الخطوط التلغرافية بين مكة والطائف ، وإن الموظفين الذين أرسلوا لاصلاحه لم يعودوا ، وقد شاعت الشوائع بأن المعتدين على الخطوط التلغرافية قد سجنوهم ، ولذلك اطلب اليكم الرجوع حالاً الى الطائف ، فان تأديب عشيرة البقوم ليست من الأهمية بشيء إزاء الحالة الراهنة » .

فأجابه الأمير عبد الله بما يلي :

---

(١) عندما وقع هذان الضابطان في الاسر تأكد الامير عبد الله أنهما طالبا حينئذ بأن يأمر الوالي بالقاء القبض عليه .



معركتي حصار واحتلال مدينتي

الطائف والمدينة المنورة من قبل القوات العربية

« حضرة صاحب السعادة الوالي والقائد بالطائف : لقد تلقيت مذكرتكم ليلاً ولـم يبلغني خبر ما حصل على الخطوط التلغرافية وان وكيل قائمقام الطائف تحت أمركم لتنفيذ رغائبكم . أما أنا فسأكون بطرفكم بعد غد السبت ان شاء الله » .

« وفي ٩ شعبان الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦ كانت الثورة قد نشبت في البلاد الحجازية كما نعلم ، ما عدا الطائف فان الهجوم قد وقع عليه في الحادي عشر من شعبان أي بتأخير يومين عن ساعة الصفر بسبب بعض النواقص . وفي ليلة السبت الحادي عشر من شعبان الموافق ١٢ حزيران ١٩١٦ وفي منتصف الليل ، ابتدأ الهجوم من الجبهة الشمالية التي كان يقودها الأمير عبد الله شخصياً . وكان الأتراك قد احكموا سور البلدة ، وحفروا خندقاً من بستان الرياض متجهاً من الشرق الى ناحية الغرب الى مكان يسمى (معشي) ، ثم ينحرف الى الجنوب من هضبة (ام السكارى) وبها أحد مراكزهم القوية ومدفعان ، ثم ينحرف شرقاً مرة أخرى الى أن يحـاذي (بـرج غلفـة) ثم يميل الى الشمال والى (وادي وج) ، ثم ينحرف شرقاً الى الجنوب حتى يتصل بصفاة تسمى (دقاق اللوز) ، ثم يميل الى الغرب مرة أخرى ويتصل بالخندق الأساسي ، وقد وصل هذا الخندق بخنادق فرعية تربط نواحيه الأربع بالمركز في خطوط متعرجة تحجب السائر فيها » .

« بدأ الهجوم بعنف شديد في الجبهة الشمالية وبالقلب . وكان يتقـدم الحملة مهرة الرماة بقيادة راقي بن عفار ثم من كان من الحملة من الثبتة الجوازي ومن الكثمة الغشاشمة والروانية ثم بنو سعد ، وعليهم جميعاً الشريف سلطان بن راجح ، وبعد عدة اشتباكات عاد المهاجمون ببعض الاسرى والغنائم » .

« وعند بزوغ الشمس ابتدأت المدفعية التركية ترمي بشدة على المهاجمين ، ولم يعزز القائد التركي نيران المدفعية بهجوم من المشاة . غير أن نيران المدفعية كانت كافية لصـد هجوم القوات العربية التي لم تكن تملك غير البنادق والسيوف والحراب . . لم يتمكن بنو سعد من الوصول الى أهدافهم وتراجعوا بشكل غير منظم الى نواحي شبرا وقسم منهم ذهب الى أهله وعشيرته ، وعندما سمع الأمير عبد الله ذلك من قائدهم الشريف سلطان ، أمره بأن يتركهم وشأنهم ، وانصرف همّ الأمير لانقاذ الرماة المحتجزين في العكرمية وفي أسفل شرقرق وهو جبل بين مسرة وشبرا ـ وفي تلك الاثناء كان الى جانب الأمير عبد الله فاجر بن شلويح والشريف حمزة الفعر ، واذا بالأتراك يحرقون قصور الامارة السبعـة ، فقال الأمير عبد الله لمن معه : « لا ترهبوهم فانما أرادوا اخافتكم ، ولو كانوا أقوياء لشنوا علينا هجوماً معاكساً ، وهذه البيوت تبنى ان شاء الله بأسرع ما يمكن » .

« وطال الاشتباك وقل العتاد ، فأصدر الأمير عبد الله توجيهاته بأن لا تفتح النار الا على الأهداف المرئية . وعند الظهيرة وقد اشتد الظمأ ، ابتدأ الهجوم من الشريف فهد بن شاكر من الناحية الغربية والجنوبية ، بعشائر النمور وهذيل وبني سفيان ، وكان تكبيرهم وصياحهم يملأ الاسماع . واتجه رمي المدفعية الى تلك الناحية ، فتمكن عندها الرماة التابعون للأمير عبد الله من التراجع سالمين » .

« أصدر الأمير عبد الله توجيهاته بتحصين جبل شرقرق ووضع بقصر شبرا قوة كافية . وانسحب بالكتلة الأساسية لقواته الى (سواقة) ، « وكان العتاد قد نفذ بأجمعه تقريباً » . ثم بعث بأوامر مستعجلة الى الشريف فهد بأن يجمع قواته وأن يميل الى طريق (عقبة كرى) لئلا تخرج القوات المحاصرة وتفك الطوق بالقوة وتتوجه الى مكة . وأصبح الهدف الأول للأمير عبد الله حجز هذه القوة ثم التغلب عليها ولم تكن هذه المهمة بالمهمة السهلة التي يمكن انجازها بمدة قليلة سيما وأنها كانت تتمركز في قلعة الطائف وهو موقع حصين بحد ذاته وفي الموقع فرقة مشاة نظامية » .

« قام الشريف فهد بتنفيذ المهمة المسندة اليه ، ولو أنه خرج الوالي والقائد العسكري للطائف بتلك القوة لوصلوا الى مكة بدون مقاومة تذكر لنفاذ العتاد الحربي لدى القوات العربية » .

« وفي نفس الوقت بعث الأمير عبد الله كتباً الى رجال العشائر التي تراجعت ، أخبرهم فيها بأن هجوم عشائر هذيل وثقيف والنمور أنقذ الموقف ، وأن القوات العربية كرّت على الأعداء الأتراك من جديد وفرضت عليهم الحصار ، وقد طلب منهم الأمير عبد الله الرجوع بعد اسبوع ليوزع عليهم السلاح الجديد ولتسجل أسماؤهم في دفاتر العطاء ، مع تعيين ما يخص الرؤساء ومن يليهم من الأفراد . وجاءت الأجوبة من الجميع تقول : لبيك .. لبيك .. » .

« ولكي يوهم الأمير عبد الله الأتراك بأن قواته لم تتأثر بالمعركة والاشتباكات التي حصلت ، أمر بأن توقد النيران على كل جبل يشرف على الطائف ، وأن تدق الطبول وتعقد الحلقات وتطلق أهازيج الحرب مع مصاحبة ذلك برمي بنادق الدك (امهات الفتيل) وأن تستمر العملية الى الصباح .. ونجحت الخطة وانطلت الحيلة على الأتراك ودب الخوف والهلع في قلوبهم من هذه الاجتماعات العشائرية التي أظهرت الروح المعنوية العالية للقوات العربية » .

« ووردت الأسلحة الجديدة ، وكانت بنادق للمشاة شبيهة ببنادق مصنع (استيرا) قيل عنها أنها يابانية ، وكانت بعيدة المرمى شديدة الاصابة لا يخطىء من يرمي بها ، الا أن

بعضها كان ينفجر . ولحسن الحظ بعد أن وزعت هذه الأسلحة ، هجم الأتراك على نواحي (دقاق اللوز) ، (واشهار) و (حواية) ، لأخذ البيادر التي كانت بها حيث قرروا الدفاع . وصادف أن كانت هذيل وبنو سفيان قد عادوا من المعسكر بالأسلحة الجديدة ، وكان هجوم الأتراك قد انصب على عشيرة وقدان بدقاق اللوز وبقملة ، فنشبت المعركة وردت هذه الهجمة الفاشلة على اعقابها ومني الأتراك بخسائر فادحة . وفي تلك الليلة هاجمت هذيل وبنو سفيان هضبة (ام السكارى) وقضت على حاميتها واستولت على مدفعين للأتراك كانا موجودين هناك . وكان الهجوم بالخناجر والحراب ، ولم ينج من الأتراك أحد . ولما حدثت هاتان الموقعتان تراجع الأتراك من هضبة أم الشيخ ، ومن جبل شرقرق ـ الذي كانوا قد استولوا عليه ـ الى جبل (أبي صفحة) وخنادقهم القديمة ، وتقدمت القوات العربية الى مراكزها يوم بدء الهجوم » .

« وقد استولى الحرس الإمامي على رسول مرسل من القائد التركي بالطائف الى القائد التركي بمكة ، ومعه رسائل موجهة بأوامر الى القواد والى قائد قوة الامداد والتموين بالمدينة . وقد جاء فيها أن الشريف حسين قد أعلن العصيان ، وان قلعة الطائف والفرقة العثمانية تقاتل ببسالة ضد هجمات العرب الذين يقودهم الشريف عبد الله النجل الثاني للشريف حسين ، وان مسؤولية هذه الحركة تقع على عاتق الشريف وأنجاله . ثم يقول القائد التركي حاضّاً جنوده : « قاتلوا في مراكزكم ببسالة حتى ترد الامدادات من الشام والمدينة المنورة . قاتلوا كما يقاتل هؤلاء العصاة واذكروا أسلافكم من آل عثمان ، ولا تهابوا صولة هؤلاء العرب الذين تقدموا بأكمامهم البيض وصداريهم الحمر مستخفين بالموت في سبيل أميرهم . قاتلوا في سبيل السلطان والملّة ، واذا رأيتم راياتهم كروا عليهم واسحقوهم بأقدامكم ولا توفروا منهم أحداً » .

« ظل الموقف العسكري بين القوات العربية المحاصيرة والقوات التركية المحاصَرة ، على حاله فترة من الوقت وهو ما يسمى في العلم العسكري بـ : (التوازن التكتيكي بين الجبهتين) ، الى أن جاءت بطاريات جديدة جبلية من مكة وجاءت المفرزة المصرية ومعها كذلك أربعة مدافع جبلية وهي بإمرة العميد سيد بك علي ، وبعد ذلك وصلت الى القوة مدافع الهاوتزر فحصل الرجحان في الجبهة العربية . وللأمانة التاريخية فان الأمير عبد الله كان حكيماً في استخدام هذه المدافع ، فلم يسرف في استهلاك الذخيرة وكان يرمي فقط عندما يتطلب الموقف العسكري الرمي ، لأن النتيجة كانت واضحة لديه ، وهي أن مصير الأتراك هو الاستسلام دون شك ، ولذلك فقد كان حريصاً على توفير الأرواح لكلا الطرفين المتحاربين » .

« وفي العاشر من ذي القعدة تلقى الأمير عبد الله كتاباً من القائد الوالي هذا نصه :

« الى الشريف عبد الله بك نجل الشريف حسين باشا » :

لكي نثبت للغرب مزايا الشرق ، اقترح عليك أن تسمح للقوى المحصورة بالسفر الى المدينة المنورة بجميع أسلحتها وبمن معها من عائلات الضباط ومن يرغب في السفر من الجالية التركية . فاذا وافقتم على ذلك وهو المعلوم ننتظر الجواب كي نشعركم بوسائط النقل اللازمة وعدد الجمال » .

فأجابه الأمير عبد الله :

« ان هذا ليس بيدي ، وان الحالة الراهنة لا تكفل سلامة وصول هذه القوى المتراجعة الى المدينة ، وان من الخير لكم أن تستسلموا جميعاً ثم ترحلوا الى المكان المناسب » .

« ولما كانت قوات فخري باشا قد تمكنت من التضبييق على الأميرين علي وفيصل ، فدفعت الاول الى (رابغ) ودفعت الثاني الى (ينبع البحر) ، أخذت الأوامر ترد الى الأمير عبد الله من مكة مشددة بلزوم اسقاط الطائف لتخفيف الضغط على باقي الجبهات ، ولذلك فقد أصدر الأمير عبد الله تعلياته بضرورة تركيز نار المدفعية الثقيلة على مقر القيادة . ولم يلبث القائد الوالي أن بعث اليه بهذا الكتاب بعد الهزيع الأول من الليل » .

« الى قائد الجيوش العربية الشرقية الشريف عبد الله بن الحسين .

انه بالرغم من كثرة العتاد والذخيرة رأيت لزوم حقن الدماء ، ولذلك أرجو قبول هيئة منا لنتذاكر معكم في معاملة التسليم والتسلم وفق حقوق الحرب الدولية ، أو تتكرموا بارسال هيئة منكم الينا » .

الامضاء : قائد القوة العثمانية المحصورة

(فريق غالب)

« فأجابه الأمير عبد الله بالقبول بأن يبعث بالهيئة التي يريدها . فأرسل الفريق غالب القائد سليمان بك ومعه رئيس أركان الحرب ناظم بك ومعهما العميد حيدر بك قائد ومتصرف عسير سابقاً . وحضروا الى قصر الشريف فتن بن محسن بالميساء ، وكان يرئس الهيئة العربية القائد سعيد المدفعي ومعه النقيب فؤاد والملازم أحمد حلمي . وتقرر التسليم على النحو الآتي :

١ ـ يخرج الوالي والقائد والأمراء العسكريون حتى رتبة مقدم في تلك الليلة الى قصر شبرا .

٢ ـ الطوابير[1] تتحرك تحت قيادة النقباء والملازمين الأولين والملازمين الثانين .

٣ ـ تتراجع هذه الطوابير في منتصف الليل الى الثكنة الكبرى وتترك على الابـواب بعض الغفر ، وفي تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربات بقيادة الشرفاء فهد بن شاكر وسلطان بن راجح وحسين الجودي لتحتل الابواب وتؤمن السلام والأمن العام .

٤ ـ مع الفجر يتقدم سعيد بك ومن معه ، ليضعوا ايديهم على الأسلحة والمدافع فتودع في مخازنها وتمهر بالشمع الأحمر .

٥ ـ تتكفل القيادة العربية بالاعاشة والتموين .

٦ ـ تصرف للهيئة المستسلمة مرتبات ثلاثة أشهر .

٧ ـ تنتظر الأوامر بالتوجه حالاً الى الجهة المقتضية » .

« وقد تم كل هذا بهدوء وسلام ، ومنح الأمير عبد الله الكثيرين من رجال العشائر فرصة للراحة ليعودوا بعد مدة للمساهمة بالثورة » .

« وفي اليوم التالي جرى انزال العلم العثماني عن القلعة ، ورفع العلم العربي ، بالتحية الرسمية لكلا العلمين ، وكان منظراً مؤثراً ومهيباً » .

« ونعود الى سقوط الطائف . فبعد اتمام معاملة التسليم والتسلّم وفق الشروط الدولية ، قام الأمير عبد الله بترحيل القائد والوالي والجنود الى مكة المكرمة معززين ، وقد صرف لهم مرتبات ثلاثة أشهر . وكان أول لقاء للأمير عبد الله مع الوالي التركي الفريق غالب باشا مثيراً للغاية ، وكان الأمير عبد الله غير راغب في لقائه أول ليلة لصداع شديد ألـمّ به فبقي بالميساء ، وبعث سماحة الشيخ عبد الله سراج مفتي مكة المكرمة والشريف شرف بن راجح اليه . فلما لم يجد الأمير عبد الله ارتبك وظهرت عليه علائم القلق فأرسل الشيخ عبد الله رسولاً الى الأمير يرجوه بالقدوم » .

« حضر الأمير عبد الله ولما رآه الوالي استبشر وضحك . وجلس الجميع في البهو الكبير بقصر شبرا . وكان مع الوالي خمسة وسبعون ضابطاً من مختلف الرتب . وبعد حوالي ثلاث دقائق من صمت ران على المجلس ، تكلم غالب باشا فقال : « هذه فاجعة . . . بعد أن كنا اخواناً أصبحنا أعداء » .

---

(١) الطابور : كلمة تركية الاصل وتعني بالعربية الرتل .

وعندما شعر الأمير عبد الله أنه قد زال عنه بعض الحرج قال : « نعم لكي يعود السيد لسيادته ويتحرر من رق من اخرجهم من الظلمات الى النور ، والشر بالشر ، والبادىء أظلم » . فاصفر لون الوالي ثم قال : « انني كنت واثقاً من أن الأمة العربية ستنفصل يوماً ما عنا ، ولكن ما كنت أؤمل أن يكون الانفصال على هذا الشكل وبهذه السرعة » .

فقال له : « صدقت . . لقد أسرعنا ومن منفعتنا الاسراع ، أما الشكل فلا دخل له ، فلو انكم ابقيتم سلطة الخلافة المطلقة لما تغيرنا عليكم ، ولكن ارادتكم المشروطة هذه التي أحببتم بها السيطرة على السلطان وعلى الأمة كانت السبب . ثم أردف ولِمَ هذا البحث الآن ؟ تفضلوا لتتناولوا شيئاً من الفاكهة فقد طال عليكم الحصار وحرمتم الكثير منها » . وأخذهم الى غرفة الطعام حيث كانت قد أعدت لهم وليمة فاخرة فيها أنواع أطعمة الطائف الشهية : كالعنب والدراق والكمثرى والرمان ، وانسحب الأمير عبد الله الى غرفته معتذراً لصداعه[1] » .

وبسقوط الطائف في ٢٢ ايلول ١٩١٦ وطّدت الثورة العربية دعائمها في الحجاز ووقع في قبضتها ٦ آلاف أسير تركي ، وغنمت كثيراً من الاعتدة الحربية ، وفي هذه الأثناء كانت القوات العربية قد استولت على عدد من المواقع التركية على الساحل بدعم مدفعي من السفن الحربية البريطانية ، فسقطت « الليث » في ٢٣ حزيران ١٩١٦ و« القنفذة » في ٨ تموز ١٩١٦ و« ينبع » في ٢٧ تموز ١٩١٦ و« بلج » في ١ آب ١٩١٦ وبذلك أصبحت المدن الرئيسية في الحجاز تحت سلطة الشريف حسين بن علي قائد الثورة باستثناء المدينة المنورة .

توجه الفريق غالب باشا صباح الغد الى مكة ، ولما وصل جدة بعث الى الأمير عبد الله بسيفه ، وكانت تلك الالتفاتة منه جد نبيلة (كما يروي الملك عبد الله في مذكراته[2]) . وبعد أن تم تنظيم الاحوال في الطائف توجه الأمير عبد الله الى مكة وبقي به الشريف حسين الجودي وكيلاً عن الشريف شرف . ثم أمر الشريف حسين أن يتوكل الشريف محمود بن زيد بن فواز امارة الطائف . ووجد الأمير عبد الله بمكة السادة الشيخ كامل القصاب ، والشيخ فؤاد الخطيب والسيد محب الدين الخطيب . والسيد نسيب البكري واخوانه والجميع من القادة السياسيين لبلاد الشام .

أما نوري السعيد وسائر الضباط فقد التحقوا بمعسكر (رابغ) الذي كان يقوده الأمير

---

(١) اقتبسنا هذه الصفحات من الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ـ الطبعة المذكورة سابقا والذي يطابق ايضا ما جاء في اعداد مجلة القبلة المذكورة سابقا ص ١١٧ ـ ١٢٧ .

(٢) ص ١٢٧ من الكتاب المذكور اعلاه .

علي ، والبعض الآخر التحق بمعسكر (ينبع البحر) الذي كان يقوده الأمير فيصل ومعه أخوه زيد .

٧ـ تحرج الموقف العسكري في الجبهة الشمالية :

كانت وضعية جيش الثورة في غاية الحرج ، ففي الخامس من حزيران ١٩١٦ بادر الاخوان علي وفيصل الى العمل مع من احتشد حولهما من رجال القبائل ، فاتجه فيصل شمالاً لقطع خط السكة وتمكن من نزع كميات من القضبان على مسافة ٢٠ كيلو متراً ، بينما حاول علي أن يفرض الحصار على المدينة ويمنع وصول المياه اليها[1] . وفي ٨ حزيران هاجم الأميران محطة المحيط ولكنهما اخفقا في الاستيلاء عليها ، وفي اليوم التالي استأنفا الهجوم ، فخرج فخري باشا لمصادمتهما على رأس قوة كبيرة . فدارت معركة استمرت من الصباح حتى الظهر وانتهت بتراجع العرب الى موقع بير الماشي على بعد ٣٠ كيلو متراً من المدينة . وفي الوقت ذاته بعث فخري قوة من رجاله قامت باصلاح خط السكة . وشجعه ما لقيه من فوز ، فسار بقوة كبيرة في منتصف حزيران فاحتل العوالي وبلغ بير الماشي فاحتلها وحصنها . وبعد هذا الاخفاق افترق الأخوان ، فسار علي بقواته الى الجنوب الغربي من المدينة باتجاه رابغ ، وسار فيصل الى الشمال الغربي باتجاه ينبع ، ورابطا في سلسلة التلال الوعرة التي تفصل المدينة عن الساحل .

وتابع فخري عملياته الهجومية فاشتبك مع قوات الأمير علي يوم ٣ آب ، ولكن وعورة الأرض ساعدت العرب على الصمود فارتد الأتراك بعد أن اصيبوا بخسائر كبيرة . وأعاد فخري الكرة يوم ١٩ آب ضد قوة فيصل ، فدارت معركة دامية بين الفريقين انتهت بارتداد الترك وغنم العرب عدداً من الأسرى .

ومن أهم العقبات التي واجهها علي وفيصل ، انتقاض حسين بن مبيريك شيخ رابغ . فقد أنزلت السفن البريطانية كمية من المؤ ن والبنادق والعتاد على أساس أن يؤ من ايصالها لقوات الأميرين ، وان يشترك معهما في القتال ، ولكن لم يلبث أن اتضح الأمر وتبين أنه كان ميالاً للأتراك ، فمنع ارسال المؤ ن الى الداخل ، وحال في آخر حزيران دون نزول بطارية المدافع المصرية التي كانت النية تتجه الى ارسالها الى الداخل لمواجهة مدفع الأتراك . ولم يلبث الشريف بعد استسلام الأتراك في مكة أن أرسل قوة بقيادة الأمير زيد الى رابغ فاستولت عليها وفر ابن مبيريك الى التلال وظل طريداً حتى نهاية الحرب .

---

(١) لقد اعتمدنا في كتابة هذه الفقرة على ما ورد في الاعمال الكاملة (المذكرات) للملك عبد الله بن الحسين (الطبعة المذكورة سابقا ص ١٢٧ ـ ١٣١) .

وكان الأمير فيصل يشكو جداً من تأثير الطيارات الألمانية على معنويات رجال العشائر . وفي ذلك الوقت كان الشريف علي حيدر باشا بالمدينة المنورة قد نُصّب أميراً على مكة من طرف السلطان محمد رشاد ، وقد ركب اليه واستأمن الكثيرُ من شيوخ حرب وجهينة المجاورين للمدينة المنورة . وكان فيصل يصر على امداده بالطائرات مقابل ما مع الأتراك ، والا ـ وعلى حد قوله ـ لا يبقى من القبائل العربية أحد في ناحيتنا وتحت أيدينا ، وكان القلق ظاهراً في برقياته وتقاريره .

أما الأمير علي فكان في رابغ ، وكان معه الضباط العرب والجنود العرب الذين تمرنوا على الاصول العسكرية الجديدة وحاربوا واسروا ثم نقلوا الى المعسكرات الانكليزية وطلبوا الالتحاق بالثورة العربية ، وجاء الكثير منهم فتكونت في رابغ قوة نظامية لا بأس بها ، مؤلفة من مشاة ومدفعية ورشاشات ومهندسين وقسم تحصينات ، وأما عدد هذه المجموعة فكان بين الثلاثة والأربعة آلاف ، هذا غير القسم الموجود في ينبع ، فكانت القوتان كالشوكتين الى يمين أي قوة تريد النزول الى مكة المكرمة . فاذا صمم فخر الدين باشا على التقدم باتجاه مكة المكرمة ، كان من واجبه تخصيصُ قسم مهم من قواته لحصر هاتين القوتين والتوجه بالاقسام الباقية الى مكة ، وفي هذا من الصعاب ما لا يجهله أحد .

وفي تلك الأثناء وصل جدة السير ستورز والنقيب لورنس ، فأمر الشريف حسين ولده عبد الله بأن يذهب للاجتماع بهما هناك ، وان يقدم لهما الطلبات العسكرية التي كان قد هيأها رئيس الأركان عزيز علي المصري ، فطلب الأمير عبد الله من والده أن يسافر الى مصر أولا ، لتنظيم المخابرات والكتب التي كانت قد وردت من السير هنري مكماهون ، ووضعها في شكل اتفاق وعهد قائم ، وبعد عودته من مصر يكون توجهه مع القوات التي كان يحاصر بها الطائف حسب الخطة التالية وهي : السير من الناحية الشرقية الى الحناكية ـ وهي موقع مهم شمالي شرقي المدينة المنورة ـ ثم العبور من وراء الخط الحجازي الى وادي العيص ، وبذلك تنتقل الثورة مما بين الحرمين الى ما بين المدينة والشام . فوافق الشريف حسين على ذلك .

عندئذ أرسل الأمير عبد الله كتابين الى أخويه علي وفيصل بأن لا خوف عليهما من تقدم فخري باشا الى مكة ما دامت قواتهما سليمة ، لأنه ـ وبدون شك ـ يخشى أن تقطع قواتهما الطريق بينه وبين المدينة . وقد ذكر لهما أنه متوجه عن الطريق الشرقي ، وان هذه الخطة أنكى للعدو وأجدى للثورة ، حيث ستنضم اليه العشائر الشرقية كلها . ثم توجه الى جدة لمقابلة ستورز ولورنس ، وخيم بين الكندرة والسبيل ، فزاره المذكوران ومعهما مدير منطقة جدة الشيخ عبد الله الشيبي ورئيس البلدية الشيخ سليمان القابل ، ثم زاره في

اليوم نفسه العقيد بريمون رئيس البعثة العسكرية الفرنسية ومعه العقيد قاضي وهـو من مسلمي الجزائر .

وفي الصباح التالي قام الأمير عبـد الله بزيارة السـير ستـورز والنقيب لورنس بدار المعتمد البريطاني بجدة ـ وكان هناك العقيد ولسن كما كان يرافق الأمير عبد الله ، عزيز علي المصري ، ولما استقر بهم المقام قال ستـورز : « لقـد حضرت أنـا ورفيقـي النقيب لورنس لنقوم بأقصى ما يمكن من الخدمات ، ولكن لسوء الحظ تلقينا أمس هذه البـرقية وكانت بمثابة صدمة شديدة لنا . وقد ترجمت الى العربية وستقرأ على سموك الآن ، فاذا تكرمت وأصغيت اليها علمت مقدار جزعنا منها » .

وكانت برقية مطولة ، خلاصتها أن أخبار الثورة العربية قوبلت في الهند بالسخط ، وان عملاء الألمان والأتراك اتخذوها وسيلة . وزعموا ان الحلفاء احتلوا البلاد الإسلامية المقدسة . ولذلك ولأن الحكومة البريطانية لا ترغب في متاعب لها في الهند[1] ، فقد قررت أن تسحب كل البعثات المرسلة من لدنها من المسلمـين ، وكذلك البعثـات العسـكرية الفرنسية ، وستستمر في تقديم المساعدات الأخرى من أسلحة وعتـاد ونقـود . وتـرى الحكومة أيضاً أن نهوض العرب بأنفسهم وبغير مساعدة قوات أجنبية هو خير لمستقبلهم .

وكانت هذه البرقية صدمة شديدة للأمير عبد الله ولعزيز علي المصري ، فقد كانت القوات العربية بأمس الحاجة الى الدعم العسـكري من طائـرات ومـدفعية ورشاشـات ومهندسين . وتأمّل الأمير عبد الله قليلاً ثم قال لهم : أرجوكم أن تتلوا البرقية مرة أخرى لانني أحب أن اتفهمها جيداً . . وكانت فرصة له للتفكير لكي يتخذ القرار المناسب . . ولما انتهت تلاوة البرقية قال : فهمت ما تقولون تماماً . ونهض مودعاً ، فبهتوا ، وودعوه بكل احترام والارتباك ظاهر على وجوههم .

توجه الأمير عبد الله مباشرة الى دار العقيد بريمون ، فاستقبله لدى الباب ، وهو رجل الى الطـول أقـرب ، عريض الصـدر طويل اللحية أشيبهـا ، وبعـد أن جلس قال له بريمون : ما هذا ؟ ! ان الأتراك قد وصلوا الى (بير قاظي) فأجابه الأمير عبد الله : بل ما هذا ؟ الموفدون البريطـانيون اخبرونـي الآن بقرارهـم بأنهـم سوف يسحبـون بعثاتهـم العسكرية بما فيها أنتم ، وانهم سيساعدون الثورة فقط بالأسلحة والعتاد والمال ، ونحن في حاجة الى طائرات ومدفعية وغير هذا مما لا يتقنه الجنود العرب اليوم . فقال : لم يبلغني

---

(١) راجع بهذا الخصوص ما كتب عن النتائج الفورية للثورة العربية في البلاد الاسلامية الخاضعة للاستعمار البريطاني والفرنسي ما جاء في كتاب جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ص ٢٩٧ ـ ٣٠٤ وامين السعيد في كتابه الثورة العربية ص ١٥٨ ـ ١٦٥ .

ذلك وان الأمر لخطير ، فماذا أنتم فاعلون ؟ قال : « لا شيء غير الصلح ، فان الأتراك عرضوا علينا قبولهم لما نطلبه بكفالة امبراطور المانيا ، وإنـي سأعـود الآن وستستقيل الحكومة التي أنا وزير خارجيتها وتأتي حكومة أخرى من الحزب الجانح للصلح فننتهي على خير ، وقد نلنا ما أردناه ، وليس علينا من حلفائنا في هذا أي لوم لأنهم يعرفون ما طلبناه وما قبلوه » . فتغير لونه . وبعد أن تناولوا القهوة خرج الأمير عبد الله وتوجه الى المخيم .

وبعد وصوله الى المخيم بنصف ساعة تقريباً ، جاءه قائد الشرطة ومعـه مذكرة من المعتمد البريطاني يقول فيها : أنه والسير ستورز والنقيب لورنس يحبون أن يتناولوا الشاي في المخيم الساعة الرابعة ، فأجابه بالقبول ، وجاؤوا في الوقت المناسب ، وقالوا للأمير عبد الله : « ماذا قلت سموك للعقيد بريمون ؟ » فقال لهم : « الذي سمعتموه منه ، فاني بعد تبليغكم قرار حكومتكم ، صممت على العـودة لعـرض الأمـر على ولي الأمـر ثم الاستقالة أنا والحكومة ، لتأتي حكومة جديدة من الحزب المائل للصلح مع تركيا فتقبل ما عرضه الأتراك علينا بكفالة الامبراطور الالماني ، ونتخلص من مشاق الحرب ، ولا لوم علينا في هذا » . فقالوا له : « إنك لم تبق عندنا حتى نعرض عليك ما كتبناه لحكومتنا ، وإننا ننتظر إيقافنا على ما تريدونه من مطالب » . فأجابهم : « بعد تصميمكم على سحب بعثاتكم تقولون أنكم كتبتم ، وماذا تعني كتابتكم ؟ فألحوا عليه إلحاحاً شديداً في تغيير رأيه ، فقال : « لا أحيد عن رأيي قيد شعرة ، ولكن سأتأخر في الطـريق اثنتـي عشرة ساعة ، فان سبقتني الموافقة على ما تتطلبه الحالـة الراهنـة من ابقـاء البعثـات وارسـال الطائرات التي يطلبها الأمير فيصل ، بقينا على ما نحن عليه » . فقبلوا بذلك وخرجوا .

سافر الأمير عبد الله الى مكة عن طريق (الفج) ، ولدى وصوله اليها تشرف بالمثول بين يدي والده الشريف حسين فبادره بقوله : « لقد نجحت يا عبد الله في مهمتك » فقد وردتني برقية من المعتمد البريطاني يقول فيها : « إن جميع مطالب الجبهات سوف تأتي بدون أي تأخير » ، فعلم الأمير عبد الله أن السهم قد أصـاب وان الحلفـاء قد فضلـوا استمرار الثورة على ما زعم لهم من احتمال عقد صلح مع الأتراك .

٨ ـ وصول عزيز علي المصري الى مكة :

وفي شهر ايلول وصل المقدم عزيز علي المصري الى الحجاز بعد اتصالات أجراها معه محمد الفاروقي وتزكية المسؤولين الانكليز له . وقد عينه الشريف حسين رئيساً لاركان الحرب ، وبعث به الى رابغ كي يتولى إنشاء قوة نظامية عربية تستطيع أن تواجـه قوات

الأتراك النظامية . وكان عزيز علي يتمتع بسمعة طيبة بين الضباط والجنود العرب كقائد عسكري قدير وكزعيم وطني . وقد بادر عزيز الى العمل في رابغ بهمة ونشاط . وخلال الأشهر الستة التي قضاها في الحجاز وضع النواة الأولى للجيش العربي النظامي . وعزيز علي هو الذي وضع خطة تقسيم الجيش الى قسمين : قسم نظامي يحارب حسب الاساليب التقليدية ، وقسم سيّار خفيف الحركة يعمل وراء خطوط الأتراك[1] .

ومن المؤسف أن الثورة خسرت خدمات عزيز علي ، وانه لم يستطع ان يبني مستقبله معها كما فعل كثيرون من الضباط الآخرين . وأسباب انفصال عزيز علي عديدة ، منها : أنه كان مثل الشريف حسين ، رجلاً شديد المراس متصلب الرأي قوي الشكيمة ، ولذلك لم يتوافر بينهما الانسجام الشخصي ، ومنها أن عزيز طالب بأن يحصل على « قيادة عسكرية مستقلة » . وقد كتب الكولونيل ولسون الى الشريف يقترح عليه منح عزيز صلاحيات لإنشاء قوة نظامية وأن يخصص له موازنة خاصة (١٥ الف جنيه شهرياً) ينفق منها على انشاء تلك القوة . ولكن الشريف لم يوافق على ذلك ، لأنه كان يخشى أن يتكرر معه ما حدث مع السلطان عبد الحميد من انقلاب العسكريين عليه . وقد طلب عزيز من الانكليز أن يخصصوا له مبلغاً من المال والأسلحة والتجهيزات ، وأن يمنحوه صلاحية الاتصال بهم مباشرة وليس عن طريق الشريف ، من أجل أن يتسنى له انشاء القوة النظامية اللازمة ، ولكن الانكليز لم يوافقوا على ذلك[2] . وفي ١٢ كانون الأول ١٩١٦ عينه الشريف حسين وزيراً للحربية ، ولكن ذلك التعيين لم يغير من واقع الأمر شيئاً . وزاد الموقف سوءاً ان ضابطاً أبلغ الأمير علي بأن عزيز يبحث مسائل سياسية مع الضباط ، ويتحدث معهم في مشروعه القديم القائل بانشاء دولة ثنائية من الأتراك والعرب تحت سيادة السلطان على منوال دولة النمسا ـ المجر . وبلغت الخشية من نفس الأمير علي أنه أمر بارتداد قواته التي كانت تهاجم المدينة بقيادة عزيز ، خوفاً من اتصال عزيز بفخري باشا ، ومن هنا توترت العلاقات بين الأمير وعزيز. يدل على هذا ما جاء في رسالةمن ولسون الى الشريف بأن جعفر العسكري يضع كل اهتمامه بعمله « ولا يتدخل في الأمور السياسية كما فعل عزيز[3] » . وفي آذار ١٩١٧ ذهب عزيز علي الى مصر في اجازة ولم يعد بعدها الى الحجاز . وقد تولى عزيز علي تدريب وتنظيم قوة من الجنود النظاميين يناهز عددها الـ ١٥٠٠ رجلاً .

---

(١) نوري السعيد : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية ، بغداد ١٩٤٧ ، ص ١٩

(٢) انظر برقيات الكولونيل ولسون إلى ونجت في المرجع 33, 34./6, 686/ P. R. O. F. O. 882

(٣) اوراق الامير زيد ـ الرسالة بتاريخ ٢١ تموز ١٩١٧

ويعتقد سليمان ان السبب الحقيقي في انفصال عزيز يعود الى مسألة سياسية لم يكشف النقاب عنها حتى الآن وتتعلق باتفاقية سايكس ـ بيكو . ذلك أن الكولونيل نيوكمب تطرق في حديث دار بينه وبين عزيز علي في أوائل آذار ١٩١٧ الى اتفاق بريطانيا مع فرنسا بشأن سورية ، واعتزام سايكس وبيكو المجيء الى مصر لتنسيق الاتفاق . وقد بادر عزيز علي لابلاغ الشريف حسين بما سمعه من نيوكمب . ولم يهمل الشريف الموضوع فكتب الى ولسون رسالة بتاريخ ١٦ آذار ١٩١٧ أشار فيها الى عزيز وقال : « أرجو أن تكونوا قد علمتم بما دار بينه وبين الكولونيل نيوكمب من حديث . أما اذا لم يبلغكم شيء فأرجو أن تحققوا وتعلموني حتى أحصل على الحقائق الصحيحة بوضوح » . وأجاب ولسون في اليوم التالي على رسالة الشريف بقوله : إن الكولونيل نيوكمب أنبأه عن اجتماعه مع عزيز علي وأنهما بحثا في الوضع العسكري . وأن عزيز حاول أن يتحدث في السياسة معه « ولكنني لا أذكر التفاصيل . وقد أعطيت تعليمات للكولونيل نيوكمب أن عليه عند وقوفه في رابغ أن يقول لعزيز ان عنده من الواجبات العسكرية ما يكفي وأن عليه أن لا يشغل نفسه بالسياسة ، وان جميع المسائل السياسية على أية حال خاصة بسموك وبالحكومة البريطانية . وقد قلت للكولونيل أيضاً أن يبلغ عزيز أن سموك حليف بريطانيا العظمى ، التي سوف تعاضدك في المستقبل كما عاضدتك في الماضي بكل وسيلة ، وان بريطانيا العظمى وحلفاءها مصممون أن لا يعقدوا الصلح الا بعد أن تهزم المانيا تماماً » . وفي ١٧ آذار أبرق ولسون الى كلايتون يحيطه علماً برسالة الشريف وبجوابه هو ، ويقول : « هذا بالضبط ما كنت أخشاه . . . انه لموقف دقيق تحتاج معالجته الى الحذر » . ثم يقدم ولسون توصيته الشخصية بأن يجري إطلاع الشريف على الهدف الحقيقي لبعثه سايكس ـ بيكو . وكان من ثقة الشريف بصدق أقوال الانكليز انه وافق على ما قاله ولسون ، وقال انه لا يصدق ما بلغه من عزيز . وليس من المستبعد أن يكون لسفر عزيز علي الى مصر بعد هذه الحادثة وعدم رجوعه الى الحجاز ، علاقة وطيدة برغبة الانكليز في كتمان أمر اتفاقية سايكس ـ بيكو التي تسرع نيوكمب وحدث عزيز علي عنها[1] .

٩ ـ مبايعة الحسين بن علي ملكاً على العرب :

كان لا بد من اعلان استقلال البلاد العربية بأجمعها والبيعة للحسين بن علي ملكاً على

---

(١) راجع بشأن عزيز علي والثورة العربية : علي جودت ، ذكريات بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٤١ ـ ٤٤ ، ومذكرات ابراهيم الراوي ، ص ١٠٢ وتقرير من السفير البريطاني في مدريد بتاريخ ١٤ كانون الثاني ١٩١٨ الى وزارة الخارجية البريطانية عن حديث له مع عزيز علي المصري «F.O 371/ 3396 ـ الحركة العربية ـ سليمان موسى ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ .

العرب[1] . فقد كان الأتراك يعتبرون القائمين بالثورة عصاة خارجين على القانون ، وكان الحلفاء ينظرون اليهم كثوار لا أكثر ، وفي هذا ما فيه من الخطر على مستقبل الأمة . فتذاكر الأمير عبدالله مع زملائه الوزراء[2] ـ ما عدا الأميرين علياً وفيصلاً اللذين كانا في الجبهة ـ وقد حضر المذاكرة الشيخ عبدالله سراج قاضي القضاة ونائب رئيس الوزراء ، والشيخ يوسف قطان وزير النافعة ، وحافظ محمد أمين أفندي ناظر الاوقاف ، وعزيز علي المصري رئيس أركان الجيش العربي ، وعلماء مكة ومفتيها ، ومن حضر من رجالات الشام والعراق الذين منهم : الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب وآل البكري والشيخ فؤاد الخطيب ـ وكان معاوناً للخارجية ـ وآل الداعوق والضباط العراقيون . . . فوافقوا جميعهم على الرأي وألحوا على السرعة في التنفيذ .

فدخل الأمير عبدالله على والده وعرض عليه الامر ، فرفض الشريف حسين بشدة قائلاً : « أنا لا أعمل للمُلك ولا أقبل هذا الأمر الذي تعرضونه عليّ » . فتقدم منه ولثم ركبته وقال : « هذه العريضة مقدمة من عظماء الحجاز ومن حضر من سائر بلاد العرب وهم يلتمسون قبول عرضهم » . فقال : « ليس عندي سوى ما قلته لك » . فقال : « لسنا جميعاً على استعداد لخدمة الثورة الا على شرط قبول ما عرضناه ، فاعمل ما تشاء مع سوانا» . فقال : هل بلغت بكم الحال الى هذه الدرجة؟ فقال : نعم . فقال قف ، فوقف ، ثم أمر بحضورهم جميعاً . فلما جاءوا سألهم : أصحيح ما يقول ؟ قالوا : لا يجرؤ أحد على ان يعرض على سيدنا ما لا صحة له . قال : هل عزمتم على عدم الاستمرار في الثورة ان لم أقبل ما عرضتموه ؟ قالوا : نعم سننسحب كلنا . فقال : افعلوا ما شئتم والتبعة عليكم ، فانني أقبل ما عرضتموه منفذاً لرغبتكم لا موافقاً عليها . قالوا : اذن وفقك اللّه ، وستكون البيعة يوم الاثنين أول محرم سنة **١٣٣٥** الموافق **٢٨** تشرين أول عام **١٩١٦** في المسجد الحرام ، فقال : على بركة الله .

كانت البيعة عامة . وقف الناس يبايعونه من ضحوة النهار الى أن أذن الظهر ، أربع ساعات كاملة . وبعد أن عاد الى القصر الملكي ودخل الحجرة الخاصة ، تقدم الأمير عبدالله مهنئاً وقال : « هذه البيعة العلنية ، أما البيعة السرية فكانت والأتراك في البلاد ، وقد اخذتها من أحد عشر ألف رجل بمكة ، كلهم بايعني على أن أختار لهم ملكاً هاشمياً

---

(١) من أجل التوسع في هذا الموضوع يجب العودة الى مذكرات الملك عبد الله بن الحسين في الآثار الكاملة ص ١٣١ الطبعة المذكورة سابقا التي اعتمدنا عليها في هذا الفصل .

(٢) شكلت هذه الوزارة بعد الثورة برئاسة الامير علي بن الحسين وكان من أعضائها : الامير فيصل وزيرا للداخلية والامير عبد الله وزيرا للخارجية وعزيز علي المصري وزيرا للحربية ورئيسا لهيئة الاركان . ولكن لم يمارس أحد من هؤلاء مهام وظيفته ممارسة فعلية بسبب انهماكهم في الحرب . (راجع : الحركة العربية . سليمان موسى ص ٢٨١) .

يسير بهم على ما أمره الله ورسوله ، وكانت باذن جلالتك » . فقال : « تذكرت . . تذكرت » ثم أبرق الأمير عبدالله بصفته وزيراً للخارجية لكل وزراء الخارجية من دول الحلفاء والدول المحايدة ، وأبلغهم بما تم . واستمر العمل ذلك اليوم من بعد الظهر الى ما بعد منتصف الليل . وكان يساعده في ذلك الشيخ فؤاد الخطيب .

وفي اليوم الثاني طلب المعتمد البريطاني العقيد ولسن والمعتمد الفرنسي العقيد بريمون مقابلة الأمير عبد الله وزير الخارجية فظن أنهما سيقدمان اليه التهنئة على ما وقع ، واذا بهما على عكس ذلك يقولان : « لم فعلتم هذا الأمر قبل الرجوع الى رأي حلفائكم ؟ » فقال لهما : « عجيب ما تقولانه . . اننا نقاتل بسيوفنا في سبيل الله وإعلاء كلمته وإرجاع حقنا القومي الى نصابه ، فمن ساعدنا وأيدنا فهو صديقنا ، ومن نكص عنا ، وأحب أن يفت في عزائمنا فهو لا يريد بنا الخير ، ونحن لا نسفك الدماء الا في حقها ، فاذا رأيتم اننا على خطأ فأنتم تضمرون لنا غير ما تعلنون . وانني لانتظر رد حكوماتكم ، لا ردودكم الشخصية ، أنا أعتقد ان الترك وحلفاءهم اليوم سيقرون ما فعلناه ويقبلون الصلح وهذا أمر نحبه » . . فقالوا : هل تشك سموك في إخلاصنا ؟ قال : « لا ، ولكن نحن أعلم بما ينبغي لنا أن نفعله من أجل القضية العربية[1] .

وفي اليوم الثاني جاء الرد من السيد ستورمر وزير خارجية روسيا القيصرية ، وقد اعترف باستقلال البلاد العربية وبملكية صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملكاً على الأمة العربية ، مقدماً تحيات جلالة القيصر نيقولا الثاني الى جلالته وتحياته هو الى الأمير عبد الله وزير الخارجية والى الحكومة . فبلغ الأمير عبد الله هذه البرقية الى دول الحلفاء قراءة . فقال العقيد ولسن : أتعد هذا اعترافاً منه يا سمو الأمير؟ فقال : وكيف يكون الاعتراف اذن ؟ فقال : « تكرم اذاً بقبول تهاني الشخصية على أن أقدم التهاني الرسمية بعد تلقي الاعتراف من حكومتي[2] » .

وبعد مباحثات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية ، اتفقتا على الأعتراف بالشريف ملكاً على الحجاز فقط ومخاطبته بلقب « صاحب السيادة » وليس بلقب « صاحب الجلالة » وفي ١٠ كانون الأول ١٩١٦ ارسل ولسن وبريمون جواب حكومتيهما على هذا الأساس .

---

(١) لا شك أن الحلفاء الانكليز والفرنسيين لم يكونوا ابدا راضين كل الرضى عن المبادهات التي كان يقوم بها قادة الثورة العربية من حين لآخر والتي تخدم المصلحة العربية اولا لانهم كانوا يريدون من الثورة العربية أن تكون بالنسبة لهم مثل الصقر يصطاد الحبرية ولا يأكل منها شيئا . . ولذلك كانت مساعداتهم للثورة اقل من القليل وسنعرض هذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل العاشر من هذا الكتاب « استنتاجات عن الثورة العربية الكبرى » .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٣ .

وقد جاء في رسالة الحكومة البريطانية ما يلي :

« ان الحكومة البريطانية وحكومتي فرنسا وروسيا ـ مع أنها تعتبر وستظل تعتبر سموكم الرأس الأسمى للشعوب العربية في ثورتها ضد الحكم التركي الظالم ـ يسرها علاوة على هذا ان تعترف اعترافاً واقعياً بسموكم حاكماً شرعياً مستقلاً للحجاز ـ ولكنها في الوقت الحاضر ، لا ترى أن الفرصة مناسبة لاتخاذ لقب بمعنى الملك ، الذي قد يكون سبباً لتفريق كلمة العرب ، وتفكيك عرى جامعة الاتحاد بينهم في مثل هذه الظروف ، ومن ثم قد يؤثر تأثيراً سيئاً على تأسيس جزيرة العرب تأسيساً سياسياً وبشكل نهائي على أساس متين ثابت الاركان[1] » .

١٠ ـ استئناف الجهاد :

بعد استسلام حامية الطائف في ايلول قرر القادة العرب أن يبادروا الى مهاجمة المدينة من الغرب والشرق . وكانت هذه الخطة تقضي بأن يزحف الأمير عبد الله بقواته من الطريق الشرقي ، ولكن عدم وجود المياه على تلك الطريق ، اضطرته الى تأخير الزحف حتى شهر تشرين الثاني موعد نزول الأمطار . وهذا هو السبب ذاته الذي كان يضطر الأتراك الى محاولة الزحف على مكة عن طريق الساحل حيث تتوافر المياه[2] .

وبالرغم من تفوق القوات التركية النظامية في المدينة ، فإن فخري باشا لم يستطع اختراق سلسلة التلال المشرفة على الشاطىء ، بسبب عجزه عن تأمين خط مواصلاته . وقد اندفع في احدى الهجمات حتى أشرف على ينبع ، ولكن رجال البدو هاجموا خطوطه الخلفية وعرقلوا مواصلاته وأخذوا ينهبون قوافله . وبعد مرور حوالي الشهرين ، اضطرت القوات التركية الى الانسحاب من مواضعها بصورة تدريجية . وذلك ليأسها من التغلب على العشائر وتأمين مواصلاتها .

كما أن عجز فخري باشا عن تأمين المياه الكافية لرجاله ودوابه ، كان سبباً مهماً من الأسباب التي أجبرته على التراجع ، بل السبب الوحيد على حد قوله .

ففي تلك الحرب ، كان الأتراك يتفوقون على العرب بقواتهم النظامية ومدفعيتهم

---

(١) راجع النص الكامل للرسالة في المراسلات التاريخية عدد ٦٠ ص ٩٣ ـ ٩٤ ، وراجع أيضا رسالة الملك حسين الى ونجت حيث يدافع عن هذه المبايعة وهذا اللقب بتاريخ ١٣/١٢/١٩١٦ ـ المراسلات التاريخية ـ العدد ٦١ ص ٩٤ ـ ٩٦ . وراجع رسالة الشيخ رشيد رضا الى الملك حسين من القاهرة بتاريخ ١٨/١٢/١٩١٦ يهنئه بإعلان نفسه ملكا على العرب ـ المراسلات التاريخية ـ عدد ٦٢ ص ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) راجع بالنسبة لهذه الفقرة كلها مذكرات الملك عبد الله كما جاءت في الآثار الكاملة ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

وأسلحتهم ، ولكنهم كانوا يحاربون في بلاد وعرة صحراوية جافة لا يوجد فيها مياه الا في أماكن متباعدة . وأهم من هذا أن أهل البلاد كلهم كانوا يقفون ضدهم ، وهم أعرف بالأرض منهم وأخف حركة ، مما يسهل عليهم التنقل أفراداً وجماعات بين الشعاب والأودية ، بينما كان الأتراك لا يستطيعون السير الا في مجموعات كبيرة وكانت أسلحتهم الثقيلة معهم محملة على الدواب . هذا كله جعل المهمة شاقة على كلا الطرفين المتقاتلين .

اسندت الى الأمير عبد الله مهمة قيادة الجيش الشرقي العربي مرة أخرى . وكان القوام الأساسي لهذا الجيش لواءين من الهجانة المدربين ، ولواء الخيالة ومعه بطارية مدفعية جبلية ، اضافة الى عشائر عتيبة وعشائر مطير وعشائر حرب وعشائر هتيم . ولدى الوصول الى بلاد جهينة وبعد اتمام التجهيزات توجه في العشرين من شهر صفر ، ونزل وادي الليمون . وكانت قوات الأميرين علي وفيصل في رابغ وينبع تحت ضغط شديد من فخر الدين باشا . وكان الشيخ حسين بن مبيريك شيخ رابغ قد التحق بالقوى التركية ، وأقام ببعض عشائره في حجر - موضع بأرض وعرة شرقي رابغ وعلى طريق خلص فعسفان - وعلى هذه الصورة كانت الطريق مفتوحة لقوات فخر الدين باشا . فأسرع الأمير عبد الله بالمسير ، ولما وصل الى البركة - منزل للحجاج في الطريق الشرقي - تلقى أمراً من القائد العام ، الأمير علي بن الحسين ، يخبره فيه بأن الأمير فيصل في ضيق شديد بينبع ، وانه يتوقع هجوم فخري باشا عليه في أية لحظة وخاصة لدى مروره على طريق خلص الى مكة ، ولهذا يأمره بالرجوع الى مكة ، ومنها يجب أن يغذ السير الى عسفان لتشكيل جبهة جديدة تدافع عن مكة ، ويقول إنه ان لم يفعل هذا فربما قُطع عليه خط الرجعة ، فيضمحل الجيش بدون أن يحقق أية مهمة ناجحة .

ولما كان الأمير عبد الله يعلم جيداً ان في تنفيذ هذا الأمر انفراط أمر العشائر التي تساند الثورة العربية الكبرى ، قام بما يلي وعلى مسؤوليته[1] : بعث الشريف فوزان الحارث بألف وخمسمائة هجان مردوفة . وأمره بأن لا يصبح الصبح الا ويكون قد احتل حجر ، واستأصل حسين بن مبيريك واجتثه من جذوره . وبعث بجواب الى الأمير علي مع رسول الى رابغ يعلمه فيه بأن لا حجر ولا ابن مبيريك بيد الترك بعد اليوم . وبعث الشريف عبد الله بن ثواب الحارثي بمثل تلك القوة الى المدينة ، وأمره بأن يشن الغارة على مخافر الترك بجبل (وعيرة) وجبل (أُحُد) ، وأن يوقد نيراناً كثيرة بالجبال والمرتفعات ، ويكثر

(١) لاشك أن هذا الاجراء الذي قام به الأمير عبد الله يعتبر خروجا على المألوف في العلم العسكري لان المبدأ الاساسي في الانضباط (نفذ ثم اعترض) ولكن الامير عبد الله أخذ هذا القرار الجريء على مسؤوليته اللاحقة . ولحسن الحظ أنه نجح في ذلك . . . ولو حدث العكس لكان من الممكن أن يعتبر متمردا على قرارات القائد العام وأوامره ولكن وضوح الرؤية واستشفاف آفاق المستقبل التي كان يتمتع بهما الامير عبد الله سهلا عليه اتخاذ القرار الصحيح في الموقف الصعب والمعقد .

الصياح ، وان يأسر كل محتطب أوذي حاجة أو تاجر من تجار نجد ممن يخرج من المدينة أو يدخل اليها ، وان يطلق سراح الراجعين الى المدينة بعد أن يتحقق من هوياتهم ، وان يزودهم بكتب الى العشائر بغربي المدينة ممن التحق بالأتراك والشريف حيدر ، ويهددهم بالصياح اذا هم لم يتراجعوا الى الأميرين بينبع ورابغ ، ويقول لهم أنه في مقدمة الجيش الشرقي وقد نفذ ما عليه ، وكأن حجر قد احتلت في الوقت المحدد .

وتوجه الأمير عبد الله بالقوة الرئيسية الى ناحية (الحناكية) ، وأقام بها ثلاثة أيام فالتحقت به هناك كل عشائر هتيم وحرب . وأصبحت القوى حوالي عشرين ألف مقاتل .

١١ - أسر القائد التركي العميد أشرف بك :

توجه الأمير عبد الله قائد الجيش الشرقي بهذه القوى نحو الغرب ليعبر السكة الحجازية ما بين محطتي (أبا النعم) و(هدية) . وفي طريقه بالحرة ، ولشدة الحر يومئذ وللتخلص من وعورة الحر - كما يروي الملك عبد الله في مذكراته[١] - ، تقدم ومعه هجّانان ، واذا بقاع صحصح فيه دوحة عظيمة وغدير أفْيَح ، فأناخ وأمر بشيء من القهوة في انتظار قدوم عناصر استطلاع الجيش ، وكان كل من رآه هناك ، ينيخ ايضاً راحلته . . ونظراً لتأخر القوة الأساسية قرر أن تكون الدوحة منزلة الظهيرة[٢] . وكان عند الأمير عبد الله حينذاك الشريف شاكر بن زيد وخالد بن لؤي والشيخ ناهس الذويبي شيخ مشايخ حرب . وبينما هم جالسون دخل رئيس عشيرة (ولد) ، محمد رجا بن خلوي ، وأشار الى الأمير عبد الله بيده فقام اليه ، فأشار الى تل لا يبعد عن المكان بأكثر من خمسمئة متر وقال : هل ترى هذا التل ؟ قال : أراه . قال : إن به قوة تركية . قال : كيف ؟ قال : اسمع من هذا الغلام . . . واذا بغلام تتقد عيناه يقول يا سيدي عان الترك عانهم - اي أنظر الى الترك أنظر اليهم باللهجة البدوية - قال كيف ؟

قال الفتى : « انني وأخي زمالان للشيخ رجا بن خلوي ، ذهبنا في مقدمة القوم نحتش حشيشاً فألقى الترك القبض علينا ، وقال كبيرهم لنا من أنتما ومن هؤلاء القوم ؟ فقلت أنا مبادراً : هؤلاء هتيم وشيخهم سمران بن سمرة ، ونحن منهم ، قد بلغه ان الشريف عبد الله نزل الحناكية فرحل عن طريقه لاجئاً الى خيبر . فقال : لا تكذب ، فقلت ولِمَ الكذب اطلقني ان أردت واحتبس أخي وأنا آتيك بسمران بن سمرة ، فاحتبس

---

(١) راجع الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ص ١٣٤ - ١٣٨ وما بعدها .

(٢) منزلة الظهيرة : (استراحة الظهيرة وكانت تعطى للقوات الراجلة بعد مسير ساعات الفجر الاولى وساعات الضحى « ٤ - ٦ » ساعات) .

أخي واطلقني . ولكن عان يا سيدي الترك عانهم » ! . فقال الأمير عبد الله : هل رأيت كثرتهم ؟ قال : « هم كثير ولكن نحن أكثر . ابعث بي أدل القوم » .

فانتحى الأمير عبد الله ناحية وقسم الخيل الى ثلاثة أقسام : القسم الأوسط وعليه الشيخ هوصان بن عفار ، والأيمن وعليه أخوه الشيخ راقي بن عفار ، والأيسر وعليه الشيخ عبدالله بن مسفر ، وأمرهم أن يحيطوا بهذه القوة وأن يوغلوا الى ما وراءها حتى يقفوا على حقيقة الحال . . . هل لهؤلاء من مدد أو قوة كاملة ؟! . فتوجهت الخيل ، ثم بعث بمشاة العشائر من اليمين بقيادة الشريف خالد بن منصور ، وبعشائر هذيل بقيادة الشريف فائز الحارث ، وبعث بعشائر ثقيف وابن الحارث وهذيل الشام بقيادة الشريف شاكر بن زيد من الميسرة ، فتبعوا الخيل . ولم تمض الا دقائق حتى كان الاشتباك الشديد ، واذا برشاشاتهم تلعلع ، وأصوات الانفجارات تملأ الجو ، فينعكس صوتها بين وديان الحرة وهضابها ، فلم يقف انسان بمحله بل حملوا حملة صادقة فأبادوا القوة التركية عن بكرة أبيها ، وأتوا بقائدها العميد أشرف بك ، وبالمدافع والرشاشات ، وبغنائم لا تحصى ، وبهدايا الى الأمير ابن رشيد ، وإلى الأمير ابن سعود ، وإلى امام اليمن ، وكان من جملة الغنائم ثمانية وثلاثون ألف جنيه ذهباً عثمانياً ، والأطعمة المجففة والبسكويت مما أغنى القوات العربية في الجيش الشرقي أياماً عن الزاد . في وقت كانت بحاجة ماسة الى كل شيء حتى الملح .

سارت القوات وعبرت السكة قبل أن تأتي قوة تركية تمنع العبور وهي في مفازة خطرة . ثم احتلت القوات العربية ما بين (هدية) و (أبا النعم) ، الخط الى آبار (أبا الحلو) غربي السكة . واستمر العبور أربع ساعات ونصفاً على ثمانية موجات ، ثم اقتلعت أعمدت البرق وانتزعت قضبان السكة . وقد كتب أشرف بك مصيره في تقرير علق على قضبان البرق . وكتب الأمير عبد الله كتاباً الى فخر الدين باشا أبلغه فيه أسفه لما وقع على اشرف بك وحملته . وأبدى عجبه من ارساله تلك القوة بهذه الأموال في بلاد ثائرة ، وذكر له ان الثورة قد انتقلت الى ما بين الشام والمدينة . وفي هذه الأثناء كان فخر الدين باشا قد تراجع من (ينبع النخل) ومن (وادي الصفراء) ومن (بئر سعيد) الى (بيردرويش) . وجناحه الأيمن الذي كان يعمل ضد الأمير فيصل رجع من (بير قاضي) و (سطح الغاير) ومن (برام) و (عبود) الى (غدير ومجز ومجزان) و (آبار علي) . وجناحه الأيسر الذي كان يعمل ضد الأمير علي تراجع ايضاً . ومما لا شك فيه أن تغير الموقف لصالح الثورة العربية ، كان نتيجة حتمية لتطبيق الأمير عبد الله استراتيجية الهجوم غير المباشر ، التي نفذها بمهارة فائقة ، ذلك أن تقدمه بقواته من المحور الشرقي أرغم القائد

التركي أن يعيد النظر في خططه ، وينكفىء بقواته نحو المدينة ، وبالتالي تحرر جيشا الأميرين علي وفيصل من الضغط التركي .

تقدمت القوات العربية التي يقودها الأمير عبد الله ، فنزلت بوادي العيص بر بيعان ، وبدأت تهاجم الخط الحديدي ليل نهار ، فتحررت قوة الأمير فيصل واتجهت عن طريق الساحل الى الوجه ، وقد كان بيد الأتراك . وكان مدير المنطقة في الوجه عبد السلام بك كمال أحد أفراد دار كمال المعروفين بالقدس ، وكان عثماني المذهب شديد التمسك بالترك . وكان معه العميد أحمد بك وبامرتهم قوة نظامية عثمانية مؤلفة من مدفعية ساحلية وبطارية جبلية ورتل قوامه ألف ومئتا جندي غير الشرطة . كما كان في الوجه هجانة من عقيل أهل نجد مؤلفة من ثمانمئة هجان .

ولدى نزول الأمير عبد الله بوادي العيص كتب الى زعماء القبائل العربية ينصحهم بالانضمام الى الثورة العربية قبل أن ينالهم التنكيل ، فوردت أجوبتهم بالموافقة . وبعد أن استلموا معاشاتهم من السلطة التركية تركوا الأسلحة حيث هي وخرجوا ثم التحقوا بصفوف الثورة .

وتقدم الأمير فيصل من الساحل فاستولى على (أملج) . ثم ضرب الاسطولُ البريطاني (الوجه) . وعند وصول طلائع قوى الأمير فيصل ، تراجع مدير المنطقة وقائد القوات التركية بقواتهما الى (العلا) ، ودخل جيش الأمير فيصل (الوجه) بدون مقاومة تذكر . أما ابن رفادة ، شيخ الوجه وأحد رؤساء (بلي) ، فقد فرّ والتحق بأحمد جمال باشا في الشمال .

وهكذا تحول الموقف العسكري في الحجاز في أول سنة ١٩١٧ الى صالح العرب ، فقد أصبحت القوات التركية ضمن دائرة حصار واسعة ، تتركز حول المدينة المنورة وحول سكة الحديد ، بينما كانت القوات العربية تتألف من ثلاثة جيوش :

- الجنوبي ، بقيادة الأمير علي ومركزه رابغ .

- الشمالي ، بقيادة الأمير فيصل ومركزه ينبع .

- الشرقي ، بقيادة الأمير عبد الله ومركزه وادي العيص ، وكان مجموع تلك القوات يتراوح بين ٢٥ ألف و ٣٠ ألف مقاتل بينهم أقل من ألفين من الجنود النظاميين فروا من الجيش التركي والتحقوا بالثورة العربية والباقي من المتطوعة رجال القبائل العربية .

وعندما أصبح الموقف العسكري على النحو الذي ذكرناه كتب الأمير عبد الله الى شيوخ عشائر عنزه الرسالة التالية :

« من عبـد الله بن الحسين بن علي الى الشيخ فرحـان الأيدي والى الشيخ شهـاب الفقير» .

« أما بعد فقد بلغكم عبورنا السكة الحجازية بعد أن ظفرنا بأشرف بك في الجبلـة بالحرة ونزلنا بالمربع بوادي العيص . وكتابنا هذا كتاب دعوة لكم للالتحاق بالثورة العربية في مهلة لا تتجاوز العشرة أيام ، تقدمون البت قبل مضيها مقدمين الطاعة مع البرهان بأن تهاجموا خط السكة وتأتوا بأسرى وغنائم . فان لم تفعلوا ومضت المدة فلا لوم علينا ان نحن استعنا بالله عليكم وصبحناكم » .

فجاء الشيخ فرحان الايدي سامعاً مطيعاً ، بعد أن هجم على محطة من محطات سكة الحديد تسمى (البلغة) وظفر بمن فيها ، واحضر معه مدفعين جبليين اغتنمهما وقد عينه الأمير عبد الله مكافأة له قائداً على أراضي عنزه من الجهينة الى حدود الفقير .

وأما شهاب الفقير فكان غائباً عند وصول كتاب الأمير عبد الله ، فحضر أخوه الشيخ متعب الفقير بالنيابة عنه سامعاً مطيعاً ، وقد وعد بأن تبتدىء الحركات في جبهة الفقرة عند وصول الشيخ شهاب من الشام . فلم يقبل منه الأمير عبد الله ذلك وقال له : « لا بأس على شهاب ما دام لدى الأتراك ، ولا لوم عليكم أنتم بعد التهديد » . وبينما هو يتجهز للرجوع واذا بخبر عودة شهاب الى عشيرته وانه قد سمع واطاع وباشر في الحـركات . وهكذا ابتدأ الجيش الشرقي يعمل وقد لفت اليه الأنظار ، وكان لأسر أشرف بك صدى عظيمٌ في مكة وفي المعسكرات العربية برابغ وينبع ولدى المحافـل البريطـانية ، لشهـرة أشرف هذا وفرقته ، اذ هو الذي كان قد هاجم فرقة الأمير موريس البلغاري أثناء حرب البلقان وأوقع فيها اصابات بالغة وشتتها .

ثم ان الجيش الشرقي قام بقطع الخط الحديدي بين محطة (أبا النعم) و (هدية) ، وهيأ القوة الكافية للكمائن بطرف (بئر عروة) بالمدينة المنورة في أيام الجمعة ، لاختطاف الأمير الشريف حيدر الذي اعتاد أن يتنزه هناك بعد ظهر كل جمعة . وقد وصلت تلك القوة بالفعل الى مكمنها ، ولكن الشريف كان قد خرج من المدينة الى لبنان خوفاً من وقوعه في الأسر اذا حوصرت المدينة . وكان يخدم القضية العربية بأن يقول لكل شيخ يجيئه : اذهبوا وسأقابلكم بمكة متى وصلتم . وقد أسرَّ لمن يثق به منهم بأن أعينوا امراءكم فان حصل أي مكروه فانني سأجتهد للتخفيف عنكم .

١٢ ـ حصار المدينة المنوّرة :

وهكذا فان الثورة العربية أخذت تلاقي نجاحاً مضطرداً بعد أن سلك الأمير عبد الله الطريق الشرقية ، واستكمل أسباب حصار المدينة بعد ذلك رويداً رويداً . وقد تحركت

القوى الأصلية الهاشمية من رابغ يقودهـا الأمـير علي وأمراؤهـا من النظـاميين : نوري السعيد وعلي جودت الايوبي وحامد الوادي وابراهيم الراوي . واما العشائر ، فحـرب وبنـو سعد وسليم وهذيل والاشراف ، وقد قصدوا قوى التـرك الأصـلية ببئـر درويش وبمجز ومجزان .. وكان الأمير زيد يقود الجناح الأيمن ، واستمر القتال بين القوتين ثلاثة أيام ظفر فيها الجيش العربي الهاشمي ببئر درويش ومجز ومجزان ، وتراجع فخري باشـا الى الجفر والى آبار علي . وقد قال في تقريره لجنوده « إنكم تقاتلون الآن قوة منظمة هي كفء لكم وليست المجادلة الآن شقاوة أو حرب عصابات » . وقصر فخري باشا خط دفاعـه وخندق واستحكم . وكانت القوى التركية الّتي يبلغ عددها حوالي (١٤) ألف جندي موجودة في المدينة .

وبعد أن تمركز جيش الأمير عبد الله في وادي العيص وأصبح يهدد جناح فخري باشا الأيمن ومؤخرته تهديداً مباشراً ، وبعد الهجمات المعاكسة التي ظل جيشا الأمـيرين علي وفيصل يشنانها ضد قواته المتقدمة وعلى خطوط مواصلاته ـ قرّر فيصل أن يغادر ينبع وأن يتجه الى الشمال للاستيلاء على الوجه . وكان التفكير باحتلال الوجه يعود الى بضعة أشهر خلـت ، ففـي ١٨ آب ١٩١٦ أكد الكولـونيل ولسـون للشريـف حسـين على ضرورة الاستيلاء على الوجه وجميع الثغور الساحلية ، وقال بأنه يستطيع تأمين سفينة تنقل ١٠٠٠ مقاتل عربي الى الثغور . وأجاب الشريف يومذاك أنه سيرسل برقية الى فيصل كي يرتب الموضوع ، ولكن فيصل بقي منهمكاً في الدفاع عن ينبع حتى انفرجت الأزمة في أوائل كانون الثاني ١٩١٧ . كما سبق أن ذكرنا .

كانت الغاية الرئيسية من احتلال الوجه هي الحصول على قاعدة تموين على السـاحل الشمالي ، لكي يتمكن العرب من مهاجمة خط السكة في الداخل . ومن المعلوم ان الانكليز كانوا يزودون القوات العربية بالمؤ ن ، وكانت جدة ورابغ مركزي التموين الرئيسيين في الحجاز . وهكذا زحف فيصل بقواته شمالاً . وحملت السفن الحربية البريطانية ١٠٠٠ مقاتل عربي لم تلبث أن انزلتهم مع مفرزة من جنود البحرية الانكليزية غير بعيد عن الوجه . وبعد أن قصفت السفن مواقع الأتراك بنار مدافعها ، تقـدم العـرب لاحتـلال البلدة ، ولم تلبث حاميتها أن استسلمـت بعـد معـركة قصـيرة يوم ٢٤ كانـون الثانـي ١٩١٧ .

بعد احتلال الوجه اتخذ فيصل موقع (جيدا) مركزاً لقواته في منتصف المسافة بين الشاطىء وخط سكة الحديد .

وبعد اسبوع من نزول الأمير عبـد الله بالعيص ، وصلـت قوة من الجيش الشمالي

مؤلفة من سبعة وعشرين هجاناً ومعهم النقيب لورنس ، وقد أرسله الأمير فيصل ليُدبّر التخريبات الفنية للسكة الحديدية . ولم يكن الأمير عبد الله مسروراً لقدومه ، لاعتقاده بتأثيره المعاكس في العشائر المتعصبة . ولقد قال له ابن لؤي ، الوهابي العقيدة : « انكم تقاتلون الترك لأن الألمان استحوذوا على الترك ، وهذا من يكون ؟ اذا كان الالمان أصحاب الأتراك ، وهؤلاء أصحابكم . فعلام القتال اذن ؟ ! . . . » وقال له ناهس الذويبي : من هذا الاحمر القادم وماذا يريد ؟ ! . . فافهمهم الامير عبدالله بان لورنس هو مهندس جاء لتهديم الخط ، وانه يمثل انكلترا حليفة العرب ، وان الأمر ليس كما تظنون بل اننا وهؤلاء اتفقنا على عدو لهم وعدو لنا ، أما أعداؤهم فالألمان وأما أعداؤنا فهم الأتراك . وقال لهم : « اتظنون أن يدفعوا أسلحتهم وذخائرهم وأموالهم اليكم دون أن يروا ما نوقعه في أعدائنا ؟ ! » .

ومع أن كلام الأمير عبد الله كان له تأثيره ، غير أن التبرم من وجود لورنس بين العشائر العربية كان جليّاً ظاهراً . ولقد حاول الاتصال بالعشائر ، ولكنه لم يستطع بسبب الحرس الذين وضعهم عليه الأمير عبد الله ، خشية أن يدس له الترك من يعتدي عليه بقصد افساد ذات البين بين العرب والانكليز .

والحقيقة أن لورنس كما يقول الملك عبد الله في مذكراته[1] كان مزهواً بنفسه وغريب الطباع . . . ولقد دسّ الى الأمير عبد الله من يغريه بأن يصبح ملكاً على الحجاز ، بحجة أن والده الشريف حسين عنيد في تفكيره متمسك برأيه . فقال الأمير عبد الله لرسول لورنس : « قل لصاحبك هذا أن أبي سيدي وملكي ، وبعده الأخ الأكبر وبعده نجله . وسأكتفي أنا بلقبي الى آخر أيامي ، واما هو فقد خدمني وخدم العرب بقوله ان والدي عنيد متمسك برأيه ، فقد دلّ على أنهم يطلبون من لا رأيَ له من الناس كي يعمل لورنس وأمثاله ما يشاؤون » .

وجه الأمير عبد الله مجموعة للتخريب وطرد الأتراك من محطة (أبا النعم) و (جداعة) و (الوقر) و (هوية) ، وكان لورنس من جملة الذين ساروا مع المجموعة ، وعلى حد قوله أنه كان بالامكان القيام بما هو أشد تأثيراً ، ولكن من معه استعجلوا الرجعة . وفي ذلك اليوم تم نسف قاطرة وتخريب قطار بأجمعه وتدمير حوالي أحد عشر كيلو متراً من الخط الحديدي .

ولقد سافر الشريف حيدر بن جابر من المدينة الى لبنان بعد ذلك باسبوع ، وقبل أن تظفر به القوات العربية . أما لورنس فقد نفرت في جسده الدمامل والخراجات فاستأذن

---

(١) راجع الاعمال الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

وعاد من حيث أتى . ويقول الملك عبد الله في مذكراته « ولقد كنت معه لطيفاً معترفاً بثمن مساعدته ، غير أني لم أكن بالذي يرضى عن تدخلاته في ما لا يعنيه » .

ثم الحقت بالجيش الشرقي الذي كان يقوده الأمير عبد الله ، مفرزة تخريب فنية يقودها ضابط بريطاني برتبة رائد اسمه « دافنورت » ، وكان دمثاً خلوقاً لا يهمه سوى عمله ، وممن كان تحت امرته من الانكليز النقيب « غارلند » وكان من محبي العرب فعلاً ، كما كان مخلصاً في عمله ، والنقيب « غولدي » وكان مخلصاً طيب القلب كذلك .

وكان السبب الأكبر في دوام محافظة الأتراك على الخط الحديدي ، هو قدرتهم على الدفاع من جهة ، وعدم وجود قوات مدربة نظامية مع الجيش الشرقي من جهة أخرى . أما التجهيزات فلم يكن يقدم منها للجيش الشرقي أي شيء سوى سلاح المحارب الراجل ، أما المدافع وما الى ذلك مما يستعمل ضد القلاع والتحصينات فلم يظفر منها بشيء . وكان الجيش الشرقي يتألف من الفارين العرب من الجيش التركي ، ومن جنود وضباط ذوي رتب صغيرة . وكان لدى جيش الأمير علي - الجيش الجنوبي - من مدافع الصحراء ومدافع الهاوتزر ما تفوق به على الأتراك . وأما التجهيزات الأساسية فكانت مصروفة للجيش الشمالي الذي كان يقوده الأمير فيصل ، فلقد كانت معه سيارات مدرعة ومدافع كثيرة جبلية وصحراوية ومدافع حصار ، وكان كل الجنود المتطوعين من العرب والضباط يرسلون الى ذلك الجيش ، كجعفر العسكري ونوري السعيد وأمثالهما .

وكان من رأي الأمير عبد الله الاستيلاء على الخط ، ثم الاستيلاء على المدينة المنورة ، بالجيوش العربية الثلاثة : الجنوبي ، والشرقي والشمالي[1] ولكن لسوء الحظ انتشر الضغط على الأتراك على طول الخط الحديدي ، ثم تقدم جيش الأمير فيصل واحتل العقبة[2] ومنها أخذ يضيق على معان . فلو سقطت المدينة المنورة في عام ١٩١٧ لتفرغت الجيوش العربية الثلاثة بمجموعها لفتح سوريا والاشتراك في العمليات الحربية الدائرة في العراق ، ولكن لم يتم التصديق على خطة الأمير عبد الله من المراجع العليا .

ان استراتيجية العرب الجديدة ، أرغمت الأتراك على الاقتناع ، بأنه لن يكون في مقدورهم الزحف الى مكة ، ولذلك قرروا الاحتفاظ بالمدينة المنورة - رغم معارضة

---

(١) هذه الخطة التي وضعها الامير عبد الله لو تم تنفيذها لكانت أيضا من استراتيجية الهجوم غير المباشر عندما تتلاقى الجيوش في هدف استراتيجي واحد وقد طبقها الرسول العربي (ص) في فتح مكة وطبقها في التاريخ المعاصر ماريشال الاتحاد السوفييتي باكوبوفسكي أثناء اقتحام تشيكوسلوفاكيا (١٩٦٨) .
راجع الاعمال الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) سنتعرض لتحرير العقبة في الفصل التالي .

الألمان ـ محافظة منهم على هيبتهم في أنظار المسلمين . وقد كلفهم ذلك ابقاء ٢٥ ألف جندي في ميدان جانبي . منهم ١٤ ألف في المدينة باسم « قوة حملة الحجاز » بقيادة فخري باشا ، وقوة مختلطة (الثانية) وقوامها ٥ آلاف جندي بقيادة بصري باشا ، وقوة مختلطة أخرى (الثالثة) وقوامها ٦ آلاف جندي بقيادة جمال باشا ، ومركزها معان . وقد أوكلت لكل قوة منها حماية جزء معين من الخط الممتد بين المدينة ومعان . (طول الخط من المدينة الى دمشق ١٣٠٨ كلم) .

بعد سقوط الوجه استولى العرب على ثغري ضبا والمويلح الى الشمال منها ، فأصبح شاطىء الحجاز كله خالياً من القواعد التركية . وفي هذه الفترة بالذات قدر العقيد ولسون ان الثورة عطلت عن العمل ثلاث فرق تركية على الاقل في مرحلة حرجة ، واضطرت الأتراك ان يرسلوا تعزيزات الى الحجاز ، كما أوقفت حملة ستوتز نجن « فقضت على خطر في منتهى الجدية ، كان يحتمل أن تكون له نتائج ذات تأثير مدمر بعيد المدى بالنسبة لنا كإمبراطورية[1] » .

بقي فخري باشا في المدينة يدافع عنها باصرار وعناد ، لذلك لم يكن ضرورياً أن يظل الجيش الشرقي بوادي العيص وبلاد جهينة ، وبعد الاتصال بالأمير علي تحرك الأمير عبد الله بالجيش الشرقي الى الجفر ـ وهو موقع شمالي المدينة المنورة الى الغرب ، ويبعد حوالي عشرين كيلومتراً عنها ـ وبعد التضييق عليه ابتدأت الحركات الدالة على نفاذ الطاقة لدى المحاصرين[2] .

وبهذه المناسبة نود أن نجيب على سؤال هام . . لماذا لم تقدم بريطانيا وفرنسا ، الدعم والتعزيز اللازمين لقوات الثورة العربية ، لانهاء الحصار على المدينة المنورة وتحريرها من الاتراك ؟ . .

الواقع من الناحية العسكرية البحتة ، لم يكن حصار المدينة المنورة مضراً بالبريطانيين وحلفائهم الفرنسيين ، ما دامت القوات التركية التي تدافع عن قطاع المدينة عاجزة عن محاربتهم . . ومن هذا المنطلق لم تحصل جيوش الثورة العربية على دعم عسكري مناسب خصوصاً (المدفعية الثقيلة والطيران) الامر الذي أخر تحرير المدينة الى ما بعد تحرير بلاد الشام وتوقيع الهدنة بين الطرفين المتحاربين . . هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت انكلترا تريد أن تظهر للشريف حسين عجزه عن تحرير المدينة [وهي السبب]

---

(١) تقرير ولسون الى مدير المكتب العربي بتاريخ ٢٨ آذار ١٩١٧ . في المراسلات التاريخية المذكورة عدد ٦٦ ص ٩٩
F. O. 686/ 34

(٢) راجع الاثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ص ١٤٢ ـ ١٤٨ حيث يسرد هذه الوقائع بالتفصيل .



الشريف شاكر بن زيد احد القادة الكبار في الثورة



الملك علي بن الحسين



الشريف علي بن الحسين الحارثي وحوله ثلاثة مــن رجال الثورة . دمشق ١٩١٩ .



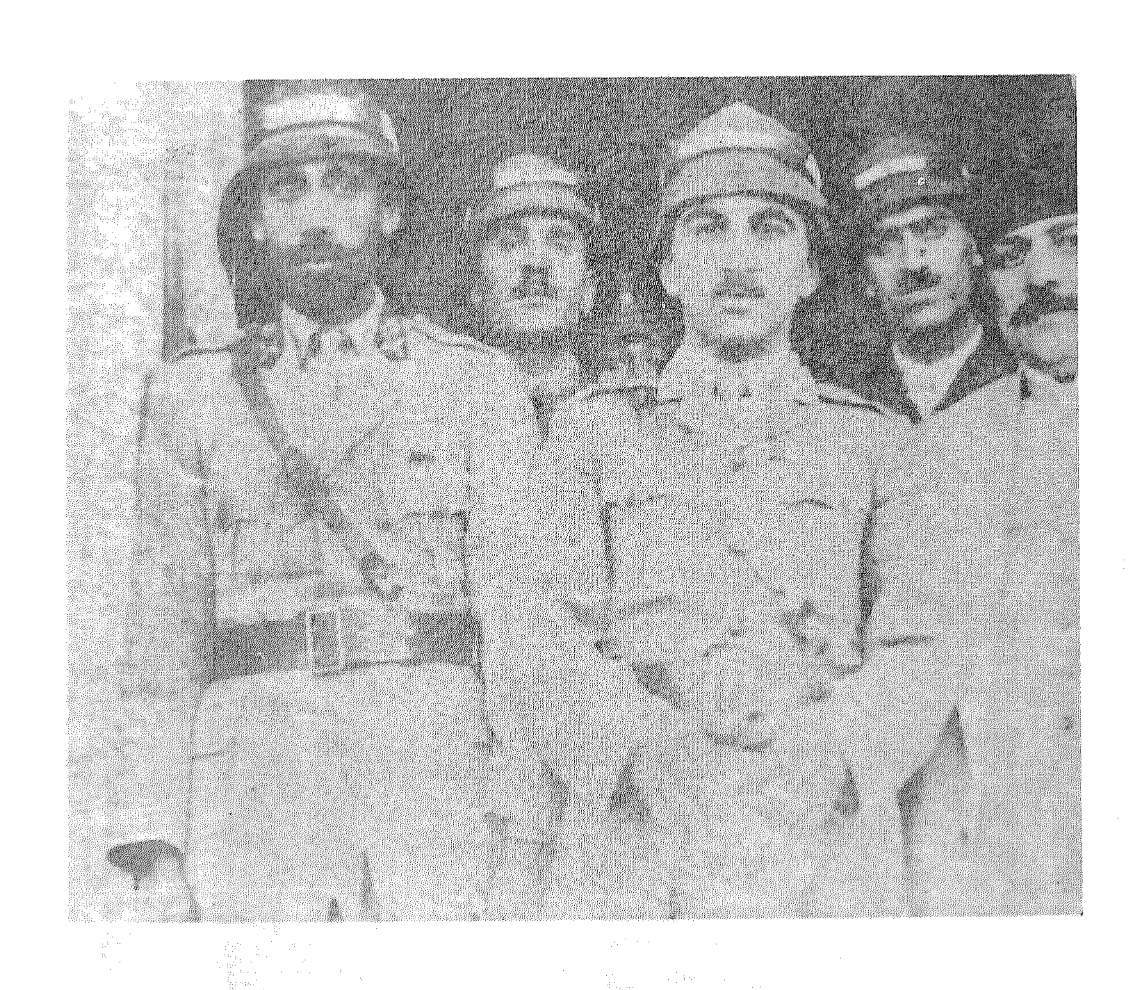
دمشق ١٩١٩ .
جلوسا : رضا الركابي والشريف ناصر بن علي .
على الكراسي : فوزي البكري ، عبد الرحمن اليوسف ، الشريف جميل بن ناصر الامير زيد بن الحسين ، الشريف علي بن الحسين الحارثي .
وقوفا : نسيب البكري ، عطا الايوبي ، سامي البكري ، احمد اليوسف ، محمد كرد علي .



الامير زيد بن الحسين وعدد من ضباط الجيش العربي يستعرضون الرشاشات التي غنموها من الاتراك في الطفيلة كانون الثاني ١٩١٨ .



فيصل بن الحسين والجنرال اللنبي يوم دخولهما الى دمشق
في ٢ تشرين الاول ١٩١٨ وقد اخذ هذا الرسم امام فنـــدق
فكتوريا . يبدو في الصورة نوري السعيد ونسيب البكري .



دمشق ١٩١٩ .
الامير زيد بن الحسين والشريف ناصر بن علي . وياسين الهاشمي
القائد صبحي الخضرا ، القائد عبد الله الدليمي .

الاسرى الاتراك الذين وقعوا بايدي العرب في معركة الطفيلة

لكي تبقي معنوياته ضمن الحدود المرسومة من قِبَل الدوائر الاستعمارية حتى لا يأخذ بُعدَه القومي .

عند توقيع الهدنة مع الأتراك بعث الشريف حسين والسير وينجت ـ المندوب السامي بمصر اذ ذاك ـ برسائل الى فخري باشا ، يخبرانه فيها بأن الأتراك قد هزموا ، وان الشام قد احتلت ، وان مسؤ ولية الدماء من بعد ذلك ستقع على عاتق فخري باشا شخصياً ان لم يسلم . فأجاب فخري باشا بالتركيـة الى السير ونجت : « الى جانب الجنرال لايجلاند وينجت بمصر : أنا عثماني ، انا محمدي ، وانا ابن بالي بك ، وانا جندي لا أستسلم الا اذا جاءني أمر من السلطان » . ثم عندما يئس فخري باشا من الاستمرار في العناد والمكابرة بعث بعد ذلك بكتاب الى الأمير علي ، يقول له فيه أنه بعد هذا الجدال الطويل لم يبق أي سبب للدفاع ، وانه قد أرسل العميد علي نجيب ، والعميد صبري ، والاركان حرب النقيب كمال لأجل التذاكر في كيفية تخليّه عن المدينة وكيفية اجلاء الجنود الذين يمتد خطهم من تبوك الى المدينة المنورة على سكة الحجاز .

فبعث الأمير علي القائد العام لقوات الثورة العربية الى الأمير عبد الله اشارة تلفونية يطلبه من الجفر ، فحضر اليه حالاً .

ولما ترجل عن فرسه عند باب خيمة القيادة ، وهي خيمة الأمير علي ، تلقاه العميد علي نجيب وهو يقول : أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال : أعلم أنك من أهل الاسلام . ثم دخل وطلب علي نجيب سرّيّـة المذاكرة ، فلما تمّت طلب أن يسمح للقوات التركية بأن تخرج بأسلحتها الى ينبع البحر والى الوجه . فتقرر رد طلبه ، كما تقرر ما يلي :

اولا ـ يسلم فخري باشا نفسه .

ثانيـاً ـ يسلم كل لواء في الجبهات حيـث هوومن ثم يؤ خذون الى الساحل بقوافل محروسة من الجيش العربي .

ثالثاً ـ كذلك القوات التي بالمدينة المنورة تسلم كل قوةٍ في مركزها وتخرج .

رابعاً ـ والقوات التي في العلا وتبوك تسلم هناك وتؤ خذ بقوافل الى الوجه والى ظبا ، وأما الامتعة الخاصة بالضباط فتكون تحت تصرفهم اذا أرادوا بيعها أو أخذها معهم .

خامساً ـ يجري تسليـم الأسلحة العسكريـة الخفيفة والثقيلة بموجب الدفاتر والسجلات المحفوظة .

سادساً ـ يجري التسليم فوراً .

وبعد تنظيم هذه المواد ، جرى التوقيع عليها من الطرفين ، وعاد المفاوضون الأتراك الى المدينة المنورة . وفي الصباح التالي أمر الأمير علي نوري الكويري والشريف أحمد ابن منصور أمير حرب ، بأن يذهبا لعرض شروط اتفاق التسليم على فخري باشا ، واحضاره الى القيادة العامة حسب الشروط فذهبا ، وبقيت القيادة العربية بانتظارهما حتى المساء ، فلم يأتيا . وبعد غروب الشمس بنحو نصف ساعة ، دعا الأمير علي الأمير عبد الله الى خيمته وقال له : لقد عاد أحمد بن منصور ونوري الكويري وحدهما ، أما فخري باشا فانه لما علم بالشرط الاول دخل الحجرة النبوية وهدد قائلاً : « ان أردتم اخراجي عنوة فسأشعل النار في كل العتاد الذي في المسجد ـ وكان الأتراك قد وضعوا المتفجرات في المسجد خشية القصف الجوي ـ وفي هذه الحالة لا يمكن أخذه عنوة ، وانهم على استعداد لتنفيذ سائر الشروط » . وكان الأمير علي مرتبكاً ، فقال له الامير عبد الله : لنتركه في محله ، فقال : « انه لا يُؤْمن وانه ما دام هناك فالخطر منه قائم » .

وفي الحقيقة كانت الحالة لا تدعو الى الارتياح ، وران الصمت على جميع الحضور الى وقت العشاء ، ولما وضع العشاء وانتصف الأكل اذا بأصوات انفجار توحي بأن شيئاً قد ثارت ناره أو انهدام ، فنهض الأمير علي واقفاً وقال موجهاً كلامه للأمير عبد الله : لقد اشعل الخبيث النار في المسجد ، اركب الآن الى جليجلة وافهم الحقيقة ، واعمل على اخذه مهما كلف الأمر .

ركب الأمير عبد الله مع سبعة عشر من رجاله ، الى جليجلة التي تقع في أرض جبلية ، والتي بها مركز اللواء الأول التركي .

وبعد مسيرة دامت ثلاث ساعات ، بلغوا المكان ، واذا ضوء على باب محل محكم ، واذا الغفير يصيح : من هذا ؟ فدفع الأمير عبد الله فرسه واندفع من معه من رجاله نحوه ، فارتبك فأخذوه وسألوه أين مركز اللواء ؟ فقال هو هذا وفيه العميد اسماعيل شكري . فخرج واذا هو ، فقال له أنا الامير عبد الله ، فدهش . . فقال : لا عليك ان لزمت السكينة . . أين الهاتف ؟ اطلب به علي نجيب بك فقال : تفضل .

فدخل الأمير عبد الله وأحضر علي نجيب بك على التلفون ، فقال : من المتكلم ؟ ؟ قال : الامير عبد الله بن الحسين ، قال : كيف ؟ ومن أين تكلمني ؟ قال : من جليجلة طبعاً . قال : واللواء ؟ قال اللواء وقع بيدي . فقال : سبحان الله ! فقال : هذا بفضل الله ، ولكن أين فخري باشا ؟ اليوم موعد تسليمه حسب الشروط ؟! قال : انه كما أخبركم الشريف أحمد بن منصور ونوري الكويري ، دخل الحجرة وهدد بأن ينسفها ان

نحن حاولنا أخذه عنوة . قال : لا أعتقد ذلك . فقال : أتريد أن تقع نكبة في الحجرة ؟ قال : لا بالطبع ، ولكن أريد تنفيذ الشروط ، اليست لديكم حرمة لتواقيعكم ؟ فقال : أتريد أن يقتل من يدخل عليه في ذلك المحل ؟ قال : الذنب عليه وقد قتل عمر ابن الخطاب بين المنبر والقبر . فقال أتريد أن ينسف المسجد ؟ فأجابه : قد احترق المسجد النبوي في التاريخ مرتين ، وان وقع شيء من هذا فسيكون لنا حجة عليكم أنتم الأتراك . والآن أنت تكلم خصمك ، فان لم تنفذ الشروط فسيكون الموقف جد حرج ، حيث تقرر استئصال كل من بالمدينة منكم . فقال : أمهلني نصف ساعة .

وبعد نصف ساعة اتصل بالأمير عبد الله وقال له : بعد المذاكرة تقرر اخراج فخري باشا بأية صورة كانت صباحاً في الساعة الحادية عشرة . فانتظر الأمير عبد الله ورجاله الى الصباح ، وفي الساعة المحددة اتصل علي نجيب بالهاتف مع الأمير عبد الله وقال له : بعون الله ومدد من روحانية رسول الله وبعزم رفاقي الكرام ، تم اخراج فخري باشا من الحجرة النبوية بدون حادث ، وسيق اليكم مع العميد صبري بك في سيارة محروسة ، وسيصل اليكم بعد ساعة وربع .

وبعد ساعة وربع ، وصل فخري باشا الى جليجلة وكان الأمير عبد الله في مركز القيادة ، فقابله حلمي باشا ومعه الشريف شرف لدى سيارته وأخذه الى قائد الجيش الشرقي . فقال له صبري بك ـ بعد أن قدمه ـ هذا الأمير عبد الله . فحياه رافعاً يده الى صدره تحية الدراويش ، فحياه الأمير عبد الله بمثلها ، وأخذه الى الغرفة فجلس جلسة المُغاظ المُحنَق ، فبادره قائلاً : لقد عهدناك شجاعاً في الحرب وأثناء الحصار ، وانه ليسرنا ان نراك صبوراً في مصيبة الأمر ، ففرك بيديه وقال : لا أعارض وان تشكلت حكومة عربية . فقال له : لقد عارضت وانتهت المعارضة ، والآن فان سمو ولي العهد الأمير علي بانتظارنا ، فاذا سمحت نركب اليه بعد أن تتناول الشاي وترتاح قليلاً .

ثم خرج من عنده وترك القائد ابراهيم الراوي معه ، فقال له : هل كنت معنا ؟ أجابه : كنت معكم الى أن أعلن استقلال البلاد العربية فالتحقت بأمتي . وبعد هنيهة رجع الأمير عبد الله واذا به قد اتم تناول الشاي ، وهو كالنمر الهائج ينظر الى ما حوله فلا يرى مخرجاً . فقال له : لتركب ، وركب الأمير عبد الله سيارة فخري باشا ثم اكتنفت الخيل السيارة التي توجهت بهم نحو المدينة المنورة . فلما اجتازا جليجلة اذ بالتحصينات تواجههم فقال له الأمير عبد الله : هل هذه الخطوط الأمامية لكم ؟ فقال : لقد نسيت . ثم أراد الأمير عبد الله ان يداعبه ليخفف عنه وطأة الأسر فقال له : لقد أتحفتم الأميرين علياً وفيصلاً بمنظارين عندما قدمتم المدينة المنورة ، فأين حصتي ؟ فضرب يداً بيد ثم ما.

يده الى معطفه الذي وراءه وتناول منظاره فقدمه الى الأمير عبد الله ، فخجل الأمير عبد الله من هذه البادرة الانسانية وقبل المنظار على شرط أن يأخذ هو ساعته تذكاراً ، فشكر ذلك منه ، ودفع اليه الساعة وكانت ثمينة وأنيقة .

ثم انفجرت احدى اطارات السيارة فتوقف الموكب لتعميرها ، واذا ببدويين يمران ومعهما بعض ما اشتريا من السوق ببئر درويش ، فقال أحدهما للآخر : من هؤلاء ؟ فقال الثاني : هذا عبد الله ابن سيدنا ، والآخر لعله فخري باشا . ثم تقدما مسرعين نحوهما ، وبعد أن سلما على الأمير عبد الله قالا عن فم واحد : هذا فخري باشا ؟ فقال لهما : « إنه هو » فالتفت اليه أحدهما وقال : « أأنت فخري باشا ؟ » قال : نعم . قال : « أمدد يدك أصافحك ، فأنت الشجاع الباسل الذي صدنا عن المدينة المنورة شهوراً عديدة » . فصافحهما ، ثم قال للأمير عبد الله « إن هذه لأكبر مكافأة لي من رجلين لا يؤملان مني أي صلة أو جاه ، فاذا هي الحقيقة وبها الشرف لي » ، وامتلأت عيناه بالدمع فقال له الأمير عبد الله : « إنهما من العرب ، والعرب امة شريفة تقدر الرجال حق قدرهم » .

وتم إصلاح السيارة ، وتابع الموكب المسير ، وإذا بقوة عربية نظامية من راكبي البغال عددها مئتان وخمسون ، يقودها القائد شكري بك الشويحي ، مصطفة للتحية ، وقد جاءت للاستقبال من بئر درويش بأمر من سمو الأمير علي ، فالتفت وقال : هذه القوة عربية ؟ قال الأمير عبد الله نعم . فوازن نفسه وزرر معطفه ثم قابل التحية بتحية عسكرية وقال بالتركية : « هرشي أولمش بتمش » أي أن كل شيء حصل وانتهي . وبدا عليه السرور مما رأى ، لأنه كان يظن أن العرب لا يحسنون تنظيم أنفسهم ..

وصل الموكب الى المضرب الهاشمي في بئر درويش قبل الظهر بساعة فترجل الجميع . وكانت جموع الناس مجتمعة لترى فخري باشا ، فدخل بعد أن صافح الأمير عبد الله قائلاً : إنني سعيد لقبولي في ضيافتكم . واتجه نحو الأمير علي ، وكان قد عرفه قبلاً ، وكان لقاؤهما مزيجاً من العتب والعداء والبرود . فانسحب الأمير عبد الله من الباب الى خيمته ، وقبل أن يغسل وجهه طلبه الأمير علي للمثول بين يديه ، فلما حضر قال له : سعادة الباشا لا يسره فراقك .

وجاءت القوة ، وكان في المضرب كبار الأمراء العسكريين والشرفاء ورؤساء البعثات العسكرية المحالفة . ثم جاء المضيافي وقال : إن خيام الضيف معدة . فنهض فخري باشا وهو يقول : لعلها بجوار الأمير عبد الله ؟ فقيل له : نعم . فخرج وخرج معه الأمير عبد الله وفي الطريق قال له : هل يأمر الباشا بأن نحضر اليه من يحب من الضباط الذين كان

يألفهم ؟ فقال : اترك هؤلاء الخائنين ، لا أريـد منهم أحداً . فافترقا كل الى خيمته . وبعد قليل طلب الأمير علي الأمير عبد الله ثانية فجاءه فقبّل رأسه وقال : إن هذه خدمة لا تنسى لك . . فقبّل الأمير عبد الله يد أخيه الأكبر .

ورغب فخري باشا في السفر عاجلاً ، وسافر في اليوم الثاني الى ينبع بسيارته ومنها بطرادة خاصة الى المعتقل بمصر . أما الامير عبد الله فعاد الى معسكره بالجفر ، وأخذت معاملات التسليـم تتم وفق الشروط ، ثم استدعاه سمو الأمير علي وأمره بالذهاب الى المدينة المنورة ليتولى حفظ الأمن الذي اختل هناك . فجاء الى بئر درويش ، وبعد مبيت ليلة سافر منها الى المدينة ومعه العدد الكافي من الجيش الشرقي لاحتلال الأماكن المناسبة لحفظ الأمن . ودخل المدينة المنورة صباحاً وأمَّ المسجد النبوي ، وكان شعوره الروحي في درجة يعجز الانسان عن وصفها .

ثم نزل في مركز القيادة العثمانية ، وكان الحرس من الأتراك ، وكـان يجلس معهم للفطور والغداء والعشاء ، واصبح قائداً مسؤ ولاً عن الجبهتين المسلِّمة والمستلِمة ، وكأنه لم يحدث أي شيء بين الطرفين . وجرى التسليم وفق الترتيب المقرر ، وكان ترحيل أفواج القوى الميدانية العثمانية من الداخل الى الساحل يجري في الأوقات المعينة بالدقة التامة . مع تأمين كل وسائل الراحة الممكنة .

ومن الجدير بالذكر أن الأمير عبد الله حاول استبقاء العساكر في الخدمة العسكرية بالحجاز ، ولكن الشوق في العودة الى أوطانهم غلب عليهم ، ولما قال لهم : لا سبيل لكم الى الذهاب لأوطانكم فوراً الا بالانضمام الى الجيش العربي الهاشمي ، وان انتم لم تفعلوا هذا فستنقلون الى المعتقلات ، ومتى تتيسر لكـم العودة منها عدتم ، وهذا مجهول التاريخ ، نكص كل واحد منهم عن السفر ، وطلبوا الرجوع الى أوطانهم ، فأعيـدوا مكرّمين عن طريق السكة الى معان فالشام .

ولم يقع من الحوادث المخلة بالأمن شيء يذكر . ثم تم تنظيـم أمر الادارة المدنيـة وعادت المياه الى مجاريها ، وعين سمو الأمير علي بن الحسين اميراً للمدينة المنورة وشيخاً للحرم النبوي الشريف وقائداً للقوات العسكرية المرابطة فيها .

***

الفصل السابع

تحرير بلاد الشام

« بلّغوا جمال باشا ان الملتقى قريب ، وان أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق ابنائك الاتراك .. ان الدول لاتبنى على غير الجماجم وان جماجمنا ستكون اساسا لاستقلال بلادنا »

« الشهيد عبد الغني العريسي » -١-

آ - تحرير الاردن

كان وصول فيصل الى الوجه ، خاتمة مرحلة مهمة من مراحل الثورة ، وكان في الوقت نفسه مقدمة لمرحلة أهم ، وتعني الانطلاق الى خارج حدود الحجاز ، الى بلاد الشام . وكان لهذا الانتقال أهمية كبرى من الناحيتين العسكرية والسياسية ، اذ أن الثورة بدأت تتحول من حالة التوازن الاستراتيجي ، الى حالة الهجوم المعاكس الاستراتيجي بغية الوصول الى دمشق قلب العرُوبة النابض .

أمضى فيصل في الوجه بضعة أشهر بين كانون الثاني وتموز سنة ١٩١٧ يستعد لمعركة تحرير بلاد الشام . وبالاضافة الى التدريبات المستمرة في معسكره ، كان يعمل في الوقت نفسه على كسب قبائل بلاد الشام ، ولم يكن هذا بالأمر اليسير بسبب المنازعات والعداوات القبلية . ولكن سمعة فيصل وخبرته في الشؤ ون القبلية ، ساعدته على

(١) أمين سعيد : « الثورة العربية الكبرى » المذكور سابقا . الجزء الاول . ص ٨٩ . أما عبد الغني العريسي فكان من اعلام النهضة العربية في أواخر الحكم العثماني ، وهو صاحب جريدة « المفيد » التي صدرت في بيروت في ١/١٢/١٩١٢ . وقد حضر مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ وكان أحد أعلامه . ومن كبار أعضاء جمعية « العربية الفتاة » . حكم عليه بالاعدام وشنق في ٦ أيار ١٩١٥ على يد جمال السفاح .

التغلب على الصعوبات وكسب أبرز زعماء القبائل في هذه المناطق ، ويقول أنطونيوس « . . . بدأ فيصل يتألف شيوخ القبائل ، فتعرف في أناة وصبر الى تاريخ منازعاتهم واستمع الى ظلامة كل فرد ، ولم يستنكف من أن ينصت لأي واحد منهم مهما يكن حقيراً أو مهذاراً . وإذا كان النزاع يُسوّى بالمال قدّر قيمة التعويض المطلوب وأدّاه لأهله . فإذا لم يكن الشرف القبلي مما يُردّ بالمال ، لجأ الى التقاليد العربية المتعلقة بالتحكيم والوساطة ، ووقف من النزاع موقف الحكم المحايد الذي لا يحدوه شيء من غاية سوى مصير الجنس العربي[1] . . . » .

واستقبل فيصل في مقرّه في الوجه عدداً من شيوخ القبائل ، أبرزهم عودة أبو تايه شيخ التوايهة وهم بطن من الحويطات قيل فيه أنه « قبيلة في رجل » ، وقد تم التفاهم بسرعة بين الرجلين وسمع فيصل من عودة ما كان يتمناه في أعماقه ويتلهف الى تحقيقه ، فقد عرض عوده مهاجمة العقبة وأبدى استعداده لاحتلالها برجاله[2] .

لم يكتف فيصل بما كان يجريه من اتصالات في الوجه ، بل قرر إرسال سرية من رجاله على رأسها الشريف ناصر بن علي ، أشرك معه عدداً من زعماء الشام ، كنسيب البكري وزكي الدروبي ، كما اشترك فيها لورنس . وكان لهذه السرية مهام متعددة من أهمها متابعة الاتصالات التي كان فيصل يجريها في الوجه ، لإعداد الناس في بلاد الشام لمعركة التحرير وجمع المتطوعين والقيام بمناوشات استطلاعية[3] .

وتشير رسالة الشريف ناصر الى فيصل بتاريخ ٦ تموز عام ١٩١٧ الى أن جهود هذه السرية قد تكللت بالنجاح التام ، بل فاق نجاحها ما كان متوقعاً ، فقد قامت باتصالات واسعة مع عرب بني صخر ، ومشايخ الكرك ، والدروز ، ونوري الشعلان ، وعرب حوران ، وبعض زعماء بلاد الشام ، كما قامت بتخريب عدة أجزاء من الخط الحديدي ، وقد امتد التخريب الى نوى في حوران ، كما نجح الشريف ناصر بمساعدة عرب شرقي الاردن في احتلال العقبة دون خسائر تذكر . وسنقدم فيما يلي وصفاً موجزاً لاحتلال العقبة[4] .

اختار الأمير فيصل الشريف ناصر لقيادة الحملة وكممثلٍ له لدى قبائل الشمال ، وسارت الحملة تقطع الصحراء شرقاً ، ثم انحرفت إلى الشمال بعد أن عبرت سكة الحديد

---

(١) ج انطونيوس يقظة العرب ـ ص ٣١٩ .
(٢) سليمان موسى : المراسلات التاريخية عدد ٦٦ ص ٩٩ من تقرير للامير فيصل الى ولسن المعتمد البريطاني ، وعدد ٦٧ . ص ١٠٠ . برقية من فيصل الى والده الملك حسين .
(٣) سليمان موسى . المراسلات التاريخية المذكورة . عدد ٧١ . ص١٠٣ ـ ١٠٤ . تقرير من الامير فيصل الى الملك حسين .
(٤) المرجع السابق عدد ٨٣ . ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

حتى بلغت وادي السرحان بعد عشرين يوماً . واتصل ناصر وعودة بقبائل تلك الأنحاء ، وتمكنا خلال اسبوعين من تجنيد أكثر من ٥٠٠ متطوع ، أكثرهم من الرولة والحويطات ثم زحفا بهم غرباً . وقد اغارت مجموعة من هذه القوة على خط السكة شمالي الزرقاء ، وفجر لورنس لغماً تحت عبارة ، وذلك لتضليل الأتراك . ثم قامت القوة كلها بالزحف مروراً بآبار باير والجفر ، وعبرت سكة الحديد الى الجنوب من معان . ولم تجد القوة أن في مقدورها مهاجمة معان نفسها ، ولكنها اشتبكت يوم ٢ تموز في معركة عنيفة مع كتيبة تركية في موقع (أبو اللسن) غربي معان . ولأول مرة في تاريخ الثورة قام البدو بمهاجمة مواقع قوة نظامية جيدة التسليح هجوماً مباشراً في وضح النهار . وسرعان ما أسفرت المعركة عن مقتل ٣٠٠ من الأتراك ووقوع ١٦٠ أسيراً في أيدي العرب ، ولم يتمكن من النجاة الا عدد قليل من أفراد الكتيبة التركية[٢] . ولا شك أن هذا النصر يعتبر نموذجاً رائعاً لأساليب العرب في حرب العصابات[١] .

وبادر العرب للسير مباشرة بعد انتهاء المعركة باتجاه الغرب ، على الرغم من افتقارهم الى الطعام الكافي ، وكان القيظ شديداً وقاسياً ، وارتفع الصياح بين المتعبين اللاغبين يسألون الراحة ، ولكن عودة أبو تايه أصم أذنيه دون تلك الصيحات ، وقال إن التأخر عن مهاجمة العدو قد يؤدي الى الموت جوعاً ، وحث رجاله ـ دون هوادة ـ على المسير ، وخلال الأيام الثلاثة التالية استولوا على ثلاثة مواقع تركية ، وأسروا جنود حاميتها . وفي يوم ٦ تموز كان ثغر العقبة في أيديهم بالإضافة الى ٧٨٠ أسيراً بينهم ٣٥ ضابطاً ، ولم يكن قتلى العدو يقلون عن ٦٠٠ رجل . ودخلت القوات العربية العقبة ظامئة ساغبة منهكة ، وهي تزجي أمامها قطيعاً من الأسرى يفوقها عدداً[٢] .

كان احتلال العقبة نقطة انعطاف في الثورة العربية ، اذ كانت الثورة حتى ذلك الحين تتخذ من الحجاز مسرحاً لها ، وكانت الامدادات التي تنضم إليها جميعاً من أبناء القبائل الحجازية ، ولكن الميدان انتقل بعد سقوط العقبة الى بلاد الشام ، وواجه جيش فيصل

---

(١) سليمان موسى : الحركة العربية . ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(٢) جاء في التاريخ الرسمي للحرب في انكلترةوصفٌ حيّ لهذه الاغارة : « عند الغروب جمع عودة خمسين خيالا في جوف واد على بعد ٢٠٠ ياردة من الموقع التركي وقام بهجوم مباغت ، فتضعضع الترك ، وعندئذ انحدرت اليهم بقية العرب على الجبال من أعلى التل ، فانتهت المعركة في خمس دقائق ، واحصى النقيب لورنس ٣٠٠ قتيل من الاتراك في الميدان واستطاع بما بذله هو والشريف ناصر من جهود ان ينقذ من الموت ١٦٠ رجلا ويأخذهم اسرى . أما العرب فقتل منهم اثنان ووقع بضعة منهم جرحى ، وذلك هو كل ما خسروه » . التاريخ الرسمي للحرب . . العمليات العسكرية في مصر وفلسطين ج ١ ـ ص ٢٤٠ .

(٣) سليمان موسى : المراسلات التاريخية . عدد ٨٦ . ص ١٢٩ ـ ١٣٠ وراجع كذلك كتاب ريتشار الدنجتون : لورانس في البلاد العربية . ترجمة محمود عزت موسى . مراجعة الدكتور محمد أنيس ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . عام ١٩٦٦ ـ القاهرة ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

تحولاً في وظيفته وتكوينه فأصبح هو الجناح الأيمن للقوات البريطانية[1] ، وفيه كتائب « نظامية » مدربة ، وغدت مهمته بعد ذلك ان يحارب في بلاد الشام طبقاً لخطط الجنرال اللنبي .

وقرر المسؤولون البريطانيون في مصر ، أن يجعلوا عمليات العرب في العقبة وجهات معان ، ضمن مسؤولية الجنرال اللنبي لتنسيق الخطط العسكرية في الميدان السوري .

كان لسقوط العقبة على هذا النحو أهمية كبيرة . وكان فيصل متلهفاً على احتلالها ، وكان يتعجل ارسال الامدادات العسكرية والمالية ، وكان إلحاحه الآن ينصب على توفير الجند العربي والنظامي من أسرى الحرب ولا سيما السوريين والعراقيين ، وكان طموح فيصل أن يسرع بالوصول الى جبل الدروز ليعجل في نشوب الثورة في جميع سورية . كان يريد أن يحول قواته من قوات تخريب محلية للسكة الحديدية ، الى قوات تحرير . ولكن بريطانيا أمسكت يدها عن تقديم ما يلزم[2] . وكان منطلق بريطانيا ناجماً من مفهومها لدور الثورة العربية ، ولغاياتها (غايات بريطانيا) السياسية التي رسمتها مع حليفتها فرنسا ، اذ كانت تريد لجيش الثورة العربية أن يلعب دوراً محدوداً مساعداً للدور الأساسي الذي تقوم به القوات البريطانية ، ولم يكن من صالح بريطانيا أن يحقق الجيش العربي انتصارات كبيرة ، وان يلعب دوراً فعالاً في تحرير بلاد الشام ، كي لا يتحول هذا الجيش فيما بعد الى قوة معنوية وعسكرية ، تحول دون تحقيق الأهداف التي رسمتها بريطانيا في اتفاق سايكس ـ بيكو ، ولهذا كله ، عمدت الى الاقلال ما أمكن من إمداد الجيش العربي بالسلاح والمال ، والى الحد من حركاته العسكرية ومن نمو قوته الذاتية[3] . وكان صدمة كبيرة لبريطانيا أن يتم تحرير العقبة بقوة عربية دون مساعدة بريطانيا ، في الوقت الذي كانت عملياتها في شبه جزيرة سيناء تسير ببطء شديد ، كما أخفقت عدة هجمات قام بها الجيش البريطاني على غزة . ولهذا سرعان ما تدخلت لتجميد فيصل في العقبة ، حتى

---

(١) لم تكن القوات البريطانية التي يقودها الجنرال اللنبي كلها انكليزية بل كان سكان المستعمرات التابعة للتاج البريطاني يشكلون النسبة الغالبة .

(٢) انظر سليمان موسى ، المراسلات التاريخية عدد ٩٦ . ص ١٤٤ ـ ١٤٥ . تقرير من فيصل الى الملك حسين . ولزيادة المعلومات بالتفصيل راجع سليمان موسى : الحركة العربية ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥ .

(٣) كان الشريف حسين يحث مكماهون حول التقدم نحو الشمال « ان الشمال هو المهم ، ولكن مكماهون لم يكن متعجلا وفي ١ آذار كتب الرائد فيكري الى مدير المكتب العربي يقول أن فيصل مهتم أشد الاهتمام بالاستيلاء على العقبة بقواته لما سيكون لذلك من تأثير طيب على السوريين وان قبائل الحويطات طلبوا ذلك منه ، وان فيصل يطلب أن تساعده السفن البريطانية بنقل رجاله بحرا . وأجاب كلايتون في ٨ آذار قائلا : ان تقدم فيصل الى العقبة غير مرغوب فيه حاليا خشية ان يتحول اهتمامه عن قطع خط السكة الحديدية الذي هو الهدف فضلا عن ان السفن غير جاهزة » .

يتسنى لقائدها الجديد اللنبي إحراز التقدم المنشود في جنوب فلسطين ، كما قيدت تحركات فيصل وجيشه بأوامر اللنبي[1] .

وقرر أولئك المسؤ ولون الاتصال بالملك حسين ، للحصول على موافقته من أجل نقل جيش فيصل الى العقبة ، واخراج ذلك الجيش من نطاق عمليات الحجاز التي يشرف عليها الملك ، الى نطاق مسرح عمليات الجنرال اللنبي . وأسندت المهمة الى لورنس النجم الصاعد في مصلحة الاستخبارات البريطانية . وحمل لورنس رسالة من ونجت الى الملك وسافر الى (جيدا) فأخذ رسالة أخرى من فيصل يوصي فيها بالانتقال الى العقبة . وواصل لورنس رحلته الى جدة ، وهناك بعث ولسون بتاريخ ٢٢ تموز رسالة الى الملك في مكة ، يرجوه فيها ملاقاتهما في منتصف الطريق بين مكة وجدة (لتعذر وصول المسيحيين الى مكة المكرمة) ، للبحث في الخطط المقبلة . وجاء الملك الى جدة بعد يومين ، ووافق على ما عرضه عليه ولسون ولورنس من مقترحات معلناً ثقته ببريطانيا واطمئنانه لنياتها الطيبة نحو العرب[2] .

وأخذت قطعات الجيش الشمالي تنتقل براً وبحراً الى العقبة ابتداءً من أوائل آب ، وهي تشمل حوالي ١٥٠٠ جندي نظامي بقيادة جعفر العسكري[3] ، وتضم مفرزة فرنسية . وفي ٢٣ آب وصل فيصل الى العقبة ، وانتشرت القوات العربية في التلال الواقعة بين معان والعقبة . وكان عودة أبو تايه قد تولى مسؤ ولية صد الهجمات التي قام بها الأتراك حتى وصول قوات الجيش الشمالي .

فوجىء الأتراك بسقوط العقبة في أيدي العرب - والكلام لسليمان موسى - ، فصمموا أن يبذلوا كل ما في وسعهم لاستعادتها ، ولعلمهم أن عودة أبو تايه هو الذي كان على رأس العملية وهو الذي نفّذها ، فقد أرسلوا اليه الرسل يغرونه بالانقضاض على الشريف حسين ، والانضمام الى صفوفهم ، ويعدونه بالاموال الطائلة وبمركز مرموق . ولكن عودة رفض أن ينقض عهده مع الشريف . وأسرع الأتراك الى حشد قواتهم في معان وجلبوا بضع طائرات ، ثم زحفوا باتجاه العقبة في منتصف آب ، ولكن عودة أبو تايه ورجال

---

(١) سليمان موسى : المراسلات التاريخية عدد ٩٦ . ص ١٤٤ . تقرير الشريف فيصل الى الملك حسين .

(٢) سليمان موسى : المراسلات التاريخية . عدد ٨٧ - ص ١٣٠ . تقرير من ولسن الى الملك حسين .

(٣) جعفر العسكري (١٨٨٤ - ١٩٣٦) عراقي تخرج من المدرسة الحربية في استانبول ثم أوفد في بعثة تدريبية الى المانيا . وفي سنة ١٩١٥ قاد قوات السنوسي في برقة في عدة معارك ضد القوات الانكليزية حتى وقع في الأسر . وحاول الفرار فسقط وكسرت رجله . وعندما بلغته أنباء الثورة العربية تطوع في حزيران ١٩١٧ للخدمة فيها وعينه فيصل قائدا لقواته النظامية . أثناء العهد الفيصلي ، عين حاكما لعمان ثم واليا على حلب . وفي العراق عين وزيرا للدفاع ثم رئيسا للوزراء ثم سفيرا للعراق في لندن . اغتيل غدرا في أول انقلاب عسكري في العراق سنة ١٩٣٦ . كان جعفر يجيد عدة لغات وقد درس الحقوق في لندن وحصل على اجازة المحاماة . (سليمان موسى . الحركة العربية ص ٣٠٤) .

القبائل صدوهم ولم يمكنوهم من التقدم . وبعد وصول قوات فيصل الى العقبة ، أرسل مفارز منها الى وادي موسى (البتراء) والى غرندل والى التلال المشرفة على العقبة . وفي ايلول جاء الانكليز بعدد من الطائرات التي أخذت تغير على معان رداً على طائرات الترك التي كانت تغير على العقبة .

وانتقل الى العقبة الرائد جويس ، وأنشأ فيها قاعدة للتموين والامدادات . وكانت سفينة حربية بريطانية قد رابطت في مينائها لحمايتها فيما اذا نجح الأتراك في هجومهم المعاكس وتمكنوا من اجتياز التلال المشرفة عليها من الشرق . أما لورنس فقد قام خلال شهري ايلول وتشرين الأول بعمليتين ناجحتين ضد الخط الحديدي . الأولى الى الجنوب من محطة المدورة وقد نسف فيها قاطرتين وعبّارة يوم ١٩ ايلول وقتل العربُ وأسروا وجرحوا من الأتراك حوالي ١٧٠ رجلاً . والثانية على الكيلو متر ٥٠٠ جنوبي معان ، وقد نسف فيها قاطرة يوم ٦ تشرين الأول . وقام نفر من قبيلة بني عطية بهجوم قوي على خط السكة حول تبوك ، فاحتلوا مسافة من الخط خلال مدة أربعة أيام (١٨ - ٢١ تشرين الأول) ونزعوا كمية من القضبان ، وألحقوا بالعدو خسارة ٢٥٠ رجلاً بين قتيل وأسير .

ودارت عدة معارك بين الأتراك والجيش الشمالي في خريف ١٩١٧ ، ففي ايلول شنّت كتيبة تركية هجوماً على مواقع العرب في دلاغة ، ولكنها اضطرت للتراجع بعد معركة عنيفة ، وفي أواخر الشهر ذاته ، استولى العرب على الشوبك ، ونزعوا جانباً من خط السكة الفرعي (الذي كان الأتراك ينقلون عليه خشب الاشجار التي يقطعونها من غابة الشوبك ليستعملوه وقوداً للقطارات) . ولكن الأتراك قاموا بهجوم معاكس ، فردوهم الى وادي موسى . وفي ٢١ تشرين الاول قاد جمال باشا حملة قوية على العرب في وادي موسى ، تعززها الطائرات والمدفعية الثقيلة ، وبعد معركة حامية استمرت يوماً كاملاً ، اضطر الأتراك للانسحاب بعد ان خسروا ٤٠٠ رجل بين قتيل وأسير وجريح . وكانت القوة العربية المدافعة أصغر بكثير من قوة جمال باشا .

وفي ٢ تشرين الثاني وصل الأمير زيد الى العقبة على رأس ١٥٠٠ جندي نظامي ، وظل الى جانب أخيه فيصل في ميدان شرقي الاردن حتى انتهاء الحرب .

وعلى الرغم من شدة البرد في فصل الشتاء لتلك السنة ، فإن العمليات الحربية استمرت على أشدها . ففي أواخر تشرين الثاني اشتبك العرب والأتراك في معركة حامية قرب القويرة ، انتهت بارتداد الترك الى الوراء . واستأنف العرب القتال ، فاجلوا الأتراك عن وهيدة وتمكنوا من الاحتفاظ بها على الرغم من الهجمات المعاكسة[1] .

---

(١) سليمان موسى : الحركة العربية ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .

٢ ـ معركة الطفيلة ومعان :

عندما استولت قوات الأمير فيصل على العقبة في ١٧ تموز ١٩١٧ ، وانتقل بنفسه اليها في الشهر التالي وجعلها مقراً لقيادته ، بادر يطلب الى أبيه أن يشد أزره بأخيه زيد وبالشريفين شاكر وشرف مع القوات التي بامرتهم . ولم يقترن هذا الطلب بموافقة القائد الأعلى للثورة العربية الكبرى ، نظراً لضرورة بقاء شاكر وشرف لميدان الحجاز . . . ولكنه أمر زيداً أن يلتحق بأخيه .

أبحر الأمير زيد من ثغر الوجه فبلغ العقبة (مقر قيادة الجيش الشمالي) يوم ٣ تشرين الثاني ١٩١٧ ومعه ألف وخمسمائة مقاتل . وفور وصوله تولى مسؤوليات القيادة الى جانب أخيه فيصل ، وعمل كساعد أيمن له حتى انتهاء الاعمال القتالية . وكانت جبهة الجيش الشمالي يومذاك تمتد من العقبة الى القويرة الى دلاغة وحتى وادي موسى[1] .

وفي اوائل شهر كانون الثاني ١٩١٨ تولى الأمير زيد القيادة العامة لثلاثة أرتال زحفت من القويرة باتجاه الشمال . وكان الرتل الأول بقيادة الشريف مستور يعاونه فخذ الجازي من عشيرة الحويطات ، وعلى رأسهم الشيخ حمد بن جازي ، ووجهته الطفيلة . وكان الرتل الثاني بقيادة الشريف ناصر ومعه نوري السعيد (رئيس آركان حرب القوات النظامية) بالتعاون مع فخذ التوايهة من عشيرة الحويطات ، إضافة الى عشائر بني صخر ، ووجهته محطة جرف الدراويش . أما الرتل الثالث فقد كان بقيادة الشريف عبد المعين ووجهته الشوبك[2] .

بعث الأمير فيصل بتعليماته الى الأمير زيد في ١٦ كانون الثاني ١٩١٨ ، ومؤداها أن يكون بنفسه على رأس القوات المتقدمة الى الشمال . وأن يبقى في « الطفيلة » بعد الاستيلاء عليها ، وأن لا يتجاوزها حتى تتوفر المبالغ الكافية من المال ، كما طلب الى أخيه زيد أن يكون حذراً من التناقس بين زعماء الحويطات عودة أبو تايه وحمد بن جازي . كما طلب اليه أن يتحرك الشريف عبد الله بن حمزة الفعر الى غور المزرعة للاستيلاء عليها ، وينزل أريحا اذا أمكن أو أية نقطة يمكنه الوصول إليها بدون خطر ، وأن ينسق حركاته مع حركات الأمير زيد[3] .

---

(١) سليمان موسى : المراسلات التاريخية . عدد ٩٦ ـ ص ١٤٤ . تقرير من فيصل الى الملك حسين .

(٢) سليمان موسى : « الثورة العربية الكبرى » ـ الحرب في الاردن ١٩١٧ ـ ١٩١٨ ـ مذكرات الأمير زيد . عمان الطبعة الأولى ١٩٧٦ ص ١٩ ـ ٢٠ . وسيذكر هذا الكتاب في الصفحات القادمة بعنوان « مذكرات الامير زيد » .

(٣) سليمان موسى مذكرات الأمير زيد ـ رقم ٣ ـ ص ٥٢ ـ ٥٣ ـ رسالة من الامير فيصل الى الامير زيد ، القويرة ٣ ربيع الثاني ١٣٣٦ ـ ١٦ كانون الثاني ١٩١٨ .

ان نظرة فاحصة لمضمون هذه الرسالة ، تدلنا دلالة أكيدة على أنها توجيهات عملياته من قائد الجبهة الشمالية في الثورة العربية الكبرى ، الى قائد إحدى القطاعات الهامة ، وفي هذا دليل على ما كان يتمتع به الأمير فيصل بن الحسين من معرفة وحنكة في العلم العسكري . وزحفت الأرتال الثلاثة في وقت واحد تقريباً ، بينما سار الأمير زيد (ومعه جعفر العسكري) قائد القوات النظامية ، عن طريق أبا اللسن باتجاه الطفيلة ، ومعه قوة من المدافع والرشاشات . ويمكننا أن نعتبر هذه القوة بمثابة الاحتياط العملياتي لقائد الحملة يمكنه أن يزجه على أي اتجاه من اتجاهات الأرتال الثلاثة . . ومن وادي موسى تحرك زيد الى الشوبك (نجل) ، وفي الوقت نفسه كانت قوة الشريف ناصر قد استولت على محطة جرف الدراويش في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩١٨ بعد معركة حامية ، سقط فيها من الأعداء ثمانون قتيلاً ومائتا أسير .

وقد وصف هذه المعركة أحد الضباط العرب الذين شاركوا فيها وهو (عبد الفتاح أبو النصر اليافي) ، فقال ما خلاصته[1] :

هاجمنا المحطة مع الفجر . وبعد ظهور الشمس بدأ (راسم سردست) يقصفها بمدفعيته . وأصابت إحدى القنابل مدفعاً للأتراك فتعطل ، وقامت القوات العربية بالهجوم ، فانسحب الأتراك الى واد منخفض شرقي المحطة ، وجاء راسم على ظهر فرسه ، ففحص المدفع ووجده سليماً الا أنه بحاجة إلى (منتاش[2]) ، وقد استطاع أن يعيد المدفع للعمل باستخدام قطعة من مسدسه . وكان مربض المدفع قريباً من الأتراك فأدار فوهة المدفع باتجاههم ، وأخذ يصب نيرانه عليهم ، فكان ذلك هو السبب الأكبر لاستسلامهم . ثم وصل نوري السعيد وكان عدد الأسرى نحو ٢٠٠ أسير . وحافظت القوات العربية على الأسرى ، ولم تلحق بهم أي أذى ، منفّذةً بذلك توجيهات قائد الجيش الشمالي الأمير فيصل بن الحسين[3] .

وقد اشترك في المعركة بنو صخر بقيادة الشيخ مفلح القمعان ، الذي أصيب بجرح في رجله وأصيبت فرسه ، كما اشترك فيها حويطات التوايهة بقيادة عودة أبو تايه . وكانت بين القبيلتين خصومة وغزوات متبادلة فآخت الثورة بينهما . وبلغ عدد القوات العربية التي شاركت بالهجوم حوالي ألف مقاتل .

---

(١) عبد الفتاح ابو النصر اليافي : مذكرات قائد عربي ، نشرت مسلسلة في جريدة لسان الحال في بيروت .

(٢) المنتاش : النازع (Extractor) .

(٣) كان الامير فيصل - بالاضافة الى توجيهاته بعدم الحاق الاذى بالاسرى - يدفع عشر ليرات انكليزية ذهبا لكل جندي عربي يسلمه اسيراً تركياً كحافز مادي اضافة الى الحافز المعنوي . راجع مذكرات الامير زيد : ص ٢٠ .

أما حامية الطفيلة فكانت تتألف من مائة وخمسين جندياً ، ولكن موقف هؤلاء كان مرهوناً إلى حدٍ كبيرٍ بموقف أهل البلدة . فاذا علمنا أن قائد الحامية وهو النقيب زكي الحلبي[1] كان على اتصال سابق مع الأمير فيصل ، وأن الشيخ ذياب العوران كان بدوره قد أرسل ابنه عبد السلام الى الأمير فيصل يدعوه إلى التقدم نحو البلدة ، أدركنا حقيقة الموقف العسكري حينذاك ،ولهذا فقد اختارت الحامية التركية أن تستسلم عندما أقبل ناصر من الشرق وأقبل مستور من الغرب . ورفعت الراية العربية في الطفيلة يوم ١٥ كانون الثاني ١٩١٨ .

بدأ الأمير زيد عمله في الطفيلة بتنظيم القادرين على حمل السلاح ، وتسجيلهم متطوعين في صفوف الثورة ، وتوزيع المكافآت المالية على شيوخ الناحية وزعماء العشائر ، ثم أرسل مستوراً الى وادي الحسا لانشاء نقطة أمامية متقدمة باتجاه الكرك ، كما أرسل عدة رسائل الى شيوخ الكرك يدعوهم فيها لمعاضدة الثورة .

أثار سقوطُ الطفيلة قلقَ الأتراك وذعرهم ، وصاروا يخشون أن يحدث الاتصال بين الجيش العربي والجيش البريطاني بالقرب من بلدة مأدبا ، وقرروا استرداد الموقع ، واختاروا لواء يتألف من ثلاث كتائب وهو من ملاك الفرقة ٤٨ التي تعسكر في عمّان واختاروا له قائداً (حامد فخري بك ، بطل معركة بوخارست) ، وعُزّز اللواء بـ ٢٧ مدفعاً رشاشاً ومدفعين جبليين من أحدث ما أنتجته مصانع النمسا ، اطلق عليه الأتراك أسم « قدرتلي » ، ومدفعي ميدان (لم يجر استعمالهما بسبب وعورة الطريق) وسرية خيالة . وقد تحركت هذه القوة نحو الطفيلة عن طريق القطرانه والكرك وعندما وصلت وادي الحسا الكبير[2] ، وأثناء اجتياز هذه القوة للوادي قام الشريف مستور بمناوشتها

---

(١) زكي الحلبي (١٨٧٠ - ١٩٢٦) ولد في دمشق ، وتخرج ضابطا في الجيش العثماني من المدرسة الحربية في استانبول (الأستانة) - تدرج في مختلف الرتب العسكرية الى ان بلغ رتبة (قائد) عند اندلاع الحرب العالمية الأولى / ١٩١٤/ ، وعين حاكما عسكريا في اليمن .
- التحق بالثورة العربية الكبرى منذ ان اعلنها الشريف حسين بن علي وكان بذلك من اوائل الضباط الذين رافقوا الجيش العربي في زحفه لتحرير البلاد العربية من الحكم العثماني بقيادة الامير فيصل .
- رفع الى رتبة عقيد بأمر من الملك فيصل بعد تتويجه ملكا على سوريا وكان من ضمن اعضاء قيادة الامير زيد بن الحسين .
- اتهم من قبل سلطات الانتداب الفرنسية ، حينما كان قائدا للشرطة السورية في منطقة حوران بتشجيعه للعناصر الوطنية التي قامت بقتل علاء الدين الدروبي رئيس وزراء سوريا المعين من قبل الافرنسيين في ذلك الحين ، فحوكم واحيل على التقاعد .
- عندما نشبت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، التحق بها ، وسمي قائدا عسكريا في منطقة الغوطة بدمشق .
- شارك في اكثر معارك الثورة الى ان استشهد في معركة ام الشراطيط (غوطة دمشق الجنوبية) عام ١٩٢٦ .

(٢) مذكرات الامير زيد رسالة من الامير فيصل الى الملك حسين - القويره ٦ شباط١٩١٨ - رقم ١٣ - ص ٦٢ - ٦٣ . تقرير من الامير فيصل الى الملك حسين .

والاصطدام بطلائعها[١] . وعندما بلغت هذه القوة الجوانب العليا من الوادي صباح يوم ٢٥ كانون الثاني ١٩١٨ ، كان الارهاق والاعياء قد أخذ مأخذه من رجالها ، وقد فوجئوا بجماعات وحشود من القوات العربية تطلق عليهم النار من هنا وهناك . . وربما يعود السبب في مفاجأة القوات التركية ، الى أن العميد حامد فخري لم يكن يتصور أن العرب يمكنهم أن يتجرأوا على الوقوف أو التصدي لقواته النظامية المجهزة بالاسلحة الفعالة . . ولذلك فقد اصيب بالدهشة ، عندما لاحظ المزيد من المحاربين العرب يتمركزون في التلال الى يمين قوته والى يسارها . . ويطلقون عليها النار من خلف الصخور . . ويقتربون نحوها شيئاً فشيئاً . .

بينما كان الموقف العسكري على النحو الذي ذكرناه . . تقدمت عند الظهيرة قوة من الجنود العرب النظاميين من الطفيلة تقدر بخمسين فارساً ومائتي متطوع من القرويين ، ومعهم خمسة رشاشات وأربعة مدافع ميدان ومدفع جبلي واحد وعلى رأسها الأمير زيدابن الحسين ، ومن ضباطها راسم سردست وعبد الله الدليمي . وكان يساند هذه القوة ويعاضدها رجال الطفيلة والقرى المجاورة وخاصة قرية (عيمة) وكذلك فرسان الحويطات (المطالقة) وعلى رأسهم حمد العرار الجازي الذي أقسم : « أن يضحي بنفسه في سبيل القضية العربية » .

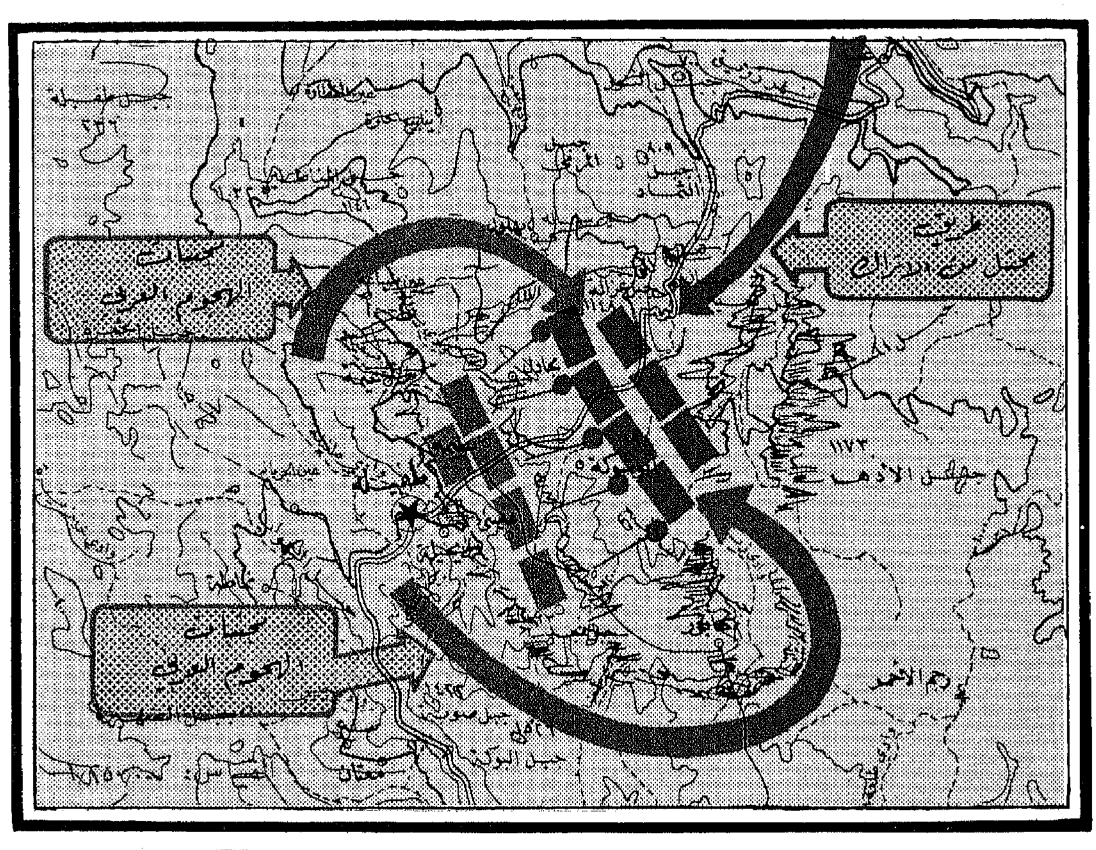
كان ميدان المعركة سهلاً صغيراً تحيط به سلاسل من التلال المخضوضرة ويمر فيه طريق طفيلة ـ الكرك . . كان الأتراك يسيرون على الطريق ببطء شديد نتيجة لتعبهم وارهاقهم ، وهم يردون على النيران العربية التي كانت توجه اليهم .

تولى الأمير زيد قيادة المعركة ، فبعث راسم سردست على رأس الخيالة ليهاجم العدو ناحية اليمين ، بينما تقدم حرس زيد الخاص وهم من العقيلات وعلى رأسهم محمد الغضيب من الوسط . أما الميسرة فقد تألفت من رجال قرية عيمة ، وتولى قيادة مفرزة الرشاشات الضابط صبحي العمري ، بينما تولى قيادة المدافع عبد الله الدليمي ، ووضعها خلف تل مشرف يرتفع حوالي ٤٠ قدماً عن ميدان المعركة ، وكان يرصد بمنظاره نيران المعركة من على قمة التل . .

وحملت القوة العربية على القوة التركية حملة صادقة، وفوجيء الأتراك بالنيران من الخلف والأمام . . فلم يعودوا يدرون ماذا يفعلون ، وعندما بدأ الموقف يميل الى صالح العرب ، أصدر الأمير زيد أوامره الى كافة رجاله بالهجوم . . والضغط على الأتراك ،

---

(١) وهو ما يطلق عليه في العلم العسكري بعمليات الاعاقة .



خطوط الهجوم التركي	▬ ▬ ▬
خطوط العرب الدفاعية	▬ ▬ ▬

معركة الطفيلة

وحمل محمد القصيب راية بني عقيل وصاح في رجاله الله أكبر ، واندفع كالسهم يمزق صفوف الأتراك ، وفي نفس الوقت الذي كان راسم سردست وفرسانه يرغمون العدو على التقهقر نحو الوادي ، كان الرجال الآخرون من القوات العربية يحصدون الجنود الهاربين من الاعداء حصداً . . « وهكذا بدأت القوة الرئيسية التركية بالتراجع مذعورة من هجمات فرسانا ومشاتنا ، الذين كانوا يغيرون عليها بقلوب عامرة بالايمان وثقة لا تتزعزع بالنصر . . »[1]

كانت حصيلة المعركة الضارية ، التي أسفرت عن انتصار القوات العربية ، كما وردت في رسالة الأمير فيصل الى والده الملك حسين في شباط عام ١٩١٨ . على النحو التالي :

٤٠٠ قتيل بينهم قائد الفرقة حامد فخري .

٣٢٠ أسير بينهم ١٧ ضابطاً ومن جملتهم قادة الكتائب .

٢٠٠ من الخيل والبغال .

٢٢ رشاشاً .

٢ مدفع نمساوي .

وخيام وآلات هاتف ومعدات أخرى مختلفة .

ولم ينج من الأتراك الا نفر قلائل استطاعوا الهرب نحو الخط الحديدي .

وفيما كانت القوات العربية المظفرة عائدة الى الطفيلة ، أخذ الثلج يتساقط كتحية من السماء الى الجنود العرب الأوفياء[2] .

بعد ثلاثة أيام من معركة الطفيلة ، نظم الأمير زيد إغارة ناجحة على ميناء الكرك (غور المزرعة) الواقع على شاطىء البحر الميت ، وكان الهدف الرئيسي للاغارة تدمير الزوارق التركية الراسية هناك . والتي كانت تعمل على نقل المؤن عبر البحر الميت الى القوات التركية في أريحا .

---

(١) مذكرات الامير زيد ـ ص ٢١ ـ ٢٢ وتقرير الامير فيصل الى الملك حسين عدد ١٣ ـ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) شهد النقيب لورنس هذه المعركة كمتفرج اوكمراسل صحفي ـ لا اكثر ولا أقل ـ وكان يتنقل بمنظاره من موقع الى آخر ، وما أن انتهت المعركة لصالح القوات العربية حتى أرسل تقريرا الى رؤسائه يخبرهم فيه ببلائه الحسن وقيادته الحكيمة للمعركة وتخطيطه السليم لها فنال وسام الاستحقاق وثناء القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الاوسط . ولكن الحقائق التاريخية وخصوصا مراسلات الامير زيد تدحض هذا الزعم . (راجع مذكرات الامير زيد ص ٢٢) .

أسند الأمير زيد هذه المهمة الى عبد الله الغير ، الذي اختار لمساعدته في تحقيق الهدف حوالي سبعين فارساً من بدو بئر السبع ، وسار على رأسهم ، قاطعاً الطريق الوعرة بين جبال مؤاب والساحل ، لكي يصل مع التباشير الأولى للفجر الى مقربة من المركز التركي . وعلى المكسر الشمالي من الميناء كانت ترسو الزوارق البخارية والمراكب الشراعية التابعة للأتراك ، وبالقرب منها بحارتها النائمون على الشاطىء في أكواخ من القصب ، غير عابئين بشيء ، وبدون أن يضعوا أية حراسة قتالية على أنفسهم أو على عتادهم .

لم يكن هؤلاء البحارة الأتراك مستعدين أبداً لمعركة برية ، فكيف بها تأتيهم على يد فرسان راكبين . لذلك ما كاد هؤلاء البحارة يفتحون عيونهم ليعرفوا ما الخبر ، حتى رأوا الفرسان العرب يطوقونهم ، ويحرقون أكواخهم ، ويستولون على ما في مخازنهم من مؤ ن وعتاد حربي . . ثم قفز الفرسان العرب عن خيولهم الى الزوارق الراسية فثقبوها وأغرقوها . . واستسلم الأتراك دون أية مقاومة تذكر « وعاد رجالنا مكللين بالغار ، وهم يجرون وراءهم الغنائم ، بالاضافة الى ستين أسير تركي . وهكذا تم في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٨ تعطيل حركة النقل عبر البحر الميت قبل اسبوعين من التاريخ الذي حددته قيادة الجيش الشمالي[١] » .

رفع الاستيلاء على الطفيلة من معنويات الجيش العربي ، وحقق بعض آماله ، وتشير رسالة فيصل الى والده بتاريخ ٦ شباط ١٩١٨ ، الى أنه يأمل بزيادة اتساع الجبهة ، بحيث تصل حركات جيشنا الى جبل الدروز ، والى ما بين دمشق وحلب ، من أجل تخريب جسر الرستن على نهر العاصي ، كما يأمل أن يقاتل العدو هناك . وأشار الى كثرة عدد المتطوعين[٢] ، ولكن رسائل فيصل وزيد كانت في الوقت نفسه تشير الى الصعوبات الحادة ، التي كانت تواجه القوات العربية ، بسبب الافتقار الى وسائط النقل والعتاد والمال ، وتقاعس البريطانيين عن تقديم ما يلزم من مساعدة ، أضف الى ذلك متاعب الشتاء القاسي ، واستعدادات الأتراك الواسعة للقيام بهجوم معاكس .

وفي شهر شباط ١٩١٨ حشد الأتراك قوة هجومية كبيرة ، تدعمها عناصر المانية وطائرات ، بقصد استعادة المواقع التي خسروها . وزحفت القوة التركية في رتلين بدءاً من خط سكة الحديد باتجاه الطفيلة . وبعد اشتباكات استمرت خمسة أيام استعاد الأتراك الطفيلة يوم ٧ آذار وانسحب زيد الى الشوبك . ولكن ضغط الجيش البريطاني الذي كان قد استولى على أريحا في ٢١ شباط ، والذي قام بهجمات قوية على مواقع الأتراك قرب نهر

---

(١) سليمان موسى : مذكرات الامير زيد رقم ٧ ، ٩ - ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) مذكرات الامير زيد رسالة الامير فيصل الى الملك حسين ٦ شباط ١٩١٧ . رقم ١٣ - ص ٦٣ .

الاردن في أوائل آذار ، اضطرهم الى الانسحاب من الطفيلة في ١٨ آذار فعـاد العـرب اليها . وقام الجيش البريطاني بهجوم على عمان والسلط فاستولى على هذه الأخيرة في ٢٥ آذار ولكنه ما لبث أن أرغم على الانسحاب منها .

في أوائل نيسان ١٩١٨ كانت استعدادات العرب لمهاجمة معان قد تمت ، فطلب الأمير فيصل من أخيه زيد أن يحضر الى أبو اللسن لكي يشترك في العمليات المقبلة .

بدأ هجوم العرب الكبير يوم ١١ نيسان ١٩١٨ بالتعاون مع المفرزتـين البريطـانية والفرنسية ، وقد أحرز الهجوم نجاحاً باهراً الى الجنـوب من معان ، وعزلـت معان من الشمال أيضـاً . وقـد تولى نوري السـعيد قيادة الهجـوم في الجنـوب ، كما تولى جعفـر العسكري قيادة الهجوم من الشمال . كما قام النظاميون بقيادة مولود مخلص بمهاجمة تلول السمنات قرب معان ، فاستولوا عليها ، وقد أصيب مولود بجراح خطيرة أثناء المعركة التي أبلى فيها بلاء حسناً . ولكن القوات العربية لم تتمكن من الاستيلاء على البلدة ذاتها ، لقوة تحصينات العدو من جهة ، ولعدم توفر الدعم المدفعي الكافي من جهة ثانية .

وتولى الأمير زيد قيادة القوات التي أخذت على عاتقهـا الاسـتيلاء على المحطـات الواقعة الى الشمال من عمان ، من أجل منع وصـول التعـزيزات والمؤ ن الى حاميتهـا . وقامت قواته بهجمات عديدة على محطات الجردونـة وعنيزة وجـرف الـدراويش والحسـا وفريفرة والقطرانة . وفي ١٤ نيسان اتصلت القوات العربية مع بعضها ، وتولى جعفـر العسكري القيادة العامة . بعد هذا قرر الأمير فيصل القيام بالهجوم على معان ذاتهـا ، وبعد تمهيد مدفعي زحفت المشاة يوم ١٥ نيسان من تلول السمنات وأحرزوا نجاحاً جيداً واستمر الهجوم في اليوم التالي . وفي يوم ١٧ نيسان وصلت القوات العربية الى محطة سكة الحديد بعد قتال عنيف ولكنهم اضطروا الى التراجع نتيجة نفاذ ذخيرة المدافع التي كانت تغطي الهجوم وتسانده . . بالاضافة الى الخسائر التي تكبدتها (حوالي ٣٠٠ جندي بين قتيل وجريح) .

أعطى الأمير فيصل الأمر الى قواته بالتراجع الى تلول السمنات ، وقد وقع في أيدي العرب خلال هذا الاسبوع من المعارك حوالي ٤٠٠ أسير تركي .

وفي ١٩ نيسان استأنفت قوة من العرب ، بمساعدة البعثة العسكرية البريطـانية[١]

---

(١) لم تلعب هذه البعثة دورا فعالا فقد كانت البعثة تضم عدة مدرعات بريطانية بقيت ـ اثناء الهجوم على محطة الجردونة في ١١ ايار بعيدة عن ساحة القتال وسرعان ماركنت الى الفرار راجع (مذكرات الامير زيد ص ٤٧ وعدد ٦٢ ـ ٦٣ و ص ٩٤ ـ ٩٥) وقد طلب الامير زيد من فيصل أخذ هذه المدرعات من الانجليز وتسليمها له (مذكرات الامـير زيد الى فيصل ، ٢٦ أيار ١٩١٨ العدد ٦٩ ص ٩٨) .

الهجوم على خط السكة جنوبي معان ، وخلال بضعة أيام أمكن الاستيلاء على سبع محطات وتخريب مسافات من خط السكة الحديدية يبلغ طولها مئة كيلو متر ، وبهذا قطع الاتصال نهائيا بواسطة السكة الحديدية بين معان والمدينة المنورة .

وفي هذه الاثناء قامت القوات البريطانية بحملة ثانية الى الشرق من وادي الاردن ، فاستولت على السلط في ٣٠ نيسان وبلغت ضواحي عمان . ولكنها اضطرت للانسحاب يوم ٣ أيار تحت ضغط هجمات الأتراك المعاكسة .

وفي ١١ أيار سقطت محطة الجردونة للمرة الثانية في أيدي القوات العربية ، وكان الأمير زيد يقود بنفسه الهجوم على هذه المحطة ، وتقوية للروح المعنوية لرجاله تقدم الى الخطوط الامامية ، وكان يجابه العدو وجهاً لوجه وبشكل مباشر . . وبلغ ذلك الأمير فيصل قائد الجيش الشمالي فكتب الى أخيه : « بلغني أنك تخاطر بنفسك كثيراً . . لا شك بأن كل شيء بارادة الله ، ولكن موقعك يقتضي التمكن مهما أمكن . أن حصل عليك ولو نكشة فهي تضر جندك وتكسر عزائمهم . ولذا يلزم أن تتبصر ولا تخاطر[١] » .

ويقول علي جودت (وكان أحد كبار الضباط في الجيش الشمالي) في مذكراته : « إن الأمير زيداً كان يندفع اندفاعاً خطراً في الجبهة . وكنا نمانع في هذا الاندفاع لا حرصاً على سلامته فحسب بل خشية أن يؤدي هذا الاندفاع الى مكروه ما فيؤثر في الجيش أسوأ تأثير[٢] » .

أما لورنس فيقول : « إن زيداً كان يتولى قيادة نصف الجيش الى الشمال من وهيدة ، وكان يؤدي واجباته بهمة عظيمة وان طبيعته المرحة كانت تفعل في نفوس الضباط المحترفين أكثر مما تفعل شاعرية فيصل وحماسته[٣] » .

وقد منحه الشريف حسين وسام النهضة والميدالية التذكارية لحرب معان ، فكتب يشكر أباه ويقول : « لا شك ان الأوسمة التي ننالها في ميادين القتال ، أكبر شرف لنا ولغيرنا من الذين يريدون استقلال البلاد العربية[٤] » .

وظل العرب والأتراك يقومون بهجمات متبادلة على الخط والمحطات في هذا القطاع طوال أشهر أيار وحزيران وتموز ، ويخوضون معارك عنيفة أثناء ذلك ، دون أن يتمكن أحد الفريقين من إحراز نصرٍ حاسمٍ .

---

(١) مذكرات الامير زيد عدد ٦٥ . ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) سيرة ومذكرات علي جودت : « سيرة وذكريات » . بغداد سنة ١٩٧٣ - ص ٤٣ .

(٣و٤) راجع مذكرات الامير زيد ص ٢٦ .

وفي ٨ آب قامت قوة بريطانية من جيش الجنرال اللنبي بمهاجمة محطة المدورة والاستيلاء عليها وتدمير مواقعها الحربية .

ولكن تحرير الاردن بكامله لم يتم الا عندما تقدم الجنرال اللنبي بقواته من فلسطين ، ووجّه ضربة مشتركة بالتعاون مع الجيش الشمالي الذي يقوده الأمير فيصل الى القوات التركية ودمرها ، وهذا ما سنعرضه مفصلاً في الفقرة التالية .

ب ـ احتلال فلسطين :

ليس من شأننا أن نتحدث بالتفصيل عن المعارك التي خاضها الجيش البريطاني في فلسطين ، فهذا في تاريخ الحرب العالمية الأولى ، لا في تاريخ الثورة العربية . وما يهمنا من جهة فلسطين هو مدى الاسهام العربي في نجاح البريطانيين . وما من شك في أن الأعمال القتالية التي خاضها جيش الثورة العربية بقيادة فيصل في شرقي الاردن من جهة ، والدعاية العربية في صفوف سكان فلسطين ، وصفوف العرب المجندين في الجيش التركي من جهة ثانية كان له دور فعال في نجاح البريطانيين في هذا الميدان[1] . وما من شك في أن بريطانيا لو قدمت للجيش العربي العامل في شرقي الاردن بعض الدعم الفعال ، لوفّرت الوقت والتضحيات توفيراً كبيراً ، ولكن الأهداف البريطانية من الحرب في هذه المنطقة ، كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن أهداف الجيش العربي . فأهداف الجيش العربي كانت تحرير الوطن العربي ، في حين كانت أهداف بريطانيا احتلال هذه البلاد لتنفيذ اتفاق سايكس ـ بيكو ووعد بلفور ، أي تخليص هذه البلاد من احتلال تركي لاخضاعها لاحتلال بريطاني فرنسي صهيوني .

ظلت العمليات البريطانية في سيناء وجنوب فلسطين تسير ببطء ودون فاعلية حتى صيف ١٩١٧ ، حيث حدث تبدل هام في الأوضاع العسكرية ، إذ نجحت القوات

---

(١) راجع ما قاله وزير خارجية انكلترا اللورد بلفور والملك جورج الخامس نفسه في لندن يوم استقباله في ١٢/١٢/١٩١٨ . (سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ٢١٧ ـ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٥) . وراجع أيضا البرقية التي ارسلها الملك جورج الى الملك حسين في ٥/١٠/١٩١٨ (المراسلات التاريخية : رقم ١٧٦ ـ ص ٢١٤) . « . . واني اغتنم هذه الفرصة لاعبر عن عظيم اعجابي بقيادة نجلكم الامير فيصل وبسالة جنود سيادتكم ، وحلفائكم ، الذين أسهم تعاونهم الفعال اسهاما واقعيا في نجاح عمليات الحلفاء العسكرية ، والتي نتج عنها تحرير دمشق ، وتوسيع المنطقة العربية المحررة من ايدي الظالمين » . وراجع بهذا المعنى أيضا برقية الجنرال اللنبي الى الملك حسين بتاريخ ٢/١٠/١٩١٨ . رقم ١٧٤ ـ ص ٢١٣ من المصدر السابق) . راجع أيضا مفلح علي في مجلة الفكر العسكري ـ العدد ١ ـ السنة الثالثة عام ١٩٧٥ ـ ص ١٥ حيث يقول في مقالة بعنوان : « التفوق الاستراتيجي والعملياتي في المعركة » : « لقد لعبت القوات المسلحة العربية دورا حاسما في معركة يافا ساعدت على تحقيق التفوق الاستراتيجي والعملياتي للقوات البريطانية » .

العربية في احتلال العقبة التي تحولت بسرعة الى مركز عسكري على جانب كبير من الأهمية ، وفي الوقت نفسه حدث تبدل في القيادة العسكرية البريطانية ، حيث عين الجنرال اللنبي لقيادة القوات البريطانية ، وهو واحد من ألمع القادة البريطانيين ، وقد أدرك فور سماعه باحتلال العقبة أهمية الدور الذي يستطيع الجيش العربي أن يلعبه على ميمنة القوات البريطانية الزاحفة على فلسطين .

ورافق التحضير للهجوم العام على فلسطين ، حملة دعائية واسعة النطاق لدى سكان فلسطين ، وقد وجه الملك حسين رسائل الى عرب فلسطين يدعوهم فيها الى التعاون مع القوات البريطانية الصديقة ، كما وجه نداء الى الجنود العرب الذين ما زالوا يعملون في صفوف الجيش التركي ألقته الطائرات البريطانية فوق الخطوط التركية جاء فيه : « سمعت بمزيد الأسف أنكم تحاربوننا نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على أحكام الدين الاسلامي الشريف من التغيير والتحريف ، ولتحرير العرب قاطبة من حكم الأتراك . ونحن نعتقد أن الحقيقة الخالصة لم تصل اليكم ، لذلك أرسلنا هذا الاشعار ممهوراً بمهرنا لنؤكد لكم أننا نحارب لأجل غايتين شريفتين هما : حفظ الدين وحرية العرب عامة . . . هلموا للانضمام الينا نحن الذين نجاهد لأجل الدين وحرية العرب حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد أسلافكم[1] » . وكان رسل الملك حسين وفيصل يعملون بنشاط لاقناع زعماء العشائر والوطنيين في فلسطين وشرقي الاردن والاتفاق معهم على العمل ضد الأتراك . وقد لقيت هذه الجهود صدى كبيراً تجلّى في تعاونِ القبائل العربية في جنوب فلسطين ولا سيما في منطقة بير السبع مع القوات البريطانية ، وترك الجنود العرب صفوفَ الجيش التركي والتحاقهم بالقوات العربية أو البريطانية ، وعدم تعاون السكان مع الأتراك ، مما دفع القائد الالماني ليمان فون ساندرز الى القول ، أن القوات البريطانية كانت تقاتل في بلاد صديقة ، في حين كان الأتراك يحاربون في بلاد معادية ، وقد ذكر جمال باشا في مذكراته : « أن الكراهية التي نشرتها الدعاية الانجليزية ـ العربية في سورية ضد الأتراك ، كانت أقوى في اضعاف قبضة الترك على البلاد ، من الخسائر العسكرية التي نجمت مباشرة عن دخول العرب في الحرب » . وما من شك في أن الأعمال الحربية التي كانت تقوم بها القوات العربية في شرقي الاردن ، كان لها دور كبير في النجاح الذي حققه اللنبي في فلسطين .

في شهر تشرين أول عام ١٩١٧ ، استطاع الجنرال اللنبي اكتساح مواقع الأتراك في غزة وبئر السبع ، بحركة التفاف حول بئر السبع بقوات فيلق الصحراء الراكب ، ثم قام

---

(١) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية . رقم ١٠٣ . ص . ١٥٤ ورقم ١٠٧ . ص ١٥٧ ـ ١٥٨ . ورقم ١١٨ . ص ١٦٤ . وراجع كتابه الحركة العربية ـ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

بمطاردة الأتراك بهذا الفيلق باتجاه مدينة القدس ماراً بمدينة الخليل وبيت لحم . وفي يوم ٨ كانون أول من تلك السنة ، سقطت مدينة القدس بيد القوات البريطانية ، ثم توقفت للدفاع على خط يمتد من شمال البحر الميت ثم يتجه هذا الخط الى الشمال موازياً لنهر الاردن . وحين يصل هذا الخط إلى منتصف المسافة بين البحر الميت وجسر دامية ، ينعطف الى الغرب حتى ساحل البحر المتوسط عند ميناء أشدود شمالي ميناء يافا[١] .

كانت القوات العربية تتألف من حوالي ٨٠٠٠ مقاتل من الهجانة والفرسان بقيادة الأمير فيصل ، تدعمه بعض المصفحات وكانت مزودة بمواد التخريب . كما كانت هذه القوات تتمركز في منطقة الأزرق في شرقي الاردن[٢] . وقد بلغ مجموع القوات (الحليفة) في هذا الخط حوالي ٥٧,٠٠٠ جندي مشاة مع ١٢,٠٠٠ جندي خيال مع ٥٤٠ مدفع من مختلف العيارات[٣] .

أما القوات التركية فقد تمركزت بعد انسحابها من مدينة القدس في خط دفاعي مواز للقوات البريطانية ، ويمتد من أغوار الاردن الى ساحل البحر المتوسط . وكانت القوات التركية تتألف من ثلاثة جيوش بقيادة الجنرال الالماني (فون ساندرز) ومقره مدينة الناصرة ، وقد بلغ مجموع القوات التركية ٣٢٠٠٠ جندي مشاة مع ٢٠٠٠ جندي خيال مع ٤٠٢ مدفع من مختلف العيارات .

وعلى هذا الأساس فقد كانت نسبة القوى تميل لصالح القوات البريطانية بنسبة ٢ الى ١ في المشاة أما في الخيالة فقد كان التفوق ٦ الى ١ وفي المدفعية ١,٢٥ الى ١ .

في ربيع عام ١٩١٨ وضع الجنرال اللنبي خطته لتدمير القوات التركية في فلسطين ومطاردتها الى دمشق وحلب ثم الأراضي التركية . فاذا تحقق للجنرال اللنبي القضاء على الجيوش التركية الثلاثة المتبقية للأتراك في الشرق الاوسط ، دون أن يسمح لها بالانسحاب ، فان تركية نفسها تصبح عرضة للغزو من الجنوب فترغم على طلب الصلح[٤] .

وكانت خطة الجنرال اللنبي تقوم على أساس خرق الجبهة التركية قرب الساحل مسافة ١٥ ميلاً بالفيلق ٢١ . وبعد احداث الخرق ، يقوم فيلق الصحراء الراكب بالاندفاع من

---

(١) راجع كتاب مارشال دافل « اللنبي الجندي ورجل الدولة » . لندن - انكلترا - ص ١١٢ .

(٢) تقع منطقة الازرق على مسافة ٥٠ كم شرقي مدينة عمان . راجع الخريطة في آخر الكتاب .

(٣) راجع أمين سعيد : « الثورة العربية الكبرى » . تاريخ مفصل جامع للقضية في ربع قرن . المجلد الأول - ص ٢٣٩ - ٢٤٦ .

(٤) في ١١ آذار عام ١٩١٧ سقطت مدينة بغداد بيد القوات البريطانية وشرعت بدورها بمطاردة فلول الأتراك باتجاه الموصل .

هذا الخرق الى الشمال ، والاستيلاء على مضيق أبو شوشه ومضيق مسموس اللذين، دل الاستطلاع البريطاني على أن الأتراك قد أهملوا أمر تحصينهما ومراقبتهما بشكل جيد . وبعد أن يعبر الفيلق المذكور هذين الممرين ويصل الى سهل مرج ابن عامر ، يستولي الفيلق المذكور على مفرق عفولة وجنين وبيسان .

فاذا تحقق للجنرال اللنبي ذلك ، يكون قد قطع خط مواصلات وتموين الجيشين التركيين السابع والثامن ، وارغمهما على الاستسلام دون أن يسمح لهما بالانسحاب ، وبعد ذلك يتفرغ لقطع خط مواصلات الجيش التركي الرابع وارغامه على الاستسلام دون أن يسمح له بالانسحاب أيضاً . وبذلك يتمكن من الوصول الى حدود تركية لارغامها على الخروج من الحرب .

وقد دلت استطلاعات الانجليز قبل نشوب المعركة على أن خط الدفاع التركي المواجه للقوات البريطانية في الساحل يتألف من خطين . ويبعد الخط الاول عن الثاني حوالي ثلاثة أميال . وكانت دفاعات الخط الاول تتألف من خنادق جيدة مجهزة بموانع الاسلاك . أما خنادق الخط الثاني فكانت تستند على نهر (الفالك) وتحميها مستنقعات النهر من الغرب ولا يمكن تخطيها الا من معابر معينة كما كانت غير مستمرة وغير مجهزة بالاسلاك[1] .

سير الأعمال القتالية[2] :

أ - تدمير الجيشين السابع والثامن :

في يوم ١٧ ايلول ١٩١٨ بدأت القوات العربية بتخريب سكة الحديد في محطة درعا . وقد تمكن العرب من مفاجأة الأتراك وقطع السكة في الجنوب ثم الغرب ثم الشمال .

وفي الساعة ٤,٣٠ من يوم ١٩ ايلول عام ١٩١٨ فتحت المدفعية البريطانية نيرانها لمدة ١٥ دقيقة على خط الأتراك الاول ثم تقدم الفيلق ٢١ البريطاني . وقبل حلول منتصف ذلك النهار ، كان البريطانيون قد دمروا الخط الاول والثاني للأتراك ، وحل الارتباك في الجيش التركي الثامن وأخذت فلوله بالانسحاب نحو مدينة طولكرم . وبعد أن نصب البريطانيون جسراً على نهر (الفالك) ، تقدم الفيلق المذكور على ذلك الجسر ومن خلفه

---

(١) راجع . س . فوللر المعارك الحاسمة في الجنوب . لندن . انكلترا ١٩٦٥ .

(٢) قبل يومين من بدء الهجوم البريطاني هرب الى صفوف الأتراك عدد من الهنود المسلمين وأخبروا الأتراك بزمان ومكان الهجوم البريطاني ولكن الأتراك لم يكترثوا لتلك الاخبار ولم يخبروا القائد العام .

فيلق الصحراء الراكب ، وقبل غروب شمس يوم ١٩ كان الفيلق ٢١ المشاة البريطاني قد استولى على مدينة طولكرم وفتح البوابة على مصراعيها حيث انطلق فيلق الصحراء الراكب على الشكل التالي :

١ ـ انطلقت الفرقة (٥ خيالة) والفرقة (٤ خيالة) باتجاه أهدافهما ، الأولى من اليسار باتجاه مضيق أبو شوشه فبلغته في الساعة ٢,٣٠ من يوم ٢٠ وفاجأت حاميته واستولت عليه . وانطلقت الثانية من اليمين باتجاه مضيق مسموس وفاجأت حاميته واستولت على المضيق في نفس الوقت تقريباً ثم دخلتا مرج ابن عامر .

وبعد أن ارسلت الفرقة (٥ خيالة) لواء الى مدينة الناصرة[١] لاسر القائد العام التركي مع ضباط أركانه ، توجهت الفرقتان الى محطة عفولة وفاجأتا حاميتها في الليل واستولتا على المحطة ، ثم انطلقت الفرقة (٤ خيالة) الى بيسان واستولت عليها في الساعة ٤,٣٠ من يوم ٢٠ . وهكذا تكون الفرقة (٤ خيالة) قد قطعت ٧٠ ميلاً في ٢٤ ساعة .

وبعد سقوط عفوله وبيسان ، بقيت القيادة التركية تجهل الموقف تماماً كما تجهل تماماً مبلغ الدمار الذي حل بطرق تموينها واتصالها ، لدرجة أن احدى الطائرات التركية وصلت ظهر يوم ٢٠ الى مطار عفوله فهبطت في المطار وتم أسرها من قبل القوات البريطانية . أما اللواء ١٣ من الفرقة (٥ خياله) الذي ذهب لأسر القائد العام التركي في مدينة الناصرة ، فلم يوفق في مهمته ذلك ان فون ساندرز تمكن من الهرب بأعجوبة الى مدينة طبرية[٢] .

أما فرقة الخيالة الأسترالية فقد عبرت مضيق مسموس في الساعة ١١,٠٠ من يوم ٢٠ وتوجهت الى بلدة جنين واستولت عليها . وبذلك تم احكام الطوق حول الجيشين التركيين السابع والثامن نهائياً قبل مساء يوم ٢٠ ايلول .

أما ما جرى من قتال ومعارك بعد هذا التاريخ فلم يكن الا أعمال تصفية للجيشين المذكورين ، اللذين تقرر مصيرهما بأقل من ٣٦ ساعة من بدء الأعمال القتالية[٣] .

ب ـ تدمير الجيش التركي الرابع :

بقي الجيش الرابع التركي حول مدينة عمان مدة ثلاثة أيام دون أن يعلم بمبلغ الدمار الذي حل بالجيشين السابع والثامن . ذلك أن اللنبي استمر على مشاغلة الجيش الرابع

---

(١) هو اللواء الراكب ١٣ .

(٢) راجع مذكراته « خمسة أعوام تركية » ـ ص ٢٥٠ ـ برلين المانيا عام ١٩٢٥ النص الالماني .

(٣) راجع للتوسع في هذه المعارك كتاب : د . هود . خارج خطوط الحملات المصرية والفلسطينية عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ لندن ـ انكلترا ـ ص ٢١١

طوال مدة القتال مع الجيشين السابع والثامن ، لذلك بقي قائد الجيش التركي الرابع جمال باشا في حيرة من أمره ولم يبدأ بالإنسحاب باتجاه دمشق الا في ٢٢ ايلول .

وقد تعرض الجيش الرابع التركي أثناء انسحابه الى هجمات مستمرة على جانبه الايمن من القوات العربية . وفي ٢٧ ايلول تمكنت القوات العربية من قطع الطريق على بعض وحدات هذا الجيش قرب الشيخ سعد وأسرها .

أما الجنرال اللنبي فبعد أن تحقق له تدمير الجيشين السابع والثامن ، قرر تدمير الجيش الرابع بالوصول الى دمشق وقطع مواصلاته . وتتلخص خطة الجنرال اللنبي للاستيلاء على دمشق بفيلق الصحراء الراكب كما يلي :

في ٢٧ ايلول تحرك هذا الفيلق نحو دمشق برتلين ، الأول يتألف من فرقة (٤ خياله) ويتحرك من شرقي بحيرة طبرية عن طريق بيسان ـ درعا ـ دمشق ، والرتل الثاني يتألف من الفرقة الاسترالية ويتحرك من غرب البحيرة عن طريق طبرية ـ قنيطرة ـ دمشق .

وفي ٣٠ ايلول بينما كانت فلول وبقايا الجيش الرابع تقترب من مدينة الكسوة ، اذ سبقتها اليها الفرقة ٤ خياله البريطانية وسدت طريق انسحابها الى دمشق ، على حين كانت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل تشدد الخناق على مؤخراتها فأرغمت على الاستسلام في مدينة الكسوة بعد معركة صغيرة[١] .

وبذلك تم تدمير القوات المسلحة التركية بأسرها في الشرق الأوسط ، وانفتح الطريق أمام القوات البريطانية والعربية الى الحدود التركية نفسها .

وقد بلغ مجموع خسائر الأتراك ٢٥٠٠٠ مقاتل ، على حين لم تتجاوز خسائر العرب والبريطانيين خمسة آلاف وتم تدمير ثلاثة جيوش تركية في مدة ١١ يوماً فقط[٢] .

ج ـ تحرير سورية ولبنان :

كان الجنرال اللنبي يعتبر الجيش الشمالي الذي يقوده الأمير فيصل بمثابة جناح أيمن لجيشه الذي كانت خطوطه في آب ١٩١٨ تمتد من يافا على شاطىء البحر الى أريحا عند

---

(١) سنتعرض لهذه المعركة والى كافة العمليات الحربية التي جرت فوق الاراضي السورية بتفصيل أكثر في الفقرة التالية عند كلامنا عن تحرير سورية ولبنان ، وخير مصدر لوصف هذه المعارك كتاب سليمان موسى : الحركة العربية ـ ص ٣١٦ وما بعدها وكتاب مارشال دافل السابق الذكر بعنوان : « اللنبي الجندي ورجل الدولة » .

(٢) راجع كتاب ادوار ميدايرل « صانعو الاستراتيجية الحديثة » . لندن انكلترا ـ ص ٣٢٥ وما بعدها . وكتاب الحملات الحربية في فلسطين ـ الصادر عن وزارة الحربية المصرية عام ١٩٤٢ .

البحر الميت . وقد عمل اللنبي على تعزيز جيش فيصل الذي ارتفع عدد النظاميين فيه الى ٤٠٠٠ (عدا البدو) فشكل في قيادته هيئة من الضباط لكي تتولى تنظيم ما سمي بـ « عمليات الحجاز » برئاسة العقيد داوني . وأعار فيصلاً خمس سيارات مدرعة وسرب طائرات ومدفعين محمولين ومفرزة من ٢٠ هندياً مسلحين بالرشاشات ، ومفرزة من الجمالة المصريين (بقيادة النقيب بيك) وسرية من فيلق الجمالة للنقليات ، بالاضافة الى المفرزة الفرنسية (بقيادة النقيب بيزاني) ومعها أربعة مدافع جبلية وأكثر رجالها من الجزائريين . وكل هذه الوحدات تحت قيادة العقيد جويس . وكان جيش فيصل يعتمد في تموينه وتسليحه على جيش اللنبي ولكنه لم يكن يحصل على ما يكفيه ، فقد قضى الجنود شتاء ١٩١٧/ ١٩١٨ في الهضاب المرتفعة وهم يرتدون ألبسة الخاكي ووصف العقيد داوني جنود فيصل بأنهم كانوا « يعانون من نقص الطعام والذخيرة[1] » .

وكان أولئك الجنود النظاميون العمود الفقري لقوات الثورة العربية ، « وقد برهنوا في معان والجردونة أنهم يحاربون حتى الموت[2] » ، وكان جيش فيصل يعاني من النقص في دواب النقل لأن جميع المؤ ن والمعدات كانت تنقل من العقبة الى مواقع القتال على ظهور الحيوانات . وقد زوده اللنبي بألفي جمل حتى يتمكن من القيام بدوره في الهجوم الكبير .

وقد اناط اللنبي بجيش فيصل مهمة خطيرة ، مؤ داها أن تقوم منه حملة سريعة الحركة بهجوم خاطف من الخلف على درعا ملتقى الخطوط الحديدية بين دمشق وفلسطين وشرقي الاردن ، بقصد قطع خطوط مواصلات الجيوش التركية قبيل قيام اللنبي بالهجوم . وعلى الرغم من أن القوة العامة لجيش اللنبي لم تكن تقل عن مئتين وأربعين ألف رجل ، تقف في وجوههم ـ ووجوه العرب ـ قوات من الترك لا تزيد كثيراً على ١٠٠ ألف رجل ، فان اللنبي أعد خططه بحيث تتمكن قواته المتفوقة من احراز النصر الحاسم . وقد طلب من الحملة العربية أن تبدأ عملياتها حول درعا في منتصف ايلول ، قبل ثلاثة أيام من بداية هجوم اللنبي .

وتقرر أن تتألف الحملة من نظاميين وبدو ، وأن يتولى الأمير فيصل قيادتها العامة ، ويكون الشريف ناصر نائباً له ، ونوري السعيد قائداً للنظاميين . وفي ٣٠ آب و ٢ ايلول غادرت أبا اللسن قافلتان من الجمال تحملان المؤ ن والذخائر في طريقهما الى الازرق التي تقرر أن تكون قاعدة أمامية للحملة .

وفي ١٢ ايلول تكاملت الحملة في الازرق ، وهي تتألف من ٦٠٠ نظامي تعززها

---

(١) P.R.O.,F.O. 882 / 7 تقرير الكولونيل داوني عن هجوم العرب على معان ، بتاريخ ١ أيار ١٩١٨ .

(٢) الرائد السير هيوبرت يونغ في كتابه « الاستقلال العربي » ، الطبعة الانكليزية ، لندن ، ١٩٣٣ ، ص : ١٩٤ .

وتساندها المفرزة الفرنسية وسرية الهندسة وتضم المصريين والهنود وثلاث سيارات مصفحة وطائرتين ، وكانت الحملة تضم ثلاثة من الضباط العرب الـذين أصبحـوا فيما بعـد من رؤساء الوزارة في القطر العراقي وهم : (نوري السعيد وعلي جودت وجميل المدفعي) ، كما ضمـت من الضبـاط الانـكليز : جويس ولـورنس ولـورد ونترتـون ويونـج وبيك وكركبرايد . وانضم للحملة حوالي ٥٠٠ من فرسان البدو بقيادة نوري الشعلان وعودة أبو تايه . وكان مجموع أفرادها ١٣٠٠ رجل .

وكان الطريق المباشر من العقبة الى دمشق يمر بمعان ، عمان ، درعا ، وكان معظمه يقع في منطقة احتلال العدو . لهذا كان من الضروري القيام بحركة التفـاف كبـيرة من الشرق ، ويعود الفضل في القيام بهذا الالتفاف الناجح الى حكمة قائـد الجيش الشمالي الأمير فيصل ومعرفته بمسرح العمليات الحربية .

زحفت الحملة من الازرق في صباح ١٤ ايلول ، وفي مساء هذا اليوم وخلال الايام الاربعة التالية قامت بعملياتها المرسومة على النحو التالي : جرت اغارة على سكة الحديد بين درعا ودمشق في نقطة قريبة من تل عرار ، وكان الهدف نسف جسر سكة الحديد الذي تقوم على حراسته مفرزة قوامها ٤٠ جندياً ، وقد تم نسف الجسر بعد أسر الحامية ، كما تم نسف وتدمير ١٢٠٠ قطعة من السكة خلال صباح ١٥ ايلول ، كما تم نسف محطة خربة الغزالة ، وتم في النهار احتلال نقطة تقع على مسافة ٤ أميال فقط من المطار الالماني مما دفع العدو للتدخل ، وهوجمت القوات العربية وقصفت من قبل ٩ طائرات المانية من درعا .

تم تنفيذ العمل بنجاح وتقدم قسم من القوات خلال النهار الى محطة سكة حديد مزيريب التي تم الاستيلاء عليها في مساء نفس اليوم ، وتم احراق هذه النقطة الهامة في خطـوط مواصلات العدو ، كما تم تدمير قُطارين ونسف خزانـات المياه واخـراج كمية من سكة الحديد عن الخط . وقد كان يوم عمل جيد أمضت فيه القوة العربية الليل بهدوء قرب سكة الحديد . وفي اليوم التالي انسحبت القوة باتجاه الجنوب الى أم مطاية مارة بالقرب من الرمثا ووصلت محطة نصيب على الخط الحجازي جنوبي درعا بمهمة نسف الجسر الكبير وتعطيل مسافة من السكة قبل حلول الظلام . وفي صباح يوم ١٩ وصل الجنود النظاميون العرب ، يرافقهم عدد كبير من القبائل المحلية وأبناء الريف الى أم مطاية ، حيث تعرضوا لقصف الطائرات الالمانية التي كانت تطلب الثأر . وقد شعرت حامية درعا التركية بمرارة ورغبة شديدة في الانتقام ، لان الجنود العرب قد استطاعوا خلال الـ ٤٨ ساعة قطع مواصلاتهم تماماً مع عمان ، وكذلك مع الجبهة الفلسطينية ودمشق . واسقطت الطائـرات المعـادية

قنابلها بدون تمييز ، وانتشر رجال القبائل والفلاحون المحليون في الاراضي المحيطة ، ولكن الجنود النظاميين للجيش العربي الذي أناخوا جمالهم ، مكثوا ساكنين حتى زوال العاصفة . عاد الالمان الى درعا للقصف من جديد ، وقد انسحبت وحدات الهجانة الى الوادي ، وبقيت مستورة بين الصخور البركانية هناك ، وبالنظر لعدم حركتهم فقد بقيت معظم هذه الوحدات غير مرئية من قبل الطائرات المعادية التي تقوم بالاستطلاع فعاد الالمان مكتئبين . وكان منظر وحدات الهجانة الحجازية يبدو أثناء الاغارة كحجارة سوداء مما يذكرنا بقصة شهرزاد في الليالي العربية[1] ، وكما حدث في القصة دبت الحياة في الحجارة السوداء من جديد ـ بعد أن زال الخطر الجوي ـ وقامت بمناوشة العدو من جديد .
وقد زرعت هذه العمليات الارتباك في خطوط المواصلات الرئيسية ، مما اضطر ليمان فون ساندرز[2] القائد العام للجيوش التركية ، الى ارسال مفارزه الاحتياطية من الجبهة لرد هجمات العرب عن درعا . بينما كان الجنرال اللنبي يتأهب لتنفيذ خطته بالهجوم الواسع على الجبهة التركية . وبعد أن قامت الحملة بتنفيذ المهام التي اسندت اليها ، ابتعدت مسافة الى الشرق بانتظار نتائج هجوم اللنبي .

بدأ اللنبي هجومه الكبير في الصباح الباكر من يوم ١٩ ايلول . وسرعان ما اخترق رجاله خطوط الجيشين السابع والثامن التركيين كما مر معنا ـ وأخذوا يتقدمون شمالاً .
وأثناء هجوم اللنبي ، واصلت الحملة العربية نشاطها ، فشنت عدة هجمات ليلية على خط السكة بين درعا وعمان ، ونجحت في الحيلولة دون اصلاح خط السكة ، بينما كانت الطائرات المعادية تقصف مواقعها أثناء النهار ، ويذكر كركبرايد الذي رافق الحملة ترحيب الاهالي ومساندتهم للحملة ويقول : « بعد أن قمنا بقطع الخط ، توافدت علينا جموع من القبائل السورية والاردنية بقصد الاشتراك في العمليات المقبلة ، وانضم الينا الوطنيون من سورية ولبنان بأعداد متزايدة حتى أصبح من العسير السيطرة على تلك الجموع » .
وعندما أخذ الجيش التركي الرابع يتراجع من السلط وعمان ، لم يستطع الاستفادة من خط السكة فاضطر رجاله أن يسيروا على أقدامهم ويتركوا وراءهم أسلحتهم ومعداتهم .
وأرسل اللنبي في ٢٠ ايلول رسالة الى الأمير فيصل أنبأه فيها أنه نتيجة « لجهودنا المشتركة فقد الحقت الهزيمة بجيش العدو ، انني اهنئك على الانجاز العظيم لقواتك الباسلة حوالي

---

(١) كتاب ألف ليلة وليلة .

(٢) راجع كتاب ليمان فون ساندرز : « خمسة أعوام تركية » ـ ص ٢٤٧ وما بعدها . من النص الالماني . برلين ـ المانيا عام ١٩٢٥ . وقد استلم هذا القائد الالماني قيادة العمليات في ١٩/٢/١٩١٨ على هذه الجبهة وظل حتى نهاية شهر أيلول .

درعا ، والتي أثرت عملياتها في حدوث الارتباك في خطوط مواصلات العدو تأثيراً مهماً على نجاح عملياتي[1] » .

تحول الأتراك في معان الى الهجوم أثناء قيام العرب بمهاجمة خطوط المواصلات حوالي درعا ، فزحفت عناصر قوية لاحتلال الطفيلة ، وأخذت عناصر أخرى تشن الهجمات على تلول السمنات . ولكن الأتراك فوجئوا يوم ٢٢ ايلول بصدور الأمر اليهم بالانسحاب السريع ، فبدأوا بالتراجع من معان شمالاً سيراً على الأقدام تحت حماية مدافعهم . وكان الأمير زيد يتولى قيادة العرب في معان ، فاستنفر قواته لضرب كافة القوات المتراجعة ، وحث المقاتلين البدو على عرقلة انسحاب العدو . وكان من أثر ذلك أن القوات التركية اضطرت للتوقف قبل الوصول الى عمان بعد أن حاصرها آلاف من البدو المسلحين ، ولم تستطع الوصول الى عمان في الوقت المناسب لتأمين انسحابها فاستسلمت لكتيبة انكليزية خرجت للقائها من عمان[1] .

وكان اللنبي قبل بدء هجومه قد بعث برسالة الى فيصل يحذره من توسيع نطاق عملياته والتوغل بعيداً داخل المناطق التي كانت القوات التركية ما تزال مسيطرة عليها ، خشية ان لا يتمكن ـ اللنبي ـ من تقديم العون له اذا ما اصطدم بقوات معادية كبيرة . والحقيقة المرة أن الانكليز والفرنسيين لم يكونوا يريدون أن يروا جيش الأمير فيصل وهو يحقق الانتصار تلو الآخر ، ليس كرديف للقوات البريطانية فحسب بل كحليف لها ، ومن هنا كانت تأتي النصائح بعدم المجازفة والمغامرة ، لكي لا تظهر للرأي العام العالمي الأهمية الحقيقية لعمليات الجيش الشمالي . وعندما أخذت القوات التركية تتراجع من فلسطين وشرقي الاردن باتجاه دمشق ، رأى بعض الضباط الانكليز ان تلك القوات المتراجعة يمكن أن تسحق القوة العربية الصغيرة ، وأن تلك القوة العربية حري بها أن تبتعد عن خط الانسحاب التركي ، ما دامت قد أدت دورها المطلوب على أكمل وجه . وهذه الآراء أيضاً كانت بايعاز من قادتهم حتى يظهروا للملأ أن كلَّ الضباط الانكليز يرون نفس الرأي . ولكن الامير فيصل كان يرى أن هذه هي الفرصة السانحة التي كان جيش الثورة ينتظرها ، كي يبرهن أكثر فأكثر على جدارته الحقيقية في تحرير المزيد من الارض العربية .

---

(١) راجع كتاب الرائد السير هـ . يونغ « الاستقلال العربي » ص ٢٣٨ الهام .
كما بعث لورنس في ٢٢ ايلول ١٩١٨ برقية الى الملك حسين قال فيها : ان عمليات الجيش الشمالي « تشكل أعظم انجاز للامة العربية خلال السبعمائة سنة الماضية » .
راجع أرشيف وزارة الخارجية البريطانية . P.R.O, F.O. 686/39

(٢) سليمان موسى . مذكرات الأمير زيد رقم ٧٩ ـ ٨٢ ـ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ من الامير زيد الى الملك حسين بتاريخ ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ أيلول ١٩١٨ .

لهذا كله بعث الرسل الى زعماء حوران وجبل الدروز والقبائل العربية المتواجدة في المنطقة يدعوهم ويحثهم الى الاشتراك في شرف القتال[1] .

بقيت القوات العربية بين الصخور البركانية حتى تاريخ ٢٤ ايلول ، وكانت تخرج في الليل أحياناً للاستيلاء على قطار مار ، وفي فرصة أخرى للانقضاض نهاراً على جسر لتدميره ، وكذلك تدمير أجزاء من سكة الحديد . وبتاريخ ٢٤ منه بدأ الجيش التركي بالانسحاب باتجاه الشمال في محاولة يائسة لتجنب الكارثة التي تهدد قواته غربي الاردن ، أما وحدات الهجانة العربية التي كان يقل عددها كثيراً عن هذه القوة ، والتي كانت تحتفظ بقدر من التنظيم لم يكن بمقدورها ايقاف الانسحاب ، وقد امتنعت في اليومين التاليين عن القيام بعمليات قوية لعرقلة مرورها . وقد أخذت هذه الأعمال شكل أعمال متتابعة من الاغارة على وحدات مختارة ـ حرب عصابات ـ وكانت الاغارة تتركز بفتح نيران قوية من البنادق وتفجير ونسف ثم انسحاب سريع وكانت حصيلتها ٢٠ الى ٣٠ قتيلاً تركياً بالاضافة الى وقوع ما يقارب من ١٢ أسيراً بأيدي العرب . وقد كانت حصيلة الاغارات أسر ضابطين و ٥٠٠ رجل و ٢٥ رشاشاً .

وبتاريخ ٢٦ ايلول تقدمت وحدات الهجانة باتجاه الشمال ليلا ، واستطاعت نسف سكة الحديد واحتلال محطتي ازرع وغزالة . وتقدمت القوات باتجاه الشيخ مسكين وشيخ سعد على احدى الطرق شمالي مزيريب باتجاه دمشق . وقد أمكن هناك أسر ثلاثين ضابطاً و ٥٠٠ جندي وكان أكثر هؤلاء من الالمان والنمساويين . وقد بدت على جيش العدو مظاهر معنويات منخفضة . وعلى الرغم من امتلاكه ١٥ رشاشاً اضافة الى البنادق والذخيرة المناسبة ، فانه لم يبد أية مقاومة تجاه هجمات البدو والفلاحين ، الذين انخرطوا في صفوف الثورة من أبناء حوران وجبل العرب والقبائل العربية المتواجدة هناك ، مما جعل العدو في حالة صعبة بحيث كان بامكان أي شخص أن يحرك قطعة من القماش الابيض ويصرخ قائلاً : « أنا برتبة رائد : إننا نريد أن نستسلم[2] » .

وفي يوم ٢٧ ايلول أخلت آخر وحدة تركية درعا ، وتحركت قوة السلط الى الشمال مارة بمزيريب وطفس ، وكان يكتنف هذه القوات الذعر التام لاعتقادها باحتمال سيطرة التخريب في حوران التي كانت في وضع ثورة مكشوفة . ولهذا فقد قررت استخدام

---

(١) وقد استجاب هؤلاء الى دعوته بدليل ما جاء في تقرير من فيصل الى أخيه الامير زيد حيث يقول له بتاريخ ١٨/ ٩/ ١٩١٨ : « الاحوال على ما يرام . وصل الينا نوري الشعلان بجموع كثيفة ومعه الدروز ١٥٠٠ خيال . وكل يوم الوفود في ازدياد . أهل حوران ينتظرون أمرنا بالحركة . قد بعثنا عدة سرايا في وجهات مختلفة »

(٢) الوثيقة رقم : ٣٣٨٣/ ٣٧٧ لعام ١٩٧٦ وزارة الخارجية البريطانية .

العنف الدموي ضد بعض القرى الثائرة لكي تكون عبرة لغيرها واختارت طفس ودرعا . حيث قامت بذبح ثمانين امرأة وطفلاً ، وكانت الفظائع التي ارتكبها الأتراك بحق السكان المدنيين لا تصدق ولكن الساعة الاخيرة للاستعمار التركي لبلاد الشام كانت قد دقت . لم يتأثر العرب لهذا الارهاب الوحشي الاعمى ولم يثبط من عزائمهم ، وانما تفاعلوا بشدة مع هذه المجازر الوحشية التي قامت بها القوات التركية ، وكانت أكبر حافز لهم للاخذ بالثأر وعدم ترك العدو يمر بدون عقاب . وتمت معاقبة القوة المسؤولة عن هذه الفظائع والجرائم فوراً وبهذا لم تستطع الوحدات التركية التي تحركت من درعا ومزيريب ان تصل أبداً الى دمشق حتى هذا التاريخ .

كان الشيخ طلال بن دباس ، وهو مقاتل ذو شهرة كبيرة وشخصية بارزة ، في حوران مع الجيش العربي . وعندما اكتشفت الفظائع التي ارتكبت في قريته ، هجم بمفرده على الرتل التركي ومزق شمله حتى سقط قتيلاً برصاص العدو . وفي فجر يوم ٢٧ اتجهت وحدات الهجانة العربية الى درعا التي بقيت طويلاً نقطة استناد قوية للاتراك ، ثم الى نقطة تبعد قليلاً غربي تقاطع سكة الحديد ، حيث أجرت أول تماس مع القوات الهندية في جيش الجنرال اللنبي ، التي تبعت القوات التركية من الاتجاه الفلسطيني الى الاردن[1] .

ثم شكلت قوات الهجانة العربية الجناح الايمن الاقصى للقوات الحليفة ، المتجهة الى دمشق ، ودخلت هذه المدينة في ليلة ٣٠ منه ، وكانت القوات العربية أول من دخل المدينة .

وقد كانت الأيام الأخيرة للحكم التركي في المدينة الشهيرة ، تتصف بالاذلال والمهانة للجانب المنهزم . فقد رفض السكان بيع المواد التموينية حتى بالذهب . وكان من الصعب جداً الحصول على مواد تموينية للمشافي ، وقد وضع الالمان يدهم بالقوة على جميع وسائط النقل لاستخدامها لاغراضهم الخاصة . وفي صباح ٣٠ منه شهد الدمشقيون بسرور ، نشوب قتال مفاجىء بين الاتراك والالمان ، نتيجة لشرّهِ الالمان في وضع يدهم على العربات وعلى ما خف حمله وغلا ثمنه . . وقد سقط نتيجة هذا القتال العديد من القتلى من الجانبين . كما حدثت أيضاً مناوشات كثيرة مماثلة ، بين الاتراك وأسيادهم البروسيين ،

---

(١) سليمان موسى : مذكرات الامير زيد رقم ٨٣ ـ ٨٥ برقيات من الامير زيد الى ابيه الملك حسين بتاريخ ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ أيلول ١٩١٨ ـ ص ١٠٨ . ثم رقم ٨٦ بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٩١٨ وهي برقية من الجنرال اللنبي الى الملك حسين حيث يهنئه « بالانتصارات الكبيرة التي حاز عليها الجيش العربي الهاشمي الذي أخذ نصيبه في قهر العدو والذي به صار تحرير الامة العربية تحريراً تماماً » .ص ١٠٩. راجع أياضا ما كتبه الجنرال الالماني ليمان فون ساندرز في كتابه « خمسة أعوام تركية » السابق الذكر ص ٣٣١ ـ ٣٣٣ و ٣٧٠ ـ ٣٨٠ أي من سقوط درعا حتى مغادرة الالمان مدينة دمشق في ٣٠/ ٩/ ١٩١٨ .

وقـد كانـت حصيلـة هذه المناوشـات وجـود عدد من جثـث الالمان على امتـداد خط الانسحاب . وفي المشافي انهارت الخدمات الصحية التـركية تمامـاً خلال الأيام الخمسـة الأخيرة ، بحيث أصبح الواجب الأول الـذي تكفـل به الجيش العربـي النظامـي بعـد الاحتلال ، ضرورة دفن الجثث التي تركت هناك لمدة ثلاثة وحتى خمسة أيام على الأرض حيث مات أصحابها . وقد تم توفير الطعـام للمـرضى وطُلـب الى العنـاصر العاملـة في المستشفى ضرورة متابعة واجباتها .

وفي يوم ٣٠ ايلول ظهراً ، تبخرت السلطة التركية نهائياً ، بحيث رفع الدمشقيون المتحمسون ، العلمَ العربي على بناء قاعة المجلس البلدي . وقد خرجت آخر وحدة تركية والمانية مجتازة هذا البناء ، ونظرت الى العلم الذي يعلن عن هزيمتها ، ولكنها لم تتجاسر أبداً على الاعتراض .

وفي الساعة السادسة من صباح يوم ١ تشرين الاول ، انطلق كل من الشريف ناصر ونوري الشعلان ، مع أشخاص بارزين آخرين من الميدان محطـة القـدم الى السرايا ، لتسلم ادارة المدينة التي سبق أن اعلنت تحررها من الأتراك ، والتي اعلنـت أيضـاً عن ترحابها الحار بقوات الملك حسين ، بتظاهرات واحتفالات قامت بها . وقـد مر الموكب المشار اليه ببطء ، تحيط به الزهور والعطور وجميع آيات الترحاب والتعاطف تجاه الشريف حسين ورفاقه المناضلين . بينما انطلقت الصرخـات ودمـوع الفـرح الشـديد وتنهـدات الأرتياح ، عند مغادرة القوات التركية الملعونة والمحتقرة ، من أفواه السكان الذين صلّوا طويلاً لوصول الجيش العربي .

وفي نفس الوقت كانت قوات الجنرال اللنبي تدخل المدينـة من محـور ـ القنيطـرة ـ دمشق ـ ولقد كان دخول القوات العربية الى دمشق « وسط مشاهد من الحماسة الفائقـة النظير من جانب أهل المدينة . كانت الشوارع حافلة بالجماهير الى حد يكاد يتعذر المرور منها ، وكانت الجماهير تهتف هتافات تشق عنان السماء وهي ترقص ابتهاجاً[1] » . .

وكان الأمير فيصل قد بعث رسلاً من قِبَله الى أعوانه في دمشق يطلب اليهم تسلّم زمام الامور حال انسحاب الأتراك ، ورفع العلم العربي على أبنية الحكومة في المدينة . وكان وكيل الوالي التركي قبل مغادرته دمشـق ظهـر يوم ٣٠ايلول قد اجتمـع بشـكري باشـا الايوبي ، وأنبأه بعزمه على الانسحاب ، وان عليه أن يتسلم ادارة المدينة ، فذهـب هذا الى سجن القلعة وفتح أبوابه وأخرج المسجونين منه باسم الملك حسين والحكومة العربية .

---

(١) تقرير لورنس الى القيادة البريطانية بتاريخ ١ تشرين الاول ١٩١٨ أوراق ونجت .

وفي الوقت ذاته ذهب الأمير سعيد الجزائري الى دار الحكومة ، ورفع العلم العربي الذي كان أخوه الأصغر عبد القادر قد جاء به من مكة في السنة السابقة ، وأعلن تأليف حكومة عربية باسم الملك حسين .

كان الأمير سعيد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الكبير ، الذي حارب الفرنسيين في الجزائر أعواماً عديدة ثم استقر في دمشق . وقد نفاه الأتراك مع أخيه وأبيه الى الاناضول ، بعد اعدام عمه الأمير عمر الجزائري . وبعد اعلان الثورة العربية فر عبد القادر من المنفى وذهب الى مكة ، فأعطاه الملك حسين علماً من أعلام الثورة وطلب اليه أن يرفعه في دمشق ، وجاء عبد القادر بالعلم بعد أن مر بالعقبة واجتمع بفيصل . وعندما ذهب الأمير سعيد الى وهيدة غربي معان ، رسولاً من قبل جمال باشا الصغير الى فيصل ، للبحث في عقد الصلح بين الأتراك والعرب ، طلب منه فيصل ان يعلن الاستقلال في دمشق حال انسحاب الأتراك ، وقبل وصول قوات الاحتلال الاجنبية[1] . وقد تعاون سعيد وأخوه عبد القادر مع السلطات التركية في الأشهر القليلة التي سبقت الانسحاب ، وأنشأ الاخوان قوة من المغاربة « لحفظ الامن ولمساعدة الجيوش التركية » . واستغل الأمير سعيد يوم ٣٠ ايلول هذه القوة لفرض نفسه رئيساً للحكومة المؤقتة . وبادر في اليوم ذاته فبعث الى رؤساء البلديات في المدن السورية واللبنانية البرقية التالية .

« بناء على تسليمات الدولة التركية فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف . طمنوا العموم وأعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

رئيس الحكومة العربية المؤقتة
«الامير سعيد »

وفي صباح يوم ١ تشرين الأول . وصل الرائد آرثر اولدن من الفرقة الاسترالية الى دار الحكومة ، وقال للأمير سعيد أنه يريد مساعدته في توطيد الأمن في دمشق ، فأجابه سعيد بأن الأمن مستتب وانه لا حاجة لمساعدته ، وطلب الرائد اولدن دليلاً ، فأعطاه الأمير سعيد اثنين من الضباط العرب لكي يدلاه على مخارج دمشق ، وللحال انسحب . وبعد

(١) بعث الامير فيصل من درعا رسالة الى الامير سعيد يطلب فيها منه استلام دمشق حال انسحاب الأتراك « باسم الحكومة العربية ، وارفعوا الاعلام الهاشمية على جميع المباني الاميرية وبداخل البلدة . واذا لم يسلموها الا حربا فعند انسحابهم من البلدة أملي وطيد بأنكم ترفعون الاعلام العربية قبل دخول أي كان الى البلدة . وأنكم تعلنون الحكومة المؤقتة باسم جلالة ملك العرب . واستقبلوا جيوش الحلفاء الداخلين وبأيديكم الاعلام العربية » . ولكن فائز الغصين الذي كان يحمل الرسالة لم يستطع الوصول الى دمشق في الوقت المناسب لتسليم الرسالة : راجع كتاب محمد جميل بيهم ، العهد المخضرم ، ص ص ٧٤ ـ ٧٥ .

ذلك بقليل وصل الشريف ناصر الى دار الحكومة ، فعرض عليه سعيد ان يتولى زمام السلطة بنفسه ، ولكن ناصر اعتذر بأنه مريض ، وكلف سعيد بالاستمرار في ادارة الحكم ريثما يصل الأمير فيصل وكتب له التفويض التالي :

« ان سمو الأمير سعيد مكلف بادارة الحكومة لحين حضور مولانا سمو الأمير فيصل . »

ولكن لم يلبث ان وصل لورنس وعدد من أعضاء جمعية العربية الفتاة ، فغاظهم تسلم الأمير سعيد زمام الحكم ، لأن لورنس كان غاضباً منذ أن خذله عبد القادر وأخوه سعيد في مهمة نسف جسر اليرموك . وأعضاء الجمعية العربية الفتاة كانوا يعتبرون سعيداً متعاوناً مع الأتراك ، وليس من الوطنيين القوميين . لهذا طلب لورنس من الشريف ناصر أن يأمر سعيد بالتنحي عن الحكم ففعل . وتسلم زمام الحكم أمير اللواء شكري باشا الايوبي مدة يومين ، حتى وصل فيصل فعين أمير اللواء رضا باشا الركابي حاكماً عسكرياً على دمشق ، وعين شكري الايوبي حاكماً عسكرياً على بيروت وطلب منه التوجه اليها في الحال .

وفي ١ تشرين الأول بعث اللنبي الى الملك حسين برقية يقول فيها : « يسرني أن ابلغ جلالتكم أن جنودنا المشتركة قد دخلوا مدينة دمشق الساعة السادسة من صباح اليوم . . . » ، كما أبرق في اليوم ذاته الى وزارة الحربية « بأن فرقة الخيالة الاسترالية دخلت ضواحي دمشق من الشمال الغربي الليلة الماضية . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم تم احتلال المدينة من قبل فيلق خيالة الصحراء والجيش العربي[1] » .

كانت دمشق تنتظر دخول الجيش العربي الفاتح بتلهف وفخر واعتزاز . لقد كان دخول هذا الجيش العربي المبين أمنيةَ كل مواطن عربي في بلاد الشام كلها . لقد كان الجميع يعرفون أن سقوط دمشق في يد العرب أهلها والمنافحين عن حوزتها ، هو بحد

---

(١) ان البرقية التي أرسلها الجنرال اللنبي الى الملك حسين بتاريخ ١/١٠/١٩١٨ التي يهنئه فيها بالانتصارات وبدخول « الجنود المشتركة مدينة دمشق الساعة السادسة صباحا تدل دلالة قاطعة على أن الجنود الاستراليين لم يدخلوا عاصمة سوريا قبل الجيش العربي » راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٧٤ ص ٢١٣ مع الحاشية وقد ناقش زين نور الدين الزين هذا الموضوع في كتابه « الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سورية ولبنان » بيروت ـ دار النهار للنشر ١٩٧١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ . أما الحكم الفاصل في هذه القضية فهو ما جاء في برقية الجنرال اللنبي الى وزارة الحربية البريطانية بتاريخ ٦/١٠/١٩١٨ حيث جاء حرفياً : « أعلن العرب تأسيس حكومة عربية برئاسة الملك حسين ورفعوا العلم العربي مباشرة عند بدء احلاء دمشق من قبل الاتراك وقبل أن تغادر القوات التركية المدينة وقد عين حاكم عربي لدمشق ولذلك عندما وصلت قواتي (يعني القوات العربية والبريطانية) المدينة كانت هناك ادارة عربية في المدينة ، وكان العلم العربي يرتفع فوق الابنية الرسمية » . راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٧٩ ـ ص ٢١٥ .

ذاته عملٌ جذري وانعطاف حاسمٌ في تاريخ الامة العربية منذ اعلان الثورة في حزيران عام ١٩١٦ . فقد كانت دمشق على مر العصور عاصمة الدولة الاموية التي ترامت املاكها من قلب الصين شرقاً الى قلب فرنسا والبرينيه غرباً . وكأن معركة دمشق خاتمة المطاف وبدءٌ لمرحلة جديدة كلها أمل مشرق بالمستقبل والاستقلال الوطني ، والاطمئنان القومي الراسخ . لقد ناضل رجال الثورة العربية الكبرى ٢٨ شهراً ، ليصلوا الى تحقيق هذا الحلم العظيم ، الذي يمثل الدخولُ اليها خاتمةَ عهد طويل مظلم من الحكم الاجنبي ، وبدايةَ عهد جديد مشرق يصبح العرب فيه سادة أنفسهم والمسيطرين على مصائرهم ، حيث يمكنهم المشاركة في الحضارة العالمية .

وفي تاريخ ٣ تشرين الاول وصل الشريف فيصل (القائد الأعلى لعمليات الشمال في قوات الملك حسين) الى خارج المدينة الزاهرة التي انتقلت من جديد الى السلطة العربية ، وقد وضعت سيارة تحت تصرفه ، لنقله خلال الحشود التي كانت بانتظاره لتقوم بتحيته والحفاوة به عند دخوله المدينة .

ولكن الشريف فيصل القائد الحكيم المتواضع ، الذي كان يتميز باحساس تاريخي مرهف وباستشفاف آفاق المستقبل ، فضّل دخولَ مدينة دمشق ممتطياً جواده يواكبه حوالي ١٥٠٠ شخص من أركانه ورجاله مما ترك أثراً طيباً في نفوس سكان المدينة .

وعمت دمشق موجةٌ عارمة من الفرح والبهجة . ولم يكن من اليسير على الكثيرين أن يصدقوا بسرعة أن كابوس الظلم والفوضى الذي امتد أربعمئة عام ، قد زال ، وأن دمشق عاصمة الدولة العربية الكبرى الاولى عادت ترفل بثياب العز من جديد . وقد ذكّرها موكبُ فيصل وصحبه الاشاوس بموكب التحرير الاول موكب ابي عبيدة وخالد .

وكان دخول اللنبي الى دمشق في نفس اليوم ، فاستقبل بالحفاوة كصديق وحليف . وسرعان ما عُقد بينهما أول اجتماع طويل حضره كبار القادة العرب والانجليز . تمّ فيه بحث الترتيبات العسكرية لمطاردة القوات التركية المنسحبة . أما الترتيبات ذات الطابع السياسي فقد اجملها اللنبي في برقية منه الى وزارة الحربية :

« لقد أبلغته (فيصل) انني على استعداد للاعتراف بالادارة العربية للاراضي المحتلة شرقي نهر الاردن من دمشق الى معان ، بصفة ادارة عسكرية تحت سيطرتي العليا ، وأبلغته كذلك انني سوف أعين ضابطي ارتباط بيني وبين الادارة العربية : أحدهما بريطاني والآخر فرنسي وان هذين الضابطين سوف يتخابران معي عن طريق كبير ضباطي السياسيين . وقد أبلغت الشريف فيصل أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، وافقتا على

الاعتراف بمركز المحارب للقوات العربية المقاتلة في فلسطين وسورية ، بصفة حلفاء ضد العدو المشترك[1] » .

تم تحرير سائر سورية ولبنان قبل أن ينتهي تشرين الاول نتيجة لحركتين حربيتين متميزتين ، سارت الحركة الأولى على طول الساحل مارة بصور وصيدا الى بيروت وطرابلس ، وسلكت الثانية الطريق الداخلية من خلال حمص وحماه وحلب ، ولم يقم العربُ بدور هام في الاولى وانما كان لهم نصيب وافر في الثانية .

بدأ التقدم الساحلي في اليوم الثالث من حيفا وعكا اللتين احتلتا بعد أن تغلغل اللنبي في البلاد بقليل ، فسارت فرقة بريطانية على طول الطريق التاريخي الجميل المتجه من عكا شمالاً ، واحتلت صور في اليوم الرابع وصيدا في السادس ، وكأنما المسير نزهة عسكرية لان الفرقة لم تواجه أدنى مقاومة . واستقبلت الكتائب في كل مكان بموجات من الترحيب . فدخلت بيروت في اليوم الثامن ، واستمرت مفرزة تُغذّ السير زاحفة الى طرابلس واحتلتها بعد خمسة أيام .

وفي الوقت نفسه كان اللنبي قد أصدر أوامره بشن هجوم من الجنوب الى الشمال على محور دمشق حلب ، وكان هذا الهجوم أصعب من سابقه ، ـ على المحور الساحلي ـ اذ كانت القوات البريطانية تعاني الشعور بارهاق الحملة القاسية ، وزادها سوءاً انتشارُ مرض مفزع ، وصعوبةُ ضمان التموينات وهي على تلك المسافة البعيدة من القاعدة . زد على هذا كله ان فئات غير صغيرة من العدو ، كانت متمركزة في نقاط مختلفة على طول الطريق ، وكان الاعتقاد بأن العدو قد جمع حشوداً قوية في الشمال لتدافع عن حلب ، الا أن هذه العقبات جميعاً ذللت . وهنا أيضاً كان النجاح ثمرة للتعاون بين القوات العربية والبريطانية .

وفيما كانت فرقة بريطانية تتقدم على طول الطريق الرئيسي من دمشق الى حلب ، كان لواء من النظاميين العرب يحمي ميمنتها ، كذلك قام الشريف ناصر على رأس قوة غير نظامية ، لمهاجمة حمص من الشرق ، فوصلها في الخامس عشر من تشرين الاول ، قبل

---

(١) سليمان موسى ـ المراسلات التاريخية رقم ١٧٩ . ص ٢١٥ ـ ٢١٦ . راجع أيضاً برقية اللنبي الى ونجت في ٣ تشرين الاول . [أوراق ونجت] . وكان بلفور قد بعث في ٢٨ أيلول برقية الى ونجت قال فيها أنه اقترح على الحكومة الفرنسية « الاعتراف بصفة المحارب لحلفائنا العرب الذين يقاتلون من أجل الاستقلال من الحكم التركي » . أما من كان يعنيهم بلفور بقوله أنهم حلفاء فقد ورد في الجملة التالية من البرقية ذاتها : « ان هذه الصيغة بينما تعترف بالحركة القومية العربية وتشمل جميع العرب في مضمونها ، فانها لن تعطي الانطباع بأننا نرغب فرض الملك حسين على سورية » .

P. R. O. CAB 27/ 34

وصول طلائع القوات البريطانية بيوم واحد ، وقد وجد أن الأتراك قد انسحبوا . . وبعد يومين احتل حماه دون مقاومة أيضاً ، الا أنه واجه مقاومة صلبة في ضواحي حلب ، حيث كان القائد مصطفى كمال على رأس فيلق قوي جيد الاعداد والتدريب مؤلف من فرقتين . ورسمت خطة هجوم مشترك تقوم به الخيالة البريطانية ، والنظاميون العرب في السادس والعشرين ، ولكن في عصر الخامس والعشرين تغلغلت القوات العربية القبلية في المدينة ، وامعنت في الحامية التركية قتلاً وتدميراً . . فأرغمت على الانسحاب وقامت القيادة التركية بتنظيم تراجع الفرقتين اللتين تحميان حلب في الجنوب . وفي صباح السادس والعشرين سارت الخيالة البريطانية والنظاميون العرب ، ودخلوا المدينة ، بينما كان لواء من الخيالة الهندية يصد ببسالة هجوماً مصمماً عنيداً يقوم به مصطفى كمال على بضعة أميال الى الشمال من المدينة[1] .

وفي التاسع والعشرين احتلت مفرزة من قوات الشريف ناصر محطة المسلمية ، ملتقى السكك الحديدية التي تتفرع الى القسطنطينية وسورية والعراق، وكانت هي آخر مركز تحتله قوات الحلفاء شمالاً لأن تركية وقعت في اليوم التالي هدنة مدروس (Mudros) [2] .

أثار تحرير بيروت وحلب ، بل وكل مدينة أخرى في سورية ولبنان ، مشاهدَ متماثلةً من البهجة والفرح ، كالتي استقبل بها المحررون بدمشق ، وارتفعت العواطف المستثارة بآمال الحرية السياسية ـ كما حدث في دمشق أيضاً ـ الى نوبة محمومة من السرور للخلاص من الآلام .

وهكذا أصبح أربعمائة عام من الاحتلال التركي البغيض للبلاد العربية في ذمة التاريخ .

***

(١) راجع ليمان فون ساندرز : « خمسة أعوام تركية » المذكور سابقا . ص ٣٨٤ حتى ٣٩٦ وراجع أيصا دراسة المؤرخ الالماني المعاصر فريتز فيشرFriz Fischer في مقالته : « أهداف الحرب الالمانية » في المجلة التاريخية (الالمانية) سنة ١٩٥٩ ـ المجلد ١٨٨ ص ٣٠٩ وما بعدها . وقد درس هذا المؤرخ نهاية الحرب الكونية الاولى وما رافقها من مفاوضات وأحداث في كتابه الشهير « الهجوم للسيطرة العالمية » : أهداف سياسة المانيا القيصرية في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ » . الطبعة الثالثة ـ دوسلدورف عام ١٩٦٩ .

(٢) نسبة الى ميناء مدروس في بحر أيجه ، وبها انهيت الحرب العامة في الشرق في ٣٠ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩١٨ .



الفصل الثامن

إعلان استقلال سورية ومبايعة فيصل ملكاً

« ينبغي لنا ان نعترف
بأن في فرنسا عدداً كبيراً من
الرجال الذين ينقصهم الفهم
والعدل اللذان يتحلى بهما
الامير فيصل »

«الجنرال بريموت» -١-

١ - نهاية الليل الطويل

في الثلاثين من ايلول ١٩١٨ انتهى الحكم التركي في دمشق ، ذلك الليل الطويل الذي استمر زهاء أربعمائة عام . . ففي عصر ذلك اليوم رفع العلم العربي على سارية فوق مبنى البلدية في ساحة المرجة ، وهي نفس الساحة التي شهدت منذ سنتين وبضعة شهور تنفيذ حكم الاعدام بأحرار الشآم . . كان ذلك العلم ، هو علم الثورة العربية الكبرى . بألوانه المتوازية الأسود والأخضر والأبيض ، ويشمل الألوانَ الثلاثة مثلثٌ ذو لون أحمر عنابي[٢] .

---

(١) الجنرال بريمون في كتابه (المجاز في الحرب العالمية) . باريس ١٩٣١ ـ ص ٢٢ .

(٢) راجع جريدة القبلة الصادرة في مكة العدد (٨٢) ، ٧ شعبان ١٣٢٥ حزيران ١٩١٧ .

أما اللون الأسود فهو رمز راية (العقاب) ، وهي راية الرسول العربي (ص) المشهورة التي رفعها في غزوة خيبر ، كما اتخذت دولة بني العباس اللون الأسود شعاراً لها . . وأما اللون الاخضر فهو شعار الدولة الاموية ، كما أن هذا اللون هو الشعار الذي اشتهر به آل البيت عليهم السلام منذ أحقاب طويلة . . واللون الأبيض يمثل صفاء النفس العربية ، وكان شعاراً للعرب في دور من أدوارهم ، كما كان شعار الدولة الفاطمية .

أما اللون الأحمر الذي يشمل الألوان الثلاثة ، فهو راية الأسرة الهاشمية من عهد جدّها الشريف أبي نمي حتى الوقت الحاضر .

وقد دخل الأمير فيصل دمشق دخول الظافر ، ممتطياً جواداً عربياً ، على رأس قوة عسكرية قوامها ١٥٠٠ فارس عربي ، وسط أهازيج من الحماسة والابتهاج لم تشهد البلاد لها مثيلاً . . كانت دمشق (قلعةُ الأمة العربية) تمثّل الشيء الكثير في نظر الأمير فيصل وفي نظر أبيه الشريف حسين قائد الثورة العربية الكبرى . . انها نهاية مطامح العرب الوطنيين . . وكان تحريرها من ربقة الاستعمار التركي يشكل تحقيقاً ـ ولو جزئياً ـ لأمانيهم القومية في الاستقلال ولانشاء الدولة العربية الواحدة[١] .

ذكرنا أن الأمير فيصل عينّ أمير اللواء علي رضا باشا الركابي[٢] حاكماً عسكرياً عاماً ، وأصدر التعليمات لأمير اللواء شكري باشا الايوبي بالذهاب الى بيروت وتأسيس الحكومة العربية فيها بناء على طلب أهلها . . ذلك أن أعيان بيروت بعثوا ببرقية الى (القيادة العربية العليا) في دمشق ، طلبوا فيها أن ترسل دمشق اليهم ممثلاً للشريف حسين ، لينظم أمر الحكومة العربية في المدينة . فبعث نوري السعيد ببرقية جوابية لهم لكي يرفعوا العلم العربي (بعد أن وصف شكله وألوانه) على جميع المباني الحكومية ، وأن يترقبوا وصول قوة عسكرية عربية لمساعدتهم في مهمتهم هذه . وعندما أُخبر الأمير فيصل عن الوضع في بيروت ، وافق على ارسال شكري باشا فوراً على رأس قوة عسكرية رمزية قوامها مائة جندي عربي ومعهم ثمانية رشاشات بالاضافة الى الأسلحة الفردية وعدد من الأعلام العربية . غادرت هذه القوة دمشق في الثاني من شهر تشرين الاول ووصلت

---

(١) راجع بالمعنى ذاته : زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان المذكور سابقا ، ص ٧٩ .

(٢) ولد وتوفي في دمشق (١٨٧٧ ـ ١٩٤٢) . تعلم في دمشق ، وتخرج من المدرسة الحربية بالآستانة . تولى وظائف عسكرية في القدس ، فالمدينة عام ١٩١٢ . وكان من المؤمنين بالقومية العربية وانتسب الى جمعية العربية الفتاة والعهد السريتين . عين حاكما لدمشق ورئيسا لوزارتها مع دخول الجيش العربي اليها عام ١٩١٨ ثم استقال ولزم بيته . ثم التحق بامارة شرقي الاردن في عمان عام ١٩٢٢ وتولى الوزارة مرتين وعاد الى دمشق الى أن توفي .

بيروت في الرابع منه ، بعد سفرة عسيرة على ظهور الجياد ، لأن الالمان كانوا قد خربوا الخط الحديدي بين المدينتين . واضافة الى ذلك فان برقية الأمير سعيد الجزائري كانت ذات تأثير فعال . . اذ أن رئيس بلدية بيروت عمر الداعوق عندما تلقى البرقية بعد ظهر يوم ٣٠ ايلول ١٩١٨، ذهب مع ثلاثة من أعيان بيروت الى والي ولاية بيروت اسماعيل خير بك ، وأطلعه على البرقية . . وبعد شيء من التردد ، وافق الوالي على تسليم شؤ ون الادارة ، وأعطى رئيس البلدية كتاباً رسمياً مؤ رخاً في ١ تشرين الأول ١٩١٨ وجهه الى جميع مأموري الحكومة العثمانية في الولاية ، قائلاً أنه بسبب نشوء الوضع الخطير الناجم عن تأسيس حكومة عربية في دمشق ، فانه قرر تسليم شؤ ون الادارة في بيروت الى رئيس البلدية ، وأبلغ المأمورين بانتهاء وظيفتهم مع الحكومة العثمانية . .

وهكذا أصدر رئيس الحكومة العربية في بيروت بياناً بتاريخ ١/ ١٠/ ١٩١٨ نشرته الصحف البيروتية أعلن فيه تسلمه زمام السلطة . وبالفعل بدأت الادارة العربية بممارسة عملها . . ثم اتصلت بحكومة دمشق ورفعت العلم العربي على دار الحكومة في احتفال شعبي ، وقامت برفع العلم العربي المناضلة فاطمة المحمصاني (شقيقة الشهيدين محمد ومحمود) .

وفي السادس من تشرين الاول ١٩١٨ تسلم شكري الايوبي زمام السلطة ، وأعلن انضمام لبنان الى الحكومة العربية ، وعيّن حبيب باشا السعد حاكماً مدنياً بعد أن أقسم يمين الولاء للملك حسين . . وكان مغزى ذلك أن الحكومة العربية الجديدة اعتبرت لبنان جزءاً عادياً من أجزاء سورية . . كما اعتبرت امتيازاته القديمة بحكم الملغاة .

وحذت المدن الأخرى حذو بيروت ، ففي صيدا شكل الأهلون ادارة مؤ قتة ورفعوا العلم العربي ، ثم وصل مندوب الحكومة العربية في دمشق على رأس ٥٠ رجلاً . . وحدث الأمر ذاته في اللاذقية وفي طرابلس وصور وبقية المدن الساحلية .

لكن الأمور لم تسر على ما يرام ، وكأن قدر هذه الأمة أن تكافح دائماً وأبداً ضد الاستعمار بمختلف أشكاله وصوره . . وقديماً قيل : تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . .

ذلك أن صدمة عنيفة كانت بانتظار الأمير فيصل . . ومفاجأة لم تكن متوقعة . . لان الجنرال اللنبي(١) القائد العام للحملة البريطانية كان في ذلك اليوم (٣ تشرين أول عام

---

(١) اللنبي ادمون هنري (١٨٦١ - ١٩٣٦) قائد بريطاني اشترك في حرب البوير في فرنسا في الحرب العالمية الاولى وقاد الحملة البريطانية في مصر (١٩١٧ - ١٩١٩) فغزا فلسطين واستولى على بيت المقدس وانتقل الى سورية ورفع الى رتبة فيلد مارشال ومنح لقب فيكونت للدور الذي لعبه في طلب تركيا الهدنة من الحلفاء بسبب معاركه العسكرية ضد الجيش التركي ، عين مكان ونجت كمندوب سام في مصر إثر اندلاع ثورة ١٩١٩ واستقال من منصب عام ١٩٢٥ وعاد الى بريطانيا .

١٩١٨) يسرع الخطى للوصول الى دمشق وهو مضطرب الخاطر قلق البال . . بسبب أخبار خطيرة كان قد تلقاها من سورية . وكان المصدرُ الرئيسي لاضطرابه وقلقه ، تلقيه أخباراً من مركز القيادة العامة في بيرسالم ، ومن المفوض السامي البريطاني في مصر ومن القنصل الفرنسي في القاهرة ، ومن السيد بيكو ، ولا سيما تلك الرسائل التي تلقاها من وزارتي الحربية والخارجية ، وكان النغم السائد في كل هذه الرسائل ما مؤداه : « اخنقوا حركة فيصل في مهدها . . أوقفوا السيل العربي . . تذكروا اتفاقية سايكس ـ بيكو[1] »

التقى الأمير فيصل والجنرال اللنبي في فندق فيكتوريا بدمشق في نفس اليوم ، وحضر المقابلة الرائد لورنس ، واتسم اللقاء بشيء من الحدة والصخب ، ولا غرو في ذلك فقد كان الرجلان على طرفي نقيض . . فقد كان الأمير فيصل يمثل الانسان العربي في تواضعه ونبله وكبريائه وأصالته . . وكان الجنرال اللنبي يمثل العقلية الانكليزية الاستعمارية المتغطرسة المتعالية . . والتي لا تألف سوى اصدار الاوامر . .

بدأ الجنرال اللنبي الكلام : « وقال ان الحرب لم تنته بعد . . وإن الارض التي احتلتها الجيوش التي تأتمر بأمرته تُعْتَبَرُ « أرض العدو » ، وفي الوقت الحاضر تعتبر بريطانيا نفسها مسؤولة عن ادارة هذه المناطق المحتلة . . ومهما يكن من أمر وبحسب اتفاقية عقدت مع الفرنسيين ، فانه تلقى تعليمات بالسماح للفرنسيين لتولي شؤون الادارة في المنطقة « الزرقاء » التي تمثل سورية ، غربي دمشق وحلب . . والتي تشمل مدينة بيروت ولبنان . . » ثم التفت اللنبي الى الأمير فيصل وشرح له أن المنطقة (أ) المشار اليها في تلك الاتفاقية مع فرنسا والتي تضم دمشق وحمص وحماه وحلب فان فرنسا ستكون الدولة الحامية لها . وأضاف : « ولكن فرنسا قطعت عهداً على نفسها أن تساند قيام دولة عربية مستقلة[2] » .

وفي ذلك الحين ، تلقى الجنرال اللنبي برقية من وزارة الخارجية البريطانية تُعْلِمُهُ فيها باعترافها أن العرب يعتبرون مشتركين في هذه الحرب . وكانت التوجيهات المعطاة للجنرال اللنبي ، تسمح له بأن يعترف بحكومة عربية برئاسة فيصل ، كممثل لأبيه الملك حسين في الاراضي العربية المحررة الواقعة شرقي نهر الاردن من العقبة حتى معان بما في ذلك دمشق ، على أن يحتفظ بحقه في تعيين ضابطي ارتباط ، الواحد منهما بريطاني والآخر

---

(١) راجع مقالة نشرها بيكلز ويلسون في المجلة الوطنية الانكليزية عدد أيلول ١٩٢٠ ـ ص ٤١ ـ ٥٤ .

(٢) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية المذكورة سابقا رقم ١٧٩ ـ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ عن اجتماع اللنبي بالشريف فيصل في حضور مرافقي ومرافقيه وراجع أيضا التقرير الذي أرسله الأمير فيصل الى أبيه الملك حسين من دمشق بتاريخ ١٩١٨/١٠/٢٠ رقم ١٨١ ـ ص ٢١٦ ـ ٢١٩ .

فرنسي ، ليكونا في مساعدته عندما يتصل بالحكومتين البريطانية والفرنسية . . فيما يتعلق بشؤ ون الحكم العربي في تلك المنطقة . . وعندما احتج الأمير فيصل بشدة على تولي الفرنسيين أمر سورية وعلى تعيين ضابط ارتباط فرنسي ، أجابه الجنرال اللنبي باصرار ، أن هذه الاوامر قد صدرت اليه بصفته القائد العام في فلسطين وسورية ،ويجب عليه أن يطيع أوامره كقائد لجيش حليف ، ونصح الأمير فيصل بأن يقبل الوضع القائم الى حين عقد مؤ تمر الصلح[1] .

علم النقيب كولندور ، نائب المندوب الفرنسي في دمشق بسفر شكري الايوبي الى بيروت بتاريخ ٥ تشرين الاول ، فاحتج أمام فيصل على ارسال الجنود العرب الى بيروت قائلاً : ان هذا يخالف الاتفاقات المعقودة ، وعندما علم الجنرال اللنبي بالأمر أبرق في ٦ تشرين الاول ببرقيتين الى وزارة الحربية البريطانية يقول فيهما : « بعد الاشارة الى الفقرة الثانية من اتفاقية « سايكس ـ بيكو » فأن العمل غير المتوقع ، الذي اتخذته الحكومة العربية قبل أن يحتل الحلفاء بيروت احتلالاً فعلياً ، أو حتى دمشق ، يضع الممثل الفرنسي في وضع صعب . . وأن معرفة العرب بالتأكيدات التي أعطيت للسوريين السبعة تجعل الموقف معقداً في بيروت لان تلك التأكيدات أعلنت أن حكومات هذه المناطق سوف تؤ سس بناء على رغبة المحكومين . كما أن الزعماء العرب لم يبلغوا رسمياً مواد الاتفاقية الانكليزية الفرنسية[2] » .

بدأ تنفيذ الخطة المرسومة بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية يسير بثبات وبسرعة ، ففي ٩ تشرين الاول وصلت القوات الانكليزية براً الى بيروت ، ووصلت قطع من الأسطول الانكليزي بحراً الى بيروت ، واعتبر المسؤ ولون البريطانيون ؛ أن الأمير فيصل ، خرج عن الحد المرسوم له عندما أرسل شكري الايوبي الى بيروت ، بدون استشارة وموافقة الجنرال اللنبي . . ولذلك فقد أصدر الجنرال اللنبي بصفته القائد العام للقوات المسلحة في فلسطين وسورية أمراً ، بتعيين العقيد بيباب Piepape الفرنسي حاكماً عسكرياً للمنطقة الغربية . وطلب قائد القوات البريطانية التي وصلت الى بيروت من شكري الايوبي أن يُنزل العلم العربي ويغادر بيروت ، ولكن شكري الايوبي رفض تنفيذ هذا الأمر وقال : انه لن يفعل شيئاً من هذا القبيل الا اذا تسلم أمراً مباشراً بذلك من الأمير فيصل . . ومضى كلايتون يطلب من فيصل أن يترك لبنان وشأنه ، وأن يبذل جهوده لتأسيس ادارة سليمة من المنطقتين (أ و ب) . وأبرق اللنبي الى فيصل يطلب منه أن

---

(١) راجع زين نور الدين زين في كتابه « الصراع الدولي في الشرق الاوسط » المذكور سابقا ـ ص ٨٠ ـ ٨٢ .

(٢) راجع سليمان موسى : الحركة العربية ـ ص ٣٩٨ .

يصدر أمراً لشكري الايوبي بالانسحاب . . ولكن اللنبي لم ينتظر اجراءات فيصل ، بل تمّ بأمره ليلة ١٠/ ١١ تشرين الاول إنزال الاعلام العربية عن بيروت والمدن الساحلية الأخرى ، على الرغم من معارضة المأمورين العرب .

وأبرق اللنبي الى وزارة الحربية في ١١ تشرن الأول قائلاً : « ان العلم العربي أُنزل ، ولكن فيصل لم يسحب شكري حتى الآن ، لقد حذر فيصل من أنه اذا حاول السيطرة على المنطقة الزرقاء التي يجب أن يبت مؤتمر السلم في أمرها ، فانه سيلحق الضرر بقضيته » ، بينما أبلغ فيصل « بأن الاوامر والتصريحات الصادرة عن القائد العام تعتبر نافذة المفعول دون سواها » . وكانت هذه التوجيهات كرد غير مباشر على البيان الذي أصدره فيصل في ٥ تشرين الأول بانشاء « حكومة عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية[1] » .

وعندما بلغ فيصل أمرُ انزال الأعلام العربية ، أرسل برقية احتجاج طويلة الى اللنبي بشأن « ما حصل على الراية العربية ببيروت من الحقارة . الراية التي كنتم بالامس أخبرتموني أنها حليفة راية الحكومة البريطانية العظمى . . . ان هذه الراية . . . رُفعت من طرف أمة اختارت هذه الراية لنفسها ، والتحقت بأبناء جلدتها وجنسها وطلبت منا ارسال حاكم اليها ، بدون أي مجبر ، كما كان يفعل أهل اللاذقية وطرابلس . . . ان أهل ساحل سورية أرادوا وفعلاً انضموا الى اخوانهم العرب ، فهل من العدل والانصاف حرمانهم من أمانيهم ؟ ولكوني عربياً ولأنني نائب هنا عن والدي صاحب الراية المهانة من جانب حلفائه ، أطلب اعادة شرف تلك الراية بارجاعها كما كانت وتحقيق أماني أهل بيروت[2] . . . » .

وأبرق كلايتون في ١٢ تشرين الاول « إن الوضع في بيروت سوِّي محلياً وتولى (بيباب) الحكم ، ولكن لم تجر تسوية الموضوع الرئيسي ، لان فيصل يعلن انه لا يستطيع رسمياً أن يستدعي شكري دون أن يفقد مكانته ، مما قد يستدعي استقالته » . ولكن فيصل اشترط شرطين لكي يأمر شكري بالانسحاب :

١ ـ الحصول على تأكيد من القائد العام ، بأن أية ترتيبات تجري الآن في المناطق الساحلية ، هي ذات طابع عسكري ولا تؤثر في التسوية النهائية .

---

(١) راجع بلاغ فيصل المؤرخ في ٥ تشرين الاول ١٩١٨ أمين سعيد ـ المجلد الثاني ـ ص (٢ ـ٣) . وراجع أيضا سليمان موسى : الحركة العربية ـ ص ٣٩٩ .

(٢) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٨٢ ـ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ برقية من الأمير فيصل الى الجنرال اللنبي . الواقع أن هذه البرقية لا تحمل تاريخا ولكنها قد أرسلت ـ كما يرجح ـ في أواسط الشهر حسب القرائن الموجودة بين أيدينا .

٢ ـ توافق حكومتا بريطانيا وفرنسا على تأكيد القائد العام .

وأبدى كلايتون رأيه بأن من الضروري اصدار تصريح يحدد السياسة الفرنسية لتبديد مخاوف العرب[١] . وأراد فيصل أن يقدم استقالته احتجاجاً ، ولكن كورنواليس ضابط الارتباط البريطاني ، أقنعه بتأجيل الإقدام على هذه الخطوة الى أن يصل اللنبي الى دمشق[٢] .

كانت السياسة البريطانية في ذلك الحين تتجه لاقناع الملك حسين ، بالاكتفاء بفتات المائدة الذي تقدمه اتفاقية سايكس ـ بيكو للعرب[٣] ، فسارع الجنرال اللنبي وكلايتون الى دمشق للاجتماع بفيصل ، هذا الاجتماع الذي تمّ في ١٦ تشرين الاول ١٩١٨ . في بداية الاجتماع نقل فيصل لهما قلقه وقلة ثقته بمقاصد الضباط الفرنسيين الذين قد يستغلون المناصب الكبيرة التي سيتولونها للتأثير على مبدأ تقرير المصير لمصلحة فرنسا عندما تحين التسوية النهائية .

وكان جواب اللنبي كما أبرق به الى لندن : « لقد أعطيتُ للأمير فيصل تأكيداً رسمياً بأنه مهما تكن الاجراءات التي يمكن اتخاذها خلال فترة الادارة العسكرية ، فانها ستكون اجراءات مؤقتة ، ولن يسمح لها أن تؤثر في التسوية النهائية التي سيجريها مؤتمر السلم ، وهو المؤتمر الذي لا شك في أن العرب سيُمثّلون فيه . وقد أضفت قائلاً : « ان تعليماتي للحكام العسكريين سوف تمنعهم من التدخل في المسائل السياسية ، وانني اذا وجدت أياً منهم يخالف هذه التعليمات ، فسأعمد الى عزله من منصبه . وقد ذكّرت فيصل بأن الحلفاء مرتبطون بشرفهم ، وهم سيحاولون التوصّل الى تسوية تتفق مع رغبات الشعوب ذات العلاقة ، وحثثته ان يضع ثقته في حسن نياتهم[٤] » .

وأظهر اللنبي فكرته بأنه لا يمكن القضاء على شعور عدم الارتياح الذي يحس به

---

(١) البرقية رقم ١١٥ (Ec. 1918)ملف ٢٧/ ٣٤ بتاريخ ١٢/ ١٠

(٢) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٨٠ ـ ص ٢١٦ وهي برقية من كلايتون الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٣/ ١٠/ ١٩١٨ حيث يقول : « اغتم فيصل كثيراً عندما بلغه نبأ انزال الأعلام العربية في بيروت وقد قدم استقالته ولكن ضابط الارتباط البريطاني اقنعه بتأجيل اتخاذ أية خطوة الى أن يصل القائد العام الى دمشق » وراجع أيضا في هذا الموضوع ما كتبه سليمان موسى نفسه في كتابه الحركة العربية ـ ص ٤٠٠ .

(٣) رسالة ونجت الى اللنبي بتاريخ ٣ تشرين الاول ١٩١٨ (أوراق ونجت) . ملف ٢٧/ ٣٤ .

(٤) برقية اللنبي رقم I. 6906/ P الى وزارة الحربية بتاريخ ١٧ تشرين الاول : (EC. 2006) 35 / CAB 27 وفي رسالة خاصة كتبها اللنبي في اليوم ذاته قال : ان فيصل « يخشى الحلول التي ستنتج عن مؤتمر السلم ، ولكنني قلت له : أن عليه أن يثق بدول الحلفاء وبأنها ستعامله بانصاف » . ووصف فيصل في رسالته بأنه « قوي الارادة مستقيم المبدأ » .

Brian Gardner : Allenby , Cassell , London, 1965, P. 190

العرب عموماً ، إلا باصدار تصريح سياسي علني من الحكومتين البريطانية والفرنسية[١] .
وفي اليوم التالي أبرق كلايتون يقول ، إن تأكيدات اللنبي بعثت بعض الاطمئنان في نفس فيصل ، وهو الآن « يضع ثقته الكاملة في حسن نيات الحكومة البريطانية وتأكيدات القائد العام » . وبناء على هذه التأكيدات سحب فيصل الحكام والممثلين الذين كان قد بعث بهم الى لبنان وولاية بيروت . وقد أثارت تقسيمات اللنبي الادارية اهتمام العرب ، من ناحية عدم وجود منفذ ساحلي للمنطقة الشرقية . وتساءل كلايتون عما اذا كان بالامكان اعطاؤهم تأكيداً بهذا الخصوص ، كما طلب من وزارة الخارجية اقناع الحكومة الفرنسية بأن توافق على ادخال أقضية بعلبك وراشيا وحاصبيا في المنطقة الشرقية على الرغم من أن اتفاقية سايكس ـ بيكو وضعتها في المنطقة الزرقاء[٢] .

ولكن على الرغم من تأكيدات اللنبي ، لم يلبث فيصل أن فوجيء بورود برقية منه يطلب فيها تسليم أقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا الى المنطقة الفرنسية ، بعد أن كان الحكام العرب قد مارسوا مهام ادارتها أكثر من اسبوعين ، وبالرغم من أن الأقضية الأربعة كانت تتبع ولاية سورية في العهد العثماني . ورد فيصل قائلاً : أن هذا الطلب يزيد من ارتياب الأهالي في نيات فرنسا ، وان الاصرار على تنفيذه سيدفعه الى ترك البلاد . واشار الى محادثات أبيه مع سايكس وبيكو في جدة ، والاتفاق بينهما وبينه على أن حكومة أية منطقة « تتبع مشيئة أهلها » . وطالب في برقيتين متتابعتين « بتشكيل لجنة مختلطة بأسرع ما يمكن تأخذ رأي الأهالي بخصوص مستقبلهم[٣] » .

وهذه أول مرة يطالب العرب فيها بلجنة تحقيق دولية ، تأخذ آراء الأهالي في شكل الحكومة التي يريدونها ، بناء على مبدأ تقرير المصير الذي نادى به الرئيس الأميركي تيودور ولسون ، ووافقته عليه دول الحلفاء .

الواقع أن اللنبي قد اعترف بفيصل كأعلى سلطة في المسائل العسكرية والأدارية في المنطقة الشرقية ، ولكن ذلك قد أوقعه في تناقض لا يمكن تفسيره ، اذ بينما منع قيام ادارة

---

(١) أوراق ونجت : برقية اللنبي بتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩١٨ : CAB 27/35

(٢) أوراق ونجت ـ برقية كلايتون رقم ١٢٩١٨ الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٨ تشرين الاول ١٩١٨ .

(٣) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية المذكورة سابقا رقم ١٨٩ ـ ١٩٠ ـ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ . وراجع أيضا كتاب : اتوري روسّي : وثائق حول نشوء وتطور القضية العربية المذكورسابقاً(باللغة الايطالية) رقم ٢٦ ـ ص ٧٠ . وقد جاء في برقية احتجاج ثانية ارسلها الأمير فيصل الى الجنرال اللنبي في هذه الفترة . أي ما بين ١٥ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩١٨ حيث يقول له : « أن أهل ساحل سورية أرادوا ـ وفعلاً انضموا ـ الى اخوانهم العرب فهل من العدل والانصاف حرمانهم من أمانيهم . . . أن اعطيناهم العهد والمواثيق بأنهم سيكونون مخيّرين في تعيين مستقبلهم . . . وهم أحرار غير مسودين من جانب أية قوة كانت » .

عربية في بيروت وثغور الساحل السوري الأخرى ، وافق على الحاكم العربي الذي عينه فيصل لثغر اللاذقية ، على أساس أن أهل اللاذقية راضون عن النظام الذي أنشأه فيصل . وأن فرض حكم لا يقبله الأهلون قد يكون أمراً عسيراً[1] . هذا مع العلم أن موقف أهل اللاذقية من حكم فيصل ، لم يكن يختلف عن موقف أهل بيروت وطرابلس وصور وصيدا . وقد جاء في برقية الأمير فيصل الى الجنرال اللنبي « إن الراية العربية لم تُرفع في بيروت بواسطتي أو بواسطة شكري أو أية سلطة عسكرية ، بل إنها رُفعت من طرف أمة اختارت هذه الراية لنفسها ، والتحقت بأبناء جلدتها وجنسها وطلبت منا ارسال حاكم اليها من دون أي « منطقة » كان كما فعل أهل اللاذقية وطرابلس . . . »[2]

لقد أرسل فيصل لأبيه وصفاً للوضع قال فيه : « إن جميع البلاد من بيروت الى حد اسكندرون في الساحل ، أعلنت بأنها من أجزاء المملكة العربية ، ورفعت الرايات ، كما فعلت بيروت وطرابلس والشام واللاذقية وصيدا وصور » . ولكن ما حدث من نزاع بشأن بيروت وإنزال الراية « جبراً » بأمر اللنبي ، أدى الى اضطراب العلاقات مع فرنسا وبريطانيا ، وان وجهة نظر اللنبي تقوم على أنه قسم البلاد الى ثلاث مناطق عسكرية « ولا دخل للسياسة في هذه التقسيمات » . وأنه لم ترفع أعلام في البلاد المحتلة باستثناء دمشق ، ولذلك أمر بإنزال العلم في بيروت « ومستقبل البلاد سيكون بمؤتمر الصلح » . وأضاف فيصل أنه إحتج أمام اللنبي « بالمذاكرة والاتفاق الذي حصل بين جلالتكم وبين مندوبي الدولتين في جدة وهو ابقاء مستقبل البلاد على رغائب أهلها » . وأنبأه أنه كان قد أرسل شكري الايوبي والمندوبين الآخرين الى الساحل « ليعلم العالم بأسره أن أهل ساحل سورية اختاروا مستقبل بلادهم قبل أن تلعب بهم أيادي السياسة » . وان الفرنسيين بدأوا يبثون الدعايات وقلب أفكار الناس . وطلب من أبيه التدخل وارسال الأمير عبد الله الى دمشق لمعالجة الموضوع[3] .

وبعد أحداث بيروت ، أوضحت الحكومة البريطانية للملك حسين ظروف الوضع القائم في سورية ، بارسالها برقيه له تعلمه فيها أن الجنرال اللنبي هو صاحب السلطة العليا في سورية وفلسطين « بصفته القائد العام لقوة حملة الحلفاء » . وأن سلطة اللنبي أنيطت :

١ ـ في فلسطين بادارة قائد بريطاني .

---

(١) أوراق ملنر ، برقية اللنبي بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٩١٨ .

(٢) سليمان موسى : المراسلات التاريخية : رقم ١٨٢ ـص٢١٩ .

(٣) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٨١ ـ ص ٢١٦ ـ ٢١٩ وهو تقرير مسهب ارسله الأمير فيصل الى أبيه الملك حسين من دمشق بتاريخ ٢٠/١٠/١٩١٨ .

٢ ـ في منطقة معان ـ دمشق بالادارة الحربية العربية عن طريق ضابطي ارتباط فرنسي ، وانكليزي (مع القول أن حمص وحماه وحلب سوف تتبع عند احتلالها ادارة دمشق) .

٣ ـ « وقد رئي أنه من الضروري تشكيل ادارة حكومة وقتية تحت سلطة الجنرال اللنبي مباشرة ، تكون في الأقليم الساحلي ، الذي يجب أن يعامل في الوقت الحاضر معاملة أراضي أعداء محتلة . وتكون هذه الادارة في يد ضباط فرنسيين تحت السلطة العليا المخولة للقائد العام البريطاني ، وهو الذي يعين هؤلاء الضباط[1] » .

ويتبين من هذه البرقية حرص الحكومة البريطانية على افهام الملك حسين أن لا دخل للسياسة في هذه الترتيبات وأنها ذات طبيعة مؤقتة ، ولكن الملك حسين استشف ما وراء العبارات المطاطة من مقاصد سياسية ، فأبرق الى ونجت يقول : ان هذا الترتيب « سيكون حكماً قاضياً على مخلصكم بالانتحار بالنظر لصورة ادارة السواحل . . . لكن لا يتصور أن تكون بلاد بلا سواحل . ولو بقي مقدار مساحة عش فراخ في أي نقطة منه تحت يد أجنبية تصبح منشأ حوادث وفتن واختلافات تؤدي لمحو البلاد[2] . . . » .

وأبدى الملك رغبته في السفر الى دمشق ، للاشراف على الوضع بنفسه . ولكن ونجت نصحه الا يفعل معتذراً بأن سورية تخضع الآن لادارة عسكرية[3] .

نقل ونجت برقية الشريف الى وزارة الخارجية في لندن ، وأضاف اليها : « أن الشريف كما يبدو ينوي التنازل عن الملك والانسحاب من العمل في الحركة العربية » . ثم حثّ ونجت حكومته « بأقصى تشديد » بأن ترسل للشريف دون تأخير رسالة تطمين . وقال : إنه لمن الضروري أن تعلن فرنسا سياستها وأهدافها في سورية . ولكنه حذر من أن أي تصريح لن يجد قبولاً حسناً من لدن الملك حسين وغالبية العرب ما لم يتضمن التأكيد :

١ ـ على أن فرنسا لن تضم اليها أية أراض عربية أو سورية .

٢ ـ ان الفرنسيين سيحكمون في أية منطقة يتولونها من سورية ، بهدف إعداد أهل

(١) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٨٣ ـ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ وهي رسالة من ونجت الى الملك حسين عن طريق المعتمد البريطاني . كان ونجت هو الذي اقترح في البداية احاطة الملك حسين علما بالترتيبات العامة لادارة المناطق السورية . واقترح نصا للمخابرة لا يشتم منه وجود اتفاقية مسبقة بين فرنسا وبريطانيا لان « الملك لا علم رسمي له بالاتفاقية » . وقد أخذت وزارة الخارجية بنصيحة ونجت وجاءت رسالتها الى الملك مطابقة لما اقترحه .

(٢) سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٨٧ ـ ص ٢٢٣ .

(٣) سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٨٨ ـ ص ٢٢٤ ـ الحاشية

البلاد كي يحكموا أنفسهم وبقصد المحافظة على المطامح العربية .

٣ ـ ان الحكومتين البريطانية والفرنسية ، تعترفان بضرورة حصول حكومة دمشق ، على منفذ حر وميناء على البحر الأبيض المتوسط[١] .

تضمن جواب ونجت على برقية الشريف القول : أنه بعث بمضمون برقيته الى لندن ، ثم طلب منه : « بكل إخلاص ، أن تعتقدوا أن قيادتكم هي من ألزم اللوازم للنهضة العربية ولمساعدة العرب كي يجنوا ثمار المحالفة ويصونوا مستقبلهم السياسي » . ثم عبر عن أسفه لان ترتيبات اللنبي أثارت شكوكه ولم تنل رضاه ، ولكنه ذكر الشريف « أن هذه الترتيبات وقتية » ، وطلب منه أن يستعد للاشتراك في المناقشات التي ستدور حول ادارة الأراضي التي تحررت[٢] .

أعلن اللنبي ترتيباته المتعلقة بادارة الأراضي المحتلة في يوم ٢٣ تشرين الأول ، ففي ذلك اليوم أصدر بياناً جاء فيه أنه قرر انشاء ثلاث مناطق ادارية « لأراضي العدو المحتلة » .

١ ـ المنطقة الجنوبية أي فلسطين ، ويتولى ادارتها قائد بريطاني .

٢ ـ المنطقة الغربية أي ساحل سورية ، ويتولى ادارتها قائد فرنسي .

٣ ـ المنطقة الشرقية أي سورية الداخلية مع شرقي الاردن ، ويتولى ادارتها قائد عربي هو علي رضا الركابي .

ومن غرائب هذه الترتيبات أن المنطقة الشرقية ضمت منطقة (أ) التي وضعتها اتفاقية سايكس ـ بيكو تحت النفوذ الفرنسي ، ومنطقة (ب) التي وضعتها تلك الاتفاقية تحت النفوذ البريطاني . ولهذا عيّن اللنبي ضابطي ارتباط في دمشق : ضابطاً بريطانياً وهو الرائد كورنوالس وفرنسياً وهو النقيب مرسييه ، وطلب اليهما أن يعملا متعاونين ويؤكدا للادارة العربية « الاتفاق التام القائم بين الحكومتين » . وبموجب هذه الترتيبات ، نُزعت صفد ونواحيها من المنطقة الغربية وضمت الى المنطقة الجنوبية ، كما أن الأقضية الأربعة نُزعت من المنطقة الزرقاء وضمت الى المنطقة الشرقية . وقال اللنبي : أنه أبقى هذه الأقضية تحت الادارة العربية نتيجة لتصميم فيصل على الاستقالة اذا جرى ضمها للمنطقة الغربية[٣] .

---

(١) برقية ونجت بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩١٨ في F. O. 882 /13

(٢) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٩١ ـ ص ٢٢٦ وهي رسالة من ونجت الى الملك حسين بواسطة المعتمد البريطاني .

(٣) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٨٣ ـ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ وهي برقية من ونجت الى الملك حسين يعلمه فيها عن الترتيبات التي أخذها الجنرال اللنبي بنفسه .

وكتب فيصل الى أبيه في هذه الأثناء ، يحثّه على المطالبة باعطاء أهل الساحل « الحرية التامة والفرصة لتقرير مستقبلهم والتعجيل في ذلك . ان البلاد لا تؤخذ الا بالدم وعار علينا السكوت » ، وقال ان المأمورين الانكليز « معنا قلباً وقالباً . . . انهم يلقون الخطأ على السياسة ، أعني سياسة لونده ـ لندن ـ ويأملون أملاً كبيراً بامكان تغير الحالة السياسية » . وقال : « انه ربما يحارب فرنسا اذا لم يجد بداً من ذلك . وكرر طلب مجيء أخيه عبد الله ليتولى الشؤون السياسية لمملكتكم هذه[1] » .

أرسل الملك حسين برقية الى ونجت يصف فيها مأساة فيصل الروحية وما يجيش في نفسه من « اضطراب وحزن ويأس » من أعمال الفرنسيين والأموال التي ينفقونها . وطلب منه اتخاذ الاجراءات « التي تجدها مناسبة لمساعدتي » . فرد ونجت أن اللنبي يحقق في الموضوع بنفسه « وبكل تأكيد إن جلالتكم يمكنكم أن تركنوا الى درايته وعدم تحزّبه ضد أية ادارة في هذه الأوضاع الدقيقة[2] » .

وما أن وصلت رسائل فيصل الى أبيه ومعها نسخ من برقيات فيصل الى اللنبي ، حتى بادر الملك فبعث بها الى المعتمد البريطاني في جدة قائلاً : « انه لم يكن يخطر على باله أن يحدث للراية العربية ما حدث » « يجب أن نمنع فناءنا المعنوي في عيون الشعب . . . كل آمالنا تحطمت بعد المعاملة المهينة لعلمنا الذي اعتُبِرَ عَلَم حليف ، خاصة وأن أهل البلاد أنفسهم رفعوه . . ان أهل البلاد لم يكن بمقدورهم تقديم برهان أكثر وضوحاً من رفع العلم بمحض ارادتهم الحرة ، وبهذا أظهروا مشاعرهم الطبيعية[3] » .

وهكذا فقد جرى التأجيل مرة أخرى . ففي أثناء الحرب كان يقال للعرب : « أصبروا حتى تنتهي الحرب وتتاح الفرصة الملائمة لحل المشاكل . وعندما انتهت الحرب قيل للعرب : ها هوذا مؤتمر السلم وستجد المشاكلُ الحلَّ على يديه » .

٢ - التصريح البريطاني الفرنسي :

الحقيقة أن أصل التفكير في اصدار تصريح بريطاني فرنسي مشترك يعود الى أوائل شهر تموز ١٩١٨ ، أي بعد احتجاج الملك حسين الشديد على ما نشرته جريدة (المستقبل) عن وجود اتفاقية سرية بين الدولتين . وقد حاول سايكس اقناع زميله بيكو بالغاء الاتفاقية ، ولكن هذا أصر على التمسك بها ، وعندئذ أخذ سايكس يحاول ربط

---

(١) المرجع السابق . رقم ١٩٣ ـ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق رقم ٢٠٠ ـ ص ٢٣١ .

(٣) رسالة الملك حسين رقم ٢٨٨ بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨ وF.O. 882/17

الحكومة الفرنسية بتصريح مشترك يخفف القيود التي فرضتها الاتفاقية ، بغية حصر نفوذ فرنسا في أضيق بقعة ممكنة ، وتأمين « نصف الرغيف » في سورية الداخلية للعرب ، واعطاء دليل للرئيس ولسون يؤكد له بأنهما تنويان السير على سياسة حرية تقرير المصير التي نادى بها . ومن هنا اشترك سايكس وبيكو في وضع نص « تصريح الى ملك الحجاز » بحثته اللجنة الشرقية في اجتماعها يوم ١٨ تموز ولكنها لم تصل بشأنه الى قرار حاسم[١] . وظل موضوع التصريح مائعاً حتى اتفقت الحكومتان على نصه النهائي ، وارسلت نسخة منه الى رئيس الولايات المتحدة الاميركية والى الحكومة الايطالية . وفي ٤ تشرين الثاني وصل النص الى ونجت من وزارة الخارجية ، وطلبت اليه أن يعمل على ترجمته في الحال الى اللغة العربية وارساله الى الملك حسين ، ونشره في أوسع نطاق في الصحف العربية . وذكرت وزارة الخارجية أن التصريح لن ينشر في بريطانيا وفرنسا الا بعد تقديم نصه الى الملك حسين . كما طلبت وزارة الخارجية من ونجت ارسال النص الى اللنبي وكلايتون ، وطلبت اليهما توزيعه على نطاق واسع[٢] . وبالفعل تلقى الملك حسين في مكة المكرمة يوم ٦ تشرين الثاني نص التصريح مع الترجمة الى العربية .

استهلت الحكومتان تصريحهما بالمقدمة التالية :

« ان الحكومة الفرنسية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية قد عقدت العزم على اصدار التصريح المشترك التالي ، من أجل أن تعطيا السكان غير الأتراك القاطنين بين جبال طوروس والخليج العربي ، تأكيداً بأن الحكومتين ، كلا منهما في منطقتها الخاصة ، تعتزمان تأمين أفضل درجات الحكم الذاتي لهم ، بهدف ضمانة تحريرهم وتطوير مدنيتهم » .

أما التصريح فقد أعلن بشكل حاسم أن هدف الدولتين هو : « التحرير التام النهائي للشعوب التي طال اضطهاد الترك لها ، وإقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من المبادأة والاختيار الحر للأهالي الوطنيين » . وان الدولتين « متفقتان على تشجيع اقامة الحكومات والادارات الوطنية ومساعدتها في الاراضي التي حررها الحلفاء في سورية

---

(١) راجع ايتوري روسّي : وثائق حول نشوء وتطور القضية العربية (١٨٧٥ - ١٩٤٤) المذكور سابقا رقم ٢٧ - ص ٧٠ - ٧١ . وكان الحلفاء قد ابلغوا الملك حسين بمضمون هذا التصريح (راجع المراسلات التاريخية رقم ١٩٦ - ص ٢٢٩ - ٢٣٠) حيث يقول ونجت للملك : «أنني على يقين تام أن جلالتكم سترون في مواد هذا القرار اعترافاً كاملا بمبدأ القومية وحقوق الاهلين وهو ما ينطبق على السوريين وسكان العراق وسيكون من دواعي فخري وسروري اذا ما أعلنتم جلالتكم موافقتكم التامة على هذاالتأكيد العلني للمبادىء التي طالما ناديتم جلالتكم بها وبذلتم جهوداً مضنية في سبيلها . وكان جواب الملك حسين الى ونجت بتاريخ ٥/ ١١/ ١٩١٨ (راجع المراسلات التاريخية رقم ١٩٧ - ص ٢٣٠) .

(2) (Telegram No. (EC. 2197) : CAB. 27/35

والعراق ، وكذلك في الاراضي التي تعملان على تحريرها » . وان الدولتين لا ترغبان في فرض أي نظام في هذه المناطق ، بل ان اهتمامهما الوحيد ينصرف الى معاضدة ومساعدة الحكومات والادارات « التي يختارها الأهلون بكامل حريتهم[1] » ومن الواضح أن كلمة سورية وردت في التصريح بحيث تشمل سورية الطبيعية (سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن) .

نشر التصريح يوم ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ في لندن وباريس ونيويورك والقاهرة ، وقد ظهر مع المقدمة في الصحف الفرنسية الصادرة في اليوم التالي ، بينما لم تظهر المقدمة في الصحف الانكليزية . ومعنى هذا أن الحكومة البريطانية لم تعط المقدمة للصحف ، كما لم تبعث بها الى ونجت فلم تنشر أو تعرف في بلاد العرب . ولكن التصريح ذاته نشر في مصر والعراق وسورية كلها . وقد فهم العرب ان نشره في فلسطين يعني أنه يشمل فلسطين ضمناً . وتلقى فيصل نصَّ التصريح وهو في طريقه الى حلب ، وعند وصوله اليها ألقى خطاباً يوم ١١ تشرين الثاني قرأ خلاله نص التصريح ، وقال أنه « من المستندات التاريخية العظيمة » و «انه يدل على شعور عال وحسيات انسانية » ، واستدل بالتصريح على دفع اتهام الأتراك الاتحاديين للأشراف بأنهم « اتفقوا مع الغربيين على بيع البلاد لقاء دريهمات[2] » . وعلى العموم قوبل التصريح بالترحيب البالغ في بلاد العرب ، واعتقد الأهلون أنه يحل محل اتفاقية سايكس ـ بيكو ويُلغيها .

وفي ٥ تشرين الثاني أبرق ونجت الى الملك نص التصريح قائلاً أنه يتضمن : « اعترافاً كاملاً وصادقاً بمبدأ القومية وحق الشعب فيما يتعلق بالسوريين والعراقيين . . . » . فردّ الملكُ في اليوم ذاته يُعبّر عن سروره بالتصريح ويقول : « وعلى كل حال فان المنتظر من شهامة كما لاتكم ما هو فوق ذلك ان شاء الله[3] » . والواقع ان عبارات التصريح اذا قرئت بنية حسنة ، لا تترك مجالاً للشك ، بأن حرية العراقيين والسوريين في تقرير مصيرهم واختيار الحكومة التي تسوسهم ، أصبحت مضمونة وأكيدة وغير مقيدة بأية تحفظات . ولا يُلام العرب على ظنهم يومذاك بأن التصريح صدر عن نية

---

(١) المقدمة نقلت عن كتاب جفريز المذكور سابقا ص ٢٣٨ لانها لم تنشر باللغة العربية وليست معروفة على نطاق واسع . وعلى رأي جفريز ان سبب عدم نشر الانكليز لها يعود الى أنها تنص على عروبة المنطقة المعنية ومن ضمنها فلسطين . أما نص التصريح فمنقول عن : مناقشات مجلس العموم البريطاني . السلسلة الخامسة ـ المجلد ١٤٥ العمود ٣٦ .

(٢) راجع النص الكامل لخطاب الأمير فيصل في كتاب أمين سعيد « الثورة العربية الكبرى » المجلد ٢ ص (٤ ـ ٩) .

(٣) يرى الجنرال جلوب أن هذا التصريح كان أقوى وأوضح من بنود مراسلات مكماهون واتفاقية سايكس ـ بيكو وتصريح بلفور لأنه منح الأهلين حرية اختيار مستقبلهم : وقد ورد ذلك في كتابه « بريطانيا والعرب » دراسة خمسين عاما من التاريخ ١٩٠٨ ـ ١٩٥٨ . لندن ١٩٥٩ ـ ص ١٣٤ .

حسنة وعن دوافع مثالية ، لانه صدر بعد أن حاقت الهزيمة بالدولة العثمانية وبعد استسلامها ، فلم تكن هناك ضرورة عسكرية تحدو ببريطانيا وفرنسا الى اصداره . وفي دمشق قامت مظاهرة ابتهاج كبيرة وأعلن قادتُها لضابطي الارتباط امتنانَ العرب لحكومتي بريطانيا وفرنسا ، وابتهج الأهلون كذلك في بيروت . وساد الانطباع بأن التصريح يشمل فلسطين ، على الرغم من التساؤلات التي دارت على الالسن بسبب عدم ذكر فلسطين صراحة[1] . لقد كان معروفاً لدى الجميع أن سورية تعني المنطقة الممتدة من الاسكندرونة شمالاً حتى رفح جنوباً (سورية الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن) . فلا عجب ان يبلغ التشكّكُ من الجنرال كلايتون نفسُه في حقيقة ما قصده التصريح ، حدّاً دفعه الى أن يسأل وزارة الخارجية « لمعلوماتي الخاصة » ، عما اذا كان قد قُصد بالتصريح أن يشمل فلسطين . وقال كلايتون إن أكثرية السكان اعتبروا أن التصريح يشمل فلسطين . وكان جواب وزارة الخارجية : « لقد صيغ التصريح قصداً بحيث يستثني فلسطين ، وهذا لمعلوماتك الخاصة[2] » . وهكذا بقي العرب يعتقدون شيئاً ، بينما كانت الحكومة البريطانية تضمر شيئاً آخر . وبقي الحكام العسكريون البريطانيون في فلسطين أيضاً يجهلون حقيقة المقصود بالتصريح فيما يتعلق بفلسطين .

ترى ماذا كانت نية الحكومة البريطانية ؟ هل كانت تنوي الوفاء بالتزاماتها للعرب أم لفرنسا ؟ . لا هذا ولا ذاك . كانت تريد شيئاً واحداً فقط ، ألا وهو توسيعُ البقع الحمراء على خارطة العالم وفي بلاد العرب بالذات . ولسوف نرى كيف أن اللجنة الشرقية اتخذت قراراً بأن يكون النفوذ في منطقتي (أ) و (ب) لبريطانيا دون سواها ، وسوف نرى لويد جورج يأخذ وعداً من كليمنصو بتحويل الموصل وفلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني ، أي نزع نفوذ فرنسا عن هذه المناطق وحصره في الساحل السوري فقط . ولسوف نرى أيضاً اللورد كرزون وعدداً من كبار المسؤولين البريطانيين ، يعلنون أن فلسطين كانت مشمولة بعهود مكماهون كقطر عربي ضمنت عروبته واستقلاله .

ان سلسلة العهود التي سردناها ، والتي ارتبطت بها الحكومة البريطانية مع العرب ، لا تدع مجالاً للشك في نفس أي عربي أنها كانت تعني تحالفاً بين أمتين ، وأن بريطانيا . باعتبارها الأمة الأقوى ـ تعهدت بالأخذ بيد حلفائها العرب من أجل تأليف دولة كبيرة تجمع شملهم وتوحد أقطارهم ، مقابل مصالح اقتصادية . وأكثر من هذا ، فإن العلاقة

---

(١) البرقية رقم ١٨٥ بتاريخ ١٦/ ١١/ ١٩١٨ وهي من كلايتون الى وزارة الخارجية البريطانية مصنف ٢٧/ ٣٦ .

(٢) راجع برقية كلايتون للوزارة رقم أ . ب ٨٩٢٠ بتاريخ ٢/ ١٢/ ١٩١٨ وجواب الوزارة رقم ٢٧٦ بتارخ ٤/ ١٢/ ١٩١٨ مصنف ٢٧/ ٣٧ ، ٢٧/ ٣٨ .

التي عقدت أثناء الحرب بين بريطانيا والعرب ، كانت في أصلها ارتباطاً معنوياً مبنياً على ثقة العرب بالشرف البريطاني ، وبروح العدالة التي كانت معروفة عن الانكليز في ذلك الحين . كان العرب يعتقدون ان بريطانيا التي حرضتهم على الثورة ضد الأتراك إخوانهم في الدين ، وملأت نفوسهم بالآمال ، لا يمكن أن تتخلى عنهم ، بله ان تعمل على تقسيم بلادهم وتقدم جزءاً غالياً من وطنهم هدية الى اناس غرباء .

وكانت هذه الثقة العمياء ببريطانيا في غير محلها ، لانها كانت دائماً تلك الدولة الاستعمارية التي أغدقت الوعود ولم تف بها ، والدليل على ذلك بادٍ للعيان ، لا سيما من خلال سياستها القهرية في مستعمراتها الاسلامية والعربية ، سواء في الهند أو في مصر أو في بقية البلاد المستعمرة من أفريقيا وآسيا .

وعندما انتهت الحربُ ، كانت نقطة الضعف في موقف بريطانيا تنبع من قوة الجشع وشهوة التملك في نفوس ساستها . رأى أولئك الساسة ، أن واجبهم نحو بلادهم ، يقضي عليهم بحصر النفوذ الفرنسي ، في أضيق بقعة ممكنة من البلاد العربية ، لكي تصبح تلك البلادُ حكراً مطلقاً للنفوذ البريطاني . ومن سوء الحظ أن أولئك الساسة لم يروا في الوقت ذاته ، أن واجبهم نحو بلادهم والانسانية ، يقضي عليهم بالوفاء بتعهداتهم للعرب ، والحفاظ على كلمة الشرف التي اعطوها باسم الشعب البريطاني . وقد ازدادت نقطةُ الضعف ضعفاً عندما رفضت فرنسا الاستجابة لمشاريع الساسة البريطانيين واعطاءهم الفرصة للتظاهر بالكرم مع العرب على حسابها .

وفي نهاية الامر تبين بشكل صريح وواضح أنه لم تكن هناك قيمة حقيقية للوعود والعهود ، ولمبادىء العدل وحق تقرير المصير . وتلفّت العربُ واذا بهم سلعة على موائد المفاوضات ، تتناوشهم مخالبُ لا تقلّ شراً عن مخالب الوحوش ، وهم أضيع من الايتام في مأدبة اللئام .

٣ - تسويات ما بعد الحرب :

عندما عقدت الهدنة العامة بين ألمانيا والحلفاء يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، كان موقف العرب يتأرجح بين الثقة بالمستقبل والتخوف مما سيأتي به الغد . فمن جهة كانت سورية الداخلية في أيديهم وتحت حكمهم من معان والعقبة جنوباً حتى حلب شمالاً ، وقد تصرف فيصل وأعوانه تصرف الحكام المستقلين ، وأخذوا يتولون ادارة المنطقة الشرقية على أساس أنها جزء من المملكة العربية الكبرى ، التي كانوا يأملون أن يؤسسوها على وجه من الوجوه . ولكن من جهة أخرى كانت آمالهم تصطدم بوجود الفرنسيين في الساحل

والبريطانيين في فلسطين والعراق . وحيث أن ثقة العرب ببريطانيا كانت ما تزال متينة لم تتزعزع على الرغم من كل ما حدث حتى ذلك الحين ، فقد كان العرب يعتقدون أن الخطر كامن في وجود فرنسا في الساحل . وقد تجسدت مخاوفُ العرب من فرنسا ، بحادث طرد الحكام العرب من المدن الساحلية ، وفي الدعاية العدائية التي أخذ ضباط فرنسا السياسيون يبثونها في المنطقة الشرقية[1] . وبالفعل فقد بدأت دسائس الفرنسيين ودعايتُهم عملَها فور دخول فيصل دمشق ، وذلك بتحريك المتعصبين من المسيحيين وتخويفهم من المسلمين . كما زعمت أن جيش الثورة جيش حجازي بدوي ، وأن الحكومة التي سيؤلفها هذا الجيشُ ، ستكون حتماً حكومة دينية رجعية ، وأنها سترجع في كل شيء الى الشريعة الاسلامية ، فستعيد الامور الى ما كانت عليه قبل ستين سنة ، وستقضي على حقوق المسيحيين قضاءً مبرماً[2] .

والواقع أن جميع الامور كانت تدل على خلاف ذلك تماماً . . إذ أن رجال الثورة لم يكونوا كلهم من البدو ، بل كان بينهم عدد غير قليل من المسيحيين أيضاً ، والحكومة التي تألفت في الشام لم تفكر في يوم من الايام بأن تصطبغ بصبغة دينية ، بل عهدت بكثير من الوظائف والاعمال الى غير المسلمين . . وكان الأمير فيصل بن الحسين يقول دائماً وفي كل مناسبة : « الدين لله والوطن للجميع » . وفي الخطاب الذي ألقاه في حلب يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ركز فيصل على ضرورة الوحدة الوطنية باسم القومية العربية معلناً أن « العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » ، ومحذراً من القاء الفتن بين المواطنين باسم الدين مهدداً بأشد العقاب كل من يقدم على ذلك . كما طمأن السوريين الى أن والده قرر « أن يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار وأحوال أهلها . فالبلاد الداخلية يكون لها قوانينُ ملائمةٌ لموقعها ، والبلادُ الساحلية أيضاً يكون لها قوانينُ طبق رغائب أهلها » . وقد قصد فيصل بهذا أن يخرس ألسنة السوء القائلة بأن سورية المتقدمة

---

(١) أنبأ فيصل الميجر كورنوالس ضابط الارتباط البريطاني في دمشق يومذاك بأن « عملاء الكابتن مرسييه » استدعوا كبار شيوخ جبل الدروز وأبلوغوهم أن « محمية فرنسية سوف تؤسس قريبا هنا وان القوات الفرنسية سوف تصل خلال بضعة أيام . . . » .

راجع أوراق ونجت : برقية كورنواليس بتاريخ ١٩١٨/١١/٢ رقم C١٩٨ .

(٢) راجع في هذا الخصوص الرسالة المسهبة التي بعث بها الأمير فيصل الى أبيه الملك حسين بتاريخ ١٩١٨/١٠/٢٠ في كتاب المراسلات التاريخية رقم ١٨١ ـ ص ٢١٦ ـ ٢١٩ حيث يتكلم عن الدعاية التي يبثها الفرنسيون في البلاد السورية . ومما جاء فيها : « أن فرنسا اليوم تحكم في بيروت باسمها ، صراحةً ، وهي تبث الفكرة الفرنسية وأهل البلاد مستاؤون جدا خصوصا المسلمين ، وفريق عظيم من المسيحيين . . . الآن هم مهتمون بقلب الافكار ضدنا ويريدون أن يكسبوا الاكثرية الخ . . . » .

في مضمار التعليم ، ستتقهقر الى الوراء اذا اتحدت مع الحجاز وخضعت لحكم الشريف حسين[1] .

وقد اختط فيصل خطة التسامح لتأليف قلوب المواطنين في سورية ، فلم يقتصر في اسناد المناصب العالية في حكومته على أولئك الذين انضموا وقاتلوا معه ، بل أراد أن يستعين بجميع الاشخاص الاكفاء ، بغض النظر عن مواقفهم السابقة . كان لسان حاله يقول : عفا الله عما مضى ولنبدأ صفحة جديدة منذ اليوم . اعتقاداً منه بأن الشعور الوطني والوعي القومي كافيان لدفع كل مواطن الى خدمة بلاده وقومه[2] .

على كل حال فان العرب كانوا متلهفين على انعقاد مؤتمر السلم ، ويعلقون الآمال الكبيرة على أن يعمل ذلك المؤتمر بروح مبادىء الرئيس ولسون وتأكيدات اللنبي لفيصل . وكانت الحكومة البريطانية بدورها تسعى للتوصل الى حل بشأن بلاد العرب ، هذا الحل الذي يحقق الامور التالية :

١ ـ يحقق مصالحها ويرضي أطماعها .

٢ ـ يرضي فرنسا بشكل أو بآخر .

٣ ـ أن يحرز قبولاً لدى العرب .

وقد جاءت رغبة الحكومة البريطانية في دعوة العرب الى مؤتمر السلم ، من رغبتها في تقوية مواقف العرب تجاه فرنسا من جهة ، ومن رغبتها من جهة أخرى في تحويل انتباه العرب عن اتفاقها الثنائي معهم ، وتدويل قضيتهم ، باشراك دول أخرى في تحمل مسؤولية ما قد يلاقونه من اخفاق .

وهكذا أبرقت وزارة الخارجية البريطانية خلال الايام ٢ ـ ٤ تشرين الثاني الى ونجت واللنبي وكلايتون ، تسأل كلٌ واحد منهم عما اذا كان يرى أن الوقت الحاضر ملائم ، لدعوة الملك حسين الى أن يرشح شخصاً ما ، يطرح آراءه في أي مؤتمر يعقده الحلفاء لبحث تسوية الأقطار العثمانية في آسيا ، وليطرح تلك الآراء في مؤتمر السلم اذا دعت الضرورة الى ذلك .

وقد رد ونجت قائلاً : أنه واللنبي يوصيان بتوجيه الدعوة الى الملك كي يرسل ممثلاً

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، المجلد الثاني ، خطاب فيصل ص ٤ ـ ٩ .

(٢) راجع الدراسة المسهبة للدكتورة خيرية قاسمية « الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ » . القاهرة ١٩٧١ دار المعارف ص ٦٠ ـ ٦٣ .

عنه ، وان فيصلاً سيكون أفضل من يقوم بهذه المهمة . كما أن اللنبي في اليوم ذاته أبرق الى وزارة الحربية قائلاً أنه من المهم أن توجه الدعوة الى الملك حسين كي يرسل ممثلاً له يرعى المصالح العربية في مؤتمر السلم . وأضاف اللنبي يقول : « ان التأكيد الذي أعطيته بموافقة وزارة الحربية لا يعتبر ناجزاً الا اذا تم هذا الشرط . ان العرب يثقون ثقة مطلقة ببريطانيا العظمى ، واذا لم نف بعهودنا فسيقضى على كل ثقة بصدق نيات الحلفاء[1] » .

هذا وقد وصل لورانس الى لندن في ٢٤ تشرين الاول ، فاستقبل بحرارة في وزارة الخارجية ، وطلب اليه أن يرسل برقية في ٨ تشرين الثاني الى الملك حسين ، يطلب فيها منه ارسال الامير فيصل لحضور مؤتمر باريس ، الذي ستحضره الدول الحليفة بالاضافة الى مندوبين من الولايات المتحدة وبعض الدول الاوربية . .

وفي ١١ تشرين الثاني أبلغ الملك حسين الامير فيصل بضرورة توجهه الى أوروبا لحضور مؤتمر باريس ، وأسدى اليه النصح بأن يطلب العون من بريطانيا اذا رأى ظلماً وتعنتاً من فرنسا ، ولم يدر في خلد الملك حسين أن فيصل سيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار[2] .

تلقى فيصل برقية أبيه وهو في حلب ، فطلب من والده أن يأتي شقيقه الأمير عبد الله الى سورية ليحل محله ، ولكن الملك حسين رفض الطلب وقال بأن عبد الله يجب أن يواصل حصار المدينة حتى تسقط .

غادر فيصل حلب فمر بحمص وطرابلس وبيروت ، وهناك استقبله الأهلون استقبالاً حماسياً وقام شباب بيروت بسحب عربته في شوارع المدينة وهم يهتفون « ما بنرضى غيرك سلطان ولا نرضى غير العرب » . وأثناء وجود فيصل في بيروت كتب الى والده رسالة قال فيها : « ان حماسة الاهلين وارتباطهم بعرش جلالتكم هو خارج عن كل وصف وتصوير » ، وقبل مبارحته بيروت عاد فيصل الى دمشق ، فقضى فيها ليلة واحدة عين فيها أخاه الأمير زيد نائباً عنه أثناء غيابه . وفي ٢٢ تشرين الثاني غادر بيروت على

---

(١) راجع البرقيات الثلاث المرسلة بتاريخ ٤/ ١١/ ١٩١٨ . الأولى من ونجت الى وزارة الخارجية رقم ١٦١ ، والثانية من كلايتون نفسه الى وزارة الخارجية رقم ١٦٣ ، والثالثة من الجنرال اللنبي الى وزارة الحربية رقم E, A. 1843 . مصنف ٢٧/ ٣٦ .

(٢) والواقع أن لورانس هو الذي أخذ المبادرة وكتب الى الملك حسين بضرورة ايفاد أبنه الأمير فيصل الى المؤتمر « لما اكتسبه من شهرة بشخصية في أوروبا » وطلب اليه أن يسرع في ارساله الى أوروبا . (راجع المراسلات التاريخية رقم ٢٠١ ـ ص ٢٣٢) . وإذ أطلع المعتمد البريطاني الملك حسين على برقية لورانس أجاب الملك وكتب الى ونجت بتاريخ ١١/ ١١/ ١٩١٨ أنه أبلغ أبنه فيصل بسرعة سفره (رقم ٢٠٢ ـ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣) وأجاب ونجت الملك حسين شاكراً على هذا القرار (رقم ٢٠٣ ـ ص ٢٣٣) .

متن الطراد جلوسستر قاصداً فرنسا. وقد رافقه في هذه المهمة نوري السعيد ورستم حيدر والدكتور أحمد قدري وفائز الغصين[1] . وعندما نزل فيصل الى الارض الفرنسية في ميناء مرسيليا يوم ٢٦ تشرين الثاني ، وجد في استقباله العقيد لورنس موفداً من قبل الحكومة البريطانية (بناء على طلب فيصل) ، والسيد برتران موفداً من قبل الحكومة الفرنسية ، ولم يلبث عند وصوله الى ليون أن اصطدم بمفاجأة لم يكن يتوقعها ، عندما أبلغه العقيد بريمون المندوب الفرنسي الثاني أن حكومته ترحب به ضيفاً عليها أثناء اقامته في فرنسا[2] ، ولكنها لا تعترف له بأي مركز ديبلوماسي أو أنه يقوم بمهمة رسمية . وكانت قد دارت بين الحكومتين الانكليزية والفرنسية مراسلات خاصة بسفر الامير وبصفته الرسمية في المؤتمر ، ورغم دعم الحكومة البريطانية للملك حسين ولمندوبه الامير فيصل ، اتخذت الحكومة الفرنسية موقفاً يتعارض مع مهمة ومطامح القضية العربية[3] .

وعلى أفضل الاحوال أرادت أن تعتبره نجل ملك الحجاز ، ومندوبه الشخصي القادم باسمه ، كي يطلب انشاء مملكة عربية ، سواء أكانت مستقلة أم خاضعة لسيطرة فرنسا وانكلترة في المناطق المتفق عليها ، وان فيصلاً لا يستطيع أن يتكلم باسم السكان العرب الذين لا يمكن أخذ آرائهم بصورة مقبولة في الوقت الحاضر ، علماً بأن دول الحلفاء لم تعترف حتى الآن بمملكة عربية ، ولم تعترف فرنسا وانكلترا الا بملك الحجاز . ثم أبدى وزير الخارجية دهشته من مجيء فيصل بناء على نصيحة بريطانيا . ولكي لا ينشأ سوء تفاهم قال أنه اعتزم أن يعامل الأمير فيصل عند وصوله وخلال اقامته ، بمثابة أجنبي مرموق ونجل ملك الحجاز ، وعند نزوله في مرسيليا سوف يُبلّغ بأننا لا نعترف له بصفة رسمية ، وأن وضعه سيكون مدار بحث بين الحلفاء ، وانه لا يمكن قبوله بأي حال من الاحوال ممثلاً للعرب في أي اجتماع قبل التوصل الى اتفاق رسمي على ذلك بين الحلفاء . وأخيراً طلب الوزير أن تقف الحكومة البريطانية الموقف ذاته ، وتحيط فيصلاً علماً بذلك تفادياً لنشوء مصاعب لا داعي لها .

---

(١) راجع سليمان موسى : « المراسلات التاريخية » ـ ص ٢٤٦ . غادر فيصل بيروت يوم الاحد في ٢٢/ ١١/ ١٩١٨ ووصل الى ميناء مرسيليا يوم الثلاثاء في ٢٤ منه . وقد أنضم الى الوفد المرافق للأمير فيصل السيد عوني عبد الهادي .

(٢) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ٢١١ ـ ص ٢٤٦ وهي رسالة من الأمير فيصل الى الأمير زيد مرسلة من ليون في ٢٦/ ١١/ ١٩١٨ يعلمه فيها عن وصوله الى فرنسا وعن زيارته لمختلف مناطقها . « وكان الأمير زيد قد وصل الى دمشق في ١٩/ ١١/ ١٩١٨ ليحل مكان الأمير فيصل خلال غيابه في أوروبا » رقم ١٩٩ ـ ص ٢٣١) .

(٣) راجع بخصوص هذه المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا البرقية المرسلة من وزارة الخارجية البريطانية الى موفدها في باريس اللورد دربي في ٢٢/ ١١/ ١٩١٨ (E. C. 2482) وراجع أيضا البرقية التي أرسلها غراهام من باريس الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٤/ ١١/ ١٩١٨ (E. C. 2485) في الملف ٢٧/ ٣٧ .

ولم توافق وزارة الخارجية البريطانية على وجهة النظر الفرنسية فكتبت الى سفيرها في باريس أن يبلغ وزارة الخارجية الفرنسية طالبة عدم اساءة فهم الهدف من زيارة فيصل ومدى صلاحياته ، لان الحكومة البريطانية تعتبره دائماً كما جاء في برقيتها : « ممثّل شريكنا في الحرب وحليفنا الملك حسين ، أُرسل ليكون حاضراً في باريس أثناء مباحثات مؤتمر السلم لكي يشرح مصالح أبيه ويتابعها[1] » .

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد أبدت رسمياً معارضتها لمهمة فيصل . فأرسلت الى الملك حسين بواسطة معتمدها في جدة برقية مؤرخة في بيروت في ٢٩/١١/١٩١٨ ولكنها مرسلة من باريس بتاريخ ٢٤/١١/١٩١٨ ، حيث أبلغ بموجبها المعتمدُ الفرنسي الملكَ حسين بأن الحكومة الفرنسية ستستقبل الأمير فيصل استقبالاً يليق بمركزه « كنجل ملك محالف وصديق » . ولكنها : « تعجبت من كونها لم تُشْعر أصلاً بأسباب هذا السفر » (لان مندوب الجمهورية الفرنسية في فلسطين وسوريا هو الموصوف الوحيد من أجل تهيئة الجو اللازم) ولذا لا تستطيع أن تعتبر الأمير فيصل « كمكلف بمهمة لم تكن قد اشعرت بها رسمياً »[2] .

وأخيراً لم يطل تردد الحكومة الفرنسية فقررت ارسال بعثة خاصة لاستقبال الأمير في مرسيليا واستضافته في فرنسا . وهيأت له برنامجاً لزيارة بعض المدن والساحات العسكرية الفرنسية . وقد عُيِّنَ العقيد بريمون مرافقاً للأمير خلال تجواله في فرنسا لما يربطه به من صداقة سابقة خلال تقدم الجيوش العربية عبر الصحراء . وقد أبلغت وزارةُ الخارجية الفرنسية السفيرَ البريطاني في باريس بترتيباتها هذه ، وكرّرت ما قالته سابقاً بشأن وضع الأمير ، وأضافت القول : « ان أهلية الأمير وحتى ملك الحجاز للاشتراك في مؤتمر السلم بأية صفة كانت لا وجود لها في الوقت الراهن ، وسيبقى الامر كذلك حتى تتوصل الدول الكبرى الى اتفاقية حول هذا الموضوع[3] » .

وفي يوم ٣ كانون الأول ، طلب الأمير فيصل من بريمون ان يخبره بصراحة عما اذا كانت الحكومة الفرنسية لا تريد أن يذهب الى باريس ، وانه يود ان يعود الى دمشق اذا كانت اقامته في فرنسا لا تزيد عن كونها تمضية وقت . واتصل بريمون بحكومته فوجهت

---

(١) راجع البرقية رقم ٢٥٤٥ (E. C. 2523) بتاريخ ٢٣/١١/١٩١٨ . الملف رقم ٣٧/٢٧ .

(٢) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ٢١٢ ـ ص ٢٤٧ ، وص ٢٤٩ الحاشية .

(٣) راجع برقية الموفد البريطاني السير دربي الى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٧/١١/١٩١٨ . الملف ٣٧/٢٧ . وقد شرح العقيد بريمون الذي أصبح لواءً فيما بعد هذه الأمور في كتابه « الحجاز خلال الحرب العالمية » ص ٣١٠ ـ ٣١١ الذي نشره فيما بعد .

الدعوة الى فيصل لزيارة باريس حيث استقبله رئيس الجمهورية يوم ٧ كانون الاول . وكان قبل ذلك بيومين قد مُنح وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط كبير ، وفي مساء يوم ٩ كانون الاول غادر فرنسا الى انكلترا[١] .

وصل فيصل الى لندن يوم ١٠ كانون الاول ١٩١٨ ومعه لورنس ، الـذي كان قد أسرع لاستقباله ومرافقته عند مغادرته للشاطىء الفرنسي . وقد أرسل عقب وصوله الى انكلترا برقيتين ، أولاهما الى اخيه الأمير زيد وثانيتهما الى أبيه الملك حسين . أما في الاولى فانه أطلعه على سياسة الفرنسيين تجاه القضية العربية ، وتجاه أبيه . حيث قال : « ستقوم الحرب السياسية بيننا وبين فرنسا لانها تظهر لنا العداوة رغم أنهـا منحتنـي الوسـام » ، وأعلمـه فيها أيضاً عن اتجاه السياسة الاميركية ، معلنـاً بأن قسماً عظيماً من الامـريكيين يدعمون هذه القضية ، وكان كلُّه أملاً بأنه سينجح في مهمته . وفي اليوم التالي قام فيصل بزيارة السيد بلفور وزير الخارجية . ومعه لورنس ليترجم بينهما . وحسبما جاء في مذكرة بلفور عن الزيارة « فقد رد فيصل عن امتنان العرب للمساعدات التي قدمتها بريطـانيا لهم ، ولكنه أبدى مشاعر العداء الشديدة تجاه فرنسا . وقال فيصل إن العرب يرغبـون بدولة واحدة تحميهم ، سواء في سورية أو العراق ، وهذه الدولة يجب أن تكون بريطانيا لا سواها ، وان العرب لن يتحملوا حكم أية دولة أجنبية أخرى . وشكا فيصل من اجراءات اللنبي لمصلحة الفرنسيين في بيروت ، وقال انها تناقض الوعود التي أعطيت لابيه في أوائل الحرب . وقال فيصل أنه اذا أظهر الفرنسيون مقاصد عدوانية فانه سيعمد الى مهاجمتهم في الحال دون تردد ، وهو يعرف جيداً ان العرب لا يستطيعون مجابهة دولة عسكرية كبرى مثل فرنسا ، ولكنه وقومه يفضلون الموت في المعركة على أن يخضعوا دون مقاومة[٢] » .

وقد وصف فيصل في رسالة طويلة كتبها لأبيه اجتماعه بوزير الخارجية بلفور الذي قال له : « إن حكومة انكلترا لم تعاون العرب بل ان العرب هم الذين عاونوها ، ولـم تحرز هذا الشرف الا بواسطة العرب ، ، فهي صديقة ومعاونة لكم الى آخر الأمر » ، وان فيصلاً رد عليه بأن الفرنسيين يريدون ابتلاع سورية كلها ، ولولا اللنبي وجيوشكم « كنا الى الآن تصافينا الحساب معهم . فان لم تعاونونا فسنعلن للعالم ان الخيانة وقعت منكم وسنقاتل من يريد احتلال بلادنا » . وقال فيصل : أنه طلب من بلفور تمزيق معاهدة سايكس ـ

---

(١) ولا يخفى عن البـال أن اللجنـة الشرقية التابعـة لوزارة الخـارجية البريطـانية كانـت قد درسـت منـذ قليل (أي في ٢٧/١١/١٩١٨) قضايا ذات أهمية بالغة تتعلق بمصير الاراضي العربية السورية وشبه الجزيرة العربية . كما أنها درست أيضا التزامات بريطانيا تجاه الملك حسين . وقد أوردنا سابقا نص هذه المداولات كما جاءت مترجمة في كتـاب سليمان موسى : (المراسلات التاريخية) رقم ٢٠٤ ، ٢٠٥ ص ٢٣٣ ـ ٢٤٢ .

(٢) راجع مذكرة بلفور بتاريخ ١١/١٢/١٩١٨ .

بيكو ، وانه إما أن يعود الى بلاده وقد حقق أهداف العرب أو يعمد الى القتال ، ورد بلفور ان انكلترا تريد تمزيق المعاهدة على يد المؤتمر الذي سيعقد . وطلب فيصل ان يعطيه بلفور قولاً يَطمئنّ به ، فرد بلفور قائلاً : « مثلي لا يقول قبل العمل ، ولكنني أؤمنك بالشرف ان العرب سيخرجون من هذا المؤتمر وهم ضاحكون مسترجعون جميع ما كانوا يتمنونه من وضع أساس مجد آبائهم الذي تفتخر الانسانية به . وهي ستشتغل معكم كأنفسكم والامد ليس ببعيد . .[1] » .

وقد استقبل الملك جورج الخامس فيصلاً ، ومنحه قلادة فكتوريا في اليوم ذاته . ووصف فيصل في رسالته لأبيه ما فعله الملك ، وقال فيها ان الملك منحه هذه القلادة « تذكاراً للدماء المشتركة التي أهرقها العرب والانكليز في ساحات القتال جنباً لجنب » ، وأضاف اني « اؤمل أن يكون الودُّ بيننا دائماً الى ما لا نهاية » ، فأجاب فيصل « إنه جاء مندوباً عن والده وحكومته ، وأن أباه يتمنى « أن تبقى محبتكم نحونا مدى الأيام » فقد أعلن له الملك : « اننا لا نتخلى عن مساعدة والدكم والعرب جميعاً . . وأؤمنكم انكم ستجدون انكلترا معكم . . » .

ورد فيصل بقوله : « ان والدي قام تجاه الأتراك وقاوم التيار الاسلامي بأجمعه ، وتحمّل الطعن والتشنيع كما تعلمون ، اتكالاً على أقوالكم ، ومعتمداً في ذلك على مؤازرتكم ووفائكم . فكيف يتحمل والحالة هذه ان يرى بلاده تُقسم والعرب يُمزّقون ثم يسكت ، ان معاهدة ١٩١٦ موجودة بين أيدينا وهي دليل واضح على ما قلته » . ورد الملك طالباً من فيصل إبلاغ والده « ان انكلترا ستكون معه في كل حال[2] » . وفي هذه المقابلة كان لورنس يقوم بدور الترجمان بينهما .

٤ ـ اتفاق لويد جورج وكليمنصو

أثناء زيارة فيصل للجبهة الفرنسية ، عُقد بين لويد جورج وكليمنصو إتفاقٌ مبدئيٌ شديدُ الأهمية بالنسبة لبلاد العرب . ففي الاول من كانون الاول ١٩١٨ وصل السيد كليمنصو الى لندن يرافقه المارشال فوش ، كما حل فيها في اليوم ذاته اورلاندو رئيس وزراء ايطاليا ، وسونينو وزير خارجيته ، وكان هذا الاجتماع يهدف الى اجراء مباحثات

---

(١) طبعا لسنا في حاجة الى القول أن بلفور كان أكذب من مسيلمة وكان يمثل تماما الاخلاق الانكليزية الاستعمارية في التعامل مع الشعوب : راجع نص رسالة فيصل الى أبيه في كتاب سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ٢١٧ ـ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣ .

(٢) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ٢١٧ ـ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ .

تمهيدية تتعلق بمؤتمر الصلح المقبل ، والاتفاق على بعض الخطوط الرئيسية . واستمرت هذه الاجتماعات أربعة أيام طُرح فيها اتفاق سايكس ـ بيكو على بساط البحث ، وطالب لويد جورج خلال البحث بتعديله لمصلحة بريطانيا ، وقد روى لويد جورج أن كليمنصو وافق « دون تردد » ، على ضم ولاية الموصل الى العراق ، بالاضافة الى خضوع فلسطين من دان الى بير السبع للحكم البريطاني[1] . ولكن من الواضح أن الأمر لم يكن بهذه البساطة ، على الرغم من القول بأن ما حدث بين الرجلين كان « اتفاقاً شفهياً »[2] . ولكن كليمنصو طالب مقابل ذلك معاضدةَ بريطانيا الكاملة في فرض شروط صلح على ألمانيا تؤمّن الأمن لفرنسا . نظراً لمعارضة الولايات المتحدة فرضَ شروط قاسية على الدول المغلوبة ، وان تحصل فرنسا على حصة من زيت الموصل (تم الاتفاق على اقتسام الزيت مبدئياً في نيسان ١٩١٩ ونهائياً في نيسان ١٩٢٠) . وطالب كليمنصو أن تحصل فرنسا على الانتداب على كيليكيا وسورية كلها (باستثناء فلسطين) . وبهذا الاتفاق نسقت الدولتان موقفهما تجاه بلاد العرب ، وضمنت كل منهما مصلحتها دون التفات الى مصالح العرب . واتفقت الدولتان على الاستمرار في محاورة العرب ومداورتهم ذراً للرماد في عيون المجتمع الدولي ، حتى تمت التسوية النهائية بينهما بعد ذلك بستة عشر شهراً في سان ريمو ، حسب اتفاق لويد جورج ـ كليمنصو هذا . ومن الواضح أن هذا الاتفاق كان أبعد ما يكون عن روح تصريح ٨ تشرين الثاني ، الذي لم يكن قد مضى على نشره سوى ثلاثة أسابيع . وقد ساعد الدولتين على التوصل الى هذا القرار ، ان القوات البريطانية كانت تحتل فلسطين والموصل احتلالاً فعلياً ، وان روسيا القيصرية قد زالت ، وزالت معها مطامعها التوسعية واهتمامها بمصير الاماكن الدينية المسيحية في فلسطين . وتُعزى السرعة التي وافق بها كليمنصو على طلبات لويد جورج ، الى خشية الفرنسيين من أن تتنكر بريطانيا لاتفاق سايكس ـ بيكو ، وان تعمد الى الغائه مستعينة على ذلك بالرئيس ولسون وبالجيوش البريطانية التي كانت تحتل العراق وسورية احتلالاً فعلياً وبأصدقائها العرب .

٥ ـ لقاء فيصل ـ وايزمن :

منذ أن أصدرت الحكومة البريطانية تصريح بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ، أخذت تسعى لتقريب وجهات النظر ، بين العرب أصحاب البلاد الشرعيين ، وبين الصهيونيين غزاة الغد . وكان قصدُ الحكومة البريطانية إقناعَ حلفائها العرب واصدقائها اليهود ، بأنها الدولة المفضلة لحكم فلسطين . وفي نطاق مساعي بريطانيا هذه كانت

(1) Lloyd George, The Truth About The Peace Treaties, Vol. II. P. 1038.

(٢) راجع أرشيف وزارة الخارجية البريطانية . الجزء الخامس عشر . ص ٢٥١ للاطلاع على مضامين هذه الاتفاقات الشفهية بالتفصيل .

تأكيدات هو جارث للملك حسين في كانون الثاني ١٩١٨ ، وكان من جملة قناعات الملك حسين يومذاك ، أن مشاريع اليهود لا تؤلف خطراً على البلاد العربية ومن جملتها فلسطين ، تصريحُه لهو جارث أنه يرحب باليهود في جميع الاقطار العربية ، ونشره في جريدة القبلة مقالة يدعو فيها العرب الى التسامح مع اليهود باعتبارهم من أهل الكتاب ، وفي الوقت ذاته كتب رسالة الى فيصل تؤكد اظهار النيات الحسنة تجاه اليهود وابناء المذاهب الاخرى « الذين هم غرباء في بلاد العرب » . وكان من جملة مساعي بريطانيا ، رسالة دورية مؤرخة بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩١٧ بعث بها سايكس الى زعماء العرب جاء فيها، ان الصهيونيين لا يقصدون الاستيلاء على فلسطين، ومما يجدر ذكره ان هذه الرسالة نشرت مباشرة ، بعد أن استولى الجيش الانكليزي على مدينة غزة وتابع زحفه الى فلسطين والقدس ، وقبيل نشر الصحافة السوفييتية لاتفاق سايكس ـ بيكو في جريدتي الازفيستيا والبرافدا . وكان جمال باشا قد سارع بنشر نص هذا الاتفاق في بيروت في الاسبوع الاخير من شهر تشرين الثاني ، وأعلم فيصل والقادةَ العرب والملكَ حسين بفحوى هذا الاتفاق[1] وقد ورد في هذه الرسالة : « وغاية ما يبغيه الصهيونيون أن ينالوا حق الاستيطان في فلسطين ، وان يعيشوا في مستوطناتهم عيشتهم الخاصة » . وان « كل ما يرغبه الصهيونيون هو اعطاء الحرية لليهود للاقامة (في فلسطين) ، والتمتع بكامل الحقوق المدنية ، وان يشاطروا السكان الوطنيين حقوقهم وواجباتهم » . وقد سعى الجنرال كلايتون لعقد اجتماع بين عدد من أعضاء جمعية الاتحاد السوري في مصر مع اثنين من أعضاء اللجنة الصهيونية ، وقرروا أن يكرروا اجتماعاتهم بها « والقصد الرئيسي من ذلك هو العمل معاً لتحرير بلادنا[2] » . أما الملك حسين فلم يشأ أن يرسل مندوباً عنه للاشتراك في لجنة سايكس ، على الرغم من الالحاح عليه بذلك .

وكان مارك سايكس قد ألقى خطاباً في انكلترا بتاريخ ١٦/ ١١/١٩١٧ دعا فيه الى انشاء تحالف عربي ـ أرمني ـ صهيوني ، وقد جاء في هذا الخطاب الاستعماري ما نصه : « فإن اجتمعت الصهيونية والوطنية العربية معاً فإنني متيقن من تحرير العرب . أما اذا تصارعتا فالموقف سوف لا يصبح متقداً فقط بل خارجاً عن دائرة التدبير » . ومما يجدر ذكره أن فكرة سايكس هذه تلتقي مع الفكرة التي كان نجيب عازوري قد أوضحها منذ عام ١٩٠٥ في كتابه « يقظة الامة العربية » المار ذكره[3] .

---

(١) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ٩٩، ١٠١ ـ ص ١٤٦، ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٢) رسالة جوابية بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩١٨ من سليمان ناصيف أمين سر جمعية الاتحاد السوري في مصر الى مارك سايكس . ومن أعضاء تلك الجمعية : رفيق العظم ، حقي العظم ، فوزي البكري ، مختار الصلح ، خليل أيوب وخليل زينيه . راجع حافظ وهبه ، جريدة العرب في القرن العشرين ، ص ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٣) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٢٥ ـ ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

ولكن البريطانيين ركزوا على الاتصال بفيصل بعد وصول الاخير الى العقبة القريبة من فلسطين ، ففي ١٠ كانون الاول ١٩١٧ تلقى فيصل من كلايتون رسالة يقول له فيها : « إن سكان فلسطين ، عرباً ويهوداً ، أبدوا ارتياحهم لانعتاقهم من النير التركي ، وان هذا لدليل على أن جميع سكان فلسطين وسورية متحدون في رغبتهم في تحرير أنفسهم وفي التطلع نحو الاستقلال والحرية . ويجب أن نعمل جميعنا من أجل هذه الوحدة ، لان العرب لا يستطيعون أن يأملوا تحقيق أهدافهم الا اذا قربوا اليهم كل طائفة وكل طبقة في البلاد[١] » .

وكاتب كلايتون لورانس يحضّه على التحدث الى فيصل بشأن اليهود ، فرد لورانس من مدينة الطفيلة التي كان فيها يقول : إنه سيُحدّث فيصل عندما يجتمع به «وأن موقف العرب سيكون ودياً أثناء فترة الحرب على الاقل . ولكن أرجو أن تذكر أنه يخضع للرجل العجوز ولا يستطيع وحده أن يعمل باسم المملكة العربية » . وقال لورانس « إن فيصل ربما يزور القدس حيث يمكن أن يجتمع اليهود به[٢] » . وفي نفس الحين استدعى اللنبي فيصلاً عن طريق لورانس ، لمقابلته في القدس ، وقد فسر لورانس السبب « لأجل المذاكرة فيما يختص بالحركات المقبلة ، وكذلك بما يختص بفلسطين واليهود والمسلمين » .
ويقول فيصل من ضمن رسالة الى والده ، انه قال للجنرال اللنبي في تلك المقابلة « لا يمكنني ان أردّ جواباً ، لا بالنفي ولا بالقبول، حتى أستأذن صاحب الجلالة ، وقد ذكر لي أن اليهود اليوم لهم.تأثير كبير على الحرب من جهة النقود ، والجميع محتاجون لهم وربما أنتم (أي نحن العرب) تأخذون منهم خمسة عشر أو عشرين مليون جنيه إما في أثناء الحرب أو بعد الحرب لتشكيل الحكومة وتنظيم امورها[٣] » .

واستمرت حملة التأثير على فيصل ، فكتب مارك سايكس رسالة مطولة الى فيصل ، حافلةً بالنصائح عن أفضل سبيل يتبعه القادة العرب في إدارة بلادهم[٤] ، استهلها بحض فيصل على ضرورة قيام مساواة تامة بين المسلمين والمسيحيين ، « وتحطيم الحاجز الرديء الذي فرّق بين الغرب والعرب خلال العديد من الاعوام » ، هذا الحاجز الذي أقامه

---

(١) راجع الوثيقة ٧/٨٨٢ في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية .

(٢) رسالة مؤرخة بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٨ . وفي الوقت ذاته كتب كلايتون الى سايكس يخبره فيها بأنه حض لورانس على أن يوضح لفيصل « ضرورة توحيد مساعيه مع اليهود » .

(٣) ملحق رسالة غير مؤرخة من فيصل الى حسين (أوراق الامير زيد) .

(٤) راجع أيضا بهذا الخصوص ما كتبه الكولونيل باست الى الملك حسين من جدة بتاريخ ١٩١٨/٢/٢٠ سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٣٦ ـ ص ١٨٠ . وجاءت هذه الرسالة في الفترة التي تقدمت بها الجيوش البريطانية في عمق فلسطين واقتربت من نهر الاردن .

الأتراك ، ثم تحول الى وصف قوة اليهود قائلاً : « إن لهم قوة عالمية ، واذكر أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يقهروكم ولا يقصدون ان يطردوا عرب فلسطين . . . إنهم لا يرغبون ان يذهبوا الى هناك بالملايين ، وما يرغبون فيه هو ان يكون في مقدورهم أن يشعروا بأن اليهودي في فلسطين يستطيع أن يحيا حياته ويتكلم لغته كما كان يفعل في العصور القديمة . وان هذا شعور نبيل وصادق ، واذا رحّبتَ به فستكون هناك سعادة ورخاء وأمل لقضيتكم ، أما اذا ازدريتَ هذا الشعور فستجد ضدّك قوةً لا تبدو للعيان ، ولكن فاعليتها تسري في كل مكان . . . . انظر الى الحركة اليهودية بمثابة المفتاح الكبير لنجاح العرب ، وبمثابة ضمان القوة الوحيدة عندما يعقد ممثلو الامم اجتماعاتهم[1] » .

جاء وايزمن[2] ، رئيس اللجنة الصهيونية ، الى مصر في ربيع عام ١٩١٨ واجتمع بعدد من الزعماء السوريين فيها بقصد تبريد قلقهم حول ما نشر عن مطامع الصهيونية ، ثم جاء الى القدس وعمل ستورز وكلايتون على عقد اجتماعات بين وايزمن وبين عدد من الزعماء الفلسطينيين ، حيث ألقى خطاباً قال فيه : أن الصهيونيين « يطلبون فقط فرصة التطور القومي الحر في فلسطين . . . دون الحاق الضرر بالسكان القاطنين في هذه البلاد بل لمصلحتهم ، وإن القول بأن اليهود سيعملون على طرد العرب من البلاد ، إما أن يكون ناتجاً عن سوء فهم ، أو مختلقاً يختلقه أعداء الطرفين[3] » . ورفض فيصل الذهاب الى القدس ، فأرسل الانكليز وايزمن للاجتماع به ، وهكذا سافر وايزمن بحراً من مصر الى العقبة ومنها الى وهيدة (بين معان والعقبة) مقر قيادة فيصل يومذاك ، حيث اجتمع به يوم ٤ حزيران ١٩١٨ حوالي ثلاثة أرباع الساعة . وحيث قدم لفيصل رسالة توصية من كلايتون قال فيها « إن صديقه وايزمن يعمل على ايجاد التعاون الكامل بين العرب واليهود ، لان مصالحهم مترابطة الى حد أن التعاون والتعاطف بينهم سيحقق وحده النجاح الدائم لهم[4] » .

---

(١) رسالة بتاريخ ٣ آذار ١٩١٨ موجودة في الملف ٨٨٢/٣ أرشيف وزارة الخارجية البريطانية . وراجع خصوصا سليمان موسى : المراسلات التاريخية رقم ١٣٨ ـ ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٢) حاييم وايزمن . عالم كيميائي وزعيم صهيوني (١٨٧٤ ـ ١٩٥٢) ولد في بولندا وتلقى علومه في برلين ، عمل استاذا في جامعة جنيف . ثم عين مديرا لمختبرات الاسلحة البريطانية ١٩١٦ . كانت له اكتشافات حول انتاج الاسيتون . كانت محادثاته مع بلفور سببا في اعلان وعد بلفور . وترأس الوفد الصهيوني في مؤتمر فرساي للسلام . كان رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية . وقد عين رئيسا لمعهد وايزمن للعلوم والجامعة العبرية ، انتخب أول رئيس لدولة اسرائيل وبقي في منصبه الى أن توفي .

(٣) راجع أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى . مجلد ٣ . ص ٥٠ حيث يقول : « ان العرب رفضوا أن يوافقوا على تصريحات وايزمن وان البعض منهم قد انسحبوا من المقابلة » .

(٤) راجع مذكرات وايزمن بعنوان « مصاعب وأخطاء » الذي صدر في لندن سنة ١٩٤٩ ص ٢٩٠ وما بعدها والذي ترجم للفرنسية بعنوان « نشأة دولة اسرائيل » . باريس سنة ١٩٥٧ .

وقد استهل وايزمن الاجتماع بقوله : « ان الحكومة البريطانية أرسلته للبحث في موضوع ترويج المصالح اليهودية في فلسطين ، وللاتصال بالزعماء العرب في محاولة للتعاون معهم » . وقال فيصل « إنه يدرك أهمية التعاون بين العرب واليهود ، ولكنه لا يستطيع أن يبدي رأياً يتعلق بالسياسة لأنه في القضايا السياسية لا يزيد عن كونه وكيل أبيه ولا يستطيع البحث فيها » . فأجاب وايزمن : « إن اليهود لا يرمون الى تأسيس حكومة يهودية ، ولكنهم يريدون أن يُعمّروا البلاد ويطوروها تحت الحماية البريطانية ، دون أن يتعدوا على أية مصالح مشروعة للآخرين » . واعتذر فيصل مرة أخرى عن بحث مستقبل فلسطين فيما يتعلق باليهود والحماية البريطانية . وقال وايزمن : « إنه سيسافر قريباً الى أمريكا وأنه سوف يستعمل نفوذ اليهود مع الرئيس ولسون لمصلحة الحركة العربية » .

وقد تجدد الاتصال بين فيصل ووايزمن بعد ذلك بستة شهور . واذا أردنا تقدير ظروف فيصل في ذلك الحين ، والضغوط التي كان يتعرض لها لتجديد الاتصال بوايزمن ، فمن المهم أن نحسب حساباً لوضع فيصل إزاء فرنسا وكذلك إزاء بريطانيا . ففي ١٠ كانون الأول ١٩١٨ وصل فيصل الى لندن وهو في قلق نفساني عظيم من جراء موقف فرنسا السلبي منه ، وعدم اعترافها له بأية صفة رسمية ، كما وصف في رسالته الى أبيه . لقد كانت أفكار فيصل كلها تتجه نحو حل هذه المشكلة ، وقد توافرت عنده القناعة التامة بأن فرنسا هي العقبة الكؤود في وجه الاستقلال العربي ، منذ اخراج ممثيله من بيروت وسواحل سورية وما شاهده من تصرفات الفرنسيين العدائية[1] .

كان الساسة البريطانيون يظهرون الكثير من حسن النية الخادعة تجاه العرب ، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يشجعون الصهيونية ، ويحرصون على تقوية التحالف مع فرنسا ، ويصرون على توسيع رقعة السيطرة البريطانية في بلاد العرب . والواقع ان السياسة البريطانية اتجهت الى محاولة التقريب بين العرب واليهود ، بقصد تحقيق هدف الانكليز النهائي ، وهو الحصول على موافقة جميع الأطراف المعنية على أن تخضع فلسطين لحكمهم ، بدلاً من أن تخضع لادارة دولية .

وكان رئيس الوزارة الفرنسية كليمنصو قد حضر الى لندن في كانون الاول ١٩١٨ ، واتفق مع لويد جورج على تعديل اتفاقية سايكس - بيكو ، حيث وافق على أن تحتل بريطانيا لواء الموصل وأن تشرف بنفسها على فلسطين[2] .

---

(١) سليمان موسى : المراسلات التاريخية . رقم ٢٠٩ - ص ٢٤٤ - ٢٤٥ وهي رسالة من فيصل الى أبيه الملك حسين . ورقم ٢١٦ - ص ٢٥٠ وهي رسالة من فيصل الى أخيه زيد من لندن بتاريخ ١٢/١٢/١٩١٨ ورقم ٢١٧ - ص ٢٥٠ - ٢٥٣ .

(٢) راجع تيميرلي : « تاريخ مؤتمر السلام » المجلس السادس - ص ١٤١ - ١٤٢ .

ما إن حطّ فيصل قدمه على أرض الجزر البريطانية ، حتى استقبله لورانس الذي أصبح صديقه ومستشاره وترجمانه ، ووجد فيه همزة الوصل الوحيدة ، للتعرّف على وضع سياسي كان قليلَ الخبرة به ، وللاجتماع بأشخاص لم تكن له بهم معرفة سابقة . والتصق لورانس بفيصل بتوجيهات من حكومته خلال هذه الفترة ، حتى كان لا يكاد يفارقه وبالشكل الذي عرف عن لورانس وذاع صيته .

في هذا الوضع وفي ظل هذه الظروف ، تجدد اللقاء بين فيصل ووايزمن ، يوم ٦ كانون الثاني عام ١٩١٩ ، في فندق كارلتون بلندن حيث كان يقيم فيصل . وقام العقيد لورانس بدور المترجم بين الطرفين .

بلغ النشاط الصهيوني في ذلك الوقت أوج قوته . . وكان يبدو جلياً أن الحكومة البريطانية عازمة عزماً أكيداً على تحقيق الأهداف الصهيونية ، شريطة تغيير وضع فلسطين لصالح بريطانيا ، وقد عملت الخارجية البريطانية جهدها للضغط على فيصل لتحصل على موافقته المبدئية على اتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور .

كان فيصل واقعاً تحت تأثير الضغط البريطاني ، وتحت شعوره « أن بامكانه استخدام نفوذ الصهاينة للضغط على الولايات المتحدة الامريكية التي ستضغط بدورها على فرنسا - العقبة الكؤود - التي كانت تقف حجر عثرة دون تحقيق الاماني العربية » . وبذلك يمكنه التغلب على فرنسا في مؤتمر الصلح ، لاعتقاده أيضاً أن بريطانيا ستكون مع العرب وليس ضدهم على حد تعبيره . . في ضوء كل هذه الخلفيات ، عقد فيصل مع وايزمن اتفاقاً ينص في أهم بنوده : «على القرابة العرقية والصلات القديمة بين العرب واليهود ، وعلى ضرورة التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين وإنشاء وكالات عربية ويهودية معتمدة في المنطقتين ، وعلى أن يسود التفاهمُ بين الدولة العربية وفلسطين ، وأن تقدم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور ، وتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين وحرية ممارسة العقيدة الدينية » .

وقد أضاف فيصل الى مواد الاتفاقية الثماني ، المادة التالية بخط يده :

« اذا نالت العربُ استقلالها ، كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ ، المقدّم لنظارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى ، فانني موافق على ما ذكر بباطن هذا من المواد ، وإن حصل أدنى تغيير أو تبديل فلا أكون ملزماً ومربوطاً بأي كلمة كانت ، بل تُعدّ هذه المقاولة كلا شيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أُطالبُ بأي صورة كانت[١] » .

---

(١) راجع بهذا الخصوص جورج انطونيوس : « اليقظة العربية » . الطبعة الانكليزية - ص ٤٣٧ - ٤٣٩ ، وسليمان موسى في كتابه « الحركة العربية » - ص ٤٣٦ ، ٤٣٩ . وراجع أيضا النص الاساسي في كتاب أيتوني روسّي « وثائق » صفحة ٧٢ - ٧٣ . واذا أردت العودة الى وجهة النظر الصهيونية يجب مراجعة كتاب ل . نيهير برنهايم « تصريح بلفور » - ص ٢٨٩ - ٣٩٠ .

وقد وقّع فيصل مباشرة تحت هذه المادة ، كما جاء توقيع وايزمن تحت توقيع فيصل . ومن هنا يجب اعتبار الشرط الذي أضافه فيصل مادة أساسية من صلب الاتفاقية ، لا يصح التحدث عنها أو بحثها بمعزل عنه .

اننا لو نظرنا بموضوعية وتجرد الى الوضع الذي كان يجد فيه فيصل نفسه يومذاك ، واذا أخذنا بعين الاعتبار النظرة العامة التي كان العرب في ذلك الحين يرون اليهود من خلالها : أناساً مسالمين ، ضعفاء قد يجيدون الصيرفة والتجارة ولكنهم لا يعرفون الحرب ـ فاننا لا نجد في هذه الاتفاقية ذلك الذنب الفظيع وتلك الجناية الكبيرة ، التي حاولت بعض أجهزة الدعاية المغرضة أن توهم بها العالم العربي . لقد حدث كل هذا عام ١٩١٩ قبل أن يشهد الناس شيئاً مما وقع في فلسطين بعد ذلك . وإن الشرط القوي الذي وضعه فيصل ، كان يدل على بُعد نظره وعلى تحسُّبه للعواقب والاحتمالات ، وكان دليلاً على أن ثقته بالانكليز لم تكن ثقة كاملة . وربما يكون هناك مجال للوم فيصل ، لأنه لم يدرك أن الهدف الاساسي للحركة الصهيونية من هذه الاتفاقية ، هو الحصول على أية وثيقة من مسؤول او زعيم عربي ، تُشعر بموافقة العرب على الاهداف الصهيونية أو عدم ممانعتهم لها ، لأنها تدرك ان القرار الأخير لن يكون بيد العرب .

ومن المهم القول ، بأن الشرط الذي أضافه فيصل جعل الاتفاقية باطلة عملياً ، لأن العرب لم يحققوا مطالبهم التي تضمنتها مذكرة فيصل[1] .

أما موقف الولايات المتحدة فقد أوضحه الرئيس ولسن[2] في الخطابات التي ألقاها سنة ١٩١٧ و ١٩١٨ . وفي البنود الاربعة عشر الشهيرة التي أعلنها يوم الثامن من كانون الثاني عام ١٩١٨[3] . ويبدو أنه كان يفكر بمشروع إنشاء اتحاد كونفدرالي للدول العربية بحماية الولايات المتحدة .

ولا نرى بأساً من أن نرجع قليلاً الى أواخر عام ١٩١٨ ، أي في التاسع والعشرين من شهر كانون الاول منه ، حيث سنحت لوزير الخارجية الفرنسية السيد بيشون (Pichon) فرصة ليؤكد من جديد أن لفرنسا حقوقاً في الامبراطورية العثمانية ، وذلك في اثناء جلسة مناقشة في الجمعية الفرنسية العامة . هذه الحقوق لفرنسا هي في سورية ولبنان وكيليكيا

---

(١) « بما انه لم يجر تنفيذ طلبات فيصل وشروطه ، فان اتفاقية فيصل ـ وايزمن لم يكن لها وجود قانوني او شرعي على الاطلاق » . وعندما سئل فيصل عن سبب توقيعه الاتفاقية مع وايزمن اجاب : « لقد اشترطنا لتأييدهم انشاء مملكة عربية فاذا انشئت لا يهمنا شيء » . (امين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، المجلد ٣ ، ص ٤٦) .

(٢) ويدرد ولسن (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤) الرئيس (٢٨) للولايات المتحدة . انتخب للرئاسة عام ١٩١٢ واعيد انتخابه عام ١٩١٦ . بقي على الحياد في الحرب العالمية الاولى حتى عام ١٩١٧ حيث اعلنها . اصدر نقاطه الاربع عشرة عام ١٩١٨ كأساس للتسوية السلمية .

(٣) راجع هذه البنود في ملحقات الكتاب .

وفلسطين ، وهي حقوق قائمة على حقيقة التاريخ ، وعلى اتفاقات ، وعلى عهود ومواثيق . وعندما قاطعه النائب الاشتراكي السيد مارسل كاشان(Cachin) قائلاً « بأن السوريين يطالبون بالحرية والاستقلال . وهذا هو العهد الذي قطعته فرنسا على نفسها » . تابع وزير الخارجية السيد بيشون كلامه قائلاً : « إن هذه الحقوق تصدر دوماً عن أماني سكان تلك البلدان ورغائبهم ، لانها شعوب كانت منذ زمن تشعر بالتعاطف معنا ، وتطلب حمايتنا » . « ومؤتمر الصلح حر في التوصل الى استنتاجاته الخاصة فيما يتعلق بالاتفاقية التي عقدت ، أما بالنسبة الينا فاننا نعتبر اتفاقيتنا مع انكلترا ملزمة لانكلترا كما أنها ملزمة لنا ، كما أننا نعتبر الحقوق المعترف بها لنا » . ومما لا شك فيه ان هذا الكلام الصادر عن وزير الخارجية الفرنسية ، كان موجهاً بالدرجة الاولى الى حليفتها عبر مضيق المانش ، انكلترا ، وفي وقت كان فيه الأمير فيصل في لندن ، وكان القصد من التركيز على اتفاقية سايكس ـ بيكو تذكير من يَلزَمُه التذكير ، بأن فرنسا لن تعترف باجراء أي تعديل من شأنه أن يمسّ مصالحها في الشرق الأدنى .

في الثلاثين من شهر كانون الاول تناول الأمير فيصل وزوجتُه طعام الغداء على مائدة رئيس بلدية لندن في مقر رئاسة البلدية Mansion House ، وحضر المأدبة السير هنري مكماهون وزوجته . « وعندما شرب رئيس البلدية نخب الأمير ، شكره للخدمات الجلّى الممتازة التي اسدتها قواته الباسلة لهم في تحرير الارض المقدسة من الحكم التركي البغيض . وفي ردّه على كلمة رئيس البلدية قال الامير فيصل : « ان العرب يحاربون في سبيل مبادىء الحرية والعدل ، وهي المبادىء التي يقدسها الحلفاء ، والتي هي على نقيض المبادىء التي كان يقوم عليها الحكم التركي . وعبر عن عظيم سروره إذ أن العرب ، وهم يقومون بهذه المهمة ، وفي الوقت الذي كانوا يحاربون فيه في سبيل هذه المبادىء ، كان الشعب الانكليزي يتعاطف معهم » . وهكذا انصرم عام ١٩١٨ وفرنسا متمسكة باتفاقية سايكس ـ بيكو ، بينما كانت انكلترا تحاول تعديل بنودها . أما فيصل فكان يتكلم عن مبادىء الحرية والعدالة في وضع دولي لا يحترم سوى شريعة الغاب ، في الوقت الذي كان يزداد فيه الوضع توتراً وخطورة في الشرق الادنى .

٦ ـ مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩ :

كان الجو الذي انعقد به مؤتمر الصلح في باريس يوم ١٨/ ١/ ١٩١٩ حافلاً بالمتناقضات والمثاليات ، والشك ، والشره الاستعماري ، والاماني الوليدة . وكان الرئيس ولسون وهو رئيس الولايات المتحدة ، قد استقطب آمال الشعوب الضعيفة في

تحقيق العدالة . كما كان حامل راية مبدأ تقرير المصير[1] ، وعدم فرض حكومات لا تقبلها الشعوب . وقد حاولت بريطانيا وفرنسا اقناع ولسون ، بأن تتفق الدول الكبرى على حلول للمشاكل القائمة وعرضها على المؤتمر العام ، ولكن ولسون رسول السلام رفض الاقتراح ، وأصر على أن تعرض المشاكل على بساط البحث علناً . وهنا اقترح كرزون ووافق معه لويد جورج ، ألاّ تقبل بريطانيا ان يكون ولسون الحَكَمَ الأوحد في تسويات السلم ، بل ان يكون طرفاً بين الأطراف الاخرى حول طاولة المؤتمر .

لم تكن المشاكل التي كان العالم يواجهها مع نهاية الحرب ، تقلّ عن المشاكل التي كانت تواجهه قبل بدئها ، فالدول المهزومة كانت تتوقع شروط صلح قائمة على مبادىء ولسون ، بينما كانت فرنسا بالذات تصر على فرض شروط صلح شديدة ضد الالمان . وكان على المؤتمر أن ينظر في قضايا عشرات الشعوب الصغيرة في أوروبا وآسيا ، التي كان كل منها يطالب بحلول تتعارض مع الحلول التي تطالب بها شعوب اخرى . وقد كانت الدول الكبرى يومذاك هي بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة واليابان . وكانت الدول الثلاث الاولى تُصرّ على اقتطاف ثمار الانتصار الذي احرزته عن طريق التوسع والحصول على التعويض والتنازلات .

وبما أن مسألة تمثيل العرب في المؤتمر لما تحلّ بعد ، فقد وجهّ فيصل حال وصوله الى العاصمة الفرنسية في ١٣ كانون الثاني ، رسالة الى بيشون طلب منه فيها بأن يحضر المؤتمر ممثلاً للبلاد العربية ، ثم اجتمع بالسيد كليمنصو فقال له هذا إنه يعدُّ العرب من جملة الحلفاء. وقبل افتتاح المؤتمر جاءه ج . غو J. GOUT وهو الوزير المفوض المختص بالشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية وقال له « إن فرنسا ما تزال تعتبره بمثابة سائح ، وأن دول الحلفاء لم تعترف كلها بعد بالحكومة العربية (الولايات المتحدة واليابان) ، وان حكومة فرنسا لا تعترف بالتأكيدات التي أعطاها له الجنرال اللنبي ، وأنها قوية تستطيع عمل كل شيء ، وقد خدعك بعضُ الذين ليس لهم صلاحية في الامور الرسمية ، وهذا مما يستوجب الاسف ، ولكن اذا أردتم التقرب من فرنسه ، واخلصتم لها في سياستكم فانها تعمل معكم ما استطاعت الى ذلك سبيلاً » . وكان واضحاً ان (غو) يعني تحذير فيصل من الاستمرار في التعاون مع الانكليز . وقد رد عليه فيصل بقوله : « أعلم ان والدي لم يحارب الأتراك لأجل أن تتجزأ بلاده وتغدو طعمة للأغيار . ولا تحسبوا انني اخاف قوة فرنسا وشديد بطشها فاسلمكم بلادي . . . ولا تظن انني اميل الى انكلترا او غيرها فيما يختص بمنفعة بلادي بل كن مطمئناً من هذه الجهة . ولقد أعطتني الحكومة الانكليزية قولاً صريحاً بتخلية العراق . انني عدو لمن يخالف سياستنا الوطنية

---

(١) راجع مبادىء الرئيس ويلسون الاربعة عشر في الملحقات .

ويعارضنا فيها أكان ذلك المعارض انكليزياً او فرنسياً[1] » . وقد بادر فيصل بعد ذهاب غو فأنبأ لورنس بما قال غو ، وطلب اليه أن ينقل تفاصيل المحادثة الى بلفور . ومضى لورنس فنقل النبأ الى كبار اعضاء الوفد البريطاني ، وقابل بلفور الذي قام هو ولويد جورج بمسعى مع كليمنصو وبيشون . وبعد شيء من الأخذ والرد والالحاح وافق مجلس الحلفاء الاعلى يوم ١٧ كانون الثاني على أن يمثل العرب مندوبان . وعاد لورنس الى فيصل في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، فوجده ما يزال ساهراً يتجول في الفندق نهب الحيرة والقلق . وبادر لورنس فيصلاً بالقول : « سيدي ، لويد جورج يبلغك أنه سيكون للعرب مندوبان وليس مندوباً واحداً » فسُرّ فيصل كثيراً وفي جلسة الافتتاح مثَّل العربَ هو ومحمد رستم حيدر[2] .

وقد كان هناك جانب آخر لتمثيل العرب في مؤتمر السلم ، فقد كان الملك حسين يعتبر نفسه ممثل العرب الآسيويين جميعاً ، بينما اعترفت به بريطانيا وفرنسا ملكاً على الحجاز ، ووافقت فرنسا على ان يُمثّل في المؤتمر بهذه الصفة فقط . وقد تبدّت الصعوبة عندما طلب المعتمد البريطاني في جدة من الملك أن يبعث التفويضات التامّة إلى فيصل ، لأن الملك رفض أن يوقع التفويضات باسم حكومة الحجاز ورفض أربع صيغ مختلفة اقترحها المعتمد . كما انه تردد في اعطاء تفويضات مع صلاحيات تامة بتوقيع المعاهدات واجراء المباحثات باسمه ، بينما لم يكن يعرف من أولئك المندوبين سوى ابنه فيصل . وبعد مناقشات عديدة بين الملك والمعتمد ، اقتنع الملك بأن توقيع التفويضات باسم « ملك البلاد العربية والاشارة فيها الى الامة العربية ، سيثير اعتراضات الدول الأخرى عليها ، مما يجعلها ملغاة ويحول دون وجود ممثلين عرب في المؤتمر . وأخيراً وقّع رئيس الوزراء بالنيابة ست وثائق باسم « الحكومة العربية الشريفية » وصادق الملك عليها . وقد تركت الاسماء في وثائق الاعتماد مفتوحةً ليصار إلى تعبئتها في باريس من قبل فيصل . واشترط الملك في رسالة بعث بها الى المندوب السامي مع وثائق الاعتماد ، أنه لا يوافق على أن يوقّع مندوبوه على أية اتفاقات يمكن أن تنتقص من اتفاقه مع الحكومة البريطانية المتمثل برسائل مكماهون .

عند افتتاح المؤتمر كان فيصل يعتقد اعتقاداً جازماً أن فرنسا « تريد ان تخرج سورية

---

(١) راجع رسالة من فيصل الى الملك حسين بتاريخ ١٩/ ١/ ١٩١٩ (اوراق الامير زيد) .
وراجع ايضا كتاب رسائل لورانس التي نشرها دافيد غارنت . لندن ـ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٢) رسالة فيصل الى اخيه زيد بتاريخ ١٩/ ١/ ١٩١٩ (اوراق الامير زيد) . ولد محمد رستم حيدر في بعلبك عام ١٨٨٩ وتوفي عام ١٩٤٠ ، وتعلم بدمشق والاستانة والسوربون في باريس وفي مدرسة العلوم السياسية بباريس . شارك في تأليف جمعية « العربية الفتاة » . حضر مؤتمر فرساي مع الملك فيصل واقام مدة في باريس . تولى مركز سكرتير فيصل الخاص عام ١٩٢١ في العراق كان رئيسا للديوان الملكي في عهد الملك غازي . عاد الى بعلبك بعد انقلاب بكر صدقي وعاد عام ١٩٣٧ الى بغداد ليتولى وزارة المالية . اغتاله ضابط شرطة عراقي . له مؤلفات عديدة بالفرنسية والعربية .

من المجتمع العربي وتستحوذها لنفسها » . وقد اتخذ فيصل في مساعيه السياسية القول أنه وكيل والده والجيش العربي المؤلف من جميع العرب ، وأنه يطالب بحقوق العرب ، وأن لا تحسم الدول امراً يختص ببلاد العرب الا بعد ان يؤخذ رأي أهلها « واهل البلاد لهم الحق في انتخاب الحكومة التي يريدونها وعلى الحكومات ان تقبل برأيهم . . . وكل قرار خالف هذا المبدأ لا نقبل به » . وأعلن فيصل ان أباه « لا يريد ان يجبر العرب على قبول سيطرته » ولكن «سلوا أهل البلاد ، هم احق الناس بتعيين مقدّراتهم وبانتخاب الحكومة التي تناسبهم . كانت تلك الحكومة فرنسا أم أميركا أم اليابان ام العرب » . وقد اتصل فيصل برجال الوفد الاميركي ، وشرح لهم وجهة نظر العرب وحثّهم على الاخذ بناصره ، وأخذ يسعى للاجتماع بالرئيس ولسون ليطلب منه « أخذ الرأي العام في البلاد : أعني التصويت في جميع بلاد العرب المستخلصة من أيدي الترك . . » .

وفي باريس قدم فيصل الى وفود الدول الكبرى ، مذكرته المؤرخة بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩١٩ التي كان قد أعدها في لندن وقدمها لوزارة الخارجية البريطانية ، وفيما يلي نص المذكرة :

« جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الاتراك تلبية منه لرغبة بريطانيا وفرنسا ، لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسية من خط الاسكندرونة ـ ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً ، معترَفاً باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الامم ، ويُستثنى من هذا المطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة ، وعدن محمية بريطانية[1] . وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة يمكننا ان نرتب الامور فيما بيننا ، مثل تثبيت الدول القائمة فعلاً في تلك المنطقة ، وتعديل الحدود فيما بينها ، وفيما بينها وبين الحجاز ، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن ، وانشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها . وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة ، واني لاستند في مطلبي هذا على المبادىء التي صرح بها الرئيس ولسن وهي مرفقة بهذه المذكرة ، وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما لها هي نفسها من مصالح مادية » .

ومما لا شك فيه ، أن روح المسايرة لرغبات وزارة الخارجية البريطانية ، تبدو واضحة وجلية في هذه المذكرة ، ولكن ليس في الامكان أبدع مما كان . . وقد عبر المؤرخ الشهير « توينبي » الذي كان يعمل في وزارة الخارجية البريطانية يوم ذاك عن ارتياحه لهذه المذكرة

---

(١) راجع لويد جورج في كتابه عن مؤتمر باريس بعنوان « الحقيقة حول معاهدات السلام » لندن ١٩٢٤ . المجلد الثاني ـ ص ١٠٣٨ ـ ١٠٤٤ وراجع ايضا دافيد هنتر مللر (يومياتي حول مؤتمر باريس) المجلد الرابع ـ ص ٢٩٧ .

فقال : « أرى أنها وثيقة بالغة الاعتدال وتدل على حنكة سياسية وأنه يجب منح الأمير فيصل الفرصة التامة لكي يعرض رسمياً أمام المؤتمر قضية العرب المعروضة هنا[1] » .

في هذه الاثناء رفع « قسم الاستخبارات » لوفد الولايات المتحدة لمؤتمر الصلح في باريس « توصية » بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩١٩ ، الى الرئيس ولسن والى المفوضين المطلقي الصلاحية للدول الاخرى جاء فيها :

اولا ـ انشاء دولة سورية .

ثانياً ـ ان يطبق على هذه الدولة السورية نظام الانتداب ، ولكن لم يرد في التوصية ذكر للدولة التي ستُختار للقيام بمهمة الانتداب هذا .

ثالثاً ـ ينبغي ألا توضع عراقيل من شأنها ان تحول دون دمج هذه الدولة السورية المقترحة في اتحاد عربي كونفيدرالي اذا تبين أن هناك ميلاً في البلاد نحو هذا الحل[2] .

ولكن جُلّ ما نعرفه عما اتخذ من قرارات رسمية حول سورية في اثناء الشهر الاول من سنة ١٩١٩ ، هو مشروع قرار اتخذه ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان في مؤتمر خاص في الكاي دورسي[3] في ٣٠ كانون الثاني ، مؤدّاه : « وجوب فصل سوريا فصلاً تاماً عن الامبراطورية العثمانية[4] » .

في اليوم السادس من شهر شباط . تمكن الأمير فيصل من عرض قضيته أمام مؤتمر الصلح في مقر وزارة الخارجية الفرنسية . فأشار فيصل الى المذكرة التي كان قد رفعها الى المؤتمر في ٢٩ كانون الثاني ، والتي طالب فيها بأن يعترف الحلفاء « بأن يكون للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من خط الاسكندرونة ـ ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً ، اعتراف باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الامم » ثم راح يعرض الأسباب التي من أجلها تقدم بمطلبه هذا وقال : « ان والده لم يُعرّض حياته للخطر ، كما أنه لم يُعرّض مملكته للدمار لما اشترك في الحرب ، وعندما بلغت الحرب أقصى حدّ من الخطورة ، ليحصل على منافع مادية شخصية . . . ان العرب يعترفون بالجميل لبريطانيا وفرنسا ويشكرونهما على ما قدّمتاه من عون في سبيل تحرير أوطانهم . والعرب يطالبون الآن ان يفي الحلفاء بالوعود التي قطعوها على أنفسهم في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨ » .

---

(١) راجع الملاحظة التي كتبها حول مذكرة فيصل بتاريخ ١٦ ، ١٧/ ١/ ١٩١٩ ـ ارشيف وزارة الخارجية البريطانية . الملف ٦٠٨/ ٩٢ .

(٢) راجع ميللر « الوثائق » المجلد ٤ ـ ص ٢٦٢ ـ وثيقة رقم ٢٤٦ .

(٣) مبنى وزارة الخارجية الفرنسية .

(٤) راجع الاوراق المتعلقة بعلاقات الولايات المتحدة الخارجية . المجلد ٣ ـ ص ٧٩٦ .

ثم ان تلميحاً وُجِّه الى فيصل ـ والواقع أنه لم يكن تلميحاً مبطناً بقدر ما كان امراً واقعاً ـ عندما التفت اليه الرئيس ولسن ، بعد أن أدرك أن عصبة الامم قد تبنت نظام الانتداب ، وسأله : « ما اذا كان يُؤْثر ان يرى دولة واحدة تتولى الانتداب على شعبه ، أو عدداً من الدول تتولاه » . كان هذا السؤال في الواقع خروجاً صارخاً عما كان يطالب به فيصل من الاستقلال والسيادة . ولذا امتنع عن الاجابة بصورة مباشرة قائلاً انه لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال قبل أن يستشير والده ، وقبل أن يعود الى العرب انفسهم . لقد جاء الى باريس ليطالب باستقلال شعبه ، وبحقهم في اختيار مصيرهم . . . قال فيصل : انه « شخصياً ، كان يخشى تجزئة البلاد العربية ، كان هدفه وحدة العرب ، وفي سبيل الوحدة حارب العرب ، وأي حل غير هذا الحل لا يمكن أن يعتبره العرب إلا نوعاً من تقاسم الاسلاب بعد المعركة . . . كان العرب يطالبون بالحرية ولا يرضون عنها بديلاً . . . فقد كان العرب أمة قديمة متحضرة منظمة في زمن لم يكن فيه للدول الممثلة في هذه القاعة الآن من وجود . . .[1] » .

في الثالث عشر من شباط ، جرى بحثٌ حول قضية سوريا وذلك قبل انعقاد جلسة العشرة الكبار في مكتب بيشون (Pichon) في مقر وزارة الخارجية واستدعى الدكتور هوارد بلس (Bliss) رئيس الكلية الانجيلية في بيروت (وهي الآن الجامعة الاميركية في بيروت) ليدلي برأيه حول القضية . وبعد أن رحّب به كليمنصو شرع (بلس)بقراءة البيان الذي كان قد اعدّه ، وهذا بعض ما جاء فيه : « ان الالتماس الذي أرفعه الى هذه الهيئة الموقرة عن أهل سوريا هو أن ترسل فوراً لجنة حيادية مختلطة ، تمثل الحلفاء ، الى سوريا لتفسح المجال أمام الأهلين في سوريا ، وفي لبنان ايضاً ، للتعبير وبحرية ودون أي عائق عن وجهات نظرهم السياسية ، وعن أمانيهم بالنسبة الى نوع الحكم الذي يرغبون فيه ، وبالنسبة الى الدولة الحامية المنتدبة اذا شاؤ وا ذلك . . . واني مقتنع أن مثل هذا الاستفتاء الحر سيكشف عن رغبة الشعب في اقامة دولة ، أو دول ، تتطلع آخر الامر الى نيل الاستقلال التام ، غير انها الآن تسعى ، الى الحصول على وصاية تقوم بها دولة منتدبة . وفي ختام بيانه لفت الدكتور بلس انتباه مجلس العشرة الكبار الى « ضرورة الفصل التام بين الدين والدولة » واضاف قوله : « انه من الافضل للحكم أن يلازم خطاً موازياً للدين ، وان يسير الاثنان معاً نحو تحقيق غايتها الرائعة متوازيين منفصلين[2] » .

وبحث الأربعة الكبار موضوع سورية في اجتماع خاص يوم ٢٠ آذار ، وفي هذا

---

(١) راجع كتاب لويد جورج السابق الذكر « الحقيقة حول مؤتمر السلام » المجلد الثاني ـ ص ١٠٤٣ ـ ١٠٤٤ .

(٢) راجع بيان الدكتور بليس في كتاب : الوثائق المتعلقة بالعلاقات الخارجية للولايات المتحدة الاميركية المذكور سابقا . المجلد ٣ ـ ص ١٠١٥ ـ ١٠١٨ .

الاجتماع أكد بيشون تمسك فرنسا بسورية كلها ، ورد لويد جورج قائلاً أن احتلال فرنسا لسورية الداخلية يناقض الاتفاق مع العرب ، وأن اتفاقية سايكس ـ بيكو وضعت على أساس رسالة مكماهون الى الملك حسين (٢٤ تشرين الاول ١٩١٥) وقال بيشون ، ان فرنسا لم تعهد بريطانيا للعرب إلا قبل بضعة اسابيع ، ورد لويد جورج قائلاً ان بريطانيا جندت حوالي مليون جندي ضد الأتراك ، وجنودها هم الذين احتلوا سورية بمساعدة العرب الذين كانت مساعدتهم لها « جوهرية » وعزّز اللنبي هذا التصريح بقوله : ان مساعدة العرب « لا تُقدّر بثمن » . وعاد لويد جورج يقول إنه على أساس رسالة مكماهون وضع الملك حسين جميع موارده في ميدان الحرب ، وقد ساعد ذلك « مساعدة مادية قصوى لكسب الحرب » ، وقال ان موافقة بريطانيا على خضوع المدن السورية الاربع لنفوذ فرنسا المباشر ، سيكون نكثاً لعهودها للعرب وهي لا تستطيع الاقدام على ذلك . وهنا تدخل ولسون قائلاً ان الولايات المتحدة لا تهمّها مدعيات بريطانيا وفرنسا بالنسبة لاي شعب الا اذا كان الاهلون يريدونهما ، لذلك فالسبيل الوحيد لمعالجة المسألة هي « اكتشاف رغبات أهالي هذه المناطق » ، واقترح تعيين لجنة تحقيق من قبل الدول الاربع ترسل الى سورية والى المناطق المجاورة اذا دعت الحاجة الى ذلك ، بغية استطلاع الحقائق وتقديم تقرير حولها الى مؤتمر السلم . وقد وافق ممثلو الدول الاخرى على مقترحات ولسون . ولكن كليمنصو قال ان التحقيق يجب ان يشمل فلسطين والعراق وارمينيا فأجاب لويد جورج بأنه لا يعترض على ذلك[1] .

ولكن الاجتماع انتهى والقلوب متنافرة ، حتى أن ولسون خرج « وهو يلعن كل واحد وكل شيء » قائلاً : « انه لم يفعل طول ٤٨ ساعة الا الكلام ، وهو مشمئز من الموضوع كله[2] » .

وفي اجتماع آخر عقده الاربعة الكبار يوم ٢٥ آذار ، تمت الموافقة رسمياً على ايفاد اللجنة الرباعية ، وعلى ان تنتدب كل دولة عضوين يمثلانها في اللجنة ، وقد اختار الرئيس ولسون الدكتور هنري كنج والمستر شارلس كرين ، بينما عينت الحكومة البريطانية السير هنري مكماهون والاستاذ هوجارث . ولكن فرنسا لم تعين ممثليها ولم تبد ايطاليا أي اهتمام .

ويبدو ان لويد جورج اقتنع بقوة الحجج التي ساقها بلفور ، فحاول يوم ٢٧ آذار

---

(١) كان بلفور يعارض فكرة اشتمال التحقيقات لفلسطين ، وقد سجل معارضته في مذكرة مؤرخة في ٢٣ آذار قائلاً ان لجنة التحقيق لا بد ان تجد العرب يرغبون في قيام حكومة وطنية عربية ، وان تقرير اللجنة لا بد ان يتضمن رفض عرب فلسطين ـ وهم الاكثرية ـ قيام ادارة تشجع هجرة اليهود وازدياد نفوذهم .

(٢) هـ . ويكهام ستيد : « خلال ثلاثين عاما ١٨٩٢ ـ ١٩٢٢ » ص ٢٩٨ لندن ـ عام ١٩٢٤ .

اقناع الرئيس ولسون بأن لا فائدة ترجى من ارسال اللجنة ، وقال انه تسلم من العراق عرائض تطالب بادارة بريطانية مباشرة ، وعدم الرغبة في حكومة يرئسها أمير عربي[1] . ولكن الرئيس ولسون أصر على ضرورة قيام اللجنة بمهمتها .

ان اهتمام الرئيس ولسون الجدي بموضوع سورية ، جعل الساسة البريطانيين يميلون تدريجياً الى فكرة التفاهم مع الفرنسيين ، لحل المسألة السورية بسرعة ، خشية أن يؤدي الاهتمامُ الاميركي الى الاضرار بمطامعهم في العراق وفلسطين والى زيادة الوضع المتفجر في مصر سوءاً .

وقد بذل ويكهام ستيد محرّر التايمس جهوداً للتقريب بين الاطراف الثلاثة المعنية ، فدبّر يوم ٢٥ آذار اجتماعاً بين عدد من البريطانيين والفرنسيين (كان ممن حضره لورنس وجرترودبل وروبير دي كاي) ، وبعد نقاش طويل توصل المجتمعون الى أن ارسال اللجنة سيؤدي الى اثارة الخواطر في البلاد وفتح الباب للدساسين . وقيل ان لورنس « أوضح ان الاتجاه للوحدة العربية لا يملك قيمة سياسية جدية في الوقت الحاضر أو المستقبل » .

وقال لورنس إنه يجب أن لا تكون لسورية علاقة بالملك حسين وذلك لتسهيل ايجاد التفاهم بين فيصل وفرنسا ، وانه سينصح فيصل بتأخير سفره لاعطاء الفرصة للتفاهم بينه وبين الفرنسيين مباشرة ولتفادي ارسال لجنة التحقيق[2] . ومما لا شك فيه أن موقف لورنس هذا كان بدافع من حكومته .

وظل فيصل في الوقت ذاته يحاول الاجتماع مع كليمنصو بقصد التوصل الى تسوية مباشرة ، ولكنه قيل أن فيصلاً لم يتلق جواباً ، فاضطر أن ينبيء لويد جورج ، فرتب هذا في الحال موعداً لاجتماع الاثنين (فيصل وكليمنصو) . والأرجح ان لويد جورج هو الذي اقنع فيصلاً بضرورة التفاهم مباشرة مع كليمنصو ، ولكن هذا الاخير كان يعتقد أن الانكليز هم الذين يحرضون فيصلاً سراً ، فأراد أن يقنعه علناً وبصورة جدية بضرورة

---

(١) من الواضح ان هذا جاء نتيجة للسياسة الاستعمارية التي كان ارنولد ولسون الحاكم السياسي يتبعها في العراق ، وكان ولسون هذا قد وصل الى باريس في ٢٠ آذار . راجع كتابه بلاد ما بين النهرين خلال اعوام ١٩١٧ - ١٩٢٠ لندن ١٩٣١ - ص ١١٥ - ١١٦ .

وكان ارنولد ولسون وضباطه السياسيون في العراق قد استعملوا اساليب خادعة وملتوية لاقناع عدد من الشيوخ والوجهاء بتوقيع مضابط يطلبون فيها الحماية البريطانية . وفي الوقت ذاته رفض ولسون قبول المضابط التي اعدها وجهاء المدن العراقية ، وفيها طلب تأسيس حكومة عربية مستقلة تحت رئاسة أحد أنجال الملك حسين .

العمري، المجلد الثالث ، ص ٢٢ - ٢٤ .

(٢) راجع كتاب ستيد السابق الذكر ص ٣٢٣

التفاهم مع فرنسا . وعلى آية حال فقد استقبل كليمنصو فيصلاً يوم ١٣ نيسان وقال له : ان الانكليز سينسحبون من دمشق وحلب وأودّ أن يحلّ جنودُنا محلَّهم هناك ، فرد فيصل بعدم الموافقة ، قائلاً : ان سورية لا تحتاج الى جنود أجانب . وعندئذ قال كليمنصو : أنا لا أود احتلال البلاد ، ولو كان الامر راجعاً لي شخصياً لما اختلفت معكم دقيقة واحدة ، ولكن الامة الفرنسية لا ترضى بأن لا يكون في سورية أثر يدل على الحضور الفرنسي ، وهو يريد ان يرتفع العلم الفرنسي في سورية مع وجود عدد قليل من الجنود ، ولا مانع ان يُرفع العلم العربي الى جانب العلم الفرنسي[1] ، وكان من نتائج ذلك الاجتماع ، أن كليمنصو بعث في ١٧ نيسان بمسودة رسالة الى فيصل ، بقصد الحصول على مسودة جواب منه ، حتى اذا كان الجواب مرضياً تم تبادل الرسالتين رسمياً . ولكن الأمير فيصلاً بعث جواباً لم يُرضِ كليمنصو فلم يبعث الرسالة . وقد تضمنت مسودة كليمنصو القولَ بأن الحكومة الفرنسية مستعدةٌ « أن تعترف بحق سورية في الاستقلال عن طريق تأليف اتحاد مناطق مستقلة محلياً حسب تقاليد السكان ورغباتهم » . وتضمنت المذكرة استعداد فرنسا لتقديم مساعدتها « المادية والمعنوية لتحقيق تحرر سورية » . كما تضمنت القول بأن فيصلاً طلب أن تقوم فرنسا بتقديم العون والمستشارين لسورية . ولم تتضمن مسودّة جواب فيصل (التي لم تنشر حتى الآن) ما يرضي الفرنسيين فرفضوها

بعد أن قابل فيصل كليمنصو اقتنع فيصل بأن الفرنسيين يريدون أن يحكموا سورية حكماً مباشراً ، وان لا مجال للتوصل الى تفاهم معقول معهم ، فاعتزم ان يمضي قدماً في مسألة لجنة التحقيق ، اعتقاداً منه أن الولايات المتحدة وبريطانيا لن تخذلاه خذلاناً تاماً عندما تظهر نتائج التحقيق . وهكذا بعث برسالة مجاملة الى كليمنصو في ٢٠ نيسان قال فيها انه مضطر للعودة الى بلاده ولذلك طلب تعيين ممثل فرنسي لمواصلة المباحثات التي بدأها مع كليمنصو .

وبعد ان اخفق فيصل في محاولته هذه ، اعتزم ان يعود الى سورية استعداداً لمجيء لجنة التحقيق اليها . وفي ٢١ نيسان زار كليمنصو مودعاً ، ثم قام بزيارة هاوس[2] وأبلغه أنه والسوريين كلهم يعلقون الآمال على تمسك الاميركيين بمبدأ تقرير المصير . ونتج عن ذلك ان الرئيس ويلسون أمر الاعضاء الامريكيين في لجنة التحقيق بالاستعداد للسفر . وفي يوم ٢٣ نيسان غادر فيصل باريس يرافقه الكولونيل تولا ضابط الارتباط الفرنسي الجديد . وفي طريق عودته الى بلاده زار مدينة روما واجتمع فيها بالبابا وملك ايطاليا . ثم

---

(١) نقلها ساطع الحصري عن أوراق فيصل ، ولكنه ذكر ان الاجتماع وقع في ١٦ نيسان - راجع : يوم ميسلون ، بيروت ، طبعة جديدة ١٩٦٤ ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) النقيب هاوس المرافق العسكري للرئيس ولسون .

غادر ميناء تارنتو على متن سفينة حربية فرنسية فبلغ بيروت يوم ٣٠ نيسان ١٩١٩ .

وبعد سفر فيصل أصبح الممثلان العربيان في مؤتمر السلم هما رستم حيدر وعوني عبد الهادي ، بينما أصبح أمينُ الكسباني السكرتيرَ العامَّ للوفد العربي في باريس ، وهو المنصب الذي كان يحتله عوني عبد الهادي قبل ذلك .

ولدى وصول فيصل الى دمشق ، أصدر بياناً ؛ في اليوم الاول من أيار موجَّهاً الى « أبناء سورية العزيزة » ، أعلن فيه أن الاتفاق على منح سوريا استقلالها ، وعلى إرسال لجنة تحقيق دولية قد تمّ مبدئياً . « وبهذا ترون أنه قد تمَّ القسمُ الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل لأجلها . وذلك بحسن نيات الحكومات الاربع المعظمة ، وصدقهم في أقوالهم وتمسكهم بالمبادىء السامية التي جعلوها دستوراً لأعمالهم وطبقاً لأماني الامة » . أما المشكلات الداخلية فتقع مسؤ ولية معالجتها على الامة نفسها . وعلى هذه الامة ان تبرهن للجنة الدولية أنها خليقة بالاستقلال ولها من المؤهلات ما يمكنها من ادارة شؤ ونها بنفسها . ولهذا السبب ينبغي أن « تعملوا وغايتكم متحدة والصدق رائدكم في أقوالكم وأعمالكم . . . متمسكين بأهداب الحزم ، متخذين أسباب السكينة والتؤ دة والغيرة على هذا الوطن . . .[1] » .

في الخامس من أيار ألقى فيصل خطاباً في مبنى بلدية دمشق ، ضمَّ جمهوراً غفيراً من أعيان البلاد وزعمائها ، الذين كانوا قد وفدوا الى دمشق من سائر المناطق السورية ومن بعض المناطق اللبنانية . وبعد أن أشار باقتضاب الى تاريخ الثورة العربية وأهدافها ، شرع في الكلام عن الأراضي العربية في مؤتمر الصلح المنعقد في باريس حيث كان يمثّل والده ، وقال ان دفاعه كان على قسمين :

القسم الأول ـ أن البلاد العربية لا يمكن تجزئتها .

القسم الثاني ـ بما أن بين سكان البلاد العربية اختلافات في طبقات العلم والتعليم ليس الا ، فالظروف كافية لتجعلهم امة واحدة وحكومة واحدة . لذلك رأيت الدفاع كما يلي :

ان سورية والحجاز والعراق أقطار عربية . وكل قطر فيها يطلب أهلُه الاستقلال ، وقلت : إن نجداً والبلاد المساوية للحجاز من الأقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس الا ، وهذه يرئسها والدي . أما سورية فيجب ان تكون مستقلة . وكذلك العراق يريد استقلاله . . . دافعت عن سوريا بحدودها الطبيعية ، وقلت إن السوريين يطلبون

---

(١) ساطع الحصري : « يوم ميلسون » ـ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

استقلال بلادهم الطبيعية ، ولا يريدون أن يشاركهم فيها شريك . . . » وقال فيصل إن الامم الغربية « بعد أن وقفوا على حقيقة الامر وعرفوا ما هي مقاصد السوريين أذعنوا لهم وأعطوهم كل ما يطلبونه . وها أنا بين أيديكم ، قد قَدِمتُ اليكم من مؤتمر السلم ، أبلغكم ذلك . . . » .

« والآن . . . اريد ممن حضر من ممثلي الامة ـ الذين في حالتهم الحاضرة ليسوا ممثليها بالصورة الحقيقية ، ولكنهم بموقفهم الادبي يمثلون الامة معنوياً ـ اطلب منهم أن يصرحوا لي بأفكارهم وان يقولوا لي : هل ما قمنا به في السابق هو حسن أم لا ؟ فأجاب الجميعُ الأميرَ على سؤاله : « حسن حسن . واعقب بالتصفيق والهتاف » .

« وهل أعمالنا مقرونة برضى الامة أم لا ؟ فأجاب الجميع : نعم ، نعم وكل الرضى وفوق الرضى تصفيق وهتاف » .

ولما أخذ « ممثلو الامة » يعبرون عن آرائهم كل بمفرده ، كانت أقوالهم تتراوح بين من كان يضع كامل ثقته واعتماده بالأمير فيصل وبين من كان يقول : « تفديك الامة بأموالها وأنفسها وأرواحها » .

وختم الأمير فيصل كلامه قائلاً : « أرجو ان تعتمد الامة على الامم التي حالفتها وناصرتها ، والتي لولاها لم نستطع الاجتماع الآن . . . فعلينا ان نثبت لهم أننا امة تريد ان تستقل . . . هذا وارجوكم رجاء خاصاً ادعوكم به الى الاتحاد وجمع الكلمة فهذه وظيفة الامة ، كما هي وظيفتي الخاصة ، اذ أنا فرد منكم . . .[1] » .

٧ ـ الخلاف بين انكلترا وفرنسا على الغنائم:

في باريس كان كليمنصو ووزير خارجيته بيشون يتخذان موقف الهجوم ، بينما كان موقف لويد جورج يزداد تصلباً ازاء مطالب فرنسا في سوريا .

استدعى كليمنصو ويكهام ستيد في الرابع من أيار « وشكا له بمرارة من أن لويد جورج كان دوماً ينقض الوعود التي كان يقطعها على نفسه » . واضاف قائلاً : « في بادىء الأمر أبدى لويد جورج موافقته التامة على أن تكون فرنسا الدولة المنتدبة على سوريا ، انما كان الرئيس ولسون يقف عقبة دون ذلك . فكان لويد جورج يقول لي : اذهب واتفق مع ولسون أولاً فتراني أقف الى جانبك في كل أمر ، شريطة الا تستولي على سوريا بقوة السلاح ، وشريطة ان تتخلى عن مطالبك في كيليكيا وأن تترك الموصل ضمن منطقة النفوذ

---

(١) ساطع الحصري ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢١ ـ ٢٢٧ وراجع أيضا : يوسف الحكيم « سوريا والعهد الفيصلي » بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٧٢ ـ ٧٣ .

البريطاني . وقد نفذت هذه الشروط كلها ، ولكن بعد أن اتفقت مع ولسن ومعاونه الكابتن هوس (House) لم يفعل لويد جورج شيئاً[1] » .

طالبت فرنسا بحقها بالانتداب على سوريا . لكن لويد جورج ، في بادىء الامر ، رفض الموافقة على هذه الفكرة . ان وقائع مجلس الحلفاء الاعلى تظهر ان نظام الانتداب بحث فيه لاول مرة في جلسته التي عقدها في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩١٩[2] . وكان بيشون ، وزير الخارجية الفرنسية ، أول من اوعز به في الجلسة السرية التي عقدها الكبار الاربعة في ٢٠ آذار . قال بيشون : « اذا قُطع لفرنسا عهدٌ بأن تكون الدولةَ المنتدبة على سورية ، فإن فرنسا تتعهد الا تقوم بعمل ما الا بعد موافقة الدولة العربية ، أو اتحاد الدول العربية الفدرالي عليه . وهذا هو الدور الذي ترغب فرنسا في القيام به في سورية » . وفي الحادي عشر من أيار سأل كليمنصو السيد ستيد « اذا كان بامكانه ان يحمل البريطانيين على الموافقة باعطاء فرنسا حق الانتداب على سورية ، وباستبدال الحاميات البريطانية هناك بحاميات فرنسية ، وذلك بمعونة السلطات البريطانية وبرضاها[3] .

أثناء ذلك صارح فيصل السلطات البريطانية بحقيقة موقفه من الفرنسيين وبكل صراحة . ففي الثامن من أيار جرت مقابلة بين الجنرال كلايتون والأمير فيصل في دمشق . وبعد يوم نقل الجنرال كلايتون نتيجة المقابلة الى الجنرال اللنبي ، الذي نقلها بدوره برقياً الى اللورد كرزون (Curzon) في ٢١ أيار من القاهرة . وفيما يلي نص البرقية الهامة التي أرسلها اللنبي :

تلقيت البرقية التالية من رئيس المكتب السياسي الجنرال كلايتون ، والتي يقول فيها :

« اجتمعت بفيصل أمس واليوم ، لقد أثار موضوعَ سياسته تجاه الفرنسيين . وبلّغني

---

(١) راجع هنري ويكهام ستيد : « خلال ثلاثين عاما ١٨٩٠ ـ ١٩٢٢ » رواية شخصية ـ لندن ١٩٢٤ ـ المجلد الثاني ـ ص ٣٢٣ .

(٢) راجع د . هـ . ميللر « يومياتي في مؤتمر باريس ١٩١٨ ـ ١٩١٩ » المجلد ١٩ ـ ص ٥٥٧ ـ ٥٦٩ . راجع حول نظام الانتداب ونشوء هذه الفكرة كتاب الجنرال سمطس بعنوان « عصبة الأمم اقتراح عملي » لندن عام ١٩١٨ . وراجع ايضا كتاب البير ميللر « الانتداب الدولي » دراسة حول المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم . باريس ١٩٢٤ ، وقد اعتمدت هيئة مؤتمر باريس عام ١٩١٩ مبدأ الانتداب في المادة ١٩ من الميثاق الأول لعصبة الأمم . ومن أراد تطبيق مبدأ الانتداب على مشاكل ومستقبل الولايات العربية التي فصلت عن الامبراطورية العثمانية عليه مراجعة كتاب الدكتور ادمون رباط : « التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري ـ محاولة لفهم تركيبه » بيروت ١٩٧٣ ـ ص ٣٣٠ ـ ٣٤٠ وما بعدها .

(٣) راجع ر . ستانارد . بيكر « وودرو ويلسون وتنظيم العالم » . مراسلات غير مطبوعة وامور شخصية . لندن ١٩٢٣ ـ المجلد ٣ ص ١١ . وراجع أيضا كتاب ستيد المذكور سابقاً ـ المجلد الثاني ص ٣٢٥ .

أنه ـ بناء على نصيحة لورانس ـ اتفق شفوياً مع كليمنصو ، بأن يبذل جهده مع الشعب لقبول الانتداب الفرنسي على سوريا ، شريطة أن تعترف فرنسا باستقلال سورية . لقد أعلن فيصل صراحة أنه لم يكن ينوي قط تنفيذ هذا الترتيب ، وان سورية تعارض التغلغل الفرنسي معارضة شديدة بأية صورة كانت . وقال ان بريطانيا ستلقى الترحيب كدولة منتدبة على سورية ، ولكنه لا يستطيع أن يطلب الانتداب البريطاني لانه غير واثق من ان بريطانيا ستقبل الانتداب اذا عرض عليها .

لقد سبق أن وجه مثل هذا السؤال الى رئيس الوزراء البريطاني ، ولكنه لم يتلق جواباً مباشراً . ومن الواضح أن فيصل يتخوف من نتائج هذه السياسة الملتوية تجاه فرنسا وعندما طلب نصيحتي قلت له : ان سياسة المواربة والخديعة لن تعود بالضرر الا عليه ، ومن السهل أن تؤدي هذه السياسة الى تعريض العلاقات بين فرنسا وبريطانيا لخطر الاحتكاك مما سيؤثر بدوره على العلاقات بين بريطانيا والعرب .

لقد عقد فيصل عزمه الآن على انتظار وصول لجنة التحقيق لكي يعرض عليها المطالب التالية :

١ ـ إن استقلال سورية شرط أساسي في نطاق أي انتداب يقرره مؤتمر الصلح .

٢ ـ تعطى المشورة والمساعدة للدولة السورية من قبل بريطانيا واذا رفضت بريطانيا ذلك فأمريكا ، واذا رفضت أمريكا ذلك فتعطى تلك المشورة والمساعدة من قبل الدول الثلاث : بريطانيا وأمريكا وفرنسا ، ولن تقبل سورية بأية حال من الاحوال أن تعطي فرنسا وحدها تلك المشورة والمساعدة . إن هذا يتفق مع الانطباعات التي تكونت لدي سابقاً عندما كنت في دمشق يوم ١٢ أيار[1] .

الا أن موقف الشعب العربي في سورية كان يزداد عداء نحو فرنسا . وهذا ما اثبته تقرير العقيد كورنواليس وهو ضابط الاتصال البريطاني في دمشق « حول الوضع السياسي في البلاد العربية » بتاريخ ١٦ أيار « أن رجال السياسة في دمشق يعتنقون مبدأين أساسيين

---

(١) يحسن مقارنة ما جاء في هذه البرقية بالمطالب التي قررها المؤتمر السوري وقدمها يوم ٣ تموز ١٩١٩ الى لجنة التحقيق الاميركية ، والتي تضمنت طلب الاستقلال التام لسوريا الطبيعية ، فاذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الطلب ، توافق فرنسا على قبول المساعدة الفنية والاقتصادية من أمريكا ، فاذا رفضت أمريكا توافق سوريا ، ان تقدم بريطانيا تلك المساعدة . أما فرنسا فقد رفض المؤتمر « أن يكون لها مساعدة ويد في بلادنا بأي حال من الاحوال » . (نص القرار في كتاب أحمد قدري « مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى » دمشق ١٩٥٦ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٩) . فلا عجب أن تغضب فرنسا تجاه هذا الوضع وتسعى الى الاتفاق مع بريطانيا على اقتسام سورية والعراق بالقوة ، خاصة بعد أن تخلت أمريكا عن التدخل في تسوية المشاكل الدولية . (سليمان موسى : المراسلات التاريخية ١٩١٩ ـ المجلد الثاني رقم ٢٢ ـ ص ٧٤ ـ ٧٥) .

لا ثالث لهما ؟ أولاً : يريدون الاستقلال ، ثانياً : انهم لا يريدون فرنسا . ان شعور العداء لدى النخبة منهم نحو الفرنسيين عنيف الى حد يدعو الى الاستغراب . [1] » .

وهكذا فرغ صبر كليمنصو عند هذا الحد من المماطلة والتسويف ، ولا سيما أنه كان يخشى من تطور الحالة السياسية الداخلية في فرنسا نفسها ، بسبب النقد الذي كانت توجهه اليه أوساط المحافظين ورجال الدين من أنه لا يبدي حماسة أو اهتماماً جدياً بالقضية السورية . ولذا فقد بادر الى أخذ موقف فيه تهجم عنيف على مناوئيه في اجتماع مجلس الاربعة الكبار في ٢١ ، ٢٢/ ٥/ ١٩١٩ عندما طرحت القضية السورية على بساط البحث .

ولا بأس من العودة الى وقائع ذلك الاجتماع :

« شكا كليمنصو من أن لويد جورج لم يف بالعهود التي قطعها له . وعندما سأله لويد جورج كيف يفسر عدم الوفاء بالعهود التي قطعت ؟ أجاب كليمنصو بأنه عندما لاحظ في خريف سنة ١٩١٨ ، تصرف الانكليز في سورية ، ذهب الى لندن وطلب الى لويد جورج بأن يقول له بصراحة وبتحديد ماذا يريد . عندها قال له لويد جورج : اريد الموصل وفلسطين . ثم إنه عاد الى باريس ، وعلى الرغم من معارضة السيد بيشون ووزارة الخارجية الفرنسية ، فانه وافق على مطلب لويد جورج . ثم إن لويد جورج أكد أن الدولتين ، بريطانيا وفرنسا ، ستسيران بوفاق جنباً الى جنب . كذلك شكا كليمنصو من التباطؤ الذي يمارسه البريطانيون في جلاء الجيوش البريطانية عن سورية واحلال جيوش فرنسية مكانها . كما ان اللورد ميلنر(Milner)كان قد وعد ان يساعد كليمنصو في تقريب وجهات النظر بينه وبين الأمير فيصل ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا . . . » .

ثم إن كليمنصو تقدم بنداء عاطفي ملتمساً من المؤتمرين الابقاء على التضامن ألانكلو- فرنسي والتضامن الفرنسي - الاميركي .

وقال لويد جورج : « بصدد الحنث بالوعود فإنه اتهام لا يقوم على أساس من الصحة » .

وأشار كليمنصو الى أن هناك « اتفاقاً واضحاً وصريحاً عقد بين فرنسا وانكلترا بصدد سورية » .

« فقال لويد جورج : أنه تم الاتفاق في لندن على أن تكون سورية من نصيب

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بالسياسة الخارجية البريطانية . السلسلة الاولى . المجلد ٤ (١٩١٩) لندن ١٩٥٢ - ص ٢٦٥

فرنسا ، والموصل من نصيب بريطانيا ، وبما أن الموصل جزء جغرافي طبيعي من العراق فينبغي أن تكون جزءاً لا ينفصم عن العراق ويكون البلدان من نصيب بريطانيا[1] » .

ربما كانت المذكرة التي قدمها السيد لويد جورج أهم حدث في ذلك الاجتماع . وعنوان المذكرة : « مشروع تسوية القضية الامبراطورية العثمانية » وينص البندان السابع والثامن منها على ما يلي :

« البند السابع - تحصل فرنسا على انتداب مؤقت على سورية ، الى أن تقدم اللجنة التي هي في طريقها الآن الى منطقة الشرق الادنى تقريرها » .

« البند الثامن - وتحصل بريطانيا على انتداب مؤقت على العراق وفلسطين الى أن تقدّم اللجنة التي هي الآن في طريقها الى الشرق الادنى تقريرها » . ولكن كليمنصو لم يكن راضياً عن هذا التدبير . إذ أن كلمة « مؤقت » لم تعجبه وكذلك العبارة الشرطية « الى أن تقدم اللجنة تقريرها » وهي لجنة عارض تشكيلها منذ البداية ، ولم يبد أي اهتمام بأمرها .

عندما اجتمع مجلس الكبار الاربعة في اليوم التالي قال لويد جورج : « إن المنطقة التي هي موضع النزاع ، بحسب ما نصت عليه اتفاقية سايكس - بيكو ، لم تكن منطقة مخصصة لفرنسا ، بل كانت بأسرها منطقة عربية . وهذا ينطبق على دمشق وحلب وحمص التي نص عليها أنها داخلة في المنطقة العربية . وبحسب منطوق اتفاقية سايكس - بيكو لم تكن هذه المدن من منطقة سورية ، ولم يكن لفرنسا سوى المنطقة الساحلية . واني أكون مسروراً اذا ما كان في النية الحفاظ على هذه الاتفاقية . وذكر بأنه يوافق على القول أن هذه الاتفاقية كانت اتفاقية رديئة ، ولكنه يود أن يعلم ما اذا كانت لا تزال قائمة أم لا ؟ . . فاذا كانت لا تزال سارية المفعول فان فرنسا ليس لها الحق برفع راية أو وضع جندي في المنطقة العربية . انما لفرنسا الحق أن تمد هذه المنطقة بالمستشارين » .

ثم تقدم بعرض حجة ثانية - ولكنها حجة لم يكن اختيارها موفقاً من الناحية المنطقية اذ ذاك لانها مست شعور كليمنصو - وهي أن المجهود الحربي الذي بذلته بريطانيا لقهر الامبراطورية العثمانية واسقاطها كان أكثر بكثير من المجهود الحربي الفرنسي . فقد بلغ عدد الضحايا من البريطانيين أنفسهم - لا من الجنود الملوّنين - مئة وخمسة وعشرين ألف

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بالعلاقات الخارجية للولايات المتحدة الامريكية المجلد الخامس (١٩٤٦) - ص ٧٥٦ - ٧٦٦ - وص ٨٠٧ - ٨١٢ وراجع ايضا مذكرات المترجم الفرنسي الرسمي « بول مانتوكس » . « مداولات مجلس الاربعة » باريس عام ١٩٥٥ المجلد ٢ - ص ١٣٧ - ١٤٣ - وص ١٥٩ - ١٦٤ .

قتيل . أما المعونة التي قدمتها فرنسا فقد كانت ضئيلة « لا يؤ به بها » - « ربما ألفي قتيل من أصل مئتي ألف جندي ، أي واحد بالمئة » . وأضاف لويد جورج ملاحظة أخرى حادة في ازعاجها ، مؤداها : « أنه كان من الافضل مهاجمة تركيا من الاسكندرونة . وكان اللورد كتشنر يرغب في هذه الخطة العسكرية ، غير أن الفرنسيين اعترضوا عليها وقاوموها ، فلم يكن الفرنسيون في وضع يُمكنهم من تحقيق هذه الخطة ولم يدعونا نحققها نحن » .

« قال كليمنصو : ان اتفاقية سايكس - بيكو قائمة وسارية المفعول ، وانه يتمسك بها . فقاطعه لويد جورج سائلاً : « واذا كانت الاتفاقية تشمل دمشق ؟ . . » فقال كليمنصو : إنه من الطبيعي عندما تنازل عن الموصل كان يعتقد بأنه سيحصل على نصيب في دمشق وحلب حسب شروط مماثلة . وهو يعترف ان دمشق كانت في المنطقة العربية . . . ولو أنه لم يوافق على التنازل عن الموصل في اجتماع لندن لما كنا وقعنا في هذه الورطة التي نجد أنفسنا فيها . . . ان البريطانيين يحتلون المنطقة عسكرياً . . . وهو ليس على استعداد لأن يقبل بالمشروع المقترح الآن . . . كما أنه يعتقد أن لويد جورج على خطأ ، غير أنه سيحاول جهده الا يتمسك بوجهة نظره لئلا يسبب ذلك سوء تفاهم بين الحلفاء . . .[1] »

وكان موقف الرئيس ولسن وهو ذاك الرجل الذي يستطيع أن يتدخل لتهدئة الحال - اذا أراد - موقفَ انسانٍ لا يرغب في التدخل ، أو أنه ربما لم يكن بارعاً في أساليب المداولات الدبلوماسية الاوروبية السرية ، لانه كان متمسكاً تمسكاً عقائدياً متطرفاً بالمبادىء الاربعة عشر التي أعلنها قبلَ دخوله الحرب ، والتي تطابق خطابه الشهير في مونت فرنون قبل سفره الى أوروبا وحضوره لمؤتمر باريس في ١٩١٨/٧/٤[2] .

وقد ذكر في وقائع الاجتماع الذي عقد في ١٨ شباط ١٩١٩ ، والتي كشفها الوفد الامريكي للمؤتمر ما يلي : لم تكن هاتان الاتفاقيتان تتضمنان عن طريق الصدفة ، بعض الشروط التي نعتبرها شروطاً عادلة لائقة تتفق روحاً مع المبادىء التي أعلناها » وعليه عندما كان الرئيس ولسن يشعر بالسأم المضني لدى سماعه محاجة كليمنصو ولويد جورج ، وعندما كان صبره ينفذ لدى اصغائه الى الادعاءات والادعاءات المضادة لكليهما : كان يسأل - بحسب ما جاء في الوقائع المشار اليها آنفاً - « هل لي أن أعرف ما هو الدور الذي يُطلب اليّ أن أقوم به في هذه القضية ؟ . . لانه هو نفسه لم يكن يستطيع أن يدرك بأي حق تتذرع فرنسا وبريطانيا العظمى لتسليم البلد الى أي واحد من الناس » .

---

(١) لا زلنا نتابع محاضر الجلسة التي اتينا على ذكرها في الحاشية السابقة .

(٢) راجع نص المبادىء الاربعة عشر لولسون في ملاحق هذا الكتاب .

وبما أن لويد جورج كان يسعى لاستمالة الرئيس ولسن وللتحالف معه ضد كليمنصو ، مع العلم أنه كان يقامر في تلك اللعبة بشيء لا يملكه ، أجاب فوراً : « أنه على استعداد للرضوخ لارادة السكان كما ستنقلها اللجنة المقترحة لاجراء الاستفتاء » . ويبدو أن هذا الكلام الصادر عن لويد جورج اعجب الرئيس ولسن فاضاف قائلاً : لا شك في أن هذا الرأي هو رأيه أيضاً . . . فانه لم يكن يرى أن تترك هذه الشعوب لذاتها ، اذ أنه يعوزهم الارشاد والوصاية الودية الرقيقة ، « ولكن الارشاد والوصاية ينبغي لهما ان يستهدفا صالح السكان وخيرهم لا صالح الدولة المنتدبة وخيرها » . أما لويد جورج ، عند سماعه ملاحظة الرئيس هذه ، وحرصاً منه على عدم اثارة حفيظة كليمنصو ، وتجاوباً مع نفسه لان لويد جورج لم يكن متحمساً لفكرة ارسال لجنة الى سوريا ـ فقد قال : « انه لا يمكنه ان يرسل موفدين اذا امتنع الفرنسيون عن ارسال موفدين ، ولكن الأميركيين يستطيعون أن يذهبوا بمفردهم » . عندها قال الرئيس ولسن : « ان الموفدين الذين سيوفدهم هم جماعة من المحايدين لا غرض لهم ولا هوى . واقترح تأجيل البحث في هذه القضيةعلى أن يعاد النظر فيها فيما بعد » .

وبعد تسعة أيام عقد مجلس الأربعة الكبار جلسة كانت سورية فيها على جدول أعماله . عقد الاجتماع في مكتب بيشون في مقر الوزارة الخارجية الفرنسية . وفي الاجتماع « قرأ لويد جورج برقية كان قد تلقاها من الجنرال اللنبي يعلمه فيها أن الموقف في سورية ينذر بالخطر الشديد ما لم يوفد مؤتمر الصلح لجنة تحقيق الى سورية . . . ولذا حانت اللحظة التي يجب فيها أن نتخذ قراراً حاسماً[1] » .

غير أن كليمنصو ظل متصلباً في موقفه ، وقد قال : ما دامت سورية كلّها تحت الاحتلال العسكري البريطاني فانه من غير المجدي ارسال موفدين فرنسيين . كذلك بقي لويد جورج متصلباً في موقفه ، وقال : « إنه لن يرسل موفدين بريطانيين اذا امتنعت فرنسا عن ارسال موفدين من قبلها . . .[2] » .

وقد استبشر كليمنصو بهذا الرأي ، وترك للوفد الاميركي الفرصة للتوجه الى بلاد الشام برئاسة الدكتور هنري تشرشل كينغ وتشارلز كرين[3] .

---

(١) راجع نص هذه البرقية لدى سليمان موسى : المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني ـ ص ٧٦ . (الحاشية) .

(٢) راجع الوثائق المتعلقة بسياسة الولايات المتحدة الامريكية الخارجية السابقة الذكر . المجلد الخامس ـ ص ٨١٢ . وراجع ايضا كتاب بول مونتوكس المذكور سابقا ـ المجلد الثاني ـ ص ١٤٣ و٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

(٣) المصدران السابقان . راجع ايضا حول لجنة كرين وما رافقها من صدامات واحباطات وتعقيدات ـ الدراسة المسهبة للسيد بورغل برانت في مقالته التي نشرت في كتاب « الاستعمار والاستعمار الجديد في شمال افريقيا والشرق الاوسط » برلين الشرقية ـ سنة ١٩٦٤ ـ ص ١٩٧ ـ ٢٢٥ .

واستمرت وزارة الخارجية تتلقى الاشارات من الممثلين البريطانيين في منطقة الشرق الأدنى وكلها تؤكد للحكومة البريطانية « أن فيصلاً وقواته السورية ستقوم بعمل عدائي ضد فرنسا ، لا بل ضد جيوشنا المتمركزة هناك » .

وخلال شهر حزيران سعى فيصل بكل ما أوتي من قدرة ، الى حمل الانكليز على البقاء في سوريا منعاً للاحتلال الفرنسي للبلاد[1] . ولكن الحكومة البريطانية كانت قد أوضحت بصورة لا يرقى اليها الشك ، بأنها لن تقبل بالانتداب على سورية وذلك على الرغم من توسلات فيصل الملحة بأن يقبلوا بالانتداب عليها . غير أن بريطانيا حاولت ان تقلل من مخاوفه بتطمينه أن بريطانيا لن تخذله ولن تتخلى عن مناصرة قضية العرب لانها ترغب ، بكل اخلاص ، في أن تساعد فيصلاً والعرب[2] .

ان الوثائق التالية تعطينا صورة مقتضبة عما وقع من احداث رئيسية في شهر حزيران ، وعند مطلع هذا الشهر زار السفير الفرنسي السيد كرزون وتحدث له عن « الشعور المتوتر » الذي يسود العلاقات بين رئيس الوزارة الفرنسية كليمنصو ، ورئيس الوزارة البريطانية في مؤتمر باريس فيما يتعلق بمستقبل سورية . وفي جوابه قال كرزون للسفير الفرنسي :

« اذا كانت هناك من منطقة ينبغي لفرنسا أن تكون شديدة الامتنان في مناصرتنا لها فيها فان تلك المنطقة هي سورية ذاتها . اذ أن لويد جورج في مؤتمر باريس ، لم يكتف بالتصريح العلني بأن بريطانيا لا ترغب في الانتداب على سورية ولا تقبل به في حال عرضه عليها وحسب ، بل إننا قد أرسلنا برقية الى فيصل أشرنا فيها الى موقفنا هذا » .

وموقف بريطانيا هذا أُشعر به فيصل بواسطة الجنرال اللنبي الذي بعث اليه ببرقية من القاهرة ، بتاريخ ١٢ حزيران :

« ان حكومة جلالته قد أعربت عن عدم رغبتها في قبول الانتداب على سورية ، ولكنها ستعطي أهمية بالغة لنصائح لجنة التحقيق التابعة لمجلس الحلفاء والدول المشاركة » .

ليس هناك دليل يثبت صحة ما جاء في العبارة الاخيرة من برقية الجنرال اللنبي . والمرجح أنها عبارة اضيفت لازالة بعض المخاوف التي كانت تساور فيصلاً . وفي ١٤

(١) راجع سليمان موسى · المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني رقم ٢٦ ـ ص ٧٩ ـ ٨٠ . برقية فيصل الى اللنبي بتاريخ ١٢/ ٦/ ١٩١٨ وجواب اللنبي عليها . وراجع رقم ٢٧ ـ ص ٨١ برقية من فيصل الى الجنرال اللنبي من دمشق في ١٤/ ٦/ ١٩١٩ .

(٢) راجع خيرية قاسمية : « الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ » المذكور سابقا ـ ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

حزيران أرسل فيصل بالجواب التالي : « تسلمت برقيتكم المؤ رخة بتاريخ ١٢ حزيران وعرفت عدم رغبة بريطانيا العظمى قبول الانتداب على سورية . ولكننا جميعاً فهمنا بسرور أنها عازمة على النظر بكل اهتمام الى توصيات لجنة التحقيق . ان السوريين سوف يعلنون للجنة بالاجماع أنهم يرغبون في انتداب بريطانيا لا سواها ، بناءً على الاسباب التي سأشرحها للمؤتمر الذي سيعقد قريباً في دمشق؟ ، والذي سيكون مؤلفاً من ممثلين لكل جزء من أجزاء سورية بدعم قوي من الرأي العام السوري . انني أرغب في إطلاع فخامتكم على هذا كله ، آملاً أن هذا الشعور الوطني ، شعور المحبة المتبادلة والتقدير والثقة سيبقى بيننا الى الابد . ولنا الثقة التامة أن شرف بريطانيا لا يسمح بأن يُلقى هؤلاء الذي يرجون مساعدتها بين الايدي الغريبة[1] » .

في هذه الاثناء وصلت « اللجنة الدولية المشتركة » التي طالب بها هوارد بلس ، الى يافا كوفد اميركي ، في ١٠ حزيران . وقد جاء هذا الوفد ليشكل لجنة تحقيق تنظر في رغائب الأهلين الحقيقية ثم ترفع تقريراً بالنتائج الى مؤتمر الصلح . ولكن لسوء الطالع ، خلق هذا الوفد مشكلات اضيفت الى قضية شائكة كثيرة التعقيد ، وذلك بحمل الناس على ترقب رجاء خائب أو على تمسكهم بأوهام زائفة . وكان الناس يترقبون وصول هذا الوفد بفارغ الصبر ، إذ ظنوا أنها الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون من خلالها أن يعبروا عن امانيهم لدى مؤتمر الصلح . وترك الوفد في نفوس الاهلين انطباعاً بأن السوريين يستطيعون أن يعتمدوا على الرئيس ويلسن وعلى الشعب الاميركي « الذي يدرك أن عليه مسؤ ولية تسوية الامور بحق وعدل تحت لواء عصبة الامم وذلك بغية الحصول على سلام دائم[2] » .

بعث الجنرال كلايتون في الثالث والعشرين من شهر حزيران بتقرير يوجز فيه الوضع

---

(١) تبدو من هذه البرقية رغبة فيصل في اقناع الانكليز بتعضيده لكبح جماح الفرنسيين . ولكن الانكليز لم يتزحزحوا عن موقفهم . وقد بدأ التباعد بين سورية وفرنسا بُعيد عودة فيصل من فرنسا عندما فرضت الاحزاب الموافقة على مشروع اتفاق كليمنصو . وفي ١٨ حزيران اجتمع فيصل وبيكو ، فشكا بيكو من نشاطات اخصام فرنسا ، وذكر اسم الاسكندر عمون بالذات ، وقال بيكو ان فرنسا اعترفت باستقلال سورية من ناحية المبدأ ورد فيصل انه يريد اعتراف فرنسا باستقلال سورية استقلالا تاما لا يخضع لشروط . وانحى بيكو باللائمة على اللنبي وقال « ان بريطانيا تطالب بفلسطين وحوران وجبل الدروز حتى العراق » . ولكن فيصلا والسوريين كانوا قد فقدوا ثقتهم بفرنسا ، أو انهم كانوا يأملون أن تختلف الدولتان فتنحاز احداهما اليهم . وقد ازدادت هموم فيصل نتيجة الهزيمة التي لحقت بقوات الملك حسين في معركة تربه (أيار ١٩١٩) فاضطر ان يرسل الى الحجاز مفرزة من الجنود مع بعض المدافع والرشاشات .
وفي ٢٦ حزيران ابرق الى اللنبي جوابا على برقية فيصل المنشورة اعلاه (بأن بريطانيا مصممة أن لا تقبل الانتداب على سورية حتى لو طلب السوريون ذلك أو حتى لو اوصت به لجنة التحقيق الاميركية) (وطلب بلفور إبلاغ فيصل ان بريطانيا لن تضيف الى مسؤ ولياتها مسؤ ولية الانتداب على سورية ! ! (الوثائق البريطانية ، المجلد ٤ ، رقم ٢٦) - (سليمان موسى « المراسلات التاريخية ١٩١٩ » المجلد ٢ رقم ٢٧ - ص ٨١) .

(٢) راجع الوثائق المتعلقة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة الاميركية المذكور سابقا المجلد ٤ - ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

القائم في سورية حتى ذلك التاريخ . وقد جاء في التقرير :

« ان معضلته الشاقة الآن (والكلام عن فيصل) هي موقف بريطانيا الشاذ . فانه بعد تحرير الاقطار التي تتكلم العربية بكثير من الدم والمال ، وبعد سنوات أربع من الصداقة المستمرة بين بريطانيا والأمير فيصل والشعب العربي ، يجد ان انكلترا قد أخذت تبدي فتوراً الآن ، فانها ترفض أن تعلن ما اذا كانت ستستمر في تقديم العون ، فضلاً عن أنها تترك في النفوس انطباعاً بأنها قد باعت العرب لكي ترضي مقتضيات السياسة في أوروبا . . . ويبدو جلياً أن فرنسا تعتمد على انكلترا والولايات المتحدة وحدها من أجل مستقبلها ، وهذا أمر يعرفه الأمير جيداً ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم لماذا تخشى انكلترا أن تقوم بأي عمل من شأنه ان يسيء الى البلد الذي ينبغي له ، منطقياً ، أن يكون مستعداً لقبول أية تضحيات من جانبه كي لا ينفر انكلترا أو يصرفها عنه . . . » .

« ان انتداباً فرنسياً يعتبره الأهلون موتاً وهلاكاً للأمة . فالانتداب يعني مَقْدَم المستعمرين الفرنسيين والجنسية الفرنسية كما أنه يعني السيطرة الفرنسية . وما كان للأمير وللعرب أن يقوموا بهذه الثورة ليروا أجمل منطقة من البلاد العربية تُسلَّم الى الفرنسيين الذين يعتبرونهم أقرب الى الأعداء منهم الى الأصدقاء ، والذين سيقاومونهم بقوة السلاح اذا ما حاولوا أن يمارسوا الحماية على سورية . . . » .

« واذا كانت انكلترا لا تنوي قبول الانتداب على سورية فمن الأفضل اعلان هذا الأمر بأسرع ما يمكن وتعميمه على الملأ من الناس . أما اذا كانت انكلترا تقبل الانتداب على سورية فان السوريين سيكفون فوراً عن المطالبة بالاستقلال ، وعن التجنيد . واذا كانت بريطانيا قد وطدت العزم على عدم التورط في مسؤ وليات جديدة في سورية . . . فان سورية تريد استقلالاً تاماً ناجزاً[1] » .

وعندما ظهر للعيان ان بريطانيا مصممة على البقاء في العراق ، شرع فيصل ومستشاروه بالتفكير بوسيلة جديدة لحملها على البقاء في سورية وذلك باقتراح يرمي الى توحيد البلدين ، سورية والعراق ، « تحت حكومة واحدة » وعليه رفع الوفد الحجازي في باريس ، بتاريخ ٢٤ حزيران ، الى لويد جورج مذكرة مؤ رخة في ٢٣ حزيران وموقعة من اللواء نوري باشا السعيد المعاون العسكري الأكبر للأمير فيصل ، « وكانت الغاية من تقديم هذه المذكرة ، التدليل على ضرورة تشكيل حكومة موحدة للقطرين العربيين المحرّرين

---

(١) المرجع السابق ـ ص ٢٩٦ وقد صدرت جريدة « الاستقلال » الدمشقية بتاريخ ٢٨/ ٦/ ١٩١٩ في العدد ٢٣ في صفحتها الاولى بالعناوين التالية : « ارادة الشعب العربي .. الشعب باسره يطالب بالاستقلال التام الناجز بدون شرط . والاستقلال لسورية والعراق . لا انتداب ولا وصاية ولا حماية وانما الوحدة العربية والاستقلال التام » .

سورية والعراق . . . ان غالبية السكان الساحقة في سورية والعراق تتطلع الى تشكيل حكومة واحدة تتألف من مجموعة من الدول المتحدة . . . ان الرغبة التي تدفع بأولي الأمر للفصل بين سورية والعراق تقوم ، الى حد معين ، على السياسة الاستعمارية التي تتبعها بعض الاحزاب في أوروبا . . . وان أفضل حل لقضية العرب ، وهو الحل الوحيد الذي يحظى بقبول غالبيتهم ، هو تشكيل حكومة واحدة تتألف من ولايات فدرالية من نمط الفدرالية التي تتألف منها الولايات في اميركا الشمالية . ويكون لكل ولاية نوع من الحكم الذاتي الذي يتجاوب مع تقاليد السكان في تلك الولاية ومع عاداتهم ودرجة رقيهم الاجتماعي[1] » .

في الوقت الذي استمر فيه فيصل يعلل النفس بأن تُغيِّر بريطانيا رأيها فتقبل الانتداب على سورية عبر الاقتناع الذاتي ، وعبر المواقف التي كان يقفها الجنرال اللنبي وكلايتون اللذان لم يكونا مقتنعين اقتناعاً تاماً بأن انكلترا ستتخلى كلياً عن سورية ، نقول في هذه الاثناء بعث بلفور من باريس بالبرقية التالية الى الجنرال اللنبي في القاهرة بتاريخ ٢٦ حزيران :

« ان حكومة جلالته لم تحد عن رأيها الذي عبرت عنه شفهياً بواسطة رئيس الوزراء - واظن أن ذلك كان بحضورك - لدى كليمنصو وبحضور الرئيس ولسن والسنيور اورلندو من أن انكلترا لا تقبل ، بصورة ما وفي أي ظرف ما ، الانتداب على سورية ، وقد كررت الحكومة هذا الرأي بوضوح تام في برقية برقم ١٦ ، بعثت بها الى كلايتون وجاء فيها :

« يمكنكم أن تعطوا رداً الى الأمير فيصل بأن حكومة جلالته قد وطدت العزم على ألا تقبل الانتداب على سورية » .

« واني لمتيقن أن فيصلاً أُطلع على هذا القرار عندما كان هنا ، ولكن ليس بامكاني الآن أن أجد سجلاً حول هذا الموضوع . . . ولكن . . . ليس هناك ما يبرر اعتقاده بأن رفضنا الانتداب يشكل تخلياً عنه نفسه ، أو تخلياً عن مناصرتنا القضية العربية . اننا نرغب بكل اخلاص أن نناصره وأن نساعد العرب أيضاً[2] » .

وهكذا يكون الفرنسيون قد احرزوا انتصاراً آخر على طريق تحقيق مطامعهم في سورية : ان بريطانيا قد وطدت العزم على التخلي عن فكرة أو إقتراح انتدابها على سورية .

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة الامريكية المذكورة سابقا المجلد ٤ - ص ٢٩٨ .
(٢) المصدر السابق . الوثائق - ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

والواقع أنه في الثاني من تموز بعث السيد بلفور من باريس بمذكرة الى لويد جورج حول موضوع « توزيعات الممتلكات التركية » جاء فيها تبيان وجهة نظره الخاصة التي كان قد عبر عنها أكثر من مرة بشأن وضع تدبير جديد لتسوية « القضية التركية » قال بلفور : « اسمح لنفسي أن أعيد باقتضاب جوهر التسوية » :

« أولاً : ان الاقطار التي تقطنها الشعوب الناطقة بالعربية ينبغي فصلها نهائياً عن تركيا ووضعها تحت الانتداب . أما الدول التي ستتولى الانتداب عليها فأمر يتفق عليه فيما بعد » .

« ثانياً : ينبغي أن يكون الانتداب على سورية لفرنسا والانتداب على العراق لبريطانيا ، وعلى فلسطين للاميركيين أو البريطانيين ، وعلى أرمينيا والمضائق (استانبول) للاميركيين ، ويكون الانتداب على القوقاس ربما من نصيب ايطاليا » .

« ثالثاً : ينبغي أن يشمل الانتداب الفرنسي الاسكندرونة . ومهما يكن من أمر فاني أكون آسفاً أن أرى منطقة الانتداب الفرنسي تمتد غرباً على محاذاة شاطىء الاناضول وذلك ليس لأني ضنين بها على الفرنسيين ، ولكن لأن كل ربح يحصل عليه الفرنسيون في شرقي المتوسط ، سيكون ممسكاً لدى الايطاليين ليتقدموا بمطالب جديدة »؟ .

« هذه هي الخطوط العريضة لاعادة تنظيم الممتلكات العثمانية خارج أوروبا والتي أرى أن أرفعها اليكم كتوصية . واذا كان بالامكان الجمع بين هذا المخطط وتسوية جميع القضايا الثانوية التي تشكل حيناً بعد آخر نقاط خلاف بين الفرنسيين والايطاليين والبريطانيين في أفريقيا وفي الشرق ، واذا كان الحل سيسفر بالتالي عن زوال التحاسد والتنابذ والخداع بين الدول الحليفة ، فان هذه الدول الثلاث المتحالفة ، والعالم بأسره سيجني منافع جمة . هذا واني لا اعتقد ان تحقيق مثل هذه التسوية أمر بعيد المنال كلياً ، واذا ما أردنا له النجاح فينبغي لنا أن نشرع فوراً في العمل لأجل تحقيقه[1] » .

وعلى الرغم من رفض بريطانيا الاشتراك في لجنة التحقيق ، وعلى الرغم من اصرارها على عدم قبول الانتداب على سورية ، فان مخاوف فرنسا من عدم الاعتراف بالحقوق التي تدعيها في سورية ، لم تخف بشكل من الاشكال « فقد إتُّهم الضباط الانكليز والموظفون البريطانيون في الشرق الادنى علناً انهم يحاولون التأثير في السكان ضد فرنسا » ، وكان الرأي العام الفرنسي ، الذي كان دوماً يتطلع بشوق ناحية سورية ، يرى في استمرار الاحتلال البريطاني عاملاً مشؤوماً ، عاملاً كان السبب الذي حال دون استحالة حلم

---

(١) راجع تمبرلي « تاريخ مؤتمر السلام في باريس » المجلد ٦ . لندن . ١٩٢٠ ـ ١٩٢٤ . المجلد السادس ـ ص ١٥ .

وطني رومنطيقي الى حقيقة هائلة مرغوب فيها[1] » .

كان مما زاد اللهيب اشتعالاً ، وأثار حفيظة الفرنسيين التقاريرُ الواردة من سورية ، تلك التقارير التي كانت اللجنة الاميركية تبعث بها والتي تتحدث فيها عن موقف السوريين السلبي المعادي لفكرة انتداب فرنسا على سورية ، فقد بعث أعضاء الوفد الاميركي في العاشر من تموز ببرقية من بيروت الى مؤتمر الصلح جاء فيها :

« هناك بعض نقاط لا نزاع في صحتها ، منها : الرغبة الشديدة في توحيد سورية بأكملها مع فلسطين ، ونيل الاستقلال في أقرب وقت مستطاع . تعبير عنيف عن الشعور الوطني لم نكن نتوقعه . رفض جازم لفكرة جعل البلاد مستعمرة لأية دولة ، ورفض جازم لفكرة الانتداب الفرنسي . نستثني من هذا القول الشعور الذي لمسناه لدى أحزاب لبنانية قوية تطالب بفصل لبنان فصلاً تاماً ، وبالتعاون مع فرنسا[2] » .

عندما بلغ صخب الحزب الاستعماري الفرنسي المطالب بسورية حداً من العنف ، وبعد أن بدا أن الخلاف حول سورية سوف يهدد التحالف القائم بين فرنسا وبريطانيا ، وضع بلفور ، وهو بعد في باريس ، مذكرة « حول سورية وفلسطين والعراق » .

ان هذه المذكرة وما انطوت عليه من نفاذ في التحليل لجوهر القضية ، ومن عرض واضح للدوافع السياسية ، ومن صراحة في الاعتراف بأنه « لا يمكن » الوفاء بالوعود التي قطعها الحلفاء للعرب وفاء يتفق حرفياً مع النص ، ومن شجاعة في مجابهة الحقائق في وضع دقيق مستقبح ، نقول أن هذه المذكرة وما انطوت عليه تحتل بين الوثائق المتعلقة بالعلاقات البريطانية الفرنسية العربية مرتبة بارزة . ونكتفي منها باقتباس الفقرات التالية :

« إن الأثر الذي تحدثه المشكلة السورية في العلاقات البريطانية الفرنسية أمر يحملني على القلق الشديد ـ قلق لا يخفف من ازعاجه أن ما قيل علناً عن المشكلة هو قليل ، وان ما يلمح اليها كثير . . . وهذه الحقيقة المؤلمة تزيد من مخاوفي ، اعني أن كلاً من فرنسا وانكلترا وامريكا تجد نفسها في وضع مضطرب معقد بسبب الورطة السورية ، بحيث لا أرى أن أحداً من هذه الدول سيخرج منها بحل مرضٍ رتيب » .

ثم ان المذكرة تتابع بحث المصاعب الناشئة عن الاتفاقيات السرية التي عقدت في أثناء الحرب ، وتركز بصورة خاصة على اتفاقية سايكس ـ بيكو . ويرى بلفور أن الذين وضعوا نصوص هذه الاتفاقية « كان منطلقهم من أن لفرنسا حقوقاً قديمة ومطامح في الجزء

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بسياسة الولايات المتحدة الامريكية الخارجية المذكور سابقا . مجلد ١٢ ـ ص ٧٤٩ .

(٢) راجع وثائق سياسة بريطانيا الخارجية المذكور سابقا ـ السلسلة الاولى ـ المجلد ٤ ـ ص ٣١٨ ـ ٣٢٠ .

الغربـي من سورية ، وان لبريطـانيا مطالـب واضحـة المعالـم في بغـداد وفي جنوبـي العراق؟ . . . هؤلاء الذين وضعوا نصوص الاتفاقية لم يخطر قط ببالهم أنهـم يعالجـون شؤ وناً ثلاثة : دولة قائمة لا تحتاج سوى « اعتراف مؤقت » بها ، ولا يعوزها سوى ازالة الأتراك من الوجود ، والمشورة التي تسديها دولة منتدبة ، وشيء من الوقـت يمكنهـا من « الوقوف على أرجلها وحدها » . كما أنه لم يخطر قط ببالهم أنه كان عليهم أن يعالجـوا شؤ ون دول أو امم عصرية بالمفهوم الغربي لمعنى الدولة أو الامة والامم .

ويعترف بلفور « بأن الوفاء بجميع الوعود التي صرحنا بها واعلناهـا أمـر لا يمكن تحقيقه . أولاً : لأنها وعود يناقض بعضها بعضاً . ثانياً : لأنهـا تنـاقض الحقائـق . . . وكجزء من مشروع حل جديد يقترح بلفور « الابقاء على المبادىء الأساسية التي تنطوي عليها اتفاقية سايكس ـ بيكو أي أن يكون لفرنسا منطقة نفوذ في سورية ، ومنطقة نفوذ لبريطانيا تقع بين النهرين دجلة والفرات ، وأن يكون لليهود وطن في وادي الاردن[1] » .

في هذه الاثناء استمرت الصحافة الفرنسية طوال شهر آب في حملتها المعادية لبريطانيا وذلك بسبب المشكلة السورية . أما الوزارة البريطانية التي كانت هذه الهجمات الفرنسية قد ازعجتها ، فانها بعثت بتعليمات الى السير . ج . غراهام لكي يطلـب مقابلـة السيد بيشون ، وزير الخارجية الفرنسية ، ويحاول ان « يزعزع ايمانه فيما يتعلق بالنشاط المعادي لفرنسا الذي يقوم به الموظفون البريطانيون في سورية » . ولكن ايمان بيشون لـم يتزعزع . فبعث السير غراهام بتقرير الى اللورد كرزون جاء فيه :

« قال السيد بيشون ، في بادىء الأمر ، بشيء من الحدة والغضب ، ان الملفات التي في متناوله مليئة بالتقارير عن الدعاية المعادية لفرنسا التي يقـوم بهـا عمـلاء بريطـانيون وسوريون . وقال أنه يتلقى مثل هذه التقارير كل يوم تقريباً ، وهي تشكل أدلة ثبـوتية يستحيل دحضها . وهذه التقارير مسهبة ينسجم الواحد منها مع الآخر بحيث لا يمكن للحكومة الفرنسية الا أن تقبلها على أنها تقوم على أساس من الصحة . . . وهنا قاطعت سعادته لأقول له . . . ان الحكومة الفرنسية لعلى خطأ جسيم اذا هي كانت تعتقـد اننـا نعمل ضدها في سورية . . . غير أن بيشون اصغى الى كلامي ولكنه تشبث بموقفه من أن معلومات تختلف عن المعلومات التي لديّ تصله من مصادر وأماكن مختلفة لا يمكنـه أن يتغاضى عنها[2] » .

كما أن السيد بيشون كان أيضاً مقتنعاً بأن حكومة جلالته « ليست مطلعة الاطلاع

---

(١) وثائق السياسة البريطانية الخارجية . السلسلة الاولى المجلد ٤ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .
(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٥٠ .

الكافي على الشعور الملتهب في فرنسا بالنسبة الى سوريا » وبالنسبة الى « المصالح الحميمة » التي تربط الشعب الفرنسي بهذه القضية . « واذا تعرضت الحكومة الفرنسية الى الاتهام بأنها تتقاعس في قضية حماية المصالح الفرنسية فانها ستخذل وتسقط ، ولن تستطيع الحصول على عشرة أصوات في الجمعية العمومية اذا هي حاولت مقاومة هذا الشعور أو عارضته . . . [1] » .

٨ ـ الاتفاق على اقتسام الضحية :

عندما بدا للحكومة البريطانية أنها لن تتمكن حتى منتصف شهر آب من ايجاد أساس لحل المسألة الشرقية ، فقد أعطى مجلس الوزراء البريطاني اللورد كرزون صلاحية مطلقة في تسوية القضية . فقد جاء في رسالة بعث بها اللورد كرزون ، في العشرين من آب ، الى زوجته اللايدي كرزون : « لقد كلفني مجلس الوزراء ، برئاسة رئيس الوزراء ، بالاجماع ، هذا الصباح عند نهاية جلستنا الثالثة ـ والتي دامت ثلاث ساعات ونصف الساعة ـ ان أتوجه الى باريس لمعالجة المسألة الشرقية ، وقد أولاني صلاحية مطلقة أن أسوّي القضية على أي شكل أرتضيه[2] » .

في الحادي والثلاثين من شهر آب بعث فيصل ببيانٍ وجّهه الى رئيس أركان حرب القوات البريطانية العاملة في مصر ، والى ضابط الارتباط السياسي في دمشق . وقد يكون هذا البيان ، بلغته البسيطة الواضحة ، أفضل عرض موجز للقضية العربية . يقول فيصل في هذا البيان[3] :

انني أود أن أوضح آرائي حول التطورات الأخيرة :

عندما بدأت الحرب الأخيرة ، أعلنت بريطانيا أنها لا تحارب العرب ولا تحارب الاسلام ، ولكنها تحارب تلك المجموعة من الاتراك التي تنتمي لجمعية الاتحاد والترقي ، التي جاءت بالالمان (أعداؤ نا) ، الى بلاد الدولة العثمانية .

وتلقى أبي الملكُ حسين رسالةً من السير هنري مكماهون المندوب السامي في مصر ، على يد رسول معيّن . وفي تلك الرسالة أعطى المندوب السامي وعداً بأن بريطانيا العظمى سوف تساعد العرب ، اذا انحاز هؤلاء الى جانبها وربطوا مصيرهم بمصيرها .

وبناء عليه ، واعتماداً على هذا الوعد ، فان والدي حمل السلاح ضد الاتراك ، الذين كانوا قد أعلنوا حينذاك الجهاد ضد الحلفاء بوجه العموم وضد بريطانيا العظمى بوجه

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٣٥٠ .

(٢) راجع كتاب ايرل اوف رونالدشي : « حياة اللورد كرزون » المجلد ٣ ـ ص ٤ ـ ٢ .

(٣) راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني ـ رقم ٣٣ ـ ص ٨٧ ـ ٩٠ .

الخصوص ، وتقبّل بملء ارادته مسؤ ولية الحرب .

والآن ، وفي هذه الفترة ، عندما تبدو التسوية النهائية قريبة جداً ، في هذا الوقت الذي يجد فيه صوت بريطانيا العظمى آذاناً صاغية أكثر من أي صوت آخر في العالم ، تتجه أنظار المسلمين الى البريطانيين والعرب لكي تشاهد ماذا ستكون مكافأة العرب ، الذين كانوا الأداة الرئيسية في تدمير الامبراطورية العثمانية المسلمة .

إن أبي لم يطالب بريطانيا العظمى بالوفاء بوعودها ، ولا يرغب أبي ولا أرغب أنا أيضاً أن نذكّر بريطانيا بما بيننا من تفاهم والتزامات . لقد اعتزمنا أن ننتظر ، اعتقاداً منا بأن شرف بريطانيا العظمى يكفي لتذكيرها بالتزاماتها .

يُعرف عن المسلمين شدة تمسكهم بدينهم . وكل مسلم يعتقد أن الاماكن الاسلامية المقدسة يجب أن تكون في حماية خليفة أو حاكم مستقل ، فاذا لم يتحقق هذا الشرط فان المسلم يشعر بأن جانباً مهماً من أحكام الدين والشرعية ما يزال غير مكتمل . وأي مسلم يشعر بأن الاماكن المقدسة في خطر أو لا تحظى بالحماية الكافية على يد حاكم مسلم مستقل ، فانه يعتبر نفسه مضطراً لمحاولة انشاء تلك الحكومة المستقلة . واذا تبين أن سير الاحداث يعترض سبيل هذه الحاجة الحيوية ، فان الشعور الديني سوف يتحرك في أعماقه وسيجد نفسه مرغماً على البحث عن علاج » .

« والآن نأتي الى النقاط التالية : سوف يسعى المسلمون لتشكيل حكومة حسب الخطوط المذكورة ، وهم بطبيعة الحال سوف يواجهون مقاومة من قبل الدول الكبرى . وهذا سيؤ دي الى نشوب القتال الذي سيستمر . وبالاضافة الى هذا ، فبما أن الاكثرية الساحقة من المسلمين في العالم خاضعون لحكم بريطانيا العظمى ، فان هذه الدولة سوف تكون الهدف لكراهية المسلمين » .

« ونحن العرب ، لقد كنا في السابق مع الاتراك ثم قمنا نحارب ضدهم ، لا بقصد تجزئة بلادنا واعطاء جانب منها الى فرنسا وجانب آخر الى بريطانيا . ليس في مقدورنا أن نتحمل تلك الاهانة على صفحات التاريخ ولا في عيون العالم الاسلامي . وان أسرتنا على وجه التخصيص ، لا تستطيع الصبر على هذه اللطخة في تاريخها ، ولسوف تنسحب » .

« أما أنا شخصياً فلن أنسحب ، بل سآخذ دوراً في الدفاع عن مبادئنا ، لعلمي أن هذا أمر مؤكد مهما كانت الوسائل وأن أوانه قد حان . وعندما يبدأ عمل دفاعي كهذا في بلاد يعرف عنها العالم كله الاخلاص والولاء ، فليس هناك من شك في أن العالم الاسلامي في الخارج سيكون من رأيه أن العرب خُذلوا ولحق بهم الغدر » .

« وكان من جراء الاتفاق الذي تم في الثالث عشر من ايلول ، أن عقد الرؤساء الخمسة لوفود الدول العظمى اجتماعاً في مكتب كليمنصو في وزارة الحربية في باريس يوم الخامس عشر من ايلول » .

« قال المسيو كليمنصو رئيس وزراء فرنسا أنه علم أن من المقرر وصول الامير فيصل الى مرسيليا يوم ١٦ ايلول ، وأنه أعطى تعليمات مشددة تقضي بأن يسافر الامير فيصل مباشرة الى لندن ، وأن الضابط الفرنسي المرافق له سوف يفترق عنه في كاليه » .

« وتساءل المستر لويد جورج عما اذا لم يكن المسيو كليمنصو راغباً في الاجتماع بالامير فيصل عند مروره بباريس » .

« قال المسيو كليمنصو أنه فهم أن المستر لويد جورج يرغب في الاجتماع بالامير في الحال ، دون أن يبقى في باريس أثناء مروره ، وأن ذلك هو السبب في الاوامر التي أصدرها » .

« قال المستر لويد جورج أنه حدث شيء من سوء الفهم حول هذا الامر . وانه لم يطلب من المسيو كليمنصو الا أن يسهل رحلة الامير فيصل ويساعد على سرعة سفره ، لانه كان قد بلغه أن هناك اضراباً في مرسيليا يمكن أن يؤدي الى تأخير سفره . وليس عنده أقل مانع أن يقضي الامير بعض الوقت في باريس قبل أن يواصل سفره الى لندن ، ولسوف يسره جداً اذا ما اجتمع الامير بالمسيو كليمنصو . وقال أنه شخصياً تسلم برقية من بور سعيد مفادها أن الإمير أبحر يوم السبت (١٣/ ٩) ، ويعتقد أنه سافر الى مالطا على ظهر السفينة البريطانية (سبيدي) » .

« قال المسيو كليمنصو أنه بموجب الاوامر التي أصدرها قبلاً ، فان الأمير فيصل سوف يسافر مباشرة الى كاليه » .

(وبعد أن بحث المجتمعون في عدد من المسائل الاخرى ، عادوا الى بحث موضوع سوريا وكيلكيا) .

« قال المستر لويد جورج أنه فيما يتعلق بتركيا فمن المستحيل في الوقت الحاضر بحث مسألة الانتدابات ، وكل ما يمكن بحثه بصورة مجدية هو موضوع الترتيبات لاحتلال المناطق المختلفة عسكرياً . ولقد بحث هذا الموضوع مع المسيو كليمنصو يوم السبت ١٣ ايلول وسلم اليه (مذكرة) وهي المذكرة التي يقدمها الآن للمؤتمر . (قدمت نسخ من المذكرة الى أعضاء الوفود) » .

« عندئذ تحدث المستر لويد جورج فلخص ما تتضمنه المذكرة . وقال ان القوات

البريطانية سوف تنسحب من سوريا ابتداء من أول شهر تشرين الثاني . وبموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو فان دمشق وحمص وحماه وحلب قد أدخلت ضمن نطاق الدولة العربية . وبناء عليه فانه يقترح ان تُسلّم القوات البريطانية حاميات هذه المدن الى الامير فيصل . اما في أجزاء سوريا الاخرى الى الغرب من خط سايكس ـ بيكو فان الحاميات سوف تسلم لقوات فرنسية . وفي الحالة الاولى فان القوات البريطانية سوف تنسحب الى الخط الذي تتصور الحكومة البريطانية أنه يشكل الحد الفاصل بين سوريا والعراق من جهة ، وبين سوريا وفلسطين من جهة أخرى . هذه الخطوط سوف تكون خطوط الحدود المؤقتة ، بانتظار الأتفاق على تعيين حدود دائمة » .

« لقد اتخذ (لويد جورج) على عاتقه مسؤولية دعوة الامير فيصل الى أوروبا ، لان الحكومة البريطانية عقدت اتفاقيات معينة مع الملك حسين ، وبناء على تلك الاتفاقيات فان الملك حسين بذل معاضدة قوية لقواتنا . وبناء على تلك الاتفاقيات فان العرب ضايقوا الاتراك مضايقة عظيمة وشاغلوا ثلاثين أو أربعين ألفاً من جنودهم مشاغلة مستمرة ، ومنحونا مساعدة مادية كبيرة في فتح البلاد . لقد وفى العرب بتعهداتهم ونحن ملزمون بأن نفي بتعهداتنا . لقد ظهرت في الصحف الفرنسية أقوال مؤداها أن الحكومة البريطانية لم تنبىء الحكومة الفرنسية بالتزاماتها تجاه العرب . ونتيجة لتلك الاقوال فقد وعد المسيو كليمنصو بأن يسلمه وثيقة توضح هذه النقطة » .

« وهنا سلم المستر لويد جورج للمسيو كليمنصو وثيقة أعدتها وزارة الخارجية البريطانية ، حول ما اذا كانت الحكومة الفرنسية قد تبلغت بأمر الالتزامات التي عقدتها الحكومة البريطانية مع الملك حسين » .

« وواصل المستر لويد جورج حديثه فقال (أن اتفاقية سايكس ـ بيكو وضعت أيضاً على أساس التزامات الحكومة البريطانية نحو العرب) . وفي الحقيقة فان الامير فيصل أعلن أن الحكومة البريطانية أعطت لغير العرب في اتفاقية سايكس ـ بيكو شيئاً كان العرب قد حصلوا على وعد بأن يكون لهم . ولكن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تقبل وجهة النظر هذه ، وهي تشعر بأنها تستطيع بالتأكيد أن تقنع الامير فيصل في هذا الامر . ان الحكومة البريطانية في مراسلاتها مع الملك حسين ، أوضحت دائماً أنها تعتبر أن البلاد الواقعة الى الغرب من مدن دمشق وحمص وحماه وحلب ليست عربية الصبغة . وهو يأمل أن يوضح للامير فيصل أن هذه النقطة أُوضحت كل الايضاح لوالد الامير في الرسائل التي أرسلتها الحكومة البريطانية اليه . وعلى أية حال فقد كان من الضروري استدعاء الامير فيصل الى أوروبا ، حتى يتمكن من ابلاغه بانسحاب القوات البريطانية ، كما قام بابلاغ ذلك للحكومة الفرنسية » .

«قال المسيو كليمنصو ان حل المشكلة التركية يجب البحث فيه من جميع وجوهه ، واذا لم يبحثوا هذا الموضوع ككل فان مصاعب كبيرة سوف تواجههم . وفيما يتعلق بالنقطة الاولى التي ذكرها المستر لويد جورج ، فان الرئيس ويلسون أعلن دائماً أنه سوف يتمكن من اعلان موقف امريكا بشأن الانتدابات في أواخر ايلول أو في تشرين الاول . وفي رأيه الشخصي ، أن مدة ستة أسابيع لا تشكل فرقاً مادياً . وهو نفسه قد قرأ مذكرة المستر لويد جورج وهو بسبيل اعداد جواب عليها » .

« وعلى أية حال فانه لم يجد حتى الآن متسعاً من الوقت لقراءة الوثيقة التي سلمت اليه هذا الصباح ، فيما يتعلق بالتصريح الذي أُعطي للعرب وإعلام الحكومة الفرنسية بمحتويات ذلك التصريح . وفي رأيه ، أن مسألة انشاء امبراطورية عربية تثير مصاعب كثيرة وعلى الحكومات المعنية أن تأخذ الوقت الكافي للنظر في هذه المسألة . وهو يرغب أن يعلن أنه يحتفظ بحقه بأن يبحث مذكرة المستر لويد جورج بمزيد من التفصيل وامعان النظر » .

« وبعد نقاش بين لويد جورج وكليمنصو حول انسحاب القوات البريطانية اتفق الطرفان على ما يلي » :

١ ـ وافق المسيو كليمنصو بالنيابة عن الحكومة الفرنسية على قبول مقترحات المستر لويد بشأن انسحاب الجيش البريطاني من سوريا وكيليكيا ، وحلول القوات الفرنسية مكانه في كيليكيا وفي سوريا غربي خط سايكس ـ بيكو . وقد رافق هذا القبول شرط واضح محدد ، وهو أن الحكومة الفرنسية بقبولها الاقتراح ، لا تلتزم بقبول أي جزء آخر من التدبير الذي اقترحه المستر لويد جورج في مذكرته المؤرخة في ١٣ ايلول ١٩١٩ ، « بشأن احتلال سوريا وفلسطين والعراق حتى يتم التوصل الى قرار حول الانتدابات » .

« ٢ ـ لقد أخذ المؤتمر علماً بالاتفاقية المشار اليها أعلاه كتدبير ذي صفة مؤقتة تماماً يتعلق بالاحتلال العسكري لا غير ، دون أن يكون لها تأثير على التسوية النهائية للانتدابات أو الحدود ، وهي مسائل يجب أن يتم بحثها كجزء من الموضوع العام لعقد الصلح مع تركيا[1] » .

وصل فيصل لندن في ١٨ ايلول ، وفي اليوم التالي دعاه رئيس الوزارة ليحضر اجتماعاً في مقر رئيس الوزارة في دوننغ ستريت (Downing Street) بغية حمله على قبول الاقتراح

(١) في هذا الاجتماع مثل الولايات المتحدة بولك ، ومثل ايطاليا تيتوني واليابان ماتسوي. المصدر؛ الوثائق البريطانية السلسلة الاولى (١٩١٩ ـ ١٩٣٩ ، المجلد الاول ، لندن ، ١٩٤٧) راجع سليمان موسى : « المراسلات التاريخية » المجلد الثاني رقم ٤٤ ص ١٠٥ ـ ١٠٨ .

المتعلق بالاحتلال الذي تم الاتفاق عليه في باريس . وما أن سمع فيصل رسمياً بمضمون الاتفاقية التي تمت في الثالث عشر من شهر ايلول بين الفرنسيين والبريطانيين حتى قدم احتجاجاً معترضاً على ذلك بكل ما أوتي من قوة » .

وقد أوضح الامير فيصل امتنان ابيه جلالة الملك حسين وامتنانه هو شخصياً ، بالاضافة الى امتنان الامة العربية الى رئيس الوزراء نفسه وللفيلد مارشال القائد العام وللامة البريطانية ، لجميع ما فعلوه . وبما أن هذا الموضوع يعتمد عليه مستقبل الامة العربية كله ، فانه يود ابداء ملاحظات معينة . عندما بدأت الثورة في أول الامر ضد الاتراك ، لم يكن العرب يعرفون الا دولة عظمى واحدة هي بريطانيا العظمى ، التي تصرف ممثلها بالنيابة عن المستر اسكويث (رئيس الوزراء البريطاني ١٩٠٨ - ١٩١٦) الذي لم يعرفه الامير معرفة شخصية . لم تكن هناك أية علاقة لا لفرنسا ولا للولايات المتحدة الامريكية ولا لأية دولة أخرى من الدول الكبرى ، بالاتفاقية التي دخل أبوه طرفاً فيها . ونتيجة لذلك ، عقد أبوه اتفاقية معينة مع بريطانيا العظمى ، وهي الاتفاقية التي نتج عنها قيام العرب بالثورة ضد تركيا ، اعتماداً منهم على العهد الذي قطعته لهم بريطانيا العظمى . كان العرب امة صغيرة جداً ، ولكنهم فعلوا أقصى ما في وسعهم في الحرب . (وهنا قال رئيس الوزراء مقاطعاً : صحيح تماماً) . وكان يحدوهم الامل التام بأن بريطانيا العظمى سوف تساعدهم على تحقيق مطامحهم . والآن يود أن يطرح السؤال التالي :

- ألا تزال بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية ، أي الدول الكبرى ، تحافظ على الاقوال التي تلفظت بها للامم الصغيرة ؟ . . وبصورة خاصة : ألا تزال تحافظ على التصريح الانكليزي الفرنسي الذي أعلن بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ ؟ .

انه يود أن يعرف فيما اذا كان هذا التصريح ما يزال قائماً ومعتبراً .

انه يود أن يقول أن أباه لا علاقة له بمؤتمر الصلح ، ولكن هناك اتفاقيات معينة عقدها مع بريطانيا العظمى . أما فيما يتعلق بالترتيبات الجديدة المقترحة فانه يود أن يطرح سؤالين :

١ - هل سيستمر دفع المساعدة المالية من الخزينة البريطانية ، أم لا ؟ .

٢ - هل سيستمر القائد العام في ممارسة صلاحياته في المناطق التي ستنسحب منها قواته ؟ .

انه يوجه السؤال الاخير لان القائد العام ، عندما رفع السوريون العلم العربي في مدن الساحل وأعلنوا بالفعل ولاءهم للحكومة العربية ، عمد الى تجزئة البلاد الى مناطق وأصر على انسحاب العرب الى مناطق معينة على أساس أن الاجراء الذي اتخذه ما هو الا ترتيب مؤقت . لذلك ، فمن المهم معرفة ما اذا كان سيستمر في ممارسة صلاحياته أم لا .

قال رئيس الوزراء : إنه من الأفضل أن يجيب عن هذه الاسئلة في الحال . ففيما يتعلق بالسؤال الأول عما اذا كانت بريطانيا العظمى ما تزال متمسكة بتعهداتها للملك حسين - فالجواب هو أن بريطانيا العظمى تتمسك وتلتزم بكل تعهد من تلك التعهدات . حقاً لقد وفت القوات العربية بقسطها من الالتزامات تجاه بريطانيا العظمى ، ويجب علينا نحن أن نفي بقسطنا . لقد هوجمت بريطانيا العظمى لهذا السبب مهاجمة عنيفة الى حدٍ ما في الصحافة الفرنسية . وانه كان شديد الاهتمام بالاجتماع مع الامير فيصل لان بريطانيا العظمى كانت تقوم بالوفاء بتعهداتها ، وهو كثير الامتنان للامير فيصل لمجيئه الى هذه البلاد . وهو يودّ ان يوضح للامير أن الترتيبات المتعلقة بالاحتلال العسكري يجري تنفيذها طبقاً للعهود المقطوعة .

قال الامير فيصل ان لديه ما يقوله حول هذه التعهدات . فهناك أولا المعاهدة التي تم عقدها مع ملك الحجاز ، ثم كانت هناك رسالة تمهيدية . وبعد ذلك جاءت المذكرة المؤرخة في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ التي أشير فيها الى مصالح فرنسا . وهناك المذكرة الرسمية التي بعث بها ملك الحجاز والتي تنص على أنه لا يوافق على تغيير الاتفاقية الأصلية ، وانه اذا أُجري فيها أي تغيير فانه سوف ينسحب . ووعد ان يقدم نسخة من هذه المخابرة .

قال رئيس الوزراء ان هذه هي المرة الاولى التي يسمع فيها عن وجود اتفاقية قطعية مع الملك حسين ، غير المراسلات التي أشار اليها سابقاً . وعلى أية حال فقد أبلغه الكولونيل كورنواليس أنه يعلم بأمر الرسالة التي بعث بها جلالة ملك الحجاز الى السير هنري مكماهون ، وقال ان السير هنري مكماهون أجاب على تلك الرسالة بأنه يتمسك بما جاء في رسالته المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ . وقد عاد ملك الحجاز الى تكرار مطالبه ثانية ، ولكن الرأي قرَّ على عدم ضرورة ارسال جواب اليه .

قال الامير فيصل ان مجموعة المراسلات كلها سوف تقدم رسمياً لرئيس الوزراء ، وهو على يقين بأن أباه أرسل تلك الرسالة الاخرى ، التي أكد فيها انه لا يقبل مطلقاً بادخال اية تعديلات على الاتفاقية الاصلية .

وأخيراً قال الامير فيصل ، إنها هذه المرة الاولى التي يُبلّغ فيها بمحتوى الاتفاقية المقترحة ، وهو يرغب بأن يقدم احتجاجاً رسمياً ضد الترتيبات المقترحة الآن . وفي اعتقاده أن تلك الترتيبات يصعب تنفيذها كما يرغب بأن يُعتبر احتجاجه رسمياً . وعندما ينزل أول فرنسي على أرض الشاطىء فستكون تعبئة عامة ، وكل رجل سيحمل السلاح في وجوههم .

فقال رئيس الوزراء أنه يأسف أشد الاسف لسماعه هذا التصريح ، ولكنه اعطى كلمته ويجب ان يتمسك بها . لقد أعطت بريطانيا العظمى كلمتها للملك حسين وللجمهورية الفرنسية ، ويجب ان تتمسك بالكلمة التي أعطتها لكلا الجهتين .

وانفضّ الإجتماع بعد التوصل الى الترتيبات التالية :

١ - تعقد اللجنة الوزارية اجتماعا في الساعة ١١,٣٠ من صباح يوم الاثنين (٢٢ ايلول) في وزارة الخارجية .

٢ - يجتمع الفيلد مارشال اللنبي بالامير فيصل في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاثنين ، في وزارة الخارجية[١] .

في الحادي والعشرين من ايلول بعث فيصل برسالة مطولة الى لويد جورج ، علّق فيها على المذكرة التي قدمها له رئيس الوزارة البريطانية في الاجتماع السابق ، والتي تضمنت فحوى الاتفاق الذي تم بين بريطانيا وفرنسا في الثالث عشر من ايلول ، وطلب الغاءها الغاء تاماً . وقد شجبها قائلاً : (أنها ردة الى سياسة الاستعمار الغاشمة) ، وحذر رئيس الوزارة من أن العرب سيدافعون عن وحدتهم وكيانهم بكل ما أوتوا من قدرة ، وتنصل من كل مسؤولية تجاه الحكومة البريطانية ، وتجاه العالم بأسره . وختم رسالته بقوله انه من الافضل كثيراً الابقاء على الوضع كما هو الآن . أو سحب جميع الجيوش الاوروبية الى أن تتم التسوية النهائية . « اذا كان لا بد من انسحاب الجيوش البريطانية من سورية » . وكتب فيصل في رسالته الى لويد جورج : « لماذا لا تنسحب أيضاً سائر الجيوش الاوروبية وتُترك المسؤولية للحكومة العربية المستعدة لقبول تلك المسؤولية لدى الحلفاء والدول المشتركة معهم ، لحماية الأمن العام في البلاد ريثما يبرم مؤتمر السلام قراره بشأن مصير سورية[٢] ؟ » .

وبعد يومين ، أي في ٢٣ ايلول ، بعث فيصل بمذكرة اضافية الى رئيس الوزارة

---

(١) سليمان موسى . المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني رقم ٤٥ - ص ١١٢ - ١٢٢ .

(٢) سليمان موسى : المذكرات التاريخية - المجلد الثاني (١٩١٩) رقم ٤٩ و ٥٠ - ص ١٣٠ - ١٣٧ .

البريطانية يعلمه فيها أنه علاوة على المذكرة التي قدمها اليه بالامس يعرض عليه ما يلي :

« طلب مني بالامس ـ القائد العام للجيوش المتحالفة في الشرق ـ أن أبحث معه موضوع انسحاب الجيوش البريطانية من البلاد ، وقد أنبأت فخامته بأنني أرفض البحث في هذا الموضوع ، وبينت الاسباب الموجبة لذلك الرفض » .

« وها أني أذكّر فخامتكم أيضاً ، بأن الجنرال البريطاني في بيروت ، عندما أجبر القوات العربية على الانسحاب من المنطقة الساحلية ، كتب لقائدها العربي اللواء شكري باشا بأن الموجب لهذا التغيير عسكري محض ومؤقت ، الى أن يصدر قرار مؤتمر السلام بشأن مستقبل البلاد » .

إن القوات البريطانية هي التي تولت بنفسها إنزال الاعلام العربية ، ولقد أقنعني بالموافقة على انسحاب قواتنا من السواحل وانزال الاعلام العربية التي رفعها الاهلون على بنايات الحكومة وفي أماكن أخرى ـ ثقتُنا بشرف الجيش البريطاني ، وتصريحُ فخامة القائد العام في برقية أرسلها الي مؤكداً أن البلاد جميعها سوف تبقى تحت إمرة القائد العام حتى تتم التسوية النهائية .

ولهذه الاسباب أطلب أحد أمرين : إما عودة قواتنا العربية الى المواقع التي احتلتها في السواحل ، وفي تلك الحالة أتعهد بتحمل المسؤولية التامة عن حفظ الامن واستتباب السلام الى أن يتم التوصل الى القرار النهائي ، وإما إبقاء الحالة الراهنة على ما هي عليه حتى تتم التسوية النهائية[1] .

في التاسع من تشرين الاول بعث فيصل برسالة أخرى الى رئيس الوزارة البريطانية ، الذي لم يكن قد أجاب بعد على رسالته السابقة اليه والمؤرخة في ٢١ ايلول ، ملتمساً فيه الغاء الاتفاقية البريطانية الفرنسية المعقودة بينهما في ١٣ ايلول ، أو على الأقل تأجيل البت في أمرها . ان انسحاب الجيش البريطاني من سورية يشكل « كارثة جسيمة » بالنسبة الى العالم العربي . وطلب فيصل أن تطرح القضية برمتها امام مؤتمر الصلح لتقوم لجنة بدراستها ، تتألف من أعضاء بريطانيين وفرنسيين وعرب برئاسة اميركي ثم ترفع نتائج مداولاتها في تقرير الى المؤتمر . ولكنه أكد أن الحاجة القصوى لبلوغ تسوية مرضية تتجلى أولاً ، بإلغاء اتفاقية باريس .

قال فيصل في رسالته : « انني شديد الرغبة في ان اتجنب كل ما يؤدي الى احراج

---

(١) نشرت هذه المذكرة أصلا في كتاب حافظ وهبه (جزيرة العرب في القرن العشرين) ولكن لدى تدقيق النص مع النص الانكليزي (الوثائق البريطانية المجلد ٤ ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣) جرى تبديل وتصحيح عبارات كثيرة (راجع سليمان موسى : المراسلات التاريخية عام ١٩١٩ المجلد الثاني رقم ٤٩ ـ ص ١٣٠) .

المركز ، أو ما يؤ ول الى اضطراب الحبل بين الحلفاء والعرب » .

« اني اعتبر الغاء ذلك القرار الباريسي ، من الأوليات الحيوية للوصول الى حل مرضٍ ، وانه إن لم يعمل بذلك فالكارثة في سورية قريبة الوقوع ، وربما تطرأ امور تمنع استمرار المباحثات الودية ، ولذلك فأنا أثق بأن مطالبي التي هي جوهرية لمصالح الجميع تقابل من فخامتكم بالاستحسان[1] . . . » .

وفي اليوم ذاته بعث اللورد كرزون برسالة مطولة الى الأمير فيصل جواباً على رسالته المؤ رخة في ٢١ ايلول . وفي هذه الرسالة كرر اللورد كرزون التعهدات والالتزامات التي كانت حكومة جلالته قد قطعتها على نفسها في أثناء الحرب لكل من الشريف حسين والحكومة الفرنسية .

وبينما كان فيصل يعلل نفسه بآمال كبيرة ، اذ به يتلقى ضربة قوية في الرسالة التي أرسلها رئيس الوزارة لويد جورج ، حيث رفض الالتزامات التي كان قد تقدم بها بخصوص الجيوش البريطانية والفرنسية في البلاد السورية[2] .

بين العاشر والثامن من شهر تشرين الاول بعث كليمنصو أولاً ببرقية الى لويد جورج ثم رسالة جوابية عن مفكرته المؤ رخة بتاريخ ١٣ ايلول ، وكلتاهما تنمّان عن « غضب شديد » أبداه كليمنصو . فقد كانت برقيته المؤ رخة في ١٤ تشرين الاول ، كما قال عنها لويد جورج ، برقية « صيغت بلهجة عنيفة في ساعة استياء شديد . مليئة بالعبارات المبطنة التي تلقي ظلالاً من التهم الموجهة ضد تصرف البريطانيين[3] » . وعليه فان رئيس الوزارة البريطانية كتب رسالة طويلة ، في الثامن عشر من الشهر ، الى كليمنصو كرر فيها ملخص تاريخ القضية السورية برمته ، مستعرضاً نص المواثيق التي قطعتها بريطانيا للعرب وللفرنسيين ، كما جاءت في المراسلات التي جرت بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون ، واتفاقية سايكس ـ بيكو ، والتصريح البريطاني الفرنسي الذي صدر في ٨ تشرين الاول من سنة ١٩١٨ . والتصريح البريطاني الذي ادلت به بريطانيا في جلسة الاربعة الكبار التي عقدت في ٢٠ آذار ، ١٩١٩ ، ومكرراً القول بأن بريطانيا لا تقبل ، في أية ظروف كانت ، الانتداب على سورية . وهو يرغب في أن يؤكد للسيد كليمنصو أن الحكومة البريطانية ، عندما كانت تجري مفاوضات حول جلاء الجيش البريطاني عن سورية واحلال جيوش فرنسية وعربية محله ، « لم تتغافل عما لفرنسا من

---

(١) المرجع السابق . المجلد ٢ رقم ٦٤ ـ ص ١٥٥ ـ ١٥٦

(٢) المرجع السابق المجلد ٢ رقم ٦٥ ـ ص ١٥٧ .

(٣) راجع لويد جورج المذكور سابقا ـ المجلد الثاني ـ ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

حقوق ومطالب » . وهنا جاء رئيس الوزارة على ذكر فقرة وردت في رسالة اللورد كرزون الى الأمير فيصل حول الدين المترتب على العرب تجاه فرنسا في تحررهم . غير أنه يريد من رئيس الوزارة الفرنسية أن يعلم بأن الحكومة البريطانية « كانت مرتبطة بعهود ومواثيق ملزمة نحو كل من العرب والحكومة الفرنسية » . وليس من اللياقة بشيء أن يعامل الأمير فيصل بهذا الجفاء المتعالي . وعندما يحضر الى باريس فان الحكومة البريطانية تنتظر ان يعامل « معاملة كريمة محترمة كالمعاملة التي تعامل بها أحد الحلفاء » . ويتابع رئيس الوزارة كلامه ليقول : « ان الحكومة البريطانية تود ان تذكركم أنه هو الذي بدأ الثورة ضد الحكم التركي في وقت بلغت فيه معنويات الحلفاء مستوى متدنياً ، وانه كان مخلصاً وفياً للحلفاء حتى النهاية ، وانه الى جانب اتباعه من العرب لعبوا دوراً رئيسياً لم يستغن عنه في دحر تركيا ، الذي كان فاتحة عهد جديد ينذر بسقوط المانيا وحلفائها . كما أن الأمير فيصل يمثل شعباً عريقاً فخوراً بنفسه ، وعلى كلينا نحن البريطانيين والفرنسيين ان نتعايش مع هذا الشعب على أحسن ما يكون من حسن العلاقات والود[1] » .

لم تكن محاولات لويد جورج الدفاع عن فيصل مجدية ، لانه نفسه كان قد تخلى عن أمر فيصل للفرنسيين نهائياً . وكان ذلك بداية النهاية بالنسبة الى استقلال العرب برئاسة فيصل في سورية .

يمكننا القول هنا أن الحكومة البريطانية كانت قد كسبت الشوط ، عندما أقامت حكومة عربية برئاسة الامير فيصل في دمشق عام ١٩١٨ ولكنها تخلت عن كل ذلك للفرنسيين بعد عام . وكانت الحكومة البريطانية واقعة تحت ضغوط مختلفة بالاضافة الى الضغوط الفرنسية ، جعلها تعمل بقراراتها الاخيرة على حساب العرب وفيصل وخاصة قرار ١٣ ايلول . فقد كانت الثورة قد عمت مصر ، وكان الوضع في العراق آخذاً بالتدهور . ثم كانت هنالك « القضية المراكشية » وتهديد الفرنسيين بتدويل طنجة . وفي الوقت ذاته كان الوضع في آسيا الصغرى وفي روسيا ، وفي المانيا ، في حالة اضطراب وثورة وقد اقتصرنا على ذكر ثلاث مناطق خطرة فقط بين عدد كبير من المناطق المضطربة ، يتطلب اهتمام الحكومة البريطانية الشديد . وفي الجبهة الداخلية ، في انكلترا نفسها كانت هناك أسباب عديدة للشكوى والتذمر ، أسباب تهدد بنشوب ازمة حادة من الدرجة الاولى . وكانت المشكلة الايرلندية تتفاقم . وقامت في انكلترا اضطرابات مستمرة في الحقل الصناعي ، كما كان التهديد الحاد بالقيام باضراب سياسي عام يهددهم . وكانت مالية البلاد في حالة سيئة فقرر لويد جورج أن يضغط النفقات في مختلف دوائر الحكومة

---

(١) لويد جورج المصدر السابقسالمجلد الثاني ـ ص ١٩٧ .

دون ابطاء . وقد جئنا على ذكر هذه الأسباب لماماً بغية الاشارة الى تشابك هذه المشكلات المتعددة الجوانب التي كان على سياسيي تلك الفترة ان يبحثوها وان يجدوا لها حلولاً في مختلف مناطق الدنيا . وهكذا كان لدى لويد جورج ووزارته امور أخرى خطيرة غير القضية السورية وعليهم أن يتخذوا بشأنها قرارات حاسمة . والواقع أن الوزارة أصبحت تشعر بأنه ينبغي لها أن تنهي القضية السورية في أسرع ما يمكن من الوقت ، منعاً للاحتكاك الدائم ولسوء التفاهم بينها وبين الفرنسيين[1] .

وصل فيصل الى باريس في العشرين من شهر تشرين الاول وأقام فيها أكثر من شهرين ونصف ، « محاولاً جهده » ـ كما قال في رسالة بعث بها الى لويد جورج ـ « أن يقيم علاقات طيبة مع الحكومة الفرنسية ، وان يسعى لازالة أي سوء تفاهم بغية الحفاظ على مصالحنا المشتركة » . وفي خلال شهر تشرين الثاني اجرى محادثات مع كليمنصو وبرتلو(Berthelot) ، وغو(Gout) ، والجنرال غورو ، ومع غيرهم من الرسميين الفرنسيين في مقر وزارة الخارجية الفرنسية ، كما أنه جرى تبادل رسائل بينه وبين كليمنصو، عبر فيها فيصل عن تخوفه من تقسيم سورية آخر الأمر، وعن قلقه من حدوث قلاقل داخلية نتيجة هذه التجزئة . غير ان كليمنصو طمأن فيصل قائلاً : ان مخاوفه هذه لا ترتكز على أساس من الصحة . فليس هناك من قضية سياسية ، أو من قضية تتعلق بحدود سورية في المستقبل ، يمكن أن يحدث خلاف من جرائها . واذا ما حدثت اضطرابات داخلية فان الجيش الفرنسي يهب فوراً الى النجدة اذا ما طلب الأمير فيصل ذلك . ولكن الأمير ظل غير مقتنع . فبعث بنداء الى المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح يناشده فيه « اعادة النظر» في الاقتراح الرامي الى استبدال الجيش الفرنسي بالجيش البريطاني. وقد اسهب في ندائه هذا في التعبير عن مخاوفه من هذا « المشروع المقترح » وعن التأثير الذي سيخلفه هذا الاقتراح « في النفوس الثائرة في المناطق العربية وفي الولايات الاسلامية في الامبراطورية العثمانية الآسيوية » . وتقوم مخاوفه على الاتفاقية السرية المعروفة باتفاقية سايكس ـ بيكو « التي عالجت شؤ ون البلاد كأنها ملك خاص أو سلعة من السلع » والتي لم يعترف بها العرب ولا الولايات المتحدة . كما أن الامير كان يخشى تفجر ثورة طائفية بين المسلمين والمسيحيين سببها التعصب الذميم . وكتب فيصل يقول : « انني ، طوال الحرب كنت أسعى جاهداً لمحاربة التعصب في كل زمان ومكان . . . ان وحدتنا تقوم على القومية لا على الدين . وهناك عدد كبير من الاعوان الذين يعملون معي الآن في هذه القضية القومية لا ينتمون الى الطائفة الدينية التي انتمي أنا اليها » .

---

(١) راجع زين نور الدين زين ـ « الصراع الدولي في الشرق الاوسط» المذكور سابقاً ـ ص ١٣٧ .

في التاسع من الشهر كتب كليمنصو الى لويد جورج يشكره على ايعازه لفيصل بالمجيء الى باريس كي يصل الى نوع من التفاهم مع الفرنسيين . وكانت رسالة كليمنصو هذه تحتوي عبارتين تنطويان على مغزى هام . الأولى منهما : اشارته الى الماضي ، والثانية : اشارته الى مستقبل الامور العتيدة . قال رئيس الوزارة الفرنسية في هذه الرسالة : « الواقع هو أن هذا الاجراء لو اتخذ فوراً منذ البدء أي يوم احتلال دمشق منذ سنة ، لما كان قد نشأ سوء التفاهم هذا ، ولكان بالامكان تحاشيه . وانيّ مغتبط الآن لأن مثل هذا الامر لن يتكرر في المستقبل ، كما اني مغتبط لان مؤتمر الصلح لن يكون له يد بعد في هذه القضية سوى الموافقة على الاتفاق الذي تم بيننا ، اعني الاتفاق على أن يكون الانتداب على سورية من نصيب فرنسا ، والانتداب على العراق من نصيب بريطانيا[1] » .

في هذه الاثناء كان قد وصل الى باريس في ٢٢ آب ، ١٩١٩ ، وفد لبناني يرئسه البطريرك الماروني « حويك »[2] ، وأخذ يعمل بنشاط للحفاظ على الاستقلال اللبناني تحت الانتداب الفرنسي وقد استقبل رئيس الجمهورية الفرنسية ، السيد بوانكاره ، والسيد كليمنصو اعضاء الوفد الذي رفع الى مؤتمر الصلح ، في السابع والعشرين من الشهر ، مذكرة تضمنت أماني الشعب اللبناني . وفي رسالة بعث بها البطريرك الماروني الى كليمنصو ، في الخامس والعشرين من الشهر ، لخص البطريرك هذه الاماني في النقاط التالية : (أولاً) : الاعتراف باستقلال لبنان وسيادته التامة « في الداخل » . (ثانياً) : تعديل حدوده الطبيعية والتاريخية والاقتصادية . ثالثًا : مساعدة فرنسا ومناصرتها لنيل هذه الاماني . وفي العاشر من تشرين الثاني بعث كليمنصو برسالة جوابية الى البطريرك يؤكد له فيها « أن فرنسا متفقة اتفاقاً تاماً مع الاماني اللبنانية وستقدم كامل العون لتحقيقها . ولكن هناك بعض القيود التي ستحد من الاستقلال اللبناني ، ومن العسير الآن تحديد هذه القيود قبل أن تحصل فرنسا على حق الانتداب على سورية[3] » .

بدأ جلاء القوات البريطانية عن سورية في الوقت الذي كان فيه فيصل لا يزال في باريس . وكانت تتناهى الى أسماعه أنباء تدهور الامور في سوريا ، وتعاظم الحركة الوطنية المناوئة للسياسة الاستعمارية ، وانقلبت الاحزاب السياسية السورية والعراقية والفلسطينية الى أحزاب معارضة لفرنسا وانكلترا والغرب عموماً ، كما أنه ظهرت « تلميحات معادية لبريطانيا » . ونشطت الدعاية التركية ، فقد بعث الملك حسين ببرقية

---

(١) راجع وثائق حول سياسة بريطانيا الخارجية ـ السلسلة الاولى . المجلد الرابع ـ ص ٥١٢ ـ ٥٢١ .

(٢) راجع ادمون رباط : « الوحدة السورية والمستقبل العربي » ـ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ . وراجع أيضا لدى المؤلف نفسه كتابه « التكوين التاريخي للبنان السياسي الدستوري » المذكور سابقاً ـ ص ٢٨١ ـ ٢٨٧ .

(٣) المصدر السابق ـ السلسلة الاولى ـ المجلد الرابع ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣

الى فيصل يؤكد له فيها أن « السكان في المناطق الواقعة الى الشمال الغربي من حلب يجرون مفاوضات مع مصطفى كمال باشا » . وعمّت البلادَ موجةٌ من العطف على الأتراك ، وهو عطف لم يكن قد زال بعد عند نهاية الحرب ـ تغذيها المناشير البارعة التي كان يوزعها « حزب كمال باشا » في حلب ، ويعمل على تشجيعها ومناصرتها الضباط العرب ، الذين كانوا في السابق يعملون في الجيش التركي ، والذين أصبحوا يشعرون بخيبة أمل مريرة ويعتقد العملاء السياسيون من البريطانيين أن ياسين باشا الهاشمي[1] « الروح المحركة في سورية » كان « يراسل كمال باشا نفسه » . ويزعم بعضهم أن ياسين كان يسعى الى « اعادة الحكم التركي في سورية[2] » .

وزاد الوضع في سورية اضطراباً اعتقال الانكليز ياسين باشا الهاشمي[3] يوم ٢٢ تشرين الثاني أي قبل جلائهم عن دمشق بأربعة أيام . وقد قامت مظاهرات احتجاجية في دمشق على هذا الاجراء الذي لم يعرف سببه يومذاك . ولكن تبين فيما بعد ان الاعتقال تم بأمر اللنبي بحجة ان ياسين « كان يبث دعاية نشيطة ضد الفرنسيين ويباشر الاستعدادات العسكرية لمقاومة احتلال الفرنسيين للمنطقة الزرقاء » . وليس من شك في أن هذه الحادثة زادت من شعور العداء للفرنسيين والانكليز على السواء . وجعلت مهمة فيصل الرامية الى التفاهم أكثر صعوبة وعسراً .

وفي هذه الفترة بالذات وقع حادث آخر كان له أيضاً تأثيره العميق على مجرى الاحداث . ذلك أن حاكم قضاء الرقة العسكري رمضان شلاش[4] قام بمهاجمة بلدة دير

---

(١) ياسين حلمي الهاشمي (١٨٨٢ - ١٩٣٧) ولد في بعداد وتعلم في الآستانة وبرلين وتخرج ضابط اركان حرب عام ١٩٠٥ ، انتسب الى جمعية « العهد » ودخل جمعية « العربية الفتاة » . ظهرت موهبته العسكرية في دفاع النمسا ضد الروس في غاليسيا . حارب العرب مع الجيش التركي بقيادته لفيلق تركي في الشونه وخرج واختبأ في دمشق فعفا عنه فيصل وعينه رئيسا لديوان الشورى الحربي عام ١٩١٨ . دخل العراق مع فيصل فتولى الوزارة وأسس حزب الشعب . توفي في دمشق .

(٢) راجع الوثائق حول سياسة بريطانيا الخارجية ـ السلسلة الاولى المجلد الرابع ـ ص ٤٧٨ ـ ٥٢٣ .

(٣) كان ياسين الهاشمي رجلا قوي الشخصية وقد اسند اليه فيصل وظيفة (رئيس ديوان الشورى الحربي) التي تعادل وظيفة رئيس أركان . وقد بلغ الانكليز والفرنسيين أنه على اتصال مع الاتراك الكماليين فاستراوبا به وخشوا أن يتوصل الى اتفاق معهم . وقال ماينر تزهاجن في أحد تقاريره أن تطرف الهاشمي حل محل اعتدال فيصل . وقد حاول فيصل جاهدا اطلاق سراح الهاشمي ولكن الانكليز ابقوه قيد الاعتقال حتى منتصف أيار ١٩٢٠ بناء على الحاح الجنرال غورو . وقد اكد لويد جورج ان بريطانيا لم تعط للعرب أية أسلحة تتجاوز مدى القدرة على حفظ النظام لا غير ، وذلك في مذكرته الطويلة الى كليمنصو بتاريخ ١٨ تشرين الاول ١٩١٩ . المصدر السابق ـ المجلد ٤ ـ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .

(٤) كان رمضان شلاش عام ١٨٦٩ في قرية الشميطية على شاطىء الفرات وهو ابن الشيخ شلاش عبد الله السلمان رئيس عشائر « البوسرايا » ويرجع نسبه الى الشاعر الشريف الرضي وهو والد الزعيم الركن شلاش (الذي كان معاونا لرئيس الاركان السورية في عهد الشيشكلي) . كان راعيا للابل في بادية الشام . وفي سن العاشرة سافر الى استانبول مع عدد من ابناء العشائر لتلقي التعليم هناك برعاية من السلطان عبد الحميد . تخرج من المدرسة الحربية في الآستانة عام ١٨٩٦ برتبة بوزباشي وعين مرافقا فخريا للسلطان في الآستانة ثم قائدا للسرية الخامسة في حلب . ارسل عام ١٩١١ الى ادرنه وتقلب في المناصب العسكرية ، شارك في الدعوة ضد القومية التركية . وشارك في أعمال الثورة العربية وتوفي في دمشق عام ١٩٦١ .

الزور (التي كان العرب قد احتلوها في كانون الاول ١٩١٨ ، ثم استولى عليها الانكليز في الشهر التالي واستعادها العرب في ١١ كانون الاول ١٩١٩).. وقد أثار هذا العمل سخط الانكليز ، وزاد من اعتقادهم بأن الوضع في دمشق أخذ يعكس آثاره على العراق وفلسطين ، وبأنه من الافضل عدم تشجيع العرب على مقاومة الفرنسيين . وربما كان من نتائج حركة رمضان شلاش هذه أن الحكومة البريطانية قررت بعد هذا بأيام ، التخلي عن لواء دير الزور بأكمله فبقي في سورية منذ ذلك الحين . إن أعمال رمضان شلاش البطولية في ثورة دير الزور تستحق بحثاً أوفى نعد به في المستقبل .

ليس بواضح كل الوضوح ما جرى في باريس في الاسابيع الثلاثة التالية بين الأمير فيصل والحكومة الفرنسية . غير اننا نعلم أن فيصلاً كان ينوي الرجوع الى سورية ليل الأحد الواقع في الحادي والعشرين من الشهر . ولكنه لم يغادر باريس ، على الرغم من أن السفير البريطاني أشار عليه بالذهاب . لدينا وثيقة واحدة حول هذه الفترة على جانب كبير من الأهمية والمغزى ،وقد أبلغ امرها اللورد دربي الى اللورد كرزون في العشرين من كانون الاول وارسل اليه نسخة عنها في اليوم التالي لتسلم اليه تسليم اليد . كانت هذه الوثيقة نسخة عن اتفاقية مقترحة بين الحكومة الفرنسية والأمير فيصل . وكانت الاتفاقية تشمل ثمانية بنود وأهم مضمونها ما يلي :

١ ـ تعد الحكومة الفرنسية بتقديم كل نوع من المساعدة للشعب السوري وبضمان استقلاله ضد كل اعتداء .

٢ ـ يطلب الأمير فيصل من الحكومة الفرنسية ، وحدها دون غيرها ، تعيين مستشارين ومعلمين وتقنيين لتنظيم جميع الادارات المدنية والعسكرية ، ولتولي بعض الدوائر في هذه الادارات مثل المالية والاشغال العامة .

٣ ـ يكون للأمير فيصل في باريس ممثل مفوض يعمل تحت إمرته وممثل في لندن وروما وواشنطن ضمن اطار السفارة الفرنسية في هذه العواصم . أما في غيرها من البلدان فان القناصل الفرنسيين سيرعون مصالح السوريين.

٤ ـ يعترف الأمير باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي .

٥ ـ يسهل الأمير تشكيل ادارة مستقلة لدروز حوران داخل الدولة السورية .

٦ ـ تقدم سورية الى فرنسا كل عون عسكري في جميع الحالات .

٧ ـ يعترف باللغة العربية لغة رسمية في الادارة وفي المدارس . وتدرس اللغة الفرنسية كلغة ثانية .

٨ ـ تكون دمشق عاصمة سورية ، ويقيم المفوض الفرنسي السامي في حلب . ولكن يكون لرئيس الدولة السورية وللممثل الفرنسي مقر شتوي في بيروت ينعم باستقلال بلدي . وفي آخر الاتفاقية ملاحظة على أن بنود هذه الاتفاقية ستبقى سرية بين الطرفين المتعاقدين ، الى أن يتم التوقيع النهائي على الاتفاقية وتفاصيلها التي سيتم وضعها فور عودة الأمير فيصل الى فرنسا ، ومن ثم يجري رفعها في الوقت المناسب الى مؤتمر الصلح[1] .

وافق جميع مستشاري فيصل واعضاء وفده على قبول مشروع الاتفاق ـ باستثناء الدكتور أحمد قدري ـ بعد أن توافرت عندهم القناعة بأن بريطانيا تخلت عن العرب ، وان العرب لا يستطيعون مقاومة جيوش فرنسا ، وان الاتفاق خطوة ثانية تتلوها خطوات في المستقبل لتحقيق الاستقلال التام . ويبدو أن فيصلاً كان ينوي توقيع الاتفاق بالحروف الاولى ، لولا وصول رسول من لدن أبيه (الدكتور ثابت نعمان) يحمل منه رسالة يحظر فيها على فيصل توقيع أي اتفاق يتنافى والعهود ، ويعد بأنه سيعرض مشروع الاتفاق على السوريين ، ويحثهم على قبوله[2] . ومن الواضح أن فيصلاً لم يكن في أعماق نفسه سعيداً بذلك الاتفاق الناشىء عن المساومة والتهديد فبعث الى أخيه زيد بالبرقية التالية :

« منعاً لوقوع حادث ونحن على غير استعداد ، عملنا الاتفاق المؤقت لحين نتمكن من الاستحضار . نحن لم نرتبط بأي شيء كان بالنظر الى المستقبل . كونوا على عزائمكم الاولى في استحضار الجند ، ولا تصدقوا ما ربما ينشر ، فقط لا تتظاهروا بوجه عدائي لأي جهة كانت[3] » .

وهكذا جاد عام ١٩١٩ بأنفاسه دون جدوى ، وقرر فيصل العودة الى سورية في ١٩١٩/١٢/٧ .

٩ - التطورات الداخلية الثورية خلال مفاوضات الصلح في اوروبا .

كان فيصل أثناء غيابه في أوروبا يرسل من وقت الى آخر ، وخلال مراحل مفاوضاته في لندن وباريس ، برقيات مقتضبة الى أخيه ونائبه في دمشق الامير زيد . يطلعه فيها على

---

(١) راجع سليمان موسى : « المراسلات التاريخية » (١٩١٩) المجلد الثاني رقم ١٣٠ . برقية الامير فيصل الى الامير زيد باريس ٢٨/ ١١/ ١٩١٩ ـ ص ٢٥١ . وحول الاتفاقية مع الفرنسيين ١٩١٩ راجع ايضا رقم ١٣١ من الامير فيصل الى السيد برتلو باريس ٢٨/ ١١/ ١٩١٩ ، وجواب السيد برتلو الى الامير فيصل بنفس التاريخ رقم ١٣٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٢) راجع احمد قدري ، ص ١٥٣ ، و ١٥٧ ـ ١٥٨ ، وأمين سعيد ، ص ١١٩ .

(٣) سليمان موسى « المراسلات التاريخية ١٩١٩ » المجلد الثاني ـ رقم ١٣٠ ـ ص ٢٥١ .

سير هذه المفاوضات[1] : « لا تصغوا لأقوال الصحف . . . الحالة حسنة » .

وكانت تتوالى الاشاعات في سورية حول اتفاقية كليمنصو ـ لويد جورج حسبما ذكرنا فتزداد الخواطر التهاباً ، والنفوس قلقاً على مصير البلاد .

وقد ظهرت في الصحف بيانات لجنة الدفاع الوطني ، التي دعت الى التطوع في صفوف المقاومة . وقد عارض الانكليز هذه الحركة الوطنية شبه العسكرية وطالبت السلطات البريطانية على لسان اللنبي بحلّ هذه التشكيلات ، وطالب الفرنسيون بإقالة رئيس الاركان العربي وابعاد رئيس الوزارة . واجه المؤتمر السوري المنعقد بدمشق باستمرار « كل قرار واتفاق يمس بوحدة البلاد واستقلالها[2] » . ودعمت هذه المطالب المظاهرات الشعبية التي كانت تندد : « بكل تسوية تخالف أهداف الحركة الوطنية الاستقلالية ، وتحبّذ الوطن اليهودي الصهيوني في جنوبي البلاد » .

وقد نشأت فكرة اللجنة الوطنية العليا التي انبثقت منها لجان مختلفة في أحياء دمشق والمدن السورية الأخرى في أوائل تشرين الثاني ١٩١٩ دعماً لمواقف فيصل في أوروبا .

وبينما كانت عملية انسحاب الجيش البريطاني تتم في شمالي البلاد ، وصل الى بيروت في ٢١/ ١١/ ١٩١٩ القائد الفرنسي ، والمفوض السامي العام الجديد الجنرال غورو . وترأس عملية حلول الجيش الفرنسي محل الجيش البريطاني . وهكذا جلت الجيوش البريطانية عن حلب في ٢٠/ ١١/ ١٩١٩ ، وعن دمشق في ٢٦/ ١١/ ١٩١٩ وعن بيروت في ١٢/ ١٢/ ١٩١٩ .

وعندما وصلت أنباء وصول الجيش الفرنسي الى البقاع قرر مجلس المديرين الدفاع عن البلاد بأي ثمن[3] . واجتمع إثر المؤتمر السوري في ٢٢/ ١١/ ١٩١٩ واتخذ

---

(١) ولنكتفي على سبيل المثال لا الحصر بالرجوع الى بعض هذه البرقيات كما نجدها في كتاب سليمان موسى : المراسلات التاريخية (١٩٨٩) المجلد الثاني رقم ٥١د ص ١٣٧ . لندن ٢٣ أيلول ١٩١٩ ورقم ٥٥ ص ١٤٠ من لندن في ٢٧/ ٩/ ١٩١٩ . . « المخابرات جارية اخبروا الشعب أن أية حركة فجائية تقع تضر بسير الحركة . . » . ورقم ٥٧ ـ ص ١٤٤ . لندن في ٢٧/ ٩/ ١٩١٩ . . . « الجماعة خائفون من حدوث قلاقل واضطرابات في سورية . الله الله ! القوة القوة ، كلما كنا أقوياء هناك (أي في سورية) وكلما رأوا فينا أثر حياة عسكرية كلما احترمونا وخضعوا لمطالبنا . . . » . رقم ٧٩ . لندن في ١٩/ ١١/ ١٩١٩ ـ ص ١٨٠ ـ ١٨١ : « . . . المسألة مسألة قوة لاحق ؟ . نراهم اليوم خاضعين أمام مصطفى كمال ، كل جرائدهم تقول بلزوم احترام العنصر التركي وتركه مستقلا في بلاده . . . الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » . رقم ٨١ . لندن في ٢٢/ ١٠/ ـ ص ١٩٦ . رقم ٨٤ من باريس ٢٥/ ١٠/ ١٩١٩ ـ ص ١٩٩ : « . . . ولكن حق بلا قوة لا يحترم . . . أملي عظيم في تشكيل وحدة عسكرية تضم سورية والعراق » . رقم ٨٨ . باريس في ٢٨/ ١٠/ ١٩١٩ ـ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٢) راجع جريدة العاصمة ٣٠ تشرين الاول ١٩١٩ . العدد رقم ٧١ .

(٣) راجع ساطع الحصري : « يوم ميسلون » بيروت (طبعة جديدة) ص ١١١ ـ ١١٢ .

قراره الشهير بعد يومين بضرورة الدفاع عن وحدة سورية التامّة بحدودها الطبيعية ، كما طلب ذلك من لجنة كينغ ـ كرين الامريكية « مع تعيين شكل الحكومة بأنها حكومة ملكية دستورية مسؤولة أمام الامة » . واعتقلت السلطات البريطانية السيد ياسين الهاشمي لانها اعتبرته المحرض الاكبر ضد الاحتلال الاجنبي والتعاون مع الكماليين[1] . وقد اذعنت الحكومة للاتفاق الفرنسي البريطاني في بيانها الصادر في ١٩١٩/١٢/١ واعلنت فيه أن القوات الفرنسية ستحل في مكان الجيش البريطاني في سهل البقاع . وبقي احتجاج فيصل في باريس على ذلك دون جدوى .

ولما وصلت شائعات حول مفاوضات فيصل مع الفرنسيين وتراخيه حيال مطالبهم الاستعمارية ، بدأ التوتر السياسي يزداد عنفاً وحدةً في البلاد ، وقويت المعارضة ضد هذا التراخي . أمام هذه المعارضة الوطنية العارمة ضمن المؤتمر ، قررت الحكومة تعليق جلساته في ٤ كانون الاول ١٩١٩[2] ، وتابعت المعارضة عملها خارج المجلس ولا سيما في اطار اللجنة الوطنية العليا وفي غيرها من الاحزاب السياسية الوطنية . وشكلت لجان الدفاع في المدن السورية الكبرى وزادت المطالبة بالتجنيد الاجباري . وقامت أزمة حكومية بين رئيس حكومة المديرين وبين الامير زيد اضطر معها الاول الى الاستقالة فأعطي اجازة ، بينما قوي حزب القائلين بضرورة العمل العسكري ضد الاحتلال الفرنسي . واصدرت الحكومة الوطنية الجديدة التي سميت « بالحكومة الدفاعية » ، نظام التجنيد الاجباري في ١٩١٩/١٢/١٩ وصادق على هذا النظام الامير زيد بعد يومين . وقد بدأت المقاومة الشعبية بمناوشات حدودية ضد الافرنسيين على طول الحدود مع البقاع ، وكانت تدعمها الاحزاب الوطنية والاحزاب الاخرى ، ولا سيما حزب الفتاة . واتهمت الحكومة الفرنسية الوزارة السورية بانها وراء هذه التحركات العدائية . وانتشرت الاشتباكات مع الفرنسيين في البقاع عامة ، وفي منطقة مرجعيون والقنيطرة وحتى في منطقة اللاذقية ، ودامت هذه الاشتباكات طوال شهر كانون الاول ١٩١٩ الى حين رجوع فيصل الى البلاد . وقد تلاقت هذه الاعمال الثورية مع حركات المقاومة الوطنية التركية بزعامة مصطفى كمال ضد مخططات الدول الاستعمارية لتقسيم بلاد الاناضول . وكانت مقاومة مصطفى كمال في سوريا دعماً قوياً وتجاوباً كبيراً لما كانت تتحلى به الجماهير الوطنية من شعور الاعجاب بأعمال كمال اتاتورك التحررية ، لا سيما وان دعوته الى الجهاد ضد المستعمرين الاجانب قد تسربت الى حلب ودمشق[3] .

---

(١) راجع وثائق حول السياسة الخارجية البريطانية ـ السلسلة الاولى المجلد الرابع . ص ٥٢٣ .

(٢) راجع جريدة العاصمة : في ٨ كانون الاول ١٩١٩ ـ العدد ٨٢ .

(٣) راجع وثائق حول سياسة بريطانيا الخارجية المذكورة سابقا ـ ص ٤٧٨ .

١٠ ـ سورية بين الاستقلال والاحتلال ومبايعة فيصل ملكاً عليها :

بعد أن دخلت جيوش الثورة العربية دمشق تشكلت فوراً حكومة عربيه فيها كما ذكرنا سابقاً . وتشكلت بعدها في المدن الكبرى السورية هيئات حكومية غايتها الاشراف على الادارة المحلية ريثما يتم لفيصل توحيد البلاد واعلان استقلالها كما وعدته بها الدبلوماسية البريطانية قبل قيام الثورة وخلال الزحف المقدس من الحجاز الى عاصمة بني أمية .

ففي حماه شكلت هيئة عليا برئاسة بدر الدين الكيلاني وبمؤازرة بعض الاعيان .

اما في حلب فقد أعلنت الحكومة العربية ورفع علم الثورة العربية ، بينما كانت القوات التركية الالمانية تغادر المدينة . وقام ابراهيم هنانو في شمالي سورية بتأليف حكومة وجمع جيش في كفر تخاريم .

وفي اللاذقية فقد تأسس مجلس وطني برئاسة رشيد طليع ، أشرف على الاعمال الحكومية في منطقة الساحل السوري من طرطوس الى انطاكية ، وقد ألمحنا سابقاً الى المشاكل والعراقل التي نجمت عن رفع الأعلام العربية على الأبنية في بيروت وبعبدا[1] .

وقد بدأت هذه الحكومات المحلية الموقتة بأعمال التنظيم والادارة ، بعد مغادرة الجيوش التركية ، وما خلفته من اضطراب وفوضى في المؤسسات العامة . وكان الحاكم العسكري العام رأس العمود الفقري الأداري في البلاد ، يعاونه مدراء عامون لمختلف الادارات . وأحدث مجلس شورى في دمشق للقيام بالتشريعات الضرورية الأساسية ، كما نظمت دوائر المالية والعدلية ، وأخيراً أنشىء ديوان الشورى الحربي لتنظيم الجيش العربي الجديد .

وقد قامت في وجه هذه الحكومة المؤقتة ومؤسساتها ، عقبات كثيرة ، منها ما يرجع الى نقص الموارد لسوء وعجز الجباية . كما قامت عقبة كبيرة في وجه هذه الحكومة لما واجهته من مداخلات الحكم العسكري الأجنبي .

أما من حيث التنظيمات السياسية ، فقد قامت جميعها بمتابعة عملها في الحقل القومي والوطني ، اذ حاولت ان توقظ فكرة الدولة العربية المستقلة المناهضة لكل تدخل أجنبي ، وقد شهد أحد الصحافيين الذي زار دمشق يومئذ « أن الروح الوطنية العربية قد بعثت من

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع راجع ما كتبته اخيراً بطريقة شاملة السيدة خيرية قاسمية : « الحكومة العربية في دمشق » المذكور سابقاً ص ٥٦ ـ ٥٨ .

جديد . وهي ظاهرة يجدر التوقف عليها ، لما كان لها من تأثير عميق في تطور الحركة القومية في سورية والبلاد العربية »[1] .

سبق لنا أن درسنا نشوء الجمعيات العربية قبل نشوب الحرب ، وقد تابعت هذه الجمعيات نشاطاتها السياسية ، بينما تطور البعض منها الى أحزاب سياسية ، حاولت أن تلعب دوراً في تطور السياسة الداخلية ، ونكتفي بذكر أهمها : جمعية « العربية الفتاة » التي أرادت أن تحافظ على نظامها السري وأن يكون لها فرع سياسي علنيّ . وقد حددت هدفها السياسي في المادة الأولى من نظامها الأساسي وهو : « استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بجميع معانيه الحقوقية والسياسية ، وتأييد ذلك الاستقلال بجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية » . وأيدت هذه الجمعية سياسة فيصل الى أن تسربت أنباء اتفاق فيصل ـ كليمنصو . فتوقفت أعمالها بعد احتلال فرنسا لسورية .

أما « حزب الاستقلال » : فيمكن اعتباره امتداداً للجمعية العربية الفتاة من حيث التأثير الفعلي على الادارات والمؤسسات الحكومية .

أما « النادي العربي » فهو مؤسسة ثقافية ، تحولت الى مؤسسة سياسية قيادتها المركزية في دمشق ، وتضم فروعاً في حلب وحمص ، وقد تابع النادي العربي في سورية ما بدأ به المنتدى الأدبي في الآستانة قبل اندلاع الحرب ، واستمر نشاطه الى ما بعد الاحتلال الفرنسي ، وأصابه الكثير من اضطهاد السلطات له لما كان يقوم به من نشاط وطني وثقافي وسياسي .

أما « حزب العهد » : فهو استمرار لجمعية العهد السرية التي ذكرناها سابقاً ، والتي كانت تضم عدداً كبيراً من الضباط االعرب في الجيش العثماني . وكان لهذا الحزب فرع سوري وفرع عراقي ، وقد قام الفرعان بمقاومة التدخل الفرنسي والانكليزي في كلا القطرين .

وقد نتج عن الحركة السياسية الداخلية تطلعات الى اقامة حكومة مستقرة ، تقوم بأعمال الادارة بحكم المسؤولية الذاتية . وكان فيصل قد وعد في خطابه في ١٤/ ٥/ ١٩١٩ بدعوة السوريين الى تأسيس مجلس يضم مندوبين عن كافة المناطق السورية ، ويكون بمثابة هيئة دستورية تمثل الرأي العام السوري ، وتقوم بالمبادرات السياسية لنيل الاستقلال تجاه مطامع فرنسا وبريطانيا .

وانطلاقاً من هذه الأهداف ، إنتُخب أعضاء المؤتمر الوطني السوري تبعاً للقوانين

---

(١) راجع جريدة المنار التي يرئس تحريرها السيد رشيد رضا سنة ١٩٢٢ ـ عدد ٣/٢٩ ـ المجلد ٢٣ ـ ص ٢٣٧ وما بعده .

المرعية في المناطق ، كما ضمّ المؤتمرُ بعضَ الأعيان والزعماء من مناطق كان يتعذر فيها اجراء الانتخابات ، مثل لبنان (المنطقة الغربية حسب التعبير الأجنبي) والبلاد الفلسطينية . وهي مناطق سورية الجنوبية الواقعة تحت الادارة العسكرية البريطانية . وكان عدد الأعضاء ٨٥ عضواً ، حضر منهم جلسة الافتتاح التي عقدت بتاريخ ٧/٣/ ١٩١٩ ـ ٦٩ مندوباً[١] . وكان من أهم أعمال المؤتمر ، تمثيل ارادة البلاد السورية تجاه المؤسسات الدولية ، في الاستقلال التام ضمن الوحدة العربية ، ورفض كل حماية أو انتداب أو وصاية كانت تفكر بها الدول الموقعة على اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وقد قام بهذه المهمة لا سيما عندما أتت لجنة كينغ ـ كرين من قبل الهيئات الدولية ، للتحقيق في رغبة الشعب السوري وارادته الحرة .

وكانت فرنسا تعارض في إرسال أية لجنة الى البلاد السورية ، لأنها كانت تعلم جيداً ، أن الشعب هناك مع زعمائه سيعارض فكرة الانتداب التي كانت ترعاها في المحافل الدولية . أما الرئيس ولسون فإنه أخذ برأي رئيس الجامعة الأمريكية (ببيروت) ، الذي كان قد اقترح فكرة التحقيق . وقد فرض الرئيس ولسون هذه الفكرة على الفرنسيين والانكليز . وأصدر التعليمات الى أعضاء الوفد الذي ذهب الى سورية ، وكان يتألف من عضوين رئيسيين هما : هنري سي كينغ وشارلز . ر ـ كرين وعُرفت هذه اللجنة باسميهما .

وقد وصلت اللجنة الى يافا في ١٠/ ٦/ ١٩١٩ ، وقضت في البلاد ٤٢ يوماً ، زارت المناطق كلها واطّلعت على آراء جميع فئات الشعب ، وجمعياته وأعضاء بلدياته ورؤساء طوائفه ومندوبيه في المؤتمر الوطني السوري ، ولم تترك شخصية لها أهمية ما وطنية أو أجنبية الاّ وأرادت أن تطلع على وجهة نظرها . وهكذا فقد زارت ستاً وثلاثين مدينة أو قرية ، واستمعت الى وفود أتت من ١٥٢٠ قرية ، وضمّت الى ملفاتها ١٨٦٣ عريضة طالبت جميعاً باستقلال البلاد ووحدتها ونبذ كل مشروع صهيوني في المنطقة الجنوبية أي فلسطين[٢] . وعندما وصلت اللجنة الى دمشق ، قدم لها وفدٌ من المؤتمر الوطني السوري مقررات حول مستقبل البلاد[٣] . كما أدلى الأمير فيصل بآرائه حول هذه المواضيع الحيوية

---

(١) راجع جورج انطونيوس : « يقظة العرب » ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

(٢) راجع الدراسة القيمة ليورغل . ي . برانت « حول سياسة الانتداب الفرنسية في سورية » في الكتاب الاجتماعي « حول الاستعمار والاستعمار الجديد » . المذكور سابقا . ص ٢٤٠ وما بعدها وراجع ايضا اتينو روسّي : « الوثائق » المذكور سابقاً . ص ٧٧ ـ ٩٠ . وراجع بالاخص كتاب هـ . هوارد : « لجنة كينغ ـ كرين : تحقيقات أمريكية في الشرق الاوسط » . بيروت ١٩٦٣ بالانكليزية . وهي دراسة مستفيضة حول أعمال هذه اللجنة .

(٣) راجع ساطع الحصري : « يوم ميسلون » المذكور سابقا ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ حيث يعطي نص قرار المؤتمر السوري الى لجنة التحقيق الاميركية .

لمستقبل البلاد ، وشدّد على وحدة بلاد الشام في حدودها الطبيعية ، معترضاً على ما تقوم به بعضُ الجهات الطائفية في لبنان والأوساط العنصرية في فلسطين .

وقد رفعت هذه اللجنة توصياتها الى مؤتمر السلم في باريس ، في تقرير مستفيض بتاريخ ٢٨ آب ١٩١٩ . كما كانت قد أرسلت مسبقاً تقارير موجزة الى باريس بتاريخ ١٠ - ١٩ تموز ١٩١٩ . وكلها تشدّد على ارادة السوريين في الوحدة والاستقلال ، في جميع المناطق التي تضم بلاد الشام في حدودها الطبيعية ، أي مع لبنان وفلسطين وشرقي الاردن . كما أنها أعلمت الجهات المسؤولة في مؤتمر باريس ، عن رفض سكان البلاد لأي نوع من الانتداب ، وللمشروع الصهيوني[1] .

ولما كانت حالة البلاد في اضطراب متزايد ، لما كان يستشم من أعمال مؤتمر السلام في توطيد الحكم الأوروبي في المشرق العربي ، فقد رأى الأمير فيصل أن يذهب بنفسه الى أوروبا ليدافع عن القضية السورية في لندن وباريس .

وقد أتينا سابقاً الى ذكر ما قدّمه من مذكرات ، وما قام به من اتصالات في المحافل الدولية .

أما في سوريا فقد كانت التطورات الداخلية تتجه نحو توطيد الوحدة والاستقلال ، ونحو القيام بمبادرات دستورية تُعلن للرأي العام العالمي عن ارادة الشعب وممثليه في المؤتمر الوطني . ولما عاد فيصل الى سورية وجد نفسه أمام تطور لا يستطيع السيطرة عليه أو ايقاف مدّه .

وقد حاول فيصل أن يهدّىء من ثائرة السوريين ، فقام بجولات في مختلف المقاطعات ، ليشرح ما قام به من اتصالات وما توصل اليه من نتائج . ولهذا الغرض وفي سبيل هذه الأهداف فقد خطب في حلب بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٢٠ ، وكرر ما قاله في خطاب آخر ألقاه في النادي العربي بدمشق قبل أسبوع ، قال فيه : « انني أناضل من أجل الاستقلال الذي ترغبون ولكن الواجب يقضي بعدم التشدد في العداء لأن بيننا وبين الدول الكبرى روابط لا يمكننا أن نتجرد عنها » وكان هذا الخطاب سبباً لاثارة نقمة معارضي سياسته من الوطنيين الأحرار . وهكذا بدأ الخلاف يدب بين فيصل وبين القوى الوطنية

---

(١) أما التقرير الذي وضعته اللجنة فانه ينقسم الى ثلاثة أجزاء ، الاول : يعطي صورة واضحة عن اوضاع البلاد السياسية ، والثاني ؛ يسهب في بعض الاعتبارات الخاصة بتسوية المسألة التركية . أما الجزء الثالث : فهو يتكلم بصراحة عن توصيات اللجنة التي ذكرناها .

المتشددة في الاستقلال ووحدة البلاد . حيال ذلك حاول تأليف حزب يدعم سياسته دعي « بالحزب الوطني[١] » .

وتمشياً مع الرأي العام السائد في المؤتمر ، وفي الأوساط الشعبية ، قَبِل الأمير فيصل السياسة الاستقلالية التي دعت اليها غالبية الشعب السوري ، وقد أفصح الأمير عن وجهة نظره هذه ، في الخطاب الذي ألقاه في النادي العربي في دمشق في ٦ آذار ١٩٢٠ ، بحضور أعضاء الحكومة وممثلي الشعب وعدد غفير من زعماء البلاد ، فتشكلت في الحال لجنة لتكريس هذا الوضع ، وللقيام باعلان الاستقلال ، ومبايعة الأمير فيصل ملكاً على سورية[٢] . وفي اليوم التالي ٧ آذار أجمع الأعضاء على اتخاذ القرار التاريخي ، الذي ينص على استقلال سورية في حدودها الطبيعية ، وعلى رفض المشروع الصهيوني للوطن القومي ، وعلى تطبيق مبدأ اللامركزية الادارية ، مع إعطاء الضمانات الخاصة بجبل لبنان ، وانشاء حكومة جديدة مسؤ ولة أمام المؤتمر ، الذي سيتخذ صفة مجلس نيابي وتأسيسي معاً ، واعلان حق العراق في الاستقلال ، مع ايجاد اتحاد سياسي واقتصادي مع القطر الشقيق ، وأخيراً مبايعة الأمير فيصل ملكاً على سورية ، على أن تُعلن المبايعة في اليوم التالي أي في ٨ آذار .

وتقرر مبايعة الأمير فيصل ملكاً على البلاد السورية في ٨/٣/ ١٩٢٠ في دار البلدية[٣] ، وفي اليوم المذكور جرت حفلة مراسيم المبايعة المقررة وسط حماس الشعب والمؤتمر . وقد أطلقت المدافع ورفع العلم السوري وهو علم الثورة العربية مع نجمة بيضاء في المثلث الأحمر . وانهالت البرقيات على العاصمة من جميع أنحاء البلاد ، تشارك المحتفلين ابتهاجاتهم ، وقد شارك في هذه المبايعة كافة الطوائف ، ممثَّلةً برؤ سائها الروحيين[٤] . وفي اليوم نفسه اجتمع ممثلون عن الشعب العراقي ، وأعلنوا استقلال

---

(١) راجع أمين سعيد في كتابه المذكور سابقاً ـ الجزء الثاني ص ٤٢ وراجع أيضا عزت دروزه : « حول الحركة العربية الحديثة » ص ١٩٥٠ المجلد الاول . ص ٨٦ ، وقد ذكر أسعد داغر في : « مذكراتي على هامش القضية العربية » . القاهرة ١٩٥٩ ـ ص ١١٢ وما بعدها . حوادث واحاديث عن ردة الفعل الشعبية العارمة ضد مشروع الاتفاق بين فيصل وكليمنصو . وتركيز النقمة على نوري السعيد .

(٢) ساطع الحصري : « يوم ميسلون » المذكور سابقا ص ٢٧١ ـ ٢٧٤

(٣) راجع أمين سعيد : « الثورة العربية الكبرى » المذكور سابقا ـ ج ٢ ص ـ ١٢٨ ـ ١٢٩ . وقد أورد أحمد قدري في كتابه « مذكراتي عن الثورة العربية » المذكور سابقاً ، نص خطاب الامير فيصل في جلسة ٦ آذار من المؤتمر ص ـ ١٧٨ ـ ١٨١ ، وراجع ايضا ساطع الحصري « يوم ميسلون » المذكور سابقا ص ـ ٢٧٨ ـ ٢٨١ . وقد وقع على قرار المؤتمر السوري في جلسة ٧/٣ ممثلو المدن الكبرى وهم هاشم الاتاسي (حمص) ، يوسف الحكيم (طرابلس) ، مرعي الملاح (بيروت) ، عبد القادر كيلاني (حماه) ، محمد تاج الدين حسيني (دمشق) ، ابواهيم هنانو (حارم ـ حلب) ، صبحي بركات الخالدي (انطاكية) .

(٤) راجع يوسف الحكيم : « سوريا والعهد الفيصلي » . بيروت ١٩٦٦ ص ـ ١٤٣ .

العراق مبايعين الأمير عبد الله شقيق فيصل ملكاً عليه ، ومطالبين بالاتحاد مع سورية اتحاداً سياسياً واقتصادياً[1] .

والى أن يتم تأليف الوزارة الجديدة التي ستستلم ادارة أمور الحكومة بطريقة دستورية ، يجدر بنا التوقف قليلا لنرى مواقف حكومتي فرنسا وانكلترا تجاه هذه المبايعة للملك فيصل ، والتأكيد على استقلال ووحدة سورية الطبيعية ـ بلاد الشام بمقاطعاتها الساحلية والجنوبية . ففي ٧ آذار أبرق المندوب السامي في مصر (الجنرال اللنبي) الى وزير الخارجية اللورد كرزون ، يعلمه بما يجري في دمشق من تطورات خطيرة ، فاتصل وزير الخارجية البريطاني بزميله الفرنسي برتلو ، واتفقا على موقف معين أُبرق به الى الجنرال اللنبي ، وكان الموقف في غاية المرونة ، ريثما يتاح للدبلوماسية الفرنسية البريطانية الاطلاع الشامل على مجريات الأمور في سورية . ومما جاء في جواب اللورد كرزون أن على فيصل أن يحضر الى لندن أو باريس ، ليعلم مؤتمر السلم بأهدافه ، بغية التوصل الى حل للقضايا العربية . لأن القرار النهائي هو بيد المسؤ ولين في مؤتمر السلم . وتابع الوزير البريطاني قائلاً لفيصل ، إن مسؤ وليته كبيرة وان مستقبل سورية سيتعرض للخطر اذا ما اتخذت قرارات تتعارض مع نوايا مؤتمر السلم[2] .

وعندما وصلت أنباء المبايعة ، اتخذت الحكومتان موقفاً صريحاً مناهضاً لقرارات المؤتمر السوري ، فقد أُبلغ فيصل أن الحكومة البريطانية لا تستطيع الاعتراف بما جرى في دمشق ، لأنها تعتبر هذه القرارات وكأنها : « باطلة ولا وجود لها » ، فالحكومات الحليفة وحدها لها الحق في اتخاذ القرارات الخاصة بسورية والعراق وفلسطين ، لأنها هي وحدها التي حررت هذه البلاد من الاحتلال العثماني . وطلب من فيصل من جديد أن يرجع الى أوروبا لعرض القضية السورية أمام مؤتمر السلم[3] . أما موقف فيصل فقد بات واضحاً ومتماشياً مع رغبات شعبه . ولذا فقد أرسل مذكرات الى كل من رئيس الولايات المتحدة ولسن ، والى وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزون ، والى المندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو قال فيها : « ان ما أعلنه المؤتمر من قرارات تاريخية ، يهدف الى المحافظة على وحدة البلاد السورية ، والى تهدئة الخواطر العارمة في الشعب ، وهي علاوة على ذلك تنسجم تماماً مع تعهدات الحلف قبل وخلال الثورة العربية الكبرى » . وعلى

---

(١) راجع اتينو روسّي « وثائق » المذكور سابقا رقم ٦٦ ـ ص ـ ٩٨ ـ ٩٩ ، وراجع أيضا أمين سعيد المذكور سابقا ـ المجلد ٢ ـ القسم ٢ ص ـ ٣٤ ـ ٣٧ ، حيث تقرأ المؤتمر العراقي واسماء اعضائه . وراجع أيضا بهذا الخصوص جريدة « القبلة » في عددها ـ ٣٧٣ الصادر في ٨/ ٤/ ١٩٢٠ .

(٢) راجع الوثائق البريطانية المذكورة سابقا ، المجلد ـ ١٣ ـ ص ـ ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٩ .

كل حال فان ما قام به المؤتمر المنتخب انتخاباً شرعياً هو شرعي أيضاً . وهـذا لا يمنـع الحكومة السورية والمسؤولين فيها ، من الاطلاع على مقترحات ومشورة الحلفـاء ، مع طلب المساندة المادية والمعنوية التي لا تتنافى مع استقلال البلاد ووحدتها الشاملة[١] .

وعندما حاول الجنرال اللنبي ، اقتراح حل وسط على حكومته في ٣/١٨ ، يقضي بأن يُعترف بملكية فيصل على اتحاد عربي ، يضم كلا من سورية والعراق وفلسطين ، مع ابقاء الادارة الفـرنسية في سورية ، والادارة البريطـانية في فلسطـين والعـراق ، أجابـه وزير الخارجية البريطاني اللورد كرزون انه لا مجال لهذه الخطة لان المحادثات القائمة الآن بين الحلفاء تهدف الى فرض الانتداب على هذه المناطق [٢] .

وقد أيّد الملك حسين ما قام به المؤتمر السوري من مبايعة ابنه فيصل ، ومن التأكيد على وحدة البلاد العربية، في برقية أرسلها بواسطة ديوانـه الى رئيس المؤتمـر السـوري بتاريخ ٣/٢٠ وفي برقية أخرى أرسلها الى الجنرال اللنبي في القاهرة بتاريخ ٣/٢٧[٣] .

وقد أجاب وزير الخارجية البريطاني اللورد كرزون ، الملكَ حسين عن طريق ابنه عبد الله (وزير خارجية الحجاز) ، ان الحكومة البريطانية لا تعتـرف بمـا قرره المؤتمـر العراقي الذي انعقد بتاريخ ٨/ ٣/ ١٩٢٠ في دمشق ، لان مؤتمر السلم وحده هو صاحب الصلاحية في تقرير مستقبل العراق والبلاد العربية[٤] .

أما الملك حسين فكان ردّه على وزير الخارجية البريطاني واضحاً ، يتفق مع مواقفه الثابتة من اعلان الثورة . فقد أكد أنه لا علاقة له بمؤتمر السلام لان علاقته كانـت مع بريطانيا دون سواها ، وكتب حرفياً : « فبريطانيا هي التي دعتني ، وهي التي جعلتني اعلن الثورة وهي التي قبلت كل شروطي المتعلقة باستقلال البلاد العـربية . . . »[٥] . وحاول الملك فيصل إرضاء الوزارة البريطانية ، بايفاد نوري السعيد الى لندن ، ولكن وزير الخارجية كرزون رفض الاستماع اليه ، لا سيما وان الدبلوماسية الفرنسية رفضت ان تتفاوض مع فيصل بصفته ملكاً على سورية ، ولم ترض به الا ممثلا للشعب السوري كما

---

(١) راجع الوثائق البريطانية المصدر السابق ص - ٢٢٩ - ٢٣٠ وقد نشرت هذه الرسائل وقتئذ في جريدة العاصمة في ٥/ ٤/ ١٩٢٠ عدد - ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ - ٢٣٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٧ - أما البرقية لرئيس المؤتمر السوري فتجد نصها في جريدة العاصمة بتاريخ ٥/ ٤/ ١٩٢٠ العدد ١١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٥) الوثائق البريطانية غير المنشورة الملف ٢٣/٢٨٢ ، والوثائق المنشورة أيضا المجلد ١٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ . رسالة الملك حسين بتاريخ ٦/ ٤/ ١٩٢٠ .

في الماضي[1] . وظل الوضع على هذه الحال الى ان اجتمع الحلفاء في سان ريمو بين ١٨ ـ ٢٥ نيسان ١٩٢٠ ، لاقرار مبدأ الانتداب على المناطق المحررة من الدولة العثمانية . أما في الداخل فقد استخدم الملك فيصل صلاحياته الدستورية كاملة ، وعين وزارة جديدة لتحل محل مجلس المديرين السابق برئاسة السيد رضا الركابي لادارة شؤ ون الدولة ، ولتكون مسؤ ولة مباشرة أمام المؤتمر السوري حسب الأعراف الديموقراطية، وكانت هذه الوزارة هي الاولى في تاريخ سورية الحديث . وقد تقدمت الوزارة الى المؤتمر لإلقاء بيانها الوزاري في ١٩٢٠/٣/٢٧ ، وراعت في برنامجها الظروف الراهنة ، لا سيما معارضة الدول الاستعمارية لمقررات المؤتمر السوري ، فتحدثت عن الدفاع ، وعن الاستقلال السوري ، وعن المساواة أمام ألقانون ، وعن حماية المصالح الاجنبية ، وعن نشر المعارف ، وعن تحسين الحالة الاقتصادية ، وعن استعدادها للتعامل مع الحلفاء من أجل التطور الاقتصادي[2] .

تشكلت لجنة لوضع الدستور الجديد برئاسة هاشم الاتاسي ، أنهت أعمالها بعد عشرة أسابيع ، فجاء الدستور بمواده الـ ١٤٨ منسجماً مع التقاليد الديموقراطية الاوروبية . وقد نص الدستور على مواد أساسية تدرجُ بعضاً منها : منها أن سورية يحكمها ملك دستوري من الاسرة الهاشمية وهو غير مسؤ ول . تدار البلاد على أساس اللامركزية . ينتخب مجلس النواب بالإقتراع السري على درجتين وهو يمثل السلطة التشريعية . ينتخب مجلس شيوخ من قبل مجلس النواب ، وقد أكد الدستور على مبدأ احترام الحريات العامة المدنية والفكرية والدينية .

وكما وضع السوريون فرنسا وانكلترا أمام الأمر الواقع، فقد قررت الدولتان وضع العرب أمام الواقع . وكانتا قد توصلتا الى انهاء خلافاتهما بقبول فرنسا بالتخلي لبريطانيا عن فلسطين والموصل[3] ، مقابل قبول بريطانيا بالتخلي عن سورية بكاملها لفرنسا . وعقد مجلس الحلفاء اجتماعاً في سان ريمو بين ١٨ ـ ٢٥ نيسان عام ١٩٢٠ . وبالرغم من أن الصلح مع تركيا لم يتم بعد ، وان شرعية فصل المناطق العربية عن الدولة العثمانية لا يصح الا بعد عقد المعاهدة معها وادماج قرار الفصل فيها ، وبالرغم من أن نظام الانتداب لم يعرض بعد على مجلس العصبة ليصادق عليه ، فقد قرر المجلس تقسيم المناطق العربية ، وتقرر انتداب فرنسا على سوريا ولبنان ، وانتداب بريطانيا على العراق

---

(١) راجع رسالة فيصل الى اللورد كرزون في ١٩٢٠/٣/٢٨ في الوثائق البريطانية . المجلد ١٣ ص ٢٤٦ وموقف السفير الفرنسي في لندن ـ ص ٢٤٦ .

(٢) راجع نص البيان الوزاري في جريدة العاصمة . العدد ١١٣ بتاريخ ١٩٢٠/٩/٢٩

(٣) حصلت فرنسا على حصة كبيرة من نفط الموصل مقابل التنازل عن الموصل (٢٣,٧٥٪) .

وفلسطين وشرقي الاردن ، والتزام بريطانيا بتطبيق وعد بلفور[1] .

وتعتبر هذه القرارات أهمّ وثيقة رسمية ذات طابع دولي ، بتجزئة هذه المنطقة واخضاعها للاستعمار الاوروبي . وهي بالتالي أهم سبب من أسباب قيام الثورات والانتفاضات الشعبية التالية في هذه المناطق .

تلقى الجنرال اللنبي قرارات سان ريمو من حكومته ، التي أكدت له أنه بامكان فيصل المثول أمام المؤتمر في باريس في الاجتماع المقبل لعرض قضيته ، وان فرنسا ما تزال مستعدة للاعتراف به ملكاً على سورية ، شريطة قبوله الانتداب الفرنسي ، وان بريطانيا مستعدة للاعتراف نفسه . الا فيما يتعلق بفلسطين ، خاصة وانه سبق أن قبل آراء الحكومة البريطانية التي تضمنها وعد بلفور ، وانه يحتاج الى التوصل الى اتفاق مع فرنسة حول نصوص الانتداب ، أما مع بريطانيا فأمامه بحث مسألة الحدود بين سورية وفلسطين فقط[2]

ونقلت الحكومة الفرنسية تبليغاً مماثلاً عن قرارات سان ريمو الى الجنرال غورو ، اشارت فيه الى قبول فرنسا المهمة التي عهد بها اليها مؤتمر الصلح لمساعدة سورية وارشادها ، على أن تضمن استقلالها ضد كل اعتداء ضمن الحدود التي يعينها مؤتمر الصلح ناظرة بعين الاعتبار الى الادارات المحلية .

وقد أبرق ايضاً رئيس الوزارة ميللر الى فيصل بالمعنى نفسه[3] . وعلى اثر هذه البرقيات ثارت الخواطر في سورية ، واتهم رضا الركابي باتباع سياسة تميل الى القول بالانتداب ، واضطر الملك فيصل الى اعفائه من الوزارة ، والى تعيين هاشم الاتاسي رئيس المؤتمر السوري بدلاً عنه ، مع ادخال بعض العناصر الوطنية في الوزارة امثال الدكتور شهبندر ويوسف العظمة[4] . وفي ١٣/ ٥ أجاب فيصل على برقيات اللنبي ومبلكيران فرفض الاعتراف بمقررات سان ريمو إجمالاً . كما رفض فصل فلسطين عن سورية[5] .

وعمد الفرنسيون الى اثارة الرأي العام بين مختلف الطوائف في سوريا ولبنان ، كما

---

(١) وكان الملك فيصل قد ارسل الى المؤتمر مندوبين عنه هم رستم حيدر ونوري السعيد ونجيب شقير ولكن أعضاء المؤتمر (فرنسا انكلترا وايطاليا) رفضوا الاعتراف بهم ولم يسمحوا لهم بعرض وجهة النظر العربية .

(٢) راجع برقية اللورد كرزون الى اللنبي بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٩٢٠ في الوثائق البريطانية . مجلد ١٣ ص ٢٥١ - ٢٥٢ . « وسارع اللنبي الى اطلاع فيصل على هذه الامور في ٢٧/ ٤ » حيث نقل اليه جملة ما جاء في برقية كرزون : راجع المصدر السابق ص ٢٥٢ -٢٥٣ .

(٣) راجع سليمان موسى « الحركة العربية » ص ٥٥٢ .

(٤) راجع احمد قدري « مذكراتي » المذكور سابقا ص ٢٠٣ - ٢٠٥ . ويوسف الحكيم في كتابه سورية والعهد الفيصلي ص ١٥٦ - ١٥٧ وامين سعيد : المجلد الثاني . الجزء الاول .

(٥) راجع الوثائق البريطانية : برقية اللنبي الى كرزون في المجلد ١٣ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ وراجع امين سعيد المجلد الثاني (١) ص ١٤٤ - ١٤٥ .

بدأت الثورات الوطنية بالإشتغال ضد الاحتلال الفرنسي في المناطق الجنوبية (لبنان) والغربية (الساحل السوري) . كما سلح الفرنسيون أقواماً من المسيحيين لمجابهة القوات الوطنية .. فثارت ثائرة الملك فيصل وطلب من رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ان يتدخل مع الفرنسيين لايقاف هذه العمليات . ولما وُقّعت الهدنة بين الفرنسيين والاتراك في كيليكية في ٣٠/٥/ ١٩٢٠ ، خلا الجو للفرنسيين لحشد قواتهم ضد المنطقة الشمالية من سورية ، أي ضد حكومة فيصل ، وتُشكّل هذه الهدنةُ منعطفاً خطراً في تاريخ العلاقات الفرنسية ـ السورية حتى يوم ميسلون .

كانت قرارات سان ريمو بمثابة اطلاق يد فرنسا في سورية ، وشرع الجنرال غورو بعد تلقي الامدادات اللازمة يستعد للزحف على دمشق . وقرر فيصل السفر الى أوروبا ، ولكنه آثر أن يحصل على ضمان من انكلترا ، بعدم حصول تغيير في الوضع العسكري أثناء غيابه ، ولكنه لم يحصل على ما رغب به ، بل لم يجد تشجيعاً على القدوم . وفي ١٤ تموز يوم عيد الحرية في فرنسا تلقى فيصل انذار غورو الشهير الذي كان بمثابة طلب استسلام كامل[1] ، وكان غورو قد صاغ هذا الانذار على نحو اعتقد أنه لم يترك فيه مجالاً ليقبله فيصل ، ولهذا فوجىء حين وصله إشعارُ فيصل بقبول الشروط الواردة في انذاره ، ولكن القوات الفرنسية كانت في طريقها الى دمشق . فادّعى غورو أن القبول وصل متأخراً ، ولم يطرأ أي تغيير على حركة القوات الزاحفة ، التي شعرت بأنها تقوم بنزهة عسكرية ، بعد أن قام فيصل بتسريح الجيش السوري ، ولم تؤثر على حركتها مقاومةُ جمهرةٍ صغيرة من الجيش النظامي وبضع مئات من المتطوعين ، فكانت معركةُ ميسلون في ٢٤ تموز مجزرةً أكثر منها معركة ، وفي ٢٥ تموز دخلت القواتُ الفرنسية دمشق ، لتغادرها بعد ربع قرن من الصراع البطولي الذي خاضه الشعب العربي في سورية ضد الغزاة[2] .

وكان الملك فيصل قد ترك دمشق في ٢٤/٧/ ١٩٢٠ الى الكسوة ، مع أخيه الامير زيد وعدد من وزرائه ، آملاً أن يتوصل الى اتفاق مع الفرنسيين في آخر لحظة ، ولذا عين رئيساً جديداً للوزارة السيد علاء الدين الدروبي ، وفوّض نوري بالتفاوض مع الفرنسيين . وكانوا قد أبلغوه رسمياً بوجوب مغادرة العاصمة الى الحجاز ، فاضطر الى النزول عند ارادتهم ، ولو أنه أرسل الى غورو برقية احتجاج[3] . ولما وصل الملك مع

---

(١) ١ ـ وضع سكة حديد رياق حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي (أي السيطرة على حمص وحماه وحلب) . ٢ ـ قبول الانتداب الفرنسي . ٣ ـ الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين . ٤ ـ قبول الاوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري . ٥ ـ معاقبة المجرمين (أي زعماء المقاومة ضد الفرنسيين) الذين استرسلوا في معاداة فرنسا .

(٢) سوف نتعرض لهذا الموضوع الهام في كتاب مستقل يؤرخ نضال الشعب العربي في سورية ضد الغزاة خلال ربع قرن ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ .

(٣) راجع ساطع الحصري ميسلون ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

حاشيته الى درعا ، حاول ان يضمن ثورة الحوارنة ضد الفرنسيين كآخر ورقة يلعبها ضدهم . فسارع الفرنسيون بالايعاز الى رئيس الوزارة علاء الدروبي بابلاغه برقياً بمغادرة البلاد والا قصفت الطائرات الفرنسية المدينة . وهكذا غادر فيصل سورية الى حيفا في ٧/٢٩ . وقد بقي هناك حتى ١٨/٨/ ١٩٢٠ حيث غادرها الى مصر ، ومنها بحراً الى ايطاليا[١] . وقد حاول الانكليز اقناع فيصل بالسفر الى الحجاز فرفض وأصرّ على التوجه الى أوروبا مدّعياً المرض[٢] . وقد وجه فيصل من منفاه في ايطاليا رسالة فيها انتقادٌ مرٌّ للسياسة البريطانية والفرنسية حيال حكمه في سوريا[٣] . ومكث فيصل في ايطاليا في مدينة كومو ، الى أن تلقى دعوة الحكومة البريطانية لزيارة لندن والاجتماع بالملك جورج في ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ . وهكذا بدأت صفحة جديدة من حياة الملك فيصل ستقوده الى تولي عرش العراق تحت الانتداب البريطاني .

١١ ـ فيصل ملكاً على العراق :

بدا وضع الجيوش البريطانية في العراق أغرب من وضعها في بلاد الشام . فقد اعتبرت البلاد « أرضاً للعدو » يسكنها أصدقاء . وأكدت الادارة البريطانية للسكان أنها لا تنوي « معاملتهم كأعداء طالما حافظوا على حيادهم ومظهرهم الودي وامتنعوا عن حمل السلاح ضد جنودنا » ، وانهم « سوف يتمتعون بمنافع الحرية والعدل من جهة شؤ ونهم الدينية والدنيوية » . وأكدت بريطانيا لسكان العراق رغبتها بأن « تحرر العرب من ظلم الأتراك وتساعدهم على التقدم وازدياد الازدهار والتجارة »[٤] .

وفرضت الحكومة البريطانية تغييراً جوهرياً على السياسة الرسمية في العراق ، فقد أجبر القائد الجنرال مود على توجيه نداء الى سكان بغداد (١٩/٣/١٩١٧) جاء فيه :

« لقد طرد العربُ من الحجاز التركَ والألمان ، ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكاً عليهم ، وعظمته يحكم بالاستقلال والحرية وهو متحالف مع الامم التي تحارب دولتي

---

(١) وقد ذكرت خيرية قاسمية على لسان احسان الجابري ان المندوب السامي البريطاني في فلسطين طلب من فيصل وهو في اللد في طريقه الى مصر ان يتنازل خطياً عن منطقة شرقي الاردن للسلطات البريطانية (راجع كتاب الحكومة العربية في دمشق ـ ص ٢١٠ حاشية ٢) .

(٢) راجع سليمان موسى « تأسيس الامارة الاردنية » عمان ١٩٧١ ـ ص ١٣ ـ ١٤ .

(٣) راجع روسي (الوثائق » ص ١٠٠ ـ ١٠١ ـ راجع أيضا حمادة وظبيان : « فيصل بن الحسين من المهد الى اللحد » ج١ دمشق ١٩٣٣ ـ ص ١١٥ وما بعدها .

(٤) راجع بيان الجنرال مود الى أهالي بغداد بعد احتلال عاصمة العباسيين : عبد الرحمن البزاز « العراق من الاحتلال حتى الاستقلال » الطبعة ٣ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ٧٥ ـ ٧٧ . وراجع أيضا فيليب ايرلاند : « العراق » لندن ١٩٣٧ ـ ص ٨١ . أما النص الكامل لبيان الجنرال مود فنجده في ايتوري روسّي : « الوثائق . . . » ص ٦١ ـ ٦٣ .

تركيا وألمانيا . . . وتصمم بريطانيا . . أن لا يذهب ما قاساه العرب الشرفاء هباءً منثوراً . . وان تسمو الامة العربية مرة أخرى عظمةً وصيتاً وان تسعي كتلة واحدة وراء هذه الغاية بالاتحاد والوئام » .

ولم يكن الجنرال مود راضياً عن هذا البيان واعتبره مثيراً « في غير الوقت المناسب » لآمال العرب وطموحهم « وفي وقت يجب أن تبقى فيه سلطة الجيش البريطاني في الأراضي المحتلة سائدة وغير منازع فيها » .

ولكن الادارة البريطانية خرقت كل الاعراف والقوانين الدولية ولم تتقيد بالوعود والبلاغات . فهي لم تحكم البلاد حسب نصوص اتفاقيتي لاهاي ، مما يوجب على دولة الاحتلال اتخاذ « جميع التدابير لاعادة الأمن الى نصابه ، وتأمين حالة السلم على قدر استطاعتها ، بشرط أن تحترم القوانين المعمول بها في البلاد » . فقد تنكرت الادارة العسكرية « للقوانين المعمول بها في البلاد » وادخلت القوانين والانظمة الهندية . وجيء للمنطقة بضباط وأفراد شرطة ليحلوا محل الشرطة العثمانية . وأسست محاكم على الطراز البريطاني ـ الهندي لتطبيق القوانين الهندية ، واختفى القانون المدني التركي ، وقوانين الجزاء والاثبات واصول المحاكمات . وهكذا لم تتصرف بريطانيا في العراق تصرف دولة احتلال ، بل اعتبرت العراق امتداداً لمستعمرة الهند . ولكنها لم تعامل سكان العراق كرعايا بريطانيين أو هنود ، بل اعتبرتهم أصدقاء يسكنون أرضاً معادية ، ثم طبقت عليهم أقسى قوانين السخرة والمصادرة والاحتكار[1] .

وفوجيء المسؤولون البريطانيون في العراق بانباء ثورة الشريف الحسين بن علي . فقد عملت الادارة البريطانية من قبلُ على مطالبة العرب بالوقوف على الحياد الموالي لبريطانيا ، ولم ترحب بقيام ثورة عربية على الأتراك . وعندما قام عرب كربلاء والنجف بثورتهم على الأتراك في أواخر سنة ١٩١٥ وأوائل سنة ١٩١٦ تركتهم القيادة البريطانية لمصيرهم دون أن تحاول استغلال هذه الثورة ومساعدتها[2] . واعتقد الانجليز أن تدخل العرب في القتال الى جانب القوات البريطانية يُعقّد التسوية النهائية مع العدو . كما اعتبرت الادارة الهندية ابن سعود زعيم العرب الاصلي الذي قام بالدور المطلوب منه خلال الحرب ، وهو تجميد نشاطه ومنع ايصال المساعدات الى الأتراك . ولم تحاول القيادة البريطانية الاستفادة من العدد الكبير من الأسرى العرب ، الذين وقعوا بيدها لتطويعهم في الجيش العراقي ، الذي تركته مؤلفاً من الهنود والانكليز فقط ، بل ارسلتهم الى فيصل

---

(١) عبد الرحمن البزاز ـ المرجع السابق : ص ٧٩ ـ ٨٨ : الحكم المباشر البريطاني في العراق .
(٢) عبد الله فهد النفيسي : « دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث » بيروت . دار النهار ـ للنشر ـ ١٩٧٣ ـ ص ٨٥ وما بعدها .

لينضموا الى الجيش العربي في الحجاز ، بينما كان الضباط العراقيون الذين اطلقت بريطانيا سراحهم يشكلون الدعامة الأولى للقوة العسكرية النظامية التي قادها فيصل .

وبلغ من وقاحة الحاكم العام أن أكد لحكومته «بكل ثقة» أن البلاد «لا ترغب في خطط الاستقلال الكاسحة المنوه عنها» . وعاد الحاكم البريطاني عام ١٩١٨ ليؤكد من جديد : « قد تمكنا باحتلال ما بين النهرين من أن ندق اسفيناً في العالم الاسلامي ، وبذا حلنا دون تجمع المسلمين ضدنا في الشرق الاوسط . ويجب . . أن نحافظ على (هذا) الاسفين . . وان لا تندمج (العراق) سياسياً في سائر بلاد العالم العربي أو العالم الاسلامي بل تبقى منعزلة بقدر المستطاع لتصبح مثلاً للبلاد الاخرى . . . »[1] .

وكان القرار الذي اتخذه المؤتمر العراقي في دمشق في ٨ آذار ١٩٢٠ حول استقلال العراق ووحدته مع سورية ، ومبايعة الامير عبد الله ملكاً عليه ، ضربة قاسية للسياسة البريطانية ، فجاء ردّ وزير الخارجية البريطانية كرزون قاطعاً بالنفي ، اذ قال في برقية أرسلها الى الملك حسين والى ابنه الامير عبد الله « ان الحكومة البريطانية لا تعتبر العراقيين التسعة والعشرين الذين اجتمعوا في دمشق ممثلين عن العراق . إن مؤتمر السلم وحده هو الذي سيقرر مستقبل العراق ، بعد الرجوع الى رغبات الأهالي »[2] . ونتيجة لهذا الموقف كان لا بدّ أن تصطدم مصالح بريطانيا مع مصالح الشعب العراقي . ومما زاد من خطورة الموقف ، القراراتُ التي اتخذت في مؤتمر سان ريمو (١٨ ـ ٢٥/ ٤/ ١٩٢٠) حول الانتداب على العراق ، ولا سيما بخصوص نفط منطقة الموصل . اذ جاءت هذه القرارات تدعيماً دولياً للاتفاقات السرية التي أبرمت خلال الحرب بين الدولتين الاستعماريتين : فرنسا وبريطانيا العظمى . وكان نظام الانتداب هذا شكلاً جديداً من الاستعمار القديم وبديلاً عنه . وقد شعر سكان العراق بخطورة هذه القرارات على مستقبل بلادهم السياسي والاقتصادي ، وبدأوا بالاستعداد لمعارك الاستقلال الوطني . وتمّ التقارب بين مختلف الطوائف في العراق ولا سيا في بغداد وكربلاء ونجف والموصل . لأن الجميع قد أيقنوا أن الانكليز لم يأتوا الى العراق ، إلاّ ليبقوا فيها وليس لتحرير البلاد من الظلم التركي . وقد شعر البريطانيون بما يتهيأ من طرق المعارضة لاحتلالهم ، فقرروا منذ الثالث من أيار ١٩٢٠ حالة الطوارىء في بغداد . ولكن هذا التدبير لم يثن عزيمة المقاومة . وبينما طلب محمد جعفر أبو تمام من رجال قبائله في منطقة الفرات الوسطى، أن يتهيأوا للجهاد أو للمقاومة، اصدر المجتهد الأكبر منذ مطلع آذار ١٩٢٠ فتوى لأهل

---

(١) راجع بيير روسّي (عراق الثورات) باريس ١٩٦٢ ـ ص ٨٧ .

(٢) راجع « الوثائق البريطانية » المجلد ١٣ ـ ص ٢٣٩ . برقية كرزون الى اللنبي رقم ٢٩٢ في أول نيسان ١٩٢٠ .

الشيعة ، بتحريم قبول أي وظيفة حكومية في الادارة البريطانية ، ثم انتخبت لجنة مشتركة سنية - شيعية للاتصال بالحاكم المدني البريطاني ويلسون ، وتقديم عريضة تطالب بتشكيل مجلس وطني ، يُنتخب حسب قانون الانتخاب العثماني ويكون له السلطة التشريعية الكاملة ، والصلاحيات بتشكيل حكومة وطنية حسب البلاغ الانكليزي - الفرنسي المعروف[1] . وقد أثرت حالة الهيجان والاضطراب في سورية ، على الوضع في العراق ، لا سيما بعد أن عزم بعض الضباط العراقيين الموجودين في سورية ، نقل المعركة الى أراضي العراق . فقام جميل المدفعي مع جماعة من رجاله ومن قبيلة شمر ، باحتلال بلدة تل عفر الواقعة على مسافة ٤ أميال غربي الموصل في ٣/ ٦/ ١٩٢٠ . فقتل الضابط السياسي مع ملازم أول وغيرهما من الضباط والجنود البريطانيين ، ولما سارعت السلطات العسكرية بارسال النجدة ، نُصب لها كمين وقُتل منها ضابطان وأربعة عشر جنديا بريطانيا ، ثم أرسلت قوة عسكرية جديدة من الموصل احتلت بلدة تل عفر وطردت جميع سكانها وجُلّهم من الأبرياء . وشكلت هذه الحادثة بادرة خطيرة للثورة التي ما لبثت أن اندلعت في جميع مقاطعات العراق[2] .

فبدأت الثورة في العراق بحادثة الرّميثة ، التي تعتبر فاتحة الجهاد العراقي ضد الاستعمار البريطاني بتاريخ ٢٩/ ٦/ ١٩٢٠ ! اذ قام فريق من قبيلة الطوالم بالهجوم على سرايا الحكومة في الرميثة وأطلقوا سراح شيخهم شعلان أبي الجون المعتقل هناك . وفي الوقت ذاته قامت عشائر أخرى في السماوة وحاصرت الحامية البريطانية وقلعت الخطوط الحديدية المؤدية اليها ، فجرت معارك كبيرة بين رجال العشائر والقوات البريطانية والهندية ، التي أتت للنجدة ، ووقعت اشتباكات كثيرة في التعينة المعروفة بالعارضيات التي تقع على بعد ٦ أميال من الرميثة . وقد كان لهذه المعارك صدى كبير في العراق وفي مجلس العموم البريطاني ، فقامت قبائل الشيعة في لواء الملتفق جنوبي العراق ، وأعلنت الجهاد المقدس . وطبعت منشورات معادية للانكليز في مطبعة كربلاء . وقد جاء في أحد هذه المنشورات ، ردّ عنيف على ما كان قد صرح به لويد جورج من أن حملة فلسطين كانت آخر حملة صليبية وأعظمها شأناً . أما في بغداد ، فاتبعت الثورة أسلوباً آخر في مناهضة الاستعمار البريطاني ، وركزت على الناحية الحقوقية الدولية . اذ طالبت بتحرير

---

(١) راجع وثائق وزارة الخارجية البريطانية : F.o 371/5071 وF.O.371/5228 وF.O.371/5227

(٢) راجع أ.ت . ويلسون « بلاد ما بين النهرين » (١٩١٧ - ١٩٢٠) . لندن ١٩٣٠ - ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . ثم راجع فيليب . و . ايرلاند : « العراق » لندن ١٩٣٧ - ص ٢٥٨ - ٢٥٩ . وراجع أيضا في هذا السبيل : « الوثائق البريطانية » : F.O.371/5129 ، وراجع أيضا من الدراسات العربية : عبد الله فهد النفيسي : « دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث » . المذكور سابقا ص ١٣٢ - ١٣٣ وخيرية قاسمية : « الحكومة العربية في دمشق » ص ١٨٧ - ١٨٩ مع الحواشي .

العراق من السيطرة الأجنبية طبقاً لحقوق الشعب في تقرير مصيره . وأخيراً في الموصل ، كانت خسائر الجيش البريطاني كبيرة ، مما اضطر القيادة البريطانية الى تقديم توصية بالانسحاب من ولاية الموصل[1] ، وتتابعت الاعمال العدائية ضد القوات البريطانية في العراق الجنوبي من جبهة الشامية ، فحوصرت أبو صخير في ١٣ تموز وتم احتلال الكوفة بعدئذ ، بينما قامت دعوة واسعة لاثارة القبائل المحيطة بالحلة ، وكانت هذه الاعمال قائمة ، بينما كانت الحالة في سوريا مضطربة ، خلال الازمة بين فيصل والجنرال غورو (من منتصف تموز حتى احتلال دمشق في ٢٥ تموز ١٩٢٠) ، ولم تقتصر الثورة على مناطق الفرات ، ولو أن الفرات الأوسط شكل أعظم ميادين الجهاد ضد الانكليز ، فقامت أعمال ثورية كذلك في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء . كما جرت حوادث دامية أخرى في قضاء الفالوجة وحوصرت السامراء وثارت القبائل الكردية في الشمال واحتلت السعدية وخانقين . كما قامت حكومة مؤقتة في مندلي[2] . واستمرت هذه الثورة خلال شهري تموز وآب ، اضطرت خلالها القواتُ البريطانية الى التجمع في مناطق معينة ، كي تتهيأ فيها للهجوم واعادة الاوضاع الى ما كانت عليه .

وفي أواخر شهر أيلول استطاعت القوات البريطانية القضاء تدريجياً على الثورة فاستعادت المدن . وهدأت الخواطر في الألوية ، وفي أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٢٠ كانت الأمور قد عادت الى نصابها واستتب النظام والأمن حسبما يشتهي البريطانيون .

ويرجع الفضل في ذلك ، الى الطريقة السياسية الجديدة التي اتبعتها الحكومة البريطانية ، ابتداء من أول شهر تشرين الاول ، اذ عُيّن السير بيرس كوكس مندوباً سامياً على العراق ، مزوّداً بصلاحيات واسعة لانتهاج سياسة حكم غير مباشر على العراق . وهنا يبدأ الملك فيصل بلعب الدور الاساسي في تاريخ العراق الحديث ، بعد أن كُلّف باقامة حكم عربي ملكي تحت الانتداب البريطاني .

ففي ١١/ ١١/ ١٩٢٠ عُين نقيب الاشراف في بغداد عبد الرحمن الكيلاني لتولّي رئاسة أول حكومة عراقية وطنية تحت الاشراف البريطاني . وقامت هذه الحكومة المؤقتة باصلاحات ادارية منها : تقسيم العراق الى وحدات ادارية (محافظات وأقضية ونواحٍ) ، وشُكلت بلديات باشراف الحكام الاداريين . وفُصل القضاء عن السلطة التنفيذية . وعُيّن موظف عراقي لكل وحدة ادارية والى جانبه مستشار بريطاني . وكان النقيب الكيلاني معروفاً باعتداله السياسي وبمرونته الادارية .

---

(١) راجع ويلسون المرجع المذكور سابقا ص ٢٧٧ - ٢٧٩ . عبد الرحمن البزاز « العراق » المذكور سابقا ص ١٠٢ . عبد الله فهد النفيسي المذكور سابقا ص ١٣٥ - ١٤٠ .

(٢) عبد الرحمن البزاز : « العراق » صفحة ١٠٣-١٠٥ .

وقامت الحكومة باصلاحات اخرى ، حاولت بها اعادة النظام والحياة الدستورية إلى البلاد ، وقد عبر المندوب السامي عن مهمات الحكومة الاساسية ، منها : اصدار قانون انتخابات ، وانشاء مجلس وطني يمثل الشعب بانتخابات حرة . كل هذا بغية انشاء حكومة عربية دائمة . كانت هذه المهمات جميعاً غايتها تهيئة الظروف لاعلان الملكية وانتخاب فيصل ملكاً على العراق .

ولما دُعي فيصل لزيارة لندن ، طرحت قضية الادارة العربية في العراق ، كما طرحت قضية مستقبل شرقي الاردن . وكان فيصل خلال اقامته في ايطاليا ، قد استفاد من خبراته السياسية السابقة في التعامل مع الانكليز ، وبالتوصل الى صورة عملية للتعامل السياسي معهم ، منها الابتعاد عن العزلة والسلبية ، واتخاذ جميع الاساليب الممكنة لاخذ المطاليب الاساسية والمطالبة بما هو ممكن .

وبدأت المفاوضات بينه وبين ممثلي وزارة الخارجية البريطانية في ٢٣/ ١٢/ ١٩٢٠[١] . وفي جلسة ٦ كانون الثاني ١٩٢١ طرحت قضية العراق وعرش العراق . وكانت هناك صعوبة أساسية تتصل بشخص شقيقه الامير عبد الله ، الذي كان المؤتمر العراقي في دمشق قد بايعه بهذا العرش كما ذكرنا سابقاً ، وكان موقف فيصل غاية في الوضوح والاعتدال والمرونة ، اذ قال للمسؤ ولين البريطانيين : أنه لا يذهب الى العراق الا اذا رغب الناس به ، ورفضت الحكومة البريطانية أي تعامل مع أخيه عبد الله ، لانه يعمل من أجل القضية العربية مع توثيق الصلات مع بريطانيا . وكان اللواء نوري السعيد قد سبق فيصلاً الى العراق ، وعين رئيساً للاركان والشرطة تحت الاشراف البريطاني . فأنشأ حال وصوله في ٦/ ١/ ١٩٢١ النواة الاولى للجيش العراقي .

ومما جعل فيصل يقبل بعرش العراق تحت ظل الانتداب البريطاني ، الصورة الواقعية التي توصل اليها خلال مباحثاته مع المسؤ ولين البريطانيين ، فقد كتب رسالةً الى أخيه زيد في ٢٥/ ١/ ١٩٢١ يطلعه فيها : « على أنه قد تم بينه وبين الانكليز اتفاق على انشاء حكومتين عربيتين في العراق والاردن . لأن السياسة في نظره هي أولاً وآخراً منافع مشتركة ، ولذا فقد رضي ذلك اليوم بعرش العراق تحت ظل الانتداب البريطاني ، بينما رفض سابقاً عرش سورية مع الانتداب الفرنسي . وقال لاخيه حرفياً : « فالعقل يقضي أن نأخذ اليوم ما يمكننا أخذه . . . »[٢]

---

(١) راجع وثائق وزارة الخارجية البريطانية F.O.371/6238 . وراجع ايضا كتاب سليمان موسى . « صفحات مطوية مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا ١٩٢٠ - ١٩٢٤ » . عمان ١٩٧٧ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١

ولما عين تشرشل وزيراً للمستعمرات في منتصف شهر شباط ١٩٢١ ، أُوكل اليه أمر توجيه السياسة البريطانية في الشرق الاوسط ، بعدما كانت تتأرجح بين دائرتي وزارة الخارجية ووزارة الهند ، فانشأ في وزارته دائرة الشرق الاوسط ، وهيأ لمؤتمر القاهرة السبيل لتسوية قضايا العراق والعالم العربي الواقع تحت السيطرة الانكليزية . ففي ١٢/ ٣/ ١٩٢١ عقد مؤتمر القاهرة ودعي اليه كبار موظفي العراق البريطانيين . فحُلّت قضية العراق على أساس اختيار حاكم له ، يعالج القضايا الاساسية ، فيعطى للعراقيين قدراً كبيراً من الحكم الذاتي ، ويأخذ على عاتقهم مسؤولية الحكم ، وتقرر فيه تعيين فيصل حاكماً عربياً للعراق . ومما جاء في رسالة بعث بها تشرشل الى رئيس الوزارة لويد جورج : اذ أن أفضل من يمكن تتويجه ملكاً على العراق هو الامير فيصل . . . ولست أشك شخصياً في أن اختيار فيصل ، سيوفر لنا أحسن الفرص لتخفيض نفقاتنا في العراق ، لان الوضع في العراق شديد التعقيد ولا سيما من جهة عدد الذين يطالبون بالعرش . . . ومن بين أبناء الشريف حسين فنحن متفقون على أن الأمير فيصل يفوقهم . . . »[1] .

وهكذا أصبح فيصل من أقوى المرشحين للعرش العراقي[2] . فوصل فيصل الى العراق من جدة في ٢٣/ ٦/ ١٩٢١ ، حيث نزل في البصرة ، وفي ٥ تموز أصدر المندوب السامي بلاغاً الى العراقيين ، يشرح فيه سياسة بريطانيا العتيدة في العراق ، وبيّن أيضاً الاسباب التي من أجلها فضّلت الحكومة البريطانية فيصلاً على بقية المرشحين .

وفي ١١/ ٧/ ١٩٢١ قررت الحكومة المؤقتة بالاجماع ، المناداةَ بفيصل ملكاً دستورياً على العراق . ولكن فيصل والمندوب السامي رغبا أن يتمّ تصديق هذا القرار باستفتاء شعبي . وجرى التصويت ، فنال فيصل ٩٦٪ من الاصوات ، وتقرر تنصيبه ملكاً على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١ يوم ذكرى الغدير . وقد شدّد الملك في خطاب التتويج ، على أن مهمته الرئيسية هي اجراء الانتخابات والدعوة الى انعقاد المجلس التأسيسي » .

***

---

(١) راجع الوثائق البريطانية . F.O.371/6350

(٢) راجع آيرلاند « العراق » المذكور سابقا ـ ص ٣٠٢ ـ ٣١١ . « والبزاز » ص ١٢١ ـ ١٢٤ .

تأسيس أمارة شرقي الأردن

«كل عربي يعلم انكم يا أبناء سورية تستنصرونه وتستشيرون حميته ليأتيكم مسرعاً ملبياً مقبلاً غير مدبر، ومن حيث قد توالت علينا الدعوات، وصمّت آذاننا الصرخات، فها أنا قد أتيت مع أول من لباكم نشارككم في شرف دفاعكم لطرد المعتدين على أوطانكم بقلوب ذات حمية وسيوف عدنانية هاشمية» - ١ -

«عبد الله بن الحسين»

لم تمض سوى أيام معدودات على مغادرة فيصل لدمشق ودرعا ، حتى تساءلت السياسة البريطانية عن مصير سورية الجنوبية الواقعة جنوبي بلدة درعا . فقد أرسل المندوب السامي البريطاني في فلسطين هربرت صموئيل الصهيوني رسالةً في ٣٠ تموز عام ١٩٢٠ ، الى وزير الخارجية في لندن اللورد كرزون ، يسأله فيها عن مستقبل ادارة البلاد الواقعة شرقي نهر الاردن ، وجنوبي المنطقة الفرنسية ، وعن مصير بلدة درعا بالذات . فجاءه الجواب عاجلاً في ٦ آب ، حيث ابلغته الوزارة ان منطقة النفوذ البريطاني تتوقف عند مدينة درعا ، ولكن ينبغي منع الفرنسيين من توسيع نفوذهم الى الجنوب من هذه المدينة ، لأن هناك احتمالاً باحتلال المدن الواقعة في هذه المنطقةالجنوبية . ولكن سوف لا

---

(١) الآثار الكاملة : ص ١٥٧ .

تسمح الادارة البريطانية للفرنسيين بممارسة سلطاتهم ، جنوبي الخط الفاصل بين منطقتي نفوذهم ومنطقة النفوذ البريطاني حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو . ثم تطرقت البرقية الى نقطتين هما أساس السياسة البريطانية في شرقي الاردن ، أولاً : استقلال هذه المنطقة ، مع الحفاظ على صبغتها العربية ، ثانياً : تعيين أحد أبناء الملك حسين عليها . وكانت النية تتجه آنذاك الى تعيين الامير زيد[1] . وعندما وصل فيصل الى حيفا ومكث فيها ، من أول آب حتى ١٨ منه ، جاءته وفود كثيرة من منطقة شرقي الاردن ، وطلبت منه أن يقبل أن يكون أميراً على الاردن ، رغم معارضة السلطات البريطانية لهذا الاتجاه . وكان رأي المندوب السامي البريطاني بالاتفاق مع الوزارة ، أن يسافر فيصل الى عمان ومنها الى المدينة المنورة كما ذكرنا سابقاً ، ولكنه رفض هذا الاقتراح وعزم على التوجه الى ايطاليا . وكان جواب الوزارة البريطانية بالسماح له . وابلغ فيصل (ان حكومة بريطانيا تأمل أن تحين لها الفرصة في المستقبل كي تظهر له ودها ووفاءها لما قام به من حسن التعاون معها في الماضي) .

وكانت الحكومة الفرنسية قد سعت الى توسيع رقعة سلطتها حتى منطقة السلط وشرقي الاردن . وقد تنبهت الوزارة البريطانية الى هذه النية ، بناء على معلومات وردتها في ١٩٢٠/٨/٦ من المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، واعتماداً على برقيته كتب اللورد كرزون الى سفيره في فرنسا : « ان الفرنسيين لم يحتلوا القنيطرة فحسب وهي من المناطق التابعة لهم بل عينوا حكاماً لحوران والسلط . . . الخ واستدعوا جميع شيوخ الكرك للقدوم الى دمشق . . . وبذلك فانهم قد نقضوا الاتفاقية بيننا . فيجب عليك أن تلفت نظرهم في الحال الى المسألة ، وتبلغهم أننا لا نستطيع الاعتراف بأية حقوق للفرنسيين في تلك المنطقة »[2] .

نستنتج من هذه البرقية أن الحكومة البريطانية ، كانت مصممة على الاحتفاظ بهذه المنطقة ، وعلى اعطائها الشكل السياسي الذي تريده ، وقد ظلت متمسكة بهذه السياسة رغم محاولات مندوبها السامي في فلسطين هربرت صموئيل ، بتوسيع رقعة الوطن القومي اليهودي الى شرقي نهر الاردن وشمالاً الى منابع اليرموك .

ولما وقعت فرنسا وبريطانيا معاهدة سيفر في ١٩٢٠/٨/١٠ ، تخلت تركيا عن حقها في المناطق العربية ، وخلا الجو لبريطانيا للتصرف بها في اطار سياستها العامة . فعاد صموئيل الى سياسته الداعية الى احتلال شرقي الاردن ، والى دمجها بفلسطين ، ووضعها

---

(١) سليمان موسى « تأسيس الامارة الاردنية ١٩٢١ ـ ١٩٢٥ » . عمان ١٩٧١ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

تحت الحكم البريطاني المباشر ، ولكن الوزارة البريطانية ظلت تعارض هذه الفكرة الصهيونية[١] .

وعلى الرغم من هذا الموقف الرسمي ، حاول صموئيل ان يستميل أهالي واعيان شرقي الاردن الى سياسته ، ولما لم يتجاوبوا معه صرح لهم بما كانت تنويه الحكومة البريطانية ، أعني انشاء ادارة منفصلة عن فلسطين ، غير تابعة للحكم العسكري ، مع وجود بعض الضباط السياسيين العرب للمشورة في الاعمال الادارية . وعلى أثر هذا الاجتماع الذي عقد في ١٦/ ٨/ ١٩٢٠ ، جاء خبر مقتل علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن يوسف في حوران (محطة خربة الغزالة) ، وتسربت أنباء تجمع الفرنسيين للزحف على المنطقة الجنوبية من سورية ، فعم الخوف قلوب أهالي شرقي الاردن من تشفي الفرنسيين منهم اذا دخلوا البلاد ، سيما وان الادارة البريطانية قد وعدتهم بالادارة المحلية الذاتية ، المستقلة تماماً عن ادارة فلسطين،ووعدتهم خصوصاً بعدم نزع السلاح منهم، وبعدم تجنيدهم في الجيش ، مع تشجيع التجارة ، والتلميح الى امكانية تنصيب أحد أبناء الملك حسين[٢] . وقد أكد وزير الخارجية البريطانية لصموئيل في ٢٦/ ٨/ ١٩٢٠ عزم الحكومة على عدم تحمل مسؤ ولية ادارة شرقي الاردن بصورة مباشرة ، وبعدم توسيع مسؤ ولياتها في هذه المنطقة العربية ، وتابع يقول : يجب أن تصر على الالتزام بالمساعدة المحدودة جداً التي تستطيع تقديمها الى الادارة المحلية في شرقي الاردن[٣] . وفي هذه الاثناء أعلن الجنرال غورو انشاء دولة لبنان الكبير في أول ايلول ١٩٢٠ ، وكانت هذه نقطة تحول في السياسة الفرنسية حيال سورية الغربية الساحلية ، وفي اليوم التالي أي في ٢/ ٩/ اجتمع رؤ ساء القبائل في منطقة عجلون مع الميجر سمرسيت في بلدة ام القيس ، وقدموا مطاليبهم الاساسية بمذكرة خطية اجابهم عليها المسؤ ول البريطاني خطياً . ومن أهم ما جاء في مذكرة الزعماء العرب : المطالبة بتأليف حكومة عربية وطنية مستقلة ، تضم لواء الكرك ولواء السلط ، وقضاء عجلون وقضاء جرش (مع الالحاح على ضم حوران وقضاء القنيطرة) وذلك تحت انتداب بريطانيا العظمى ، وتبعاً لشروط معينة : أن يترأس هذه الحكومةَ أميرٌ عربي ، وأن لا تكون لها صلة أو علاقة بحكومة فلسطين ، وان تمنع الهجرة اليهودية تماماً الى أراضيها ، وان يُمنع بيع أراضيها من اليهود . وان يكون لها جيش وطني خاص . وان تحافظ على ايواء السياسيين السوريين اللاجئين اليها . وان يكون شعارها

---

(١) راجع برقية اللورد كرزون الى هربرت صموئيل في ١١/ ٨/ ١٩٢٠ رقم ٨٠ في المرجع السابق ص ٢٠ ـ ٢٣ .

(٢) راجع محضر الاجتماع الذي جرى في مدينة السلط يوم ٢١/ ٨/ ١٩٢٠ في المصدر السابق ص ٢٨ ـ ٣٠ .

(٣) راجع المصدر السابق . البرقية رقم ١١٠ ص ٣٠ ـ ٣١ .

العلم السوري في عهد حكومة فيصل ، وان تمدها بريطانيا بالسلاح ، وان تتعهد بريطانيا بالدفاع عنها اذا حاول الفرنسيون الاعتداء على أراضيها ، وأن يكون لها معتمدون في الخارج ، وأخيراً ، أن تكون بريطانيا منتدبة على عموم سوريا تأميناً للوحدة ، فأجاب الميجر البريطاني بالموافقة على بعض هذه الشروط ، منها : تأليف حكومة عربية مستقلة تحت الانتداب البريطاني ، ومنع الهجرة اليهودية ، واستعداد بريطانيا لتقديم السلاح لقاء ثمن . أما فيما يتعلق ببقية الشروط فقد أوعز اليهم بمراجعة المندوب السامي في فلسطين[1] . وعلى أثر هذا الاجتماع تألفت حكومات محلية في شرقي الاردن وفي عجلون ومركزها اربد ، وفي السلط والكرك .

واستعانت هذه الحكومات المحلية بمستشارين بريطانيين ، وفي أثناء هذه التطورات المحلية ، كانت الحكومة البريطانية تلح على الملك حسين للموافقة على المعاهدات الدولية المتعلقة بالبلاد العربية . وكان رفضه حاسماً رغم حجب كافة المعونات المالية عنه . وبلغت الحالة من السوء بحيث كتب المعتمد البريطاني في جدة الى حكومته في ١٤/ ٩/ ١٩٢٠ « يجب أن احذركم ان الملك يتباعد عن الخط المعقول أكثر فأكثر ، وهو يزداد خروجاً عن حدود الامكان يومياً . فهل هناك أي احتمال لتوجيه الدعوة اليه كي يتنازل عن الملك »[2] .

وكانت اضطرابات سورية قد وصلت الى اوجها ، فكتب عدد كبير من الوطنيين الى الملك حسين ، يطلبون اليه ايفاد أحد انجاله كي يتزعم هذه الحركة الوطنية الخارجة لمقاومة الفرنسيين، وفي مقدمة هؤلاء ، عودة أبو تايه الشهير ، والامير عادل ارسلان ، وسعيد خير . وفي الخامس عشر من ايلول أنبأ الملك حسين الجنرال اللنبي بهذه الرسائل وما وصلت اليه الحركة الوطنية في سورية . أما في مكة فقد استقر رأي الملك حسين على ارسال ابنه عبد الله ليترأس حركة المقاومة . واوعز اليه بالذهاب الى معان (وكانت الى ذلك الحين واقعة ضمن أراضي الحجاز) . فغادر عبد الله مكة في أواخر أيلول مع حرس كبير ووصل معان في ٢١/ ١١/ ١٩٢٠ ، بينما كانت القوات البريطانية في العراق تتهيأ لاسترجاع مراكزها بعد الثورة العراقية الكبرى . وكانت دوائر الاستخبارات البريطانية قد علمت بنبأ قدوم الأمير الهاشمي ، وهو لا يزال في طريقه من مكة الى معان ، واعلمت

---

(١) راجع النص الكامل لهذه الوثيقة الهامة في كتاب سليمان موسى : « تاريخ الاردن في القرن العشرين » . عمان ١٩٥٩ ص ١٠٦ - ١٠٩ وراجع أيضا : ايتوري روسّي « الوثائق » ص ١٠١ - ١٠٢ السابق الذكر .

(٢) سليمان موسى : « صفحات مطوية . مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا ١٩٢٠ - ١٩٢٤ » . عمان ١٩٧٧ ص ٢٦ . حيث يعطي مرجع الوثيقة : وزارة الخارجية البريطانية 22 / F,0,882

القيادة البريطانية العسكرية في مصر وزارة الحربية البريطانية في لندن بذلك . بينما أبرق صموئيل من القدس الى حكومته في اليوم التالي ، عن نبأ قدوم الامير عبد الله لتنظيم حركة المقاومة ضد الفرنسيين . ولم تلبث وزارة الخارجية البريطانية ان هدّأت روع صموئيل ، باعلامه بحقيقة الامر ، إذ أبرقت له قائلة : « انها لا تعتقد ان الامير عبد الله سيتجاوز معان والعقبة ، وانه لن يعمد الى اثارة الاضطرابات بالنظر لزيارة فيصل المقبلة الى لندن » ، أما في الواقع فقد اهتمت كل من فرنسا وبريطانيا بهذه الحركة . لا بل احتجت الحكومة الفرنسية وحذّرت لندن من عواقب هذه الحركة[1] . وكانت قد وجهت الدعوة للامير فيصل لزيارة لندن بتاريخ ١٣/ ١١/ ١٩٢٠ . ولما وصل الامير عبد الله الى معان في ٢١/ ١١/ ١٩٢٠ ، استقبلته القبائل والعشائر بحماسة وتهليل ولا سيما الشيخ عودة أبو تايه ، كما جاء للالتحاق به عدد كبير من الضباط العرب الوطنيين . وقد أعلن الاميرُ نفسَه نائباً عن أخيه فيصل ملك سورية الشرعي المنفي حالياً . كما أرسل الدعوة الى جميع أعضاء المؤتمر السوري المنحل للالتحاق به ، وفي عزمه أن يتابع النضال ، وليؤلف حكومة سورية في المنفى ، فاصدر منشوراً تاريخياً الى أهالي سورية يعلمهم بما جاء لأجله ويقول فيه :

الى اخواننا السوريين :

« لا أجد في نفسي أدنى ريب أو أقل شبهة ، في أن أبناء الوطن السوري سيتلقون بياناتنا بقلوب ملؤها التصديق والاخلاص . فليعلم أبناء سورية أن ما أصابهم من الضياع المحزن ، من اعتداء رجال الاستعمار الفرنسي على وطنهم ، ومبادرتهم بسرعة فظيعة غريبة لهدم عرشهم ، في أول سعيهم لتشكيل حكومتهم ، التي وضعت أساسها على سياسة الولاء والصداقة لكل الامم على الاطلاق ، قد أثر على حواس كل عربي على وجه الارض . وفي الوقت نفسه نعلم علماً يقيناً أن أبناء سورية الكرام ، هم من جملة المفاخر العربية وركن من الجامعة القحطانية والعدنانية ، لا يرضون بالذل ولا ينقادون الى من جاء لاهانتهم في عقر دارهم ، وانهم لا يعذرون أبناء جنسهم اذا منعوا عنهم يد المعاونة والمدد في مثل هذه الآونة الخطيرة » .

« كل عربي يعلم أنكم يا أبناء سورية تستنصرونه وتستثيرون حميته ، ليأتيكم مسرعاً ملبياً مقبلاً غير مدبر . ومن حيث توالت علينا الدعوات وصمت آذاننا الصرخات ، فها أنا قد اتيت مع أول من لبّاكم نشارككم في شرف دفاعكم ، لطرد المعتدين على أوطانكم بقلوب ذات حمية وسيوف عدنانية هاشمية » .

---

(١) راجع البرقيات في كتاب سليمان موسى : « صفحات مطوية » ص ٣٣ - ٣٤ .

ليعلم من اراد اهانتكم ، وابتزاز أموالكم ، واهانة علمكم ، واستصغار كبرائكم ، أن العرب كالجسم الواحد اذا شكا منه عضو تداعت له جميع أطراف الجسد بالسهر والحمى . وان الله سبحانه وتعالى لم يترك الامة سدى ، متفرقة بالباطل مغرورة بالكذب وواهن القول » .

« ليعلم أبناء سورية أن هؤلاء المعتدين ، قد عدّوكم من جملة من أدخلوه تحت عار استعمارهم ، ووضعوكم في مصاف الزنوج والبرابرة . وظنوا انكم لستم من ذوي الغيرات واصحاب الحميات . كيف ترضون بأن تكون العاصمة الاموية مستعمرة فرنسية ؟ ! . . ان رضيتم بذلك فالجزيرة لا ترضى ، وستأتيكم غضبى . وان غايتنا الوحيدة هي ، كما يعلم الله ، نصرتكم واجلاء المعتدين عنكم » .

« وها أنا ذا أقول ، ولا حرج ، بأنني قد قبلت تجديد بيعة مليككم فيصل الأول ، عن الأكثرية الغالبة التي جددت تلك البيعة على يدي ، وانني سأعود إن أبقاني الله حياً ، الى وطني يوم نزوح عدوكم عن بلادكم ، وعلى هذا ، اليمين بالشرف . وأمركم حينئذ لكم وبلادكم بين أيديكم ، متعكم الله فيها بالعز والسؤدد والرفاهية والمجد » .

« أتينا لبذل المهج دونكم ، لا لتخريب البلاد كما يُفترى علينا . وكفانا دليلاً صدقُ بلائنا في الله والجنسية والوطن ، وتعريض النفس للاخطار والمحن ، وما وضعه عليكم ذلك المستعمر من الضمانات المثقلة إثر اعتدائه عليكم لدليلٌ لا يحتاج الى دليل » .

« أتاكم ذلك المستعمر ليسلبكم النعم الثلاث : الايمان والحرية والذكورية . أتاكم ليسترقكم فتكونوا غير أحرار . أتاكم ذلك المستعمر ليأخذ منكم أسلحتكم فتكونوا غير ذكور . أتاكم ليخيفكم بقوته وينسيكم أن الله بالمرصاد فتكونوا غير مؤمنين » .

« لذا ندعوكم للحياة والاجتماع والذبّ عن الوطن ، وعدم الاصغاء لكل دسيسة تفلُّ من عزمكم أو تبدد حميتكم » .

« وأستعين الله لي ولكم في ما نحن بصدده » .

(عبد الله بن الحسين)

ولكن الاستجابة لم تكن مشجعة بما فيه الكفاية . ولم يلبث الأمير أن تبين « أن الحركة ان لم تكن مؤيدة بالمال ، فانها لا تقوم لها قائمة[1] » ولم يكن الأمير يملك مالاً حتى أنه اضطر أن يقترض ثلاثة آلاف ليرة من عودة أبو تايه .

---

(١) الملك عبد الله بن الحسين : « الآثار الكاملة » ص ١٥٦ - ١٥٨ .

إن أنباء وصول الأمير الى معان ، جعلت الفرنسيين في سورية ، والانكليز في فلسطين ، يحسبون للأمر حسابه ، ويتخوفون من قيام فتن واضطرابات . ففي ٢٩ تشرين الثاني أبرق صموئيل ينبيء كرزون بوصول الأمير الى معان ، وفي اليوم التالي أبرق يقول أن « رسائل بالنيابة عن عبد الله أرسلت الى حوران ، تدعو الاهلين الى الثورة ضد الفرنسيين . وقد صدرت التعليمات لضباطي بأن يثنوا الناس في شرقي الاردن عن الانضمام لأية حركة من هذا النوع ، ولكن بما أننا لا نملك قوات عسكرية في المنطقة فاننا لا نستطيع القيام بعمل مؤثر[١] . . . » .

وأبلغت وزارة الخارجية فيصلاً مضمون برقية صموئيل ، وطلبت اليه الاتصال بأبيه لايقاف الحركة . وفي ٤ كانون الاول طلب الملك جورج من فيصل عند استقباله له ، أن يطلب من أبيه « توقيف كل حركة ضد فرنسا في جنوبي سورية » . وعندما أبرق فيصل الى أبيه بهذا الطلب أبلغه أيضاً أن « الوضعية حسنة جداً . قريباً ابشر جلالتكم إن شاء الله » ، وان ايقاف الحركات العدائية ضد الفرنسيين « مهم جداً بالنسبة للمفاوضات التي يمكن أن أجريها مع الحكومة البريطانية[٢] » .

ونُشر في مدن شرقي الاردن ، بيان يقول أن الحكومة البريطانية « سوف تشجب بكل شدة » أية حركة يقوم بها الجيش العربي ضد الافرنسيين[٣] . وكان قد سبق الامير عبد الله الى عمان ، الشريفُ علي بن الحسين الحارثي ومعه عدد كبير من الافراد السوريين والعراقيين ومن شيوخ المنطقة ، فطلب من الاهالي المشاركة في العمل والاستعداد للجهاد ومقاومة الفرنسيين وتخليص الوطن من استعمارهم ، وقال : « انه جاء الى عمان موفداً من قبل الامير عبد الله (قائد الجيوش الثورية السورية) ، وانه سيزحف الى الشمال عندما تتم الاستعدادات الضرورية . وكان لا يخفي موالاته للبريطانيين ويصرح أنهم أصحاب الحركة الثورية[٤] .

وهكذا وضعت المسألة السورية من جديد على بساط البحث ، لدى الرأي العام المحلي ولدى المحافل الدولية ، وتجنباً لصعوبات سياسية وعسكرية تم الاتفاق بين المندوب السامي صموئيل وحكومته البريطانية ، على أن توزع نشرات في جميع مناطق شرقي الاردن

---

(١) البرقية رقم ٤٠١ المؤرخة ٣٠/ ١١/ ١٩٢٠ F,0,686 / 78

(٢) برقيتا فيصل الى الحسين بتاريخ ٤ و ١٣ كانون الاول ١٩٢٠ - (أوراق الامير زيد) .

(٣) سليمان موسى : « تأسيس الامارة الاردنية » ص ٥٨ - ٦٥ حيث نجد نص هذه الوثائق والبرقيات كاملة .

(٤) سليمان موسى في كتابه « تأسيس الامارة الاردنية » ص ٦١ - ٦٢ وصفحات مطوية . . ص ٣٣ .

تشجب هذه الحركة شجباً قاطعاً[1] . وفي ٨/ ١٢/ ١٩٢٠ جرت اتصالات بين الامير عبد الله ومصطفى كمال اتاتورك بواسطة غالب بك الشعلان . وقد علمت المخابرات البريطانية بهذه الاتصالات وخشيت أن تكون وراء هذه الحركة خطط وتعليمات من البولشفيك[2] . وعادت الدوائر البريطانية في لندن تحمل الامير فيصل على الاتصال بوالده كي يوقف أية حركة عدائية في شرقي الاردن ، رغبة منها في تسهيل المفاوضات حول العراق . فرجا فيصل أباه أن يبرق للملك جورج أن الاجراءات السريعة قد اتخذت لايقاف الحركة[3] ، لان الحكومة البريطانية عازمة على بذل كل ما في وسعها لتحقيق أماني العرب وأماني الملك حسين . وبناء على هذه الاتصالات فوض الحسين الامير فيصل باجراء المفاوضات مع البريطانيين : « على أساس أن لا يؤثر ذلك على حدود البلاد والاستقلال التام الذي لا تشوبه شائبة » .

وعلى أثر ذلك أرسل الامير فيصل أحد أعوانه ، وهو صبحي الخضرا الى عمان يحمل توصياته لأخيه عبد الله . وبدأت المفاوضات بين الامير فيصل والبريطانيين في لندن بتاريخ ٢٣/ ١٢/ ١٩٢٠[4] .

واستمرت المفاوضات في لندن الى حين تسلم تشرشل لوزارة المستعمرات التي أنيط بها حلّ المسائل العربية ، وفي أثناء هذه المفاوضات ، حاول المندوب السامي صموئيل أن يحمل حكومته على احتلال شرقي الاردن لضمها لفلسطين ، وابعاد الامير عبد الله عنها فباءت محاولاته بالفشل ، وكان الامير فيصل من ناحيته يلحّ على الوزارة البريطانية بضرورة التوصل الى تفاهم مع أبيه ، والى تسوية القضية العربية والسورية تسوية مرضية للجانبين . وقد أتى خلال المفاوضات الى ذكر الاتفاق بين الحلفاء والأتراك ، وقال : « ان العرب الذين حاربوا في صفوف الحلفاء ، أحق من الأتراك في أن يصلوا الى نتيجة تضمن حقوقهم ومصلحة الحلفاء » وقد كتب فيصل في أثناء هذه المفاوضات رسالة الى أخيه زيد في ١٩/ ١/ ١٩٢١ يوضح فيها سياسته فقال له : « انها تعتمد على عدم ترك الكل لأجل البعض ، وانه يرى أنه لا بدّ من اتباع سياسة المراحل » . وكتب مجدداً في ٢٥/ ١/ ١٩٢١

---

(١) البرقيات بين المندوب السامي صاموئيل في ٣/١٢/ ١٩٢٠ وحكومته في ٧/ ١٢/ ١٩٢٠ سليمان موسى ـ المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢) راجع عبد الله بن الحسين : « الآثار الكاملة » ص ١٥٩ وسليمان موسى « تأسيس الامارة الاردنية » ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٣) راجع نص الوثائق لدى سليمان موسى : « صفحات مطوية » ص ٣١ .

(٤) نص المفاوضات بكاملها ، راجع سليمان موسى : « صفحات مطوية » ص ٣٤ وما بعدها مع مصادر الوثائق البريطانية .

الى أخيه زيد يعلمه فيه نتيجة المفاوضات ، فقال : « لقد تم الاتفاق مبدئياً بيننا وبين الانكليز على انشاء حكومتين عربيتين في العراق وشرقي الاردن »[1] .

ولما قدم تشرشل الى القاهرة لعقد مؤتمر القاهرة ، أبلغ الامير عبد الله أنه سيكون مسروراً اذا أتيحت له الفرصة للاجتماع به في القدس ، وكان الملك عبد الله قد غادر معان ووصل الى عمان في ١٩٢١/٣/٢ حيث استقبل رسمياً وشعبياً . وعندما اعترض صاموئيل على قدومه ، أبرقت الوزارة موعزة له أن يرسل مندوباً عنه للترحيب بالامير ، اذ قالت له : « ان الامير عبد الله يعتبر مبعوثاً من قبل الملك حسين ، ويمكن أن نفترض أن قدومه الى عمان يهدف الى ايقاف الدعاية الواسعة التي ينشرها مصطفى كمال ضد الفرنسيين » . وكانت هذه فاتحة سياسة جديدة تجاه الأمير وتجاه مصير شرقي الاردن . وعندما التأم مؤتمر القاهرة تقرر انشاء دولة مستقلة ، دولة عربية مستقلة في شرقي الاردن تُستثنى من أحكام الانتداب وتصريح بلفور . واتخذ القرار التالي :

« تؤلِّفُ منطقة شرقي الاردن مقاطعةً عربية تابعة لفلسطين يحكمها حاكم عربي يستمد سلطته من المندوب السامي البريطاني » . وبعد أن انتهى مؤتمر القاهرة ، توجه تشرشل الى القدس وأجرى محادثات مع عبد الله خلال ثلاثة أيام في ٢٨ ، ٢٩ ، ١٩٢١/٥/٣٠ ، وقد صحب الامير عبد الله الى القدس عدداً كبيراً من الزعماء الاستقلاليين العرب ، منهم : عوني عبد الهادي رئيس ديوانه ، ورشيد طليع من كبار الاداريين السوريين ، وأحمد مريود ، وغالب الشعلان . وقد تمخضت المحادثات بين تشرشل وعبد الله عن الاتفاق على ما يلي :

١ ـ تؤسس في شرقي الاردن حكومة وطنية برئاسة الامير عبد الله .

٢ ـ تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالاً تاماً .

٣ ـ تساعد بريطانيا هذه الحكومة مادياً لسد نفقات قوة عسكرية غايتها توطيد الأمن .

٤ ـ تسترشد برأي مندوب بريطاني يقيم في عمان .

٥ ـ يتعهد الامير عبد الله بمنع الاعتداءات من شرقي الاردن ضد سورية وفلسطين .

٦ ـ تنشيء بريطانيا مهبطي طائرات في عمان وزيزياء .

---

(١) سليمان موسى : « صفحات مطوية » ص ٤١ .

٧ ـ تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الامير عبد الله والسلطة الفرنسية في سورية .

٨ ـ يعتبر مشروع الاتفاق بمثابة تجربة مدتها ستة أشهر ، فإن كان ملائماً للطرفين استمر العمل به والاّ أعيد النظر فيه .

وكان الامير عبد الله قد أعرب عن اعتقاده بأن أفضل سبيل لحل المشاكل في المنطقة ، هو توحيد فلسطين وشرقي الاردن تحت رئاسة عربي ، فرفض تشرشل ذلك لتنفيذ التزامات حكومته للصهاينة . فرأى الامير ومرافقوه أن مبادىء الاتفاق هذه ، تشكل خطوة ايجابية في مصلحة العرب فوافقوا عليها ، وعاد الامير عبد الله الى عمان ، وهكذا أسست الامارة الاردنية ، وكان تشرشل قد أعرب عن أمله في التوصل الى اقناع الفرنسيين بقبول عبد الله في المستقبل أميراً على سورية ، بعد أن يتأكدوا من نجاح ادارته وتعاونه معهم في شرقي الاردن .

***

الفصل العاشر

استنتاجات عن الثورة العربية الكبرى

منذ ان تبوأت الامارة
وضعت امام عيني هذا الغرض
الاسمى الا وهو تحرير العرب فلم
ادخر وسعا لتحقيق تلك الغاية
ومن اجل ذلك وطدت
العلاقات بيني وبين كبار
القبائل العربية -١-

- الحسين بن علي -

تعتبر الثورة العربية الكبرى نقطة انعطاف في تاريخ العرب الحديث ، وفي هذا يقول الملك عبد الله « ان للعرب تاريخين : قديماً انقضى باندثار دولهم . وجديداً ابتدأ من الثورة الأخيرة التي قام بها الشريف حسين بن علي في مكة المكرمة ، وسميت بالنهضة العربية في الحرب العالمية الأولى ، وكان القصد منها ايجاد دولة واحدة عربية ، تحمل شرف الشرق العربي مرة ثانية على عاتقها ، وتخوض غمار الحياة مع الأمم الحية جنباً الى جنب . . هذا هو الهدف الذي دفع الحسين بن علي الى الانضمام الى صفوف القائلين بلزوم الانفصال عن المجموعة العثمانية ، فالثورة العربية انتهت منتصرة في الحرب العالمية الأولى ، ولكن

---

(١) مذكرات جمال باشا - ترجمة علي أحمد شكري - بيروت عام ١٩٣٣

خُذلت بعد الحرب ، لأن حلفاءها خانوها ودعوا الى انتدابات فرضت خلافاً لعهودها[1] » .

وحتى نكون منصفين للتاريخ ، لنحكم للثورة العربية الكبرى أو عليها ، علينا أن نستعين بالحكمة التي طرحها الرئيس ماوتسي تونغ الذي يعتبر من أبرز المناضلين في التاريخ المعاصر . .

يقول الرئيس الراحل ماوتسي تونغ : « اذا أردت أن تعرف نفسك هل أنت على حق أم على باطل ، في أية قضية من القضايا ، فانظر الى رد فعل العدو ازاء العمل الذي قمت به . . فاذا كان العدو مغتبطاً من عملك فاعلم أنك على خطأ وعليك أن تصحح المسيرة . . أما اذا كان العدو مغتاظاً من عملك فاعلم أنك على صواب ويجب أن تتابع المسيرة[2] » . ولكي أستخدم حجر المحك[3] هذا في موضوع الثورة العربية الكبرى ، رجعت الى ما كتبه القادة الأتراك حول هذا الموضوع بالذات ، وخصوصاً مذكرات جمال باشا الكبير ، وجمال باشا الصغير ، فوجدت الحقد الأعمى في كل سطر من كتاباتهم على الشريف حسين وأولاده ، فآمنت ايماناً لا يتطرق اليه الشك ، أن الحسين بن علي كان على حق في مناصبته العداء للأتراك ، وفي امتشاقه السيف من أجل تحرير الأمة العربية وتوحيدها . .

وسأروي فقرة واحدة من مذكرات جمال باشا تأكيداً على كل ما ذكرت . .

. . « واني وايم الله لو علمت ذلك وقتئذ ، لكنت أمرت غير متراخ بالقبض على فيصل في دمشق ، وعلى أخيه في المدينة ، ولأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة ، للقبض على الشريف حسين وأولاده ، والقضاء على تلك الثورة المشؤومة في مهدها . ولكن ماذا عساي كنت أفعل في تلك الظروف ، ولم تكن لدي بعدُ البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التي كان يقوم بها أولئك الأشخاص[4] » .

هذا غيض من فيض ، ولو أردت سوق الشواهد المؤيدة لهذه النظرية لأتيت بالعديد منها ، ولكن رحمةً بالقارىء فقد آثرت أن أكتفي بما ذكرت . .

---

(١) راجع : زين زين : « الصراع الدولي في الشرق الاوسط » المذكور سابقا ص ١٤٦ .

(٢) راجع الكتاب الاحمر مقتطفات من اقوال الزعيم ماوتسي تونغ ، دار النشر باللغات الاجنبية بكين : ص ١٦ .

(٣) حجر المحك : الحجر الذي يختبر به الذهب لمعرفة زيفه من اصالته .

(٤) مذكرات جمال باشا : المذكورة سابقا ص ٣٨٨ .

ولقد رأيت من المناسب تقسيم الاستنتاجات عن الثورة العربية الكبرى الى الفقرات التالية :

آ ـ الثورة العربية الكبرى والوحدة القومية .

ب ـ الثورة العربية الكبرى والمجتمع الدولي .

جـ ـ الثورة العربية الكبرى وعرب آسيا وافريقيا .

د ـ الثورة العربية الكبرى في الميزان العسكري .

هـ ـ الخلاصة .

آ ـ الثورة العربية الكبرى والوحدة القومية

« ان هذه امتكم أمة واحدة[1] » هذا ما جاء بـه القرآن الكريم على لسان النبي العربي محمد بن عبد الله (ص) الذي وحّد الامة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف لأول مرة في تاريخها . . وقام الاسلام على سواعد العرب ، وتم نشر الرسالة السماوية في مشرق الأرض ومغربها في أقل من قرن واحد ، وسطعت شمس العرب على العالم أجمع . . كل ذلك ما كان ليتم لو لم تتوحد الامة العربية في دولة واحدة ، ولذلك فلا غرو اذا اعتبر المناضلون كافة ، أن هدف الوحدة العربية يجب أن يسبق الأهداف الأخرى مهما كان شأنها . .

فعندما يتوحد العرب يكون الخير كل الخير لأمتنا العظيمة . . وعندما يتفرقون أيدي سبأ يكون الشر والكوارث والنكبات . .

ومن هنا جاء اهتمامُ الشريف حسين بن علي قائد الثورة العربية الكبرى بقضية الوحدة . . واعتبرها الهدف الذي يجب أن يعقب هدف التحرير من نير الأتراك ، لأنه لا يمكن أن تقوم الوحدة وجنود الاعداء يسرحون ويمرحون في ربوعنا . .

واذا تصفحنا الرسائل التي بعث بها الشريف حسين الى مكماهون ، نرى أن صورة الدولة العربية المتحدة المستقلة تطغى على غيرها من الموضوعات . .

لقد اعتقد الشريف حسين أن المراسلات التي تبادلها مع مكماهون ، تؤلف اتفاقاً تعاهدياً ملزماً للطرفين . ولكن خلال الأعوام ١٩١٦ ـ ١٩١٨ وقعت أحداث كبيرة ، بعثت الشكوك في نفس الحسين ، فأرسل في ٢٨ آب ١٩١٨ رسالة الى ريجنالد ونجت ،

---

(١) سورة الانبياء ، الآية : ٩٢ .

حدّد مفهومه لذلك الاتفاق التعاهدي ، وطلب أن تصارحه الحكومة البريطانية بحقيقة موقفها منه . وهذه الرسالة ذاتُ أهمية خاصة لأن الشريف حسين جعلها منذ ذلك الحين قاعدة ثابتة له لا يتزحزح عنها قيد أنملة . .

شدد الشريف حسين على القول أن الاتفاق مع الحكومة البريطانية يضمن النقاط الخمس التالية :

١ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخلها وخارجها ، وتكون حدودها شرقاً بحر فارس ، وغرباً بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الابيض المتوسط ، وشمالاً ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات والدجلة ومصبهما في بحر فارس ، ما عدا مستعمرة عدن ، فانها خارجة عن هذه الحدود ، وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات ، التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود ، وبأنها تحل محلها في رعاية وصيانة تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها ، أميراً كان أو فرداً من الأفراد .

٢ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة ، وصيانتها من أي مداخلة كانت بأي صورة كانت في داخليتها ، وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعدٍّ كان ، وبأي شكل يكون ، حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الاعداء ، أو من حسد بعض الأمراء ، فهي سوف تساعد الحكومة المذكورة مادةً ومعنى على دفع ذلك القيام في حين اندفاعه . وهذه المساعدة في القيامات والثورات الداخلية ، تكون مدتها محدودة أي لريثما يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية .

٣ ـ تكون البصرة تحت اشغال العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية . ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود ، يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية التي هي في حكمها قاصرة في حضن بريطانيا . وتلك المبالغ تكون في مقابلة تلك الاشغال .

٤ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب .

٥ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من (مرسين) أو ما هو مناسب من النقاط في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها .

وقال الشريف في رسالته أنه قام بالثورة على أساس هذه المبادىء ، وأنه يود أن يعلم فيما اذا كانت الحكومة البريطانية ، تعتزم الوفاء بتعهداتها ، وأعطى الشريف أسباباً ثلاثة

تكمن وراء اصراره على تحقيق مبادىء الاتفاق :

آ ـ المحافظة على كيان العالم الاسلامي . بعد زوال الامبراطورية العثمانية .

ب ـ أن لا تتهم بريطانيا بأنها أغرت العرب للثورة على أبناء دينهم ، ثم تخلت عنهم ونكثت عهدها معهم .

جـ ـ أن لا يُتّهم الشريف بالتواطؤ مع بريطانيا على عدم تحقيق الأهداف التي ثار العرب من أجلها .

وقال الشريف أن أكثر ما يقلقه ويهمه ، هو قضية حدود البلاد العربية ، وأنه لا يجد بدأً من الانسحاب اذا لم تف بريطانيا بالتزاماتها ، أو اذا أرادت اجراء تعديل في مبادىء الاتفاق الاساسي[1] .

ان ما يهمنا في هذا المجال هو أن الملك حسين قام بالثورة ، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن الوحدة العربية ستكون من جملة نتائجها ، فكيف كان تصور الملك حسين لبناء تلك الوحدة ؟ . .

ان الوثائق التي بين أيدينا تدل على أن الملك حسين ، كان يتصور وحدة بين الاقطار العربية المتعددة ، ترتبط مع بعضها البعض بروابط تشبه روابط الوحدة بين الولايات الامريكية المتحدة ، بحيث يتمتع كل قطر بالاستقلال المحلي ، بينما تتولى الحكومة المركزية السياسة الخارجية والدفاع والعلاقات الاقتصادية مع الدول الاخرى .

وكانت المناداة بالشريف حسين في ١ تشرين الثاني ١٩١٦ ملكاً على البلاد العربية ، أول خطوة عملية لاضفاء صفة الشرعية على قضية الوحدة والاستقلال ، وكما رأينا في الفصول السابقة أن الدول العظمى آنذاك لم تتلق هذه المبادرة الكريمة بقبول حسن ، لغاية في نفسها ، ولذلك لم تعترف حكومات بريطانيا وفرنسا وروسيا بالحسين (ملكاً على الحجاز فقط) الا بعد أربعين يوماً . « ان حكومة جلالته ومعها حكومتا فرنسا وروسيا ، مع أنهما تعتبران سموكم الرأس الاسمى للشعوب العربية في ثورتها ضد مساوىء الحكم التركي ، ومع سرورها بالاعتراف اعترافاً واقعياً بأن سموكم الحاكم الشرعي والمستقل للحجاز ـ الا أنها لا تستطيع الاعتراف باللقب (الذي اعلنتموه) ، والذي يمكن أن يثير التفرقة بين العرب في الوقت الحاضر ، ومن ثم يعيق التسوية السياسية النهائية لقضايا الجزيرة العربية على أسس مرضية . . . ذلك أن التسوية النهائية يجب أن تتم بموافقة

---

(١) راجع سليمان موسى : « المراسلات التاريخية ١٩١٤ ـ ١٩١٩ » المجلد الثاني ـ رقم ١٧٠ ـ ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

الزعماء العرب الآخرين ، وهي موافقة لا دليل عليها في الوقت الراهن ، وهي تسوية يجب أن تتبع لا أن تسبق النصر في ميدان الحرب » .

وترغب حكومة جلالته أن تلفت انتباه سموكم الى النقاط التالية :

« تلاحظ الحكومة البريطانية أن اللقب الذي اتخذتموه سيادتكم ، يقوم على أساس قومي وليس على أساس الاقطار ، وهي تسجل ما صدر عنكم من أن ابن سعود والسيد الادريسي يحكمان بلديهما ، وانه لا رغبة لسموكم في التدخل في شؤ ونهما . وتلاحظ حكومة جلالته أنكم تركتم قضية الخلافة للعالم الاسلامي ، ليقرر فيما بعد من الذي يحتل هذا المنصب الخطير . وهي تتفق مع هذه الخطة الحكيمة . ولا تستطيع الدول المسيحية التي لها رعايا يعدون بالملايين من المسلمين ، ان تضع نفسها في موضع المتهم أمام هؤلاء الرعايا ، اذا بدا لهم أنها تعاضد هذا الخليفة ضد الخليفة الآخر ، بل ان معاضدة كهذه ستلحق الضرر بكم فى انظار العالم الاسلامى[1] » .

وقد أوضح الشيخ فؤاد الخطيب لهوجارث في ١١ شباط ١٩١٧ أن الملك لم يخطر له أبداً عندما أعلن الثورة ، أن نشاطه سيقتصر على الحجاز . . لأن الحجاز لا يكفي نفسه . . وأن الملك يعتقد أنه لا بد من ضم العراق وسورية الى الوحدة ، وقال : ان فلسطين« جزء ثابت من المملكة العربية » وأوضح فؤاد تصور الملك حسين للحكم الذاتي فقال : ان الملك يرغب بأن يحكم كل قطر عربي نفسه بنفسه تحت سيادته ، وأن الامام يحيى وابن سعود والزعماء الكبار في البادية السورية ، يحكم كل واحد منطقته ، وكذلك المناطق السورية « ولبنان قلب سورية » ، ونفهم من تلك الأقوال أن الملك حسين كان ينوي أن يجعل دمشق عاصمة الدول العربية الموحدة[2] .

وكتب ونجت الى بلفور أن الملك حسين يستهدف انشاء كتلة عربية تضم شبه الجزيرة وسورية والعراق ، وأن يتزعم تلك الكتلة رئيساً اسمياً وخليفة للمسلمين ، وهو يقصد من ذلك ارضاء المطامع العاطفية للقوميين العرب ،« ان هدفه الذي يرمي الى تحقيقه هو وضع الاسس لاتحاد دول عربية وأن يوطد حق العرب التقليدي في تسلم الخلافة[3] » .

---

(١) راجع سليمان موسى : « المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ »رقم ٦٠ ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) تقرير من هوجارث بعنوان « مستقبل الحركة العربية » بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٧ F.O, 882/12

(٣) تقرير رقم ١٢٩ بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩١٨ F.O, 341/338

وقد طبق الملك حسين سياسة الاستقلال الذاتي عملياً بالنسبة الى سورية ، فقد أبرق لفيصل في اليوم الثاني من دخوله الى دمشق قائلاً : يجب أن يحكم السوريون بلادهم حسب العرف والتقاليد السائدة بينهم ، وأردف بعد ذلك قائلاً : « ان أبناء البلاد أعرف بعرف بلادهم . . واني اذا ذكرت أبناء سورية فلا فرق بين أحد منهم بمذهب أو غيره ، بل كلهم في نظري سواء ، لأن وحدة القومية هي جامعة التفاهم وتبادل المصالح والمنافع . وطالما قلت أن العرب عرب قبل أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين ، فالبلاد لأهلها يتمتعون بكل حقوقها ، ويجنون من كل ثمراتها ، فلا يفرق بينهم في الحقوق والواجبات والأخذ بوسائل الكسب والتمتع بالثمرات أي سبب من الأسباب[1] » .

وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩١٨ بعث الملك حسين الى المعتمد البريطاني بنص مشروعه الذي يراه أساساً لانشاء الوحدة العربية ، وقد أوضح في هذا المشروع نوع العلاقة التي كان يرى أن تقوم بينه وبين كل امارة من الامارات العربية .

ومع ان الملك حسين كان يعتبر نفسه أجدر الزعماء العرب ، بتولي رئاسة الدولة العربية الموحدة ، الا انه كتب للمعتمد البريطاني يقول : « ان هدفه الأكبر والوحيد هو تحقيق وحدة عربية تحت رئاسة زعيم واحد ، وانه اذا تم تحقيق هذا الهدف فهو مستعد لأن يقبل[2] . مع أن المصاعب في وجه الوحدة العربية ، ما لبثت أن ازدادت وتعقدت بعد اتفاق سايكس ـ بيكو ووعد بلفور ، ولذلك رأينا كيف واجه الملك فيصل في باريس ولندن تآمر الحلفاء وغدرهم . وعندما أعلن فيصل استقلال سورية في ٨ آذار ١٩٢٠ نتيجة لقرار المؤتمر السوري ، وتلى ذلك اعلانُ استقلال العراق ، فان الملك حسين لم يكن راضياً في قرارة نفسه عن هذا التصرف ، الذي اعتبره في ذلك الحين ردة انفصالية ، وحجر عثرة في طريق الوحدة العربية الشاملة ، وقد شارك الملك حسين ـ في هذا الرأي ـ عدد كبير من العاملين في الحقل القومي آنذاك . .

كانت محاولة الشريف حسين ومن معه من القوميين العرب ، لانشاء دولة عربية واحدة للعرب الآسيويين ، أول محاولة من نوعها في تاريخ العرب الحديث . . ولكن لماذا أخفقت هذه المحاولة ؟ . . لماذا لم تحقق ولو جزءاً مما قامت في الأصل لتحقيقه ؟ . .

الواقع أن ذلك يعود لسببين :

الأول : ذاتي ويخص العرب أنفسهم .

---

(١) راجع جريدة القبلة ، تصريح الملك حسين : العدد ٢٢٠ ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ .

(٢) من ولسون الى ونجت رسالة مؤرخة في ٢٣ كانون الاول عام ١٩١٨ F O, 626 / 63

والثاني : خارجي ، ويخص بريطانيا وفرنسا والدول الأخرى .

وسنتكلم في هذا المجال عن السبب الأول ، لأن السبب الثاني سيأتي الكلام عنه عند بحثنا عن الثورة العربية الكبرى والمجتمع الدولي .

علينا أن نعترف وبكل شجاعة ، أن الأنانية وحب الذات والتعصب القبلي والاقليمي ، مرض من أمراض الزعامات العربية ، وعلى جميع العرب أن يناضلوا لكي تختفي هذه الأمراض والى الأبد من نفوس قادتنا ، والا كيف يمكننا أن نتصور الوحدة العربية حتى في المستقبل المنظور ، اذا كانت هذه الأمراض ما تزال تعشعش في رؤوس القادة والرؤساء ؟ .

لقد تألمت حتى العظام وأنا أقرأ مذكرات أحمد جمال ، الذي يشير بشكل واضح الى هذه الناحية السلبية في أخلاقنا ومناقبنا .

يقول أحمد جمال : « وكانت في أخلاق العرب نقطة ضعف كبرى ، اذ لا يكاد أحدهم يصبح ذا حظوة ، أو يكون مقدماً على غيره ، حتى تشتعل نار الغيرة في صدور الآخرين ، فيعمدون الى أعمال التهييج ضده[1] » .

فالزعماء العرب يومذاك كانوا الصورة والا نموذج للزعماء العرب اليوم ، مع فارق بسيط في الشكل وليس في الجوهر . .

كانت العصبية القبلية هي العصبية الغالبة ، ولم يكن الوعي القومي قد انتشر وأخذ أبعاده ، لكي تحل العصبية القومية محل العصبية القبلية ، ومن هنا نرى أن الشريف حسين وابن السعود وابن الرشيد والامام يحيى والادريسي . . لم يكن في واقع الأمر كل منهم سوى زعيم قبلي كبير ، يقف على رأس هرم من القبائل الكبيرة والصغيرة . . الفرق الكبير والوحيد هنا هو أن الشريف حسين تبنى هدف المثقفين والمفكرين العرب ـ الذين لم يكن لهم حول أو طول ـ ، وأخذ يعمل بكل ما يملك من قوة منصبه الديني ، وزعامته التقليدية على قبائل الحجاز ، من أجل تحقيق هذا الهدف ، ولكن الزعماء الكبار المحيطين بالحجاز لم يروا في موقف الحسين الا جانب العصبية القبيلة ، ولم يكن الحسين في نظرهم سوى رجل شديد الطموح ، يود بوسائل متعددة أن يبسط نفوذه وزعامته على أقطار خارج زعامته التقليدية في الحجاز . . ولو أن هؤلاء الزعماء عاضدوا الشريف حسين بدلاً من أن يقفوا في وجهه ، وتركوه يفاوض الدول العظمى باسمهم جميعاً ، ويتصدى للسلطة العثمانية باسمهم جميعاً ، لكان موقف الامة العربية اليوم غير الصورة التي نراها الآن . .

---

(١) مذكرات جمال باشا المذكورة سابقا ص ـ ٣٥٥ .

لأن العرب لو كانوا قوة واحدة ، فالحلفاء لم يكونوا قادرين على فرض الانتداب على سورية والعراق ، وعلى تمزيق الامة العربية الى كيانات مصطنعة هزيلة . . كما أن الصهيونية لم تكن قادرة على زرع اسرائيل في قلب وطننا العربي العزيز . .

وفي الوقت الحاضر ، وبعد مرور نصف قرن ونيف على الثورة العربية ، نرى بكل أمانة ، أن قضية الوحدة العربية ، ما تزال في مقدمة الأهداف التي يجب أن يناضل العرب من أجل تحقيقها ، خصوصاً عندما تطرح الصهيونية التحدي المباشر للأمة العربية ، بغرسها اسرائيل في قلب الوطن العربي ، لتفصل مشرقه عن مغربه وحتى لا تقوم للعرب دولة واحدة تشمل عرب آسيا وافريقيا .

ان امتلاك الامة العربية لثلاثة أرباع مخزون النفط العالمي ، سيجعل بلادنا ميداناً للتنافس والابتزاز والنهب ، اذا نحن لم نتوحد ونصبح قوة عظمى ، يخافنا العدو ويحترمنا الصديق ، وبذلك فقط يمكن أن تكون ثرواتنا لخدمة الامة العربية وليس لخدمة الطاغوت .

ومما لا ريب فيه أن إخفاق عدد من التجارب الوحدوية في الماضي ، قد انعكس انعكاساً سلبياً على تصورات مفهوم الوحدة ، وعلى شروط قيامها وآفاقها المستقبلية .

فمن جهة أولى رأى بعض الذين ينطلقون من منطلقات لا قومية في تعثّر هذه التجارب ، برهاناً عملياً على ضعف فكرة الوحدة من الاساس ، وتأكيداً مباشراً على أنها فكرة خيالية لا تستند على معطيات واقعية ، وبذلك قلبوا الحقيقة وعكسوا الواقع ، ذلك أن هذه التجارب الوحدوية رغم تعثّرها واخفاقها ، كانت في حينها اثباتاً لإمكان قيام الوحدة بين الأقطار العربية ، ونفياً عملياً للفكر اللاقومي .

ومن جهة أخرى استقر في بعض الأذهان ـ بنتيجة تعثر هذه التجارب الوحدوية ـ أن سبب انهيار هذه التجارب ، كامن في أن الشروط الموضوعية لقيامها لم تكن متوافرة بعد ولذلك مالوا ـ بدافع من الخوف على الوحدة من الانهيار في المستقبل ـ الى وضع شروط متزايدة في الصعوبة لقيامها ، حتى أصبحت الوحدة غير مقبولة في نظرهم ، الا اذا كانت بين قطرين متماثلين تماثلاً تماماً ، والا اذا كانت بالتالي خالية من كل شائبة ، وبذلك وقعوا في دائرة فكر خيالي سطحي يقول بحتمية الوحدة العربية عندما تتوافر الظروف الموضوعية لقيامها ، ويقعد بانتظارها متوهماً أنها يمكن أن تأتي من تلقاء نفسها على طبق من ذهب .

ان اقامة الوحدة عمل قومي بكل معنى الكلمة . . ولذلك فان الوحدة لا يمكن أن تنتظر عملية تطور بطيئة تنضج فيها كل الظروف الموضوعية لاقامتها ، ولا بد من مواصلة

النضال بلا هوادة ، للقضاء على كل معوقات الوحدة وعلى كل جذور التجزئة ، ولا بد من الاستفادة من كل فرصة سانحة لاقامة الوحدة . وفي ظل الوحدة يمكن أن نحقق التقدم وبناء الدولة المعاصرة .

وعلينا أن لا نكفر بالوحدة مهما كانت العقبات والصدمات ، التي تأتينا من هنا وهناك ، لأن ايجابيات الوحدة (أيٌّ وحدة) هي ، قولاً واحداً ، أكثرُ من سلبياتها . . وكمثال على ذلك ، الاتحادُ الثلاثي الذي قام بين سورية ومصر وليبيا فإليه يرجع الفضْل الأول في صنع مجدنا العربي في حرب تشرين التحريرية ، ولولا الاتحاد لما نشأ المناخ الملائم بين مصر وسورية لتوجيه ضربة مشتركة على الجبهتين الشرقية والغربية ، هذه الضربة التي أصابت اسرائيل بالزلزال على حد قول قادتها الصهاينة .

وأفضل دليل على أهمية الوحدة العربية « أن العدو الصهيوني ينظر الى خطواتنا الوحدوية ويعطيها ما تستحق من الأهمية . والمؤتمرات الصهيونية منذ بدئها وبشكل مستمر ، تنظر الى الوحدة العربية على أنها العدو الأول ، لأنها تزيد طاقتنا وتجعل امكانات انتصارنا ، امكانات أكيدة ، وهو يقيم هذه الخطوات من خلال تصوره لعمله السياسي والعسكري والاقتصادي ، ومن خلال تصوره لمجموع العوامل التي تعزز كيان اسرائيل ، لذلك تقوم استراتيجيته في المجالات المختلفة على تمزقنا في الحرب كما في السياسة[1] » .

واذا نظرنا الى التقارب السوري الاردني وجدنا أن العدو الصهيوني يضعه من الأهمية بمكان ، وها هي اذاعة العدو تقول أن سورية تريد اقامة جبهة متصلة من العقبة الى رأس الناقورة .

وبكلمة واحدة : إما أن نعود للتاريخ ونكتب حضارة العرب من جديد ، وهذا لا يتم الا بالأمة العربية الموحدة القومية ، والا فان مصيرنا لا يمكن أن يحسدنا عليه أحد .

ب - الثورة العربية الكبرى والمجتمع الدولي

يعتبر اخراج القضية العربية الى حيز الوجود ، على ميدان السياسة العالمية ، أحد المنجزات الكبيرة التي حققتها الثورة العربية الكبرى . لقد عالج العرب قبل الثورة قضاياهم ، وكتبوا الكثير في شأن مصيرهم وفي علاقة الأتراك بالسلطنة العثمانية ، ولكن ذلك كله كان خارج ميدان السياسة الدولية ، وغير معترف به من قبل أية قوة كبرى . . فقد كانت معظم الأقطار العربية خاضعة للامبراطورية العثمانية ، كجزء لا يتجزأ من

---

(١) مقتطفات من كلمة الرفيق حافظ الاسد في المؤتمر القومي الثاني عشر ، ايلول ١٩٧٥ منشورات القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي .

ممتلكاتها . . أو مرتبطة مع بريطانيا بمعاهدة خاصة ، أو محكومة مباشرة كمستعمرة أو محمية أو تنوء تحت حكم أجنبي مباشر ، وتحسب جزءاً من الدولة الحاكمة (حالة الجزائر قبل الاستقلال) ، وجاء اعلان الثورة يكرس شرعية المطالب العربية ، وحقها في تقرير المصير ، واقامة دولة عربية تشمل أكثر المناطق التي كانت تخضع للدولة العثمانية[1] . .

وعلى الرغم من المرارة التي لاقاها قادة الثورة العربية من المجتمع الدولي ، وبصورة خاصة من الدول العظمى في ذلك الحين بريطانيا وفرنسا وأمريكا (وايطاليا الى حد ما . .) ، لأن هذه الدول كانت تتصرف وفقا لمصلحتها وأطماعها ، وفي السياسة كما يقول دزرائيلي : « توجد مصلحة دائمة ولا توجد سياسة دائمة » فان النتائج التي تمخضت عنها الثورة العربية ، هي أفضل بكثير من الأوضاع التي كانت سائدة قبلها ، لأنه لا أحد يتصور حجم الكارثة التي ستحيق بالامة العربية لو ظلت رازحة تحت نير الحكم التركي البغيض حتى الآن . . وهذا بحد ذاته مؤشر ايجابي الى جانب الثورة . . وسنحاول في هذه السطور القليلة أن نبين دور كل دولة عظمى من الثورة العربية الكبرى ، لأن في شرح هذه الأدوار والمواقف دروساً وعبراً للاجيال القادمة ، حتى تكون عيونها مفتوحة عند التعامل مع غير العرب أنّى كانت مشاربهم وعقائدهم . . لأنه كما يقول المثل السائر « ما حك جلدك مثل ظفرك » .

١ ـ الثورة العربيّة الكبرى وانكلترا :

كانت بريطانيا تهدف من اشعال نار الثورة العربية الكبرى ، الى تحقيق غايتين أساسيتين : سياسية وعسكرية[2] .

الأولى سياسية : وقد تحققت بمجرد اعلان الثورة ، اذ أعطت بريطانيا وحلفاءها المبرر الذي كانوا بحاجة اليه ، لتقديمه الى ملايين المسلمين الذين يحكمونهم . فها هو حفيد الرسول وأمير مكة المكرمة يرفع السلاح في وجه دولة الخلافة ، وها هو يعلن بأن القابضين على زمام الحكم في دولة بني عثمان قد انحرفوا عن الصراط المستقيم . ان الثورة العربية جعلت كفة الحلفاء في أنظار المسلمين تتساوى مع كفة الألمان : واذا كان الألمان يجدون الخليفة والأتراك في صفهم ، فان الحلفاء أخذوا بدورهم يجدون الشريف والعرب الى جانبهم . وفي اليوم الذي أعلنت فيه الثورة ، أصيب سيفُ الجهاد الذي أعلنه الخليفةُ

---

(١) الدكتور نبيه امين فارس : الثورة العربية الكبرى في الميزان في الكتاب المشترك . دراسات في الثورة العربية الكبرى عمان ١٩٦٧ م ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) سنتكلم عن الغاية العسكرية في الفقرة القادمة بعنوان « الثورة العربية في الميزان العسكري » .

بضربة قاصمة قطعته من منتصفه ، ولم يعد بمقدور الأتراك الاستفادة منه بصورة ناجحة حتى في ميدان الدعاية .

ولقد كان الشريف حسين يدرك خطورة الخطوة التي خطاها من الناحية السياسية والدينية ، ولذلك وضع نصب عينيه العمل على تحقيق هدف سياسي كبير ، يوازي في خطورته خطورة القيام في وجه الخليفة ، وفي وجه دولة الاسلام الكبرى ، ولم يكن ذلك الهدف سوى انشاء دولة عربية قوية مستقلة تضم الاقطار العربية الآسيوية . وبمجرد اعلان الثورة دفع الشريف الجزء الأكبر من قسطه المترتب عليه في الاتفاق مع بريطانيا . وسنرى ما اذا كانت بريطانيا قد دفعت بدورها القسط الذي ترتب عليها .

الواقع ان بريطانيا كانت مصممة على الغدر بالثورة وقائدها ، منذ المباحثات الأولية بين الطرفين ، وإن من يقرأ رسائل مكماهون الى الشريف حسين يدرك أي انسان منافق ومخاتل هذا المكماهون .

فمن اتفاق سايكس – بيكو الى وعد بلفور ، الى اتفاق سان ـ ريمو ، الى انزال العلم العربي في بيروت ، الى تسليم سورية الى الفرنسيين ، والانسحاب قبل أن يتم بناء القوات المسلحة في سوريا . . الخ ، كل هذه الأعمال الخسيسة صدرت عن بريطانيا ، وفي تاريخ علاقاتها مع العرب لا يمكن أن نرى فيها سوى العلقم والمرارة والخبث وسوء الطوية .

ثمة مسألة اخرى ، أو بالأحرى موقف قومي قام به الشريف حسين ابان صلاته مع انكلترا . . هذا الموقف هو عدم التورط في التوقيع على أية وثيقة مع الحكومة البريطانية تشكل مساساً بتاريخه القومي ، وقد لاقى وجه ربه منفياً في قبرص ، ورفض بإباء وشمم كافة المغريات البريطانية ، من أجل أن يقبل بالانتداب البريطاني على فلسطين ، والانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، فلتكن هذه المأثرة التي استنها الحسين بن علي درساً لجميع القادة العرب ، حتى لا يتورطوا في التوقيع على أية ورقة أو وثيقة يمكن أن تسيء الى تاريخهم الوطني .

٢ ـ الثورة العربية الكبرى وفرنسا :

كانت فرنسا تضمر الكره للثورة العربية منذ قيامها . ذلك أن الصراع على مناطق النفوذ ، لم يكن قد حلّ بعدُ ، بالاضافة الى أن المراسلات والاتفاقات قبيل نشوب الثورة قد تمت كلها بين الشريف حسين وبريطانيا فقط . . الأمر الذي جعل فرنسا تشعر بحساسية خاصة تجاه الثورة العربية الكبرى وقادتها .

هذا من جهة ومن جهة ثانية ، فان فرنسا كانت تعتبر في مطلع القرن العشرين ، الدولة الاستعمارية رقم (٢) في العالم أي بعد بريطانيا مباشرة ، وكان لها أطماع في المنطقة العربية . ولذلك فان أطماعها تتعارض مع الهدف الأول للثورة العربية ، وأعني بذلك موضوع الوحدة العربية ، ومن هذا المنطلق لم تقدم فرنسا للثورة العربية الكبرى ، الا النزر اليسير سواء من الضباط الفنيين أو من العتاد القتالي ، وقد ذكر الجنرال بريموند في كتابه : (الحجاز في الحرب العالمية) « أن القوة الفرنسية التي أرسلت للاشتراك في القتال مع العرب ، كانت تتألف من ١١ ضابطاً و ٣٥٦ جندياً و ١٠ مدافع و ٦ رشاشات و ٤٧ بندقية ، وقد وُزّعت هذه القوة على جيوش الامراء علي وعبد الله وفيصل ، وفي آذار ١٩١٨ عززت المفرزة الفرنسية في جيش فيصل ببطارية مدفع ٦٥ مم [١] » .

ومن استعراض الأرقام المذكورة من قبل هذا الضابط الفرنسي ، ندرك ان اسهام فرنسا في مساعدة الثورة كان ضئيلا للغاية ، كما أنه كان رمزياً .

ولم يكتم هنري بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك ، عواطفه تجاه الوحدة العربية ، فقال بحقد المستعمر : « انني لا أريد أبداً أن يتحقق هذا الأمل » .

الا أن حقد فرنسا على الثورة العربية ، لم يظهر على حقيقته الا عندما بدأ الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل بتحرير درعا ، والتقدم باتجاه دمشق ، عند ذلك جن جنون الحلفاء وخاصة فرنسا ، وتتالت البرقيات على مقر قيادة الجنرال اللنبي ، وكلها تعزف على نغم واحد مؤداه : « اخنقوا حركة فيصل في مهدها . أوقفوا السيل العربي . . تذكروا اتفاقية سايكس ـ بيكو [٢] » .

أما بقية الأعمال القبيحة الأخرى ، فقد استعرضناها في حينها سواء من حيث عدم احترامها لفيصل بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، أو باحتلالها سورية وارغام فيصل على مغادرتها .

٣ ـ الثورة العربية الكبرى وروسيا :

كانت روسيا من دول الحلفاء في بداية الحرب العالمية الأولى ، وكانت الحكومة القيصرية على اطلاع تام على اتفاق سايكس ـ بيكو بواسطة الكتب المتبادلة . . وبعد قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية في عام ١٩١٧ خرجت روسيا من الحرب . وقد كشف النقاب

---

(١) الجنرال بريموند : « الحجاز في الحرب العالمية » المذكور سابقاً ص ٢٢٦ .

(٢) زين نور الدين زين ، الصراع الدولي في الشرق الاوسط المذكور سابقا ص : ٧٩ .

لأول مرة عن وجود معاهدات سرية في شهر تشرين الثاني ١٩١٧ ، عندما عثر عليها في ملفات وزارة الخارجية الروسية ، وقد أصدر تروتسكي بوصفه وزيراً للخارجية آنذاك أمراً بنشرها . . وقد قال تروتسكي في اجتماع اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييت في بتروغراد - لينين غراد اليوم - : « . . . ان جميع المعاهدات السرية هي الآن في متناول يدي ، وهذه الوثائق ، التي ثبت أن بنودها تنطوي على لؤم يفوق ما كنا نتوقعه ، ستنشر قريباً . . اننا سنكنس جميع هذه الوثائق السرية ونرمي بها في سلة المهملات[١] » .

ولا شك في أن الشريف حسين وقادة الثورة اطلعوا على هذه الوثائق كما مر معنا ، واحتجوا عليها ، ولكن لم يكن بمقدورهم الانسحاب من الحرب ، لأنهم خاسرون في كلا الحالين ، واضافة الى ذلك فان روسيا كانت تلملم جراحها ، ولم تكن لديها أية امكانية لمساندة الثورات الشعبية الا بالكلام والعواطف . . ولذلك لم تتمكن روسيا من مدّيد المساعدة للثورة ، ونجحت بريطانيا وفرنسا في فرض سياستها الاستعمارية على بلاد الشام والعراق .

٤ - الثورة العربية الكبرى والولايات المتحدة الاميركية :

دخلت أمريكا الحرب العالمية الأولى الى جانب الحلفاء ، عندما أخذت بشائر النصر تلوح في الأفق ، ولما لم يتح لها القيام بأي دور عسكري يذكر ، فان أهميتها كانت لا تعادل حجمها المادي في مؤتمر السلم الذي عقد في باريس بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

في الخطاب الذي القاه الرئيس الأميركي ولسن في مجلس الشيوخ في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٧ قال : « لا يمكن للسلام أن يدوم ولا ينبغي له ان يدوم ، اذا لم يكن سلماً قائماً على المبدأ الذي يقول بأن الحكومات تستمد كل سلطاتها الشرعية من رضى الشعب الذي تحكمه ، وأنه ليس هناك من حق يجيز تسليم شعب الى سلطة أخرى . . كأنه متاع . اني أقترح قيام حكومة تقوم على أساس رضى الشعب وقبوله[٢] » .

وبالاضافة الى نقاط الأربع عشرة التي أعلنها في ١٨ كانون الثاني ١٩١٨ ، قال الرئيس ولسون في خطاب له في مجلس الشيوخ بتاريخ ١١ شباط ١٩١٨ ما يلي : « لن

---

(١) وكما ذكرنا سابقا في محله ، نشرت جريدتا (الازفستيا) و (البرافدا) نصوص هذه الوثائق السرية بكاملها في عدديها الصادرين في ت ٢ - ١٩١٧ . وقد وصلت نسخة من هذين العددين الى جريدة المانشستر غارديان البريطانية التي قامت بدورها في ١٢ ك١-١٩١٧ بتقديم ترجمة انكليزية للنص الروسي لهذه المعاهدات السرية .

راجع سليمان موسى : الوثائق التاريخية المذكورة سابقا الجزء الاول ص ٦٧ رقم ١٠٠ - ١٠١ ص ١٥١ - ١٥٣ . ورقم ٢٠٥ ص ٢٣٧ - ٢٤٢ وخاصة ص ٢٣٩ .

(٢) راجع الاوراق المتعلقة بالعلاقات الخارجية الامريكية عام ١٩١٤ الملحق رقم١ : العالم ص ٢٤ - ٢٩ المذكور سابقا .

يكون هناك ضم أراضٍ ، ولا هبات ،ولا الحاق ضرر بقصد العقاب . ان تقرير المصير ليس عبارة جوفاء . ان تقرير المصير مبدأ الزامي ، على السياسيين تطبيقه منذ الآن ويجب ان لا يتغاضوا عنه ، واذا فعلوا فخطورة الأمر تقع على كواهلهم . . ان كل تسوية اقليمية لها علاقة بهذه الحرب ، ينبغي أن تتم لصالح السكان المعنيين ومنفعتهم لا تتم كجزء من تعديل اقليمي ، أو كتوفيق بين المطالب المتضاربة التي تطالب بها الدول المتنافسة [1] » .

لا شك أن كلام الرئيس ولسون جميل للغاية ، وعندما يقرأه الانسان يشعر أنه صادر عن فيلسوف صادق النظرة ، وليس عن رئيس دولة . وقد حاول الامير فيصل ان يستفيد من موقف الرئيس ولسون في مؤتمر الصلح ، ولكن على ما يبدو أن كلام رئيس الولايات المتحدة الأميركية كان في ذلك الوقت ـ ممنوعاً من الصرف ـ وهكذا لم يتح للثورة العربية أي دعم يذكر من الولايات المتحدة الأميركية باستثناء الدعوات الصالحة والكلام المعسول .

٥ ـ الثورة العربية الكبرى والحركة الصهيونية :

ربما يعتقد البعض ان قادة الثورة العربية الكبرى ، لم تكن لديهم رؤيا واضحة مستقبلية عن خطورة الحركة الصهيونية . . والواقع أننا نقع في خطأ كبير ، اذا كنا نعتقد أن ما حققته اسرائيل كان بفضل تخطيط وتنظيم الحركة الصهيونية . . أنا لا أريد في هذه العجالة أن أقلل من أهمية الحركة الصهيونية وخطورتها على وطننا العربي ، ولكن أريد ان أقول : أن تحميل الأشياء فوق ما تحتمل هو الخطأ بعينه . . وبكلمة واحدة : أن الصهيونية كانت تعني قبل عام ١٩٤٨ انكلترا ، وهي تعني بعد ١٩٤٨ الولايات المتحدة الاميركية ، وقد اتضح للعالم أجمع أن الصهيونية كانت عاجزة عن دعم اسرائيل في حرب تشرين المجيدة ولولا الولايات المتحدة الأميركية لانهدمت دولة اسرائيل على رؤوس مؤسسيها . . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لم يكن اليهود في مطلع القرن العشرين يشكلون عرقاً متميزاً نازياً كما يحاولون الآن ، بل كانوا أرباب تجارة همهم الوحيد الربح المادي . . ومع هذا فقد أخطأ فيصل مرتين، المرة الأولى : عندما وقّع مع وايزمن اتفاقاً للتعاون بين العرب واليهود في ١١ كانون الأول ١٩١٨ في فندق الكارلتون بلندن ، على الرغم من التحفظ الذي سجله بخط يده فى نهاية الاتفاق ، والذى ينسف الاتفاق من جذوره . اذا لم يستقل العرب فما كان يجوز لفيصل أن يقع في أحابيل الخداع الصهيونية لأن الغاية الأساسية من الاتفاق هي أن يجد الصهاينة مسؤ ولاً عربياً واحداً يتحاور معهم .

---

(١) راجع جون مايرارد كينز « التبعات الاقتصادية للسلام » لندن ١٩١٩ ص ٥٤ ـ ٥٨ .

اما الغلطة الثانية : فهي اعتقاده أن مسايرة الصهاينة في مؤتمر الصلح ربما تؤدي الى مزيد من الضغط الصهيوني على الرئيس ويلسون ، لكي يلبي المصالح العربية المشروعة ، ولم يدر في خلد الأمير فيصل أنه يتعامل مع اليهود ، الذين ما عرف التاريخ أبداً أنهم قاموا بعمل يفيد غيرهم اطلاقاً .

٦ ـ الثورة العربية الكبرى وتركية :

أحدثت أنباء الثورة ذهولاً في تركية ـ وألمانية كذلك ـ ، وحيل بينها وبين الجماهير عدة اسابيع ، وظلت البلاغات التركية حتى السادس والعشرين من شهر حزيران (١٩١٦) تصدر منكرة أي ثورة في الحجاز ، حتى كان التاسع والعشرون من ذلك الشهر ، اذ نشرت صحيفة « الشرق » الرسمية يومئذ بياناً أقرت فيه لأول مرة ، بأن « بعض الفئات القبلية هاجمت بضعة مراكز في جوار المدينة » ، الا انها لم تذكر شيئاً عن الشريف أوعن احتلال مكة وجدّة . وكانت اول اشارة الى الشريف في الثاني من تموز (١٩١٦) يوم صدرت ارادة سنية تعلن طرده ـ دون ذكر الأسباب الموجبة ـ وتعيين الشريف علي حيدر أميراً على مكة بدلاً منه . وبقي أمر الثورة في طي الكتمان حتى السادس والعشرين من تموز ١٩١٦ ، حين سمحت الحكومة لجريدة « طنين » بالقسطنطينية أن تنشر على الناس صورة مشوهة للحقائق ، وظلت الصحافة على مدى عدة اشهر تُسمّي حركة الشريف حسين عصياناً فردياً أثارته مؤامرة بريطانية ، وان الدولة بسبيل القضاء على ذلك العصيان ، بعون من سكان الحجاز وقبائله ، وهم الذين ظلوا مخلصين « للخلافة ولأوامر الرسول فيما يتصل بفريضة الجهاد المقدس » .

وبذل الأتراك في سورية جهودا خاصة ليحطّوا من قدر الثورة العربية ، ويقللوا من شأنها ، وامتلأت أعمدة صحيفة « الشرق » ، بمقالات مُوعَز بها وأخبار ملفقة ، ونشرت في عددها الصادر بتاريخ ١٩ ايلول ١٩١٦ تقريراً ، زعمت أنها تلقته من القائد التركي العام بالمدينة ، ذكر فيه أن عدداً كبيراً من رجال القبائل الحجازية قدموا فروض الطاعة والولاء ، وأن فيصلاً قد هزم ولجأ الى بارجة بريطانية ، وان علياً أخاه « هام على وجهه شريداً حائراً متلدداً» ثم نشرت في الرابع والعشرين ـ اي بعد سقوط الطائف بثلاثة أيام ـ بلاغاً رسمياً أعلنت فيه أن « كل شيء هادىء في الطائف . . . وان بعض البدو بقيادة الأمير عبدالله ردوا على اعقابهم متكبدين خسائر فادحة » . ثم صمتت الصحافة ولم يسمح لها بنشر أي خبر كان . .

وكان غضب جمال باشا متجاوزاً كل حد ، فصب جام غضبه بشراسة على القادة العرب القلائل ، الذين كانوا قد نجوا حتى ذلك الوقت من ظلمه وقسوته . وأصدر أوامره

للقبض على الناس بالجملة ، وأخذت شرطته العسكرية تطرح أشراكها كيفما اتفق ، حتى ألقت القبض في دمشق وحدها على حوالي اربعين من أعيانها ، وقذفت بهم الى السجن وانزلت بهم ضروب التعذيب والهوان . فكان الشيخ الوقور شكري باشا الأيوبي يُجلد كل يوم حتى يشرف على الموت ، أما عبد الحميد باشا القلطقجي ، وكان أمير لواء في الجيش التركي ، وزكي بك العظمة ، وكان ضابطاً رتبته عالية ، وفارس الخوري أحد النواب في المجلس العثماني فقد حبسوا في « زنزانات » وضربوا ومنع عنهم الطعام . فلم يعترف احد منهم بسر من أسرار الحركة العربية ، بل ان شكري القوتلي وهو من أشد أعضاء « سورية الفتاة » حماسةً وأصغرهم سناً ، حاول ان ينتحر بعد أن مزقوا جلده بالسياط ، فعمد الى سكين كليلة الحد ليقطع بها أحد شرايينه ، خشية ان يبوح وهو فاقد الوعي من شدة التعذيب المبرح بشيء من أسرار الجمعية . وفي الوقت نفسه زور جمال وأعوانه شهادات تسوغ لهم اصدار احكام بالاعدام . ولا ريب في أن الكثيرين كانوا سيواجهون الموت ، لولا تدخل فيصل في الوقت المناسب ، فكتب الى جمال باشا بأنه في حال موت واحد من المتهمين بسبب سوء المعاملة أو إعدامه ، فانه سينتقم له من الضباط الأتراك الذين أسرهم في مكة والطائف ، وانه لن يتردد في أن يقتل بالرصاص عشرة ضباط أتراك بكل عربي يذهب ضحية لطغيان جمال . وكان لهذا الوعيد أثره فأطلق سراح المتهمين ووضعوا تحت رقابة بوليسية مشددة .

وفي تلك الأثناء قبض على مائة وعشرين من وجهاء العرب ، من مختلف أنحاء بلاد الشام وغُرِّبوا الى الأناضول . واستحدثت اجراءات جديدة من الضغط والكبت زادت من قسوة الأحكام العرفية . وألغيت في شهر تشرين الأول (١٩١٦) الامتيازات الخاصة التي منح بها لبنان حكماً ذاتياً عام ١٨٦٤ ، ووضع تحت ادارة تركية سافرة ، بكل ما تتضمنه من قسوة وعنف .

ولعل أكبر صفعة تلقتها تركيا من الشريف حسين ، هي هجومه المضاد على مبدأ الجهاد الذي أطلقته الخلافة التركية في وجه بريطانيا وفرنسا وروسيا . . وقد وضّح الشريف حسين في أول بياناته الأسباب التي من أجلها رفع السلاح في وجه الأتراك ، ولم تكن قيمة هذا البيان فيما سرده من مسوغات للثورة ، وانما كانت قيمته الحقيقية في استنفاره المسلمين عامة للثورة على تركية ، وبذلك حطم فكرة الجهاد الاسلامي العام التي كانت تستند عليها الخلافة العثمانية .

وقد اعترف جمال باشا بهذه الحقيقة في خطاب ألقاه بدمشق بعد بضعة أشهر ، أثناء مأدبة أقيمت تكريماً لرئيس مجلس الشورى العثماني ، وكان نص هذا الخطاب الذي نشرته

جريدة « الشرق » (٢٣ كانون الثاني ١٩١٧) يدلّ على أن جمال باشا كان في فورة بالغة من التبجح والغضب ، وفيه يقول[1] :

« من المؤسف ان امرءاً دنيئاً قد عطل الجهاد المقدس ، في صميم الأرض الاسلامية المقدسة ، حين حالف القوى المسيحية التي تسعى الى ابتزاز العالم الاسلامي ، واستلاب القسطنطينية عاصمته . أما ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته القحة لأن ينسب نفسه الى الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فقد اضطر الدولة العثمانية الى ان توجه اليه قوى ، كان الحق أن توجه لتهزم البريطانيين في القناة وتحتل القاهرة . ان هذا الخائن لم يقم بما قام به ، الا خدمة للبريطانيين ، ولكن ذلك كله لن يحول بين الاسلام والنصر النهائي أو يوقف جنودنا ، أولئك الابطال الذين حموا القسطنطينية ، دون اجتياز القناة واستئصال البريطانيين وحز رأس ذلك الدجال في مكة . . . »

ج ـ الثورة العربية الكبرى وأثرها في آسيا وافريقيا

ان المتتبع لمسيرة الثورة العربية الكبرى ، يلاحظ وجود تيارين عربيين متعاكسين بالنسبة للثورة ذاتها ، وقد ظهر هذا التعاكس في اخطر مرحلة مرت بها الحركة القومية العربية ، وذلك عند اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ودخول الدولة العثمانية ضد انكلترا وفرنسا اللتان كانتا تحتلان الشمال الافريقي بكامله ، ولذلك فان العرب الموجودين في شمالي أفريقيا لم يترددوا لحظة واحدة في اظهار تجاوبهم وتعاطفهم مع تركيا ، على مبدأ (عدو عدوك صديقك) ، أما العرب الآسيويون فقد كان الشريف حسين وقادة الثورة العربية وزعماء الجمعيات القومية ، يدركون بلا شك مطامع الحلفاء في بلادهم ، ولكنهم كانوا يدركون أكثر ، سياسة التتريك التي مارسها الاتحاديون ، وخطرها على كيانهم القومي ، لأن سياسة التتريك تهدف كما نوهنا عن ذلك في حينه الى محو العنصر العربي من الوجود ، والى طمس اللغة العربية واحلال اللغة التركية مكانها . . أنا لا أتصور مصيبة أكبر ولا أفدح من مصيبة حرمان الانسان من لغته القومية ، واخواننا في الجزائر عانوا الأمرّين من هذا الأمر الجلل . . ولذلك عندما بدأ جمال باشا السفاح بتطبيق سياسة المشانق في سورية ، قطع المناضلون العرب حبل المودة مع تركيا ، وانضموا الى جانب الحلفاء ، مع العلم أن الشروط التي قبلوا التفاهم بها مع الحلفاء لم تكن متفقة مع أمانيهم القومية ولكن ذلك كان أهون الشرين . وسنتكلم بشيء من التفصيل عن أثر الثورة العربية

---

(١) ان غضبة جمال باشا وكلامه البذيء بحق الشريف حسين وحقده عليه يدلنا دلالة أكيدة على أن موقف الحسين بن علي كان في مصلحة الامة العربية . . لاننا بالطبع لا نريد السرور لاعدائنا ، ان غضب الاعداء وحقدهم على أعمالنا يجب ان يعتبر أوسمة على صدورنا .

الكبرى على القطر العراقي والجزيرة العربية ومصر والسودان .

كان أثر الثورة العربية الكبرى في العـراق ، وبصورة خاصة في المناطق التي كانت تحت الاحتلال البريطاني ، مرتبطاً بأثر تلك الثورة في حكومة الهند نفسها ، وقـد حدد ذلك الأثر عاملان اثنان ، أولهما : عاطفة الولاء العميق التي كان يكنها مسلمو الهند نحو الخلافة . وثانيهما : ان حكومة الهند كانت ذات مطامع في العـراق ، فهي تعده ميداناً لاستعمار مقبل ، وتحكّم هذان العاملان في نظرتها الى الثورة العربية ، فاتسمت سياستها الخارجية بطابع الأنانية وضيق النظر . وهذا ما جعلها تعادي فكرة الثورة العربية . أما مسلمـو الهند الذين بث فيهم السلطان عبد الحميد مبدأه عن رفعة الخليفة ، والذين لا تلقى الحركة العربية القومية لديهم قبولاً ، فانهم عدّوا الثورة خروجاً على سلطة الاسلام وتصدياً له . وكانت تريبهم أيضاً الخطط التي يدبرها البريطانيون لبلاد العـرب ، كما كانوا قلقين حقاً على سلامة الاماكن المقدسة .

وأما في جزيرة العرب فقد كان لأنباء الثورة أثر عميق . نعم إنها لم تكسب الى جانبها الحاكمين العربيين ابن الرشيد وامام اليمـن ، اللـذين كانـا قد وضعـا أيديهما في أيدي الترك ، ولكنها جعلتهما يعيدان النظر في موقفهما متأملين ، وحرمتهما من عون بعض كبار رؤساء القبائل - مثل رئيسي بني حاشد وبكيل - الذين كان هذان الحاكمان يحاولان أن يكفلا معونتهم للأتراك . كذلك فان سائر الحكام في الجزيرة رحبوا بالثورة وعبروا عن تأييدهم لها في مهرجان عقدوه في العشرين من تشرين الثاني ١٩١٦ بالـكويت . وكان فيمن حضر ذلك الاجتماع ابن سعود وأمير الكويت وشيخ المحمرة مع ما يزيد على مائة وخمسين شخصاً فيهم عدد من صغار الشيوخ الأقوياء . وألقى ابن سعود في المجتمعين خطاباً بليغاً لخص فيه الموقف فأثار حماسة منقطعة النظير . وفي ذلك الخطاب حثّ العربَ لكي ينضووا تحت راية الثورة ، وان لا يوفروا جهداً في أن يعضدوا القضية التي تهم كلا من انجلترا والعرب . وسرت اخبار الاجتماع وكلمات ابن سعود المثيرة في جنبات الجزيرة سريان النار في الهشيم ، وكان نقلة الاخبار يسردون عبارات كاملة من خطابه .

وأما مصر والسودان فقد بلغتهما أنباء ثورة الشريف في الوقت المناسب ، فمنذ بضعة شهور خلت كانت القوى البريطانية تخوض قتالاً ضد السنوسي في الجانب الغربـي من مصر ، وضد علي دينار سلطان دارفور في حدود السودان الغربية . وكان لكل من الحملتين عواملها المحلية المبيتة ، الا أنهما كانتا معاً ثمرة الدعوة الى « الجهاد » . فأما السيد أحمد السنوسي فانه هاجم الحدود المصرية في تشرين الثاني ١٩١٥ ، بعون من الضباط والفرق التركية والغواصات الألمانية التي كانت تعمل على مقربة من الساحل ، وبذلك اضطـر

الحاميات المرابطة في السلوم ، وفي مراكز الحدود الى أن تتراجع الى مرسى مطروح ، اي على مسافة قدرها ۱۳۰ ميلاً نحو الشرق . وحشدت في مرسى مطروح قوة خاصة مكونة من فيلقين أو ثلاثة ، وبدأت حملة مرهقة انتهت باستعادة السلوم في شهر آذار ۱۹۱٦ وطرد قوات السنوسي . ومن النتائج البارزة في تلك الحملة أسر جعفر باشا العسكري ، وهو ضابط عراقي عربي أبدى مقدرة وبسالة في قيادة الهجوم التركي على مصر ، وقد قدر له من بعد أن يقوم بدور بارز في قيادة القوى « النظامية » في الثورة كما مر معنا .

وفي أوائل عام ۱۹۱٦ شنت حملة في الجنوب القَصّي من السودان ، على سلطان دارفور الذي اعتنق مبدأ الجهاد ، واخذ يلهب حماسة أتباعه والقبائل المجاورة للقيام بهجوم على السودان . كذلك قامت عمليات حربية في عدة مواضع بالوجه القبلي من مصر ، لصد غزوات أتباع الطريقة السنوسية على وادي النيل .

ولم تتطور واحدة من هذه الحروب الصغيرة الى حرب كبيرة شاملة ، ولكنا اذا نظرنا اليها مجتمعة أدركنا أنها شغلت عدداً غير قليل من الكتائب البريطانية ، وقيضت للذين نصبّوا من أنفسهم حماة لمصر والسودان قسطاً وافراً من الاضطراب والقلق ، بخاصة وان الشعور السياسي في مصر كان يعادي قضية الحلفاء . وقد حدثت الثورة العربية حين كانت ضروب هذا القلق حقيقة ذات مسوغات لا تنكر ، وكان من الممكن أن يتحول ذلك الغليان الذي خلقته دعوة الزعيم السنوسي الى الجهاد فيصبح حريقاً شاملاً .

وأحدث نبأ الثورة العربية الكبرى ، أول الأمر ، أثراً يسيراً في مصر . فأما الدوائر التي تميل الى تركية ، فانها استقبلته بامتعاض وحاولت أن تشوهه بالتهوين من أمره وخطره . وحالت الرقابة المشددة المفروضة على الصحافة دون أي تهجم علني عليه . ولكن العداء للثورة بمصر كان أمراً واقعاً يكاد لا يخفى ، وان لم يكن عداء عاماً شاملاً . وكان يستمد قوته من المشاعر الناقمة على بريطانية مثلما يستمدها من مشاعر الموالاة للأتراك . واما الجاليات السورية والعراقية فانها تلقت أنباء الثورة بحماسة شاملة ، وأفسحت لها صدر الصحافة،لما للسوريين يومئذ من نفوذ في صحف القاهرة والخرطوم[1] . ولمّا أصدر الشريف بيانه الأول في تموز ۱۹۱٦ اعتقد ذوو الرأي وأصحاب الفكر في القاهرة أن الثورة اشدُّ لطمةٍ حلّت بتركية ، وزاد اعتقادهم هذا بعد سقوط الطائف في ايلول ۱۹۱٦ وأداء فريضة الحج التي اتفق حلولها في الاسبوع الأول من تشرين الثاني (۱۹۱٦) ، وكان ممن شهد الموسم عدد غفير من المصريين .

---

(۱)راجع في سليمان موسى : « المراسلات التاريخية » ۱۹۱٤ - ۱۹۱۸ المجلد الاول رقم ٦٢ ص ٩٦ - ٩٧ تهنئة الشيخ رشيد رضا للملك حسين في رسالته المرسلة من القاهرة في ٨ كانون الاول ۱۹۱٦

د - الثورة العربية الكبرى في الميزان العسكري

على الرغم من قلة الامكانات والوسائط المادية والبشرية التي كان الشريف حسين بن علي يتصرف بها ، وعلى الرغم من التقتير الشديد الذي مارسته الدول الحليفة على جيوش الثورة ، فان البطولات الفذة والافكار والخطط والعمليات العسكرية التي نفذت ، جديرةٌ بالدراسة وجديرة بأن تكون مثالاً يحتذى للعسكرية العربية .

١ - القرار الجريء والحاسم في الظروف الصعبة والمعقدة :

يعتبر القرار المرحلة النهائية في تقدير الموقف العسكري والسياسي ، ذلك أن القائد بعد أن يدرس امكانات خصمه ونواياه وامكاناته الذاتية ، والميدان الذي يمكن أن تدور فوقه المعارك ، والحالة المعنوية وأحوال السكان ، والامكانات المادية المتاحة ، يتخذ القرار المناسب . . واذا درسنا الظروف التي كانت سائدة عشية اندلاع الحرب العالمية الاولى ، والقدرة القتالية لقوات الثورة العربية ولخصومها[1] ، أدركنا أي انسان شجاع هذا الحسين ابن علي، الذي اتخذ قراره الحاسم في اعلان الثورة على المستعمرين الأتراك ، الذين كانوا يتسترون برداء الدين الاسلامي وما هم من الاسلام بشيء . . وأعتقد أنه من الصعب جداً أو ربما من المستحيل ، أن يقدم رجل آخر غير الحسين على اتخاذ هذا القرار الخطير . . في ذلك الوقت وفي تلك الظروف .

٢ - الحسين بن علي واستراتيجية الهجوم غير المباشر:

تعتبر استراتيجية الهجوم غير المباشر ، أفضل أنواع الاستراتيجيات اطلاقاً ، وتتضمن هذه الاستراتيجية في مجال العمليات العسكرية « عدم أخذ الثور من قرنيه[2] » - على حد تعبير الجنرال بوفر - أي عدم مجابهة العدو في اختبار مباشر للقوة . . وتتضمن هذه الاستراتيجية أيضاً ، عدم الاقتراب من العدو ، الا بعد ازعاجه ومفاجأته ، وبعد زعزعة توازنه بتقرب غير متوقع من قبله نقوم به من اتجاهات متحولة . .

ان معظم العمليات العسكرية التي تمت في الثورة العربية الكبرى ، يمكن ارجاعها بشكل أو بآخر ، الى استراتيجية الهجوم غير المباشر ، واذا استعرضنا الخطة العسكرية

---

(١) كان مجموع القوات التركية في الحجاز يزيد عن ١٢ الف رجل مسلحين بالمدافع والبنادق الحديثة ويتولى قيادتهم ضباط مدربون في الاكاديميات العسكرية بينما كانت قوات الثورة العربية في ذلك الوقت لا تتجاوز ثلاثة آلاف متطوع مسلحين بالبنادق العادية القديمة ، راجع سليمان موسى - الحركة العربية ص : ٢٧٤ .

(٢) الجنرال اندريه بوفر « مدخل الى الاستراتيجية العسكرية » تعريب أكرم ديري وهيثم الايوبي - بيروت دار الطليعة ١٩٦٨ ص : ١٥١ .

للثورة العربية الكبرى التي رسم خطوطها الاساسية الشريف حسين بن علي ، والتي تتضمن مناوشة الأتراك ومحاصرة مواقعهم في الحجاز ، مع انزال بحري يقوم به الحلفاء في خليج الاسكندرونة[1] ، لرأينا أن هذه الخطة مع بساطتها تعتبر ومضة عبقرية في العلم العسكري[2] ، لذلك فقد وافق الانكليز عليها فوراً ، بينما اعترض الفرنسيون ، ليس لعدم صلاحية هذه الخطة من الوجهة العسكرية ، ولكن لانها تتعارض مع نواياهم المستقبلية في بسط نفوذهم على سورية ولبنان .

واذا نظرنا الى عمليات الجيش الشرقي الذي كان يقوده الأمير عبد الله ، وخطة التقدم من المحور الشرقي لمهاجمة المدينة ، رأينا في هذه الخطة أيضاً استراتيجية الهجوم غير المباشر ، لان فخري باشا لم يكن يتوقع أبداً أن يهاجم من هذه الناحية . .

ثم اذا نظرنا الى مجمل الخطة في محاصرة المدينة ، والتي أوصى بها الأمير عبد الله الى والده قائد الثورة ، والتي تتلخص بأن تحاصر المدينة من قبل جيوش الثورة الثلاثة ، التي يقودها علي وعبد الله وفيصل من اتجاهات مختلفة تتلاقى في نقطة واحدة هي المدينة ، أدركنا بكل وضوح أن هذه الخطة تعتبر كذلك تطبيقاً رائعاً لاستراتيجية الهجوم غير المباشر ، التي طبقها الرسول العربي الكريم (ص) في فتح مكة عندما دخلها بأربعة أرتال من أربع جهات تتلاقى في هدف استراتيجي واحد[3] .

٣ - ألشريف حسين وَالروح المعنوية :

أبدى الشريف حسين خلال الشهر الذي دار فيه القتال في مكة شجاعة خارقة ، اذ أنه ثابر على الجلوس يومياً في مكتبه طوال النهار وردحاً من الليل ، بينما كانت تنصب نار المدافع والبنادق على القصر ، وهو ثابت كالطود الشامخ لا يُغيّر من مكان جلوسه . . وقد دخلت احدى القنابل غرفته وهو جالس ، فمرّت على قيد شبر منه واخترقت أساس الغرفة وهو لا يعبأ بها . وظلت فرقته الموسيقية تعزف أمام القصر يومياً ، وحدث أن سقطت قنبلة بالقرب من العازفين فانفرط عقدهم وجلين ، ولكن الشريف حسين أمرهم أنْ يواصلوا العزف حتى ولو ماتوا جميعاً . .

---

(١) قال الشريف حسين في رسالته المؤرخة في ٦ آذار ١٩١٦ الى مكماهون : « لا بد من اشتراككم بالتعرض - بقصد الهجوم - على أحد سواحل سورية لتشجيع أهلها والقضاء على القوة التي بها » .

(٢) في ١٥ ايلول ١٩٥٠ أنزل الجنرال ماك آرثر (القائد العام للقوات الامريكية في الشرق الاقصى) الفيلق العاشر بعيدا خلف قلب القوى الكورية الشمالية التي بوغتت تماماً وانسحبت بسرعة عابرة خط العرض (٣٨) . وقد طبق جاك آرثر نفس خطة الشريف حسين

(٣) راجع كتابنا « الرسول العربي وفن الحرب » فتح مكة المذكور سابقا ص ٢٣٠ .

ان هذه الروح المعنوية العالية ، أثّرت تأثيراً كبيراً على قادة القوات والمتطوعين في صفوف الثورة ، فألهبت حماستهم وأصبحوا لا يهابون الموت ، طالما أن قائدهم يتصرف بكل برودة أعصاب غير عابىء بالاخطار التي تحيق به .

ولم يكتف الشريف حسين بضرب المثل والقدوة لرجاله في رفع روحهم المعنوية ، بل كانت رسائله الى أولاده الذين يتولون قيادة الحملات في ميادين القتال ، تعطينا الدليل عن كيفية اصدار الحسين لتوجيهاته العملياتية الدقيقة ، وكأنه قائد عسكري قديم تخرج من أرقى الأكاديميات العسكرية ، إضافة الى ذلك ، فقد كانت متابعته الدقيقة والمتواصلة للعمليات الحربية ، أمراً في غاية الأهمية ، خصوصاً اذا أخذنا بعين الاعتبار وسائط المواصلات التي كانت سائدة في ذلك الحين . . وكان لا يكاد يعلم ، بأن أحد القادة قد استبسل في ميادين القتال ، حتى يُنعم عليه بالأوسمة ليكون ذلك حافزاً له ولأقرانه لمتابعة تنفيذ الخطط على الوجه الأكمل ، وقد أرسل الى ولده الأمير زيد برقية مؤ رخة في ٢٩ كانون الثاني ١٩١٨ « أشعرني فيصل بموفقيتك في الحسا تولاك الباري بعنايته . سلم على جنودك وبلغهم دعائي . ومن رأيت بلاءه عرفني ، لمكافأته الدنيوية علاوة على الآخرة[١] » .

وكمثال على ذلك ، فقد منح الملك حسين وسام النهضة ـ ميدالية تذكار حرب معان ـ الى ولده زيد ، بعد انتصاره في معركة الطفيلة ، فكتب الى والده يقول : « ولا شك أن الوسامات التي نناها في ميادين القتال ، أكبر شرف لنا ولغيرنا من الذين يرغبون باستقلال البلاد العربية[٢] » .

ربما يعتقد البعض أن موضوع منح الأوسمة في المعارك لا أهمية كبيرة له ، ولكن من يتتبع تاريخ الحروب يجد أن هذا التكريم هو الذي يثلج قلب الجندي أكثر من غيره بكثير . . وكان الجينر اليسيموس ستالين يأمر ضباطه وجنوده بوضع الأوسمة المدلاة على لباس الميدان ويأمرهم بأن يقتحموا المواقع المعادية وأوسمتهم تتراقص على صدورهم . . ومما لا شك فيه أن تكريم الحسين لرجاله كان له أثر كبير في اندفاعهم ومغامراتهم وبطولاتهم .

٤ ـ الشريف حسين والاهتمام بذكريات المعركة والتاريخ العسكري :

لولا مذكرات الأمير زيد لما عرفنا هذه الناحية من اهتمامات الشريف حسين ، فبعد

---

(١) راجع سليمان موسى : « الثورة العربية الكبرى » : الحرب في الاردن ١٩١٧ ـ ١٩١٨ . مذكرات الامير زيد ، عمان ١٩٧٦ رقم ٨ ص ٥٧

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ .

معركة الطفيلة والحاق الهزيمة الساحقة بقوات الأتراك في وادي الحسا ، أرسل الملك حسين في ١ شباط ١٩١٨ برقية الى ولده الأمير زيد يقول فيها : « برقية أخيك فيصل عما يسّره الله لك بتقهقر العدو من الحسا وصلت ، وعلم اغتنامكم ما غنمتموه وأسركم ما أسرتموه ، ولا سيما المدفع والرشاشات السبعة ، وعساكم بل لا بد أن ترسلوا لنا أحد الرشاشات المغتنمة المذكورة لاشهارها ووضعها في جند المركز كتذكرة تاريخية[1] » .

وأعتقد أن عدداً قليلاً من القادة يولون هذه الناحية من الأهمية ما تستحقه ، خصوصاً وأن المعركة لم تنته بعد ، ونستطيع أن نعتبر ذلك حساً حضارياً وبعد نظر من الشريف حسين .

٥ - الأمير عبد الله وحصار الطائف :

لم يكن الأمير عبد الله أكبر أنجال الشريف حسين ، ومع ذلك فقد كان والده يثق به كثيراً ، ويسند اليه أصعب المهمات ، لعلمه بمقدرته وكفاءته ، وكان الأمير عبد الله أهلاً لهذه الثقة . . من هذا المنطلق أسند الشريف حسين للأمير عبد الله مهمة حصار الطائف . . وفي الطائف كما نعلم كانت خيرة القوات التركية بقيادة الفريق غالب . . وعلى الرغم من عدم تناسب القوى بين العرب والأتراك ، وأن الميزان كان يميل الى صالحهم لدرجة كبيرة ، فان هذا الأمر لم يثن الأمير عبد الله عن قبول المهمة المسندة اليه ، بل توجه الى الطائف بكل طيبة خاطر وعزيمة صادقة .

أدرك الأمير عبد الله بحدس العربي الأصيل الذي لا يخطىء ، أنه لا قبل له بمهاجمة القوات التركية ، المتحصنة في ثكنات الطائف ، المبنية أساساً على مواقع حاكمة ومشرفة ، ولذلك فقد قرر أن يفرض الحصار ، ويخوض مع الأتراك حرب استنزاف طويلة الامد ، حتى يضطرهم الى القتال في ميدان اختاره هو ، ولم تفرضه عليه ظروف الموقف القتالي ، وكانت النتيجة كما رأينا رائعة ، اذ أرغم قائد الحامية على القتال من أجل فك الحصار المضروب حول الطائف ، وترك الأتراكُ مواقعهم ، وأصبحوا يقاتلون في أرض مكشوفة ، الامر الذي سهّل على القوات العربية التصدي لهم ومجابهتهم الند للند ، ولما طال أمد الحصار لم يجد القائد التركي الفريق غالب مخرجاً أمامه ، سوى طلب الاستسلام الى الأمير عبد الله ، وهكذا حققت حرب الاستنزاف نتائجها بصورة رائعة . .

واذا أردنا تحليل شخصية الأمير عبد الله ، ومآثره القتالية ، احتاج الأمر الى كتاب آخر ، ولكنني أقول بشكل موجز ، أن الأمير عبد الله كان يملك المقدرة على قيادة الرجال ،

---

(١) المصدر السابق : رقم ١٠ . ص : ٥٨ .

وكان شجاعاً مقداماً في الحروب والمواقع ، إضافة الى ذلك فقد كان يملك سرعة البديهة ، كما كان خياله واسعاً . . وكان يُعمل عقلَه في الظروف الصعبة ، لذلك كان يجد لكل أمر مخرجاً ، وفي كافة الأحوال كان لا يسقط الا على قدميه مثل النمر . .

كان يُكثر من استخدام عمليات الخداع والتمويه العملياتي على العدو ، وفي حصار الطائف عندما ارتدت موجة الهجوم الأولى ، ونفذت الذخيرة وعاد الجنود العرب الى المواقع التي انطلقوا منها . . وأصبحت الطريق الى مكة مفتوحة . . فان الأمير عبد الله سرعان ما طلب الى رجاله أن يشعلوا النيران بكثرة فوق التلال المحيطة بالطائف ، ويدقوا الطبول ويرقصوا رقصات الحرب ، وبالفعل فقد أحدثت هذه العملية أثرها بسرعة ، اذ توهم الأتراك أن قوات الثورة ما تزال في خير ، ولذلك أحجموا عن مهاجمتها ، وظلوا قابعين في ثكناتهم ، مع أنهم لو توجهوا تلك الليلة الى مكة لما وجدوا أحداً في طريقهم . ويقول الأمير عبد الله في وصف هذا الموقف في اليوم الثاني من بدء القتال : « ولو خرج الوالي والقائد بقواته لكان وصل الى مكة بسلام ، لنفاذ العتاد الحربي كلياً[1] »

٦ ـ الأمير فيصل واحتلال العقبة :

يعتبر سقوطُ العقبة بيد القوات العربية ، نقطة انعطاف في مسيرة الثورة العربية الكبرى ، ذلك أن العملية تمت بقيادة فيصل وبجنود عرب ، ولعب عودة أبو تايه كما نعلم دوراً بارزاً في دحر القوات التركية . . واذا نظرنا الى النتائج العسكرية في احتلال العقبة ، وجدنا أنه سبب حرجاً بالغاً للقيادة التركية الألمانية بسورية ، في وقت كانوا يحتاجون فيه الى كل رجل وكل بندقية لمقاومة الزحف البريطاني نحو القدس . . أما النتائج السياسية ، فكانت أكثر أهمية وان خفيت عن الانظار في ذلك الحين . . فقد أصبحت العقبة تجسيداً ملموساً للثورة ، وقاعدة أساسية للانطلاق نحو سورية لتقويض السلطة التركية هناك . . وقد تنبه الحلفاء لهذا الموضوع ، ولذلك أصبحوا يخشون من كل خطوة يقدم عليها الجيش الشمالي بقيادة فيصل ، واتخذوا قراراً سرياً بتحجيم فيصل وجيشه حتى لا يأخذ أبعاده ـ ذلك أن شهرة الأمير فيصل قد ذاعت في كافة المحافل العربية والدولية بعد احتلال العقبة ـ ولهذا فقد بدأوا بالتقنين الشديد عليه ، وعدم اعطائه أي دعم عسكري ملموس ، وعلاوة على ذلك فقد الحقوه بقيادة الجنرال اللنبي ، الذي اعتبر القائد الأعلى للقوات الحليفة في الشرق الأدنى ، وعندما اندحر الأتراك نتيجة للضربة المشتركة التي قامت بها القوات العربية والبريطانية ، أخذ الضباط الانكليز وعلى رأسهم الجنرال اللنبي ، ينصحون

---

(١) راجع الآثار الكاملة للملك عبد الله السابقة الذكر . ص ١٢٢

فيصل بأن لا يتورط في مطاردة القوات المنسحبة لأن عددها أكبر من عدد قواته بكثير ، والقوات التركية قادرة على أن تجرف في طريقها قوات الجيش الشمالي ، أصمَّ فيصل اذنيه عن سماع النصيحة ، وأمر رجاله بأن يُغذّوا الخطى في أعقاب القوات التركية المتراجعة ، غير آبه بالمكاره والأخطار التي قد تنتظره ، وبالفعل فقد كان القرار الذى اتخذه فيصل ، حكيماً وصحيحاً بدليل أنه تمكن من دخول دمشق قبل القوات البريطانية بساعتين .

لقد كان فيصل قائداً شجاعاً ، رومانسياً بعيد النظر ، محبوباً من رجاله ، ولكن العقبات التي وُضعت في طريق آماله وطموحه ، كانت أكبر من أن تتحملها الجبال ، ولذلك يمكننا أن نشبه فيصل بالجواد العربي الذي كبل بالقيود ، حتى لا يأخذ دوره الصحيح في ميدان القتال .

٧ - الامير زيد ومعركة الطفيلة :

كانت معركة الطفيلة من أقسى المعارك وأعنفها ، وقد أحدثت صدمة عنيفة للمستعمرين الأتراك ، وعندما حاولوا استرجاعها منيت قواتهم بهزيمة ساحقة في وادي الحسا . ومما لا شك فيه أن دور الأمير زيد كان كبيراً في هذا الميدان على الرغم من حداثة سنه .

كان زيد يضرب المثل والقدوة لرجاله في التصدي لمجابهة العدو ، وكان دائماً في مقدمة قواته المهاجمة ، وقد لفت نظره الى هذه الناحية قائد الجيش الشمالي الأمير فيصل ، الا أن هذه الفضيلة لم تكن الوحيدة لدى الأمير زيد . يقول لورنس : « ان زيداً كان يتولى قيادة نصف الجيش الى الشمال من وهيدة ، وكان يؤدي واجباته بهمة عظيمة ، وكانت طبيعته المرحة تفعل في نفوس الضباط المحترفين أكثر مما تفعل شاعرية فيصل وحماسته[١] » .

كان الأمير زيد يتمتع بحس ثقافي واضح ، ويشعر بضخامة المسؤولية التي أخذها والده الشريف حسين على عاتقه . ومن هنا نراه يسجل تحركاته في كتيب صغير ، تمهيداً لكتابة مذكراته في المستقبل . وهذه اليوميات على بساطتها تعطي فكرة واضحة عن المشاق والصعوبات التي عاناها أولئك الرجال الافذاذ إبان الثورة العربية الكبرى .

---

(١) يقول علي جودت وهو أحد القادة الكبار في الجيش الشمالي في مذكراته : « أن الامير زيداً كان يندفع اندفاعا خطراً في الجبهة ، وكنا نمانع في هذا الاندفاع لا حرصا على سلامته فحسب بل خشية أن يؤدي هذا الاندفاع الى مكروه ما فيؤثر في الجيش أسوأ تأثير » . (راجع سليمان موسى : « الثورة العربية الكبرى » ... مذكرات الامير زيد المذكور سابقا ص ٢٦) .

٨ ـ دور الثورة العربية الكبرى في انتصار الحلفاء :

لعبت الثورة العربية الكبرى دوراً كبيراً في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، ونستطيع الجزم بأنه لولا اشتراك الشريف حسين في الحرب ، لما انتهت بالمدة التي انتهت بها ، ولدفع الانكليز والفرنسيون آلاف الضحايا وملايين الجنيهات أكثر بكثير مما دفعوه في الواقع .

يقول الدكتور هوجارث : « لو لم تؤد الثورة شيئاً سوى تعطيلها للزحف المشترك الذي قام به الترك والالمان نحو جنوب بلاد العرب عام ١٩١٦ ، لكان لها في أعناقنا من الجميل ما لا يفي به كل ما قدمناه لها حتى اليوم » .

أما الجنرال بريمون رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز فقد كتب يقول : ان الحملة التركية الالمانية على اليمن كانت بحيث : « تُعرِّضُ الحلفاء الى خطر عظيم . ولو نجحت الخطة لسدت البحر الاحمر وفتحت المحيط الهندي أمام العمليات الحربية الألمانية . . . لكن ثورة الحجاز عطلت تلك الحملة ، لحسن الحظ ، وبذلك قدمت بدون ريب خدمة جلى لقضية الحلفاء » .

ولكن تعطيل بعثة ستوتزنجن وقوة خيري بك ، بالاضافة الى منع الالمان من انشاء قواعد لزرع الالغام على الشاطىء الشرقي للبحر الاحمر ، لم يكن سوى جزء مما قدمته الثورة في ميدان الحرب . لقد قطعت الثورة خطوط المواصلات على ثلاث فرق تركية في اليمن وعسير ، وارغمتها على البقاء ساكنة طوال فترة الحرب ، وتمكنت قوات الثورة من أسر وقتل ومشاغلة قوات تركية ، يقدرها لورنس بسبعين ألف جندي ، هذا بينما بلغت نفقات بريطانيا على جيشها الذي قاتل على جبهة سيناء وفلسطين ٧٥٠ مليون جنيه . ومع أن التاريخ الرسمي للحرب يقول إنه كان للثورة « تأثيرات بعيدة المدى على امتداد الحملة البريطانية في سيناء وفلسطين ، واستنزاف متواصل للاحتياط التركي ، وتهديد بالغ القوة للجناح التركي[1] » .

فان الكابتن جورج لويد قال في تقرير له بعد اعلان الثورة بستة أشهر ونصف ، ان الشريف ورجال قبائله يواجهون قوة توازي في ضخامتها القوة التي تقاتل في سيناء[2] .

---

(١) تزعم المصادر البريطانية أنها انفقت على الثورة العربية ١١ مليون جنيه الا أن المصادر العربية تقول ان المبلغ الذي انفق بالفعل لا يتعدى ٥,٢٢٠,٠٠٠ جنيه بما في ذلك مبلغ نصف مليون جنيه التي أنفقها لورنس بمعرفته على عمليات الجيش الشمالي . راجع التاريخ الرسمي للحرب العالمية الاولى . لندن ١٩٢٩ ص - ٤٠ .

(٢) راجع تقرير النقيب جورج لويد بتاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩١٦ ، وجورج لويد هو الذي خلف اللنبي مندوبا ساميا على مصر : الوثائق البريطانية F 0, 686, / 6.

وفي ٣٠ آب ١٩١٦ قدر سايكس القوات التي كان العرب يواجهونها ، بالاضافة الى تلك التي وقعت في أسرهم والتي حولتها الثورة عن قتال البريطانيين ، ب ٣٨٥٠٠ رجل[١] .

وبناء على احصاءات العرب ، فان القوات العربية منذ قيام الثورة حتى آخر شهر آب ١٩١٨ ، أسرت وجرحت وقتلت أكثر من ١٤ ألف تركي وغنمت ٥٠ مدفعاً و ٥٩ رشاشاً وبضعة آلاف من البنادق ، ودمرت ١٥ آلة قطار و ٢٠٧ جسراً وعبارة و ٢٨٦٩٢ قضيباً من قضبان سكة الحديد . ويقول الجنرال ونجت أن العرب ارسلوا ٥٩٤٠ أسيراً الى مصر خلال هذه الفترة[٢] . وفي حملة دمشق قتل العرب حوالي خمسة آلاف تركي ، وأسروا حوالي ثمانية آلاف ، وغنموا حوالي ١٥٠ رشاشاً ومن ٢٥ الى ٣٠ مدفعاً[٣] . أما عند استسلام المدينة فقد وقع في الأسر ١٠٨٣٠ جندي وضابط وغنم العرب ٦٣ مدفعاً من أنواع مختلفة . فاذا أضفنا الى هؤلاء الحاميات الاخرى بين المدينة ومعان وجدنا أن المجموع العام لا يقل عن أربعين ألفاً .

أما من حيث الخطة العسكرية التي تهم الحلفاء ، فان الثورة اقفلت الطريق الى البحر الاحمر والمحيط الهندي ، ووقفت عائقاً في سبيل التوسع التركي الالماني جنوباً . وبما أن ابن سعود حالف حينئذ بريطانية العظمى ، فقد امتد « الحزام » العربي الموالي لها من البحر الاحمر حتى خليج العرب ، وبذلك حفظ للحلفاء سلامة المواصلات في هذين الطريقين البحريين . وكان السير ارشيبالد مري ، في الشمال ، يستعد ليهاجم فلسطين ، وهو مطمئن الى أن الثورة احرجت جدياً مركز العدو المواجه له . ولم يكن مري في البداية راضياً عن الثورة العربية اذ كان يعدها في شيء من الاستخفاف والتحقير عملاً هامشياً مُربكاً . ولكن موقف الجنرال مري من الثورة تغير حين وصلت قوة فيصل الى الوجه ، لانه كما قال لورنس : « تنبه فجأة الى أن الفرق التركية التي كانت تحارب العرب أكثر من الفرق التي تحاربه » .

حقاً ان الثورة العربية ما كان يمكن أن تحقق ما حققته من نجاح ، لولا المساعدة البريطانية بالمال والسلاح . ولكن من الواضح ان العرب كانوا يشعرون أثناء الثورة بأن بريطانية لا تقدم لهم المساعدة الكافية . والذي يطالع البرقيات التي كان الشريف يتبادلها مع مندوبه الفاروقي ، يجد عدة أدلة على عدم كفاية الاسلحة والاموال التي كانت تقدم

---

(١) أوراق سايكس ، اوكسفورد .

(٢) الاركان العامة البريطانية : مجمل حول ثورة الحجاز الصادر في ٣١ آب ١٩١٨ ص ٢٨ لندن .

(٣) تقرير لورنس في النشرة العربية . العدد الصادر في ٢٢ تشرين الاول ١٩١٨ .

للعرب . ففي الشهر الاول من عمر الثورة أرسل الانكليز شحنة من البنادق اليابانية انفجر ٢٠٪ منها في أيدي المقاتلين العرب بعد اطلاق بضع طلقات . وحتى نهاية الحرب كانت المدافع الالمانية التي يستعملها الأتراك أبعد مدى من المدافع التى أرسلها الانكليز للعرب .

ونرى نموذجاً على ذلك في مسألة الجنود النظاميين الذين كانوا في الأسر . فقد كان الشريف يأمل في أن يتاح له تأليف جيش نظامي كبير من هؤلاء ، ولكن السلطات البريطانية المختصة لم تبذل الجهد الجدي لتحقيق ذلك . ففي أوائل الثورة رجع حوالي مئة من هؤلاء من جدة ، مما يدل على أنهم لم يعطوا المعلومات الكافية عن الثورة العربية وأهدافها قبل خروجهم من معسكرات الأسر . وألّف الانكليز والفرنسيون كتيبة من الأسرى العرب تتألف من حوالي ٥٠٠ جندي وضابط ، ولكن هؤلاء ظلوا ينتظرون في مصر مدة من الزمن ، بسبب ذلك المشروع الذي يمتزج فيه الخيال بالقصد المبطن ، ألا وهو اخضاع الكتيبة لقيادة بريطانية ـ فرنسية مشتركة وتحُمّل الدولتين نفقاتها . ومن الدلائل على عدم اكتراث البريطانيين المختصين بأمر انشاء جيش عربي قوي ، ان نائب الملك في الهند أبرق بتاريخ ٣ نيسان ١٩١٨ الى المندوب السامي في مصر ، يشير الى مخابرات سابقة ويقول :

من وقت الى آخر نتلقى من أسرى الحرب العرب ، ومن المدنيين المحتجزين في الهند ، عرائضَ يطلبون فيها السماح لهم بالخدمة مع الشريف ، اننا لا نستطيع أن نضمن حسن نياتهم . هل ترغبون أن نرسل اليكم في مصر أكبر عدد ممكن ممن يصلحون للخدمة العسكرية كي تقوموا بالتحقق من أمرهم ؟

وكان جواب وزارة الحربية في ٢٠ نيسان مثالاً على عدم الاكتراث .

ان مدير المخابرات العسكرية يرجو أن يعلن ، أنه بما أن حكومة الهند ، لا تستطيع ضمان نيات هؤلاء العرب بأية طريقة ، فيجب أن لا يرسلوا . أما اذا كان بالمستطاع معرفة بعض الافراد الذين يمكن ضمان حسن نياتهم ، فيجب ارسالهم[١] .

لقد كان بمقدور المسؤولين البريطانيين ، الطلب الى الشريف ، ايفاد بعثة من رجاله الموثوقين الى معسكرات الاسرى في الهند ومصر ، بقصد القيام بالدعاية اللازمة لقضية الثورة ، والتحقق من « حسن نيات » الافراد الذين يرغبون في التطوع . ولكن يبدو أن هذا الموضوع الخطير ، تُرك في أيدي ضباط لا يهتمون سواء نجحت الثورة العربية أو

(١) راجع الوثائق البريطانية المذكورة سابقا . F0,371/ 3396

فشلت . ونرى شخصاً كالدكتور عبد الرحمن الشهبندر يقول : أنه رأى من البريطانيين في مصر ، من التشجيع تارةً والتثبيط تارة أخرى ، ما لم يفهم له تعليلاً معقولاً . وكان بحكم عمله طبيباً للاسرى العرب في مصر ، كثير الاتصال بهم ، ويبثّ بينهم الدعاية لقضية العرب بقصد حملهم على التطوع ، « ولكن جهودنا كانت كلما أوشكت أن تثمر ، أصابتْها صدمةٌ عنيفة من رجال العسكرية البريطانية كادت تذهب بها . فكان كل تشجيع يأتي من المكتب العربي يقابله العقيد (سمسن) في معسكر المعادي[1] بالمقاومة ووضع العراقيل[2] » .

أضف الى ذلك ان المبالغ التي كان العرب يتلقونها ، كانت أقل مما كانوا بحاجة اليه ، وكان انجال الشريف يشكون دائماً من قلة النقود ، حتى أن رواتب الجنود النظاميين في جيش فيصل لم تكن تدفع بانتظام ، وكادوا يرفضون السير في حملة ايلول ١٩١٨ بسبب تأخر دفع مرتباتهم . وللأمانة التاريخية فان الشريف حسين وقادة الثورة العربية الكبرى ، خرجوا من الثورة وهم لا يملكون من المال ما كانوا يملكونه قبلها[3] .

هذا باختصار ما عُرف عن الثورة العربية في الميزان العسكري ، وأعتقد أنه لا أحد يخالفني الرأي القائل ، بأنه لو كانت نوايا انكلترا حسنة نحو الثورة وقائدها ، لكانت الأمة العربية في حالة غير حالتها الحاضرة ، ولكن بريطانيا تصرفت بلؤم وخبث وحقد استعماري ، لم يعرف التاريخ مثيلاً له من قبل . وانني كرجل مؤمن أعتقد جازماً ، أن القدرة الالهية تعاقب الآن بريطانيا على ما جنت يداها بحق الشعوب عامة والأمة العربية خاصة .

٩ ـ عَودةُ أبو تايه وَأهميَّة الزمَن في الحَرب :

يقول الجنرال فوللر : « عندما يحدد هدف الاستراتيجية العليا ، تصبح المشكلة الجديرة بالتقدير بعد ذلك فوراً هي معرفة المبادىء التي ستتحكم بخطة الحرب وتنفيذها[4] » . وقد ذكر كلاوزفيتز[5] مبدأين كان يعتبر أنهما مبدآن أساسيان وهما :

---

(١) « المعادي » حي من أحياء القاهرة .

(٢) مجلة المقتطف (القاهرة) آذار ـ تموز ١٩٣١ .

(٣) نوري السعيد ـ مقدمة كتاب « ثورة في الصحراء » تأليف لورنس ١٩٣٧ ص : ٢٤ .

(٤) الجنرال ج . ف . س فوللر : ادارة الحرب ترجمة أكرم ديري وهيثم الايوبي ، دار الطليعة بيروت لبنان ـ ص ١٠٤ .

(٥) راجع « في الحرب » كلاوزفيتز ج ٣ ترجمة هيثم الايوبي الكتاب : ٨ صفحة ٦٤١ ـ ٦٦٢

المبدأ الأول : التجمع ما أمكن .

المبدأ الثاني : العمل بأكبر سرعة ممكنة . وعدم السماح للعدو بأية مهلة .

فاذا ما تضافر هذان المبدآن ، فانهما يتيحان تشابهاً كبيراً مع حكمة نابليون القائلة : « في فن الحرب ، كما في علم الميكانيك ، يعتبر عامل الزمن أكبر العناصر بين الوزن والقوة » . ومن هذه الزاوية اذا نظرنا الى عمليات الجيش الشمالي ، وخصوصاً تحرير العقبة ، وجدنا البطل عودة أبو تايه يطبق وربما بالفطرة العربية أهم مبادىء فن الحرب .

ولكي أوضح هذه النقطة بشكل أفضل ، سأعود بالقارىء قليلاً الى تحرير العقبة ، والى الساعات الحاسمة التي سبقت دخول القوات العربية الى المدينة المحررة .

كانت القوات العربية قد أُنهكت بسلسلة المعارك التي شنها عودة أبو تايه على القوات التركية المعادية ، وبعد أن حققت عدداً من النجاحات ، طلب رجاله الاستراحة ولو بضع ساعات للتزوّد بالماء والطعام والذخيرة . ولكن عودة أبو تايه هذا الفارس العربي الشجاع الفطن ، الذي يقدر أهمية الزمن في حسم المعركة ، رفض الاستجابة الى طلبهم ، مع أنه يعرف في قرارة نفسه مبلغ الجهود والتضحيات التي بذلوها في صراعهم مع أعدائهم . . فأصم آذانه عن النداء ، وطلب اليهم أن يغذوا الخطى باتجاه العقبة دون أن يعطوا العدو دقيقة واحدة ليسترد أنفاسه . . وهكذا نجحت القوات العربية في احراز النصر ، ودخلت العقبة دخول الفاتحين ، وعلى الرغم من حالة الجهد والاعياء التي دخلت فيها العقبة ، فقد كان يشفع لها أنها كانت تسوق أمامهاقطيعاً من الأسرى الأتراك يفوقها عدداً .

هـ - الخلاصة

بعد أن استعرضنا في الفصول السابقة احداث الثورة العربية الكبرى ، وتكلمنا باختصار عن استنتاجاتنا عنها ، نودّ أن نجيب على سؤ ال هام ، ربما يطرح نفسه بالحاح على القارىء العربي . . هذا السؤ ال هو: لماذا لم تنطلق الثورة العربية الكبرى من سورية الطبيعية أي بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) مع أن الظروف كانت مهيأة فيها أكثر من الحجاز . . ؟

الواقع كان هناك مركزان مفضلان لانطلاق الثورة :

١ - المركز الأول سورية :

حيث كانت النقمة على الأتراك شديدة ، الوعي القومي في تزايد بسبب نشاط

الجمعيات القومية التي لعب السوريون فيها دوراً قيادياً . والوجود العسكري العربي قوي ، حيث كان هناك عدة فرق عسكرية عربية ، وعدد كبير من الضباط العرب معظمهم من أعضاء جمعية العهد ، كان قيام الثورة في سورية سيشكل ضربة تشل الأتراك ، كما سيشكل منعطفاً خطيراً في تاريخ الحركة القومية العربية ، ذلك أن سورية كانت المعقل الأساسي للثورة العربية ، وعياً وجماهيرَ وقيادة ، وكانت تملك كل المواصفات اللازمة لتتزعم قيادة الثورة ، ولتكون مقراً للدولة القومية العربية العصرية . ولكن تردد القيادات الثورية ، وسياسة جمال باشا الذكية والقمعية ، قضت على كل امكانية لقيام الثورة في سورية ، فقد نجح جمال باشا بابعاد الفرق العربية ، وجعل من سورية مقراً للحشود التركية التي ستهاجم قناة السويس ، وأبعد أو اعتقل أو اعدم عدداً كبيراً من الزعماء العرب .

٢ - المركز الثاني الحجاز :

حيث كان الاشراف الذين حكموا الحجاز منذ القرن الخامس للهجرة والقرن الحادي عشر ميلادي ، يعملون على الاستقلال في الحجاز مع الاعتراف بتبعية اسمية لاحدى الدول الاسلامية الأكثر قوة والأكثر تأثيراً على الحجاز (بعد تفكك دولة الخلافة) ، وتمتع الاشراف بالاستقلال الذاتي ، لأن وجود الاماكن المقدسة يفرض وجود ارتباط ما بالخليفة . ومنذ منتصف القرن التاسع اتجهت سياسة الدولة العثمانية إثر صدور التنظيمات ، الى فرض المركزية ، والقضاء على مظاهر الاستقلال الذاتي ، التي كان يتمتع بها عدد كبير من الولاة ، من بينهم اشراف الحجاز ، واذا كانت هذه السياسة قد نجحت في كثير من المناطق ، فان نجاحها كان محدوداً في مصر وتونس والحجاز ، وكانت ظروف مصر وتونس الجغرافية والداخلية والدولية تحول دون نجاح هذه السياسة ، ثم إن الوضع في الحجاز كان مختلفاً . وقد خلق الانقلاب العثماني ١٩٠٨ ظروفاً جديدة معقدة فقد تولى الشرافة في الحجاز ، الشريف حسين الذي كان منفياً في استنبول ، وكان أكثر الاشراف تصمياً على الاستقلال ، كما أن اتجاهات الحكومة التركية الطورانية جعلها أكثر تصمياً على القضاء على كل مظاهر الاستقلال المحلية ، وتشديد قبضة السلطة المركزية على ما تبقى من الامبراطورية . وكان الصدام على وشك الوقوع ، حين نشبت الحرب ، مع ما خلقته من ظروف ضغط وفرص نجاح للطرفين . وكانت الظروف الجديدة التي خلقتها سياسة جمال باشا في سورية مناسبة سعيدة للقوميين العرب ، وللشريف حسين ، فقد تلاقت فكرة الاستقلال القومي التي تبناها السوريون العرب ، مع الاستقلال المحلي الذي سعى اليه الشريف حسين ، وتحول الشريف حسين من زعيم حجازي الى زعيم عربي ، وكانت

الزعامة الجديدة تتمتع بمواصفات ممتازة ، أهمها الموقع الجغرافي للحجاز ، والنفوذ الديني للشريف ، وكان عدد من القوميين العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر ، قد انتبهوا الى أهمية الجزيرة العربية لمستقبل الثورة العربية ، ومنهم الشيخ رشيد رضا الذي ألف جمعية شبه سرية تسمى « جمعية الجامعة العربية » تهدف الى ايجاد نوع من الوئام بين ملوك الجزيرة العربية ، بغية فرض ضغط أكبر على الأتراك لصالح العرب ، كما أشار الكواكبي الذي كان يدعو الى خلافة عربية ، الى أن الجزيرة العربية هي قلب العالم الاسلامي ، ولذلك وجب نقل مركز الثقل في هذا العالم من استنبول اليها ، كما نادى نجيب عازوري بسلطان عربي مسلم واقامة خليفة عربي في الحجاز .

ولم يخيب الشريف حسين نظرة المناضلين العرب اليه ، وكان في تخطيطه أن تعلن الثورة العربية الكبرى في مكة ودمشق ، بآن واحد ، ولذلك فقد أرسل ابنه فيصل الى سورية لينسق بين قادتها وبين والده ، وعندما حالت الظروفُ الصعبة دون انطلاق الثورة من دمشق ، للاسباب التي ذكرناها ، لم تهن عزيمة الحسين القائد بل استدعى فيصل من دمشق ، وطلب اليه أن يُلحِق بالثورة من يريد ويرغب من السوريين والعراقيين . وتحمّل المسؤولية القومية بكاملها على عاتقه ، وشقّ عصا الطاعة على الغزاة الأتراك ، وأطلق الرصاصة الأولى في سماء مكة ، معلناً نهاية الليل الطويل . . وجرت أحداث الثورة كما رأينا ، وتم النصر على العدو ، وطارد الجيشُ الشمالي بقيادة الأمير فيصل الأتراكَ المنهزمين الى محطة المسلمية شمالي حلب بعشرين كيلو متراً .

ولكن هذا النصر المؤزّر لم يدم طويلاً ، فقد أعقبته أيام تبددت فيها الأحلام ـ نتيجة غدر الحلفاء الانكليز والفرنسيين بالشريف حسين وقادة الثورة ـ ، ثم تلا ذلك ليل وجد فيه المجاهدون أنفسهم ، وقد اضمحلت آمالهم في انشاء الدولة العربية الحديثة في آسيا ، التي قدموا دماءهم من أجل تحقيقها كنواة للوحدة العربية الشاملة مع اخوانهم عرب شمال أفريقيا ، فعساهم يدركون اليوم وهم في رحاب الله مع الأنبياء والصديقين ، أنهم قاموا بأعمال خالدة ، وأن سيف الحسين بن علي لم يشل ، وستظل الثورةُ العربية الكبرى ، النورَ الذي يهدي أبناء الأمة العربية من محيطها الى خليجها الى درب المجد والسؤدد والكرامة . .

ليكن نضال الحسين بن علي ، منارة لنا نحن الجيل العربي الذي يعاصر التحديات الكبيرة ، وأهمها التحدي الصهيوني الذي يستهدف تمزيق الأمة العربية ، من أجل أن نرد على التحدي الصهيوني بالوحدة العربية ، فلا شيء غير الوحدة العربية التي رفع رايتها أبطال الثورة العربية الكبرى ، يمكن أن ينهض بمواجهة التحديات ، ويعيد الأمة العربية

مرة أخرى الى جبهة التاريخ ، لتسهم في دعم الحضارة الانسانية ، ولتكون الحامية بشرف ونبل ومسؤ ولية للشعوب المغلوبة على أمرها . وما ذلك على الله بعزيز .

دمشق ٧ حزيران ١٩٧٨

***

مُلحَقات الكِتاب

وَثائق تاريخية

ا - رسائل الحسين - مكماهون - وكيف فهمتها بريطانيا.

ب - اتفاق سايكس - بيكو ووثائق تثبيته مِن الحكومتين البريطانية والفرنسية.

ج - وَعد بلفور.

د - مبادئ ولسون الأربعة عشر.

هـ - العَريضة الجوابية المرفوعة مِن المؤتمر السوري الى الملك فيصَل.

الملحق أ :

الرسالة الأولى(*)

مذكرة الشريف حسين الأولى الى السير هنري مكماهون
مكة - في الثاني من رمضان سنة ١٣٣٣ (١٤ تموز ١٩١٥)

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء - قد قرروا في الاعوام الاخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم . ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانية العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول الى أمانيهم المشروعة ، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم ، وكرامتهم وحياتهم دون أية مقاصد أخرى من أي نوع كان لا علاقة لها بهذا الهدف .

ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزها الجغرافي ، ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا .

إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها ، يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية ما إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبيها أو ممثليها على الاقتراحات الاساسية الآتية :

(*) اعتمدنا كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » (المجموعة الاولى ١٩١٥ - ١٩٤٦ الذي اصدرته الامانة العامة لجامعة الدول العربية) للحصول على النصوص العربية لهذه المراسلات .

أولاً ـ ان تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ ادنه ، حتى الخليج شمالاً ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ـ ومن البحر الاحمر ، والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً .

على أن توافق انكلترا أيضاً على اعلان خليفة عربي على المسلمين .

ثانياً ـ تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية ، اذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً ـ تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية . وتأميناً لافضلية انكلترا الاقتصادية فيها . . على أن يكون هذا التعاون في كل شيء ، في القوة العسكرية ، والبحرية والجوية . . .

رابعاً ـ اذا تعدى أحد الفريقين على بلد ما ونشب بينه وبينها عراك وقتال ، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد . على أن هذا الفريق المعتدي اذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معاً وأن يتفقا على الشروط .

خامساً ـ مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة . واذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق ، « والحمد لله » على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر ، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو ايجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح . واذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً فانه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فاننا نحن عائلة الشريف أنفسنا ـ اذا لم يصل الجواب ـ أحرار في القول والعمل من كل التصريحات ، والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي .

***

الرسالة الأولى

مذكرة السير هنري مكماهون الأولى الى الشريف حسين
القاهرة في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٣٠ آب - سنة ١٩١٥)

الى السيد الحسيب النسيب سلالة الاشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الاحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة ، نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لاظهاركم عاطفة الاخلاص وشرف الشعور والاحساسات نحو الانكليز . وقد يسرنا علاوة على ذلك أن تعلم ان سيادتكم ورجالكم على رأي واحد وان مصالح العرب هي نفس مصالح الانكليز والعكس بالعكس . ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت الى سيادتكم عن يد علي أفندي وهي التي كان موضحاً بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند اعلانها .

وانا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة الى عربي صميم من فروع الدوحة النبوية المباركة .

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لاوانها ـ وتصرف الاوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة أن الحرب دائرة رحاها ولأن الأتراك أيضاً لا يزالون محتلين لاغلب تلك الجهات احتلالاً فعلياً وعلى الاخص ما علمناه وهو ما يدهش ويحزن أن فريقاً من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها ـ وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة الى الالمان ـ نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الالمان وذلك الظالم العسوف وهو الأتراك .

مع ذلك فانا على كمال الاستعداد لان نرسل الى ساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد اشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعينوه . وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته الينا ونحن على الدوام معكم قلباً وقالباً مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا .

وفي الختام ارفع الى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي وفائق احترامي .

المخلص

(السير آرثر مكماهون)

نائب جلالة الملك

***

الرسالة الثانية

مذكرة الشريف حسين الثانية الى السير هنري مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ ، (٩ أيلول سنة ١٩١٥)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر ، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الاساسية أعني نقطة الحدود .

وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم اخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون وفي أي شكل وفي أية ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم .

ويعذرني فخامة المندوب اذا قلت بصراحة ، ان « البرودة » و « التردد » اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله أن البحث في هذه الشؤون انما هو اضاعة للوقت ، وان تلك الاراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها . . . ويعذرني فخامته اذا قلت أن هذا كله يدل على عدم الرضا ، أو على النفور على شيء من هذا القبيل .

فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه ، ومفاوضته بعد الحرب ، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد .

وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانيا العظمى .

واذا اجمع هؤلاء على ذلك فانما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك . وهم يرون أنه من الضروري جداً أن يتم تنظيم الاراضي المجزأة ، ليعرفوا على أي أساس يؤسسون حياتهم كي لا تعارضهم انكلترا أو احدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي الى نتيجة معاكسة ، الامر الذي حرمه الله .

وفوق هذا فان العرب لم يطلبوا ـ في تلك الحدود ـ مناطق يقطنها شعب أجنبي بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

أما الخلافة فان الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها .

وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة ، أنكم لا تشكون قط بأني لست أنا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأسره ، يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية .

أوليس هذا صحيحا يا فخامة الوزير ؟

وبالاختصار فاننا ثابتون في اخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا ـ كما قيل ـ أو غاضبين .

أما ما يتعلق في قولكم بأن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الأتراك ، فلا أظن أن هذا يبرر « البرودة » و « التردد » اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ، الموضوع الذي لا اعتقد ان رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ينكر أنه ضروري لحياتنا الادبية والمادية .

وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الاسلامية في كل عمل أقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، واني سأستمر في هذا الى أن يأمر الله في غير ذلك .

وأود هنا يا صاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب ـ ومن جملته هؤلاء الذين تقولون أنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ـ ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود ،وقضية المحافظة على ديانتهم ، وحمايتهم من كل أذى أو خطر .

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها ، في هذا الموضوع ، فما عليها الا أن تعلمنا به وان تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها .

ولذلك نرى أن من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب اليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها .

ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي أخطر على مصالح انكلترا من خطة انكلترا على مصالحنا ، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها .

وفوق هذا فان الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطروننا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة ، تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة .

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة .

وأنا اصرح بهذا رغم اني اعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم .

ويستطيع معالي الوزير ، وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها مستر ستورز منذ عامين .

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا ، وخاصة فيما يتعلق بالحركة التي أضحت قريبة والتي يدفعها الينا القدر بسرعة ووضوح ، لنكون حجة ـ نحن والذين يرون رأينا ـ في العمل ضد تركيا ، ودون ان تتعرض للوم والنقد .

واعتقد أن قولكم « بأن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للاسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع الى تصديع نجاحكم » لا يحتاج الى ايضاح . . الا فيما يتعلق بمطالبكم بالاسلحة والذخائر عند الحاجة .

اعتقد الآن أن في هذا الكفاية . . .

***



الرسالة الثانية

مذكرة السير هنري مكماهون الثانية الى الشريف حسين
القاهرة في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ (٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فرع الدولة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع الأمير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العلياء جعله الله حرزاً منيعاً للاسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي أعلى الله مقامه .

لقد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم المؤرخ بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ وبه من عباراتكم الودية المحضة واخلاصكم ما اورثني رضاءً وسروراً .

اني متأسف انكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق اني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فان ذلك لم يكن القصد من كتابي قط ولكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية .

ومع ذلك فقد ادركت من كتابكم الاخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة ، فلذا فاني قد أسرعت في ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، واني بكمال السرور ابلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا أشك في انكم تتنزلونها منزلة الرضى والقبول .

ان ولايتي مرسين واسكندرونه وأجزاء من بلاد الشام والواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال أنها عربية محضة . وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الاقاليم التي تضمُّها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فاني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن اقدم المواثيق الآتية واجيب على كتابكم بما يأتي :

١ ـ انه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

٢ ـ ان بريطانيا العظمى تضمن الاماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .

٣ ـ وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العرب بنصائحها وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الاقاليم المختلفة .

٤ ـ هذا وان المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وارشادات بريطانيا العظمى وحدها وان المستشارين والموظفين الأوروبيين اللازمين لتشكيل هيئة ادارية قويمة يكونون من الانكليز .

٥ ـ أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فان العرب تعترف أن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير ادارية مخصوصة لوقاية هذه الاقاليم من الاعتداء الاجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة .

واني متيقن ان هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب اصحابها العرب وتنتهي بعقد محالفة دائمة وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذي أثقل كاهلهم السنين الطوال .

ولقد اقتصرت في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الاهمية الكبرى وان كان هناك مسائل فيخطاباتكم لم تذكر هنا فسنعود الى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل .

ولقد تلقيت بمزيد من السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة وما معها من

الصدقات بالسلامة وانها بفضل ارشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة قد انزلت الى البر بلا تعب ولا ضرر رغماً عن الاخطار والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة ، ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يعجل بالصلح الدائم والحرية لاهل العالم .

اني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الامين الشيخ محمد بن عارف بن عريفان وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التي هي من الدرجة الثانية من الاهمية ولم اذكرها في كتابي هذا .

وفي الختام ابت دولة الشريف ذا الحسب المنيف والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي واعرب عن محبتي له ولجميع أفراد اسرته الكريمة راجياً من ذي الجلال أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير العالم وصالح الشعوب . ان بيده مفاتيح الامر والغيب يحركها كيف يشاء ونسأله تعالى حسن الختام والسلام .

نائب جلالة الملك

(السير آرثر مكماهون)

(قيدنا الاسم الشريف بعاليه بهذا اللون)

***

الرسالة الثالثة

مذكرة الشريف حسين الثالثة الى السير هنري مكماهون
مكة في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ (٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى معالي الشهم الهمام ذو الاصالة والرياسة الوزير الخطير
وفقه الله لمرضاته

بملء الايناس تلقينا مرسومكم الموقر الصادر في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ وأحللناه محل التبجيل وعلى مؤداه نجيب الشهامة :

أولاً ـ تسهيلاً للوفاق وخدمة للأمة الاسلامية وفراراً مما يكلّفها المشاق والاحن ولما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا نترك الالحاح في ادخال ولايات (٥) مرسين وأضنة في أقسام المملكة العربية . واما ولايتي حلب وبيروت وسواحلها فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فانهما أبناء جد واحد ، وستقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الاسلامي ومن تبعه من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين كمعاملاتهم لأنفسهم بقوله : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة وتحكم به .

ثانياً ـ حيث أن الولايات العراقية هي من أجزاء الولايات العربية المحضة ، بل هي مقر حكوماتها على عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده ، وبها قامت مدنية العرب وأول ما اختطوه من المدن والامصار واستفحلت دولهم فلها لدى العرب أقصاهم وأدناهم القيمة الثمينة والآثار التي لا تنسى ، فلا يمكننا ارضاء الأمة العربية وارضاخها لترك ذلك الشرف . ولكن تسهيلاً للوفاق سيا والمحاذير التي

أشرتم اليها في المادة الخامسة من رقيمكم آنف الذكر محفوظيتها وصيانتها وضرورة ما نحن فيه وحيازة ما نريد التوصل اليه ، فان أهم ما فى هذا هي صيانة تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد يمكنا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الاشغال البريطاني الى مدة يسيرة ، البحث فيما يقبل عن قدرها دون أن يلحق حقوق الجانبين مضرة أو خلل . سيما العربية بالنسبة لأمر مرافقها ومنابعها الاقتصادية الحياتية ، وان يدفع للمملكة العربية في مدة الاشغال المقدار المناسب من المال كل مملكة حديثة الوجود . مع احترامنا لوفاقاتكم المشار عنها مع مشايخ تلك الجهات وبالاخص ما كان منها جوهرياً .

ثالثاً ـ رغبتكم في الاسراع بالحركة نرى فيه من الفوائد بقدر ما نرى فيه من المحاذير ، أوله خشية لوم دول الائتلاف واوجبها على صلح دول الاتفاق ، فكيف تكون خطة بريطانيا العظمى وحلفائها لئلا تكن الامة العربية أمام تركيا وحلفائها معاً اذ لا يهمنا ما اذا كنا والعثمانية رأساً لرأس .

وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الاوجه ولا سيما عقد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير رسمية يخول للمتصالحين البحث فيه عن شؤ وننا .

رابعاً ـ ان الامة العربية تعتقد يقيناً أن العثمانية عند وضع أوزار الحرب سيوجهون كل أعمالهم فيما يغضب العرب ويغتصب حقوقهم المادية والمعنوية وذهاب شعارهم واحسابهم واخضاعهم بكل معاني الاخضاع مع بقائها تحت النفوذ الالماني فهم عازمون على حربهم حتى لا يبقى لنا باقية وما يرى فينا الآن من التأني فقد سبق بيان علته .

خامساً ـ متى علمت العرب ان حكومة بريطانيا حلفائهم لا يتركونهم عند الصلح على حالهم أمام تركيا وجرمانيا وانهم يعاضدونهم ويدافعون عنهم الدفاع الفعلي فالدخول في الحرب من الساعة لا شك أنه مما يوافق المصالح العمومية العربية .

سادساً ـ افادتنا السابقة الصادرة بتاريخ ٢٩ شوال ١٣٣٣ تغني عن اعادة القول في المادة الثالثة والرابعة من مرسومكم هذا الموقر في خصوصات الهيئات الحاكمة والمشاورين والموظفين سيما وقد صرحتم يا حضرة الشهم بأنكم لا تتداخلون في اموري الداخلية .

سابعاً ـ وصول الجواب الصريح القطعي في أقرب زمن على ذكر أعلاه من الطلبات اذ انا استعملنا كلما يقربنا اليكم من التساهل الجدي الذي لا يراد به حقيقة جوهرية فانا نعلم أن نصيبنا من هذه الحروب إما سعادة تضمن للعرب الحياة التي تناسب تاريخهم أو الاضمحلال في سبيلها . ولولا ما رأيتم ورأيت ما في عزمهم لاخترت العزلة في شواهق السراة ، ولكن أبوا علي يا عزيزي اعزك الباري بمرضاته الا أن يقودوني الى هذه المواقف .

ودم غانماً سالماً بما نحبه وتريده .

الرسالة الثالثة

مذكرة السير هنري مكماهون الى الشريف حسين
القاهرة في ٩ صفر سنة ١٣٣٤ (١٣ كانون الأول سنة ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى صاحب الأصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الظاهر والنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي أمير مكة المكرمة قبلة الاسلام والمسلمين . أدامه الله في رفعة وعلاء .

وبعد ، فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ وسرني ما رأيت فيه من قبولكم اخراج ولايتي مرسين وأضنه من حدود البلاد العربية .

وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الاولين ـ التعاليم التي تضمن حقوق كل الأديان وامتيازاتها على السواء .

هذا ، وفي قولكم ان العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعا ان هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد ابرمت بينها وبين اولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ـ ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج الى نظر دقيق ـ وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب .

ان حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت وأخبرتكم مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها الى المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب ادارة ودية ثابتة كما رسمتم ، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظرا أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات .

واننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد أن ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل نجاح اغراضكم ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبذلوا مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية الى غايتنا المشتركة وان تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة الى أعدائنا بأي وجه كان . فانهم على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجيىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته .

وفي هذه الاحوال فان حكومة بريطانيا العظمى قد فوّضت لي أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي ابرام أي صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك .

هذا عربون على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فاني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه .

واقدم في الختام عاطر التحيات القلبية وخالص التسليمات الودية مع مراسم الاجلال والتعظيم المشمولين بروابط الالفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولأفراد أسرتكم المكرمة .

المخلص
نائب جلالة الملك بمصر
(السير آرثر هنري مكماهون)

***

الرسالة الرابعة

مذكرة الشريف حسين الى السير هنري مكماهون
مكة في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (أول كانون الثاني سنة ١٩١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي الوزير الخطير الهمام

باناامل الابجال والتوقير تلقينا رقيميكم ٩ صفر الجاري برفق حاملهم وعلمت مضمونيهما وأدخلا علينا من الانشراح والارتياح ما لا مزيد لإزالتهما ما يختلج بصدري ، ألا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف وحظوته بالجناب بأن كلما أتينا به في الحال والشأن ليس بناشيء عن عواطف شخصية أو ما هو في معناها مما لا يعقل ، وأنها قرارات ورغائب أقوامنا وأنا لسنا الا مبلغين أو منفذين لها بصفتنا التي ألزمونا بها اذ هذا عندي من أهم ما يجب وقوف شهامة الجناب عليه وعمله به . أما ما جاء بالمحررات الموقرة فيما يتعلق بالعراق من أمر التعويض مدة الاشغال فلزيادة ايضاح وقول بريطانيا العظمى بصفاتنا في القول والعمل في المادة والمعنى واعلامها بأكيد اطمئناننا باعتماد حكومتها المفخمة نترك أمر تقدير مبلغه لمدارك حكمتها ونصفتها . أما الجهات الشمالية وسواحلها فما كان في الامكان من تعديل اتينا به في رقيمنا السابق . هذا ، وما ذاك الا للحرص على الأمنيات المرغوب حصولها بمشيئة الله تبارك وتعالى . وعن هذا الحس والرغبة هما التي الزمتنا بملاحظة اجتناب ما ربما أنه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما ابان الحروب والنوازل الا أننا مع هذا نرى من الفرائض التي ينبغي لشهامة الوزير صاحب الرياسة أن يتيقنها بأن عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا

في بيروت وسواحلها ولا أرى لزوماً بأن أحيطكم بما في هذا أيضاً من تأمين المنافع البريطانية وصيانة حقوقها هو أهم وأكبر مما يعود الينا ، وان لا بد من هذا على أي حالة كانت ليتم للعظمة البريطانية أن ترى احصاؤها في البهجة والرونق التي تهتم ان تراهم فيه سيا وأن جوارهم لنا سيكون جرثومة للمشاكل والمناقشات التي لا يمكن معها استقراراً لحالة عدا أن البيروتيين بصورة قطعية لا يقبلون هذا الانفصال ويلجئونا على حالات جديدة تهم وتشغل بريطانيا بصورة لا تكون بأقل من اشتغالنا الحالي بالنظر لما نعتقده ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها وهي الداعية الوحيدة لعدم التفاتنا لسواكم في المخابرات وعليه يستحيل امكان أي تساهل يكسب فرنسا أو سواها شبراً من أراضي تلك الجهات ، أصرح بهذا مع اعتماد لكل جوارحي اعتماداً يرثه الحي منا بعد الميت بتصريحاتكم التي ختمتم بها رقيمكم الموقر . وعليه فليعتقد جناب الوزير الخطير ولتعتقد بريطانيا الكبرى أنا على العزم الذي أشير اليه ويعلمه منا جناب الاريب الكامل استورز منذ عامين ولا نناظر فيه الا الفرص المناسبة لاحوالنا وأخصها داعيته ووسيلته التي اقترب وقتها بما تسوقه الاقدار الينا بكل سرعة ووضوح لتكن حجة لنا وعن رأينا على الاعتراضات والمسؤ وليات المقدرة وفي تصريحاتكم بقولكم « وأنا لسنا نريد أن ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل نجاح اغراضكم » يغني عن زيادة الايضاح ، ما عدا طلب ما نرى لزومه عند الحاجة من الاسلحة وذخائرها الحربية وما هو في معناها .

واكتفي بهذا عن اشغال شهامتكم بتقديم وافر احتشاماتي وجزيل توقيراتي لمقام المقر الموقر .

***

الرسالة الرابعة

مذكرة السير هنري مكماهون الرابعة الى الشريف حسين
القاهرة في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثاني سنة ١٩١٦)

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية .

واننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة ونعرف جيدا أنكم تعملون في صالح العرب وانكم لا ترمون الى شيء - في عملكم - غير صالحهم وحريتهم .

وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد ، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية تتم بعد هزيمة الاعداء ونصل الى التسويات السلمية .

اما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الاساءة الى تحالف انكلترا وفرنسا وسررت جدا بابداء مثل هذه الرغبة .

واظنكم تعرفون جيدا اننا مقررون نهائياً بألا نسمح بأي تدخل - مهما قل شأنه - في اتفاقنا المشترك في ايصال هذه الحرب الى الفوز ثم متى انتهت الحرب فان صداقة فرنسا وانكلترا ستقوى وتشتد ، وهما اللتان بذلتا الدماء الانكليزية والفرنسية جنباً الى جنب في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات .

والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة فاننا نرجو الله أن تكون هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد ، صداقة دائمة ، تعود على الجميع بالسرور والغبطة .

وقد سررنا جداً للحركة التي تقومون بها لاقناع الشعب بضرورة الانضمام الى حركتنا والكف عن مساعدة اعدائنا . ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب ، لاتخاذ تدابير أوسع من هذه .

***

الرسالة الخامسة

مذكرة الشريف حسين الخامسة الى السير هنري مكماهون
مكة في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ [١٨ شباط ١٩١٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة ذوي الاصالة فخامة نائب جلالة الملك دام مرعيا

بعد ، فبأيدي التوقير والاحتشام تلقينا رقيم الفخامة المؤرخ بـ ٢٠ ربيع الاول ، وان مضامينه ادخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب أسأل الله أن يسهل المقاصد وينجح المساعي . ومن الايضاحات الآتية نفهم الفخامة الاعمال الجارية والاسباب المقتضية :

أولاً ـ قد أعلمنا فخامتكم بأنا بعثنا أحد أنجالنا الى الشام ليرأس ما يقتضي عمله هناك ، ولقد ظفرنا منه بتقرير مفصل يفيد به أن اعتسافات الحكومة هناك لم تبق من الاشخاص الذين نعتمد عليهم في الامر سوى أن كانوا من الجند على اختلاف مراتبهم أم ممن لم يكونوا من ذلك الصنف الا القليل مما كان في الدرجة الثالثة ، وانه ينتظر وصول القوات المعلن بقدومها من مواقع مختلفة أخصها من أهالي البلاد وما جاورها من الاقطار العربية كحلب وجنوب الموصل المشاع بأن عددها ما ينوف عن المائة ألف على ما يزعمون . وأنه لا بد يؤمل إن كانت الاكثرية المذكورة من العرب فهو عازم على اجراء الحركة والقيام بهم ، وان كان العكس يعني الاكثرية من الاتراك وسواهم فسيناظر تقدمهم نحو الترعة وعند اشتباك الحرب حركته بهم عندما يريدون .

ثانياً ـ عزمنا على ارسال نجلنا الكبير الى المدينة المنورة بقوة كافية ليكون ردئاً لأخيه الذي بالشام ولكل احتمال استيلائه على الخط الحديدي وما هو في معنى ذلك مما تظهره الشؤون . وهذا هو المبدأ للحركة الاساسية المكتفين في مبادئها بما جندناه برسم المحافظة على راحة داخلية البلاد وبأهل الحجاز أهل المركز فقط لاسباب يطول شرحها :

(أولاً) تعسر احضار لوازمهم بصورة تجعل المشروع في حيز الكتمان ، مع عدم الضرورة على ذلك وسهولة جلب الامدادات عند الحاجة ، هذا خلاصة ما رغبتم في الجواب عليه والاستفهام عنه . وفي ظني ان فيه الكفاية واتخاذه أساساً وقياساً في أعمالنا أمام كل التبدلات والطوارىء التي يظهرها سير الحالة .

بقي علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو :

أولاً ـ مبلغ خمسين ألف جنيه ذهباً لمشاهرة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته تغني عن بيانه .

فالرجاء احضارهما بوجه السرعة الممكنة .

الثاني ـ احضار عشرين ألف كيس أرز وخمسة عشر ألف دقيق وثلاثة آلاف شعير ومائة وخمسين كيس بن قهوة ومثلها سكر ومقدار خمسة آلاف بندقية من الطراز الجديد وما تحتاجه النسبة من المرميات وأيضاً مقدار مائة صندوق من النوع المرسل منه مرميتين طيه . ومن مرميات بواريد مارتن هنري وبارودات غرا أعني بواريد معمل سانت آتين الفرنسية لاستعمال هذين الصنفين في بواريد أي بندقيات قبائلنا ، ولا بأس من جعل لكل نوع خمسمائة صندوق .

الثالث ـ أنا استنسبنا مركز سوقيات هذه المواد المرغوبة يكن بور سودان .

الرابع ـ بالنظر لكون المواد الغذائية واللوازم الحربية الموضحة أعلاه لا حاجة لنا بها إلا عند ابتداء الحركة وسنبلغكم اياها بصورة رسمية تبقى في الموضع المذكور ، وعند الحاجة اليها يبلغ أمير الجهة المذكورة وقائدها بالمواقع التي يقتضي سوقها اليها والوسائط التي سيكونون حاملين الوثائق بتسليمها اياهم .

الخامس ـ النقود المطلوبة يقتضي ارسالها في الحال الى أمير بور سودان ، وسيرده من طرفنا معتمد يتسلمها إما دفعة أو دفعتين حسب استطاعته وهذه علامة اعتماد الرجل آ .

السادس ـ مندوبنا في قبض المبالغ المذكورة سيتوجه الى بور سودان بعد ثلاثة اسابيع ، يعني يكون وصوله اليها في ٥ من جماد الاول حامل كتاب منا باسم الخواجة

الياس أفندي وانه يصرف له بموجبه ما لديه من ايجارات أملاكنا والامضاء صراحة باسمنا ، غير أننا معدينه يسأل عن قائد الموقع وأميره ، فأنتم تخبروهم عن ذلك الشخص وبمراجعته يجري له ما يقتضي من صرف ما لديهم بشرط الا يبحثوا معه في أي موضوع كان مؤكدين غاية التأكيد في عدم المظاهرة له وكتمان أمره ومعاملته في الظاهر بأنه لا شيء ، لا يظن ان ثقتنا للشخص الأخير من اعتماد الاول حامله هذا لا بل لعدم ضياع الوقت لتعييننا له خدمة في جهة ثانية ، مع تكرر رجاءنا بعدم اركابه وابعاثه في بابور أو في شيء من هذه الرسميات فان وسائطه كافية .

السابع ـ مندوبنا حامل هذا أكدنا عليه بايصال هذا وأظن ان مأموريته في هذا الدور تمت ، حيث ان الحالة علمت أساساتها وفروعها فلا حاجة في بعث شخص آخر ، اذ أن اللزوم للمخابرة يكن منا ، ولا سيما أن مندوبنا الاخير سيردكم بعد ثلاثة أسابيع يمكن في ظرفها افادتنا بما يلزم له الحال وألا يعامل في الصورة الظاهرة الا معاملة بسيطة .

الثامن ـ تعهد الحكومة البريطانية العظمى قبول هذه المصاريف الحربية بموجب الدفاتر التي تقدم اليها ببيان الوجهة التي صرفت فيها .

وبالختام أهديكم أشواقي التي لا تعد واحتشامي الذي ليس له .

***



الرسالة الخامسة

مذكرة السير هنري مكماهون الخامسة الى الشريف حسين
القاهرة في ٦ جمادي الأولى سنة ١٣٣٤ (١٠ آذار ١٩١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الطاهر والنسب الفاخر قبلة الاسلام والمسلمين معدن الشرف وطيب المحتد سلالة مهبط الوحي المحمدي الشريف ابن الشريف صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم زاده الله رفعة وعلاء آمين .

بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الالفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع الى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤ رخ بـ ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين ، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها وانها لموافقة في الاحوال وأن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تصادق عليها .

وقد يسرني أن اخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم وان كل شيء رغبتم الاسراع فيه وفي ارساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا . والاشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى في بور سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وابلاغنا اياها بصورة رسمية (كما ذكرتم) وبالمواقع التي يقتضي سوقها اليها والوسائط التي يكونون حاملين الوثائق بتسليمها اياهم .

ان كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بور سودان وهو سيجريها حسب رغبتكم ـ وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لارسال رسولكم حامل خطابكم الاخير الى جزان حتى يؤدي مأموريته التي نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج وسيعود الى بور سودان وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله .

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم أو ما عساه ينتج سوء تفاهم ، ألا وهو أنه يوجد بعض المراكز أو النقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال أنهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية في البحر الاحمر . وعليه نرى أنه من الضروري أن نأخذ التدابير الفعالة ضدهم ، ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الابرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لأننا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية .

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر اذا بلغكم خبراً مكذوباً عن الأسباب التي تضطرنا الى أي عمل من هذا القبيل . وقد بلغنا اشاعات مؤداها أن اعداءنا الالداء باذلون جهدهم في أعمال السفن ليبثوا بها الألغام في البحر الاحمر ولالحاق الاضرار بمصالحنا في ذلك البحر ، وانا نرجوكم سرعة اخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم .

وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع للأتراك عدداً عظيماً من الجمال ، وقد أرسلت الى دمشق الشام . ونؤمل أن تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك ، واذا صمم على ما هو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سوريا أن يقبضوا على الجمال حال سيرها ، ولا شك أن في ذلك صالح لمصلحتنا المتبادلة .

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الالمان والأتراك قد ابتدأوا يعرفون خطأهم وهم يأتون الينا وحداناً وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد اليهم . وقد والحمد لله هزمنا القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا . وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم .

وان لسقوط ارضروم من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقاز تأثيراً عظيماً ، وهو في مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل له واياكم .

ونسأل الله عز وجل أن يكلل مساعيكم بتاج النجاح والفلاح وأن يمهد لكم في كامل أعمالكم أحسن السبل والمناهج .

وفي الختام ، اقدم لدولتكم ولكامل أفراد أسرتكم الشريفة عظيم الاحترامات وكامل ضروب المودة والاخلاص مع المحبة التي لا يزعزعها كر العصور ومرور الايام .

كتبـه المخلص
(السير أرثر هنري مكماهون)
نائب جلالة الملك بمصر

***



كيف فهمت بريطانيا رسائل الحسين - مكماهون

٤ - ٢ (*)

التسوية في اراضي تركيا وشبه الجزيرة العربية

(مترجم)

دائرة الاستخبارات السياسية C. A. B 27/87 (E. C. 2525)

وزارة الخارجية

خاص رقم ١

لندن : تشرين الثاني ١٩١٨

بموجب اتفاقي ٢٩/٧/١٩١٣ و ٩/٣/١٩١٤ بين بريطانيا والحكومة العثمانية ، فقد تمّ الاعتراف بأن تكون محمية عدن وأراضي شبه الجزيرة الساحلية في الجنوب والشرق حتى خط العرض ٢٠° ومن هناك حتى جنوب جزيرة البحرين في الخليج - منطقة نفوذ بريطانية . وقد دخل جميع الحكام العرب المستقلين ، تقريباً ، في هذه المنطقة ، قبل ذلك ، في علاقات دائمة مع الحكومة البريطانية ، والباقون دخلوا في علاقات مع بريطانيا ، بعد ذلك

لقد أصبحت اتفاقاتنا مع تركيا بحكم الملغاة منذ اعلان الحرب ، وكذلك اتفاقاتنا مع

(*) مأخوذة عن كتاب السيد سليمان موسى : « المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ » المجلد الاول - ص ٢٣٣ - ٢٤٢ .

روسيا منذ عقد الحكومة البلشفية الصلح مع المانيا . وهذا يترك الاتفاقات التي ما يزال العمل جارياً بها ، ومنها :

- التأكيد المعطى لشيخ الكويت في ٣/ ١١/ ١٩١٤ .

- المعاهدة مع ايطاليا بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٩١٥ .

- المعاهدة مع السيد الادريسي (وقعت في ٣٠/ ٤/ ١٩١٥ وصودق عليها في ٦/ ١١/ ١٩١٥) .

- التفاهم مع الملك حسين الذي لم ينظم في معاهدة .

- المعاهدة مع عبد العزيز السعود (وقعت في ٢٦/ ١٢/ ١٩١٥ وصودق عليها في ١٨/ ٧/ ١٩١٦) .

- الاتفاقية مع فرنسا بتاريخ ١٦/ ٥/ ١٩١٦ (سايكس - بيكو) .

- الاتفاقية مع ايطاليا بتاريخ ١٨/ ٨/ ١٩١٧ .

- رسالة بلفور بتاريخ ٢/ ١١/ ١٩١٧ الى اللورد روتشيلد حول المطامح اليهودية - الصهيونية .

- التصريح البريطاني - الفرنسي المشترك بتاريخ ٩/ ١١/ ١٩١٨ حول مستقبل سورية والعراق .

ان حكومة جلالة الملك لم تلتزم بأية تنازلات عن حقوقها وامتيازاتها السابقة ، في هذه المنطقة ، ولكنها أعلنت بصفة عامة أن السكان غير الاتراك سيحررون من مساوىء الحكم التركي وستمنح لهم فرصة الحياة القومية والتطور الاقتصادي . . .

ان التزاماتنا في البلاد العربية تنبع من اشتراكنا في التوقيع على النظام الخاص بلبنان (سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٤) ومن المعاهدات والاتفاقيات التي عقدنا مع سلطاني المكلا ومسقط وزعماء عُمَان ، وشيخي الكويت وقطر ، وابن سعود والادريسي والحكام العرب الآخرين ، ومع شيوخ المحمّرة .

وشريطة المحافظة على الالتزامات والحقوق المذكورة آنفاً وعلى أساس عدم الحاق الضرر بمصالح فرنسا ، فان الحكومة البريطانية تعهدت للملك حسين (بموجب كتاب مكماهون المؤرخ ٢٤/ ١٠/ ١٩١٥) بأن يكون الحجاز والمنطقتان الحمراء والسمراء ،

وجيب عكا ـ حيفا ، والمنطقتان (أ) و (ب) « عربية » و « ومستقلة » باستثناء محمية عدن[1] .

اننا غير ملتزمين بتأسيس دولة موحدة ، أو دولة اتحادية ، في هذه المنطقة ، ولم نلتزم بمعاضدة سيادة الملك حسين خارج حدود الحجاز ، لقد طالب الملك حسين بحدود الاستقلال العربي ونحن وافقنا عليها ، ليس باسمه الشخصي بل بصفته ناطقاً باسم أهل البلاد . وقد اعطينا عهدنا له بهذه الصفة فقط .

ونتيجة لاتفاقياتنا مع الملك حسين والحكام المستقلين الآخرين ، ومع حلفائنا ، فقد اكتسبنا مركزاً خاصاً لأنفسنا في شبه جزيرة العرب لا تتمتع بمثله الدول الاجنبية الاخرى .

لا توجد اتفاقيات بيننا وبين الامام يحيى (اليمن) أو ابن رشيد أمير جبل شمر . ومن المحتمل أن اعتراف ابن رشيد مؤخراً بسيادة الملك حسين سيحول دون انشاء علاقات مباشرة بينه وبين الحكومة البريطانية .

لقد قطعنا عهداً للملك حسين بان جميع أراضي شبه الجزيرة العربية ـ باستثناء محمية عدن ـ ستكون « مستقلة » و « عربية » وبكلمة أخرى فقد تعهدنا باخراج الاتراك ، ثم ابقاء الوضع على ما كان عليه . وعلاوة على هذا فقد أعلنا بموجب تصريح ١١ حزيران ١٩١٨ الذي أصدرته وزارة الخارجية جواباً على مذكرة السوريين المقيمين في مصر « بأن حكومة جلالته تعترف بالاستقلال والسيادة التامين للعرب القاطنين التي حرروها بجهودهم من السيطرة التركية أثناء هذه الحرب ، وتتعهد بمعاضدتهم في جهادهم لنيل الحرية » .

وقد اعترفت فرنسا في مباحثات لاحقة بأن لبريطانيا « مصالح سياسية خاصة » في شبه الجزيرة العربية .

ولقد اعترفنا بالشريف حسين حاكماً مستقلاً مع لقب « سيادة ملك الحجاز » . ولكن الحسين من جانبه لم يقبل هذا اللقب ، وهو يعتبر نفسه « جلالة ملك العرب » وان تفاهمنا معه بصفته حاكماً محلياً لا يزيد عن كونه اعترافاً باستقلال الحجاز ، وهو بمثابة ترتيب مؤقت للسير في الحرب معاً .

وقد قبلت الحكومة الفرنسية بأن تتم المفاوضات مع العرب عن طريق بريطانيا . وأثناء المباحثات المتعلقة بلقب الملك حسين ، التزمت فرنسا بهذا الترتيب . وقد أرسلت فرنسا بعثة عسكرية الى جدة ومندوباً فرنسياً مسلماً الى مكة .

---

(١) أي ان الاستثناء من تعهد بريطانيا يشمل الساحل السوري الى الشمال من فلسطين فقط .

وفيما يتعلق بالعراق : فان الحكومة البريطانية قد قطعت عهداً للملك حسين بأن يكون « مستقلاً » و « عربياً » . ولكن الملك حسين وافق على أن تتخذ بريطانيا اجراءات ادارية خاصة في ولايتي البصرة وبغداد . واقترح الملك حسين ان يكون هذا الترتيب قصير المدى ، وان يتم التعويض عنه بمبلغ من المال من ايرادات العراق . ولكن الحكومة البريطانية لم تلتزم بدفع أية مبالغ ، ولم توافق على أي تحديد لسيطرتها ، سواء من ناحية طول المدة أو من ناحية الصلاحيات .

أما بشأن الجزيرة (ولاية الموصل) فاننا لم نطلب من الملك حسين أن يوافق على أية تحفظات بشأن استقلالها .

وبموجب التصريح للسوريين المقيمين في مصر ، وبموجب التصريح البريطاني - الفرنسي ، فقد التزمت بريطانيا بمبدأ تقرير المصير ، وترك الحرية للاهلين كي يختاروا نوع الحكم الذي يريدونه .

وبشأن سورية : لقد قطعنا عهداً للملك حسين بأن سورية ، والجزيرة السورية ، سوف تكون « مستقلة » و « عربية » ما دام ذلك لا يلحق ضرراً بمصالح فرنسا . وقد وافقنا على أن تنشيء فرنسا في المنطقة الزرقاء ادارة مباشرة أو غير مباشرة ، حسبما ترغب ، وأن تكون لها الاولوية في منطقة (أ) . بينما تعهدت فرنسا لنا بأن تعترف بدولة عربية مستقلة في المنطقة (أ) وأن تعاضدها .

هذا وأن منطقة شرقي الازدن ، وجزءاً من المنطقة البدوية التي تعتمد على سورية (المناطق المحاذية لسكة حديد الحجاز من درعا الى معان ووادي السرحان) هي من ضمن المنطقة (ب) حيث ستكون لنا الاولوية السياسية والاقتصادية .

ان تصريحنا للسوريين وتصريحنا المشترك مع فرنسا ، يشملان مستقبل سورية ، ومستقبل العراق أيضاً .

وبشأن فلسطين (غربي نهر الاردن) : لقد قطعنا عهداً للملك حسين بأن تكون هذه المنطقة « عربية » و « مستقلة » .

وقد وافقت فرنسا وايطاليا على أن تخضع عكا وحيفا لبريطانيا العظمى .

وفي المنطقة السمراء (أي فلسطين باستثناء الخليل) وافقت بريطانيا وفرنسا وايطاليا على انشاء ادارة دولية ، بالتشاور مع دول الحلفاء الاخرى وممثلي الملك حسين[1] .

---

(١)الاشارة الى المناطق الزرقاء والحمراء والسمراء ، والى منطقتي (أ) و (ب) مستمدة من اتفاقية سايكس - بيكو .

٢٠٥

دائرة الاستخبارات السياسية　　　　F. O. 882/13
وزارة الخارجية ـ خاص ٣　　　　تشرين الثاني ١٩١٨

ان التزاماتنا للملك حسين ليست مسجلة في أية اتفاقية أو معاهدة وقّعها ، أو حتى اعترف بها الفريقان . ومن هذه الناحية فانها تختلف عن الاتفاقات المعقودة مع بعض الحكام العرب المستقلين مثل الادريسي وابن سعود . ويمكن تحليل هذه الالتزامات عن طريق تلخيص تاريخ علاقاتنا مع الملك أثناء الحرب . ويزداد الوضع تعقيداً بسبب عادة الملك حسين في رفض أو تجاهل الشروط التي وضعناها والتي يعترض عليها ، وفي متابعته طريقه كأنما تمّ حل المسألة بيننا حسب رغبته .

(هنا تمضي هذه المذكرة الى سرد تاريخ الاتصالات بين الحكومة البريطانية والشريف ، ابتداء من برقية كتشنر في أواخر ايلول ١٩١٤ الى مراسلات الحسين ـ مكماهون ، الى تصريح ٤ شباط ١٩١٨ . ثم تعرض للضمانات التي أعلنتها بريطانيا بشأن الاماكن الاسلامية المقدسة وفيما يتعلق بقضية الحدود ، تقول ان مكماهون كان قد أرسل برقية في ١٨/ ١٠/ ١٩١٥ الى السير ادوار جراي وزير الخارجية البريطانية يومذاك ، جاء فيها أن محمد شريف الفاروقي أعطى الرأي التالي) :

« ان العرب سيقاومون بقوة السلاح احتلال فرنسا لمناطق حلب وحمص وحماه ودمشق ، التي هي مناطق عربية محضة . ولكن العرب . . . سوف يقبلون بعض التعديل بالنسبة للحدود الشمالية الغربية التي يقترحها شريف مكة » .

ان هذا الاقتراح من الفاروقي ذو أهمية ، ومع أنه من غير المؤكد ان جمعية دمشق [العربية الفتاة والعهد] كانت ستوافق عليه ، ومع ان الشريف حسين لم يوافق عليه اطلاقاً ، فان حكومة جلالته اتخذته أساساً للمفاوضات التي اجرتها مع فرنسا ، وهو اصل خط التقسيم بين المنطقة الزرقاء والمنطقة (أ) . وقد نقل الاقتراح الى الشريف في رسالة مكماهون المؤرخة ٢٤/ ١٠/ ١٩١٥ ولكن الشريف رفضه رفضاً باتاً في رسالته المؤرخة ٥/ ١١/ ١٩١٥ .

(ثم تمضي المذكرة الى الاستشهاد بما جاء في المراسلات حول مسألة الحدود ، وتقول ان الشريف لم يعد الى ذكرها بعد رسالته المؤرخة ١/ ١/ ١٩١٦) :

لم يعد الشريف الى ذكر مسألة الحدود بعد هذا أثناء المفاوضات ولكن هناك دلائل على أنه لم يسحب المطالب التي قدمها ، على الرغم من أن حكومة جلالته لم تقبلها .

وبعد ان تعرض المذكرة لتقارير ورسائل أخرى ، تمضي الى القول :

وفي خلال المحادثات التي أجراها الكوماندر هوجارث مع الملك حسين في الاسبوع الثاني من كانون الثاني ١٩١٨ ، استخلص هوجارث ان الملك ما زال يتوقع ان يقع خلاف بين فرنسا وبريطانيا العظمى ، ويعمل حسابه على أنه سيكون بمقدوره ارغام الفرنسيين بمعاضدتنا .

وفي ١١ شباط ١٩١٨ كتب الكولونيل باست الى السير ونجت « ان الملك حسين فسر مواد (عهد) حكومة جلالته بأنها تعطي حدوداً اقليمية واسعة جداً ، وهو يضع ثقة لا تتزعزع بمقاصد وقدرة بريطانيا العظمى على ان تفي بالعهد كما يعرّفه هو » .

ان حدود منطقة الاستقلال العربي التي التزمت بها حكومة جلالته بموجب كتاب السير هنري مكماهون (٢٤/ ١٠/ ١٩١٥) تستثني (أ) محمية عدن ، (ب) ويفترض أن تستثني أيضاً محمية البحرين ، لان رسالة الشريف المؤرخة ١٤/ ٧/ ١٩١٥ وضعت المحيط الهندي حداً للجزيرة العربية ولم تذكر الجزر .

ومن الناحية الاخرى فان حدود الاستقلال العربي تشمل (جـ) عكا ـ حيفا (د) البصرة ، مع أن اتفاقية ٦ أيار ١٩١٦ مع فرنسا (اتفاقية سايكس ـ بيكو) والمخابرات التي دارت بين وزارة الخارجية ووزارة الهند ، تفترض ان يكون هذان الموقعان قطاعين

بريطانيين في المنطقة العربية المستقلة ، يلحقان بالامبراطورية البريطانية .

وكتب السير مارك سايكس تقريراً عن محادثاته مع الفاروقي في أوائل تشرين الثاني ١٩١٥ ، فقال ان الفاروقي صرح له بان « العرب سيوافقون على أن تصبح بلدة البصرة وجميع الاراضي الصالحة للزراعة الى الجنوب منها منطقة بريطانية » . ولكن لا توجد أية وثائق أخرى عن تنازل الفاروقي هذا أو عن تنازل أي ممثل آخر من المنظمات القومية العربية . لم يذكر الملك حسين اطلاقاً احتمال منح هذا التنازل ، كما أن حكومة جلالته لم تذكر شيئاً كهذا في مراسلاتها معه .

(ثم تعرض المذكرة مرة أخرى لما دار من مراسلات بين الشريف وبريطانيا حول العراق وسورية وفلسطين ، وتقول) :

فيما يتعلق بفلسطين ، فان حكومة جلالته تعهدت ـ بموجب رسالة مكماهون الى الشريف بتاريخ ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ ـ بأن تدخل في نطاق حدود الاستقلال العربي .

(وهنا تكرر المذكرة رسالة هوجارث الشفوية في ٤ كانون الثاني ١٩١٨ والتي تضمنت القول أن هجرة اليهود الى فلسطين يجب أن لا تلحق الضرر بحرية الاهلين من الناحيتين الاقتصادية والسياسية . ثم تمضي الى القول) :

وأخيراً يجدر القول ان الملك حسين انزعج انزعاجاً شديداً لما تضمنه خطاب جمال باشا الذي ألقاه يوم ٣٠/ ١١/ ١٩١٧ في بيروت ، وأشار فيه الى الاتفاقية البريطانية الفرنسية بتاريخ ١٦ أيار ١٩١٦ ، ذلك الخطاب الذي كتبت عنه جريدة المستقبل البارسية في عددها رقم ١٠١ . وقد جاء في ذلك الخطاب ان بريطانيا وفرنسا سوف تستوليان على العراق وسورية وتحصران نفوذ الملك حسين في الحجاز .

(ثم تعرض المذكرة الى رغبة الملك حسين في التعامل مع بريطانية وحدها ، والى أن المطالب التي عرضها باسم العرب ودافع عنها ، جاءت بعد أن أعلنت الجمعيات القومية العربية ولاءها ومبايعتها له . وتتناول بالبحث رغبة العرب في القيام بالثورة في سورية والحجاز . لولا أن الاتراك عمدوا الى تفريق العسكريين العرب سنة ١٩١٥ وشنق الزعماء المدنيين في ١٩١٦ . ثم تقول المذكرة ان بقاء سورية والعراق تحت حكم الاتراك . حال دون انتشار نفوذ الملك حسين فعلياً خارج حدود الحجاز . وعندما اجتمع الوزراء والزعماء والاهلون يوم ٢٩ تشرين الاول ١٩١٦ واقسموا يمين الولاء والاخلاص للملك حسين . ردّ عليهم قائلاً) :

ان هذه الاحساسات وهذا الولاء ، لا يقتصران على أهل هذه البلاد فحسب ، بل ان العرب في سورية والعراق يتشوقون للاتحاد معنا ، ولاستعادة حريتهم ومجدهم . لقد تلقيت رسائل من زعمائهم بهذا المعنى .

(وفي ٤ تشرين الثاني ١٩١٦ بويع الشريف حسين ملكاً على العرب في مكة . وأقيم احتفال في جدة ولكن لم يحضره الممثلان البريطاني والفرنسي . وأخيراً اعترفت به الدولتان ملكاً على الحجاز فقط . وتبحث المذكرة بعد ذلك في موضوع الخلافة وتقول ان الجمعيات العربية شجعت الشريف على الطموح اليها) :

فقد ذكر الفاروقي في بياناته التي قدمها في القاهرة في تشرين الاول ١٩١٥ انه عندما كان في دمشق مع وحدته العسكرية (ربما في شتاء ١٩١٤ - ١٩١٥) وجد « ان جمعية العربية الفتاة كانت قد اعلنت مبايعتها وولاءها للشريف على أن يكون الخليفة ، ونقضت ولاءها لمحمد رشاد سلطان الاتراك . ولذلك كان أول عمل لنا بعد الانضمام الى الجمعية اننا أرسلنا (يعني العسكريين العرب) ضابطاً الى شريف مكة ، فبايعه بالنيابة عن جميع الضباط أعضاء الجمعية ، ونقضنا بيعتنا لرشاد » وأعلم الفاروقي أيضاً أن من أول أهداف الجمعية العربية « ان يكون شريف مكة خليفة وسلطاناً على الامبراطورية الجديدة » . وقال الفاروقي في محادثة مع الجنرال كلايتون « ان أعضاء الجمعية اقسموا اليمين القاطعة على القرآن بأنهم سينفذون هدفهم بالقوة ويؤسسون خلافة عربية في جزيرة العرب وسورية والعراق ، مهما كان الثمن وتحت أية ظروف ، ويبذلون في سبيل تحقيق ذلك الهدف جميع جهودهم ويضحون بما يملكون بل يضحون بحياتهم اذا اقتضى الامر » .

وهذه الحقائق والادلة تثبت ان ذلك التنظيم العربي كان قد قدم الخلافة للشريف حسين ، قبل أن يبدأ مفاوضاته معنا ، وهو تنظيم كان يستطيع الادعاء في ذلك الوقت انه يمثل الامة العربية في الاقطار العثمانية ، وهو يمثل سورية على أية حال . وهذا كله يتضمن بعض الاهمية عندما يحين وقت التسوية . ونحن من جانبنا أعلنّا أن بريطانيا ترحب بأن يستعيد العرب الخلافة .

وفي ٢ تشرين الثاني ١٩١٥ قام الآغا خان بزيارة السير جراي ، واحتج باسم مسلمي الهند على فكرة قيام خلافة عربية ، وقد أعطى له جراي التأكيد التالي :

« قلت اننا مستعدون للترحيب باستقلال العرب في البلاد التي يقطنونها ، ولكن أي وعد نعطيه للعرب ، أو أي عمل نتخذه لمعاضدتهم ، سيكون ذا طبيعة سياسية وغير دينية . اننا نعتبر قضية الخلافة ، قضية يجب أن يحلها المسلمون أنفسهم ، ولن نتدخل نحن ولا أية دولة غير اسلامية في هذا الموضوع » .

أما الشريف فقد أعطى دليلاً أوضح على سياسته تجاه موضوع الخلافة ، في الرسالة التي بعث بها في ١٩١٥/١٢/٢٨ الى السيد علي الميرغني :

« انني لم أدّع من قبل انني أمير المؤمنين ، ولكنني أوضحت لهم أكثر من مرة انني على استعداد لان أمد يدي الى أي رجل يتقدم لأخذ زمام السلطة . ولكن لقد اختارني الناس في كل جهة ، حتى اضطروني لان أتولّى قضية مستقبلهم لذلك لا أرى مجالاً لوضع شروط أخرى مثل الموافقة الاجماعية للامراء والقبائل التي ذكرت ، خاصة الشيعة ، الذين لا يملكون المؤهلات المطلوبة . . . » .

وفي محادثة هاتفية بين الشريف عبد الله وزير خارجية الحجاز وبين الكولونيل ولسون يوم ١٩١٦/١١/١ ، قال عبد الله موضحاً :

« لقد ترك جلالة الشريف موضوع الخلافة لرأي العالم الاسلامي ، ولذلك أعلن أنه لن يستبق الأمر ، وان الأمر كله متروك للرأي الاسلامي العام ، ولكن علماء القبلة اعتزموا أن لا يقبلوا خلافة الاتراك ، ولسوف تعود القضية كلها فيما بعد الى أصلها » .

وفي محادثة أخرى في اليوم التالي أعلن الملك حسين نفسه :

« لقد رفضت الخلافة تماماً ورسمياً ، تاركاً أمرها لرأي أولئك الذين يعرفون شروطها ، حتى يختار جميع المسلمين شخصاً واحداً يكون خليفة لهم . . واكرر هنا ان عدم اعلاننا الخلافة يجب الا يضعنا موضع أي شك ، حتى يصل المسلمون الى رأي واحد . انها مسألة فصل المسلمين عن الاتراك » .

وفي ١٩١٦/١١/٦ أرسلت وزارة الخارجية تعليماتها الى السير ونجت جواباً على بلاغ الشريف عبد الله . . .

وفي هذا الصدد فان لبريطانيا مصلحتين سلبيتين هما تجنّب اغضاب الرأي العام الاسلامي من جهة ، وتجنّب اغضاب الشريف من جهة أخرى[1] .

***

---

(١) اود هنا لفت النظر الى ما جاء في هذه الوثيقة حول دخول فلسطين في منطقة الاستقلال العربي ، كما تعهدت بذلك بريطانيا للشريف حسين ، وهو تأكيد يتفق تماما مع وجهة نظر الشريف التي التزم بها طوال حياته .

الملحق ب :

اتفاق سايكس - بيكو

الاتفاق الثلاثي الأطراف - سايكس بيكو - بين بريطانيا وفرنسا
وروسيا على تقسيم الامبراطورية العثمانية
في ٢٦ نيسان - ٢٣ تشرين أول ١٩١٦

اعلم وزير الخارجية البريطانية السير ادوارد جراي في ٢١ تشرين أول ١٩١٥ السفير الفرنسي في لندن ، بول كامبون ،عن مراسلات الحسين - مكماهون التي كانت حينئذ جارية ، وعرض أن تبحث الحكومتان مصالح كل منهما في آسيا العثمانية . ثم أنيطت تفصيلاً المفاوضات الانجلو- فرنسية بالسير مارك سايكس وشارل فرانسوا جورج - بيكو ، اللذين وضعا ، بحلول شباط ١٩١٦ صيغة مؤقتة لتقسيم المناطق العربية . وفي آذار سافرا الى روسيا للتباحث مع سازونوف . ولقد أعلن وزير الخارجية الروسي استعداد حكومته للموافقة على المقترحات الانجلو- فرنسية مقابل الموافقة الانجلو- فرنسية على المطالب الاقليمية في الاناضول الشمالي الشرقي . وأقر الحليفان الغربيان هذه المطالب - فرنسا في ٢٦/١٣ نيسان وانجلترة في ٢٣/١٠ أيار ١٩١٦ - لكن التصديق النهائي لم يحدث حتى ٢٣/١٠ ت ١ - ١٩١٦ . وصاغت الحكومات المتفاهمة الاتفاق الثلاثي الاطراف - الشائع باسم اتفاق سايكس - بيكو- بتبادل احدى عشرة رسالة ، تعطي الرسائل الثلاث التالية عناصرها الجوهرية .

١ - من السير ادوارد جراي الى بول كامبون في ١٥ أيار ١٩١٦ .

سوف يكون لي شرف الرد المفصل في رسالة مقبلة على رسالة سعادتكم المؤ رخة في التاسع من الشهر الجاري ، والمتعلقة بانشاء دولة عربية ، لكنني أكون ممتناً الآن إذا أكدتم لي سعادتكم أن تلك المناطق التي سوف تصبح ، بناء على الشروط المسجلة في تلك المراسلة ، فرنسية تماماً ، أو أن المصالح الفرنسية سوف تكون لها فيها الأفضلية ، وسوف تراعى فيها أيضاً أية امتيازات بريطانية راهنة ، مثل حقوق الملاحة أو التنمية ، وحقوق وامتيازات أية مؤ سسات بريطانية دينية كانت أم علمانية أم طبية .

وان (أعضاء) حكومة جلالته هم ، طبعاً ، مستعدون لتقديم تأكيدات مقابلة تتعلق بالمناطق البريطانية .

٢ - (من) جراي الى كامبون ، ١٦ ايار ١٩١٦ .

لي الشرف بأن اعلمكم بوصول رسالة سعادتكم المؤ رخة في التاسع من الشهر الجاري ، والتي تصرح بأن الحكومة الفرنسية توافق على حدود الدولة العربية المقبلة أو اتحاد الدول العربية (المقبل) وتلك الاجزاء من سوريا التي تغلب فيها المصالح الفرنسية ، هذا مع شروط معينة ملحقة نتيجة للمباحثات الاخيرة التي جرت في لندن وبيترو جراد حول الموضوع .

ان لي الشرف بابلاغ سعادتكم ، جواباً ، أن قبول المشروع كله . كما هو الآن ، سوف يستتبع المس بمصالح بريطانية لا يستهان بها ، ولكن ، بما أن (اعضاء) حكومة جلالته ملاحظون للمزايا التي ينالها هدف الحلفاء العام من قيام وضع سياسي داخلي أكثر ملاءمة في تركيا فانهم مستعدون لتقبل التنظيمات التي تم الآن التوصل اليها ، شرط ان يتم ضمان تعاون العرب ، وان ينفذ العرب الشروط ويحصلوا على مدن حمص حماه ودمشق وحلب .

وبناء عليه فالتفاهم بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية قائم حول :

١ - ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان للاعتراف بدولة عربية أو اتحاد لدول عربية ولحمايتها[1] (أو حمايته) في المنطقتين (أ) و (ب) المؤ شر عليهما في الخارطة المرافقة ، تحت سلطة رئيس عربي . وان فرنسا ، في المنطقة (أ) وبريطانيا العظمى في المنطقة (ب) لهما الافضلية في حق انشاء المشاريع والقروض المحلية . وان لفرنسا في المنطقة (أ) ، ولبريطانيا العظمى ، في المنطقة (ب) أن تقدم ، وحدها ، المستشارين

(١) Uphold وقد تحولت الى Protect (دعم ، تقوية) في مراسلات كامبون - كريو بتاريخ ٢٥ و ٣٠ آب ١٩١٦ .

والموظفين الاجانب بناء على طلب من الدولة العربية أو اتحاد الدولة العربية .

٢ ـ ان لفرنسا ، في المنطقة الزرقاء ، ولبريطانيا العظمى ، في المنطقة الحمراء أن تقيما من الادارات أو القيادات ، المباشرة أو غير المباشرة وفق ما تشاءان أو تريان مناسباً ترتيبه مع الدولة العربية أو اتحاد الدول العربية .

٣ ـ أن تقام في المنطقة ذات اللون البني ادارة دولية يتم البت بشأن شكلها بعد التشاور مع روسيا ، وبالتالي مع باقي الحلفاء ، ومع ممثلي شريف مكة .

٤ ـ تنال بريطانياميناءي حيفاوعكا ضمان تموين محدد من المياه من دجلة والفرات في المنطقة (أ) الى المنطقة (ب) .

و (أعضاء) حكومة جلالته يلتزمون ، من جانبهم ، بالا يدخلوا ، في أي وقت ، في مفاوضات من أجل تسليم قبرص لاي فريق ثالث بدون موافقة مسبقة من الحكومة الفرنسية .

٥ ـ تكون الاسكندرونة مرفأ حراً فيما يتعلق بتجارة الامبراطورية البريطانية ، ولا يحصل اي تمييز في رسوم المرفأ أو مرافقه ، يستهدف النقل البحري البريطاني أو البضائع البريطانية ، وتكون للبضائع البريطانية حرية العبور (الترانزيت) خلال الاسكندرونة وخلال المنطقة الزرقاء بالسكة الحديدية سواء أكانت هذه البضائع متجهة الى المنطقة الحمراء والمنطقة (ب) ، والمنطقة (أ) ، أو ناشئة فيها ، ولن يكون ثمة أي تمييز ، مباشر أو غير مباشر ، ضد البضائع البريطانية على أي خط حديدي أو ضد البضائع أو السفن البريطانية في أي مرفأ يخدم المناطق المذكورة .

وتكون حيفا مرفأ حراً فيما يتعلق بتجارة فرنسا والدومنيون الفرنسي ومحميات (فرنسا) ، وانه سوف تكون للبضائع الفرنسية حرية العبور ، (الترانزيت) خلال حيفا ، وخلال المنطقة ذات اللون البني بالسكة الحديدية البريطانية ، سواء أكانت هذه البضائع متجهة الى ، أو ناشئة في المنطقة الزرقاء ، أو المنطقة (أ) ، او المنطقة (ب) ، وأنه سوف لن يكون ثمة أي تمييز ، مباشر أو غير مباشر ، ضد البضائع الفرنسية على أي خط حديدي ، أو ضد البضائع أو السفن الفرنسية في أي مرفأ يخدم المناطق المذكورة .

٦ ـ ان « سكة حديد بغداد » سوف لن تمتد جنوباً ، في المنطقة (أ) ، الى ما يتجاوز الموصل وشمالاً ، في المنطقة (ب) ، الى ما يتجاوز سامراء ، وذلك الى ان يكتمل بناء سكة حديدية تصل بغداد بحلب عن طريق وادي الفرات ، وحتى حينئذ لا يكون هذا الا باتفاق الحكومتين .

٧ ـ ان لبريطانيا العظمى الحق في بناء سكة حديد تصل حيفا بالمنطقة (ب) وفي ادارتها وفي ان تكون المالكة الوحيدة لها ، وان لها حقاً دائما في نقل الجنود على مثل هذا الخط في جميع الاوقات .

ويجب ان يكون مفهوما لدى كلتا الحكومتين ان هذه السكة هي لتسهيل ربط بغداد بحيفا بسكة حديد ، ومن المفهوم أيضاً أنه اذا أدت الصعوبات الهندسية والمالية الناجمة عن حصر هذا الخط الواصل في المنطقة ذات اللون البني الى جعل المشروع غير ذي جدوى ، فان الحكومة الفرنسية سوف تكون مستعدة لاعتبار ان الخط موضوع المسألة يمكن له أيضاً ان يقطع المضلع بانياس ـ ام قيس ـ مأرب ـ صلخد ـ تل عدا ـ المسمية قبل وصوله الى المنطقة (ب) .

٨ ـ ان التعرفات الجمركية التركية الراهنة سوف تبقى ، لمدة عشرين سنة ، سارية على جميع المناطق ، الزرقاء والحمراء والمنطقة (أ) والمنطقة (ب) وانه سوف لن تحدث زيادة في نسبة الرسوم . أو تحول من الرسوم على القيمة المخمنة Advalores الى الرسوم العينية الا باتفاق بين كلتا القوتين .

وسوف لن تقام أية حواجز جمركية داخلية بين المناطق المذكورة أعلاه . وسوف تحصل الرسوم الجمركية على البضائع المتجهة الى الداخل في مرفأ الوصول وتسلم الى ادارة المنطقة التي هي جهة البضائع .

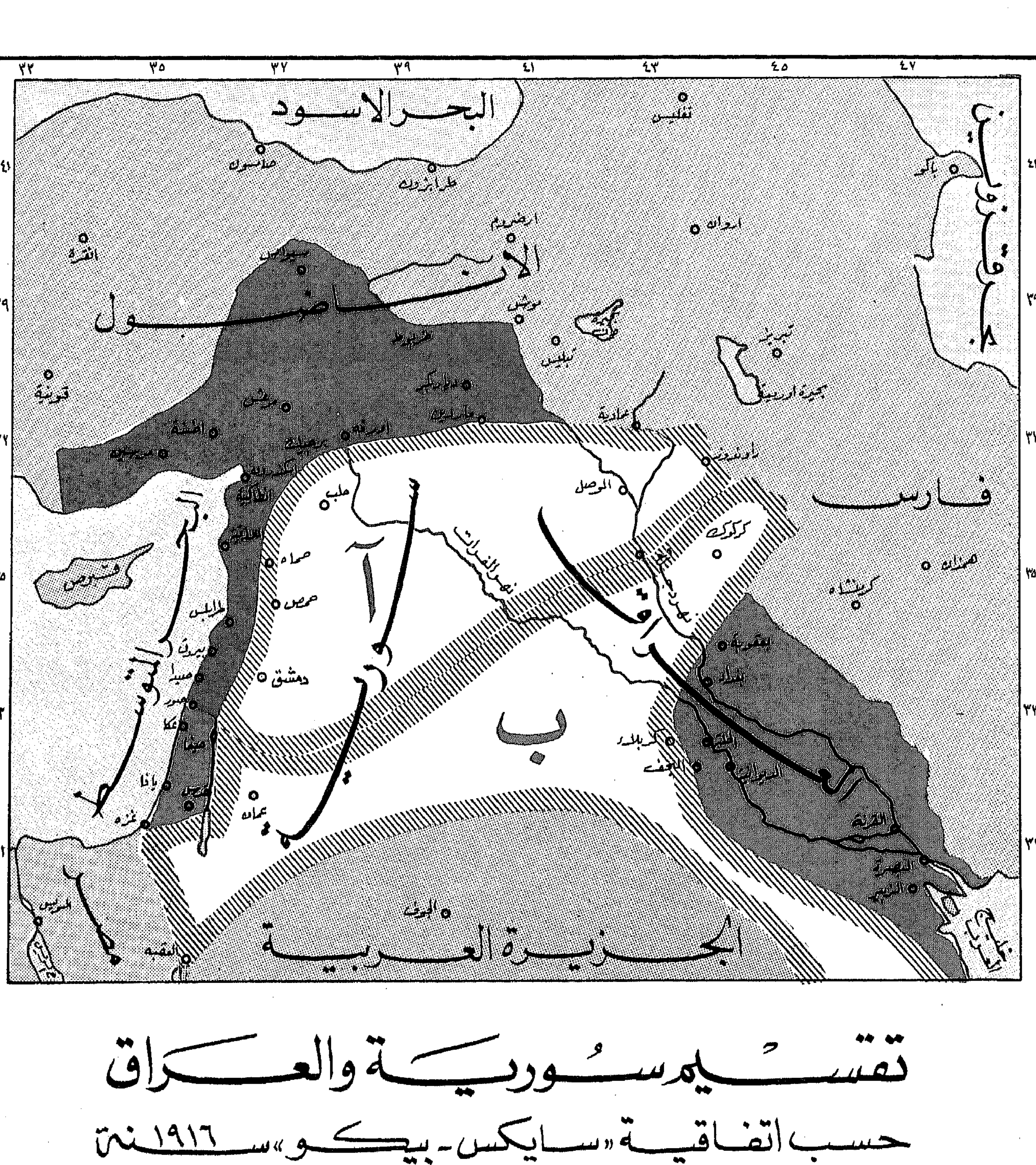
٩ ـ من المتفق عليه ان (أعضاء) الحكومة الفرنسية لن يدخلوا ، في أي وقت ، في أية مفاوضات للتنازل عن حقوقهم ، وانهم لن يتنازلوا عن هذه الحقوق لاي طرف ثالث باستثناء الدولة العربية أو اتحاد الدولة العربية ، بدون موافقة مسبقة من (أعضاء) حكومة جلالته ، الذين سوف يقدمون ، من جانبهم ، تعهداً مماثلاً للحكومة الفرنسية يتعلق بالمنطقة الحمراء .

١٠ ـ ان الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، بوصفهما حاميتي الدولة العربية [1] ، تقران بأنهما لن تحصلا لذاتيهما ، ولن توافقا على ان تحصل قوة ثالثة ، على ممتلكات اقليمية في شبه الجزيرة العربية ، كما لن توافقا على أن تقيم قوة ثالثة لها قاعدة بحرية على الساحل الشرقي للبحر الاحمر ولا على جزره . ولكن هذا لا يمنع تعديل الجبهة المدنية بما قد تفرضه الضرورة نتيجة للعدوان التركي الاخير .

١١ ـ ان المفاوضات مع العرب بخصوص الدولة العربية أو اتحاد الدول العربية

---

(١) حذفت عبارة « بوصفهما حاميتي الدولة العربية » في آب ١٩١٦ بناء على طلب فرنسا .



تقسيم سورية والعراق

حسب اتفاقية «سايكس-بيكو» سنة ١٩١٦

سوف تستمر ، خلال الاقنية ذاتها ، باسم كلتا القوتين .

١٢ ـ من المتفق عليه ان اجراءات تقييد توريد الاسلحة الى داخل المناطق العربية سوف يجري البحث فيها من قبل كلتا الحكومتين .

وأيضاً لي الشرف أن اذكر أن (أعضاء) حكومة جلالته يقترحون ، في سبيل اكمال الاتفاق ، على الحكومة الروسية ان تتبادل معهم رسائل مشابهة لتلك التي تبودلت بين تلك الاخيرة وبين حكومة سعادتكم بتاريخ العشرين من نيسان الماضي ، وسوف ترسل الى سعادتكم نسخاً من تلك الرسائل حالما يجري تبادلها .

وارجو أيضاً ان تسمحوا لي بتذكير سعادتكم بأن اتمام الاتفاق الحالي يثير ، لاعتبارات عملية ، مسألة مطالبة ايطاليا بحصة لها في تقسيم أو اعادة تنظيم لتركيا الآسيوية ، كما جاء في الفقرة ٩ من اتفاق ٢٩ نيسان ١٩١٥ بين ايطاليا والحلفاء .

كما يرى (أعضاء) حكومة جلالته أيضاً ان الحكومة اليابانية يجب اعلامها عن هذه الترتيبات التي تم اقرارها .

٣ ـ (من) السير ادوارد جراي الى الكونت بنكندورف[1]
السفير الروسي في لندن ١٠/٢٣ أيار ١٩١٦

لقد تسلمت من السفير الفرنسي في لندن نسخاً من الرسائل التي تبودلت بين الحكومتين الروسية والفرنسية في السادس والعشرين من الشهر الماضي ، والتي قبل فيها أعضاء حكومتهم مقابل بعض الشروط ، الترتيبات التي اتخذتها بريطانيا العظمى وفرنسا بخصوص انشاء دولة عربية أو اتحاد لدول عربية وفصل سوريا وكيليكيا وما بين النهرين . على أن يتأمن التعاون العربي .

ان (أعضاء) حكومة جلالته ، علموا ممتنين أن (أعضاء) حكومة سعادتكم أقروا الحدود الواردة في تلك الاتفاقية ، ولي الشرف باعلام سعادتكم بأن (أعضاء) حكومة جلالته هم بدورهم ، ومن أجل اتمام الاتفاقية ، مستعدون أيضاً لقبول الشروط التي وضعتها الحكومة الروسية وقبلتها الحكومة الفرنسية في الرسائل المتبادلة في بيترغراد بتاريخ السادس والعشرين الماضي .

وعلى هذا ، فبقدر ما تؤثر هذه الترتيبات ، مباشرة ، في علاقات روسيا وبريطانيا

---

(١) متفقة مع مراسلات سازونوف ـ باليولوج المؤرخة بتاريخ ٢٦/١٣ نيسان ورسائل بنكندورف الى الفيكونت جراي المؤرخة بتاريخ ١٩ آب ، ١ ايلول ١٩١٦ .

العظمى ، لي الشرف أن ادعو حكومة جلالتكم لقبول اتفاقية حول الامور الآتية :

١ ـ ان روسيا سوف تضم اليها مناطق ' : روم وطرابزون ووان وبتليس وذلك صعوداً حتى نقطة تعين فيما بعد وتقع على ساحل البحر الاسود الى الغرب من طرابزون .

٢ ـ ان منطقة كردستان الى الجنوب من وان وبتليس بين موش وزهرت ومجرى دجلة ، وجزيرة ابن عمر ، وخط قمم الجبال الواقعة في العمادية ومنطقة مرج وارسوف تسلم لروسيا ، وان حدود الدولة العربية سوف تبدأ من منطقة مرج وار وتتبع خط قمم الجبال التي تفصل في الوقت الحاضر المناطق العثمانية عن الفارسية . ان هذه الحدود مشار اليها بصورة عامة وهي خاضعة للتعديل في تفصيلاتها بحسب مقترحات لجنة تسوية الحدود التي سوف تجتمع في المواقع ذاتها .

٣ ـ ان (أعضاء) الحكومة الروسية ملتزمون بأن أية امتيازات قدمتها الحكومة العثمانية للرعايا البريطانيين سوف تبقى . واذا عبر (أعضاء) الحكومة الروسية عن رغبتهم بتعديل هذه الامتيازات في المستقبل لكي تصبح متفقة مع قوانين الامبراطورية الروسية ، فان هذا التعديل لن يحصل الا بالاتفاق مع الحكومة البريطانية .

٤ ـ يتم الحفاظ في كل أقسام المناطق العثمانية المتنازل عنها بناء على هذا لروسيا ، على الحقوق البريطانية في الملاحة والتطوير ، وحقوق وامتيازات أية مؤسسات بريطانية دينية أو علمانية أو طبية . كما أن (أعضاء) حكومة جلالته يتعهدون ، بدورهم ، بالحفاظ على الحقوق والامتيازات الروسية المماثلة في المناطق التي سوف تصبح ، بناء على شروط هذا الاتفاق ، بريطانية تماماً ، أو التي سوف تصبح المصالح البريطانية معتبرة فيها وذات أفضلية .

٥ ـ ان الحكومتين موافقتان من حيث المبدأ على أن كل دولة تضم اليها أي جزء من الامبراطورية العثمانية مطالبة بالمساهمة في اطفاء « الدين العثماني » .

***

وثائق تثبيت اتفاق سايكس - بيكو

صورة الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية لأجل تثبيت اتفاق سايكس - بيكو بواسطة السير ادوارد غراي و. ب. كامبون في أيار سنة ١٩١٦

الرسالة الأولى

من مسيو ب . كامبون الى السير ا. غراي
٩ أيار سنة ١٩١٦

١ ـ تميل فرنسا وبريطانيا العظمى الى الاعتراف بدولة عربية مستقلة أو حلف من الدول العربية المستقلة في منطقتي الالف والباء كما هو مبين في المصور (الخريطة) بامارة زعيم عربي وتقدمان لها الحماية ويكون لفرنسا في منطقة الالف ولبريطانيا العظمى في منطقة الباء الحق الاول في عقد القروض وفي التزام المشاريع المحلية . وتقدم فرنسا في منطقة الالف وبريطانيا العظمى في منطقة الباء المستشارين الفنيين والاداريين حينما ترى الدولة العربية أو الحلف العربي ضرورة ذلك .

٢ ـ تفوض فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا العظمى في المنطقة الحمراء وتعملان فيهما على ما ترغبان فيه أي أن تديراهما مباشرة أو غير مباشرة بالاشتراك مع العرب وتأسيس دولة عربية أو حلف من الدول العربية .

٣ ـ تدار المنطقة السمراء بادارة دولية ويترك أمر البت في تعيين شكلها الى أن تتم المفاوضة مع روسيا وسائر الحلفاء ومندوبي شريف مكة .

٤ ـ تعطى بريطانيا العظمى :

أولاً : مرفأي حيفا وعكا .

ثانياً : كمية معينة من ماء نهري دجلة والفرات تؤخذ من منطقة الالف وتعطى لمنطقة الباء . وعلى حكومة جلالة الملك مقابل ذلك ان لا تفاوض في وقت من الاوقات دولة من الدول بشأن تسليمها قبرص قبل أن توافق فرنسا على ذلك .

٥ ـ تكون الاسكندرونة مرفأ حراً للتجارة البريطانية لا يكون فيها تفاوت أو اختلاف في الرسوم الجمركية ولا ترفض التسهيلات الخاصة التي من شأنها الاسراع بنقل البضائع البريطانية وشحنهابالبحراو بالخطوط الحديدية التي تمر بالمنطقة الزرقاء لا فرق في أن تكون هذه البضائع واردة أو صادرة من المنطقة الزرقاء أو من منطقة الالف أو الباء .

٦ ـ لا تمد سكة حديد بغداد بمنطقة الالف جنوباً الى ما وراء الموصل ولا بمنطقة الباء شمالاً الى ما وراء سامراءقبل ان يتم انشاء السكة الحديدية بين حلب وبغداد عن طريق وادي الفرات وقبل أن يوافق الفريقان على ذلك التمديد .

٧ ـ يحق لبريطانيا العظمى وحدها أن تنشىء وتدير وتمتلك خطاً حديدياً يبتدىء من حيفا وينتهي بمنطقة الباء ولها الحق أيضاً أن تنقل الجنود والمواد الحربية على هذا الخط الحديدي متى شاءت . ومن المعلوم عند الحكومتين ان هذا الخط هو لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فاذا تعذر مده فنياً في المنطقة السمراء واقتضى الأمر لمروره بغيرها تسمح فرنسا بذلك .

٨ ـ تبقى تعرفة المكوس العثمانية كما كانت عليه سابقاً لمدة عشرين سنة في المنطقة الحمراء والزرقاء والالف والباء ولا يصير فيها تغيير أو تبديل الا بمعرفة الفريقين وموافقتهما .

لا توضع رسوم جمركية داخلية بين المناطق المذكورة أعلاه بل تحصل تلك الرسوم بحسب الاصول في المرفأ الذي ترد اليه البضائع وتسلم بعد ذلك الى الادارة الداخلية التي تخصها تلك البضائع .

٩ ـ من البديهي ان فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة في وقت من الاوقات بشأن التنازل عن ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء ولا تتخلى عن هذه الحقوق الا الى الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة قبل أن توافق حكومة جلالة الملك على ذلك وعلى حكومة جلالته ان تعمل بموجب هذه الشروط في المنطقة الحمراء .

١٠ ـ يوافق الفريقان المتعاقدان الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية الحاميتين للدولة العربية ان لا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك ملكاً ما في أراضي شبه جزيرة العرب ولا

تتخذ قاعدة بحرية في الجزر الواقعة الى شرق ساحل البحر الاحمر وهذا لا يمنع أن تعدل الحكومة البريطانية جهة عدن بمقتضى الاصول الفنية والاحوال الخاصة إلا بعد أن ثبتت ضرورة ذلك على أثر التعدي التركي .

١١ ـ تجري المفاوضة مع العرب بخصوص تخوم الدولة العربية أو الدول العربية المتحدة كما في السابق باسم الدولتين .

١٢ ـ من المعلوم ان مراقبة توريد الاسلحة الى البلاد العربية منوط بالدولتين .

الرسالة الثانية

من مسيو ب . كامبون الى السير غراي في ١٥ أيار سنة ١٩١٦

قبل أن تجاوب فخامتكم على رسالتنا في تاريخ ٩ أيار سنة ١٩١٦ بخصوص تأليف دولة عربية ابديتم رغبتكم في اضافة بعض التأكيدات للمحافظة على حقوق الملاحة والامتيازات الدينية وامتيازات المدارس والبعثات الطبية في المناطق التي ستصبح فرنسوية وفي المناطق التي ستسود فيها الادارة الفرنسية فغب الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلالة الملك ان توافق أيضاً على نفس الشروط في المناطق الداخلة في دائرتها .

ولي الشرف بأن اعلم فخامتكم ان الحكومة الفرنسية مستعدة أن تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التي ستعطى لها (أي لفرنسا) أو المناطق التي ستشتمل بعنايتها ، أما الامتيازات الدينية والمدرسية والطبية والفنية فستبقى كما في الماضي ومن المعلوم أن هذه الامتيازات لا تعني بقاء الامتيازات الاجنبية أو الامتيازات القضائية .

الرسالة الثالثة

من السير أ . غراي الى المسيو ب . كامبون في ١٦ ايار سنة ١٩١٦

يوافق على نص المعاهدة كما جاءت في كتاب المسيو ب . كامبون في تاريخ ٩ أيار سنة ١٩١٦ .

***

الملحق ج :

وعد بلفور

صدر بتاريخ ١ تشرين الثاني عام ١٩١٧ عن وزير خارجية بريطانيا ارثر جيمس بلفور تصريح موجه الى يهود فلسطين . وجاء فيه ما يلي :

« يسرني جداً أن أنقل اليكم باسم حكومة صاحب الجلالة البريطانية التصريح التالي بشأن العطف على المطامح اليهودية . وقد عرض هذا التصريح على مجلس الوزراء الذي أقره : (ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تنظر بعطف الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وستبذل أقصى المحاولات لتسهيل تحقيق هذا الهدف ، على أن يكون مفهوماً أنه لن يتم القيام بأي عمل من شأنه النيل من الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة حالياً في فلسطين أو النيل من الحقوق والمركز السياسي اللذين يتمتع بهما اليهود في أي بلد آخر) . وأكون ممتناً اذا قمتم بابلاغ مضمون هذا التصريح الى الاتحاد الصهيوني » .

(*) Balfour, Arther James (١٨٤٨ - ١٩٣٠) سياسي بريطاني من حزب المحافظين تقلب في عدة مناصب سياسية هامة : من نائب الى رئيس وزراء ، تنازل عن رئاسة حزب المحافظين بعد سلسلة من الهزائم السياسية المريرة اشترك في الحكومة الائتلافية التي كان يرئسها اسكيث ثم اصبح وزيرا للخارجية في حكومة لويد جورج اعتزل السياسة سنة ١٩٢٢ حتى توفي .

الملحق د :

بنود ويلسون الأربعة عشر

١ ـ لا مؤتمرات سلم مغلقة أو اتفاقات خاصة وسرية بين الامـم ، بل دبلومـاسية تسعى في المستقبل لتأمين ما يراه الجميع ويرضون عنه .

٢ ـ الحرية المطلقة للملاحة البحرية خارج المياه الاقليمية ، في زمن السلم كما في زمن الحرب ، الا في حال وجود بحار مغلقة كلياً أو جزئياً كبحر مرمره .

٣ ـ ازالة ما أمكن من العقبات الاقتصادية ، والمعاملة بالمثل من قبل جميع الـدول المشتركة في اقرار السلم .

٤ ـ ايجاد الضمانات الناجعة لفرض حد أدنى من التسلح ، والاكتفاء بما يلزم لحفظ الامن الداخلي .

٥ ـ تسوية أوضاع المستعمرات مع وجوب مراعاة مصالح الشعوب المستَعمَرة والدول المستعمِرَة .

٦ ـ الانسحاب من المناطق الروسية ، مع الاقـرار لروسيا بحـق تقـرير استقلالهـا وتنظيمها القومي ، وتقديم المساعدات المختلفة لها اذا لزم الأمر .

٧ ـ الجلاء عن بلجيكا والاقرار بسيادتها والا تزعزعت كل مبادىء القانون الدولي .

٨ ـ تحرير الاراضي الفرنسية المحتلة ، وازالة الحيف اللاحق بها من جراء احتلال المانيا للالزاس واللورين عام ١٨٧٠ ، الأمر الذي هدد السلم العالمي مدة أربعين عاماً .

٩ ـ تصحيح الحدود الايطالية تبعاً للميول لدى شعوب مناطق الحدود .

١٠ ـ الاقرار بحرية امم « النمسا ـ المجر » ، والاعتراف لها بمركزها بين أمم العالم وبحقها في تطوير أوضاعها الذاتية .

١١ ـ الجلاء عن رومانيا والجبل الأسود والصرب ، مع الاعتراف لهذه الأخيرة بمنفذ على البحر . على أن تنتظم العلاقات بين دول البلقان بتبادل وجهات النظر ومراعاة حقوق القوميات المختلفة .

١٢ ـ الحفاظ على سيادة المناطق التركية من السلطنة العثمانية . أما سائر القوميات الخاضعة لتركيا سابقاً فيُضمن حقها في البقاء والنمو الذاتي .

١٣ ـ انشاء دولة بولندية تضم كل العناصر القومية البولندية ، مع اعطائها منفذاً على البحر تضمنه الاتفاقيات الدولية .

١٤ ـ إنشاء « جمعية عامة للامم » قائمة على علاقات واضحة ، غايتها توفير ضمانات متبادلة ومتساوية في الاستقلال السياسي والقومي بين كل الدول .

***

الملحق هـ :

عريضة جوابية مرفوعة من قبل المؤتمر السوري العام
الى صاحب السمو الملكي الأمير فيصل المعظم

ياسمو الامير :

بكل فخر وابتهاج سمع المؤتمر السوري العام الممثل للامة السورية خطاب سموكم الملكي الذي شرحتم فيه الغاية النبيلة من دخول الحرب في صفوف الحلفاء دفاعاً عن قضيتهم ، وطلباً لاستقلالهم وحريتهم وأبنتم موقف البلاد الحاضر تجاه الازمات السياسية ، وأعربتم عن حسن نيات الحلفاء الكرام وأقطاب السياسة الاوروبية بشأن استقلال البلاد العربية عامة وبلادنا السورية خاصة استنادا على عهودهم ووعودهم .

ان الامة العربية في الوطن والمهاجر يا سمو الامير المعظم لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ولم ترق دم شهدائنا الاحرار ، وتثر على الحكومة التركية الا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها امة ذات كيان مستقل ومدنية خالدة وقومية خاصة لها الحق في ان تحكم نفسها بنفسها .

وقد دخلت الحرب العامة الى جانب الحلفاء استنادا على عهودهم المقطوعة لجلالة والدكم المعظم والوعود الرسمية السياسية التي جهر بها أقطاب ساستهم ، واقتناعاً بتحقيق مبادىء الرئيس ويلسون السامية المقررة لحرية الشعوب واستقلالها وحفظ مصالحها واعطائها الحق في تقرير مصيرها كما تفضلتم في خطاب سموكم الغالي .

وان ما قام به جلالة والدكم المعظم،وما قمتم به سموكم من الاعمال الجليلة كان أعظم عامل في الظفر وانتصار القضية العربية مما أوجب ابتهاج العرب عامة والسوريين منهم خاصة الذين جاهدوا معكم حق الجهاد في سبيل الوصول الى هذه الغاية المقدسة غاية الحرية والاستقلال التام .

لذلك فان الواجب الاول المتحتم على هذا المؤتمر الذي يتكلم بلسان الامة ويترجم عن عواطفها وآمالها ترتيل آيات الشكر والثناء على جهاد جلالة والدكم المحمود وجهاد سموكم وتكرار الدعاء الخيري بتوفيق جلالته وسموكم وسمو اخوتكم وآل بيتكم الكريم الذين اشتركوا معكم في سبيل استقلال البلاد وتحريرها وكانوا معكم أكبر عون لهذه الامة في تحقيق آمالها ورغباتها ، على ان وقوفكم وقفة الابطال في ميادين الحرب لم يكن اعظم من وقوفكم موقف الدفاع عن قضيتنا الحق في ميادين السياسة الخارجية الذي خلد لكم في بطون التاريخ أفضل الاثر .

ان تنويه سموكم بالظفر الذي تم للعالم ، وانه لم يكن عسكرياً فقط بل هو سياسي قبل كل شيء لانه ظفر الحق على القوة والحرية على الاستعباد قد أثلج صدور أعضاء المؤتمر الذين اجتمعوا في هذه العاصمة بصفتهم ممثلي الامة ليقتطفوا من حدائق الحرية ثمرة جهادها المقدسة .

وقد زادنا اطمئناناً تصريح سموكم عن رحلاتكم بأن اختباراتكم ومخابراتكم مع الساسة لم تبق مجالاً للشك في حسن نية الحلفاء سيما نحو بلادنا المحبوبة .

ان الامة يا سمو الامير لتعتمد في قضيتها الاستقلالية على حقها الصريح في الحياة واثقة بأن الحق يؤخذ ولا يعطى كما صرحتم بذلك مراراً . على أننا كأمة حية مدنية تريد حرية واستقلالاً تاماً ، وتود في الوقت نفسه أن تعيش مع سائر الامم المتمدنة على غاية من الولاء والمحبة الخالصة فسنسعى لان تكون سياستنا في المستقبل سياسة صلح ووئام مبنية على الثقة المتقابلة . والمنافع المتبادلة التي لا تمس باستقلالنا التام .

ان المؤتمر السوري العام ليقدر يا سمو الامير مهمته الخطيرة حق قدرها وهو يرى ان موقف البلاد السورية من الوجهة الاحتلالية المؤقتة التي قضت بها الظروف الحربية قد آن ان ينتهي وفقاً لآمال البلاد وانقاذاً لها من مشاكلها الحاضرة . فقد مضى نحو عام ونصف والبلاد لا تزال رازحة تحت أثقال الاحتلال والتقسيم العسكري الذي ألحق بها أضراراً جمة وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية والادارية وأوقع الريبة في نفوس أبنائها من أمر مصيرهم فاندفع الشعب في كثير من انحاء البلاد وقام بثورات أهلية في المناطق المحتلة مطالباً باستقلال بلاده ووحدتها .

لذلك ولما نشاهده يومياً من عزم الامة الاكيد على المطالبة بحقها ووحدتها والعمل على الوصول الى ذلك بكل الوسائل ، واستنادا على حقنا الطبيعي والشرعي في الحياة الحرة وحق تقرير المصير وعلى دماء شهدائنا المراقة وجهادنا الطويل في هذا السبيل الشريف وعلى العهود والوعود والمبادىء السامية التي صرح بها الحلفاء الكرام قد اجتمعنا بصفتنا ممثلي الامة السورية في جميع انحاء القطر السوري تمثيلاً تاماً وقررنا باجماع الرأي استقلال بلادنا السورية التي منها فلسطين بحدودها الطبيعية استقلالاً تاماً لا شائبة فيه مبنياً على الاساس النيابي المدني وحفظ حق الاقلية ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود أو محل هجرة لهم ، وقد اخترنا باجماع الرأي سموكم ملكاً دستورياً على البلاد السورية نظراً لما امتزتم به من الحكمة وسداد الرأي وجليل الصفات ، ولما قمتم به في ميادين الحرب السياسية من الاعمال الخالدة في مصلحة الامة ، ولما عرفتم به من حبكم للحرية والدستور واخلاصكم للبلاد والامة .

وقد ضربنا موعداً لمبايعة سموكم نهار الاثنين الواقع في ١٧ جمادي الثانية سنة ١٣٣٨ و ٨ آذار سنة ١٩٢٠ الساعة الثالثة بعد الظهر ، وأعلنا انحلال الحكومات الاحتلالية في المناطق الثلاث على أن يقوم مقامها حكومة ملكية مدنية مسؤ ولة تجاه مجلس الامة على أن تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الادارية وعلى ان تراعي أماني اللبنانيين الوطنية في كيفية ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب العامة بشرط ان يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي .

هذا واننا نحتفظ باسم الامة بصداقة الحلفاء محترمين مصالحهم ومصالح سائر الاجانب كل الاحترام . وان لنا الثقة التامة في ان يتلقى الحلفاء الكرام عملنا هذا المستند الى الحق الطبيعي والشرعي بما نتحققه فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية فيدافعون على استقلالنا التام واجلاء جنودهم عن المنطقتين الغربية والجنوبية اي الساحل وفلسطين فيقوم بحفظ وتدوير الشؤ ون فيها الجند الوطني والادارة الوطنية مع الاحتفاظ بالصداقة المتقابلة لتتمكن الامة السورية من الوصول الى غاية الرقي وتكون عضواً عاملاً في المجتمع الدولي .

ولما كانت الحكومة التي قررنا تأليفها هي حكومة مسؤ ولة تجاه الامة فقد قررنا بقاء مجلسنا هذا لسن القانون الأساسي الذي تبين فيه أساسات الحكم في البلاد من جهة وتكون الحكومة مسؤ ولة تجاهه في كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام الى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلس النواب وفقاً للقانون الذي يوضع في هذا الشأن .

وقبل ان نختم عريضتنا لم نر بدأً من أن نذكر بملء الفخر الخدم الجليلة التي قام بها

اخواننا العراقيون في سبيل النهضة العربية في سني الحرب واننا لا نزال نؤ يد طلبنا السابق بإعطاء العراق حقه من الحرية والاستقلال التام . واننا نعضدُ اخواننا العراقيين في جميع مطاليبهم الاستقلالية ورفع الحواجز الاقتصادية بين القطرين الشقيقين . عارضين أخلص شعائر الطاعة والاخلاص والله يؤ يد مولانا المعظم ويلاحظ هذه الامة بعين عنايته الصمدانية آمين .

رئيس المؤتمر السوري
العام

***

بعض الوثائق التاريخية

عن لجنة الجمعية العربية من أعضاء المؤتمر السوري العام

إلى صاحب السمو الملكي الأمير فيصل المعظم

يا مولاي الأمير

بكل فخر وابتهاج سمع المؤتمر السوري العام أمس بعد ظهر اليوم خطاب سموكم الملكي الذي [illegible] عن الغاية المجيدة

التي [illegible] دخول العرب في صفوف الحلفاء ودفاعها عن قضيتهم والحلفاء لاستقلالهم وحريتهم. [illegible]

البلاد [illegible] تجاه الدول السياسية [illegible] [illegible] الحلفاء [illegible] خطاب السياسة [illegible]

بشأن استقلال البلاد العربية عامة وبلادنا السورية خاصة استنادا على عهودهم [illegible]

إن الأمة العربية في [illegible] يا صاحب السمو الأمير المعظم لم [illegible] السياسة في [illegible]

الترك [illegible] الحياة السياسية [illegible] [illegible] الحكومة التركية [illegible]

لاستقلال الشام [illegible] الحياة الحرة [illegible] [illegible]

في أن تحكم نفسها بنفسها.

وقد [illegible] العرب [illegible] جانب الحلفاء استنادا على عهودهم [illegible] [illegible] المعظم [illegible]

[illegible] السياسية التي [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] واستقلالها [illegible] [illegible] في [illegible]

سموكم العالي.

[illegible] [illegible] المعظم [illegible] سموكم [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] العرب عامة والسوريين خاصة [illegible] [illegible]

[illegible] في سبيل الوصول [illegible] والغاية المقدسة [illegible] واستقلال الشام.

[illegible] [illegible] [illegible] المؤتمر الذي [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] الذين اشتركوا معكم في سبيل استقلال البلاد [illegible]

[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] التاريخ [illegible]

ان ثقة سموكم بالظفر الذي تم للعالم ، وإذا لم يكن عسكريا فقد تلاه انقلاب سياسي قبل كل شيء لأنه
ظفر الحق على القوة والحرية على الاستعباد قد أتاح ضرورة عقدنا المؤتمر الذي اجتمع في هذه العاصمة
بعضهم ممثلي الأمة ليستطلعوا من هذه الحرية ثمرة جهادها المقدس .

وقد زادنا اطمئنانا تصريح سموكم من بعد دخولكم بالانتخابات اتخاذكم مع السياسة لم يجد مجالا
للشك في حسن نية الحلفاء سيما نحو بلادنا الجنوبية .

ان الامة يا سمو الامير تعتمد في قضيتها الاستقلالية على حقها الصريح في الحياة وثقتها بأن الحق
يؤخذ ولا يعطى كما صرحتم بذلك مرارا . على أننا كانت فيه منذ ثمرة عزمة الاستقلال التام . وتود
في الوقت نفسه أن يقيمه مع سائر الأمم المتمدنة على غاية من الود . والحق الالفة تنسى لأنه تكون
شيئا في المستقبل سياسة صلح ووئام مبنية على الثقة المتقابلة ، والنافع المتبادل التي تؤسس
باستقلالنا التام .

ان المؤتمر السوري العام ليتقدم يا سمو الامير بهذه الفكرة بعد أن ذلك العوامل ان موقف البلاد
السورية من الوجهة الاستقلالية المؤقتة التي تقضي بها الظروف الحربية قد آن أن ينتهي وفقا لآمال
البلاد وانقاذا لها من [illegible] كلها الحاضرة . فقد مضى نحو عام ونصف والبلاد لا تزال رازحة تحت
أثقال الاحتلال والتقسيم العسكري الذي أوجدها أضرارا جمة وأوقف سير أعمالها ومصالحها
الاقتصادية والادارية وزرع الريبة في نفوس ابنائها من مصيرهم فاندفع الشعب في كثير من انحاء
البلاد وقام بثورات اهلية في المناطق المحتلة مطالبا باستقلال بلاده ووحدتها .

لذلك ولما نشاهده يوميا من عزم الامة الأكيد على المطالبة بحقها ووحدتها والعمل على
الوصول الى ذلك بكل الوسائل ، واستنادا الى حقنا الطبيعي والشرعي في الحياة الحرة ودعوة تقرير
المصير وعلى دماء شهدائنا المراقة وجهادنا الطويل في هذا السبيل الشريف وعلى العهود والوعود
والمبادئ السامية التي صرح بها الحلفاء الكرام . قد اجتمعنا بصفتنا ممثلي الأمة السورية في جميع
انحاء القطر السوري تمثيلا تاما وقررنا باجماع الرأي استقلال بلادنا السورية التي منها فلسطين
بحدودها الطبيعية استقلالا تاما لا شائبة فيه مبنيا على الأساس المدني النيابي وحفظ حقوق الأقلية
ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود او محل هجرة لهم . وقد اخترنا باجماع
الرأي سموكم ملكا دستوريا على البلاد السورية نظرا لما اشتهر به من الحكمة وسداد الرأي وجميل
الصفات ولما قمتم به في ميادين الحرب والسياسة من الاعمال الخالدة في مصلحة الامة [illegible]

لحضرة صاحب الجلالة الهاشمية خليفة المسلمين ملك العرب المنقذ الاعظم مولانا الحسين الاول ايده الله نصره بمنه

في اجتماع عام عقده علماء الديار الشامية واعيانها واهل الرأي فيها قد تقرر بالاجماع مبايعة جلالتكم بالخلافة الاسلامية العظمى التي هي حق من حقوق العائلة

الطاهرة القرشية اليوم تتخص مولانا المنقذ الاعظم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله الاعظم صلى الله عليه وسلم ورفع هذا القرار لسدتكم السنية تأييداً لاجماع الامة

على الخلافة بها ومناصرتها راجين من الله تعالى ان يكلل اعمال جلالتكم بالنجاح والتوفيق وان يجعل هذه المبايعة مقدمة لحياة سعيدة للشعب الاسلامي ومستقبلا مجيدا للامة العربية

ادامكم الله ذخرا للانام والسلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

5 Nov 1915 — McMahon's H.C's ~~25 Sept~~ 24 Oct 1915

5. بسم الله الرحمن الرحيم

الى معالي الشهم الهمام ذو الأصالة والرياسة الوزير الخطير وفقه الله لمرضاته

بملء الإيناس تلقينا مرسومكم الموقر الصادر 15 ذي الحجة وأحللناه محل التبجيل وعلى مؤداه نجيب الشهامة

أولاً تسهيلاً للوفاق وخدمة للإسلامية فراراً مما يكلفها المشاق والمحن وبما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا نترك الالحاح في ادخال ولايات مرسين وأضنة في أقسام المملكة العربية وأما ولايتي حلب وبيروت وسواحلها فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فإنهما أبناء جد واحد ونستقوم فيهم مناهجنا شرع المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الإسلامي ومن بعده من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين كما للإسلام لأنفسهم بقوله لهم ما لنا وعليهم ما علينا علاوة على امتيازاتهم المذهبية وما ترون المصلحة العامة تحكم به

ثانياً حيث أن الولايات العراقية هي من أجزاء المملكة العربية المحضة بل هي مقر حكومتها على عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده وفيها قامت مدنية العرب وأول ما اختطوه من المدن والأمصار واستعملت دولهم فلها لدى العرب قاصيهم ودانيهم ذلك الشرف ومن آثارها التي لا تنسى فلا يمكننا أن نرضي الأمة العربية وأن نقنعها لترك من فحملها ذلك الذكر تسهيلاً لوفاق سيما والحال هذه التي أشرتم اليها في المادة الخامسة محفوظها وحياتها من طمعه وضرورة ما لمن جده وحياته مما نريد التوصل اليه فإنه أهم ما نحن بصدده صيانة تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كانوا الجوهر الفرد بيننا أن نرضى بترك الجهات التي هي الآن تحت الأشغال البريطانية الى مدة يسيرة البحث فيما يقبل عن قدرها دون أن يضيع حقوق الجانبين حقوه أو يخل به سيما العربية بالنسبة لأمر منفعتها ومنابعها الاقتصادية الحياتية وأن يدفع للمملكة العربية في مدة الأشغال المقدار المناسب من المال لضرورة ترتيبه كمملكة حديثة العهد رعياً مع احترامنا مع احترامنا لوفاقا تتم المنافع عنها مع مشاريع تلك الجهات ومواقع ما كان منها جوهرياً فإننا رغبتكم في ذلك

« ٣ »

فيما لو شرع بالحركة ترى فيه من الفوائد بقدر ما ترى فيه من المحاذير أوله خشية لوم الاسلاميه كما سبق ايضاحه ثانيها عن حقائق الحالة بأنا شققنا عصاها وأبدينا قوانا الفعالة امام تركيا مع معاضدتها بجميع معاني قوى جرمانيا لجهلنا عما اذا حصل وهن أحد دول الائتلاف ء وأوجبها على صلح دون الاتفاق فكيف تكون خطة بريطانيا العظمى وحلفائها بلا شك الأمة العربية امام تركيا وحلفائها معاً اذ لا يهمنا ما اذا كنا والعثمانية رأساً لرأس وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الأوجه ولا سيما عقد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير سمحة يخول للمتحالفين البحث فيه عن شؤوننا

رابعا ان الأمة العربية تعتقد يقيناً ان العثمانية عند فتح نار الحرب سيوجهون كل اعمالهم فيما يغضب العرب ويمتص حقوقهم المادية والمعنوية وذهاب شعائرهم ء واحساساتهم وخفضاً عليهم بكل معاني الاضمحلال بابقائها تحت النفوذ الألماني فهم عازمون على حربهم حتى لا يبقى لها باقية وما يرى فيها الآن من التأني فقد سبق بيان علته

خامسا متى علمت العرب ان حكومة بريطانيا حليفتهم لا تتركهم عند الصلح على انفرادهم امام تركيا وجرمانيا وانها تعاضدهم وتدافع عنهم الدفاع الفعلي فالدخول في الحرب من الساعة لا شك انه مما يوافق المصالح القومية العربية

سادسا افادتنا السابقة الصادرة بتاريخ ٢٩ شوال ١٣٣٣ تغني عن اعادة القول في المادة الثالثة والرابعة من مرسومكم هذا المؤثر في خصوصيات الهيئة الحاكمة والمشاورين والموظفين سيما وقد صرحتم يا حضرة الشهم بأنكم لا تتداخلون في امور الداخلية

سابعا وصول الجواب الصريح القطعي في اقرب زمن على ذكر اعلاه من الطلبات اذ انا استعملنا كلما يقربنا اليكم من التساهل الجدي الذي لا يراد به حقيقة جوهرية فانا نعلم ان نصيبنا من هذه الحروب اما سعادة تضمن للعرب الحياة التي تناسب تاريخهم او الاضمحلال في سبيلها ولولا ما شاهدته في عزمهم لآثرت العزلة في قلل شواهق الشرفات ولكن ابوا علي يا عزيزي اعزك الباري برضاته الا ان يقودني الى هذه المواقف ورقم غاية سلامنا بما نحبه وتريدوه وحرر ٢٧ من ذي الحجة ١٣٣٣

5 Nov ١٩١٥

CERTIFIED TRUE COPY.

[signature]
Assistant Oriental Secretary.
19.6.37.

BRITISH EMBASSY CAIRO

6.

Arabic version of letter from Sir Arthur McMahon to King Hussein dated 14.12.15 (Despatch 172 of 14.12.15)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحب الاصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي امير مكة المكرمة قبلة الاسلام والمسلمين ادامه الله في رفعة وعلاء .

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٧ الحجة ١٣٣٣ وسرني ما رايت فيه من قبولكم اخراج ولايتي مرسين واضنه من حدود البلاد العربية .

وقد تلقيت ايضا بمزيد السرور والرضى تاكيدكم ان العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الاولين . التعاليم التي تضمن حقوق كل الاديان وامتيازاتها على السواء .

هذا وفي قولكم ان العرب مستعدون ان يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الاخرين يعلم منه طبعا ان هذا يشمل جميع البلاد الداخله في حدود المملكة العربية لان حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع ان تنقض اتفاقات قد ابرمت بينها وبين اولئك الرؤساء .

اما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كلما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة . ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسالة تحتاج الى نظر دقيق . وسنخابركم بهذا الشأن مرة اخرى في الوقت المناسب .

(٧)

ان حكومة بريطانيا العظمى كما سبق فاخبرتكم مستعدة
لان تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها الى
المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب ادارة
ودية ثابتة كما ستحكمون على ان صيانة هذه المصالح كما
يجب تستلزم نظراً ادق واتم مما تسمح به الحالة
الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات.

واننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد
ان ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل نجاح اغراضكم ولكننا
في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً ان تبذلوا جهوداتكم
في جمع كلمة الشعوب العربية الى غايتنا المشتركة وان تحثوهم
على ان لا يمدوا يد المساعدة الى اعدائنا باي وجه كان. فانه
على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب
ان يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف
قوة الاتفاق بيننا وثباته.

وفي هذه الاحوال فان حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت
لي ان ابلغ دولتكم ان تكونوا على ثقة من ان بريطانيا
العظمى لا تنوي ابرام اي صلح كان الا اذا كان من ضمن
شروطه الاساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من
سلطة الالمان والاتراك.

هذا وعربوناً على صدق نيتنا ولاجل مساعدتكم في
جهوداتكم في غايتنا المشتركة فاني مرسل مع رسولكم مبلغ
عشرين الف جنيه.

واقدم في الختام عاطر التحيات القلبية وخالص التسليمات
الودية مع مراسم الاجلال والتعظيم المشمولين بروابط
الالفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولافراد
اسرتكم الكريمة مع فائق الاحترام

نائب جلالة الملك بمصر
السير آرثر هنري مكماهون

تحريراً في ٨ صفر ١٣٣٤

إن المكتوب أدناه دعوة صادرة بمكة المكرمة من جلالة الحسين بن على ملك الحجاز وحامى الحرمين الشريفين مكة والمدينة المتصل نسبه بنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو معلوم فى جميع أنحاء العالم الاسلامى - وهذه صورته كما ترى -



يعلن جلالته فى هذا المنشور حماية الدين الاسلامى من جور الاتراك الاتحاديين وحكومتهم التى تمثلها الفئة التورانية المتغلبة ويدعو كل المسلمين. الحقيقيين الى الثورة واسقاط الحكومة الظالمة الجاحدة التى تديرها الفئة التورانية المتغلبة ٠

منشور شريف من حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك المعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا

الحمد لله ولي الحق ونصيره، ومبيد الباطل ومبيره. منزل السكينة على قلوب عباده المتقين. والآخذ بنواصي اعدائه المارقين. وصلى الله على سيدنا محمد مطلع شموس الهداية. ومزيل حنادس الغواية. وعلى آله واصحابه وسلم

أما بعد فاننا لا نرتاب - والثناء للبارى جل شأنه - بأن منشوراتنا السابقة قد أتت بحمد تعالى وتيسيره بالغاية المقصودة من نشرها، فعلم من اردنا اعلامه من البشر عموماً والمسلمين خصوصاً أسباب نهضتنا ومسوّغاتها العقلية والنقلية. ومع هذا فتتميماً بمشيئته تعالى واتباعاً لحكمة ما أراده بقوله عزّ من قائل (ليزداد الذين آمنوا ايماناً ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون - الى قوله تعالى - كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء - وقوله جل اسمه - كلا والقمر والليل اذ أدبر والصبح اذا اسفر انها لاحدى الكبر) هذا من جهة ومن جهة اخرى ليزداد الذين آمنوا ايماناً بما تلناه ويتيقنوا ما نشرناه نورد لهم نبأ جناية أغرار المتغلبة التورانية في هذه المرة على الاموات والاحياء من أفراد العالم الاسلامي وهو ما تكنه صدورهم للشريعة الاسلامية المطهرة كما قلنا في السطر الخامس والعشرين من منشورنا الاول ألا وهو نهبهم كل ما تحتويه حجرة نبيهم عليه الصلاة والسلام من هداياهم وتبرّكاتهم التى أرادوا بها تكريم ساحته الطاهرة زادها الله تعظيماً وتكريماً. فان هذه الحادثة ليست احدى الكبر بل هى كل الكبر اجل كيف لا نقول انها كل الكبر واعظمها وقد أمرنا الله تبارك وتعالى باحترام ذلك المقام الاقدس بما هو أقل من ذلك بقوله جل من قائل (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي) وقوله عز وجل (ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى). فاين هذه المرتبة من الاحترام التى أمرنا بها الله تبارك وتعالى لمقام النبوة الارفع مما فعله متغلبة التورانيين من سلب تلك الساحات الطاهرة. اننا نترك الحكم في هذا الى العالم الاسلامي كما تركنا لهم أمثال هذه الاحكام الصريحة في منشوراتنا السابقة. غير اننا نزيد هنا ذكر قوله تعالى (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً) ومع ايرادنا لهذه الآية الكريمة نقول ان صلوات الله عليه وسلامه في غنى عن هذه الدنيا وما فيها. ولكننا نلفت انظار العالم الاسلامي الى التأمل في نهيه عز وجل عن رفع الصوت في تلك الحضرة الشريفة وتنائه على الذين يغضون أصواتهم هناك لينكشف لهم الامر عما في هذه الجناية المجددة من الاستخفاف الصريح المعلوم حكمه في كتب مذاهب أئمة الدين عامة

واذا كان أحد من المسلمين في ريب من هذا النبأ العظيم فعليه أن يبحث من يأتمنه ليستطلع عن هذه الحقيقة من مئات المهاجرين الى (ينبع) و(رابغ) من جيرانه صلوات الله عليه وآله وسلامه. أما نحن فلا نستغرب هذا الحادث العظيم من تلك الفئة بعد وصفها لحضرته صلوات الله عليه وسلامه بانها شر السير (والعياذ بالله تعالى) كما أشرنا الى ذلك في منشورنا الاول. ولكننا نسوق الحديث الى اخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ليروا رأيهم في هذه الفضيحة التى غشيتهم ذلها وعارها من فوقهم ومن تحتهم ومن بين أيديهم ومن خلفهم. ولا نخفى على أقصى درجات اليقين بأن الله تعالى عند ما اقتضت حكمته خزيهم والانتقام منهم خصنا وشرفنا باجرائه على ايدينا. فهذه أسيافنا تقطر من دمائهم وبنودنا غاصة بأسراهم

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وابنا بالملوك مصفدينا

فمن تأمل في وقاحة الفئة التورانية المغرورة يوم خلعهم للسلطان عبد الحميد من نهب داره وحلى ازواجه وبناته حتى اخرجوا الخرصان من آذانهن بالصورة التى يعلمها كل فرد من ساكنى الاستانة وسلبهم كل ما في تلك الدار التى لا يحق لهم ان يعترفوا بانها حسب دعواهم دار خليفة ويفترض على المسلمين احترام دور خلفائهم، وفيما اتوه ايضاً بعد ذلك من الجرأة على ما يمس بالاحكام الاسلامية كما سبق بيانه في منشوراتنا مختصراً، يرى انهم كانوا يسيرون غور الحسّ الاسلامى. فلما علموا عدم اكتراثه حتى بمعاتبته لهم ولو على لسان احدى الصحف الاسلامية الصادرة في خارج المملكة التركية تجرأوا اليوم على هذه الجناية العظمى والجرم الفظيع والحادث المريع. فليحذر العالم الاسلامي من أن تجيبوه بما هو أعظم من هذا، وليس وراء ذلك من الشر ما هو ادهى وأمر (اعاذنا الله تعالى من ذلك)

وعليه فاننا نعلن لمن بقى من مسلمى الممالك التركية خصوصاً جيشها وقواده بانهم اذا لم ينهضوا لاسقاط حكومة هؤلاء الاغرار التورانيين ويعلنوا براءتهم منهم فانا نقطع آخر أمل لنا بعودة رونق الاسلام لتلك المملكة وارتباطه بأهلها، وتكون خاتمة براءتنا معها محو اسم سلطانها من خطب الجمعة التى ابقينا اسمه فيها حتى الآن حرمة لآثار اسلافه واملاً بقيام من ينقذ بلاده من افراد الفئة التورانية المتغلبة عليها ولله الامر من قبل ومن بعد

مكة المكرمة في ١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٣٥

الحسين بن على

ثَبْتُ المَصَادِر

١- الوثائق المنشورة

British Documents on the Origins of the war: 1898-1914. ed. Gooch and Temperley, vols. V, IV (Part II) and X. London, H. M. S. O.

Documents on British Foreign Policy: 1918-1939, ed. Woodward and Buttler. First Series. London, H. M. S. O.

Foreign Relations of the United States. Washington, Government Priting Press. annually.

Documents relating to the Palestine Problem. London, Jewish Agency 1945.

Die Grosse Politik der europaïschen Mächte, Berlin, 1919. ss.

Die Europàschen Mächte und die Türkei Wàhrend des Weltkrieges, ed. E. Adamov, Moscow 1924-Dresden 1932.

Hurewitz, J. C. Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I: 1534-1914.. vol. II: 1914-1956.

Documents Diplomatiques Français. Sér. II. T, XI-XII-XIII. Sér. III, T. I-X.

Documenti diplomatici italiani, V Sér. vol, I. 1914. VI Sér. vol. I, 1918-1919. Roma.

Parlimentary Debates and British and Foreign State Papers London; H. M. S. O., 1914-1921.

Papers Relating to the Foreign Relations of the United States. The Paris Peace Conference, 1919. Washington, 1924-1947.

Ettore Rossi, Docuenti Sulle Origine E gli Sviluppi della Questione Araba (1875-1944) Roma, 1944.

Am. Giannini, Documenti Per la Storia della Pace Orientale (1915-1932) Roma. 1933.

Great Britain. Admiralty Naval Intelligence Division. Geographical Handbook. Series. **Iraq and the Persian Gulf; Palestine and Transjordan; Syria; and Western Arabia and the Red Sea.**

Oxford university press for H.M.S.O. 1943-1946.

سليمان موسى : المراسلات التاريخية : ثلاثة اجزاء ١٩١٦ - ١٩٢١ . عمان ١٩٧٥ - ١٩٧٧

الجامعة العربية : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين (١٩١٥ - ١٩٤٦) القاهرة ١٩٥٧



٢ ـ مذكرات ودراسات حول الشخصيات التاريخية

عبد الله الحسين : الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين . ١٩٧١ .
مذكرات جمال باشا : تعريب علي أحمد شكري . القاهرة ١٩٢٣ .
ساطع الحصري : مذكراتي في العراق ١٩٢١ ـ ١٩٤١ . بيروت ١٩٦٧ .
ساطع الحصري : يوم ميسلون . بيروت ١٩٦٤ .
يوسف الحكيم : سوريا والعهد الفيصلي . بيروت ١٩٦٦ .
اسعد داغر : مذكراتي على هامش القضية العربية . القاهرة ١٩٥٦ .
فايز الخصين : مذكراتي عن الثورة العربية . دمشق ١٩٥٦ .
سليمان البستاني : عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده . القاهرة ١٩١٨ .
عبد الفتاح أبو النصر اليافي : مذكرات قائد عربي . جريدة لسان الحال . بيروت
أحمد قدري : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى . دمشق ١٩٥٦ .
تحسين العسكري : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية . بغداد ١٩٣٦ .
محمد جميل بيهم : العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ . بيروت ١٩٦٨ .
نوري السعيد : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية . بغداد ١٩٤٧ .
سليمان موسى : مذكرات الامير زيد . عمان ١٩٧٦ .
علي جودت : سيرة وذكريات . بغداد ١٩٧٣ .
محمد كرد علي : المذكرات جزء أول . دمشق ١٩٤٨ .
أنور الرفاعي : جهاد نصف قرن . مذكرات سعيد الجزائري . دمشق .
حماده وظبيان : فيصل بن الحسين من المهد الى اللحد . دمشق ١٩٣٣ .

R. Aldington. **Lawrence of Arabia :** A biographical Enquiry. Chicago, 1955.

A. Barker. **Townshend of kut : A Biography of Majorà-General Sir Charles Townshend,** London, 1969.

Field Marshal Lord Birdwood, **Nuri as-Said: A Study in Arab Leadership,** London, 1959.

E. Brémond, **Le Hedjaz danz la guerre mondiale.** Paris. 1931.

B.E.C. Dugdale. **Arthur James Balfour.** First Eari of Balfour, Putnam, 1937.

B. Gardner, **Allenby.** London, 1965.

P. Graves. **The Life of Sir percy Cox.** London. 1941

SH. Leslie. **Mark Sykes; His Life and Letters.** London, 1923

D. George Lioyd. **Memoirs of the peace Conference.** English title: **The Truth About the peace Treaties.** New Haven. 1939.

R. Meinertzhagen. **Middle East Diary.** 1917-1956 N.Y. 1960

Samuel, Viscount. **Memoirs.** London, 1945.

R. Storrs. **Memoirs.** N.Y. 1937. English title: **Orientations.**

A.T.Wilson. **Loyalties. Mesopotamia,** 1914-1917; A personal and Historical Record. London. 1930.

A.T.Wilson. **Mesopotamia.** 1917-1920. A Clash of Loyalties. London 1931.

H. Young. **The independent Arab.** London. 1933.

Weizmann. **Trial and Error.** London, 1949.

***

٣ ـ دراسات خاصة

توفيق علي برو : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ القاهرة ١٩٦٠ .

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ٣ أجزاء . القاهرة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥ .

اسعد داغر : ثورة العرب . القاهرة ١٩١٦ .

جورج انطونيوس : يقظة العرب . تاريخ حركة العرب القومية . ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس . بيروت ١٩٦٦ .

حقي العظم : حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وسوريا وفلسطين . القاهرة ١٩١٢.

قيادة الجيش الرابع : ايضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المشكل بعاليه . الآستانة ١٣٣٤ هـ .

ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . بيروت ١٩٦٥ .

عزت دروزه : حول الحركة العربية الحديثة . جزء أول . صيدا ١٩٥٠ .

مجموعة من المؤلفين : دراسات في الثورة العربية . عمان ١٩٦٧ .

سليمان موسى : الحركة العربية . بيروت ١٩٧٠ .

سليمان موسى : تأسيس الامارة الاردنية ١٩٢١ ـ ١٩٢٥ . عمان ١٩٧١ .

سليمان موسى : صفحات مطوية . مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا . ١٩٢٠ ـ ١٩٢٤ . عمان ١٩٧٧ .

عبد الرحمن البزاز : العراق من الاحتلال حتى الاستقلال . بغداد ١٩٦٧ .

نبيه أمين فارس : الثورة العربية الكبرى في الميزان . عمان ١٩٦٧ .

عبد الله فهد النفيسي : دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث . دار النهار للنشر . بيروت ١٩٧٣ .

فريدريك بيك : تاريخ شرق الاردن وقبائلها . تعريب بهاء الدين طوقان . القدس ١٩٣٥ .
خيرية قاسمية : الحكومة العربية دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠ . القاهرة ١٩٧١ .
زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية . مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية . بيروت ١٩٦٨ .
زين نور الـدين زين : الصراع الـدولي في الشرق الاوسـط وولادة دولتـى سوريا ولبنان . بيروت ١٩٧١ .
عبـد العـزيز محمـد عوض : الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٩٦٤ - ١٩١٤ . القاهرة ١٩٦٩ .
اللجنة العليا لحزب اللامركزية : المؤتمر العربي الاول (عقد في باريس . حزيران ١٨ - ٢٣ . ١٩١٣) القاهرة ١٩١٣ .
مكي شبيكة : العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى . بيروت ١٩٧٠
جميل المعلوف : تركيا الجديدة وحقوق الانسان . سان باولو ١٩٠٨ .
عادل الصلح : سطور من الرسالة . تاريخ حركة استقلالية قامت في الشرق العربي سنة ١٨٧٧ . بيروت ١٩٦٦ .

L. Evans. **United States policy and the partition of Turkey 1914 - 1924.** Baitimore. 1965.

P. Guinn. **Paul British strategy and politics** 1914 to 1918. Oxford. 1965.

Albert Hourani. **Arabic Thought in the Liberal Age.** 1798 - 1939. London 1962.

El. Monroe. **Britain's Moment in the Middle East.** 1914 - 1956. London 1964.

B. Shwadran. **The Middle East Oil and Great powers** N. Y. 1955.

N. Azoury. **Le Reveil de la Nation Arabe dans l'Asie Turque.** Paris 1905.

E. Ed. Ramsaur. **The Young - Turks - Prelude to the Revolution of 1908.** Princeton, 1957.

R. **Neher - Bernheim. La Declaration Balfour. 1917. Un foyer National Juif en palestine.** Paris. 1969.

G. Lenczowski? **The Middle East in World Affairs.** N. Y. 1956.

S. I. Minerbi. **L'Italie et La Palestine.** 1914 - 1920. Paris. 1970.

F. Sayegh. **Arab Unity: Hope and Fulfilment.** N. Y. 1958.

B. Lewis. **The Emergence of modern Turkey.** London 1968.

D. Behrens- Abouseif. **Die Kopten in der ¨agyptischen Gesel - lschaft.** Freiburg im Breisgau 1972.

M. Kyriakos. **Copts and Moslems under British control.** London 1911.

S. Abou. **Le Bilinguisme Arabe - Francais au Liban.** Paris 1962.

ED. Rabbath. Unité Syrienne et devenir arabe. Paris, 1937.



٤ ـ دراسات عامة

انيس الخوري المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث . بيروت ١٩٥٢ .

الامير مصطفى الشهابي : محاضرات عن القومية العربية . القاهرة ١٩٥٩ .

ساطع الحصري : نشوء الفكرة القومية . بيروت ١٩٥٦ .

انيس صايغ : تطور المفهوم القومي عند العرب . بيروت ١٩٦١ .

منشورات العيد المئوي للجامعة الاميركية في بيروت : الفكر العربي في مائة سنة . بيروت ١٩٦٧ .

امين الريحاني : ملوك العرب . بيروت ١٩٥١ .

ناصيف أبو زيد : العصر الاموي . دمشق ١٩٢٣ .

بشارة الخوري : حقائق لبنانية . مجلد أول . درعون لبنان ١٩٦٠ .

يوسف اسعد داغر : الاصول العربية للدراسات اللبنانية . بيروت ١٩٧٢ .

محمد كردي علي : خطط الشام مجلد ٣ ـ ٥ دمشق . ١٩٢٧ ـ ١٩٣٠ .

ستيوارت ديزموند : تاريخ الشرق الاوسط الحديث . معبد جانوس . نظرة الى العربية . زهدي جار الله . بيروت ١٩٧٤ .

Foreign Office: **Syria and Palestine.** Handbook for Peoce Conference London, 1919.

B. C. Busch. **Britain - India. and the Arabs** 1914 - 1921 London 1971.

W. W. Glottlib. **Studies in Secret Diplomacy during the First World War** London, 1957.

E. Kedourie. **Britain and the Middle Eat: the vital Years:** 1914 - 1921 London, 1956.

H. Howard. **The king - Crane commission: An American Inquiry in the Middle East.** Beirut, 1963.

L. Stein. **The Balfour Declaration.** N. Y. 1961.

H. Cumming. **Franco - British Rivalry in Post - War Near - East. The decline of French Influence,** 1914-1923. London, 1931.

P. David Un. **Gouvernement Arabe à Damas, Le Congres** Syrien. Paris 1923.

K. T. Khairallah. **Le Probleme du Levant: Les regions arabes Liberees.** Paris 1919.

E. R. De Gontaut - Biron: **Comment la Franco s'est installee en Syrie.** (1918 - 1919). Paris 1922.

G. Catroux. **Deux Missions en Moyen Orient 1919 - 1922. Paris, 1958.**

J. Martet. Les silences de M. Clemenceau. Paris 1930.

PH. Ireland. **Iraq. A Study in Political development;** London 1937.

E. Jung. **Les Puissances devant la revolte Arabe.** Paris 1906- 1924.

J. Nevakivi. **Britain, France and the Arab Middle East,** 1914 - 1920 London, 1969.

O. Trumpener. **Germany and the Ottoman Empire,** 1914 - 1918. Princeton N. J. 1968.

ED. Rabbath. **La Formation Historique du Liban Politique et constitutionnel.** Essai de synthèse. Beyrouth 1973.

٥ ـ الصحف والدوريات

الهلال : القاهرة ١٨٩٢ وما بعده .

المقتطف : القاهرة ١٨٨٠ وما بعده .

الأهرام : القاهرة ١٨٧٨ وما بعده .

المنار : القاهرة ١٨٩٩ وما بعده .

لسان الحال : بيروت ١٩٠٥ وما بعده .

القبلة : مكة المكرمة ١٩١٦ وما بعده .

الدفاع : دمشق ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ .

العاصمة : دمشق ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ .

الكنانة : دمشق ١٩٢٠ .

ثَبْتُ الأعلام



- ح -

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ض ـ

ـ ط ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

ثَبْتُ الأماكِن والبُلدان

- ب -

ـ ت ـ

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ش -

ـ غ ـ

ـ ف ـ

- ق -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ ن ـ

ثَبَتُ مَواضيعِ الكِتاب

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

العنوان	الصفحة

قسطنطين زريق
الجامعة الاميركية في بيروت
بيروت ـ لبنان

بيروت في ١٩ كانون الاول ١٩٧٧

سيادة اللواء الركن مصطفى طلاس المحترم
نائب القائد العام للجيش والقوى المسلحة ، وزير الدفاع
دمشـــــق

تحية عربية وبعد ،

تلقيت بمزيد التقدير والعرفان النسخة التي تفضلتم بارسالها الي من كتابكم "الثورة العربية الكبرى" ، وقد وصلت وانا متغيب في الخارج ، ولذا تأخرت فـــي ابداء عاطفة شكري وامتناني ، فارجو قبول صادق الاعتذار عن هذا التأخـر .

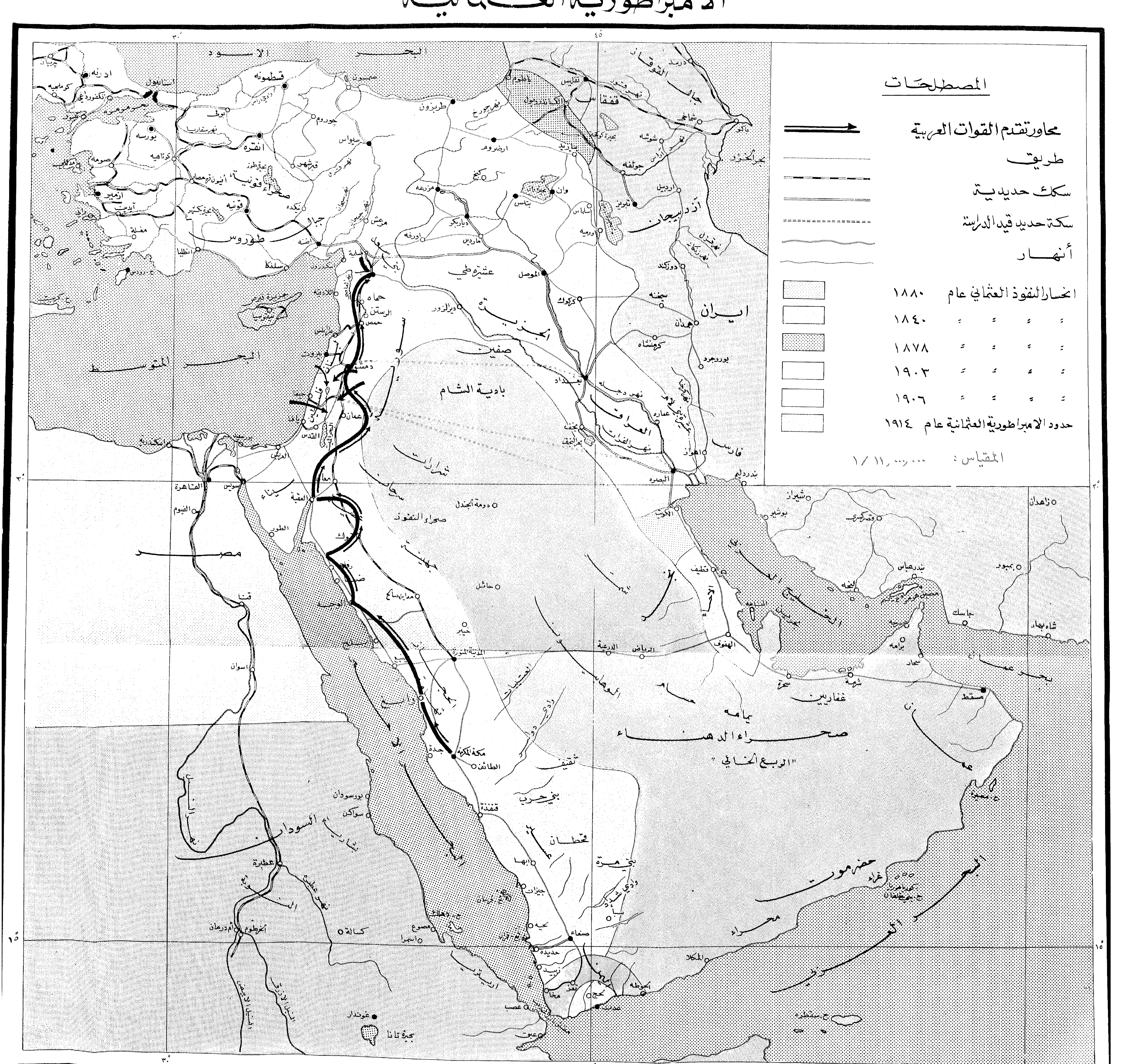
واسمحوا لي ان اعرب عن اعجابي بهذا الكتاب الذي انتدبتم نفسكم له على الرغم من مشاغلكم الكثيرة ومسؤولياتكم الضخمة . انها رسالة وفاء وولاء اخذتم علـى عاتقكم اداءها تجاه الحقيقة والتاريخ . وقد لمست لدى قراءتي الاولى للكتاب انكم احطتم بالموضوع خير احاطة وجمعتم في عرضكم له حسن التدقيق ووضوح الاسلـــوب ونفاذ العاطفة الوطنية وشمولها ، فأديتم بذلك خدمة جليلة للتاريخ القومي وللانطلاق التحرري العربي .

فارجو قبول صادق التقدير الذي لا شك يشاركني فيه قراء هذا الكتـــاب والمفيدون منه . واذا ظهرت لي اية ملاحظات على محتوياته فسوف ابادر الــــى نقلها الى سيادتكم .

مع تأكيد الشكر مقرونا بالتحية والاحترام .

قسطنطين زريق

الامبراطورية العثمانية



المؤلف

■ العماد الركن مصطفى طلاس، نائب القائد العام، وزير الدفاع في الجمهورية العربية السورية.

■ ضابط عسكري وسياسي. تخرّج من الكلية العسكرية سنة ١٩٥٤ وخدم في مختلف قطعات الجيش.

■ عُينّ بتاريخ ١٩٧٣/٨/٢٠ نائباً لرئيس المجلس العسكري الأعلى، للقوات المسلّحة السورية المصرية، ذلك المجلس الذي خطط لحرب تشرين التحريرية.

■ شارك في معظم المؤتمرات العربية السياسية والعسكرية. ويحمل ستة وعشرين وساماً وميدالية سورية وعربية وأجنبية.

■ هواياته: المطالعة وتأليف الكتب والدراسات العسكرية والتاريخية.

■ مؤلفاته: ٣٦ كتاباً.

